أنور الجندي

الفكر العربي المعاصر

في معركة التغريب والتبعية الثقافية

أنور الجندي

بسم الله الرحمن الرحيم

مطبعة الرسالة
شارع محمود العارف ٣ عابدين

توطئـــة

تعرض الفـكر العربى المعاصر فى تطوره إلى معركة ضخمة: هى معركة التغريب والتبعية الثقافية التى فرضها الاستعمار مستهدفاً تحطيم قيم الفـكر العربى والقضاء على الملامح الأصيلة لشخصيته .

وقد وقف الفـكر العربى من هذه المعركة موقف «التحدى ورد الفعل» ، ذلك أن الفـكر العربى فى مطالع يقظته بالدعوه الوهابية إنما كان يهدف إلى التحرر من التقليد والجمود فى الفـكر والاستبداد فى السياسة عن طريق تحرير الفـكر العربى من الزيوف التى دخلت إليه خلال فترة الضعف التى صرَبها العالمين العربى والاسلامى خلال الحـكم العثمانى ، غير أنه العالم العربى سرعان ما واجه أول حملة عسكرية غربيه بعد الحروب الصليبية هى الحملة الفرنسية، ومن ثم بدأت معركة الاستعمار الفرنسى البريطانى التى أدت إلى إحتلال أغلب أجزاء العالم العربى والسيطرة عليه وفرض الثقافة الغربية عليه، ومن هنا بدأت [معركة التحدى ورد الفعل] التى واجهها الفـكر العربى فى قوة وحيوية واستطاع بعد ١٤٠ عاما (١٧٩٨ – ١٩٣٩) إلى تحقيق إنتصار واضح إعترف به خصوم العرب وعبر عنه مستر چب المستشرق الانجليزى حيث قال :

«إن المسلمين الغيورين يسلـكون سبيلا وسطا ، فيأخذون خير ما فى الشرق وخير ما فى الغرب ، وبدأو ينفضون عنهم غبار العصور الوسطى، ويحمون الاسلام من قوى المدنيه الغربية المدمرة ، ولن يستطيع الغرب أن يقطعوا صلتهم بالماضى كما قطعها الأتراك ، ولما كان الاسلام حزء لا يتجزأ من الماضى فليس فى وسع المثل العربى إلا على أن يتجرد منه تجرداً تاماً » .

نعم، لقد دخل الغرب هذه المعركة بكل أسلحته ، فحاول التأثير فى التعليم والسياسة

والمجتمع واللغة العربية والصحافة والدين ، وعمد إلى السخرية بتاريخ وأمجاد الأمة العربية وخلق نظريات للقضاء على القيم والمثل العليا وخلق عملاء للثقافة الغربية ، وحاول عن طريق المستشرقين ومن تابعهم من المفكرين العرب نشر عديد من الأخطاء والشكوك والشبهات واستغلال روايات موضوعة لتصوير تاريخ العرب والاسلام واللغة العربية بصورة مزرية .

وحاول الغرب إنكار فضل العرب على الثقافة والحضارة الحديثتين وكذلك إنكار فضل مصر على حضارة اليونان ، كما عمد إلى تغليب اللغات والثقافات الغربية على الأمة العربية ، عن طريق حملات التبشير بالارساليات والمدارس وتحوير أنظمة التعليم والسيطرة على الصحافة واستعمان في ذلك بقسوة النفوذ الأجنبي والامتيازات الأجنبية ، وعمل في سبيل تحطيم القوى المعنوية للأمة العربية فرض البغاء والخمر والمخدرات . وجرى عزل جامعات الأزهر والقرويين والزيتونة عن العمل حتى يتحقق للاستعمار عن طريق التعليم المدني تنفيذ نظريات إبعاد الدين عن التعليم وخلق مناهج لا هدف لها إلا تخريج موظفين يعملون تحت إشراف رؤساء أجانب على حد قول كرومر (رأس انجليزية وأيد مصرية) .

وحرص الغرب على أن يقدم لنا من الحضارة الجوانب المتصلة بالغرائز والترف وإرضاء الأهواء بغية تحطيم المجتمع العربي وبث روح الفساد فيه وتمزيق كيانه .

وجرى الزعم بأن المدنية الغربية كل لا يتجزأ ، فأما أن تؤخذ كلها أو تترك كلها ، وكان في هذا مغالطة واضحة في التفريق بين الثقافة والحضارة والأولى تمثل القيم والمشاعر وهي لا تنقل ، والثانية تمثل الماديات والمخترعات والمكتشفات وهي ما يمكن نقله دون قيد .

وقد عمد دعاة التغريب إلى إثارة الشكوك حول الدين وحول الاسلام بالذات بحسبانه القوة الموجهة التي كانت دائما عاملا فعالا في مقاومة العبودية والاستسلام /

وقد واجه الفكر العربى هذه المعركة الخطيرة فى قوة ، وكانت نظرية (المقاومة ورد الفعل) التى حمل لواءها الفكر العربى قائمة على أساس المقاومة والتجديد والاجتهاد والمحافظة على الأسس وعدم الاستسلام . وكشف الفكر العربى طوال هذه الفترة عن حقيقة واضحة هى : أن الحضارة الإنسانية القائمة الآن ليست من عمل الأوربيين وحدهم بل هى من عمل جميع الشعوب التى شاركت فى المدنية منذ قرون ، فالورق من الصين ، والأرقام من الهند والكتابة من مصر وفينيقيه .

وقد كان لهذه المقاومة أثرها عن تحول عدد كبير من عملاء الثقافة الغربية فى العالم العربى فى الايمان بالحضارة النزعة إلى الكفر بها ومن ثم عادوا يبحثون عن وسائل النهضة على أساس من تراثنا الاسلامى والعربى .

كما كشفت الأحداث من فشل ألدعوات والنظريات الغربية فى بلادها ، وأعلن كتاب وفلاسفة غربية منصفون إن الفلسفة المادية الغربية وما استندت إليه من علومها الكونية قد عجزت عن تحقيق مجتمع سليم فى الغرب ومفهوم إنسانى واضح ، ودعا الكثيرون إلى ضرورة تطعيم الحضارة المادية بروحانية الشرق .

وكان الرأى السائد هو أن المنطقة العربية الإسلامية ليست مادية خالصة أو روحية خالصة وإنما ، تؤمن بالإمتزاج بين الروحية والمادية ، وكان من أكبر أخطاء دعوة التغريب : نقل النظريات التى طبقت على المسيحية لتطبيقها على الإسلام مع الإختلاف الواضح فى موقف كل منهما من الحضارة والعلم ، وقد كشف البحث عن أن اليقظة الفكرية العربية بدأت قبل الثورة الفرنسية والحملة الفرنسية ، وأن العرب قد استيقظوا قبل أن يوقظهم الغرب وأحسوا بحاجتهم إلى تجديد تفكيرهم وحياتهم قبل أن تغزوا حملات الغرب شواطىء بلاد العرب .

وقد انتهت هذه المعركة بفشل نظرية (التغريب الكامل) وأثبتت المعركة حيوية الشخصية العربية وقدرتها على المقاومة ومواجهة الأحداث والتطور ،

والاقتباس دون القضاء على الملامح الأصلية للشخصية العربية، وفي ضوء تجربة سابقة للعرب؛ فهم قد أخذوا في الماضي من اليونان والفرس ولم يفقدوا شخصيتهم، وتأكد الغرب بأن العرب لن يتخلوا عن ماضيهم ولن يقيموا فكرهم الحديث إلا على أساس من قيمهم العربية الاسلامية الأصيلة .

وقد أحس الاستعمار بأن المعركة أوشكت أن تنتهي بانتصار الفكر العربي فحاول بعد الحرب العالمية الثانية تجديد أسلحته وتقدم ليدخل معركة أخرى بعد عام ١٩٤٦ أشد هولا ، وقد بدأت أسلحته تزداد حدة وعنفاً وهذا هو موضوع دراستنا في المرحلة القادمة .

* * *

وبعد فهذه دراسة سريعة شاملة لتطور الفكر العربي المعاصر تصور مواجهته لمعارك التغريب والتجزئة والتبعية الثقافية في خلال المسائل الكبرى : التعليم والسياسة والمجتمع والمرأة والقومية العربية واللغة العربية والصحافة والدين .

وهي تكشف في صراحة وصدق عن جميع المعالم والتيارات والحركات التي اشتملتها في هذه المعركة ، في خلال الفترة الدقيقة الحرجة ، فترة ما بين الحربين العالميتين .

واعتقد أن هذه هي الدراسة التمهيدية للكشف عن هذه الفترة التي يمكن أن توصف بأنها كانت المحاولة لوضع أسس بناء الفكر العربي والثقافة العربية والمجتمع العربي، وكل ما يمكن أن توصف به هذه المعركة في كلمات : أن الفكر العربي لم ينهزم بالرغم من القوى والأسلحة والمؤامرات التي تجمعت للقضاء عليه . وأنه إستطاع أن يقاوم بقوة وعنف وأن يكشف عن إصالة وحيوية وقدرة على التطور والتلقي والاقتباس مع الاحتفاظ بمعالمه الأصيلة .

أنور الجندي

مواقف حاسمه

في تاريخ الفكر العربي المعاصر

(١٠٩٦ — ١٢٩١) الحروب الصليبية

١٧٤٣ ... ... الوهابية (١٨٠٣ الاستيلاء على الحجاز)

١٧٥٠ ... ... تركيا دولة الرجل المريض

١٧٨٩ ... ... الثورة الفرنسية

١٧٩٥ ... ... ثورة المصريين على ظلم الأمراء وتوقيع وثيقة حقوق الإنسان العربية

١٧٩٨ ... ... الحملة الفرنسية

١٨٣٠ ... ... احتلال فرنسا للجزائر

١٨٣٩ ... ... احتلال بريطانيا لعدن

١٨٤٢ ... ... ثورة الدروز والمارون (إعادة تنظيم لبنان ١٨٦٠)

١٨٤٣ ... ... « السنوسية » في طرابلس

١٨٥٠ ... ... نظرية دارون

١٨٥٤ ... ... إنشاء قناة السويس — افتتاحها ١٨٦٩

(١٨٦٣ — ١٨٨٠) حكم إسماعيل والديون

١٨٧١ ... ... جمال الدين الأفغاني في مصر

١٨٧٠ ... ... « المهدية » في السودان (القضاء على المهدية ١٨٩٦)

١٨٧٥ ... ... المحاكم المختلطة في مصر

١٨٧٥ ... ... شراء بريطانيا لأسهم مصر في القناة

١٨٧٦ ... ... « مدحت » والدستور العثماني الأول

١٨٧٩ ... ... خلع إسماعيل

(١٨٧٦ — ١٩٠٩) السلطان عبد الحميد (فترة حكمه)

١٨٨١ ... ... احتلال تونس

١٨٨٢ ... ... الثورة العرابية في مصر والاحتلال البريطاني

١٨٨٣ ... ... « نظرية ماركس »

١٨٩٥ ... ... وزارة مصطفى فهمي « تصفية مصر »

١٨٩٨ ... ... قاسم أمين يعلن دعوة تحرير المرأة

١٩٠٠ ... ... « نظرية فرويد »

١٩٠٤ ... ... الاتفاق الودى بين بريطانيا وفرنسا
١٩٠٦ ... ... دنشواى — وخروج كرومر (١٨٨١—١٩٠٧)
١٩٠٨ ... ... صدور الدستور العثمانى
١٩٠٨ ... ... إنشاء « الجامعة المصرية »
١٩٠٩ ... ... خلع عبد الحميد
١٩١١ ... ... احتلال ليبيا
١٩١٢ ... ... مراكش
١٩١٣ ... ... مؤتمر باريس « أول مؤتمر عربى »
١٩١٤ ... ... الحرب العالمية الأولى وإعلان الحماية على مصر (١٩١٤ — ١٩١٨)
١٩١٦ ... ... الثورة العربية الأولى (الشريف حسين)
١٩١٧ ... ... الثورة الشيوعية فى روسيا وخلع القيصر
١٩١٧ ... ... احتلال العراق
١٩١٧ ... ... وعد بلفور
١٩١٩ ... ... ثورة مصر
١٩١٩ ... ... مظاهرة المرأة (مارس ١٩١٩)
١٩٢٠ ... ... ثورة العراق
١٩٢٠ ... ... إنشاء « بنك مصر »
١٩٢١ ... ... مصطفى كمال يهزم اليونانيين
١٩٢٢ ... ... اكتشاف قبر « توت عنخ آمون »
١٩٢٣ ... ... إعلان الجمهورية التركية وإلغاء السلطنة
١٩٢٣ ... ... بدء الفاشية والنازية فى أوربا (إيطاليا وألمانيا)
١٩٢٣ ... ... إنشاء الاتحاد النسائى
١٩٢٤ ... ... إلغاء الخلافة (٣ مارس ١٩٢٤)
١٩٢٥ ... ... ثورة سوريا
١٩٢٦ ... ... تولى السعوديين حكم الحجاز
١٩٢٨ ... ... الحروف اللاتينية بدلا من العربية فى تركيا
١٩٣٦ ... ... معاهدة (١٩٣٦) فى مصر
١٩٣٩ .. ... اندلاع الحرب العالمية الثانية (انتهت ١٩٤٥)

بسم الله الرحمن الرحيم

مدخل

تأثر الفكر العربى المعاصر بعوامل متعددة كانت بعيدة المدى فى يقظته وتطوره ويمكن إجمال هذه العوامل فى عبارة واحدة هى «التحدى والاستجابة» أو التحدى ورد الفعل .

فقد كان الفكر العربى إلى ما قبل اصطدامه بالغرب الزاحف يعيش حياة متينة يغلب عليها الركود والضعف والانطواء .

وكان هـذا طبيعياً بالنسبة للجمود الذى خيم على العالم الإسلامى كله نتيجة للمرحلة التى كانت تمر بها الدولة العثمانية فى خلال القرون الثلاثة الأخيرة بعد أن دخلت هذه الدولة مرحلة الضعف الذى وصفت فيه « بالرجل المريض » وهى نفس القرون الثلاثة التى استيقظت فيها أوربا ودخلت خلالها معركة النهضة التى سيطرت فيها على العلم وانفصلت عن الكنيسة وتحررت من المسيحية ودعت إلى العلم التجريبى ونظريات المادية والجنس / ثم كانت الثورة الفرنسية (١٧٨٩) التى اعتبرتها أوربا قمة انتصاراتها فى مجال الحرية وفى خلال ذلك ظهرت عوامل الاحتكاك بين الشرق والغرب التى بدأت بالاستكشاف ثم تطورت إلى التجارة إلى الاستعمار .

وكان هذا الاحتكاك هو المعركة الثانية بين الشرق والغرب بعد مضى أربعة قرون على نهاية الحروب الصليبية (١٢٩١) وقد كانت الحملة الفرنسية على مصر هى أول حركة استعمارية للعالم العربى (١٧٩٨) .

كان لهذا الاصطدام بين العالم العربى وأوربا « بداية الاستجابة للتحدى » . بل يمكن القول بأن اليقظة الفكرية العربية بدأت قبل الحملة الفرنسية بأكثر من أربعين عاماً، عندما بدأت أول حركة فكرية عربية إسلامية هى « الوهابية » عام ١٧٥٧ كرد فعل على انهيار تركيا العثمانية وجمودها ومقاومة للجمود الذى ران على التفكير العربى الإسلامى .

هنا بدأت هذه المعركة التى نطلق عليها « التحدى والاستجابة » ؛ كانت الحملة الفرنسية فى أوائل القرن التاسع عشر هى بدء هذه المعركة الضخمة التى ماتزال ممتدة حتى اليوم : معركة التحدى ورد الفعل .

كانت الحضارة التى حملها الاستعمار معه باهرة مثيرة فتحت الأمة العربية عينيها عليها ، فاضطربت فترة حيث التقت بالضوء بعد الظلام الطويل ثم لم تلبث أن واجهتها ولم تقبلها الا بتحفظات .

وقد حمل الاستعمار معه حضارته وثقافته إلى العالم العربى كسلاح من أسلحة الغزو والاحتلال ، بل لعلها قمة الأسلحة الضخمة البعيدة المدى بعد أسلحة الغزو العسكرى ، إذ كانت الأداة التى حرص الاستعمار على استعمالها لتأكيد الغزو ولإقرار بقائه فى المناطق التى احتلها ؛ فقد رسم الاستعمار خطته على أساس أن يقضى على الحياة الفكرية العربية الاسلامية بالغزو الفكرى والثقافى الغربى ومحو اللغة والدين وإحلال لغة أخرى ودين آخر وثقافة أخرى مكانها ؛ مما يمكن له — أى الاستعمار — بالبقاء الطويل ، ومما يحوّل الغزو إلى عملية إدماج كاملة وتجنيس لأهل المنطقة العربية ، فقد كان حريصا على أن يمحو قومية العرب محواً نهائيا . وقد كان الاستعمار الفرنسى والانجليزى ، — وقد تقاسما المنطقة — (بالإضافة إلى الاستعمار الأسبانى والايطالى) حريصا على أن يحطم الشخصية العربية

ويقضى على القومية العربية أيضا أو يمحوها ، كانت لمحاولة الاستعمار الفرنسى فى الجزائر ثم محاولة الاستعمار الايطالى فى ليبيا دلالة واضحة على ذلك الاتجاه الذى تحطم من بعد ، على أثر المقاومة الضخمة التى واجهت بها الأمة العربية هذا الاستعمار .

ونحن فى هذا البحث إنما يعنينا الغزو الفكرى والثقافى وأثره فى تطور الفكر العربى المعاصر .

كان هذا الفكر العربى فكراً إسلاميا دينيا خالصا ، ثم تطور مع انتفاضة اليقظة إلى فكر قومى ووطنى وسياسى يقوم على أساس التحرر من الاستبداد العثمانى والاستعمار الغربى .

وقد بدأت حركة المقاومة السياسية للاستعمار ، منذ اليوم الأول للاحتلال وفى نفس الوقت بدأت حركة رد الفعل والاستجابة فى ميدان الفكر أيضا : وامتدت المقاومة ورد الفعل إلى عدة ميادين فى وقت واحد .

وكان أبلغ ما تدل عليه هو قوة الشخصية العربية وقدرتها على المقاومة وصلابتها واعتدادها ، ووقوفها موقف الرد على التحدى .

لقد حاول الاستعمار أن يستغل ضعف العالم الإسلامى والأمة العربية فكريا واجتماعيا وسياسيا للسيطرة عليها ، ولكن المنطقة استطاعت أن تواجه هذه المعركة فى يقظة وقوة ، فمضى الفكر العربى الاسلامى يرفع عن نفسه إصر الجمود ويستكشف معدنه الأصيل المخبوء تحت ضباب الجمود الذى ران على الشرق .

كانت مهمة الفكر العربى فى هذه الفترة : تجديد الدين ، وكشف حقيقة المعالم الأساسية للثقافة العربية والتراث الاسلامى ، وفتح باب الاجتهاد . ومواجهة أفكار الغرب وذلك بالنظر فيها وتقبل بعضها ومعارضة بعضها الآخر

والرد على ما وجهه الغرب إلى العرب والمسلمين من اتهامات ، ونقض النظريات الفكرية الاستعمارية . موجة الفكر الغربي

كما واجه الفكر العربي حملات التبشير والاستشراق والتغريب ، فلم يقف العالم العربي إزاء الحضارة الغربية الغازية موقف الجمود ، بل سرعان ما فصل بين الحضارة ، والثقافة . موقف من الحضارة موقف القبول لوسائلها وأدواتها وإن عارض الجانب الإباحي منها

أما من ناحية الثقافة فقد وقف منها موقف الحذر ، فرفض مذاهبها التي تتعارض مع روحه ومقوماته ، وقبل أساليبها في البحث ، فجدد بها ثقافته وتاريخه وتراثه .

ولقد كانت المعركة بين الفكر العربي ، والفكر الغربي طويلة المدى عميقة الجذور وهي ما تزال مستمرة لما تتوقف ، خلال مائة عام من اندلاعها ؛ ولكن على مستوى آخر غير مستواها الأول ، فقد كان الاستعمار يطمع بقوته وأسلحته وسلطانه وجيوش احتلاله أن يفرض ثقافته وحضارته فرضاً كاملا ، وأن يمسخ الثقافة العربية والفكر العربي الاسلامي مسخا نهائيا ، ليقضي على أصوله وجذوره وتراثه ومعالمه الأولى ، غير أن المقاومة القادرة على رد التحدي حالت دون سقوط الفكر العربي ، بل ردت عليه قوته وحياته بما استفاد من تبادل القذائف في المعركة ، فان الفكر العربي لم يلبث أن استيقظ ونفض عنه غبار الجمود وحاول أن ينطلق بقوة تعوض ما فاته خلال الاغفاءة الطويلة التي قضاها مقيدا بسلاسل الجمود الذي سقطت في هوته الامبراطورية العثمانية ، فعمل في ميادين البحث والتجديد والاقتباس والنقل والترجمة للدفاع عن كيانه وهذا العمل في جملته يهدف إلى :

× المحافظة على الأسس الأصلية للشخصية

- التقريب بين وجهات النظر .
- الاستفادة من الجديد والانتفاع به .
- صقل التراث القديم وإبرازه فى صورة عصرية .
- تصحيح الاخطاء المتعمدة وغير المتعمدة .
- الانتفاع بأسلحة الغزو لرد الغزو نفسه .

لقد كانت تيارات الغزو قوية مدعمة بأسلحة مختلفة . منها جيش الاحتلال وسلطان الاستعمار ، والأمراء ، والحكام ، والعملاء من المفكرين والسياسيين ولم يكن يقف فى وجهها أو ردها إلا صلابة القوى الشعبية العميقة الايمان بشخصيتها وتراثها وقيمتها ، لذلك قام معسكر قوى للدفاع عن الكيان الفكرى العربى الإسلامى ، مهما اتهم هذا الكيان « بالمحافظة » فانه كان الحاجز الضخم الذى رد « موجه الادماج » وحال دون بلوغ الاستعمار غايته فى القضاء على مقومات الفكر العربى ، مما اضطر معه أن يعدل من خططه بعد أن تأكد من أن محاولة القضاء النهائى على كيان الفكر العربى ومقوماته ، هو أمر جد مستحيل .

ولما فشلت معركة « الادماج » بدأت معركة « التغريب » وهى معركة أشد قوة لأنها معركة غير مكشوفة ؛ ولكنها خفية تسرى فى برامج التعليم ومناهج البحث ويسيطر عليها الاستعمار من عدة نواحى ؛ من ناحية الصحيفة والمدرسة ، والكتاب ، والسينما ، والاذاعة .

وهذه هى المعركة الضخمة التى خاضها الفكر العربى وواجهها فى صلابة ، وهى موضع دراستنا هنا فى مجال مرحلتها الأولى حتى نهاية الحرب العالمية الثانية (١٩٤٤) حيث بدأت معركة أخرى بعد الحرب العالمية الثانية أشد عنفا وأخطر قتالا وسيكون مجالها دراسة أخرى .

العرب

بين الامبراطورية العثمانية وتركيا الكمالية

كى نستطيع أن نصور معالم الفكر العربى المعاصر وتياراته فى هذه الفترة علينا أن نستعرض الحياة السياسية للعالم العربى فى اتصالها بالدولة العثمانية : دولة الخلافة الإسلامية التى سيطرت على العالم العربى والاسلامى أكثر من أربعة قرون ، والتى كان العالم العربى جزءاً منها حتى أوائل الحرب العالمية الأولى ١٩١٧ .

ولقد ارتبط تاريخ العالم العربى بتركيا أمداً طويلا حتى بعد أن انفصل عنها ، عندما انتهت الدولة العثمانية وسقطت الخلافة وقامت الجمهورية التركية ، فقد ظل العالم العربى يتطلع إلى هذا الجزء من العالم الإسلامى ، الذى ارتبط به برباط الخلافة الاسلامية والتبعية للامبراطورية العثمانية ، ثم ظل مشدود النظر إليها وهى تنهزم فى الحرب العالمية الأولى ثم تجارب اليونان وتتحرر ؛ وتنتقل إلى دولة عصرية علمانية تنفصل عن الشرق والإسلام وتتجه إلى الغرب ، وتلغى النظم القديمة وتلغى اللغة وتكتب اللاتينية من الشمال وتحرر المرأة وتفرض القبعة .

ولقد كان لتركيا فى المرحلتين أثرها فى العالم العربى . فى المرحلة الأولى وهى تسيطر باسم الخلافة الإسـلامية عندما مرت بمرحلة الجمود والضعف ، ثم عندما بدأت تستيقظ فى حركة (مدحت) لتقيم النظام الدستورى ، ثم عند ماعادت تسقط مرة أخرى فى هوة الاستبداد الحميدى أربعـون عاما ، ثم وهى تعود إلى اليقظة وتعلن الدستور وتُسقط عبد الحميد ، وتواجه العالم العربى بحملة نحو

وابادة لكيانه فى ظل الدعوة الطورانية التى قام بها رجال الاتحاد والترقى الذين تأثروا بالنزعة القومية التى ظهرت فى أوربا فى هذه الفترة ، عندئذ بدأت بين العرب والعثمانيين معركة «المصير» ، حيث أحس العرب بالمؤامرة التى تدبر للقضاء على كيانهم ولغتهم محاولة لتتريكهم وصهرهم مع العناصر المختلفة ضمن إطار الأمبراطورية العثمانية .

هنالك وقعت المعركة بين العرب والعثمانيين ، وانتهت بانفصال العرب عنهم .

وفى المرحلة الثانية : عندما انهزمت تركيا العثمانية فى الحرب العالمية الأولى . وسقطت فى يد الحلفاء ، وتبع ذلك قيام مصطفى كامل بالحركة الوطنية التى حررت تركيا من الاحتلال ثم عندما تحولت الحركة إلى نظام يقضى على الخلافة والسلطنة ويقيم الجمهورية وعندما الغيت الخلافة وقبلت تركيا الاندماج الكامل فى النظم الغربية وانفصلت انفصالا كاملا عن الشرق والاسلام والعرب فى اللغة والفكر والسياسة والاجتماع .

فى هذه المرحلة أيضا ، كان العرب مشدودى النظر نحو تركيا . وقد كان لهذا التطور الحضارى والثقافى أثره فى العالم العربى ، بل وفى العالم الإسلامى أيضاً ، حيث تأثرت به إيران وأفغانستان .

بل لعلنا لا نعدو الحق إذا قلنا ، «إن حركة التغريب» فى العالم العربى إنما تطورت وتعمقت على إثر حركة التغريب التى قامت بها تركيا الحديثة التى رأت أن الوسيلة المثلى للنهضة والحرية هى قبول الحضارة الغربية قبولا كاملا .

وقد تم هذا التطور بقوة السلطة الحاكمة وبسلطان القانون المفروض ، ولم يتم بالاقناع والتطور ، لذلك لم يكن عميق الجذور وسرعان ما اعتوره الاضطراب ولم يعدو طوال عشرين عاما ما بين (١٩٢٤ ـ ١٩٤٤) إن يكون إلا قشرة ظاهرية ، مما حمل الباحثين على القول بأن تركيا فى خلال هذه الفترة كانت تعانى آلام المخاض .

وقد ظهرت دلائل تؤكد ذلك فيما بعد ، حين اضطرت الحكومة التركية إلى إعادة الكثير من معالم الحياة الفكرية والروحية القديمة بعد أن ثبت أن القضاء عليها كان غير يسير .

تركيا والعرب

سيطرت تركيا على العالم العربي في خلال القرن ١٥١٦ عندما انهزمت القوات العربية والمصرية في مرج دابق (قرب حلب) وحملت تركيا لواء الخلافة الإسلامية ١٥١٧ عندما أعلن السلطان سليم استخلاف نفسه ، وتسلم مفاتيح الكعبة .

وكانت الدولة العثمانية في ذلك التاريخ قد سيطرت على العالم العربي كله غير أنها لم تلبث أن بلغت مرحلة الركود (في نهاية القرن الثامن عشر) حيث بدأت هزائمها . وانفصال أجزاؤها الفارسية والأوربية .

وفي خلال القرن التاسع عشر واجهت تركيا مرحلة جديدة دقيقة على أثر اصطدامها بالغرب وانتزاع النمسا وأروسيا عدداً من ممتلكاتها . وظهور الحركة الوهابية في الجزيرة العربية وحركة محمد على في مصر ، وتولى السلطان عبد الحميد الخلافة وبزوغ فجر حركة الإصلاح الدستورية في تركيا بقيادة جمعية الاتحاد والترق ، وزعامة «مدحت» الذي وضع الدستور ثم لم يلبث عبدالحميد أن قضى على الحركة وقائدها .

وقبل أن يبزغ القرن التاسع عشر كان نابليون قد زحف إلى الشرق باسطوله واحتل مصر ، وسار إلى عكا محاولا فتحها وأثارت حركته مطامع بريطانيا حيث تم بدأ صراع طويل المدى منذ ذلك التاريخ بين بريطانيا وفرنسا ، كان له أثره السياسي البعيد المدى وأثره الفكري التي مازال قائما إلى الآن .

١ امتداد الحروب الصليبية .
مرحلتها الثانية .

(ولقد كانت الحملة الفرنسية (١٧٩٨) نقطة الالتقاء بين الشرق والغرب فى العصر الحديث وهى المرحلة الثانية للحروب الصليبية .

وقد امتد هذا الدور حتى عام ١٩١٧ عندما وضعت فرنسا وبريطانيا يدها على العالم العربى كله وأعلن اللورد اللنبى فى القدس انتهاء الحروب الصليبية .

وقد كشفت هذه الحملة عن اتجاه أوربا نحو الشرق الإسلامى ، والأمة العربية ، وكانت نقطة البدء ، فقد توالت بعد ذلك حملات الاستعمار وامتدت ، حتى بعد أن جلت الحملة الفرنسية عن مصر عام ١٨٠١ ، واجهت المنطقة العربية حملة بريطانية عام ١٨٠٧ ولم يمض على ذلك أكثر من ثلاثة وعشرين عاما حتى احتلت فرنسا الجزائر عام ١٨٣٠ وتبعتها بريطانيا عام ١٨٨٢ باحتلال مصر ، ثم توالت مراحل الاحتلال .)

ولقد واجهت تركيا هذه المرحلة بأعصاب مضطربة ، فقد كانت مرحلة القضاء بالتجزئة على جسد الرجل المريض ، لا من ناحية البلاد العربية وحدها ، بل بالنسبة للأجزاء الأوربية من الامبراطورية العثمانية أيضا ، وكانت الحركة الوهابية التى بدأت عام ١٧٥٧ ، واستطاعت عام ١٨٠٣ أن تستولى على الحجاز ، أن تأخذ مداها من القوة كحركة ذات هدف مذهبى فكرى بعيد المدى فى تلك المرحلة التى غلب عليها الجمود ، وتحولت فيها الخلافة إلى إمارة أرستقراطية تحمل صورة الاستبداد . وقد أحاطتها هالة من علماء الدين الذين يفتون فى ظل أهداف السلطان المستبد مما جعل الخليفة (ظل الله فى الأرض) ، تطلق عليه ألفاظ القداسة وعبارات الجلال وقد بعد المدى بين الحكم الذى يقوم على أساسه الملك فى دولة الخلافة العثمانية ، وبين الحكم الإسلامى القائم على الشورى والعدل والحرية . وقد استمدت لهذا الاستبداد القواعد من القرآن والحديث والسنة والإجماع والقياس مما يؤكد للخليفة (السلطان الكامل والطاعة المطلقة) ، فضلا عما أعلنه العلماء من أن باب الاجتهاد

قد أوصد، وما اتصل بهذا من غلبة روح التواكل والخضوع والضعف والاستسلام، تحت اسم الانعزالية والتصوف والزهد، وقد أدى هذا إلى الانصراف عن التوحيد الخالص والالتجاء إلى تأليه الأحياء وتقديس الأموات وسيطرة هذه الأفكار على الأئمة والعلماء والمفكرين، وامتدادها قرونا متوالية إلى أن أصبحت هذه القشور هي الدين وانطوت المعانى الأصيلة للدين تحت هذا الغلاف.

كان هذا الجمود والضعف الذي أصاب الشرق الإسلامي، والعالم العربي مدعاة لأن تنطلق دعوة المقاومة والإصلاح وتندلع في نفوس المصلحين شرارة الغيرة: هنالك بدأت طلائع دعوتين: دعوة إلى مقاومة زيف الدين وقشوره.

ودعوة إلى مقاومة استبداد السلاطين والأمراء.

الوهابيـة

أما الدعوة الأولى، فحمل لواءها محمد بن عبدالوهاب، وقد تحولت إلى حركة فدولة كانت بعيدة المدى في العالم العربي، مؤثرة أكبر الأثر في مختلف طوائف المسلمين (أهل السنة والشيعة والمتصوفة جميعا).

ولم تكن «الدعوة الوهابية» دعوة دينية خالصة وإنما كانت «حركة سياسية» ذات مذهب فكري؛ لذلك اهتزت لها دولة الخلافة العثمانية، واهتز لها الغرب الواقف وراء سرير الرجل المريض، ينتظر اليوم الذي يقتسم فيه امبراطوريته الواسعة، لذلك كان لابد من محاولة تأتي عن طريق تركيا العثمانية الخائفة من هذا الخطر الذي كان يزحف إليها من أطراف العراق، ويهاجم المواقع المقدسة فيها، وخاصة بعد أن تحقق لها - أي الوهابية - احتلال الحجاز وسيطرتها على (الجزيرة العربية): إن لم يكن عسكريا فسياسيا وفكريا.

وكانت مصر إذ ذاك قد تحررت من الحملة الفرنسية بقوتها المعنوية

الشعبية التى حطمت هذه الحملة ، والتى وجدت لها قيادة فعالة استطاعت ان ترد من قبل ظلم المماليك وتفرض عليهم توقيع وثيقة حقوق الإنسان (١٧٩٥) ثم استطاعت أن تنزع الحاكم التركى (خورشيد) من منصبه فى القلعة باسم الشعب على نحو يدل على مدى اليقظة والفهم والإيمان بالحق الشرعى فى خلع الحاكم الفاسد .. وقد جاء هذا نتيجة للإيمان بالتراث العربى الإسلامى ، وليس نقلا عن الحضارة الأوربية التى لم تكن بعد ، قد وضعت موضع الاقتباس فى العالم العربى . وقد اتسع هذا الاتجاه فيما بعد حينما بدأت دعوة جمال الدين إلى مقاومة استبداد الملوك . واتجهت فعلا إلى مقاومة شاه إيران ، وخديو مصر ، والخليفة العثمانى .

وقد تطور هذا الاتجاه إلى عمـــل تقريرى مدروس حين كتب عبد الرحمن الكواكبى كتابه « طبائع الاستبداد » إلى كتابات مختلفة ظهرت فى مصر ضد أسرة محمد على وما نظم من شعر ضد الخديويين .

القوة الجديدة فى مصر

وفى مصر بدأت قوة جديدة بقيادة محمد على وابراهيم بلغت ذروتها من القوة ، وأخذت بها تركيا ، كما أخذت بها أوربا التى كانت تخشى أى قوة جديدة شابة يمكن أن تفرض سلطانها على المنطقة ؛

لذلك ضربت القوتان بعضهما ببعض فسلطت محمد على على الوهابية فانهزمت (١٨١٦) ثم انهزم محمد على بعد ذلك بأقل من عشر سنوات حينما حطم الغرب مجتمعاً أسطوله فى موقعة نفارين (مايو ١٨٢٥) مما انتهى بامبراطوريته التى اجتاحت الامبراطورية العثمانية وكادت تستولى عليها ، والتى امتدت إلى الجزيرة العربية - عام ١٨٤٠ إلى ان تتقلص فى حدود مصر وحدها ، وبذلك قضى على الحركتين : الحركة الوهابية ذات الطابع العربى السياسى المذهبى ، والحركة

التى قام بها محمد على والتى لم يكن لها طابع سياسى معين ، حيث لم تكن تحمل اسم العرب وإن كانت قد حققت انتصاراتها بواسطة قوات من العرب .

مدحت والإصلاح الدستورى

واتصلت بهذه الهزيمة للحركتين معركة أخرى ؛ كان الاستعمار البريطانى الرابض خلف جثمان الرجل المريض متربصا للانقضاض على الإمبراطورية العثمانية مما جعله يبث فتنة الموارنة والدروز فى لبنان ، هذه الفتنة التى وصلت إلى نهايتها ١٨٦٠ وذلك بقيام كيان خاص للبنان مشرف عليه من الدول الغربية (بريطانيا وفرنسا) .

هنالك بدأت تركيا تتيقظ وتواجه التحدى الغربى الذى كان قد تغلغل فى الامبراطورية العثمانية بصورة واسعة وفرض سلطانا وامتيازات فى كل قطر من أقطارها عن طريق القناصل الذين كانوا يفرضون حمايتهم على أبناء جنسهم ليفتحوا لهم طريق السيطرة الاقتصادية والفكرية والاجتماعية مما سيكون له أبعد الأثر فى المرحلة التالية . هنالك ظهرت حركة اصلاحية فى الدولة العثمانية : باسم جمعية الاتحاد والترقى التى تأسست كنظام سرى فى المملكة العثمانية وقد وصلت هذه الحركة إلى قمتها باعلان الدستور العثمانى الأول رسمياً فى (٢٣ ديسمبر ١٨٧٦) حيث اجتمع المجلس العثمانى لأول مرة مارس ١٨٧٧ وتولى (مدحت) منصب الصدارة العظمى (رئيس الوزراء) غير أن هذه الحركة التقدمية لم تستمر وانحل المجلس النيابى العثمانى بعد عام وبعض العام (١٤ فبراير ١٨٧٨) .

استبداد عبد الحميد

وانتطر عبد الحميد بعد ذلك ثلاثين عاما حين اضطر إلى إعادة الدستور (عام ١٩٠٨) وكان ذلك إيذانا بنهاية حكمه فى العام التالى (١٩٠٩) بعد أن ترك بصمات لا تمحى فى تاريخ العالم الإسلامى والأمة العربية ، كانت مجال معركة ضخمة حول الاستبداد والحرية ، خاضها كتاب وزعماء وكانت دمشق والقاهرة مجالا ضخما لها .

وقد وجد عبد الحميد خصوما ووجد مدافعين : اتهمه الفريق الأول بالاستبداد ورد عنه الآخرون مادية الاتهام بمواقف متعددة . ولعل أبرز ما كان موضع الدفاع عنه فكرة « الجامعة الاسلامية » التى حمل لواءها وحاول أن يعيد تنظيم الدولة العثمانية على أساسها ..

تركيا بعد إلغاء الخلافة

ولقد كانت دعوة الاتحاديين التى عاشت فى جماعات سرية منذ بدأت واستعملت فى دعوة (مدحت) إلى الدستور ، قد حققت انتصارها بإعلان الدستور عام ١٩٠٨ ، هذا الاعلان الذى كان بعيد الأثر فى تركيا وفى العالم العربى بالذات ، حيث أطلق الحريات الصحفية وحريات الاجتماع والخطابة ولكن ذلك لم يلبث أن تحول إلى رِدَّة ، قضت على عبد الحميد وأنهت حكمه ، وأتاحت للاتحاديين إعلان مذهبهم فى وضوح ، هذا المذهب القومى الذى حمل لواء الجامعة الطورانية بدلا من الجامعة الاسلامية (مشروع عبد الحميد) ، والذى كان يهدف إلى تتريك العناصر ، فى الامبراطورية العثمانية ، وقد واجه العرب هذا التيار فى قوة وقاوموه مقاومة فعالة وقدموا له الضحايا والشهداء ، وانتهى الأمر بهم إلى الدعوة إلى اللامركزية ، ثم إلى قيام كيان عربى خالص هو ماعرف من بعد بالقومية العربية وكانت معركة العرب حين أعلنوا ثورتهم الأولى بعد اتفاق الشريف حسين مع الانجليز ، وكان تحرر المنطقة العربية من الأتراك العثمانيين معناه إحتلالها بقوات الحلفاء الانجليز والفرنسيين ، وسقوط الأجزاء الباقية من هذه المنطقة تحت الاحتلال الانجليزى والفرنسى ، وذلك بعد أن سقطت الأجزاء الأخرى خلال الفترة من ١٨٣٠ إلى ١٩١٧ وهو التاريخ الذى انتهت صلة العرب فيه بحكم الأتراك العثمانيين .

ولكن هل حول العرب بصرهم عن تركيا الحديثة التى أقامها مصطفى كمال بعد هزيمة تركيا العثمانية فى الحرب العالمية وإحتلال اليونان لأجزاء منها ، لقد ظل

العرب يتطلعون إلى تركيا الكمالية الحديثه فى مزيج عجيب من العواطف قوامها الدهشة والرهبة والإعجاب ، فقد أدهشهم قدرة الأتراك على التحرر وأعجبوا بقيام دولتهم ، ولكنهم اضطربوا إزاء تحول تركيا من اللون الإسلامى إلى اللون الغربى ، وهو تحول خطير ، من أقصى اليمين إلى أقصى الشمال ، واضطربوا أشد الاضطراب لإلغاء الأتراك للخلافه واللغة العربية وتحرير المرأة وإستعمال القبعة واتجاه الدولة إلى العلمانية .

وفى خلال هذه الفترة التى امتدت من عام ١٩٢٣ إلى ١٩٣٧ وهو العام الذى عدل فيه الدستور التركى بإلغاء مادة دين الدولة ، كان العالم العربى كله يتطلع إلى تركيا ؛ وقد تأثرت مصر ومختلف أقطار العالم العربى هذه الخطوات التجديدية ودارت معارك فكريه ضخمة ، حول القبعة والطربوش والكتابة اللاتينية والإسلام فى مجال الحكم وتجديد الدين وترجمة القرآن وتحرير المرأة وإصلاح المجتمع وتطوير التعليم واللغة .

حدث هذا بينما كان الاستعمار يستغل حركة تركيا — التى تحولت من الشرق إلى الغرب بسلطان القانون المفروض وليس بالاقناع والتطور — فى معركة الغزو الثقافى التى تمت على نطاق واسع فى العالم العربى كله .

العرب والاستعمار

[ماذا كان أثر الاستعمار فى العالم العربى وما مدى هذا الأثر من الناحيه الفكرية] .

لقد بدأ الاستعمار فى العالم العربى بالحملة الفرنسية على مصر التى حفزت أسطول بريطانيا إلى التحرك للبحث عن الأسطول الفرنسى . وكان هذا علامة الصراع الفرنسى البريطانى ، الذى اتصل فى العالم العربى منذ ١٨٩٨ حتى ١٩١٧ حينما اقتسمت بريطانيا وفرنسا بمعاهدة (سايكس بيكو) العالم العربى : أى أنه فى خلال قرن وربع قرن ظلت المعركة محتدمة الأوار ثم إنها استمرت بعد ذلك فى الميادين الثقافية والاقتصادية والاجتماعية بالرغم من الاتفاق الودى الذى تم توقيعه بينهما عام ١٩٠٤ وبه أطلقت كل منهما يد الأخرى فى مصر ، ومراكش .

كانت بريطانيا تسيطر على مصر والعراق وفلسطين والأردن ، بينما تسيطر فرنسا على سوريا ولبنان ومراكش وتونس والجزائر . وكان الاستعمار البريطانى والفرنسى متباين الوسائل والأساليب فى كل من الأقطار المحتلة، غير أنه كان هناك شبه اتفاق غير مكتوب بينهما يلتقى فى مفهوم واحد هو [أن الشرق كله هو منطقه نفوذ وتوسع للغرب ، وأن سكان أفريقيا وآسيا ، فى درجة أقل من درجة أهل أوربا ، وأنه لابد أن تظل بلادهم منطقة نفوذ للغرب ، ومورد خامات وأسواق إنتاج وأن يظلوا وقود الجيوش التى يجندها الغرب ، وعمال مصانعه ، وعبيد أرضه وأداة استغلاله]وكان اختلاف فرنسا وبريطانيا فى النظم والأساليب ، يمثل جانبا من الخطة المرسومة لتجزئة المنطقة وعزلها ، والفصل بين كل منطقة منها وبين الأخرى

بوسائل مختلفة أقل ما فيها الأسلاك الشائكة ، فقد كان هناك اختلاف فى الأسماء ثم فى نوع نظم الحكم والعملة والأعلام ومناهج التعليم ومفاهيم الثقافة والفكر فضلا عما أثاره الاستعمار من خلافات بين حضارات قديمة ومذاهب ودعوات تفرقة بين المسلمين، والمسيحيين والبربر والعرب والموازنة والدروز والسنة والشيعة. كان الاستعمار بعد أن احتل هذه الأقطار بالغزو العسكرى قد أخذ يدعم بقاءه فى المنطقة . وكانت وسيلته إلى ذلك هى الغزو الثقافى والفكرى ، وهذا لا يتم إلا بعزل هذه الأجزاء ونشر دعوات التجزئة والانفصالية فى كل منها ، ثم تجزئتها داخليا مرة أخرى بالأحزاب السياسية أو بالخلافات المذهبية .

ولقد قاومت الأمة العربية الاستعمار منذ اليوم الأول ، بالثورات والمعارك وبمختلف أسلحة المقاومة ، واستمرت فى معركة متصلة معه ، لم تتوقف ، قدمت خلالها الشهداء والضحايا ، ثم وقفت بالمرصاد لكل مؤامراته . ووجد الاستعمار أعوانا وعملاء كانوا أداته فى تنفيذ دعوات التغريب والتجزئة وفرض سلطانه السياسى والفكرى . كانت الحضارة الغربية هى وسيلته فى تحطيم جبهة المقاومة والقضاء على كيان الأمة العربية ، ذلك لأنه لم يقدم لنا من هذه الحضارة جانب الزخرف والجنس والملذات والآثام ؛ فكان ذلك عاملا ضخما فى تحطيم اقتصادنا العربى ، فلقد تهاوت ثروات الأسر كلها تحت سلطان الملذات والمخدرات والبغاء، وكلها أسلحة هيأ لها وحماها ، عن طريق الامتيازات ، وشجع على استمرارها ، وجند لها من الكبراء من وقفوا دون القضاء عليها . أما الجانب الإيجابى الفعال من الحضارة ؛ جانب القوة العسكرية والكشف والاختراع والمدافع والطائرات ومصانع الانتاج فقد حال بيننا وبينها ، وبذلك انهارت ثروتنا الاقتصادية ، فى نفس الوقت الذى تحطمت فيه قوانا الاجتماعية والروحية ، هذا بالإضافة إلى حملاته التغريبيـــة فى فرص « ثقافة » الغرب التى تحمل بذور المادية وأنكار الأديان

والتشكيك فى التاريخ ومحاولة تحطيم معنوياتنا عن طريق «التعليم» الذى فرض سلطانه عليه وعن طريق «التبشير» الذى سانده وحماه ودفعه إلى الأمام ، ومن طريق الحملات المستمرة على اللغة العربية ومحاولة إحلال اللغة العامية بدلا منها وحملات الشعوبية واذاعة نظريات السامية والآرية :

واجهت الأمة العربية الاستعمار فى معارك المقاومة المختلفة : السياسية والفكرية والاجتماعية ، وأعانها على المعركة صلابة شخصيتها وقوة روحيتها وإيمانها بالله واستهانتها فى التضحية من أجل الحرية والدفاع عن الحمى وكرامة الوطن .

وكانت معركة «التحدى والاستجابة» معركة ضخمة ؛ ظلت تدور رحاها خلال الفترة التى نؤرخها ، بين الاستعمار بأسلحته وقواته ووسائله وحملاته وأغرائه وحملاته التغريبية ، وسلطانه على الحكم والتعليم والصحافة والإذاعة والسينما فى العالم العربى كله ، وبين الأمة العربية ممثلة فى قادتها ومفكريها حيث استيقظت لتدافع عن وجودها وتدعم من كيانها ، وقد اندفعت أقلامها تكتب داعية إلى الجهاد والفداء والمقاومة ، بينما كانت حركات الاصلاح تجرى فى محيط الدين والمجتمع والفكر والتعليم والاقتصاد ، فقامت جمعيات الشبان المسلمين والرابطة الشرقية ، وبنك مصر وأنشئت مدارس الجمعية الخيرية الإسلامية وجرت اصلاحات فى الأزهر وتجديد فى مفاهيم الدين واللغة والمجتمع والمرأة . وتوحيد فى الجبهات الداخلية إزاء المستعمر مما يمكن القول معه بأن الاستعمار هزم فى معركته الأولى ، وتحطمت أسلحته . وكسبت الأمة العربيه الجوله الأولى .

فقد بقيت اللغة العربية وبقى الدين والروحية وتحرر الاقتصاد ونفض التعليم عنه اثار الاستعمار . وفشل التبشير ، وتحطمت دعاوى المستشرقين وانكشفت اتهاماتهم المتعصبة .

ولـكن هل توقف الاستعمار على أثر الهزيمة التى منى بها ، ذلك لم يحدث مطلقا ،فقد جدد الاستعمار خططه وبدأ معركة جديدة بعد الحرب العالمية الثانية ليس هذا موضع بحثها .

وجملة القول فى هـذا المدخل ، أن الأمة العربية قاومت الاستعمار والغزو العسكرى والثقافى وواجهت الحملات المختلفة بإيمانها . وفرضت رأيها فى الحضارة فرأت أن هذه الحضارة ليست غربية خالصة وإنما هى تراث الإنسانية كلها وقد شارك فيها الشرق من قبل وقدم لها خلاصة جهده وتجاربه ما أوصلها إلى مرحلة القوة والفعالية، كما فرضت الأمة العربية رأيها فى الثقافة الغربية فأنكرت قول القائلين: بقبولها جميعا خيرها وشرها ، ما يحمد فيها وما يعاب ، وتحررت من التبعية ، وأعلنت حقها فى أن تقبل مناهجها فى البحث ، حيث جددت بها تراثها ، ورفضت مالا يتفق مع معالم شخصيتها وقيمها وكيانها وأمجادها . .

(١)

الفكر العربي في مرحلة اليقظة

(إلى الحرب العالمية الأولى)

يقظة الفكر العربى

كانت الفترة التى سيطر فيها الأتراك العثمانيون على العالم الإسلامى فترة خمود للفكر العربى الإسلامى بصفة عامة ، إذلم يكن للفكر العربى ملامح خاصة يتميز بها . فقد دخلت الأمة العربية فى نطاق الإمبراطورية العثمانية ١٥١٧ ، واستمرت حتى عام ١٩١٧ أى أنها أمضت أربعمائة سنة فى نطاق الامبراطورية التركية التى بدأت تهوى إلى الضعف منذ عام ١٦٨٣ عند ما أغار الأتراك على أسوار « فينا » وارتدوا عنها مهزومين ، وكانت هذه أول هزيمة لهم فتحت أعين الغرب على ضعف الامبراطورية مما حمله على مواصلة الحملات عليها وفتح عينه على بدء معركة الانقضاض والغزو .

وإذا كان الغزو الأدبى للشرق قد بدأ بوصول فاسكودى جاما إلى الهند (مايو ١٤٩٨) ومن ثم بدأت هزيمة الوحدات البحرية العربية وتحطمت أساطيل العرب التجارية فى المحيط الهندى ، فإن انتصار الأتراك العثمانيين فى وراثة العرب فى حكم المنطقة وحمل لواء الزعامة السياسية والثقافية والدينية قد أخر الاصطدام إلى مابعد ذلك ، غير أن الغرب لم يتوقف عن الغزو وذلك بمحاولة حصول دوله على امتيازات فى مختلف أقطار الامبراطورية العثمانية تكفل للتجار سلامة أشخاصهم وأملاكهم ثم اتسعت هذه الامتيازات حتى أصبحت سلطانا ضخماً لا سبيل إلى مراجعته؛ لها محاكمها وسلطاتها وقد تغلغل الفرنسيون قبل غيرهم فى العالم العربى .

وإذا قيل أن حركة الثقافة الأوربية قد بدأت بحملة نابليون على مصر (١٧٩٨) أو من قبلها بوصول الجمعيات التبشيرية الفرنسية ١٨٤٧ والأمريكية ١٨٦٨ إلى بيروت وإليها تنسب يقظة الفكر العربى فإننا نرى أن اليقظة الفكرية قد سبقت

هذا الغزو الفكرى الغربى بأمد طويل. بدأت بدعوة محمد بن عبدالوهاب إلى تجديد الدين والعودة إلى بساطته الأولى . وإذا كان عبدالوهاب قد ولد سنة ١٧٠٣ وقام بدعوته فى حدود الأربعين فإن يقظة الفكر العربى تكون قد بدأت قبل وصول الجمعيات التبشيرية الأوربية بمائة عام على الأقل . وقد كانت هذه الدعوة الفكرية السياسية بعيدة المدى فى تحرير الفكر العربى ويقظته ، ولا سيما بعد أن أتيح لها أن تتحول إلى دولة فتية كان لها إغارات على حدود الشام والعراق .

* * *

كانت يقظة الفكر العربى منصبة على تأكيد الحقائق الأساسية للفكر العربى الذى قامت عليها الحضارة العربية . وهى فى موجزها تتمثل فى مبادىء محددة صريحة :

× كرامة الانسان وحريته .

× امتزاج الروحية بالمادية . والعمل لليوم والغد معا .

× قل هاتوا برهانكم فى كل قضية « مبدأ سياحة العقل » .

× حفظ التراث وزيادته .

× تجديد الفكر بالغربلة واقصاء القشور والاجتهاد والمؤائمة مع التطور والزمن والبيئة .

× حمل لواء الحضارة والزيادة فيها .

× تكريم الطوائف المختلفة ورعايتها .

× إقامة عملية الصهر والوحدة وإقامة الكيان للوحد .

× حماية الوطن والحضارة والتسلح واليقظة للعدو .

× المقاومة واعتبار الدفاع عن الوطن دفاع عن العرض .

× تغليب السلام والأخوة والمحبة وعدم العدوان .

× الدعوة إلى الاشتراكية ومساواة الاجناس والمفاضلة بالعمل والتضامن الاجتماعى .

× الشورى وقبول الآراء المختلفة ودراستها .

وقد غاضت هذه الأسس فى ظل الحكم العثمانى الاستبدادى ، وفى خلال فترة الجمود التى حلت بالعالم العربى الاسلامى ، وكان أبرز ما سيطر على تفكير الأمة العربية : فقدان الثقة بالنفس ، والإحساس بالهوان وذلك تحت تأثير العوامل الثلاث التى فرضها الحكم العثمانى : وهى (١) استبداد الحكام ،و(٢) تسلط السخرة والاقطاعية ، و(٣) الجمود الدينى.

وكان انتقال نظام الحكم من الشورى إلى الأتوقراطية المطلقة والاستبداد وقيام طائفة من العلماء — وهم فى نظر الأمة العربية — الطبقة المثقفة العليا لتأييد هذا الا ستبداد ـ كان سببا فى قتل الثقة فى النفس العربية .

ولقد كانت دعوة عبدالوهاب إلى التجديد الفكرى الاسلامى وقيام هذه الدعوة من قلب الجزيرة العربية بالذات عاملا ضخماً فى هذه الفترة الدقيقة بالذات ، لا سيما إذا ربطنا هذا بأن العالم الاسلامى قد وجد دائما مثل هذه الدعوات التجديدية للفكر على فترات ممتدة من تاريخه ، وحمل لواءها أمثال الغزالى وابن تيمية .

وقد روى الجبرتى أن واعظاً من تركيا جلس فى جامع المؤيد (١١٣٢ ـ هـ) وكثر عليه الناس وازدحم المسجد بهم ، وذكر ما يفعله أهل مصر بضرائح الأولياء وايقاد الشموع والقناديل على قبورهم وتقبيل أعتابهم ، ووصف ذلك كله بأنه كفر يجب على الناس تركه ، ورد على ما قاله الشعرانى من أن بعض الأولياء اطلع على اللوح المحفوظ وأن ذلك لايجوز وانه لا يجدر بناء القباب على ضرائح الأولياء او بناء التكايا ، ولم يتوقف هذا الواعظ الذى لم يذكر الجبرتى اسمه — عند الوعظ بل محد

إلى جمع طائفة من الأعوان والاتباع حوله واتجه إلى العمل لتقويم الناس بالعصى ، فخرج ورجاله بعد صلاة التراويح ووقفوا بالبنادق والأسلحة على باب زويلة فهرب الذين يقفون به » ودعا هذا الواعظ إلى هدم التكايا، وقد نفاه الوالى إلى الشام وكان لحركته أثرها فى مصر ، وقد تأثر بها حسن العطار ، الذى أصبح فيما بعد شيخاً للأزهر .

وقد كانت الدعوة الوهابية فاتحة الدعوة إلى تحرير الفكر ، وقد تلتها بعد ، حركة تحرير الفرد التى دعا إليها المشايخ والعلماء فى مصر ، حين فرضوا على المماليك توقيع وثيقة بحقوق الشعب .

وإذا كانت دعوة محمد بن عبد الوهاب قد واجهت خصومة من معسكر التقليديين فإنها هيأت الأذهان لمقاومة سيطرة الخرافات والأوهام وتنقية العقيدة (٢) مقاومة جمود النظم (٣) مقاومة استبداد الحكام (٤) تحرير الدين من التقليد وفتح باب الاجتهاد (٥) تحرير الشعب من سيطرة العلماء التابعين للحكام (٦) مواجهة الفساد والتحلل الاجتماعى .

وقد حمل الفكر العربى المعاصر فى أول مواجهة لليقظة :

(١) مقاومة الاستبداد العثمانى ، والدعوة إلى الحد من سلطان الخليفة والحاكم ، والسلطان والأمير ، ثم بدأت مقاومة ضخمة ، هى مقاومة الغزو الغربى ، وقد تأثر الفكر العربى فى هذه الفترة بالوجدان الوطنى القوى الذى أخذ يغالب الوجدان الدينى ، وإن كانت مقاومة الحملة الفرنسية قد قامت على أساس الوجدان الدينى .

ولذلك كان أبرز ملامح الفكر العربى المعاصر هى : «المقاومة» أو الرد على التحدى وقد أثبتت الأمة العربية قدرتها على المواجهة السريعة ، فإن اليقظة لم تلبث أن وصلت إلى مرحلة القوة حين بدأ الغزو يدخل معارك متصلة شملت العالم العربى كله (مصر الجزائر وتونس والخليج العربى وليبيا) .

واتصل بهذا ما واجهته مصر فى اقصاء الحاكم الظالم حين اقتضت المقاومة الشعبية بقيادة عمر مكرم إبعاد الوالى التركى (خورشيد) وكانت «مهمة الحاكم وحق الشعب فى عزله إذا ظلم» واضحة فى ذهن عمر مكرم حين نادى بهذا المعنى فى هذه الفترة الباكرة .

ولا شك أن كان «للأزهر» دوره الضخم ، فقد كان معقل كل حركات المقاومة السياسية والعسكرية والثقافية . والحديث عن دوره فى حماية الثقافة العربية فى خلال فترة الظلام يعتبر من الكلام المعاد . وكان للازهر دوره أيضا فى حماية الشعب من ظلم الأمراء . ودوره فى مقاومة الحملة الفرنسية . وتأكيد حق الشعب فى تولية الحاكم .

وظهر من رجاله من دعوا إلى التجديد : كحسن الطويل شيخ الأزهر المجدد ثم الجبرتى الذى سجل مظالم محمد على وطغيانه ورفاعة الطهطاوى رائد الترجمة والنقل.

ولقد كان للغة التركية والفكر التركى أثرها على اللغة العربية ، هذا الأثر الذى قاومه الفكر العربى مؤكدا شخصيته ، ولم يلبث أن قاوم اللغتين الفرنسية والانجليزية والفكر الغربى من السيطرة عليه فيما بعد.

ولاشك كان «للقرآن» أثره الواضح الكبير فى نقاء اللغة العربية وبقائها وصمودها أمام الحملات التركية والغربية التى وجهت إليها .

وكان للفكر العربى دوره فى دعوة القومية العربية ، والتحول من العاطفة الدينية إلى العاطفة القومية ، وقد واجه الفكر العربى إزدواجاً فى المقاومة حين كان جانب الأمة العربية يقاوم الاستعمار الغربى (البريطانى فى مصر والسودان) و (الفرنسى فى الجزائر) و (العثمانى فى الشام والعراق) .

وقد وقف الاستبداد العثمانى فى ظل حكم السلطان عبد الحميد (١٨٦٧ـ١٩٠٨) أمام الحضارة والثقافة الغربيتين موقف المقاومة غير المستنيرة التى لم تجد أمام اتجاه

الاحرار العثمانيين من دعاة الاتحاد والترقي إلى المطالبة بالدستور والحكم النيابي وظهور الصحافة في تركيا ١٨٣١ وهو نفس الزمن الذي ظهرت فيه الصحافة المصرية ، وبعد ابراهيم شناسي ١٨٤٨ في تركيا أشبه برفاعه الطهطاوي في مصر ، كما ظهر : نامق كمال ، وعبدالحق حامد ، ومحمد توفيق وكانوا يحملون فكرة الوطن المستقل عن شخص السلطان . والاتجاه نحو القومية وتطوير حياة الشعب وطرح أسلوب الزخرف القديم .

* * *

في هذه الفترة ظهرت تيارات مختلفة في الفكر العربي :

(١) تيار تجديد الدين ، الذي حمل لوائه خلفاء محمد عبد الوهاب والسنوسي والمهدي والشوكاني ومحمد عبده .

(٢) التيار الثقافي : الذي حمل لوائه رفاعه الطهطاوي في مصر وخير الله في تونس .

(٣) التيار الثقافي: الذي حمل لواءه اليسوعيون والمرسلون الأمريكيون في لبنان.

(٤) التيار السياسي :الذي حمل لواءه جمال الدين الأفغاني .

(٥) التاريخ القومي الذي حمل لواءه الاتحاديون في الدستور والطورانية .

(٦) تيار القومية العربية الذي حمل لواءه عرب الشام .

وقد سار كل تيار من هذه التيارات في طريقه وتكونت من هذه الروافد صورة الفكر العربي المعاصر الذي يمثل في مجموعه :

الواقعية والايجابيه والربط بين الماضي والحاضر «وبناء» الجديد على « أساس» القديم والغربله الدائمه لكل ما يتجمد من الافكار .

وقد كان في الامكان أن يؤدي هذا إلى تحقيق النهضة الأكيدة للعالم العربي لولا أن الاستعمار كان يحمل معه تياراً ضخماً قوياً في خطة كاملة لسحق الفكر العربي — قد بلغ في بعض الفترات مدى أعمق بكثير من هذه التيارات مجتمعة ذلك هو تيار « التغريب » .

تيارات الفكر العربى

حتى نهاية الحرب العالمية الأولى

١ — تيار التجديد الدينى :

محمد بن عبدالوهاب ؛ الشوكانى السنوسية ، المهدية ، محمد عبده .

٢ — التيار الثقافى (المزج بين الشرق والغرب) :

رفاعه الطهطاوى ، وخير الدين التونسى .

٣ — التيار الثقافى الغربى :

اليسوعيون والمرسلون الأمريكيون فى لبنان .

٤ — التيار السياسى الغربى :

مدحت والاتحاديين . والدستور والطوارنية والكماليين .

٥ — تيار « الجامعة الاسلامية » :

جمال الدين الأفغانى . الكواكبى .

٦ — « تيار الجامعة العربية » .

(١)
تيار التجديد الديني

يعد تيار « التجديد الديني » من أقوى التيارات الفكرية التي بدأت بها يقظة الفكر العربي والإسلامي عامة : هذه الدعوة التي بدأها محمد بن عبد الوهاب في قلب الجزيرة العربية ولم تلبث أن انطلقت إلى مختلف الأقطار ، فظهر الإمام الشوكاني في اليمن ، والألوسي في العراق ، والسنوسي في ليبيا ، والمهدي في السودان ، ومحمد عبده ومدرسة المنار في مصر ، وذلك غير ما ظهر في مختلف أطراف العالم الإسلامي من دعوات مماثلة :

محمد بن عبد الوهاب	١٧٠٣ — ١٧٩١
الشوكاني	١٧٥٦ — ١٨٣٤
شهاب الدين الألوسي	١٨٠٢ — ١٨٥٤
السنوسي	١٧٨٥ — ١٨٥٩
المهدي	١٨٤٣ — ١٨٨٥
محمد عبده	١٨٤٩ — ١٩٠٥

ومعنى هذا أنه في خلال فترة قرن ونصف قرن لم تنقطع هذه الدعوة إلى التجديد الديني بل واصلت عملها بقوة ، وحمل لواءها عدد كبير من الأعلام وقد اتصلت هذه الدعوة بالمعركة الكبرى ، معركة الغزو الغربي : العسكري والسياسي والاجتماعي والفكري ، ولذلك تعمقت جذورها واتسع نطاقها حتى أصبحت علما على اتجاه فكري واضح في أكبر جانب من جوانب التفكير العربي ، وهو التفكير الاجتماعي المتصل بالروحية والدين ، والحرية والمعاملات بل لا نعدو الحق إذا قلنا « إن التجديد » كان بعيد الأثر في جميع مفاهيم « المقاومة »

التى قامت بهـا الأمة العربيه إزاء الاستبداد العثمانى والاستعمار الغربى وأنهـا أثرت فى مفاهيم الفـكر العربى : السياسى ، والثقافى ، والاقتصادى .

يمكن القول بأن تيار التحديد الدينى إنما قام على أساسين واضحين هما :

(١) العودة إلى التوحيد والمنابع الأولى للاسـلام ، فالتوحيد هو أساس الإسلام . وقد دخله كثير من الفساد فى خلال فترة الركود التى أصابت العالمين العربى والإسلامى تحت حكم العثمانيين وقد أثر فى نقاء التوحيـــد ما توسع فيه المسلمون من البدع : التى يتصل بالتقرب إلى الأولياء ، والنذر لهم ، وبناء الأضرحة وزيارتها ، وقد حملت هذه الدعوة لواء عبادة الله وحده ، ورد البدع وإبطال التوسع والشفاعة .

(٢) فتح باب الاجتهاد وقد كان إقفال باب الاجتهاد بعيد الأثر فى الجمود الذى أصاب الفكر العربى الإسلامى ، مما غلب التقليد فـكانت الدعوة إلى تحرير العقـل العربى ممن أسار التخلف .

* * *

وقد حمل محمد بن عبد الوهاب لواء الدعوة على هذا النحو وقال : إن مسألة « التوحيد » ، هى عماد الإسلام ، وإن الإنحراف فى العقيدة هو سبب ضعف المسلمين وسقوطهمتهم . ولم يلبث عبد الوهاب أن حول دعوته إلى برنامج سياسى ودعا لمقاومة استبداد الحاكم والتحرر من سلطان الدولة « العثمانية » وهاجم حدود سورية والعراق ، وهاجم أيضا الدولة العثمانية لانحرافها عن المبـادىء الأساسية للاسلام ، ودعا إلى التحرر من سلطانهـا ، كما هاجم رجال الدين الرسميين الجامدين ، واستطاع أن يحول الدعوة إلى حركة لها كيانها الذى هز الامبراطورية العثمانية حين أقنع « محمد بن سعود » حاكم نجد ، الذى حمل لواء

الدعوة فى جزيرة العرب جماء . ومن ثم آمن اتباع محمد بن عبد الوهاب بأنهم الدم الجديد فى العالم العربى . وبذلك تحولت الدعوة إلى حركة تحميها دولة .

وأعلن الوهابيون أن سبيل الإصلاح ، هو العودة إلى منابع الإسلام الأولى ، وتنقية الدين من البدع الدخيلة عليه والإيمان بعقيدة التوحيد الخالص ، وكان محمد بن عبد الوهاب تلميذاً لمذهب أحمد بن حنبل وقد تأثر أفكار ابن تيمية وابن القيم التحريرية . وأتيح له أن يطوف فى أنحاء العالم الإسلامى ويزور بالذات بغداد وكردستان وهمزان وأصفهان وقم وهى معاقل الشيعة التى كانت تحمل لواء الأفكار التى هاجمها ووجدت رسائل لابن تيمية مكتوبة بخط محمد ابن عبد الوهاب .

وقد انتهت المرحلة الأولى للحركة الوهابية بهجوم (محمد على) على الحجاز ، حيث بدأت الحملة المصرية الأولى ١٨١٢ وانتهت. وقد أخذ على الوهابيين أنهم لم يكونوا على استعداد حربى حديث مما مكن لمحمد على هزيمتهم وقد أخذ عليهم المؤرخون عدم اتصالهم بالحضارة أو اتفاقهم إلى الثقافات الغربية وان برنامجهم فى الإصلاح السياسى والاجتماعى لم يكن محققاً لمواجهة الغزو الغربى ، فضلا عن أن الدعوة لم تكن سلمية محضة ، وإنما كانت تواجه خصومها بالعنف وتستحل دمائهم وأموالهم وكان ذلك من الوهابية خروجاً على سماحة الإسلام .

٤ — وفى اليمن : «ظهر محمد عبد الله الشوكانى» الذى تأثر ابن تيمية وابن حزم وقد نشأ على مذهب الزيدية فى الفروع . وفتح باب الاجتهاد وحارب التقليد وذهب إلى تحريمه ، ودعا إلى الاجتهاد وترك زيارة القبور وألف كتابه المعروف « نيل الأوطار» الذى شرح فيه ابن تيمية « منتقى الأخبار » .

وقد أثارت آراؤه فى عدم زيارة القبور معركة حيث قال :

«كم سرى من تشييد أبنية القبور وتحسينها من مفاسد يبكى لها الإسلام . منها اعتقاد الجهلة لها كاعتقاد الكفار للأصنام، وعظم ذلك فظنوا أنها قادرة على جلب النفع ، ودفع الضرر ، فجعلوها مقصداً لطلب قضاء الحوائج وملجأ لنجح المطالب وسألوا منها ما يسأل العباد من ربهم ، وشدوا إليها الرحال وتمسحوا بها واستغاثوا» .

وقد وقف من خصومه موقفاً صلباً ، وأعلن أن المذاهب جميعها سواء ، ولا يخص مذهب الزيدية منها . وأن مذهبه فى العقائد هو مذهب السلف .

٣ — وظهر : أبو الثناء محمود شهاب الدين «الألوسى» (١٨٠٢ — ١٨٥٤) فى العراق على نفس النهج التجديدى فى الفكر العربى المعاصر . وهو مفتى بغداد وإمام العراق فى اللغة والدين والتفسير وله «روح المعانى» فى تفسير القرآن الدينى يمثل مذهبه وقد أثارت آراءه غضب العلماء التقليديين فسموا سمهم ضده فعزل عن منصب الإفتاء . جمع فى كتابه « روح المعانى » من ثلاث طرق : طريقة السلف ، وطريقة المتكلمين ، وطريقة المتصوفة ، ورد على آراء فخر الدين الرازى .

ولم يلبث أن ظهر من آل الألوسى ، عالم آخر سار فى نهج التجديد الدينى هو « محمود شكرى الألوسى » ١٨٥٦ — ١٩٢٤ الذى يمم نفس الطريق الذى سلكه علماء نجد فى الدعوة إلى تطهير عقائد الناس من البدع والخرافات وفتح باب الإجتهاد ، معرضاً نفسه للخصومة العنيفة مع رجال التصوف فى وقت كان فيه أبو الهدى الصيادى شيخ الصوفية ، مستشاراً للسلطان عبد الحميد ، وقد لقى من العنت ما لقى كل من دعاة التجديد الدينى فى الفكر العربى ، من محاربة واضطهاد حيث كان الاستبداد والنفوذ الأجنبى يلتقيان فى جبهة واحدة لتحطيم التجديد الدينى وتحريره من جمود التقليد ، فأصدر عبد الحميد أمره بنفى شكرى إلى الأناضول ، غير أن أنصاره فى الموصل استطاعوا أن يحولوا بينه وبين المنفى .

٤ — محمد بن على السنوسى الكبير ، سمع الدعوة الوهابية

فى مكة فاعتنقها ، وعاد إلى الجزائر يبشر بها ، ويؤسس طريقته فى المغرب . وقد صرف صدر عمره فى مكة ، ثم عاد بعد المحسين إلى برقه ، حيث مضى يؤسس الزوايا ليبث تعاليمه بين أهل البادية .

وكان أبرز معالم دعوته : العودة بالإسلام إلى متابعة الأولى ، كما حملت السنوسية لواء الجهاد ، ومقاومة الاستعمار الإيطالى ، حينما هاجم طرابلس ، وكان لتعاليم الدعوة أثرها الضخم فى الفداء .

فقد نهى السنوسى عن حياة الترف ، وحيازة الذهب ، والجواهر .

وفى السودان : حمل المهدى لواء الدعوة إلى التجديد الدينى على نحو أقرب إلى التجرد السياسى ، وقد قاوم الاستبداد العثمانى متمثلا فى سلطاته المفروضة على أهل السودان .

مراجع

أحمد أمين : زعماء الاصلاح .

أحمد محمد حسنين : فى صحراء ليبيا .

عبد المتعال الصعيدى : المجددون فى الاسلام .

محمد بهجت الأثرى : محمود شكرى الألوسى .

التيار الثقافى

المزج بين الشرق والغرب

برز التيار الثقافى المصرى فى العالم العربى واضحا فى أوائل القرن التاسع عشر يحمل لواء :

(١) الاقتباس من الغرب بالترجمة والتعريب «الترجمة»

(٢) خلق الرأى العام وتنبيهه بالصحافة «الصحافة»

(٣) رفع مستوى الشعب بالتربية والتعليم «التعليم»

(٤) تبسيط اللغة العربية وتحريرها من السجع والزخرف «اللغة العربية»

(٥) تحرير المرأة والدعوة إلى تعليمها وسفورها وتصحيح مناهج المجتمع «المجتمع والمرأة»

وكانت معالم هذا التيار الثقافى المصرى تتمثل فى :

(١) المطبعة العربية التى دخلت العالم العربى (١٨٢١ـ مطبعة بولاق: القاهرة) و(١٨٣٤ مطبعة المرسلين الأمريكية : بيروت) هذا مع ملاحظة أن أول مطبعة عربية أنشئت فى حلب فى أوائل القرن الثامن عشر وطبع بها الانجيل ١٧٠٦ .

(٢) المدارس الغربية الحديثة فى لبنان: وأول هذه المدارس ما أنشئه الآباء العازاريون ١٨٣٤ (عينطورا — لبنان): مدرسة بيروت(٢) القس وليم طمسن الأمريكى ١٨٣٥ . الدكتور فانديك : مدرسة عبية لبنان ١٨٤٧ (٣) المدرسة الإنجليزية ١٨٦٠ الكلية الإنجليزية للبنات ١٨٦١(٤)المدرسة الوطنية (بطرس البستانى) ١٨٦٣ (٥) الكلية الأمريكية ١٨٦٦ (٦) الكلية اليسوعية ١٨٧٤ .

(٣) ظهور الصحف العربية :(١) الوقائع المصرية: رفاعةالطهطاوى وفارس الشدياق ١٨٢٧ القاهرة(٢)مرآةالأحوال : رزق الله حسون ١٨٦٥ . (٣) الرائد التونسى — تونس ١٨٦١ .

(٤) البعثات التى اتجهت إلى أوربا والتى كان نواتها أمثال: رفاعة الطهطاوى (١٨٢٦) وعلى مبارك (١٨٣٤)

(٥) الهجرة اللبنانية إلى أمريكاوالدور الفكرىالذى قامت به فى المهجر .

ومن هذه المعالم جميعا بدأ هذا التيار الثقافى المصرى الذى اعتمد على النقل والاقتباس من الحضارة الغربية فى [مجال الترجمة والصحافة والتعليم] والذى أثر فى ميادين التربية والمجتمع واللغة العربية . وهو مكون من عنصرين : عنصر الرواد الذين سافروا إلى أوربا وعادوا ، وعنصر الأعلام الذين تأثروا بالمرسلين الغربيين الذين وفدوا إلى العالم العربى والذى ركزوا جهودهم بصفة خاصة فى لبنان وحرصوا على أن يبدأ بالعمل من القرية بدلا من المدينة فأنشأوا مدارسهم فى قرى لبنان وكان بين الانجليين الأمريكين واليسوعين الفرنسين منافسة على العمل فى هذا الميدان وقد اشتركت القاهرة وبيروت وتونس فى هذه الحركة الضخمة التى كانت تياراً طبيعياً لابد منه بعد اتصالنا بالغرب ؛ هذا الاتصال الذى بدأ بالحملة الفرنسية ١٧٩٨ عندمااستقدمنا بليون إلىمصر أول مطبعة عربية،وكانت حملته عبارة عن نقطة البدء فى الغزو الثقافى الغربى حيث بدأت البعثات المختلفة من أمريكا وفرنسا وبريطانيا ودول أخرى عديدة تزحف إلى العالم العربى وتقيم فيه المدارس والمطابع والصحف وترصد فى ميزانياتها اعتمادات ضخمة للتبشير .

وفى هذا المجال ظهرت مدارس أربع :

× المدرسة المصرية (رفاعه وعلى مبارك) .

× المدرسة اللبنانية (وقد امتزجت بالمدرسة المصرية حينا) .

× المدرسة المهجرية .

المدرسة المصرية

ظهرت المدرسة المصرية فى تيار الثقافة الحديثة المتصلة بالغرب مبكرة فى الثلاثينيات من القرن التاسع عشر حينما بدأت البعثات المصرية إلى أوربا . وكان رائدا هذه المدرسة هو « رفاعة الطهطاوى » (١٨٠١ - ١٨٧٣) الذى سافر إلى فرنسا ١٨٢٦ وعاد ١٨٣١ وعمل فى ميادين الترجمة والتربية والصحافة والتأليف والتعليم والشعر . ونظم الأناشيد الوطنية وتراجم القوانين .

وكان رمزا على الرابطة بين الأزهر والثقافة الغربية ، ولا بد أنه كان هو بطبيعته النفسية متأهبا لحمل لواء هذه الرسالة ، وتقبل التطور الفكرى بين دراسات الأزهر ودراسات الجامعات الغربية ، وقد كان رفاعه علماً على المدرسة التى دعت إلى النقل والاقتباس من الثقافة والحضارة الغربية فى حدود ما هو صالح منها وما هو نافع لنا . وقد حاول نقل خير ما وجد فى أوربا ، ونقد ما شاهده من عيوب فى مجال الحضارة الغربية ، ومرجع هذا إلى أصالة الثقافة العربية والمفاهيم الأساسية وإيمانه بالكيان الفكرى العربى الأصيل ، وحرصه على تنقيته وصقله والزيادة فيه بالاقتباس ، ولذلك فقد حال ذلك كله دون اضطراب شخصيته أمام مفاتن الحضارة . فكان موقفه منها غاية فى اليقظة وضبط النفس وسلامة التقدير القائم على العقل والايمان برسالة تطعيم الفكر العربى .

وكان لأستاذه (حسن العطار) الفضل فى تكوين هذا الاتجاه عنده، فقد عرف العطار بالتجديد والايمان بضرورة النقل من الغرب بما يزيد شخصيتنا قوة .

ولعل حرص (رفاعه) على أن يحقق لوطنه ريادة كاملة فى الفكر الغربى هو ما حمله

على أن يسام بهذا المحصول الضخم فى ميدان الفكر العربى ، فقد كان أول من كتب عن « الوطنية القومية » إن صح إطلاق هذا التعبير عليها ، على أساس غلبة اللون المصرى ومقاومة الاتجاه التركى . وتعليم المرأة وتحريرها ، وحب الوطن والمفاخرة به ، ووحدة وادى النيل ، واحياء التاريخ القديم .

بل إنه قد تكلم عن قناة السويس وحق مصر فيها ، وصور مظالم الإقطاع فتحدث مما يلاقيه العمال الزراعيون من الظلم على أيدى الملاك الإقطاعيين وهاجم الإقطاع مهاجمة عنيفة وندد بالامتيازات الأجنبية .

ثم هاجم فرنسا لاحتلالها الجزائر . كما هاجم المجتمع الفرنسى وانتقد كثيرا من أخلاقه وعوائده وانتقد نظرة المجتمع الفرنسى للعلاقة بين الرجل والمرأة وبذلك يكون (رفاعة) قد عمل فى الميادين الخمسة التى حمل لوائها التيار الثقافى . وهى الاقتباس من الغرب بالترجمة والتعريب ، وخلق الرأى العام وتهيئته بالصحافة ورفع مستوى الشعب بالتربية والتعليم ، وتبسيط اللغة العربية وتحريرها من الزخرف وتحرير المرأة والدعوة إلى تعليمها ، وتصحيح مفاهيم المجتمع .

وقد واجه (رفاعه) اضطهاداً فى عهد عباس نظراً لآرائه الجريئة فى الحرية والحكم والدعوة إلى تجديد مصر وتحسين أوضاعها ، واعتباره التربية : الأساس الأول لخدمة الوطن .

وهو يرى أن الوطن هو « عشيرة الإنسان الذى فيه درج ومنه خرج ومجمع أسرته وهو البلد الذى نشأته تربته وغذاه هواءه . وإن حب الوطن من الإيمان ومن طبع الأحرار إحراز الحنين إلى الأوطان . ومولد الإنسان على الدوام محبوب منشؤه، مألوف له ومرغوب. ولأرض الوطن حرمه كما للوالدة حق لبنيها والكريم لا يجفو أرضا بها قوابله ولا ينسى داراً بها قبائله » .

وقد شهد « رفاعه » الثورة التونسية ودرس عواملها وترجم مواد الدستور الفرنسى (دستور ١٨٢٤) وترجم القانون المدنى وقانون التجارة الفرنسى كما اشترك مع عبد الله أبو السعود وأحمد حلمى فى نقل قانون المحاكمات وقانون الحدود والجنايات .

ولم يقبل رفاعه أن يشترك فى مشروع الخديو إسماعيل لنقل قوانين نابليون واحلالها بدل التشريع الإسلامى . كما اقتبس من الدستور الفرنسى عدة عبارات ونظم بعض الأشعار التى عبر فيها عن الشورى وحاجة وطنه إلى العدل .

وقد أعلن (رفاعة) دعوته إلى تعليم المرأة ويرى أن تربية أولاد الملة وصبيان الأمة وأطفال المملكة ذكورها وإناثها من أوجب الواجبات ، كما يرى أن من حق المرأة أن تعرف كل أمور دينها ، بل إن حقها على الزوج أن يعلمها ذلك إذا لم تكن تعلمته .

كما كان لآرائه الجريئة عن الشورى والحرية ما دفع عباس الى نقله منفيا إلى السودان ١٨٤٩ حيث بقى نحو أربعة أعوام بعيداً عن مجاله فى العمل ترجم فيها كتاب (مواقع الأملاك فى وقائع تلماك) .

كما ترجم إلى العربية تاريخ اليونان ، والميثولوجيا اليونانية وأخبار الأمم القديمة كالمصريين والبابليين .

وبه بدأت نهضة الترجمة التى اتسعت وامتدت بعد إنشائه لمدرسة الالسن ١٨٣٥ حيث تكون جيل من تلاميذه فى مقدمتهم : صالح مجدى ، وعبد الله أبو السعود .

وجملة رأية أن للتمدن والعمران واسطتين (١) تهذيب الأخلاق والآداب

الدينية والفضائل الإنسانية (٢) المنافع العمومية التى تعود بالثروة والغنى فيحسن الحال وينعم البال .

٢ — أما على مبارك (١٨١٦ — ١٨٨٦) فهو لم يتعلم فى الأزهر ، وإنما تعلم فى مدرسة الهندسة وسافر فى إحدى بعثات محمد على وأقام فى فرنسا خمس سنوات ، ووصل إلى منصب ناظر المعارف فى عهد إسماعيل ، وقد عمل على إصلاح التعليم ، وأنشأ مدرسة دار العلوم فأخذ لها من خيرة طلبة الأزهر حيث تلقوا العلوم الدينية واللغوية والتاريخ والجغرافيا والرياضة والطبيعة والكيميا وأنشأ مجلة «روضة المدارس» ورأس تحريرها « رفاعه الطهطاوى » وألف الخطط التوفيقية فى عشرين مجلداً (١٠٨٧ — ١٨٨٩) وقد دعا إلى ما أسماه « الوجوه الحسنة من مدنية الغرب ، ونبذ السيء منها » وآمن باصلاح التعليم ، ويرى أن الاصلاح السياسى خير من الثورة ، ولذلك فهو لم يشترك فى الثورة العرابيه كما أنشأ دار الكتب .

جمع أرائه فى الحضـارة والشرق والغرب فى قصة ألفها باسم « علم الدين » وهى قصة شيخ تربى فى الأزهر وتتلمذ عليه مستشرق إنجليزى تعلم منه اللغة العربية ودعاه الانجليزى ليزور معه انجلترا فلبى الدعوة · وقد ضمت مجموعة ضخمة من المعلومات والأفـكار · قصر رفاعه ميدانه الفكرى على إصلاح التعليم فاقتبس من أنظمة المدارس الفرنسية وحول الكتاتيب إلى مدارس نظامية وأصدر لائحة التعليم ١٨٦٨ .

٣ — امتدت هـذه المدرسة الثقافية المصرية فى مجموعة من الأعلام فى مختلف الميادين من بينهم : صالح مجدى ، وعبد الله أبو السعود وخليفة محمود ومحمد قدرى ، ومحمد عثمان جلال ، ومحمود الفلـكى ، وعبد الله فـكرى ·

المدرسة اللبنانية

كان للمدرسة اللبنانية دورها الضخم الواضح فى هذا التيار، فقد عملت فى مختلف الميادين ومن أعلامها حسب الترتيب التاريخى :

الدور الاول : ناصيف اليازجى . بطرس البستانى . فارس الشدياق .

الدور الثانى : سليم البستانى . سليمان البستانى . إبراهيم اليازجى . يعقوب صروف .

وقد جمع هؤلاء بين العمل فى ميدان الترجمة والصحافة وتجديد اللغة العربية وعمل ناصيف اليازجى وبطرس البستانى وسليم البستانى فى التعليم وحمل لواء تحرير المرأة (خطاب بطرس البستانى ـ ١٤ كانون الأول ١٨٩٤) وفارس الشدياق .

١ — البستانيون :

وقد كان للبستانيون دور كبير فى التيار الثقافى فى هذه المرحلة . فبطرس البستانى مؤسس أول مدرسة وطنية عالية فى لبنان (١٨٦٣) . ومنشىء أول معجم عربى عصرى ومخرج أول موسوعة عربية وفق الأساليب المتبعة فى الغرب . وقد ترجم للانجليز ثم اتصل بالمراسلين الأمريكيين وعمل مع المستشرق فانديك وأنشأ مجلة (نفير سوريا) ثم مجلة الجنان كما ترجم التوراة بالاشتراك مع الدكتور غالى سمث .

ومن مؤلفاته : قاموس محيط المحيط ، قطر المحيط ، دائرة المعارف .

وقد طبع الثقافة العربية بالطابع الحديث ، وجارى علماء الأفرنج ، وقد أتم مشروع دائرة المعارف فى سبعة أجزاء .

وعمل سليم البستانى (١٨٤٨ — ١٨٨٤) فى نفس الميدان؛ حرر مجلة الجنان وشارك فى اعداد دائرة المعارف وواصل العمل فى المدرسة الوطنية التى أنشأها والده فى بيروت .

وعالج الرواية الاجتماعية . وقد سبق جورجى زيدان بعشرين عاما فى وضع الروايات الافرنجية كما قام سليمان البستانى (١٨٥٦ — ١٩٢٥) بأكبر عمل فى ميدان

الثقافة والفكر العربى المعاصر وهو ترجمة الياذه هوميروس شعرا إلى العربية وساهم فى دائرة المعارف واحترف التعليم وحرر مجلة الجنان .

وعنى عبد الله البستانى (١٨٥٤ — ١٩٣٠) باللغة والمعاجم والتعليم . وعلم فى المدرسة البطريركية فى بيروت وله معجم البستانى فى مجلدين . ومن تلاميذه : شكيب أرسلان ، وبشاره الخورى ، واسعاف النشاشيبى ، وداود بركات .

٢ — اليازجيون

عمل اليازجيون (ناصيف : ١٨٠٠ — ١٨٧١) فى ميدان خدمة اللغة العربية وتجديدها . كما علم فى المدرسة الوطنية للبستانى والكلية للأمريكان . وهذب اللغة العربية والمنطق والشعر ، كما ساهم فى إحياء تراث اللغة المشترك ونشره : واتصل بالمراسلين الأمريكيين وصحح مطبوعاتهم ولا سيما الكتاب المقدس وأبرز مؤلفاته : مجمع البحرين ، الذى عارض فيه مقامات الحريرى فى ستين مقامة ، ومؤلفاته فى (اللغة العربية) : فصل الخطاب فى أصول لغة الأعراب . الجوهر الفرد فى موجز الصرف وفى (البيان والبديع) : مجموع الأدب فى فنون العرب .

وعمل إبراهيم اليازجى (١٨٤٧ — ١٩٠٦) فى نفس الميدان : فاشتغل باللغة العربية والصحافة والترجمة وكان ناقدا لاذع النقد . له مساجلة هامة مع فارس الشدياق . وقد فاق والده فى العلم باللغة والفقه لأسرارها . وانتدبه اليسوعيون للاشراف على تعريب التوراة ، فعمل بها تسع سنوات ، ثم هاجر إلى مصر وأصدر البيان ١٨٩٥ والضياء (١٨٩٨—١٩٠٦)

٣ — وعمل فارس الشدياق (١٨٠٤ — ١٨٨٧) فى ميادين اللغة والصحافة والترجمة . وكان أبرز معالم فكره ، حرية الرأى وسخرية النقد والجرأة فى نقد الكنيسة ورجالها ، وإصلاح المجتمع . وتجديد اللغة العربية والأسلوب العربى .

عمل فى الوقائع مع رفاعه الطهطاوى وأصدر الجوائب (١٨٦١ — ١٨٨٣) ودعا إلى تحرير المرأة . وعمل مع المرسلين الأمريكيين فى إدارة مطبعتهم بمالطه وتصحيح الكتب العربية . كما عمل فى لندن بدعوة من جمعية ترجمة التوراة وحرر الرائد التونسى واشترك فى ترجمة الكتاب المقدس ١٨٥٩ .

وله فى اللغة : سر الليال فى القلب والابدال . والجاسوس على القاموس وله (رحلته) التى ترتبط مع رحلة رفاعه الطهطاوى وعبدالله فكرى . (الساق على الساق فيما هو الفارياق)

* * *

وقد ارتبطت هذه المدرسة اللبنانية بالثقافة الفرنسيه ، وعمل رجالها مع المرسلين الأمريكيين وجمع أغلبهم بين الصحافة والتعليم وإصلاح اللغة العربية والترجمة والدعوة إلى تجديد الفكر العربى بالاقتباس من الفكر الغربى .

وقد امتدت هذه المدرسة فى يعقوب صروف ١٨٥٢ — ١٩٢٧ صاحب المقتطف ، ولويس شيخو صاحب (المشرق) وشبلى شميل (١٨٦٠ — ١٩١٧) داعية مذهب النشوء والارتقاء فى الفكر العربى .

ثم لم تلبث مدرسة مصر ، ومدرسة لبنان أن ارتبطتا وانصهرتا فأخرجتا أعلام التجديد الفكرى والصحافة والترجمة ، أمثال : أديب اسحق ، وفرج أنطون ، ورزق الله حسون ، ويعقوب صنوع ، وفرنسيس مراش .

٤ — أثر الهجرة اللبنانية

بدأت الهجرة اللبنانية إلى أمريكا الشمالية ١٨٥٤ التى فتح طريقها أنطون البشعلانى وتوالت طوائف المهاجرين وازدادت بعد حوادث ١٨٦٠ ثم اتسع

نطاقها بعد الثورة العرابية ويمكن إطلاق إسم الهجرة الشامية عليها نظراً لاشتراك الفلسطينيين والسوريين فيها .

وكانت ظاهرتا المجاعة والفقر من أبرز عوامل هذه الهجرة ؛ بدأت الهجرة إلى البرازيل (أمريكا الجنوبية) عام ١٨٧٤ وتكاثر المهاجرون بها في نهاية القرن بعد هرب يوسف كرم من لبنان مع فريق من جنوده إلى أمريكا الجنوبية ووصلت طلائع المهاجرين إلى الأرجنتين ١٨٨٤ التي فتحت أبوابها للمهاجرين العرب حتى زاد عددهم عن ٣٠٠ ألف .

وقد بدأت النهضة الفكرية ١٨٨٨ في الشمال حيث صدرت أول جريدة لهم في نيويورك (كوكب أمريكا) ثم صدرت (الهدى ـ نعوم مكرزم ١٨٩٨) ثم توالت الصحف كما أنشئت الجمعيات . وفي مقدمتها الرابطة القلمية بنيويورك ١٩١٢ والعصبية الأندلسية (سان باولو ١٩٣٢) وفي المهجر ظهر تيار من الأدب العربي عرف بالأدب المهجري تأثر أصحابه الأدب الغربي في وطلاقة وفي التحرر من قيود الأسلوب والمعاني . وكان ولا شك لظهور هذا الأدب في بيئة غير البيئة العربية التي كانت محتملة في ذلك الوقت بقيود الاستبداد والتقاليد ما مكن له من أن يحمل لواء التحرر .

وأبرز من ظهر في المهجر :جبران وأمين الريحاني ونسيب عريضه وفرحات وميخائيل نعيمة وايليا أبو ماضي والشاعر القروي وشفيق معلوف .

ولاشك كان للعوامل النفسية والاجتماعية التي أحاطت بهؤلاء المهاجرين أثرها في أدبهم ، فهم قد هاجروا من أوطانهم في ظل من الحاجة والمسغبة والاضطهاد ، فاذا بهم يقطعون الطريق إلى عالم مجهول ، عاشوا فيه بين الاغتراب والفاقة والعمل المضني في سبيل كسب العيش ، وذلك بحمل « الكشه » على أكتافهم يدودون

بها فى القرى ويعرضون ما يحملون فيها من لعب ودبابيس وأمشاط وصابون على البيوت التى يدقون أبوابها وقد استمروا طويلا فى هذا الجلاد المضنى حتى تحقق لهم الحصول على الغنى ، وفى ظل هذا الكفاح المضنى انتجوا آثارهم الأدبية التى حملت فى تضاعيفها معنى الحرمان والاغتراب والشوق إلى الوطن وتصوير ما احتملوه متاعب وآلام . وقد ذاع هذا الأدب فى العالم العربى كمذهب جديد تأثر به الأدب فى أسلوبه ومضمونه ، وكان الشعر أشد تأثراً به ، وحمل الأدب العربى فى لبنان لواء اللون المهجرى حتى عرف به .

ولا شك أن كان للأدب المهجرى بمعالمه وآرائه وحريته أثر واضح فى الفكر العربى الحديث فقد حمل لواء الدعوة إلى الحرية والقومية العربية ومقاومة الاستبداد والاستعمار ، وأتاح للآثار التى صدرت منه باللغة الانجليزية أن تعرف الغرب بالفكر العربى وقد أصابت آثار كثيرة منه وفى مقدمتها كتاب النبى لجبران خليل جبران شهرة بعيده فطبعت منه عشرات الآلاف من النسخ .

ويمثل الأدب المهجرى صورة واضحة لامتزاج الفكر العربى بالفكر الغربى والتأثر به فى الأسلوب والطريقة . وميزة الأدب المهجرى : الواقعية والانسانية ، وقد تأثر الروح الغربى واتجه نحو الإنسان من حيث هو إنسان حى ، فكان فى مجموعة يحمل لواء الدفاع والكرامة والحرية الإنسانية .

وتمثل الهجرة اللبنانية فى الفكر العربى طابع الأمة العربية فى الهجرة والاقتحام والمغامرة والتطلع إلى الآفاق البعيدة والخروج من البيئة إذا تضاعفت فيها عوامل الاضطهاد والفقر فى محاولة للبحث عن الرزق والحرية والكرامة مهما احتمل فى سبيل ذلك من العنت . وقد حققت الهجرة اللبنانية هذا المعنى ، ففتحت آفاقا جديدة ، وظل العدد الكبير من المهاجرين مرتبطا بالوطن ، مؤمنا بالعروبة واللغة العربية . يمتزج فى تفكيره الشوق إلى أرض الوطن بأفكار الحرية والكفاح فى سبيل الرزق . وكانت لصيحات الحرية التى أعلنها أثرها الواضح فى الوطن العربى .

دور الأزهر

لاشك أن للأزهر (٩٧٢ م) دوره الكبير فى ثقافتنا العربية ، هذا الدور الذى امتد خلال ألف سنة دون أن يتوقف ، حتى فى الفترة التى ركد فيها الفكر العربى الإسلامى وأصابه الجمود والتوقف ، ظل الأزهر حمى للتراث العربى وملاذا للغة العربية والدين ، فلما بدأت اليقظة الفكرية المعاصرة دبت الحياة فى الأزهر من جديد ومضى يواجه التطور والنهضة والغزو الثقافى والاستبداد والنفوذ الأجنبى والاستعمار ، فكان مصدراً لكل حركات المقاومة الوطنية فى خلال العصر الحديث كما كان فى الفترة السابقة معقلا لحماية اللغة العربية والدين والتراث الإسلامى حيث حفظ اللغة العربية من طغيان اللغة التركية عليها خلال السيطرة العثمانية التى امتدت ثلاثة قرون وقد قام الأزهر بدورة إزاء النفوذ الاجنبى والاستعمار .

- × قاوم استبداد الولاة المماليك وكتابة وثيقة تحرير الإنسان .
- × قاوم الحملة الفرنسية وقاد المقاومة الشعبية .
- × عزل الحاكم التركى خورشيد .
- × اشترك فى الثورة العرابية .
- × كان الأزهر معقلا لثورة ١٩١٩ .

وقد اتصل الأزهرة بالثقافة الغربية الحديثة منذأوائل القرن التاسع عشرحيث سافر رفاعه الطهطاوى إلى باريس ، وعياد الطنطاوى إلى بطرسبرج وشهدت جامعة السربون عام ١٨٢٨ حفلا عاما من علماء فرنسا وعظمائها يستمعون إلى الأزهرين

فى امتحانهم وكان « حسن العطار » الذى تولى ـ فيما بعد ـ منصب شيخ الأزهر هو أستاذ رفاعه الطهطاوى، وعياد الطنطاوى وغيرهم ، حيث كان يدرس لهم مقامات الحريرى وديوان الحماسة ، ولم تكن هذه الكتب تدرس فى الأزهر وقد اتصل بعلماء الفرنسيين الذين قدموا مع الحملة الفرنسية وأفاد منهم ثقافيا .

كان الشيخ حسن العطار (١١٨٠ ـ ١٢٥٠) أول من نبه إلى إصلاح الأزهر بتجديد برامج التعلم فيه ، ونقد إهمال الأزهر كتب المتقدمين والعلوم الحديثة والرياضية ووجه رفاعه الطهطاوى إلى دراسة العلوم التى نبغ فيها الغرب ليقوم بنقلها إلى اللغة العربية .

وحقق رفاعه أمل شيخه وكان لترجماته وأبحاثه أثرها فى كسر ذلك القيد الذى وقف طويلا بين الأزهر وبين الثقافة الحديثة وخفف من حدة نظرة العداء إلى المدينة الأوربية .

ودعا رفاعه الطهطاوى إلى إصلاح الأزهر وإدخال العلوم العصرية فيه غير أن الازهر لم يكن مستعدا للتطور السريع ، ولذلك فقد عجز أن يواجه الاتجاه التغريبى الذى قام به إسماعيل فى نقل القوانين الفرنسية .

وقد ورد فى بعض المراجع (كتاب مستردن المستشرق الانجليزى : الحياة الفكرية فى التاسع عشر) أن الحملة الفرنسية حينما قدمت إلى مصر وجدت فى صحن الأزهر بضع نساء يتعلمن إلى جانب الشبان لكى يتفقهن فى الدين . وأنه كانت هناك عالمة ضريرة يلتف حولها الشبان ويتلقون الدروس منها» وإذا كان البعض قد أثار الشك حول هذه الرواية فإن التاريخ قد حفظ أسماء : فاطمة الازهرية وسنية الطبلاوية ، وهما اللتان تعلمت على أيديهما عائشة التيمورية فن القصائد والموشحات .

٢ — وقد كانت طريقة التعليم فى الازهر اذذاك كما وصفها : محمد خالد حسنين هى الطريقة الاملائية . فكان الاستاذ يجلس وسط حلقة من طلبته ويملى عليهم درس الإملاء . وقدلبث الازهر على ذلك فترة من الزمن إلى أن كثر التدوين والتأليف فشرعوا فى دراسة الكتب .

ولم يكن للازهر قانون ينظم الدراسة التى كانت تجرى على أساس رغبة كل طالب فهو الذى يختار درسه ، ويختار استاذه ، فإذا بلغ قدراً من الكفاءة تقدم باذن من شيخه إلى حلقة يحضرها بعض الطلاب ويشهدها العلماء ، فيقرألهم فإن فهموا واستفادوا أقبلو عليه ، وكان ذلك شهادة بأنه من العلماء .

وأول قانون وضع للازهر (فبراير ١٨٧٢) ينص على نيل شهادة العالمية بامتحان على يد لجنة من العلماء يختارهم شيخ الازهر ، ويقسم العلماء إلى ثلاث درجات : أولى ، وثانية ، وثالثة ، وتصدر بذلك براءة عالمية – والمواد هى : الفقه والأصول ، والتوحيد ، والحديث ، والتفسير ، والنحو والصرف ، والمعانى ، والبيان ، والبديع ، والمنطق ، ثم زيدت علوم الحساب والجبر والهندسة والفلك . وفى عام ١٩١١ أنشىء مجلس الأزهر الأعلى وهيئة كبار العلماء وأقسام التخصص .

٣ — كان لجمال الدين الأفغانى دوره فى إصلاح الأزهر فقد دعا إلى إصلاح مناهج التعليم ، واتصل ببعض أساتذة الأزهر وخريجيه ، ودرس لهم أمهات الكتب فى علم الكلام والحكمة والهيئة والتصوف وأصول الفقه وكما دعا الأزهريين إلى دراسة التاريخ وقال :

إذا بقيتم على جهلكم بالتاريخ على هذا الحد فلا يمكنكم أن تعرفوا دينكم ولا نجاح لكم فى دنياكم . إن قراءة التاريخ واجب من الواجبات الدينية وركن من أركان اليقين فلا بد من تحصيله .

٤ — وكان لمحمد عبده دورة الإيجابي في تجديد الأزهر وإصلاحه إذ استطاع إنشاء مجلس إدارة الأزهر ، وكان هو من أعضائه فترة غير طويلة. وقد أجرى المجلس محاولات لإصلاح نظام التدريس والامتحان ، غير أنه لقي عقبات كبيرة في سبيل إجراء إصلاح شامل يقضي على كل أثر للجمود في الأزهر ، وكان رأي الجهات المسئولة الواقعة تحت سلطان النفوذ الأجنبي توقيف التطور باسم التدرج في الإصلاح وقد انتهى الأمر إلى وضع قانون يقوم بإصلاح نظام الدروس والامتحان صار به الأزهر ادارة نظامية.

وقد لقي محمد عبده مقاومة ضخمة من الخديو الذي كان نصيرا للاستعمار وحريصا — على أن لايدخل أي تقدم الفكري من شأنه أن يحرر الأذهان ، كما وجد المقاومة من أساتذة الأزهر وعلمائه ، الذين كانوا يؤمنون بنظام التعليم القديم حتى لقد ذهب البعض إلى القول بأنه حين وجه إلى الشيخ عبده القول في مجال الدفاع عن النظام القديم إنه واحد من ثمراته وإنه قد وصل إلى أرقى الدراجات . إن أجاب بأنه إذا كان لي حظ من العلم الصحيح فإني لم أحصله إلا بعد أن مكثت عشر سنين أكنس من دماغي ما علق فيه من علوم الأزهر . وقد حملت دعوة محمد عبده الإصلاحية محملا من شقين : (١) إصلاح الازهر (٢) الإصلاح الديني بفتح باب الاجتهاد .

٥ — غير أن هذا النظام الجديد للأزهر لم يلبث أن توقف بعد أن وقع الخلاف بين الخديو والشيخ محمد عبده فاستيقظت النزعة القديمة التي وضعها الشيخ الظواهري وعبر عنها بقوله . « الدين كما تركها الائمة . أما سوى ذلك من أمور الدنيا وعلوم العصر فلا علاقة للازهر به » وأنكر العلماء التجديد « الذي من شأنه أن يهدم معالم التعليم الديني ويحول المسجد إلى مدرسة فلسفة وآداب تحارب الدين وتطفيء نوره » ووافق الخديو على إدخال العلوم الحديثة . ورفض الإصلاح الديني .

ووقف عدد من مشايخ الأزهر منهم (الشربيني والبشرى) ضد الإصلاح مما انتهى إلى إلغاء النظام الجديد واعيد النظام القديم عام (١٩٠٩) وكان من أهم أسباب الاعتراض على النظام الجديد : إلزام الطلبة (الامتحان فى العلوم الحديثة) .

٥ — ربط الأزهر العالم الإسلامى فكان مجال الالتقاء بين شباب مصر والشام والمغرب والترك والسودان والحجاز وجاوة والحبشة والأفغان والهند والعراق وقد بلغ طلابه عام ١٩٠٦ (١٠ آلاف طالب) .

وخرّج الأزهر أعلاما قاموا بقيادة الفكر العربى فى هذه الفترة وما بعدها وفى مصر أمثال : حسن العطار أستاذ الطهطاوى والطنطاوى ، وحسن الطويل أستاذ محمد عبده ، ومحمد عبده ، وحسين المرصفى ، وسعد زغلول ، وأحمد أبو خطوة وعلى يوسف ، وإبراهيم الهلباوى ، وعبد السلام المويلحى ، وابراهيم اللقانى . والمراغى .

وقد عرف للشيخ حسن العطار موقفه من نابليون حيث انتزع القلادة التى قلده إياها وألقى بها إلى الأرض فى حضرته ورفض أن يقبل تحية محتل لبلاده وقد اشترك الأزهر عام ١٩٠٢ فى مؤتمر اللغات الشرقية (بها مبورج) بألمانيا ولا شك أن الاستعمار الغربى والغزو الثقافى بمختلف مراحله قد وجه كثيرا من خططه التغريبية نحو الأزهر فحرص على أن يفصل بينه وبين التطور والحضارة وذلك بالتوسع فى التعليم المدنى مما خلق مشكلة (ثنائية التعليم) التى كان لها أثرها الواضح .

٦ — ويتصل بأثر الأزهر فى التفكير العربى الحديث ، أثر معاهد أخرى تقوم بنفس رسالته منها : معاهد النجف بالعراق والزيتونة فى تونس والقروى فى المغرب

والخلايا فى السودان ، وحلقات مساجد دمشق والجزائر والزوايا السنوسية فى طرابلس .

فقد كان لهذه المعاهد العلمية القائمة على الدراسات الدينية واللغوية أثرها الواضح فى الروابط التى قامت بين اللغة والفقة والتى كان لها بعيدة المدى فى مقاومة تيارات التغريب والغزو الثقافى التى استهدفت ، القضاء على اللغة العربية والإسلام وتزييف تاريخ الأمة العربية والأمة الاسلامية والتشكيك فى القيم والتراث والبطولات ومدى الدور الذى قامت به الأمة العربية فى نقل الحضارة والمحافظة عليها والتفاعل معها وتطويرها ، مما كان له أبعد الأثر فى ظهور الحضارة والحديثة .

مراجع البحث

/ ك/ الأزهر بين الماضى والحاضر : منصور رجب ملحق المقتطف (أبريل ١٩٤٦
الرسالة ص ١١٠ مجلد السنة التاسعة .
محمود إبو العيون = مجلد ٤٠ الهلال ص ٦٠
التعليم فى الأزهر = ص ١٣٨ الهلال مجلد ١٥
الأزهر فى جامعة غرناطة : الأهرام ١٩/١٢/٣٢ (محمد خالد حسنين)
/ كـ/ تاريخ الإصلاح فى الازهر : عبد المتعال الصعيدى .

دور الصحافة

كان للصحافة العربية دورها فى يقظة الفكر العربى المعاصر ، فقد عاصرت هذه اليقظة وارتبطت بها وكانت عاملا فاعلا منفعلا بها . فالصحافة هى أبرز عوامل الثقافة واعمقها أثراً ، وهى أقوى من المدرسة والكتاب فضلا عن أنها بعيدة الأثر فى التيارات المختلفة : الاجتماعية ، والسياسية ، وقد حملت لواء تجديد الدين والدعوة إلى الحرية والإصلاح ، ومقاومة طغيان السلاطين والملوك والأمراء . ومهاجمة التدخل الأجنبى والاستعمار . وقد استغلها الحاكم المستبد والأمير والسلطان والاستعمار .

حملت الصحافة لواء الدعوات المختلفة :التجزئة والوحدة ، والجامعة الإسلامية والقومية العربية والفرعونية والفينيقية و دعوات التغريب والغزو الثقافى ، ودعوات المقاومة وتحرير الفكر العربى من إطار العبودية التركية أو الانجليزية أوالفرنسية .

وكانت الصحافة فى دورها الضخم تمثل معركة الفكر العربى كله مجسمة فى صورة صحف تصدر هنا وهناك فى أنحاء الوطن العربى ، وفى خارج الوطن العربى : فى لندن وباريس والاستانة

ولقى الصحفيون الاستشهاد والغنائم على حد سواء ، عاش المجاهدون والأحرار منهم حياة الضمير والكرامة مع الفقر والاضطهاد من الاستعمار وعاش المحترفون العملاء حياة الثراء وكانت أقلامهم تقطر السم وتحرف القول .

وفى هذه الفترة (حتى نهاية الحرب العالمية الأولى) تبدو الصحف فى ثوب بسيط تغلب عليه ركاكة الأسلوب الذى تطور إلى أسلوب وسط ، مع بساطة

الإخراج وغلبة الرأى على الخبر ، وغلبة الكتابة على الصورة . وغلبة روح الوطنية الخالصة على روح العمالة للأحزاب والهيئات . وغلبة صحف الأفراد على صحف الشركات والمؤسسات .

× صدرت الصحف فى أول أمرها بواسطة الحكام أو الاستعمار . فأصدر محمد على الوقائع المصرية (١٨٢٨) وأصدر والى سورية (حديقة الأخبار) والباى فى تونس أصدر (الرائد) وداود باشا حاكم لبنان أصدر جريدة لبنان ١٨٦٧ وصدرت الجوانب فى الاستانة موالية للسلطان عبد الحميد والخديو فى مصر والباى التونسى ، كما أصدر الاستعمار صحفا تدافع عن وجوده مثل المبشر فى الجزائر (١٨٤٧) والمقطم فى مصر (١٨٨٩) .

ثم صدرت من بعد صحفا حرة ، قام بإصدارها الأفراد ، ولكنها كانت ذات ولاء من نوع أو آخر ، ولم تتحرر الصحف إلا حين دعا جمال الدين دعوته فى مصر إلى الحرية ومقاومة : الاستبداد ، حينئذ ظهرت مدرسة الأبرار فى عالم الصحف ، أولئك الذين صارعهم الحاكم أو الاستعمار أو النفوذ الأجنبى ، فأغلق صحفهم واحدة بعد أخرى ، ولقوا بعد ذلك السجن والنفى والتشديد ، ومن هؤلاء أديب اسحق وسليم نقاش .

× وكان رزق الله حسون أول عربى أنشأ صحيفة عربية هى مرآة الأحوال ١٨٥٥ ثم فارس الشدياق أصدر (الجوائب) الاستانة وأصدر عبد الله أبو السعود (وادى النيل) ١٨٦٦ .

× — واستطاعت طوائف من أحرار سوريا وصحفها أن نقلت من حصار السلطان عبد الحميد وتصدر فى القاهرة صحفا تهاجم فيها الاستبداد الحميدى والخلافة العثمانية ، ولم يكن هذا فى حد ذاته يعنى إلا أن بريطانيا التى كانت تحكم مصر إذ ذاك تشجع مهاجمة دولة الخلافة لتحطيمها ، والاستيلاء على ميراثها . وكان الهجوم على دولة الخلافة يحمل أكثر من معنى فقد كان بالنسبة لبعض

كتاب لبنان رد فعل لأحداث سنة ١٨٦٠ والجرى فى تيار الاستعمار الفرنسى والبريطانى الذى كان يعمل على تحطيم الامبراطورية العثمانية .

× كانت الصحافة العربية فى هذه الفترة تهدف إلى: (١) إصلاح اللغة العربية وتحولت من الركاكة فى التعبير إلى أسلوب ميسر معقول (٢) تحرير الوطن العربى من الاستبداد العثمانى وأحكام المستبدين فى الأقطار ، والاستعمار (٣) تحرير الوطن العربى من التقاليد والعادات البالية .

كما قامت الصحافة بدور فعال فى تحرير المرأة وإنشاء الجامعة ، ودعم الاقتصاد الوطنى والاشتراكية والقومية العربية .

× واستعملت الصحافة فى هذه الفترة أسلوب العاطفة ، وإثارة النفوس والحماس والرأى الجرىء ، وقامت على أكتاف دعاة مؤمنين بأفكارهم أو تجار محترفين يجيدون صناعة بيع القلم ، وحتى نهاية فترة ماقبل الحرب العالمية الأولى تحطمت صحافة الرأى الحر وسيطرت صحافة (١) المدارس المتأثرة بالغرب (٢) الصحف ذات اللون المالىء المحتل (٣) الصحف الممالئة للاقطاع ومن أسماهم الاستعمار أصحاب المصالح الحقيقية .

وقد استطاع الاستعمار فى مصر القضاء على الصحف الوطنية حتى إذا جاءت الحرب العالمية لم يبق فى الميدان إلا الصحف الشبيهة بالرسمية والموالية للاستعمار والمحايدة .

× بدأت الصحف إخبارية : تحمل الأوامر الحكومية وشئون التجارة والدواوين وأحوال السياسة والتجارة ثم حملت رسالة النقد الاجتماعى والسياسى .

وقد اهتم رفاعه الطهطاوى بالإصلاح الاجتماعى ، وجدد التعبير الصحفى . واهتم ابراهيم اليازجى بلغة الجرائد وصحح تعبيراتها ، وأحل فارس الشدياق التعبيرات

الجديدة فى مكان الـكلمات الأجنبية ، ومنها كلمات : المؤتمر ، والأسطول والباخرة والبريد والمنطاد والحافلة والأزمة المالية والسند والسلك البرقى .

× كان كتاب الصحف فى أول الأمر كتاب بلغاء أمثال : ناصيف اليازجى وبطرس البستانى ، ورفاعه الطهطاوى ، وفارس الشدياق وليسوا صحفيين على النحو الذى عرف بعد الحرب العالمية الأولى .

وكانوا يجمعون إلى الصحافة : التعليم ، وتأليف الـكتب ، والبحث العلمى ، واللغوى ، ولم تـكن الصحافة مهنتهم الوحيدة .

× وسجلت الصحف فى هذه الفترة معارك ومناظرات أدبية غلب عليها الطابع الشخصى من أهمها معركة : فارس الشدياق وابراهيم اليازجى . كما أجرى مناظرات مع ابراهيم الأحدب ، ولويس صابونجى ، وسعيد الشرتونى ، وبطرس البستانى ، وقامت معركة الشدياق مع اليازجى على أثر موت ناصيف اليازجى ١٨٧١ حين رثاه الشدياق على صفحات الجرائد وانتقده وكان موضوع الانتقاد لفظة (فطحل) وقد انتصر اليازجى لأبيه على صفحات الجنان لبطرس البستانى .

ومن أجل معركة رزق الله حسون مع وفارس الشدياق أصدر حسون مجلة سماها (رجوم وغساق) ١٨٦٨ وهو مؤسس جريدة مرآة الأحوال .

وقد أخذ المؤرخون على فارس الشدياق أسلوبه المقذع ، والعدول عن البرهان إلى الطعن والشتم .

× حاولت الصحافة العربية خلق رأى عام يهدف إلى (١) مقاومة النفوذ الأجنبى (٢) مقاومة استبداد السلطان والولاة والحـكام والأمراء (٣) الاصلاح

الاجتماعى ورفع المستوى .

وانقسمت الصحف بين التيارات الأربعة (١) التيار الوطنى القومى الحر (٢) التيار العثمانى (٣) التيار الفرنسى (٤) التيار الانجليزى .

وصدرت الصحف فى العالم العربى باللغة التركية والعربية فى مصر وسوريا ، وبالعربية والفرنسية فى الجزائر ، وهاجر كثير من الكتاب اللبنانيين إلى أوربا وأمريكا وصدرت لهم صحف فى لندن وباريس وروما .

فاصدر رزق الله حسون فى لندن « مرآة الأحوال » وندد بمبادىء السلطة العثمانية وكان مر الهجاء وعمل معه ، لويس صابونجى ، وجبرائيل دلال ، وأمين الشميل وعبد الله مراش ، وكانت دعوتهم إلى إقامة خلافه عربيه بدلا من الخلافة العثمانية

وأصدر خليل غانم صحفا فى فرنسا قاوم بها السلطة العثمانية .

وقامت الصحافة العربية فى المهجر ، بدور ضخم ، فقد ربطت بين الجاليات العربية وبين الوطن العربى ، وقد صدرت صحف عربية متعددة فى كندا ، والمكسيك ، والأرجنتين والبرازيل التى صدر بها وحدها ١٤٠ صحيفة . وقد حملت صحافة المهجر لواء الحرية وحب الوطن وإيقاظ روح القومية العربية ، وكانت أشد جرأة فى النقد من صحف الوطن

وتمخضت هذه الحركة الصحفية عن ظهور تيارين صحفيين واضحين فى العالم العربى :

١ — تيار الدعوة إلى الوطنية والحرية ، لمقاومة الاستعمار الغربى .

٢ — تيار قبول الالتقاء بالاستعمار فى منتصف الطريق ، وقبول الحضارة الغربية والدعوة إلى التجزئة والأقليمية .

(التيار الأول)

أثر جمال الدين الأفغاني في الصحافة من ناحيتين : إلتقاؤه في مصر بالكتاب الذين أقاموا صحافة جديدة لأول مرة في العالم العربي كله قوامها (١) مقاومة الاستبداد في الحكم ، والدعوة إلى الدستور والحياة النيابية للحد من سلطان الفرد (٢) مقاومة الاستعمار البريطاني ، والنفوذ الأجنبي (٣) الدعوة إلى الإصلاح الاجتماعي ، وتحرير اللغة من قيود السجع ، والكتابة من المدح والهجاء وتحرير الدين من قيد التقليد وأبرز من قام بهذا الدور أديب أسحق ، وابراهيم اللقاني ، وسليم عنحوري ، وقد شارك جمال الدين في هذه الصحف وكتب بتوقيع « مظهر ابن وضاح » وكانت حملاته على الانجليز من أهم ما كتب وقيل أنه أوحى إلى يعقوب ابن صنوع بإصدار صحيفة شعبية ساخرة(٣)كان عمله الآخر بعيد المدى حيث انشأ صحيفة (العروة الوثقى) في باريس صدرت في ١٣ مارس ١٨٨٤ وتوقفت بعد صدور ١٨ عدداً منها .

كان لها أثرها البعيد المدى على الصحافة العربية كلها حيث خلقت تياراً قوياً وحملت لواءه المنار والمؤيد فيما بعد .

ومن أقواله البعيدة المدى في تكوين الرأي العام قوله : أنت أيها الفلاح المسكين تشق قلب الأرض لتنبت منها ما يسد الرمق ، وتقوم بأود العيال . فلماذا لاتشق قلب ظالمك ، لماذا لاتشق قلوب الذين يأكلون ثمرة أتعابك .

× حملت هذه الصحف لواء الرد على إفتراءات الغرب وأكاذيبه . وقد كان لمحمد عبده دور كبير في الرد على أخطاء هانوتو وفرح انطون (١٩٠٠) .

وكان محمد عبده قد رأس تحرير الوقائع (١٨٨٠)، وعمل مع تلميذه عبد الكريم سليمان على خلق صحافة النقد والاصلاح الاجتماعي ، ورفع مستوى الكتابة والتحرير في التقارير الرسمية . وبلغ من تشدده في النهوض بالتحرير في الصحف العربية ، أنه أنذر

مدر جريدة شهيرة بتعطيل جريدته إذا لم يجد لها محرراً ، صحيح العبارة . وقد وجه نقده الصحفي إلى مختلف قضايا المجتمع وكان أهم ما ركز عليه تركيزاً متصلا «التعليم» وعرض لحكومة الشورى ، ودعا إلى إقامة نهضة وطنية حقيقية على أسس ثابتة .

* * *

وصور أديب أسحق منهج هذا التيار فى العدد الأول من صحيفة (جريدة مصر القاهرة) ٢٤ كانون أول ١٨٧٩ .

«مسلكي أن أكشف حقائق الأمور ملتزماً جانب التصريح متجافياً عن التعريض والتلميح . وأن أجلو مبادىء الحرية وآراء ذوى النقد . وأن أبين مايظهره البحث من عواقب الحوادث ومقاصد أهل الحل والعقد . وأن أوضح معايب اللصوص الذين نسميهم إصطلاحا (أولى الأمر) ومثالب الخونة الذين ندعوهم وهما (أمناء الأمة) ومفاسد الظلمة الذين نلقبهم جهلا « ولاة النظام » .

ومقصدى أن أثير بقية الحمية الشرقية . وإهييج فضالة الدم العربى وأرفع الغشاوة عن أعين الساذجين وأحيى الغيرة فى قلوب العارفين ليعلم قومى أن لهم حقا مسلوبا فيلتمسوه . ومالا منهوبا فيطلبوه . ولتخرجوا من خطة الخسف وينبذوا منهم كل مولس يشترى بحقوقهم ثمناً قليلا . ويذيقوا الخائنين عذابا وبيلا وليستميتوا فى مجاهدة الذين يبيعون أبدانهم وأموالهم وأوطانهم وآلهم من الأجانب عما يطمعون فيه من رفعة المقام . فمن قتل دون ماله فهو شهيد ، ومن قتل دون عرضه فهو شهيد ، ومن قتل دون أهله فهو شهيد » .

وقامت اللواء فى مصر بدور ضخم فى مقاومة الاستعمار البريطانى والحملة على كرومر . وحمل مصطفى كامل على العميد البريطانى عقب

حادث دنشواى (يونية ١٩٠٦) شهرين كاملين فى صحف مصر وأوربا وأهمها الفيجارو الفرنسية ، وظل هجومه على الاستعمار البريطانى وممثله كرومر فى مصر مستمراً لم يتوقف .

وحملت (اللواء) الدعوة إلى الجلاء والحرية والدستور وكانت دعوتها حماسية صادقة الإيمان بدورها فى التعبئة الوطنية ، حتى أنها انفصلت عن الخديو عندما غير اتجاهه ، وهاجمت فرنسا بعد عقدها الاتفاق الودى (وكانت تعتمد عليهما من قبل) .

وقد أعلن مصطفى كامل فى اللواء (٢ يناير ١٩٠٠) أن هدفه هو « خدمة الوطن والاسلام بإشراف السبل وأنفعها والسعى وراء الاتحاد والاتفاق بين المصريين وبعضهم من جهة أخرى . والعمل لتربية أبناء مصر أحسن تربية وطنية وترقية التجارة والصناعة » .

كما دعت الصحف الوطنية الشعبية إلى تعليم الشعب وإنشاء الجمعيات التعاونية

× وكان للصحافة العربية دورها فى مجال الحرية والدستور فى مصر بعد صدور الدستور العثمانى (يوليه ١٩٠٨) انطلقت الصيحة بالدعوة إلى إنشاء حكومة نيابية فى مصر واضطر مجلس شورى القوانين (ديسمبر ١٩٠٨) أن يطالب من الحكومة وضع مشروع قانون يمنح الأمة حق الاشتراك الفعلى مع الحكومة فى إدارة أمورها الداخلية .

وحمل عبد العزيز شاويش على سياسة دنلوب فى وزارة المعارف والحكم الانجليزى فى السودان . وهاجم رئيس محكمة دنشواى وهو رئيس الوزراء .

وكان موقف الصحافة من مشروع مد اعتبار قناة السويس من أبرز مواقف المقاومة ، فقد هاجم محمد فريد المشروع فى جريدة اللواء فى (أكتوبر ١٩٠٩) هجوما مدعما بالأسانيد والحجج ، وظل يواصل حملته حتى أبريل ١٩١٠ . ونقل الفكرة من عمل

إقتصادى إلى عمل سياسى ، يتصل بكرامة الوطن ، وحريته ، وكان لهذه الحملة أثرها إذ عجز مجلس شورى القوانين عن الحصول على موافقة تكفل تنفيذ المشروع بالرغم من مرافعة (سعد زغلول) لصالح المشروع .

× وفى تونس نهض التونسيون يطلبون الشورى بدلا من الحكم الفردى الاستبدادى ، وكان للصحافة دورها فى مؤازرة هذه النهضة . وقام محمد بيرم الخامس ، بحمل لواء الدعوة إلى الدستور والشورى بمؤازرة خير الدين باشا الوزير التونسى .

× وكانت مجلة ثمرات الفنون فى بيروت (١٨٧٥ — ١٩٠٨) من أبرز الصحف التى حملت لواء الدعوة إلى الحرية وقد واجهت مساجلات جريدة من الجوائب التى كانت تؤيد السلطان ومجلة البشير اليسوعى .

× وعبد الرحمن الكواكبى بصحيفتى : الشهباء ١٨٧٧ ، والاعتدال ١٨٧٩ يمثل هذا الاتجاه الوطنى الحر ، وقد لقى المعارضة والسجن والنفى والمحاكمة مما اضطره إلى الهجرة إلى مصر وإعلان آرائه فى الاستبداد ، والدعوة إلى الجامعة الإسلامية بها .

× وكان عبد الله نديم من رجال هذا الاتجاه ، بصحيفة الطائف التى هاجمت الاستعمار البريطانى قبل الثورة العرابية وخلالها ، ومجلة الأستاذ فى خلال حكم اللورد كرومر .

[التيار الثانى]

وكان التيار الثانى الموالى للحكام أو للاستعمار ، أقوى ماديا فقد حصل على اعتمادات مالية ضخمة آزرته ، كما سمحت له الحكومات بموالاة الظهور حين ضيقت على الجانب الآخر وقصفت أقلامه ، وعطلت صحفه . وكان المقطم فى مصر

أهم هذه الصحف . فقد رأى الاستعمار مقاومة الصحافة بالصحافة فأصدر المقطم (١٨٨٩) صحيفة يومية سياسية تجارية وذكر « بلنت » فى مذكراته أن وزارتى الحربية والداخلية دفعتا لصحيفة المقطم مبلغا عظيما من المال لتدافع عن تصرفات الإنجليز فيها وقد عجز الخديو إزاء حملات المقطم أن يقدمها المحاكمة

وأتيح للمقطم أن تحصل على أهم الأخبار وتنفرد بها ، بينما حرمت منها الصحف الأخرى حتى أنها استطاعت أن تنشر بعض الأحكام القضائية قبل النطق بها بمدة أيام . وقد صاغت عقود المديح للاحتلال وتصرفاته . وقاومت خصومه وحملت على الخلافة والسلطة العثمانية .

ولما صدرت المؤيد ، اندلعت بينهما خصومات ومساجلات فأتهمت المقطم جريدة المؤيد بالتعصب . واتهمت صاحب المؤيد بالجهل وانضمت الصحف الأجنبية إلى المقطم ضد المؤيد . ووصف المقطم كتابات على يوسف بأنها تعرض حياة الأوربيين للخطر .

وقد سافر فارس نمر إلى لندن واجتمع بكبار السياسيين فيها وحرص على ترجمة تقارير اللورد كرومر السنوية ومن بعده تقارير مندوبى بريطانيا ونشرها فى المقطم والمقتطف .

× وفى بريطانيا أصدر لويس صابونجى صحيفة النحلة ١٨٧٧ باللغة العربية والانجليزية ، كما أنشأ جريدة الاتحاد العربى وجريدة الخلافة : ومثل لويس صابونجى بين يدى فيكتوريا ملكة بريطانيا وقام على خدمة مصالح الدولة البريطانية فى مصر أثناء الثورة العرابية . ثم تحول من خدمة الاستعمار إلى خدمة الاستبداد العثمانى فسافر إلى تركيا ١٨٩٠ وعمل فى معية السلطان عبد الحميد .

وكان الدكتور صابونجى يؤيد الاستبداد ويناصر الخديو إسماعيل ، والنظام

حيدر أياد وقد تبرع له بعض الممولين فى انـكلترا بعشرة آلاف جنيه لإصدار جريدة الخلافة فى لندن التى كانت حريصة على مهاجمة الإسلام ونشر الأخبار الجارحة عن السلطان ، محملة بروح الخصومة والحقد ، وكانت جريدة الخلافة تطبع بالعربية والتركية والفارسية والهندية .

وأصدر إبراهيم المويلحى صحفا فى إيطاليا ، أهمها جريدة الخلافة ١٨٧٩ بالعربية التركية لمهاجمة السلطان عبد الحميد وبإيعاز من الخديو إسماعيل المخلوع ثم أغراه السلطان عبد الحميد بالمـال فأوقف الصحيفة وسافر إلى الاستانة وقربه السلطان وأنشأ مصباح الشرق فى مصر لـكى يمدح السلطان .

وقد وصفه أحمد فؤاد صاحب الصاعقة فقال عن ألوان صحفه (٤) إن كل جريدة بينها من اختلاف الرأى ما بين الروافض . ومن البعد فى الفكر ما بين المسجد الحرام والمسجد الأقصى . وقيل لم يسلم من قوارض قلمه إلا من لم يعرفه .

× وفارس الشدياق كان يرضى بجريدته (الجوائب) التى نشرها فى الاستانة الخليفة العثمانى ، والخديو اسماعيل ، والباى التونسى ، وقد عمل (لخدمة أفكارهم وترويج مصالح بلادهم) وكان يحصل سنويا على ٥٠٠ ليرة عثمانية من كل من : الخليفة ، والخديوى ، والباى .

ومن أعماله المشينة طبعه المنشور الذى أصدره الباب العالى ؛ باعلان عصيان عرابى وقد عزى إلى هذا المنشور ما أصاب عرابى من هزيمة وسقوط فى نظر المسلمين وحصل من سفارة بريطانيا فى الاستانه فى مقابل هذا العمل على ألف ليرة انجليزية .

× وقد هاجمت الأهرام والمقطم الثورة العرابية ووصفتا عرابى بما أسمته الصحيفتان : (العاصى عرابى ورفاقه) البغاه ومدحت سلطان باشا الخائن والجنرال ولسلى .

× وقد ظهر تيار حيادى المظهر ، داخل هذا التيار لايحمل لواء مدح الاستعمار صراحة : هذا هو اتجاه لطفى السيد فى (الجريدة) وهو أقل فى الدرجة وأقرب إلى الالتقاء مع الاستعمار فى منتصف الطريق ، وقد اتجه هذا التيار إلى محاسنة الاحتلال ، ومهاجمة الخلافة والسلطة العثمانية ، ونقد أسلوب مصطفى كامل فى تعبئة المشاعر الوطنية واتهامه بالحماسة والعنف . والدعوة إلى التعقيل ، وقبول الأوضاع والإصلاح تدريجيا . وقد حددت دعوتها فى تحقيق الأمانى الوطنية بأنها إنما تتم باتفاق يحدث بين الاحتلال وبين أعيان المصريين وحدهم بحسبانهم أصحاب المصالح الحقيقية . وكانت تعتبر (الخديو) صاحب السلطة الشرعية . و (ممثل بريطانيا) وصاحب السلطة الفعلية ، وقد اتجه هذا التيار أيضا إلى تقييد التعليم وقصره على أبناء الأثرياء . كما دعا لطفى السيد إلى الكتابة باللغة العامية .

وقد أطلق كرومر على هذا التيار : تيار المفكرين البعيدى النظر ، ولهذا التيار شبيه فى البلاد العربية الأخرى .

مراجع

تاريخ الصحافة العربية : الفيكونت فليب دى طرازى ج ١ و ٢ .

الصحافة العربية : اديب مرده .

تطور الصحافة المصرية ١٧٩٨ — ١٩٥١ = ابراهيم عبده .

تطور التعليم

للتعليم أثره الواضح فى تكوين الفكر العربى المعاصر . وكانت نهضته علامة على اليقظة الفكرية التى شملت الوطن العربى كله . غير أن هناك عوامل متعددة حالت دون دفعه فى طريقه الطبيعى أهمها : الاستبداد والإقطاع والنفوذ الأجنبى . فقد كانت هذه الفئات الثلاث تكره التعليم وتراه خطرا على وجودها . ولذلك وقفت فى وجهه فلما عجزت عن صد تياره أثرت فى مفاهيمه وغاياته وانحرفت بها عن الهدف الأصيل .

وقد كان التعليم فى أوائل القرن التاسع عشر فى العالم العربى قاصراً على المدارس الدينية والكتاتيب ومعاهد اللغة والدين ، كالأزهر ، والقرويين ، والزيتونة ، وغيرها من الخلايا والزوايا الملحقة بالمساجد الجامعة لحلقات الدرس والصلاة .

وكانت أولى حركات اصلاح التعليم تهدف إلى إدخال مناهج العلوم العقلية والنظم الحديثة إلى هذه المعاهد .

غير أنه لم تلبث أن ظهرت تحت تأثير الاتصال بالحضارة الحديثة أنظمة جديدة للتعليم خاصة فى الاستانة ، ومصر ، ولبنان إذ انشئت المدارس ، والمعاهد ، والكليات على الأنظمة الحديثة . وكان شباب العالم العربى كله يتجه إلى الاستانة للتعليم العالى ، وفى مصر كان لنهضة محمد على العسكرية أثرها فى إنشاء المدارس الحديثة .

وكان للمرسلين الأجانب : من الفرنسيين والأمريكيين أثرهم الواضح فى إنشاء المدارس الحديثة ، والمعاهد ، والكليات ، فى بيروت وأسيوط .

وكانت للمدارس العربية فى الشام (لبنان وسوريا وفلسطين) والعراق تعلم باللغة

التركية بوجه عام ، حتى لقد كانت تدرس قواعد اللغة العربية باللغة التركية .

ثم اتجهت المدارس العليا التركية إلى التعليم باللغة الفرنسية إلى جوار اللغة التركية ، وفى مصر كان لرفاعة الطهطاوى وعلى مبارك (فى منتصف القرن التاسع عشر) أثرهما فى تطوير التعليم فقد كان الأول أزهريا التعلم وكان الآخر مدنى التعلم، وقد أتيح لهما أن يدرسا فى فرنسا ، ثم كان لهما العمل فى إعداد المناهج بعد عودتهما . وقد وصل على مبارك إلى مرتبة عليا حيث نال أرقى منصب فى وزارة المعارف (١٨٧٩) .

وقد عمل رفاعه فى ميدان التأليف والترجمة وإعداد المناهج وبلغ فى ذلك أسمى غاية حيث دعا إلى الاقتباس الصالح من الغرب وأدخل النشيد الوطنى ، والدعوة إلى الدستور والحرية ، ويعد أول من تحدث عن الوطنية ودعا إلى الاعتزاز بالتاريخ المصرى ، والتراث الفرعونى ، وحاول أن يغطى الثغرات المختلفة فى الكتب والمؤلفات المقررة على المدارس .

أما « على مبارك » فقد كان إداريا نابغا حقق للتعليم نتائج هامة ، حيث نقل المدارس من العباسية إلى سراى درب الجماميز ، ونظم المدارس الأهلية وأنشأ مدارس مركزية فى بعض مدن القطر . وانفق على المدارس من تبرعات الأهالى وأموال الأوقاف الخيرية وكان له فضله فى إنشاء مجلة ثقافية حررها عدد كبير من رجال الفكر المسماه (روضة المدارس) أنشأ دار الكتب ، حيث جمع الكتب المتناثرة فى المكتبات المختلفة فى مكتبة كبرى جامعة كما إنشاء دار العلوم ليكمل بها النقص الذى وجده فى مناهج الأزهر وهو نفس العمل الذى قام به طاهر الجزائرى فى دمشق ، حيث أنشأ المكتبة الظاهرية من مختلف المكتبات المتناثرة .

وكان لعلى مبارك « مندرة » لها أثر تاريخى ، واضح الدلالة فهى أشبه بالرواق العباسى الذى كان يلقى فيه محمد عبده دروسه الشهيرة ، التى حولت الفكر الدينى ورسمت له مناهج التجديد والاجتهاد .

وكان على مبارك يفتح مندرته لكل من يرد إليه وخاصة الطلاب والشباب الذين أفسح لهم السبيل إلى مناقشته فإذا ما كل حديثه معهم قال لهم : أنا ناظر ؛ أنا أكبر من مديركم فإذا ذهبتم إلى بلدكم ووجدتم الناس يشكون من عيوب الإدارة فلا تهيبوا أن تذهبوا إلى المدير وتعرضوا عليه الشكوى .

وكان يهدف من ذلك إلى علاج ناحية الذل والاستكانة التى كانت إحدى ثمرات عهود الضعف ، وقد أرجع المؤرخون تحرر على مبارك وواقعيته إلى دراسته العلمية الصحيحة حيث بدأ حياته مهندسا ، وإلى أنه لم يتعلم فى الأزهر .

وقد حاول أن يرسم فى قصته « علم الدين » كيف يمكن للأزهرى أن يتصل بالمدينة الحديثة وأن ينقل محاسنها دون أن يتجمد أو ينحرف وقد نقل على مبارك طرق التعليم الغربية والفرنسية خاصة ، إلى دور العلم المصرية .

ويتصل برفاعه ، وعلى مبارك رائد ثالث هو : عبد الله فكرى ، الذى كان له دور فى ميدان التأليف التعليمى .

٣ — تطور التعليم فى العالم العربى من نظم المعاهد الدينية إلى الأنظمة الحديثة وقد كانت الطريقة القديمة هى الطريقة الاملائية على نظام الحلقات التى يتوسطها الأستاذ ليملى دروسه ، ثم نشأت طرق التدوين والتأليف . ووضع شروح المتون والحواشى والتقريرات ، حتى فاق ذلك الاهتمام بالمتون الأصلية . وكان يعتمد على المدرس لا على المنهج .

ولم تكن هناك أنظمة أو قوانين تقيد الدراسة ، وكان للطالب وفق رغباته أن يختار أستاذه وأن يقضى المدة التى يراها . وهذا النظام كان موجودا فى الأزهر والمعاهد الدينية واللغوية المختلفة ، ثم كان للنهضة أثرها فى :

× وضع قوانين وأنظمة للتعليم تحدد نوع الدراسات ومددها وما يتعلق بالامتحانات والشهادات .

× وضع برامج للدراسات .

× تأليف كتب للمناهج والدراسات .

فى لبنان وسوريا

(— كان للبنان دورها الواضح فى التعليم الحديث عن طريق المدارس الطائفية، والمدارس الأجنبية ، هذه المدارس التى استطاعت أن تقوم على منهج وفق نظام الطوائف الذى منحته الدولة العثمانية لغير المسلمين فى إنشاء الكنائس والأديرة والمدارس الخاصة .

ولذلك فقد أسست الطوائف المختلفة معاهد تعليمية خاصة بها كان طابعها الأول دينيا لاهوتيا ، ثم تطورت إلى معاهد عصريه .

وقد استقت مناهجها من مناهج المدارس الأجنبيه واتخذت كل مدرسه اللغة التى تراها .

وفى المدارس الأجنبية كان الاهتمام باللغة التى تتبعها الإرسالية ، وكان أبرز هذه المعاهد : الفرنسية والأمريكية .

ثم قامت معاهد متعدّدة تبشيرية : ايرلندية وانجليزية ودنمركية وروسية غير أن هذه المعاهد لم تلبث أن أدخلت اللغة العربية بين مناهجها عملا على كسب المسلمين إلى صفوف التعليم بها . وذلك بعد أن انتشر التعليم الحديث بين المسيحيين قبل المسلمين ، وكان هدف هذه المدارس تبشيرى ، وكان لها دورها

الخطير فى مهاجمة الاسلام ، ومحاربته ، ومحاولة التشكيك فى كثير من مقومات الشخصية العربية ، والحضارة ، والتاريخ ، واللغة العربية .

وكان لحماية الدول الأجنبية لهذه المعاهد أثره فى جرأة هذه المدارس وحرية عملها فى هذا الميدان دون أن تخشى أى مقاومة من جانب الحكومات العربية التى كانت هى الأخرى خاضعة للنفوذ الأجنبى؛ وفى سوريا كانت جميع المناهج تدرس باللغة التركية غير أنه على أثر صدور دستور ١٩٠٨ طالب العرب بجعل لغة التعليم : اللغة العربية ، وقد تحقق ذلك فى خلال الفترة السابقة للحرب العالميه الأولى .

ولا شك أنه كان للمدارس المتعددة فى مصر والعراق والشام والشمال الافريقى من فرنسية وانجليزية وروسيه وايرلنديه وألمانيه ودانمركيه وإيطاليه أثره فى بلبلة الثقافه العربيه ، واضطراب الفكر العربى بين تغليب إحدى الثقافتين : السكسونية ، واللاتينية . وما كان لهذا من أثره على الثقافة العربية واللغة العربية .

أثر الاحتلال فى التعليم

بعد أن وقع الاحتلال البريطانى على مصر ١٨٨٢ والفرنسى على الجزائر ١٨٣٠ وتونس ١٨٨١ سيطرت الدول المحتلة على مناهج التعليم وشئونه ، فتحول التعليم من اللغة العربية إلى اللغة الانجليزية فى مصر ، والفرنسية فى الجزائر وتونس ، وفى مصر بدأت ثنائية التعليم التى شجعها الاستعمار : بتفريقه بين التعليم الدينى والتعليم المدنى وعدم المزج بينهما ، نشأت عنها ثنائية فى الثقافة : هى التيار الفرنسى الذى كان يحميه القصر والحكام الأتراك ، والتيار البريطانى الذى كان يحميه ويشجعه الاحتلال .

وقد كان لدنلوب أثره فى تحطيم اللغة العربية ومناهج الأزهر ، ومناهج التعليم

المدنى ، ومقاومة الثقافة الفرنسية وقد احتفظ الانجليز لأنفسهم بحق إختيار الأساتذة فى المدارس وتوقفت البعثات الخارجيه التى كانت قبل الاحتلال تقصد فى الاغلب إلى فرنسا . فلما اعيدت وجهت إلى بريطانيا .

واستطاعت بريطانيا أن تحول التعليم من هدفه الثقافى الشامل ، إلى مهمة تخريج موظفين فحسب ، وقد ألغيت المواد الثقافية من المناهج فضلا عما كان يقوم به دنلوب من ضغط مرتبات المعلمين ، وذلك حتى لا يصل إلى هذا العمل إلا أقل الناس كفاية .

× وقد صور اللورد دوفرين فى تقريره الذى كتبه بعد الاحتلال البريطانى : هدف التعليم فى ظل الاحتلال الرامى إلى تمزيق اللغة العربية إلى لهجات وتغليب اللغة الانجليزية ، فقال : إن أمل التقدم ضعيف طالما أن العامة تتعلم اللغة الفصيحة العربية .

وقد نفذما أوصى به تماما فقد تحول التعليم فى جميع المدارس العالية والثانوية إلى اللغة الانجليزيه وبذلك تدهور التعليم وعجز الطلاب عن إجتياز حلقات الدراسة لرسوبهم مرتين أو ثلاثة .

كما ألغى الانجليز المجانية فى جميع المدارس (بأنواعها الثلاث) وحرموا الفقراء من دخولها .

وصور اللورد كرومر فى تقريره ١٩٠٠ النتائج التى وصل إليها بعد ثمان سنوات من الاحتلال فقال : فى ١٨٧٩ كانت نسبة المجانية فى مدارس الحكومة ٩٥٪ أما فى السنة الماضية فإن نسبة الذين يدفعون مصروفات مدرسية ٥ر٩٨ فى المائة ، وأنا واثق من أن هذه السياسة ستظل متبعة بثبات حتى تلغى طريقة التعليم المجانى كلية أو تكون فى حكم ذلك .

وقد ذكر الشيخ ، محمود أبو العيون فى يومياته (الصحيفه السوداء : ١٦ يناير ١٩٢٣ — الأهرام) أنه فى ١٩٠٤ لم يعد هناك غير تلميذ واحد يتلقى التعليم مجانا فى المدارس الابتدائية .

وصرح مسئول بريطانى فى مجلس العموم ٨ مارس ١٩٠٧ فقال : لقد مكثنا فى مصر ربع قرن وصلنا بالمصريين إلى انحطاط فى التعليم ، وكانت لهم بعثة علمية ينتخبونها من نجباء طلابهم . أما نحن فقد ألغيناهذه البعثة واستبدلناها بلاشىء » .

والذى حدث بعد الاستعمار البريطانى فى مصر ، حدث على نحو أشد فى الجزائر وتونس . فقد أصبحت اللغة الفرنسية هى اللغة الوحيدة الالزامية ، وقد ألغيت اللغة العربية كلية . وأصبحت البعثات جميعها إلى فرنسا وحدها ، وحيل بين اللغة العربية ومناهج الثقافة الاسلامية وبين المدارس الجديدة التى أنشأها الاستعمار الفرنسى ، والتى جعل نسبة ٧٠ فى المائة منها للمستوطنين الذين لايبلغ عددهم أكثر من ١٠٪ من أهالى الوطن . وكان معنى هذا أن « التعليم » وهو سلاح بتار فى يد الاستعمار قد أخذ طريقا شاقا سيظهر بوضوح فى المرحلة التالية بعد انتهاء الحرب العالمية الأولى .

مراجع

حوليه الثقافة العربية : ساطع الحصرى ح١
مذكرات الخديو عباس الثانى .
تاريخ التعليم الحديث فى مصر : احمد عزت عبد الكريم .
الصحيفه السوداء : محمود أبو العيون (الأهرام — ١٩٢٢)

التيار السياسى

التيار السياسى فى الفكر العربى المعاصر : هو تيار الوطنية والقومية الذى حمل لواء مقاومة الاستعمار والتدخل الأجنبى والاستبداد فى الحكم وأتوقراطية الملوك والأمراء ، وخلق الرأى العام فى الأمة العربية؛ وقد نشأ عن تطور العاطفة الدينية التى كانت تحمل نفس الاتجاه . كانت العاطفة الدينية هى أبرز دوافع الجهاد الذى قامت به مصر إزاء الحملة الفرنسية التى هى أول اصطدام بين الشرق والغرب ، وكانت المقاومة الشعبية قد تكونت قبل ذلك بتوقيع وثيقة « حرية الشعب » التى وقعها حكام مصر عن طريق مشايخ الأزهر والعلماء (١٧٩٥)؛ ثم تضخمت هذه المقاومة عندما حمل عمر مكرم البيرق النبوى ونزل به من القلعة واندفعت وراءه الجموع إلى بولاق لحفر الخنادق لمقاومة الفرنسيين ، وقد كانت هذه المقاومة التى تمد صفحة فخار فى النضال من أجل الحفاظ على كيان الوطن ، مثلا للعاطفة الدينية التى تعتبر الدفاع عن الوطن دفاعا عن العرض والدين وقد بلغت هذه العاطفة قمتها فى معركة خلع خورشيد عندما أعلن عمر مكرم «أن أولياء الأمر هم أصحاب الشريعة وأن الشعوب كان لها الحق فى عزل الحاكم إذا ظلم أو خان واجبه لأمته » .

وقد تطورت هذه العاطفة الدينية إلى عاطفة سياسية قومية قوامها « الوطنية » . وقد بدأ هـــذا عند ما تحدث رفاعة الطهطاوى عن ذلك بعد عودته من أوربا ١٨٣١ .

وظل الكفاح الوطنى يحمل مفهوم العاطفة الدينية إلى وقت طويل ، حين تمثل فى جهاد السنوسيين فى ليبيا والمهديين فى السودان .

والمعتقد أن رفاعة الطهطاوى هو أول من كتب عن مباحث الدستور والحكم النيابى والرأى العام فى الثلاثينات من القرن التاسع عشر ، ولعل المجلس الذى أنشأه نابليون ١٧٩٨ فى مصر هو أول صورة للمجالس النيابية فى العالم العربى . وكان مجلس الشورى التونسى فى عهد الباى محمد على باشا أول مجلس شورى فى العالم العربى(١) (١٨٦٠) وقد تبعه مجلس شورى النواب فى مصر (١٨٦٦) فى عهد إسماعيل . ثم أنشىء مجلس المبعوثان فى تركيا ١٧٨٦ بعد صدور الدستور العثمانى الأول ١٨٧٦ ثم أعد الدستور المصرى عام ١٨٧٩ وصدر عام ١٨٨٢ .

وهكذا بدأ التيار السياسى فى الفكر العربى يأخذ صورته الاستهلالية وكانت تونس وتركيا ومصر تمثل المرحلة الأولى فى تكوين الرأى العام وبدء الحياة النيابية والدستور ومقاومة التدخل الأجنبى . وكان معنى هذا الاتجاه مقاومة استبداد الملوك والأمراء ، وخلق الرأى العام وإيقاظ الوعى السياسى فى العالم العربى .

ومما يذكر أن هذه الدساتير والمجالس النيابية لم تستمر ولم تحقق الهدف منها فقد كانت إما خدعة كدستور السلطان عبد الحميد ، أو رغبة من الملك والأمير لتغطية موقفه فى نظر التدخل الأجنبى كإسماعيل ، أو إرضاء للشعب فى الوقت الذى كان فيه الباى والخديو والسلطان ، يكرهون الحكم النيابى ويؤمنون بالاستبداد والاوتوقراطية فى الحكم ولم يكن للشعب فى هذه الفترة القدرة على المطالبة بهذا الحق ، أو ممارسته ، إذا أعطى له .

١ — تونس : خير الدين التونسى ١٨٦٠

١ — كانت تونس فى ظل حكم البايات أشبه بمصر فى ظل حكم الخديويين من أسرة محمد على وقد اتجه إلى تونس فى هذه الفترة ١٨٦٠ بعد احتلال الجزائر

(١) صدر أول دستور فى العالم الإسلامى فى تونس باسم عهد الأمان ١٠ سبتمبر ١٨٥٨ وعمل فى عهد الصادق باى ووزيره خير الدين باشا ١٨٦١

الضغط الفرنسى لتحطم الدولة على أساس اقتباس نظم أوربا وقوانينها . وهو نفس الضغط الذى واجهه الخديو إسماعيل واتجاه الباى أحمد باشا إلى فرنسا لمعاونته فى تنظيم جيشه كما فعل محمد على . وقد ظهر فى تونس « خير الدين » (١٨١٠ ١٨٧٩ المصلح الذى قام فيها بمثل إصلاحات مدحت فى العراق وسورية وتركيا وقد تعلم خير الدين فى فرنسا وفى ١٨٦٠ شكل أول مجلس شورى منتخب . وقد اصطدم هذا المجلس برجال الدين الذين عارضوا الأنظمة السياسية الحديثة على أساس أنها غير شرعية . وقد عين خير الدين رئيساً للمجلس النيابى ولكنه لم يلبث أن اصطدم مع الباى محمد باشا الذى أعلن عند عرضه لبعض المسائل أنه حصل على وعد من قنصل فرنسا فجبهه خير الدين بأنه لم تكن هناك مدعاة لعرض هذا الموضوع على المجلس .

وقد تعددت الضغوط الأجنبية ، فاستقال وسجل موقفه فى صراحة حيث قال : « حاولت أن أسعى بالأمور فى طريق العدالة والنزاهة فذهب مسعاى سدى ولم أشأ أن أخدع وطنى الذى تبنانى بتمسكى بالمناصب » .

ثم فرّغ نفسه لدراسة أسس الحضارة الغربية وعوامل قوتها وحمل لواء الدعوة إلى « الاقتباس » من الغرب فى ميدان الفكر كما حدث فى ميدان الحضارة ، وألف فى ذلك كتابه « أقوم المسالك فى معرفة أحوال الممالك » وهو ما أطلق عليه فى الترجمة الفرنسية « الاصلاحات الضرورية للدول الإسلامية » (صدر ١٨٦٧) .

وقد عرض فلسفته فى الاقتباس من الحضارة ، وكان أكثر جرأة من رفاعة الطهطاوى (١٨٤٠) إذ جاء بعده بربع قرن . وقد نعى على المسلمين كراهية الأخذ بأساليب المدنية الحديثة فى الإصلاح ، والاعتقاد بأن كل ما يصدر عن

أوربا حرام . أو مخالف للشريعة الإسلامية . وقال : إن التمسك بالدين لا يمنع من النظر فيما عند الأمم الأخرى والأخذ بأحسنه فيما يتعلق بالمصالح الدنيوية . وعنده أن الحكمة ضالة المؤمن أينما وجدها فهو أحق الناس بها . وأن على المسلمين الاستعداد لمقاتلة العدو بمثل سلاحه وأن الأخذ بالعلم من أسباب العمران . وقد دعا إلى الأخذ بالفكر الغربي فى أساليب الحكم والتنظيم والإدارة والأسلحة « كما أخذنا الحضارة فى الملابس والأثاث والمخترعات » . وقال إن الأمة التى لا تجارى جاراتها فى معداتها الحربية ونظمها العسكرية توشك أن تقع غنيمة فى أيديهم ونعى على المسلمين سبق النصارى لهم إذا اجتمعوا فى قطر واحد كان النصارى أسبق إلى تشرب المدينة الغربية والاستفادة منها ، فى الوقت الذى لا يمنع الإسلام من نقل حضارة الغرب ولا يمانع من الأخذ بنظم إدارتهم مع مراعاة الظروف ، وأن لهم أن ينقلوا ما يستطيعون هضمه ثم يوسع هذا شيئاً فشيئاً بنمو أسباب التمدن . كما دعا إلى الأخذ بنظام الشورى الذى يقيد الحاكم وأشار إلى عوائق التقدم : فحصرها فى فئتين ، هما : رجال الدين ، ورجال السياسة . أما رجال الدين، فإنهم يعرفون الشريعة ولا علم لهم بأمور الدنيا . وأن رجال السياسة يعرفون الدنيا ولا يعلمون الدين ، وهم يريدون أن يطبقوا النظم الأوربية بحزافيرها من غير رجوع إلى الدين . فنقول للأولين اعرفوا الدنيا . ونقول للآخرين اعرفوا الدين ، ودعا إلى امتزاج الطائفتين وتعاونهما . وأنشأ مدرسة عصرية تُعلم فيها الثقافة الغربية بجوار الثقافة العربية .

ونعى على العالم العربى أن الحكم النيابى لا يتحقق إلا بأحد أمرين : رغبة الملك أو الأمير أو قوة الرأى العام ورغبته رغم اتجاه الملك والأمير إلى الاستبداد . وقال : إن الأمة العربية لا تزال حكامها يكرهون الحكم النيابى وأن الرأى العام جاهل خاضع .

٢ — مصر : عبد السلام المويلحى (١٨٧٩)

اتجه الخديو إسماعيل إلى الغرب بحكم الضغط الذى لقيه من الدول الأوربية نتيجة للديون واضطراب الحالة الاقتصادية فى مصر . ودعا إلى أن مصر قطعه من أوربا · وقال نوبار رئيس وزرائه (أغسطس ١٨٦٧) أن التقدم لا يأتى إلا من ناحية أوربا وأن حكومة إسماعيل تتطلع إلى اشتراك العنصر المتمدن — أى الأوربيين — فيها وتريد أن تكل إليهم كبار أعمالها · وقد اتجهت إلى تعديل الأنظمة والقوانين دون مشاركة للأزهر فيها والالتجاء إلى القوانين المدنية الفرنسيه · وإنشاء المحاكم المختلطة لاقرار الامتيازات الأجنبية ولايجاد حصانة للأجانب من محاكمتهم أمام القضاء المصرى ·

وقد عمل إسماعيل لتغريب مصر ومحاولة إدماجها ضمن نطاق الشعوب الأوربية على أساس فرض القوانين لا على أساس تنمية وعى الرأى العام أو توجيهه مما كان عاملا حاسما فى التعجيل بنهاية إسماعيل ، ذلك أن أسماعيل باعتباره حاكما مستبدا تجاهل مقومات الشعب وجمع إلى البذخ والاتجاه التغريبى الفقر والجوع ، ولم يكن فى الأمة من يحاسبه على هذا الإسراف وتدوفدت فى ظل حكمه وبتشجيعه بعثات الأجانب للتبشير والتعليم والتجارة ·

وكانت جماعتا : الفرير ، والجزويت ، أولتا هذه البعثات التغريبية · وقد أعان حكم إسماعيل الطويل مدة ستة عشر عاما (١٨٦٣ - ١٨٧٩) على تعميق الاتجاه التغريبى ولكنه خلق الوعى السياسى فى مصر ، هذا الوعى الذى يتمثل فى الدور الذى قام به مجلس شورى النواب بعد عشر سنوات من تكوينه ·

وقد بدأ مجلس شورى النواب ١٨٦٦ ولم يكن للمجلس أى سلطة قطعية ، غير أنه لم يثبت فى عام ١٨٧٦ أن ظهرت المعارضة فى دورات المجلس بقيادة عبد السلام

المويلحى الذى نعى على الحكومة (نوبار باشا) فى جلسة ٦ يناير ١٨٧٩ : إغفال مجلس النواب فى مرسوم القوانين المتعلقة بالشئون المالية وقال « لم نر لمجلس النواب فى هذا (الدكريتو) اسما ولا خبرا مع أن سائر مايختص بالإدارة العمومية من تحصيل أموال ، وفرض ضرائب ووضع لوائح أو قوانين إنما يقصد به الأهالى ، وكل ما يقصد به الأهالى لابد من عرضه عليهم ، ورضاهم به ، عن طيب خاطر قبل وضعه وتكليفهم به ، وحيث أنهم أنابوا عن أنفسهم نوابا فهم منوطون بالمدافعة عنهم ، والمحاماه عن حقوقهم فمن الواجب أن يعرض جميع مايتعلق بالأهالى على نوابهم لينظروا فيه ويتدبروه . وقال : إن مثل رئيس مجلس النظار لا يجهل حقوق مجلس النواب ومقدار احترامها كما لا ينكر أن موضوع (الدكريتو) المحكى عنه هو من حقوق ذلك المجلس المقدسة التى لايصح إنتهاكها » .

وقد كان لهذا الاتجاه أثره وخطره فقد اهتز له الوزيران الأوربيان اللذان كانا صاحبا الكلمة فى سياسة الحكومة .

ولكن الاتجاه الثورى الشورى ، مضى فى طريقه فتقدم ٤٩ نائبا على رأسهم (عبد السلام المويلحى) فى ١٩ مارس ١٨٧٩ مطالبين « بتخفيض الضرائب والأتاوات الفادحة التى ينوء بها الشعب » ورأى الوزيران الأوربيان أن المجلس أصبح يخلق العقبات ففضت جلساته فى ٢٧ مارس ١٨٧٩ ولم يدع (عبد السلام المويلحى) المجلس ينفض دون أن يهاجم ناظر النظار (رياض باشا) فأكد فى خطاب الختام قائلا : أن المجلس طالب عدم قطع أمر فى أى شأن كان إلا باشتراكه ؛ وجرت بينه وبين (رياض) مناقشة حادة رد فيها المويلحى على اتهامات رياض فقال : من ضمن ماقلتموه ، إن أهالى مصر همج ، وإنه لا يوجد فيهم عشرة يفهمون ما يقال فى الجرانيل ، مع أنه لايصح نسبة جميع أهالى الوطن لهذه الحالة التى لاتليق .

وقد كان لهذا الاتجاه الجرىء نتيجته المحتومة ففض المجلس ، غير أن النواب الأحرار اجتمعوا فى بيت الشيخ البكرى نقيب الأشراف ، ثم فى منزل اسماعيل راغب رئيس مجلس النواب وعقدوا « جمعية وطنية » تضم صفوة كبراء البلد وأصحاب الرأى ، وتم اتفاقهم على المطالبة بإسقاط الوزارة الأوربية وتأليف وزارة وطنية برئاسة شريف كما طالبوا فى « اللائحة الوطنية » التى وقعوها، بتعديل نظام مجلس شورى النواب وتخويله السلطة المعترف بها للمجالس النيابية فى أوربا وتقرير مبدأ المسئولية الوزارية أمامه .

وقد أذعن الخديو اسماعيل لقوة الرأى العام ، ووافق على المطالب مرغما وكان ذلك انتصاراً للمجلس ، وتم وضع الدستور الأول (دستور ١٨٧٩) على أحدث المبادىء العصرية ، مخولا مجلس النواب سلطة البرلمان الحديثة ، وقوامها حق إقرار القوانين وإقرار الميزانية وجعل الوزارة مسئولة أمامه . كما خول سكان السودان حق انتخاب ممثلين لهم فى مجلس النوات ، باعتبار السودان جزءا من الدولة المصرية .

غير ان هذا الدستور لم يصدر إذ سرعان ماسقط إسماعيل وفض المجلس ، ثم اجتمع المجلس مرة أخرى فى ظل حكم توفيق (ديسمبر ١٨٨١)ووضع دستور ١٨٨٢)الذى صدر به المرسوم الخديو ، ويعد « محمد شريف » مؤسس النظام الدستورى فى مصر . وقد كان أحد أعضاء البعثات إلى فرنسا ١٨٤٤ وتخصص فى الفنون الحربية . وكان شريف يكره التدخل الأجنبى والحكم الاستبدادى ويطالب بوجوب إقامة الحكم الدستورى ، ووضع حد للتدخل الأجنبى ، وكان رأى شريف أن الطريقة الوحيدة للخلاص من الورطات التى كانت محيطة بالبلاد هى توسيع نطاق الشورى ، واشراك رأى نواب الأهالى مع الحكومة .

المراجع

مصر اسماعيل : عبد الرحمن الرافعى .

زعماء الاصلاح : أحمد أمين .

المجددون فى الاسلام : عبد المتعال الصعيدى .

مصر محمد على : عبد الرحمن الرافعى .

تاريخ الأدب العربى : جورجى زيدان (الجزء الأخير) .

تقويم الفكر الدينى : محمود الشرقاوى .

أقوم المسالك فى معرفة أحوال الممالك : خير الدين التونسى .

مدرسة الأفغانى الفكرية وآثارها

(مصر من ١٨٧١ — ١٨٧٩)

كان لجمال الدين دوره فى تطور التيار السياسى فى الفكر العربى المعاصر ، وقد اختار مصر فى بين بلاد العالم العربى كله لإذاعة دعوته لتحرير العقول من قيود الجمود واتجاهه إلى إصلاح الفكر الدينى ، وخلق الفكر السياسى عن طريق توجيه الخطابة والكتابة والصحافة . إلى الحرية ومقاومة الاستبداد وتطهير العقيدة وقد عرف بخصومته للاستعمار البريطانى . وكان له مواقفه الواضحة مع إسماعيل وشاه إيران وعبد الحميد كجزء من خطته لمقاومة تسلط الملوك والأمراء وقد بعث « روح الكرامة » فى العالم الإسلامى وآمن بأن يقظة الأمة العربية ، هى العامل الأول فى استعادة مجد الإسلام . وكان لدعوته أثرها فى الثورات : العرابية المصرية والفارسية والتركية .

وكانت وسيلة جمال الدين لخلق الوعى السياسى فى العالم العربى وتحرير الفكر العربى من قيود الاستبداد ، وخلق روح الكرامة والعزة ومقاومة المستعمر « هو الثورة السياسية » ؛ فقد رأى تغلغل النفوذ الأجنبى وتسلط الملوك مما حمله على الطعن فى الحكم الاستبدادى والدعوة إلى الحد من سلطانهم بالدستور .

وكان إيمانه بالثورة السياسية نابعا من اعتقاده بأنها أسرع الطرق وآكدها فى تحرير الشعوب . ولذلك رأى جواز خلع وقتل أمراء المسلمين الذين يشجعون النفوذ الأوربى . وفى حديث له مع الأستاذ (براون) قوله : لا أمل فى الاصلاح قبل قطع ستة أو سبعة رءوس ، وسمى بالاسم : شاه العجم ، وكبير وزرائه (ك : الاسلام والتجديد) وقد كثرت المناقشة بين أنصار جمال الدين فى الوسائل

التى يمكن بها خلع الخديو إسماعيل أو اغتياله ، اذا استعصى خلعه (بلنت : التاريخ السرى) .

وقد جاءت دعوة جمال الدين السياسية (وله دعوة أخرى إلى الجامعة الإسلامية لها مكانها) فى نفس الوقت الذى كان إسماعيل يعمل على إدخال الافكار الأوربية على نحو سريع وقد كان فى أوائل إقامته فى مصر ، يرى أن أى مجلس نيابى يشكله أمير أو ملك ، هو مجلس موهوم ، موقوف على ارادة من أحدثه . وأنه لابد للقوة النيابية أن تنبعث من ضمير الأمة ووعيها . ولكنه عاد فى أيامه الأخيرة ، فحرص على طلب الحكم النيابى والإصرار عليه — ولعل هذا الأمر حدث بعد إعلان الدستور العثمانى الأول وفشله (١٨٧٦ — ١٨٧٧) ويذكر مؤرخوه أنه لم يدخل فى السياسة إلا فى خلال ١٨٧٨ ، أى بعد توقف الدستور العثمانى ، وقد استدعاه الخديو توفيق ليناقشه فى مدى أحقية «المصريين» للحكم الدستورى الشورى وقال لجمال الدين : إن أكثر الشعب خامل جاهل لايصلح أن يلقى عليه ماتلقونه من الدروس والأقوال المهيجة فيلقون أنفسهم والبلاد فى تهلكه . فانبرى جمال الدين يفند للخديو رأيه فى جرأة وإيمان برأيه قال : إن الشعب المصرى كسائر الشعوب لايخلو فيه من وجود الخامل والجاهل بين أفراده ، ولكنه غير محروم من وجود العالم العاقل . فبالنظر الذى تنظرون به إلى الشعب المصرى ينظر إليكم ، وإن قبلتم نصح هذا المخلص ، وأسرعتم فى اشراك الأمة فى حكم البلاد عن طريق الشورى فتأمرون بإجراء انتخابات نواب عن الأمة تسن القوانين وتنفذها باسمكم وإرادتكم يكون ذلك أثبت لعرشكم وأدوم لسلطانكم .

وقد عدّل « جمال الدين » الكثير من النظريات الفكرية فحول الأدب والصحافة من مدح الملوك والأمراء إلى دعوة الإصلاح ، وسخر الأدب لخدمة

الشعب والمطالبة بحقوقه ، وقاوم نظرية الزهد الصوفية السائدة في العزلة عن المجتمع .

وقال : فناء الصوفى فى الله ، وفنائى فى خلق الله .

وقد هز الشاعر بدعوته الحماسية إلى الحرية مما كان له أبعد الأثر فى إتقاد هذه الجذوة التى كانت بعيدة المدى فى الفكر العربى المعاصر .

« إنكم معاشر المصريين قد نشأتم فى الاستعباد . وربيتم فى حجر الاستبداد وتوالت عليكم قرون منذ زمن الملوك الرعاة حتى اليوم . وأنتم تحملون عبء نير الفاتحين ، وتمنون لوطأة الغزاة الظالمين . تسومكم حكوماتكم الحيف والجور وتنزل بكم الخسف والذل . وأنتم صابرون بل راضون . تستنزف قوام — حياتكم — التى تجمعت بما يتحلب من عرق جباهكم — بالعصا والمقرعة والسوط وأنتم صامتون . انظروا أهرام مصر ، ومشاهد سيوه ، وحصون دمياط . . فهى شاهدة بمنعة آبائكم وعزة أجدادكم . هبّوا من غفلتكم ، اصحوا من سكرتكم . عيشوا كباقى الأمم أحرارا سعداء » .

وحق لمحمد عبده أن يصف شعب مصر عند قدوم جمال الدين إليها بأنهم كانوا يرون شئونهم العامة بل الخاصة ملكا لحاكمهم الأعلى ، يتصرف فيها حسب إرادته . ويعتقدون أن سعادتهم وشقاءهم ، موكولان إلى أمانته وعدله ؛ أو خيانته وظلمه . ولا يرى أحد منهم لنفسه رأيا يحق له أن يبديه » ؛ ثم ظهر بوضوح أثر جمال الدين فى يقظة الرأى العربى كله وتطلعه إلى حقه فى التفكير السياسى عن طريق الدستور والنظام النيابى . وذلك فى مناقشات عبد السلام المويلحى فى مجلس شورى النواب وتطور ذلك حتى قال القاضى الهولندى (فان بملن) أحد قضاة المحاكم المختلطة : إن المثقفين المصريين يخطىء من يظن أنهم لا يهتمون إلا بمصالحهم الشخصية ، ومصالح عائلاتهم ، وهم على

العكس ، يكرهون الحكم التركى والحكم الأوربى على السواء ويريدون حكومة وطنية (بكل معنى تحمله هذه الكلمة) .

وكان هذا مقدمة اتجاه العالم العربى نحو القومية ، والتحرر من أنظمة الحكم الاستبدادى .

٤ — « مدحت » والدستور العثمانى

يمثل مدحت مرحلة من مراحل التيار السياسى فى الفكر العربى المعاصر ، فقد كان الدستور العثمانى فاتحة عهد الحرية الفكرية وانطلاق دعوة اليقظة واستكمال الوعى وتعميق الرأى العام . ويمثل مدحت طليعة جمعية الاتحاد والترقى التى تكونت فى أوربا (١٨٩١ — أحمد رضا) وانتقل نشاطها بعد خمسة عشر عاما إلى داخل الامبراطورية (١٩٠٦) واتخذت مدينة سالونيك مقرا لها حيث أقام ٥٠ ألف يهودى فيها المحافل الماسونية ، هذه المحافل التى اقتبس الاتحاديون منها أنظمتهم .

وقد سبق مدحت الاتحاديون بربع قرن فى الدعوة إلى الوعى السياسى ، فدعا إلى إصلاح طريقة الحكم فى الدولة العثمانية بما يجعله حكما دستوريا لا ينفرد به السلطان وحده . بل يقوم به مجلس تختار الأمة أعضاؤه على نحو ماشاهده أثناء سياحته فى أوربا ، وقال مدحت : إن انحطاط الدولة ناجم عن استبداد سلاطينها القدماء وليس فى الإمكان انتشالها من وهدتها إلا برفع استبداد الفرد الواحد واتباع مبدأ الحكم النيابى . وقد قاوم السلطان عبدالعزيز هذه الحركة ، بالحد من سلطة قادتها واضطهاد أنصارها ، غير أنه اضطر تحت ضغط الأحداث إلى التظاهر بقبول دعوته . فولاه رئاسة الوزارة ، وقام بإصلاح مدنى شامل فى الدولة . ولم يلبث عبد العزيز أن حد من سلطة الخليفة ، الذى استطاع أن يعزله عن الوزارة بعد ٧٥ يوما ؛ ثم استطاع مدحت والعلماء والجيش عزل السلطان عبد العزيز ،

واستبدل به « مراد » الذى كان مضطرب العقل ، ثم عين عبد الحميد بعد أن اتفق معه مدحت على تنفيذ الحكم الدستورى الذى كان يطلبه . وقد أعلن الدستور فى كانون أول ١٨٧٦ وافتتح مجلس المبعوثان ، غير أن عبد الحميد استطاع أن يخدع مدحت ويقضى على النظام كله فى (شباط ١٨٧٧) .

وكانت مواد الدستور قاضية بمساواة عناصر الدولة واتحادها تحت العلم العثمانى ومنح كل فرد حريته التى يبيحها له القانون . وقد خدع عبد الحميد ، مدحت حتى قبض على الحكم بيد من حديد ، كما خدع محمد على ، عمر مكرم . وقد رفض عبد الحميد مدحت الأسس التى عرضها للحكم الدستورى .

(١) رفض أن يكون رئيس الوزراء مسئولا أمام المجلس النيابى (٢) رفض خفض مخصصات القصر ، وكان مرتب السلطان وحده مليون ليرة ذهبية سنويا (٣) رفض عمل ميزانية للدولة (٤) رفض إنشاء مدارس عامة يتلاقى فيها أبناء البلاد على اختلاف طبقاتهم وملالهم (٥) ثم رفض إعتاق عبيد القصر وجواريه (٦) رفض منع الاتجار بالرقيق (تجاوز عدد الأغوات والخصيان فى عهد السلطان عبد العزيز ألفا وخمسمائة) وقد أحاط عبد الحميد نفسه بوزراء واشياع انتهازيين وأقصى ذوى الآراء الحرة .

وعندما أعد مدحت مسودة الدستور على نحو لا يفترق شيئا عن أرقى الدساتير المعمول بها فى أوروبا قدمها إلى السلطان فلم يلبث عبد الحميد أن رفضها وأعادها مؤشرا عليها بعبارة غامضة « لاحظنا وجود أشياء لا تتفق مع استعداد المملكة وقابليتها » غير أنه نظراً لانعقاد مؤتمر دول أوربا الست فى الاستانة لتقرير مصير البلقان أراد أن يخدعهم بإعلان الدستور ، وذلك بعد أن عدله « دستور مدحت » بواسطة مجلس وزرائه فحذفت لجنة المجلس ٢١ مادة منه ، وعرض على السلطان بعد التعديل فعدل ثانيا المواد التى تتعلق به شخصيا وجعلها فى حدود ما يرتضيه لنفسه . وعدل بالذات المادة ١١٣ على النحو التالى « للسلطان الحق بطرد أو نفى من يجد فيه خطراً على سلامة الدولة إلى خارج المملكة العثمانية » وهى المادة التى طبقها على « مدحت »

بعد إعلان الدستور بأيام قلائل كما حفظ لنفسه حق إنهاء المجلس متى أراد .

وقد بدأ (مدحت) حينما تولى الحكم فى (١٢ كانون أول ١٨٧٦) بعد إعلان تأليف مجلس الأمة — اصلاحاته فى العفو عن المحكومين السياسيين وانشاء مجالس الولايات وعقد الصلح مع إمارات العرب والجبل الأسود . وتوالت إصلاحاته فى البوليس ودولاب الإدارة . وأوغر صدر عبد الحميد حب الشعب لمدحت ؛ وزاد من ذلك دس الدساسين الذين نقلوا إليه أن مدحت سينتهز أول فرصة سانحة لإعلان الجمهورية . وكما حملت الصحف الدستور بصورة أزعجته . ومع ذلك رفض مدحت معاقبة محررى الصحف الذين أزعجوا السلطان . ثم توقف مدحت عن إرسال مبالغ إلى القصر ، وبدأ الخلاف يشتد حين رفض تعيينات السلطان فى بعض الوظائف . وبلغ الأمر غايته حين أرسل مدحت قذيفته التى تعد من أعظم الوثائق التاريخية فى تطور الفكر السياسى قال فى خطاب السلطان : « كان غرضنا من وضع الدستور واعلانه ، القضاء على الحكم المطلق ، وتنبيه جلالتكم إلى واجباتكم وتحديد صلاحية الوزراء ، وضمان المساواة التامة بين جميع سكان الدولة العثمانية ، والعمل يدا واحداً فى سبيل إصلاح وطننا .. يجب على ذاتكم أن تعرف واجبها ووظائفها بصورة لاتقبل اللبس والابهام . وفى الوقت الذى نسعى إلى بناء الوطن الذى خربته الزعازع والأعاصير يمكننى القول : إنكم تريدون هدم البناء (١٨ كانون الثانى ١٨٧٧) .

وكانت هذه نهاية مدحت . ونهاية الحكم النيابى التركى ، حيث أوقف السلطان الدستور والمجلس ونكل بأعوان مدحت . وانحاز قواد الجيش إلى السلطان ، وارهبت نفوس الشعب حوادث النفى والاعتقال .

ومضت ثلاثون عاما وهى مـــدة حكم الاستبـداد الحميـدى حتى

استطاع الاتحاديون استرداد (دستور ١٨٧٦) عام ١٩٠٨ وسقط عبد الحميد ١٩٠٩ وبذلك سقط النظام الاستبدادى وبدأ عهد جديد هو عهد الجامعة الطورانية والدعوة إلى تتريك عناصر الامبراطورية العثمانية.

• — عرابى والحزب الوطنى الأول ١٨٧٩ — ١٨٨٢

تعد حركة أحمد عرابى عاملا من أبرز عوامل التيار السياسى فى يقظة الفكر العربى . فقد تأثر عرابى بجمال الدين والاتجاه الدستورى العثمانى . وكان عمله بمثابة رد فعل واضح للتركية المتغلغلة المسيطرة . ورد اعتبار لما كان وجه إلى المصريين من اتهام بأنهم « فلاحون » وقد تمثلت دعوته فى مقاومة (١) التركية (٢) التدخل الأجنبى (٣) حكم الفرد الاستبدادى ؛ ويعد عرابى أول سياسى فى العالم العربى وقف فى وجه الحاكم المستبد مناديا باسم الحرية وتمثل عبارة الخديو فى يوم (٩ سبتمبر ١٨٨١) مفهوم الحاكم المستغل كما تمثل عبارة عرابى مفهوم اليقظة الفكرية السياسية.

وقد كانت مظاهرة عابدين ترمى إلى مطالبة عرابى بمطالب ثلاثة هى :

(١) عزل رياض (٢) تشكيل مجلس النواب (٣) وصول الجيش إلى العدد المعين فى الفرمانات السلطانية .

قال الخديو : كل هذه الطلبات لا حق لكم فيها . وأنا ورثت ملك هذه البلاد عن آبائى وأجدادى وما أنتم إلا عبيد إحساننا — فرد عليه عرابى قائلا : لقد خلقنا الله أحراراً ، ولم يخلقنا تراثا ولا عقاراً ، فوالله الذى لا إله إلا هو أننا سوف لا نورث بعد اليوم » .

وهذا الحديث ولا شك علامة هامة من علامات تطور التيار السياسى فى الفكر العربى المعاصر ، وهو أول علامات ظهور « القومية المصرية » فقد كان الطابع التركى هو الغالب على الفكر والحكومة والجيش .

فكانت الأسر المتصدرة لشئون البلاد من عائلات تركية ولم يعرف رئيس وزراء إلا وهو تركى الأصل . كما كانت استانبول هى قبلة المصطافين .

ولم يجد عرابى مصريا صميما يملك شيئا يؤيه له وقد تزعم عرابى الحزب الوطنى الذى أعلن عن وجوده فى نوفمبر ١٨٧٩ حين وزع إعلانه الذى بلغت كميته عشرين ألف نسخة مطبوعة من منشور إحتوى على بيان محدد لانقاذ مصر من ويلاتها، وقد عزا البيان ماتقاسيه البلاد إلى الحكم المطلق . وخلو البلاد من برلمان منتخب متمتع بسلطات كاملة . وعدم سيادة القانون وعدم تساوى الناس أمامه ، وافتقار البلاد إلى التعليم العام .

وقد ظل عرابى مؤمنا بأهدافه حتى بعد فشل الثورة العرابية التى لم تهزم إلا بالخيانة ، فقد صور أهدافه فى مذكرته التى رفعها إلى اللورد « دوفرين » ، الذى استقدمته بريطانيا بعد الاحتلال لتنظيم الإدارة المصرية وفق أهداف الاستعمار ، وتلك هى ملامح هذا التفكير السياسى :

× أعظم مصاب مصر من المرابين والسماسرة الذين امتصوا دماء الفلاحين .

× من أشد ويلات مصر الأجانب الذين يشغلون أعلى المناصب ويتقاضون أضخم المرتبات .

× واولئك الذين يحيطون بالحكومة ساعين لابعاد المصريين وهضم حقوقهم .

× أن يكون نظام الحكم فى مصر نظاما دستوريا : مجلس وزراء مسئول عن وزارته .

× أن يكون حاكم مصر ملما بأحوال البلاد ومحبوبا .

× يكون للأمة مجلس نواب ومجلس أعيان يعرض عليها اللوائح والقوانين .

× المساواة بين سكان مصر ، ولا يجوز التمييز بين الوطني والأجنبي في الضرائب وسواها وتوحيد القوانين في جميع المحاكم المصرية .

× الاستغناء عن خدمة الموظفين الأجانب الذين لاحاجة للبلاد بهم .

× منع المرابين من ابتزازات الأحوال ، والاهتمام بأعمال الري .

× نشر التعليم في مختلف البلاد .

وقد أعلن أحمد لطفي السيد أن الدستور من عمل أحمد عرابي . ومن وضع يده ومن أثار جرأته .

وأكد داود بركات ، أن الثورة العرابية غيرت بلا شك ولا ريب وجه سياسة العالم في الشرق . وأنها لم تنته ، (الأهرام ١٩٣١/١٠/٧) ولن تنتهي قريبا ، وأن الأمة قد سارت وراء عرابي لأنه رمى عن قوس عقيدتها ومناها بحريتها .

٦ — عبدالرحمن الكواكبي : مقاومة الاستبداد

وعبد الرحمن الكواكبي (١٨٤٨ — ١٩٠٢) الذي دعا إلى مقاومة الاستبداد (وهو صاحب دور آخر في الجامعة الإسلامية) في أواخر القرن التاسع عشر وعمله يمثل مدى تطور التيار السياسي في الفكر العربي المعاصر . فقد كان الاستبداد الذي طبع الحكم في العالم العربي هو العائق الأكبر عن الحرية . وكان الاستبداد الاكبر مقيم في استامبول حيث يقيم سلطان البرين وخاقان البحرين ، ظل الله في الأرض الخليفة عبد الحميد الذي ألغى الدستور عام ١٨٧٦ م وظل يحكم حتى عام ١٩٠٨ حكما أوتوقراطيا مستبدا .

وقد حمى الاستبداد العثماني وما تبعه من استبداد حكام العالم العربي وولاته كذلك حمى الجمود الديني واحتضن عشرات من العلماء الذين آزروا الاستبداد وفي مقدمتهم : أبو الهدى الصيادي . وكانت مصر حينئذ قد تحررت من سلطان العثمانيين

وسقطت فى يد الاستعمار البريطانى فأصبحت مجالا واسعا لمقاومة الخليفة العثمانى وحكمه ، فقد واجهت إزدواجا فى الفكر السياسى ، حيث كانت تقاوم الانجليز وتجنح إلى العلم العثمانى الاسلامى فى نفس الوقت الذى كان فيه الشام والعراق يقاومان الاستبداد العثمانى ويتجهان إلى العالم الغربى كوسيلة من وسائل المقاومة .

وقد هاجم عبد الرحمن الكواكبى الاستبداد هجوما عنيفا . وفصل بين الإسلام وبين الحكم المطلق ، الذى يفرضه المستبدون . وبين كيف أن الإسلام مؤسس على « شورى » أهل الحل والعقد . وهو لا يعترف بسلطة دينية ولا منزلة خاصة لرجال الدين .

وعبد الرحمن الكواكبى يسير فى تيار جمال الدين فى مقاومة الاستبداد وتمجيد الحرية . وقد دعا إلى أسلوب الحكم الديمقراطى وإقامته على دعائم من الشورى والعدل والمساواة . كما طالب بالعدالة الاجتماعية وعمق مفهوم الوطنية . وحارب البدع فى مجال الدين ، ودعا إلى تنقية الدين والعودة به إلى سماحته ويسره وبساطته ، كما هاجم الماديين .

ودعا أيضا إلى التعليم وتحرير المرأة وإقامة نظام الشورى وإلغاء الاقطاع .

٦ — محمد فريد والدستور

ويتصل بالتيار السياسى عمل محمد فريد فى طلب « الدستور » عقب توليه رئاسة الحزب الوطنى ١٩٠٨ فقد وجه الوطنيين إلى مطالبة الخديو بالدستور وذلك بعد إعلان رد الحكومة على ماطلبته الجمعية العمومية (مارس ١٩٠٧) من إنشاء المجلس النيابى ، وأشار الرد « بأن الحكومة ترى أن الوقت لم يحن بعد لتشكيل مجلس نواب » .

وقد رأى محمد فريد أن هذا الرد ما هو إلا إهانة للأمة واتهامالها بعدم كفايتها للنظام الدستورى ورأى أن خير وسيلة للرد على ذلك ، القيام بحركة جماعية للمطالبة بالدستور واعـــدت عرائض وقعت فى مختلف أنحاء مصر بلغت عشرات الألوف وقد انهالت هذه العرائض على الخديو واشترك فى توقيعها أعيان البلاد والمثقفين من السيدات والآنسات وكان لها دوى هائل كان أكبر دعاية للدستور . وقد اكتمــل من هــذه العرائض ٦١ ألف توقيع فى حوالى ألف عريضة .

وقد كان لإعلان الدستور العثمانى (يوليه ١٩٠٨) أثره فى ازدهار هذه الحركة واضطراب الخديو والإنجليز لها . ثم لم يلبث الانجليز (اللورد جراى) أن أعلنوا معارضتهم لحـركة الدستور بحجـة أن المصريين لا يزالون غير أهـل لتحقيق هذا العمـل ، وقد رد عليهم محمـد فريد ، بقـوله : إن مصر أكثر استعداداً وأهلية لحـكم نفسها بنفسها من كثير من الأمم الأوربية ، وقال : إنها محاولة لإدخال اليأس على قلوب المصريين للتأثير على حركة المطالبة بالدستور وأعلن أن ذلك لن يؤدى إلا إلى زيادة الشعور الوطنى قوة .

وقد كان لهذه الحركة أثرها فى تطور الفـكر السياسى العربى .

٧ — محمد عبده : الاجتهاد

وكان للشيخ محمد عبده (المتوفى فى ١١ يوليو ١٩٠٥) دوره فى الاصلاح الدينى وفتح باب الاجتهاد . وهو دور يختلف عن دور جمال الدين الأفغانى ، الذى كان يغلب عليه العمل السياسى وقد لخص الشيخ عبده مذهبه فى خمس نقاط :

— فتح باب الاجتهاد وعدم الاكتفاء بالتقليد .

— تجديد شباب اللغة العربية والعناية بأمرها .

— محاربة الخرافات والأباطيل التى نسبت زوراً إلى الدين .

— تحريك رجال الدين من رقادهم لأنهم مصابيح الظلام .

— الاعتماد فى نهضـــــة المسلمين على النهوض بالأزهر لأنه حصن الدين ومعقل اللغة .

وكان لمحمد عبده دوره فى تطوير الفـكر العربى فقد حول الأدب والصحافة من مدح الملوك والأمراء ، إلى دعوة الإصـلاح الاجتماعى وسخر الأدب لخدمـة الشعب والمطالبة بحقوقه . وفسر القرآن تفسيراً ينطوى على الاجتهاد والسير مع الزمن .

وكان له عمله فى إصلاح الأزهر وإنشاء مدرسة القضاء الشرعى ، وإصلاح المحاكم المختلطة ، ومحاربة البدع .

وقد بدأ حياته الفـكرية بكتابة رسائل إصلاحية فى جريدة الأهرام ١٨٧٦ ، ثم تولى رئاسة تحرير الوقائع المصرية — ونفى بعد الثورة العرابية ست سنوات زار خلالها أوربا وبيروت وتونس وعاد إلى مصر ١٨٨٨ حيث وجه اهتمامه إلى هدفين هامين (١) تحرير الفـكر من قيد التقليد وفهم الدين على طريقة سلف هذه الأمة قبل ظهور الخلاف والرجوع فى كسب معارفه إلى ينابيعها الأولى (٢) اصلاح أساليب اللغة العربية فى التحرير سواء فى المخاطبات الرسمية أو المراسلات بين الناس .

وقد قاوم محمد عبده بقلمه كل ما وجه إلى الاسلام من اتهامات وكان أبرز موقفين له رده على هانوتو عن روح الإسلام وموقفه من الاستعمار ، ورده على فرح أنطون عن : سماحة الاســـلام وموقفه من العلم والعلماء وحرية الرأى .

واتسمت مساجلاته بالعمق وقوة الحجة والترفع عن المجادلات الرخيصة .

ولم يأخذ المؤرخون على محمد عبده الا موقفة من الاستعمار البريطانى بعد عودته من منفاه وارتباطه بالمعتمد البريطانى (كرومر) الذى وصفه فى كتابه (مصر الحديثة) بأنه زعيم حزب سياسى واجتماعى معتدل يختلف عن موقف الحزب الوطنى المتطرف وقال إنه (أنشأ مدرسة فكرية فى مصر على نحو ما فعل السيد أحمد خان منشىء كلية عليكره فى الهند »

وأنه « يعرف بلزوم معاونة الغربى لاصلاح مصر على انه يختلف عن الفئة من المصريين المقلدين للاوربيين » وأن هذا الفريق (أى فريق عبده) « عمله صعب جدا لأنهم حلفاء الأوربى المصلح ومساعدوه وسوف يجد محبو الوطنية المصرية أحسن أمل فى ترق أتباع الشيخ محمد عبده للحصول على مصر مستقلة بالتدريج » .

ومعنى كلام كرومر هذا فى الشيخ محمد عبده أنه يؤمن بالتعاون مع بريطانيا فى سبيل الاستقلال التدريجى وهو المذهب الذى صنعه كرومر وأطلق عليه اسم « الالتقاء مع بريطانيا فى منتصف الطريق » وعلى نسقه قام حزب الأمة الذى أنشأه الأرستقراطيون والاقطاعيون و « أصحاب المصالح الحقيقية » فى مصر ، وأصدروا « الجريدة » لسانا لهذا الحزب وهو ما وصفه لطفى السيد بالدعوة إلى التعقيل ومعاداة « النزعة العاطفيـــة » هذه النزعة التى حمل لواءها مصطفى كامل .

ولا شك أن محمد عبده كان له دوره الخطير فى إصلاح الأزهر وفى تعزيز الفكر العربى وترقيته وتحريره من قيود التقليد فى المضمون والزخرف فى الأسلوب .

٤ - تيار الجامعة الإسلامية

يمكن القول بأن الدعوة إلى الجامعة الإسلامية ، أو الوحدة الإسلامية ، إنما جاءت على أثر تغلغل النفوذ الاستعمارى فى العالم الإسلامى ، ومهاجمته لمقومات التفكير والعقائد وتغلغله فى مجالات السياسة والاجتماع والاقتصاد ، فكانت هذه الدعوة من عوامل الاستجابه للتحدى .

وقد جرت فى عدة ميادين تختلف فى غاياتها ، ولكنها فى مجموعها تهدف إلى توحيد العالم الإسلامى وإعادة ربطه مرة أخرى بميثاق ، أو هيئة أو خطة تحمل معنى المقاومة والمواجهة والتجمع لدرء الخطر .

ولما كان الاستعمار الغربى قد ركز على هذه المنطقة التى تضم العالم العربى والهند وأندونسيا ، وهاجم القيم والمعتقدات فقد رأى المفكرون أن هذا الغزو إنما هو حملة صليبية مستأنفة فى أسلوب جديد ، مجاله العالم الإسلامى كله ، وقوامه البقاء الطويل وتركيز القواعد الاستعمارية .

ولقد بدأ الغزو ، بمهاجمة المعتقد الأغلب فى المنطقة ، وهو «الإسلام» ظنا منه أن القضاء على العقيدة الدينية سيحقق للاستعمار تمزيق المنطقة وضمان البقاء الطويل ، ولذلك أطلق مختلف أدوات الغزو الفكرى : من مستشرقين ومبشرين ودعاة ومفكرين وكتاب وصحف ، وهذا هو السر فى إطلاق عبارة « الجامعة الإسلامية » على هذا التنادى إلى التجمع ، وقد اجتمع رأى المؤرخين على أن أحداً من مفكرى الإسلام لم يسبق إلى الجامعة الإسلامية قبل جمال الدين الأفغانى (١٨٣٩ — ١٨٩٧) وخاصة فى فترة السنوات السبع التى قضاها فى مصر .

وقد أخذ الغزو الفكرى فى هذه الفترة لون الصراع بين الإسلام والمسيحية ومركز الاستعمار هجومه على مقومات العقيدة ، وحاول إلصاق الإتهام بالتخلف وبأن ما وصل إليه المسلمون من جمود وضعف إنما مرجعه الإسلام نفسه .

وقد دعا عبدالحميد فى أواخر القرن التاسع عشر إلى « الجامعة الإسلامية » فى ظل الخلافة العثمانية وظن البعض حينئذ ارتباط دعوة جمال الدين بدعوة عبد الحميد . والواقع أن هناك فرق بعيد المدى بين دعوة « المصلح السياسى » للفكرة وبين دعوة « الحاكم » لنفس الفكرة تحت قيادته وسلطانه .

ذلك أن عبد الحميد كان يدعو إلى الجامعة الإسلامية مرتبطة بالخلافة وفرق بين الجامعة والخلافة . فالجامعة التى يدعو إليها عبد الحميد هى ضمان البقاء له فى الإطار الموجود وتعزيزه فى ظل قيادته دون تغيير كبير ، وهدفها الاحتماء بالدول الاسلامية من وجه الغزو الغربى ليحفظ سلطانه ومن أجل هذا أرسل عبد الحميد صيحته .

« يا مسلمى العالم اتحدوا » :

فدعوة عبدالحميد قد انبعثت نتيجة احساسه بالضعف إزاء مهاجمة الدول الأوربية للامبراطورية العثمانية كسلاح من أسلحة الارهاب للغرب ، وعامل من عوامل البقاء له ، ومقاومة لزلزلة كيان عرشه .

٢ — أما جمال الدين فقد كان مذهبه فى الدعوة إلى الجامعة الاسلامية مختلفا أشد الاختلاف ، كان جمال الدين يؤمن بالجامعة الإسلامية ، كعمل فكرى سياسى واسع المدى يهدف إلى جمع كلمة العالم الإسلامى وتحريره من الحكام والأمراء المستبدين الذين يحولون دون الالتقاء فى

هذه الوحده ، كما يرمى إلى تحرير الوطن الإسلامى وتطوير المجتمع ورفع مستواه ودفعه فى طريق النهضة . وكان جمال الدين يراها جامعة تقوم على الشورى وحق المسلمين فى حكم أنفسهم . وقد تكلم عن الحاكم القوى العادل — وليس المستبد العادل كما تردد خطأ — وعند جمال : أن المسلمين من المحيط الأطلسى إلى المحيط الهادى أمة واحدة يمكن أن تجمعهم رابطة سياسية وفكرية واحدة .

وهو يرى أن ذلك ممكن التحقيق على أساس الارتباط بالهدف والوسائل ولا يلتمس « أن يكون مالك الأمر فى الجميع شخصا واحداً فإن هذا ربما كان أمراً عسيرا » ويرجو « أن يكون سلطان جميعهم القرآن ووجهة وحدتهم الدين . وكل ذى ملك على ملكه يسعى بجهده لحفظ الآخر ما استطاع فإن حياته بحياته ، وبقاءه ببقائه .

ومن هنا كانت « الجامعة الإسلامية » تياراً هاما فى الفكر العربى المعاصر يهدف إلى القضاء على استبداد الحكام والأمراء وجمع الشعوب الاسلامية فى جبهة لمقاومة الاستعمار والغزو الغربى ، فلما لم يتحقق هذا الهدف اتجه التفكير إلى مسائل أخرى كالدعوة إلى القومية العربية واتخاذ الأنظمة الغربية فى الحكم للحد من استبداد الملوك والحكام ومواجهة الغزو الاستعمارى .

وقد عمل عبدالحميد على استغلال دعوة جمال الدين ، وذلك بجعل السلطنة والخلافة شيئا واحداً والتمسك بأنه الخليفة للعالم الاسلامى كله وليس سلطانا للمملكة العثمانية وحدها ، واستقدم جمال الدين إلى الاستانة فى محاولة خادعة ووعده بتنفيذ آرائه لاصلاح العالم الاسلامى ، وكان جمال الدين يرى أول الأمر فى عبد الحميد أنه ربما حقق خيراً غير أنه لم يلبث أن وصفه بأنه (سل فى رئة الدولة) وكان يأمل فى أن يستطيع الأتراك تحقيق الدعوة إلى الجامعة الاسلامية بشرط وهذه عبارته « لو أنصف الأتراك أنفسهم لاستمروا وترأسوا ذلك الملك وعدلوا فى أهله » .

٣ — وقد كان جمال الدين يقاوم الاستعمار الغربى والانجليز بصفة خاصة بالدعوة إلى الجامعة الإسلامية معتقدا « أن الروح الصليبية لم تبرح كامنة فى صدور « الغربيين » كون النار فى الرماد ، وأن « روح التعصب لم تنفك حية ممتلجة فى قلوبهم حتى اليوم كما كانت فى قلب بطرس الناسك من قبل . وان « النصرانية لم يزل التعصب مستقراً فى عناصرها متغلغلا فى أحشائها متمشيا فى كل عرق من عروقها . وهى أبداً ناظرة إلى الاسلام نظرة العداء والحقد والتعصب الدينى الممقوت » — وهو يرى « أن العالم الغربى على اختلاف أممه وشعوبه عرقا وجنسيه هو عدو مقاوم مناهض للشرق على العموم والاسلام على الخصوص فجميع الدول الغربية متحدة مما على ذل الممالك الاسلامية ما استطاعت إلى ذلك سبيلا » وأن دعاة الغرب « يأخذون شواعر كل مسلم وآماله ورغباته التى تجول فى صدره ، ثم يمثلونها بصور الهزء والسخرية والعبث والازدراء ... » وأنه من أجل ذلك يجب على العالم الاسلامى « أن يتحد اتحاداً دفاعياً عاما مستمسك الأطراف وثيق العرى ، ليستطيع بذلك الزياد عن كيانه ووقاية نفسه من الفناء المقبل ، وللوصول إلى الغاية الكبرى ، إنما يجب عليه اكتناه أسباب تقدم الغرب والوقوف على تفوقه وقدرته » .

ويختلف هنا جمال الدين عن محمد بن عبدالوهاب ، فقد كان عبد الوهاب ينظر إلى الماضى وإصلاح العقيدة بينما ينظر جمال الدين إلى الحاضر واصلاح الحكومة وقد عيب على جمال الدين أنه لم يركز قوته الذهنية فى خدمة الاسلام كنظام للتوجيه الانسانى .

ولكن الهدف الذى قصد إليه جمال الدين فى دعوته إلى الوحدة ، إنما كان عملا بعيد المدى يصور مقتلا من مقاتل العالم الاسلامى وقد بلغ أمرة فى نظر جمال الدين أنه هو العمل الأكبر ، وأنه الغاية يقول : (الشرق) وقد خصصت

دماغى لتشخيص دائه وتحرى دوائه فوجدت اقتل أدوائه ما يعترض فى سبيل توحيد الكلمة فيه ؛ داء انقسام أهله ، وتشتت آرائهم واختلافهم على الاتحاد واتحادهم على الاختلاف ، فقد اتفقوا على ألا يتفقوا » .

وقد تأثر جمال الدين فى دعوته الأمارات الجرمانية التى اتحدت بعد تشتتها وأوضح محمد عبده هدف جمال الدين حين قال بأنه ، كان يرمى إلى تنكيس دولة بريطانيا فى الأقطار الشرقية وتقليص ظلها عن رءوس الطوائف الإسلامية .

خلفاء جمال الدين فى الدعوة

سار محمد عبده فى نفس الطريق إلى « الجامعة الإسلامية » ثم تحول عنه بعد عودته من منفاه حيث عدل إلى الدعوة للقومية المصرية حتى وصفه (كرومر) بأنه على رأس مدرسة تعارض اتجاه مصطفى كامل فى الارتباط مع الخلافة العثمانية . ومع هذا فإن محمد عبده كان يرى أن المحافظة على الدولة العثمانية ؛ ثالثة العقائد بعد الإيمان بالله ورسوله فإنها وحدها المحافظة لسلطان الدين ، الكافلة لبقاء حوذته .

وكان يفرق بين شخص السلطان عبد الحميد ، وبين الدولة العثمانية .

(الكواكبى)

وكان «عبدالرحمن الكواكبى» هو مقنن الجامعة الإسلامية فى كتابه «أم القرى» فقد عزا تخلف المسلمين إلى عوامل متعددة : (١) الجهل (٢) العقائد التى أقحمت على الاسلام ، ومنها عقيدة الجبرية (٣) الحكومات الملكية المطلقة (٤) الأمراء (٥) العلماء المدلسين الذين صانعوا الأمراء (٦) فهم الدين على غير أساس

العبودية لله وحده (٧) الطرق الصوفية (٨) إهمال العلوم الرياضية والطبيعة (٩) الفقر (١٠) عدم وجود « قيادة » يلتف حولها المسلمون .

وقال : « إن ضعف الدين من أهم أسباب البدع ، ومن أهم أسباب البدع تقديس الأولياء وهو أن الناس يقيسون جبروت الله وسلطانه على جبروت الملوك وسلطانهم » .

وقد رسم صورة (الطوبيا) للاصلاح فى الأمة العربية بتكوين « هيئة إسلامية عامة » يطلق عليها جمعية لا تنتسب إلى مذهب أو شيعة إسلامية معينة . تسير فى مذهبها الدينى على سنة السلف المعتدل . وتكون نواة لجامعة إسلامية ثقافية تتطور مع الزمن إلى جامعة إسلامية سياسية .

وتعمل هذه الهيئة على تنفيذ برنامج يرمى إلى :

× نشر التعليم ، لنشر الوعى السياسى فى البلاد الاسلامية .

× وضع مؤلفات ترمى إلى تقويم الأخلاق والدين بلغة ميسرة .

× الدعوة إلى التسامح وتجنب التعصب الدينى أو الجنسى ، ومعاشرة غير المسلمين بالحسنى ، والمساواة فى الحقوق .

× بعثات إلى مختلف البلاد الاسلامية لتعرف أحوالها وإرشاد أهلها .

(شكيب أرسلان)

تأثر « شكيب أرسلان » دعوة جمال الدين الأفغانى بعد أن التقى به استانبول ١٨٩٢ ولازمه . وقد عاش حياته يدعو للجامعة الاسلامية ، وقد صور دعوته فى كتابه « لماذا تأخر المسلمون » وفى تعليقاته على كتاب حاضر العالم الاسلامى .

ويرى شكيب أرسلان أن من أعظم أسباب انحطاط المسلمين هو فقدهم كل ثقة بأنفسهم . وقد ساعد على المرض سعى الفرنجة ودعاتهم فى ترويج النظريات التاعسة بين المسلمين من أنهم لا يصلحـــون لعلم أو صناعة أو حرب أو سلم » .

ويرى أن الجامعة الاسلامية : إنما هى الشعور بالوحدة العامة ، والعروة الوثقى التى لاانفصام لها ، بين جميع المسلمين فى المعمور الاسلامى ، قائمة على ركنين هما أساساها ، ولا ثالث لهما : الحج إلى بيت الله الحرام فى مكة ، والخلافة ، ويرى أن الحج أهم من الخلافة . » والحج هو المؤتمر الاسلامى السنوى حيث تتباحث الوفود الاسلامية من أقطار المعمورة فى كافة مصالح المسلمين ووضع الخطط ورسم الطرائق للدفاع عن بيضة الاسلام .

وقال : إن الاسلام بذاته صالح كل الصلاحية لـكى يستمد منه جميع ما هو لازم لذلك ، من أجل هذا يكتفى فى الأخذ من الغرب بمناهجه العلمية ووسائله المـــادية .

(عبد الله نديم)

وكان عبد الله نديم يؤمن بأنه لامانع من قيام الجامعتين الاسلامية والقومية ، الأولى بين المسلمين ، والثانية بين أبناء الوطن الواحد .

(مصطفى كامل)

ويرى مصطفى كامل أن بقاء الدولة العلية ضرورى للنوع البشرى وأن بقاء سلطانها فيه سلامة لأمم الغرب ، وأمم الشرق . وأن واجب المسلمين هوأن يلتفوا حول راية الخلافة الاسلامية وهاجم مصطفى كامل مشروع الخلافة العربية ، وقال إنه إحدى دسائس الانجليز .

وقد اعترف كرومر فى كتابه « مصر الحديثة » بسعة انتشار فكرة الرابطة الاسلامية بين المصريين وما تتمتع به الخلافة التركية من نفوذ واسم فى مصر وتمسك المصريين بالإيمان بالوحدة الكاملة بين المسلمين فى سائر أقطار الأرض .

المراجع

عصر اسماعيل : عبد الرحمن الرافعى

الرحالة ك (الكوكبى) : عباس محمود العقاد

زعماء الإصلاح : أحمد أمين

بناه النهضة العربية : جورجى زيدان

حياة الشرق : محمد لطفى جمعة

شكيب أرسلان : د . م سامى الدهان

الفكرة العربية فى مصر : د . م أنيس صائغ

التيارات الوطنية : د . م محمد حسن ج ١ ، ٢

سيرة الإمام : رشيد رضا (ج ٣)

الاسلام والتجديد : تشارلس أدمس : ترجمة عباس محمود العقاد

حاضر العالم الإسلامى : ترجمة لوتروب ستودارد : ترجمة عجاج نويهض

تيار القومية العربية

تعد القومية العربية من أهم معارك «التحدى والاستجابة» التى عرفتها الأمة العربية فى مواجهة حملات الغزو السياسى والفكرى التى فرضها الاستعمار على الأمة العربية وهى من ناحية أخرى محاولة للتجمع فى كيان واحد لمواجهة الاستبداد العثمانى ، فالاستعمار الغربى . غير أن عوامل مختلفة حالت دون بلوغ هذا التيار غايته؛ اهمها :

- تعذر صهر المنطقة فى وحدة سياسية كاملة فى وقت قريب .
- تحول كبرى الدول الاسلاميه وهى تركيا عن التيار الاسلامى الى التيار القومى حيث حمل « الاتحاديون » الذين خلفوا السلطان عبد الحميد لواء الدعوة الى الجامعة « الطورانية » وقد بلغت هذه الدعوة مرحلة العنف والتطرف حين اتجهت الى فكرة تتريك عناصر الدولة العثمانية ومن بينها العرب .

هنالك برزت دعوة القومية العربية فى حركة دافعة لمقاومة هذه المحاولة التى أريد بها القضاء على الكيان العربى ، أن تيار الفكرة العربية كان قائما منذ أمد بعيد ، وإن كان قد انطوى ثمة بعد انتفاضة صلاح الدين الأيوبى .

والحركة الوهابية على ما تحمل من طابع دينى كانت فى صميمها دعوة استقلالية ، تهدف إلى تحرير المنطقة من نير الامبراطورية العثمانية وذلك تحت ضغط أحداث الاستبداد العثمانى وانحراف السلطة فى اتجاهاتها الفكرية والسياسية عن المعالم الواضحة التى عرفها العرب فى خلال تاريخهم الطويل ، ثم كانت حركة محمد على التى قضت بفضل مؤامرات السياسية على الحركة الوهابية وكانت — أى حركة محمد على — فى ذاتها انفصالية بالعالم العربى عن تركيا العثمانية ، هذا مع ملاحظة أن حركة الوهابية لم تأخذ طابعاً قومياً عصريا واضحا ، وأن حركة محمد على كانت قائمة أيضا على المطمع

الشخصى دون هدف عربى واضح ، ولقد كان للتيار القومى الذى غمر أوربا فى هذه الفترة أثره فى الاتجاهين التركى والعربى ، كما كان له أثره فى اتجاهات القومية الضيقة التى ظهرت بعد الحرب العالمية الأولى — مما يدخل فى المرحلة التالية من كتابنا — غير أن الدعوة إلى القومية العربية ارتبطت بعد ذلك باليقظة الفكرية التى سادت العالم العربى ، وتركزت فى الشام (سوريا ولبنان) واحتضنها أول الأمر العرب المسيحيون الذين تأثروا بالثقافة الغربية عن طريق الجامعات الأمريكية والفرنسية التى قامت فى لبنان والتى حملت لواء الدعوة الى القومية . كوسيلة للقضاء على الخلافة الاسلامية وتمزيق كيان الامبراطورية العثمانية .

ومن أجل هذا كانت القومية العربية تياراً فكريا أكثر منه تياراً سياسيا ، ذلك أنها اعتمدت أول ما اعتمدت على مقاومة تيار القضاء على اللغة العربية ، والتاريخ العربى ، ومعالم التراث العربى والبطولات والأعلام العربية حين اتجهت تركيا الى تغليب اللغة التركية فى المدارس والمحاكم والثقافة واستعادة أمجاد جنكيزخان وتيمورلنك ومحو أسماء أبطال العرب التى تحملها الشوارع والميادين وتغييرها بأسماء أبطال التتار والمغول .

ولذلك كان تيار القومية العربية فى مطالعه يعمل على إحياء تراث الأجداد والكشف عن الصفحات التى علاها التراب من البطولات واستغل الأسلوب الغربى فى البحث العلمى لإبراز هذه الجوانب مما أوقد جذوة الإيمان بالشخصية العربية ، وكشف للعرب عن معالم تاريخهم الناصع الملىء بالبطولات العديدة ومواقف الكفاح ، فضلا عن عمليات الصقل التى جرت للأسلوب العربى بتخليصه من الزخرف والاتجاه بالمضمون إلى المعانى الموضوعية ، هذا مع ضرورة الاشارة إلى ظاهرة تحويل هذا التيار فيما بعد نحو التغريب كمحاولة للتشكيك فى مقدرات العرب والمسلمين .

وقد كان العرب يهدفون فى هذه الفترة إلى الاحتفاظ بكيانهم واضح الاستقلال فى ظل السلطة وهو ما أطلق عليه « اللامركزية » .

بلغ هذا التيار قوته حينما اعتبر الحضارة الاسلامية والفكر الاسلامى القديم كله تراث عربى يمكن أن يفاخر به المسلم العربى والمسيحى العربى وكان هذا مدعاة لأن تنقل الكنائس الكاثوليكية العربية صلواتها إلى اللغة العربية كما نقل الانجيل إلى اللغة العربية وتحررت الكنيسة العربية من سلطة الكنيسة اليونانية وكان أول بطريرك عربى هو المطران دومانى ١٨٩٩ .

وقد كان هذا الاتجاه عظيما حيث حمل هذا التيار فى هذه المرحلة لواء القومية فربط بين المسلم والمسيحى فى العالم العربى وأطلق الدعوة إلى القومية من الدين باسمه مع اعتبار التراث الروحى أساسا للوحدة والعمل على مزج عنصرى الأمة وقد بدأ هذا المعنى واضحا فى مؤتمر باريس ١٩١٤ الذى عقده العرب (السوريون واللبنانيون) واشترك فيه العراق .

* * *

٢ — تأثر الفكر العربى بتيار القومية العربية فى مجال الجمعيات والتأليف والصحف ، فكانت حلقة طاهر الجزائرى فى دمشق (١٨٨٠) وحلقة محب الدين الخطيب (١٩٠٣) وقد جمعت هذه الحلقات صفوة المتعلمين والنبغاء والمفكرين العرب . كما انتقل هذا التيار إلى أستانبول نفسها وحمل لواءه : محب الدين الخطيب وعارف الشهابى ودعيا إليه شباب العرب فيها .

وقد استهدفت هذه الجماعات تعريف العرب بأنفسهم وتاريخهم وقوميتهم ويعزو محب الدين الخطيب إلى هذه الحلقات الفضل على جميع الحركات الفكرية والسياسية والتحريرية فى الشرق . فهى التى أرست القواعد الأولى للفكرة العربية فى ظل الحكم التركى المطلق وهى التى أشعرت العرب بشخصيتهم وأنارت طريق الثورة على الظلم والاستعمار .

٣ — تأثر الفكر العربي بتيار القومية العربية ، فكان أول كتاب في الدعوة إلى القومية هو « يقظة الأمة العربية في آسيا » صدر عام ١٩٠٤ بقلم نجيب عازوري ، الذي دعا إلى توحيد الكنائس الكاثوليكية تحت إسم الكنيسة الكاثوليكية العربية وانفصال الولايات العربية عن الدولة العثمانية على أن يكون الحجاز مقرا لخلافة إسلامية عربية . وأن تتكون من العراق وسوريا ولبنان وفلسطين دولة عربية موحدة عصرية . كما أصدر مع جماعة الفرنسيين مجلة (إستقلال العرب) ١٩٠٨ .

٤ — وكان المؤتمر العربي في باريس (١٧ حزيران ١٩١٣) مقننا لفلسفة القومية العربية فقد أبرز ضمان تمتع العرب بحقوقهم السياسية وذلك بالاشتراك في الإدارة المركزية للمملكة اشتراكا فعليا . وفيما يتعلق بالفكر العربي فقد نص على أن تكون اللغة العربية معتبرة في مجلس النواب ، وأن يقرر المجلس كون اللغة العربية لغة رسمية في الولايات العربيـــة . وأشار الأعضاء إلى بعد الحركة العربية عن الغايات الدينية واعتبار المسلمين والمسيحيين أفراد أمة واحدة هي (الأمة العربية) . وقال عبد الحميد الزهراوي إن الرابطة الدينية لم تتمكن من تحقيق « الوحدة السياسية » كما أكد أحمد طبارة أنه يعني بالعرب كل ناطق بالضاد لافرق في ذلك بين المسلم وغير المسلم .

وصور عبد الغني العريسي فلسفة القومية العربية بقوله :

هل للعرب حق جماعة . إن الجماعات في نظر علماء السياسة لاتستحق هذا الحق إلا إذا جمعت على رأي علماء الالمان وحدة اللغة ووحدة العنصر وعلى رأي علماء الطليان : وحدة التاريخ ووحدة العادات وعلى مذهب سياسة الفرنسيين : وحدة المطمح السياسي ، فإذا نظرنا إلى العرب من هذه الوجوه الثلاثة علمنا أن العرب

تجمعهم وحدة لغة ، ووحدة تاريخ ، ووحدة عادات ، ووحدة مطمح سياسى ، فحق العرب بعد هذا البيان أن يكون لهم على رأى كل علماء السياسة دون استثناء : حق جماعة . حق شعب .حق أمة .

نحن عرب قبل كل صبغة سياسية . حافظنا على خصائصنا وميزاتنا وذاتنا منذ قرون عديدة — رغما عما كان ينتابنا من حكومة الاستانة من أنواع الادارات ، كالامتصاص السياسى ، أو التسخير الاستعمارى ، أو الذوبان العنصرى ، فكل ماتذرعت به الاستانة من الوسائل لم يؤد إلى غير نتيجة واحدة : وهو الحرص على مكانة حق الجماعة وإحياء هذا الحس الشريف النبيل ؛ حس الجنسيه ، فاقتفاء الماضى نقرر مناهضة كل مايؤول إلى اضعاف هذه القومية والتذرع بكل ما فى حياة خصائص العرب وميزات العرب فنحن كتلة حية قائمة بذاتها وخاصتها لا تدع قوة تمس هذا الركن الركين فنصرح فى هذا اليوم بملأ الافواه أننا خلقنا لأنفسنا والبلاد العربية لا تكون بعد اليوم مسداً المطامع الاجنبية عن بلاد أخرى».

وقد خلقت دعوة القومية العربية تياراً صحفيا وثقافيا واضحا منذ الثمانيات من القرن التاسع عشر فى شعر ونثر استهله ابرهيم اليازجى بقصيدته :

تنبهوا واستفيقوا أيها العرب   فقد طمى السيل حتى غاصت الركب
لا دولة لكم يشتد آزركم   بها ولا ناصر للخطب ينتدب
أقداركم فى عيون الترك نازلة   وحقكم بين الاتراك مغتصب

وقد تنوع هذا الانتاج واتصل حتى قبيل الحرب العالمية الأولى ، وحمل لواءه السوريون واللبنانيون الذين هاجروا إلى مصر وأمريكا ، وكان فى مقدمة دعاته الشاعر القروى والزهاوى والرصافى .

وقد ركزوا على الاشارة بمجد اللغة العربية وعظم الأمة العربية وتراثها وأمجادها والتنديد بالحكم الاستبدادى .

مراجع

نشوء الفكرة القومية : ساطع الحصرى

الاتجاهات الوطنية : دكتور م . محمد حسين

القومية العربية : الأمير مصطفى الشهابى

الوحدة العربية : محمد عزه دروزة

رواد القومية العربية : أنور الجندى

القومية العربيه والوحدة الكبرى : أنور الجندى

حياة الشرق : لطفى جمعه

ترجمة حياة محب الدين الخطيب : المجلس الاعلى للفنون والآداب

الدكتور صلاح الدين القاسمى : محب الدين الخطيب

تيار الإصلاح الاجتماعي

كان من أبرز عوامل يقظة الفكر العربي المعاصر : ظهور تيار (الإصلاح الاجتماعي) هذا التيار الذي ارتبط بالصحافة والتعليم ونشأة الجماعات والهيئات وكان في أول أمره جزءا من تيار التجديد الديني ، ثم انفصل عنه وأصبح تياراً مستقلا .

ولقد كان المجتمع العربي يمر في أوائل القرن التاسع عشر بمرحلة من أقسى مراحل التأخر والاضطراب نتيجة لتحكم الأمراء والولاة واستبداد الاقطاعيين وتحكمهم في الفلاحين ، وزاد من ذلك الاضطراب تغلغل الأجانب في العالم العربي وسيطرتهم على مرافق التجارة ودوائر المال والاقتصاد .

وكان الحكم العثماني لا يهتم بالشعوب الخاضعة لسلطانه ولا يحرص على تطهير المملكة من الفساد مما استدعى انتشار الرشوة وسوء السيرة وسفك الدماء وتسلط الأمراء على الفقراء . وقد كان هؤلاء الأمراء على جانب كبير من السفاهة مما أدى إلى انتشار المفاسد والمنكرات ، فقد كانت تساق إلى قصور الخلفاء والأمراء الجواري اللائي كان لهن عملاء ومستوردون وأسواق .

كما كان الخلاف بين أمراء المماليك في مصر وحروبهم كانت من أسباب عزلة الشعب وانفصاله عن الأحداث وهروبه إلى الصوفية والزهادة .

وقد بدأت في عهد سليمان القانوني (١٥٢٠) سيطرة الأجانب على بلاد المملكة العثمانية وحصولهم على الامتيازات ، التي كانت سلاحاً موجهاً ضد الشعب العربي حيث مكنت هؤلاء الأجانب من السيطرة على أعمال الربا والمضاربة وغزو للمسارح والحانات والمسكرات واستقدام المغنيين والقيان الجواري مما دفع الأغنياء إلى إنفاق أموالهم

فى هذا السبيل وسيطر الاجانب على الاقتصاد كله عن طريق إنشاء الخمارات على كل قرية يبيعون لأهلها الخمور ويتاجرون بالربا بذلك انتقلت الثروات إليهم وتحول عدد كبير من الأثرياء إلى فقراء .

وامتد هذا النفوذ حتى سيطر الأجانب على الاقتصاد والمجتمع العربيين سيطرة كاملة؛ وقد صور الجبرتى انتشار الرشوة وانعزال المجتمع بقوله : الأمراء فى قصورهم وحواشيهم فى جانب ، والشعب الفقير الجائع فى الجانب الآخر يستنزف خيراته مما خلق الحقد والكراهية والمقت والاستسلام .

وزاد فى عمق هـذا التمزق جمود رجال الدين وانضواؤهم إلى صف الأمراء يقدمون الفتاوى التى تؤكد سلطانهم وطغيانهم .

وكان أغلب أهل الطبقة العليا هم من الأتراك والأجانب ، وهم الحكام واتباعهم ، ولهم عصبية انفصالية عن الأمة وقد شغفوا بتقليد الافرنج فى أمور الطعام والشراب والقصور وانتقل ذلك إلى الطبقات التالية بعدها بالتدريج .

(وكان لتغلغل الأجانب خلال القرنين السابع عشر والثامن عشر أثره فى الأخلاق الاجتماعية فقد تحول الأثرياء من الطبيعة الجماعية المعروفة فى الأمة العربية إلى الطبيعة الفردية الأنانية ، القادمة من الغرب .

وانتقل الأغنياء من البذل إلى البخـل وتوقف عمل الخير وأغلقت البيوت التى كانت دائما مفتوحة لاستقبال ذوى الحاجات ، واتجهت هذه الأموال الطائلة إلى الملاهى والملذات وأنواع الترف . وقد أحصى عدد البيوت التى أخربها الاسراف فى خلال السنوات ١٨٩٤ ـ ١٨٩٩ فوجدت ٣١٣ بيتا بمعدل بيت كل خمسة أيام .

وقد كانت هذه الطبقة تتكلم التركية والفرنسية ، وتكره العرب والوطنيين وتعتبرهم خوله وفلاحين وخدماً لهم ويعتقد هؤلاء أن

هذه البلاد ليست إلا مزارع لهم ، ولذلك كانوا يترفعون عن الاندماج أو الامتزاج بالطبقات المختلفة .

(وقد حرص الاستعمار البريطانى بعد أن سيطر على مصر عام ١٨٨٢ أن ينشىء طبقة جديدة من أعوانه فأعطى الفرصة لظهور ١٦٢٠ أسرة كبرى استطاعت أن تحصل على نصف مليون فدان (فقد زاد عدد الملاك من ١١٢٢٠ مالكا عام ١٨٩٤ إلى ١٢٨٤٠ مالكا عام ١٩١٤ وزادت أملاكهم من ١٫٩٩٧٫٠٠٠ فدانا إلى ٢٫٣٩٧٫٠٠٠ فدانا) ومن هؤلاء جند الاستعمار الوزراء والذوات والكبراء ولم يفت الزعيم الوطنى « محمد فريد » أن يعلق على هذه الظاهرة البعيدة المدى فى المجتمع المصرى فقال : لو كان ذواتنا وكبراؤنا من ذوى الشرف وأصحاب النخوة لامتنعوا عن قبول الوظائف العالية بهذه الحالة ، ولكن الكل يغار على ماهيته وابهته أكثر مما يغار على اسمه واستقلال وطنه ، وكيف يكونون كذلك وهم الذين ساعدوا الانجليز على احتلال بلادهم ويساعدونهم الآن على ؛ كل ضمها لأملاكهم » .

ومن المفارقات أن « محمد فريد » أنفق على الجهاد فى سبيل تحرير مصر مايزيد عن ألف وخمسمائة فدان من ميراثه من أسرته التى كانت تملكه قبل الاحتلال .

* * *

أما الشعب فقد كان الضحية لتسلط الحكام والأمراء على الأراضى الزراعية باستيلائهم على خيراتها ، وحرمان أصحابها الفلاحين . واستولى محمد على فى مصر على أراضى الملاك بتنفيذ نظام الاحتكار وحولهم إلى عمال زراعيين .

وقد اضطروا لظروفهم القاسية ومظالم الولاة والحكام إلى التعامل بالربا الذى كان يقوم به الأروام واليونانيين واليهود وقد أحصى فى مصر (١٨٩٨) ٥٠ بيتا لتسليف النقود بالربا وظهر فى سجلات المحاكم المختلطة

أن قيمة الدين المسجل على الفلاحين هو ٣٠٠ر٣٢٣ر٧ جنيهامصريا ، وبلغ تقدير الديون غير المسجلة ضعف هذا المبلغ ، وأنه قد لحقت بالاهالى عام ١٩٠٠ خسارة قدرها ١٠ آلاف جنيه بسبب مضاربات البورصة والشراق .

ومن أخطائهم أن أحدهم قد يستدين مبلغا ليشترى به أرضا يبلغ ثلث دخلها الطبيعى نصف ربا الدين .

وقد أغرام الأجانب بشراء الأسهم والسندات . وبلغ عدد سماسرة هذه الشركات فى مصر وحدها ثلاثة آلاف فكانوا يسرحون فى القرى والبنادر ، ومما يتصل بذلك ما ذكره (المؤيد) من أن أجنبيا أنشأ بيتا ماليا رأس ماله ألفى جنيه ، أصبح بعد ثلاث سنوات يملك خمسين ألف جنيه .

وقد تم إحصاء فى القاهرة (١٨٩١) عن المحلات التى كانت تستعمل قهاوى وخمارات فبلغت ٩٤٧٥ محلا يبيع فى السنة بمبلغ ٠٠٠ر٧٣٠ر١ جنيه ووصل هذا المبلغ إلى ٠٠٠ر٤٠٠ر٣ جنيه فى القطر كله ، وأغلبها بيد الأجانب والذى سجلناه عن مصر قد حدث مثله فى مختلف أنحاء العالم العربى .

(الاحصائيات من كتاب حاضر المصريين أو سر تأخرهم — ١٩٠٢)

أما التجارة فقد توسع فيها الأجانب وتضاءل الوطنيون فى مختلف العالم العربى ، وأصبحت التجارات الناجحة كالسجاير وتجارة البيض فى مصر حكرا على الأرمن واليونان .

وقال كرومر فى تصريح له : لقـــد تحولت واجهات المحلات التجارية فى مصر فى خلال سنوات قليلة بعد الاحتلال البريطانى إلى محلات أجنبية واختفت أسماء المصريين من واجهاتها .

وقد علل « محمد عمر » فى كتابه (حاضر المصريين) السر فى تأخر المصريين

إلى أنهم يأتمنون على متاجرهم أجانب أو عجائز متقدمين فى السن يستنزفون ثرواتهم وأنهم لا يفتحون محلاتهم إلا ضحى ويتركونها لهؤلاء العمال لحبهم النوم ظهرا ، وهذا لا يفعله الأجانب » .

وقد تأثرت الأسرة المصرية نظراً لفســاد أنظمة المحاكم المختلطة . كما كان لانتشار المتصوفة الذين يدعون معرفة الأسرار وسقوط التكاليف السماوى أثره فى فساد معنى الدين ، وقد حرص الأجانب على حضور حلقاتهم ونقلوا هذه الصور على أنها صورة الإسلام ، وكان يعمل فى القاهرة وحدها ٨٠ مولداً فى السنة يظهر فيها عديد من الأخطاء الاجتماعية .

وأدى احتلال مصر إلى التوسع فى أخطار (١) الدعارة الرسمية (٢) المخدرات (٣) الأقطاع والرق الاجتماعى (٤) السخرة والكرباج وقد بلغ ماضبط من الحشيش (تقرير كرومر — ١٩٠٠) ١٥٦٢٥ كيلو جرام بزيادة ٦٤٧٧ كيلو عن عام ١٨٩٩ والمعروف أن عمليات تهريب المخدرات بمختلف أنواعها كانت تتم بمعرفة الاستعمار وبواسطة رجاله وأجهزته .

وقد أدى منع الفلاح من حق التملك ، أو ظلمه فى محصوله إلى أن ساءت حالة الفلاحين لدرجة اضطرت لها أكثر أهلها إلى الهجرة من قراهم وزاد فى ذلك أعمال السخرة التى كانت تستخدم لإصلاح أراضى الولاة والحكام وقد حشد لها عدد كبير من شباب الفلاحين ، وتعد عملية حفر قناة السويس أسوأ مثل لفقدان ١٠ آلاف عامل من شباب الوطن .

وقد كان الضرب بالكرباج عادة مألوفة فى جباية الضرائب ، ولم يكن هناك قانون يحمى الفقير أو المظلوم . ولم تكن هناك رقابة على الحكام .

ومما أدى إلى الفساد الاجتماعى تعدد الزوجات ، وكثرة وجود الرقيق وذكر

أنه كان يوجد فى بيروت الأغنياء بالقاهرة (عام ١٩٠٠) ٣ آلاف من الجوارى البيض الشركسيات .

(وقد تأثر أبناء الطبقة الوسطى بالأغنياء فى فنون الترف والسهرات ، وكان هذا طبيعيا بحكم تطلع الطبقة الوسطى إلى الطبقة العليا ، ولذلك أثره فى فساد هذه الطبقة واستنزاف ثروتها ، وانحراف سلوكها .

أما التعليم فقد كان هدفه إخراج موظفين يعملون فى خدمة الولاة حيث لا يحسنون إلا ما يمكنهم من أداء عملهم آليا .)

* * *

هذه ملامح صورة المجتمع العربى إلى ماقبل الحرب العالمية الأولى ، وقد ظهرت فى هذه الفترة دعوة الإصلاح وبدأت عوامل اليقظة . وكان أبرز مظاهرها الدعوة إلى الدستور والحكم النيابى بحسبانه الأداة الوحيدة للحد من سلطة الفرد ، وتوقيف طغيان الولاة وحكام الأقاليم إزاء وجود حكم شعبى يقوم على أساس انتخاب مجلس نيابى يقوم بوضع التشريعات التى ترفع هذه المظالم ، وتحرر الشعب من طغيان الاقطاعيين وجور الولاة .

غير أن الاستعمار الذى سيطر على المنطقة بعد الحرب العالمية قد حرص على إنشاء طبقة من العملاء الخاضعين له كما فعل فى مصر بعد احتلالها ، ولهذه الطبقة أسلم زمام الحكم والسلطان .

وكان الاستعمار حريصا على أن يبقى الشعب فى جهل ، فحارب التعليم وألب القوى كلها عليه : قوى النفوذ الأجنبى واستبداد الولاة حتى حيل بينه وبين معرفة حقوقه ، بيد أن العلماء — وعمر مكرم فى مقدمتهم ، والأمراء استطاعوا أن يحققوا للشعب نصراً مبينا

وذلك (١) بارغام المماليك على توقيع وثيقة حقوق الإنسان (٢) عزل الحاكم المستبد وذلك بخلع خورشيد والى تركيا على مصر (١٨٠٥) .

وقد كشف المصلحون الاجتماعيون الذين ظهروا — فى هذه الفترة — عن حقيقة موقف الإسلام من الأمراء والظلم وحق الشعب فى التعليم والحرية وقد كان الإسلام تقدميا أكثر من المجتمع نفسه ، غير أن المسلمين هم الذين تركوا أصول الإسلام ومبادئه .

وقد ترتب على ذلك ظهور دعوات إلى (١) محاربة الاقطاعية بالاشتراكية وكانت كلمات جمال الدين الأفغانى فى هذا المعنى واضحة الدلالة : « أيها الفلاح : يامن تشق قلب الأرض بفأسك ، لماذا لا تشق قلب ظالمك ... » ألخ .

إلى (٢) تحرير المرأة : بتعليمها وسفورها وهى دعوة بدأت فى العالم العربى مبكرة حين بدأها البستانى وفارس الشدياق ورفاعة الطحطاوى ثم تناولها قاسم أمين فى عمل فكرى واضح الملامح فى كتابه تحرير المرأة .

(٣) الدعوة إلى حق الشعب فى التعليم ، وقد حرص استبداد الأمراء وسلطان النفوذ الأجنبى على حرمان الشعب من التعليم وقصره على الأغنياء ثم انتقل إلى مرحلة أخرى أن أصبح تعليما قائما على أساس تخريج موظفين وقد طعم بالسموم المختلفة على النحو الذى رسمه له أمثال (دنلوب) .

مراجع

حاضر المصريين أو سر تأخرهم : محمد عمر

تطور الحركة الوطنية المصرية : شهدى الشافعى

عصر اسماعيل : عبد الرحمن الرافعى

عصر محمد على : عبد الرحمن الرافعى

المجتمع الاسلامى : دكتور أحمد شلبى

الاتجاهات الوطنية : دكتور م . محمد حسين

تحرير المرأة

كانت الدعوة إلى « تحرير المرأة» من أبرز ملامح الإصلاح الاجتماعى فى العالم العربى ؛ وهى دعوة بعيـــدة المدى فى تطور الفـكر العربى المعاصر وقد حمل لواء هذه الدعوة ثلاثة من أعلام الفـكر العربى الحديث هم : بطرس البستانى ، فارس الشدياق ، رفاعة الطهطاوى ، وكان ذلك فى منتصف القرن التاسع عشر ، فقد ألقى (بطرس البستانى) خطابه فى تعليم النساء فى ١٤ كانون الأول ١٨٤٩ وتناول ذلك فارس الشدياق فى مجلته الجوانب (صدرت ١٨٦١) كما عرض له رفاعة رافع الطهطاوى فى كتابه المرشد (١٨٧٢) وهذه نماذج من كتاباتهم فى الدعوة إلى تعليم المرأة .

رأى بطرس البستانى

« انه[1] فى النظر إلى هذا الموضوع ، لابد من ملاحظة ما كتبه أصحاب الدراية والتحقيق وما شهد به اختبار جميع الأعصار والأمكنة من أمر النساء تحت اختلاف أحوالهن من حيث المرفة والجهل والتمدن والتوعر والذين اختبروا هذا الجنس وجربوه على كل حال قد استخرجوا نتائج جليلة تؤيد ما نريد اثباته فى هذا الخطاب من وجوب تعليمهن وفوائده والاضرار اللاحقة بالكون من جراء جهلهن وحكموا عن روية وصواب ، بأن سبكهن فى قوالب التعليم والتمدن وانصياعهن الى شرائع تقتضيها الهيئة الاجتماعية يكللان عالمنا هذا بتيجان الفوز والنجاح ويحليان جيده بقلائد الراحة والسلامة .

---

(١) العدد الثامن من مجلة الجنان

أما وجوب تعليم النساء فنتضح بما يأتي : لايخفى أن الإنسان ذكرا كان أو أنثى عند دخوله عالمنا هذا بالولادة يكون موكولا بجملته إلى عناية غيره وتدبيره فهو لايدرك ما حوله من الموضوعات ولا يقدر على تمييز النافع من المضر أو الخير من الشر ·

ولكن بواسطة ما يعرض على حواسه ظاهرا وباطنا من المواد الطبيعية والقضايا العقلية المادية عن المادة يأخذ فى التقدم شيئا فشيئا فى إدراك ما حوله وتقليده والحكم عليه وتتوسع قواه العقلية والأدبية بحيث أن يكون له حق التصرف بها (القوى العقلية والأدبية)وتهذيبها وتوسيعها بحسب الاقتضاء ·

لايجب أن توجد شريعة أو عادة أو عائق آخر يمنع المرأة من التمتع بحقها فى هذا القبيل ·

لو سلمنا أن للرجل حقه فى التعليم والتمدن إعالزمنا التسليم بوجوب تعليم النساء لكى تيسر له الحصول بسهولة على هذه الحقوق .

فمن فوائد التعليم للمرأة منها أنه توسع قواها العقلية ويهذبها ويوقظ ضميرها وينبهه ويحييه وتقوم إرادتها وعواطفها الأدبية وترتب سلوكها وتصرفها .

أما الاضرار الناتجة من جهل المرأة فمن جملتها فساد ذوقها لأنها تستحسن مايستهجنه الذوق السليم من أمر الملبوس والزينة والحركات ومنها فساد عقيدتها لأنها تصدق خرافات ومنها فساد آدابها كما يظهر من كلامها وتصرفها بين الجماعات ومنها فقدان المحبة الطبيعية حتى نحو أولادها ·

تعلم النساء بناء على أن التى تهز السرير بيمينها هى التى تحرك المسكونة بذراعها ·

رأى فارس الشدياق

إن الأمهات[1] فى الشرق يربين أولادهن فى الوساوس والأوهام والأضاليل

(١) من كتاب (كنز الرغائب فى منتجات الجوائب) .

فيقلان لهم مثلا أن العفريت أو الجنى يترصدهم ويصاحبهم وأنهما يأتيانهم فى الليل ويبطشان بهم ، وأن إلقاء الماء على الأرض من غير دستور يحملهما على الغيظ وما أشبه ذلك فيربى الولد على هذه الأوهام هيوبا هلوعا مخلوع القلب . أما إذا كان الولد أنثى فإنها لا تسمع من أمها إلا إسم الزواج والطلاق وقصة فلان مع فلانة فتعتقد البنت بأن النساء لم يخلقن إلا للزواج والطلاق ، فما ظنك بصبى يربى بلا قلب ، وبنت تنبت بلا عقل ، فإن قلت إن الأولاد تذهب الآن إلى المكاتب وتتعلم فيها القراءة والكتابة قلت : إن ما يتعلمون فى الكتّاب لا ينفى عنهم تلك الأوهام التى تحكيها عليهم أمهاتهم فى البيوت وإذا هم حفظوا كلام الله عن ظهر الغيب فما يفهمون معناه .

فعندى أن همال الولد من غير تربية أصلا خير من تربيته على هذه الأضاليل ويمكن أن يقال إن هولاء النساء معذورات على تربيـة أولادهن على الوجه الذى تقدم فإنهن لا يعرفن غيره ، وهو الذى ألفنه وتعودن عليه ، فلا غرو أن يعودن عليه أطفالهن ، إنما الذنب على الرجال حيث يتركون نساءهم على جهالة الجهل والغباوة . بل هؤلاء أيضا يظنون أن المرأة لم تخلق إلا للفراش .

فإن[1] قلت إنه ليس عندنا كتب فى العربية تصلح للنساء قلت هب ماقلته حقا ولكن اليس عند الافرنج كتب مختصة بالنساء والأولاد فلم نشـــترى منهم الخز والمتاع ولا نشترى منهم الحكمة والآداب

أما تعلم نساء بلادنا القراءة والكتابة فعندى أنه محمود بشرط استعماله على شروطه وهو مطالعة الكتب التى تهذب الاخلاق وتحسن الاملاء فإن المرأة إذا إشتغلت بالعلم كان لها به شاغل عن استنباط المكايد واختراع الحيل .

---

(١) للشدياق أيضا من كتاب (الساق على الساق فيما هو الفارياق) .

إن البنات فى مصر والشام لايباشرن أحـــداً سوى الخوادم وأهل البيت أما أمهاتهن فلا يطالعهن بشيء من أمور الدنيا مخافة أن تنجلى الغشاوة عن أبصارهن فيعرفن مايراد منها .

ولا يخفى أن البنات إذا كن جاهلات بالقراءة والـكتابة وحسن المحاضرات وبآداب المجلس والمائدة وغيرها فلا بد أن تتعوض عن هذا الجهل بمعرفة الحيل والمـكائد التى تتخذها وسيلة لما يرمن ويطلبن . فإن البنت إذا اشتغلت بقراءة فن من الفنون أو بمطالعة الـكتب المفيدة صرفها ذلك عن استنباط الحيل .

فالأولى عنــدى أن تشتغل البنت بأحد الفنون والعـلوم النافعة سواء أكان ذلك عقليا أم يدويا . وجهل البنات بالدنيا غير مانع لهن من معرفة الرجال واستطلاع أحوالهم — أما إذا كن تأدبن بالمحامد والعلم اللائق بهن فأنهن يعرفن الرجل عن تبصر وتدبر » .

رأى رفاعة الطهطاوى

ينبغى صرف الهمة فى تعليم البنات والصبيان معا فتتعلم البنات القراءة والـكتابة والحساب ونحو ذلك فإن هذا مما يزيدهن أدبا وعقلا ويجعلهن بالمعارف أهلا ويصلحن به لمشاركة الرجال فى الـكلام والرأى ، وليمـكن للمرأة عند اقتضاء الحال أن تتعاطى من الأشغال والأعمال ما يتعاطاه الرجال على قدر قوتها وطاقتها فـكل ما يطيقه النساء من العمل يباشرنه بأنفسهن . وهذا من شأنه أن يشغل النساء عن البطالة فإن فراغ أيديهن من العمل يشغل ألسنتهن بالأباطيل وقلوبهن بالأهواء وإفتعال الأقاعيل ، فالعمل يصون المرأة عما لايليق ، ويقربها من الفضيلة ، وإذا كانت البطالة مذمومة فى حق الرجال فهى مذمة عظيمة فى حق النساء ، فإن المرأة التى لا عمل لها تقضى الزمن خائضة فى حديث جيرانها ،

وما يأكلون ويشربون ويلبسون ويفرشون وفيما عندهم وعندها ، وهكذا ...

أما القول بأنه لا ينبغى تعليم النساء الكتابة وأنها مكروهة فى حقهن ارتكانا على النهى عن بعض ذلك فى بعض الآثار فينبغى أن يكون ذلك على عمومه ، ولا نظر إلى قول من علل ذلك بأن من طبعهن المكر والدهاء والمداهنة ولا يعتمد على رأيهن لعدم كمال عقولهن فتعليم القراءة والكتابة ربما حملهن على الوسائل الغير المرضية ، وأن الله تعالى لو شاء أن يخلقهن كالرجال فى جودة العقل وصواب الرأى وحب الفضائل لفعل ، فكأن الله تعالى خلقهن لحفظ متاع البيت ووعاء لصون مادة النسل . فمثل هذه الأقوال لا تفيد إن جميع النساء على هذه الصفات الذميمة ولا تنطبق على جميع النساء وليس مرجع التشديد فى حرمان البنت من الكتابة إلا التفانى فى الغيرة عليهن من إبراز محمود صفاتهن أياما كانت فى ميدان الرجال تبعا للعوائد المحلية المشوبه بحمية جاهلية ولو جرب خلاف هذه العادة لصحت التجربة .

ولا شك أن حصول النساء على ملكة القراءة والكتابة وعلى التخلق بالأخلاق الحميدة هو أجل صفات الكمال وهو أشوق للرجال المستفيرين من الجمال فالأدب للمرأة يغنى عن الجمال ، لكن الجمال لا يغنى عن الأدب !!» ا . هـ

٢ـ دعوة قاسم أمين

ثم كانت صيحة قاسم أمين بعد ذلك ، بأكثر من سبعة عشر عاماً ، فى نهاية القرن ١٨٩٩ : وتمتاز على ما سبقها بأنها دعوة مدروسة واضحة المعالم أقام صاحبها بحثه فيها على أساس من التشريع ، وعلم الاجتماع ، ومناقشة الآراء القديمة الجامدة . وقد زادت إلى مطلب تعليم المرأة — وهو لب دعوة الثلاثة : البستانى والشدياق والطهطاوى — السفور وإلغاء الحجاب والطلاق أمام القاضى ، ومنع تعدد الزوجات .

وقد ظهر كتاب تحرير المرأة عام ١٨٦٩ وذلك بعد أن نشره مؤلفه فصولا في جريدة المؤيد مما أثار ضجة كبرى اضطر إزاءها الشيخ على يوسف أن يفسح للكاتبين الرأى فى تأييد أو معارضة ، ما دعا إليه قاسم أمين .

وقد كتب قاسم مؤلفه (تحرير المرأة) على نحو علمى دقيق . قدم صورة عن حاله المرأة القديمه واضطهادها وإذلالها ثم عالج موضوع١ – « تربية المرأة » وأثر هذه التربية فى تثقيف عقلها ٢ — وشرح حجاب النساء باعتباره أصلا من أصول الآداب ، ودعا إلى التدرج فى السفور ٣ — بين علاقة المرأة بالأمة باعتبارها نواة الأسرة ٤ — وبحث نظام الأسرة وما يمس حياة العائلة . وجملة المسائل التى عالجها هى : الحجاب والسفور ، تعليم المرأة ، الطلاق أمام القاضى ، منع تعدد الزوجات .

آراء قاسم أمين

وأشار فى مقدمة كتابه ، بأنه ليس « ممن يطمع فى تحقيق آماله فى وقت قريب لأن تحويل النفوس إلى وجهة الكمال فى شئونها مما لا يسهل تحقيقه وإنما يظهر أثر العاملين فيه ببطء شديد فى أثناء حركته الخفية » .

ودعا إلى تعليم المرأة ورآه واجبا « أن تتعلم المرأة ما يلزمها لتربية أولادها على مبادىء الفضيلة والأدب ، وفهم ما يحيط بها من الأشياء . بل ينبغى أن تستعد للاجابة على تلك الأسئلة التى لا نهاية لها مما اعتاده الأولاد الصغار (ك: المصريون)وقال : إن المرأة والرجل على حد سواء فى الاحتياج إلى الانتفاع بالعلم والتمتع بلذته ، ولا تحصل المرأة على المطلوب من هذه التربية العقلية بتعلمها القراءة والكتابة واللغات الأجنبية بل تحتاج أيضا إلى تعلم أصول العلوم الطبيعية والاجتماعية والتاريخية(ك : المرأة الجديدة) .

وفى أمر (الحجاب) ندد به ، وقال: إنه « يحبس المرأة فى دائرة ضيقة فلا ترى

ولا تسمع ولا تعرف إلا ما تقع فيها من سفاسف الحوادث ، ويحول بينها وبين العالم الحى ، وهو عالم الفكر والحركة والعمل فلا يصل إليها منه شيء وأن وصل إليها بعضه فلا يصل إلا محرفا مقلوبا (ك: تحرير المرأة) فالحجاب هو عنوان ذلك الملك القديم وأثر من آثار تلك الأخلاق المتوحشة التى عاشت بها الإنسانية أجيالا قبل أن تهتدى إلى ادراك أن الذات البشرية لا يجوز أن تكون محلا للملك لمجرد كونها أنثى . كما اهتدت لأن تفهم أن سوادالبشرة ليس سببا لأن يكون الرجل الأسود عبدا للأبيض (ك : المرأة الجديدة) ، وقال : إن كل ما يستميل النفس إلى المطامع والدرس لا يتوفر للمرأة مع حجابها « ذلك لأن الحجاب يحبس المرأة فى دائرة ضيقة فلا ترى ولا تسمع ولا تعرف إلا ما يقع ويحول بينها وبين العالم الحى ، وهو عالم الفكر والحركة والعمل .

ودعا إلى منح المرأة حق حرية الفكر والعمل ، وقال : إننا لا نهاب أن نقول بذلك « بعد تقوية عقولهن بالتربية ، حتى ولو كان من المحقق أن يمرون فى جميع الادوار التى قطعتها وتقطعها النساء الغربيات .

وفى الطلاق : طالب بأن كل من يريد أن يطلق زوجته أن يحضر أمام القاضى الشرعى ، أو المأذون الذى يقيم فى دائرة اختصاصه • ويخبره بالشقاق الذى بينه وبين زوجته ، فإذا أصر الزوج بعد مضى أسبوع على نية الطلاق أن يبعث حكما من أهل الزوجة وحكما من أهل الزوج أو عدلين ليصلحا بينهما ، فإذا لم ينجح الحكمان فعليهما أن يقدما تقريراً للقاضى الذى يأذن بالطلاق •

وجملة آراء قاسم هى :

(١) رفع الحجاب الذى كان سائداً بصورة شاملة (٢) تعليم المرأة حتى ترتفع إلى المستوى اللائق بوظيفتها فى الحياة (٣) لا تتزوج المرأة بلا إرادة ولا اختيار

(٤) تحريم تعدد الزوجات ، وتقييد حق الرجل فى الطلاق .

تطور الحركة

وقد عرفت المرأة العربية ضياء العلم فى مصر ، قريبا من العهد حيث ذكرت أسماء الست جليلة تمرهان الحكيمة التى أقدمت على الاشتغال بمهنة الطب وكان لها مكانة مرموقة وكتبت فصولا فى مجلة يعسوب الطب . و (زبيدة المغربية) الشاعرة الزجالة المشهورة وهى أول امرأة ظهرت سافرة بين الناس حيث كانت تحضر مجالس الأدباء وتساجلهم .

كما سجل المؤرخون أسماء ستيته الطبلاوية وفاطمة الأزهرية التى قيل انهما تربتا فى الأزهر وحضرتا على كبار علمائه وكانتا من معلمات عائشة تيمور .

وعندما قدم جمال الدين الأفغانى الى مصر ١٨٧١ أثار الدعوة إلى تحرير المرأة فى مجالسه على نحو يتفق مع اسلوبه ، فقد كان يوجه أنظار تلاميذه نحو هذا الرأى أو ذاك بطريق غير مباشر . وقد روى ابراهيم الهلباوى أنه كان جالسا مع جمال الدين وكان معهما ابراهيم اللقانى وجماعة آخرين فى الجزيرة بين المزارع فمرت من بعد سيدة انجليزية راكبة جوادا فلما لمحها السيد خاطب اللقانى دون أن يلتفت إلى ناحية السيدة فقال . ما أحسن ماتتمنى يالقانى . فأجابه : أن تكون لى زوجة كهذه السيدة ، فأبدى السيد علامة الاستحسان . وقد تردد أن جمال الدين كان يعتقد بأن المرأة تتمتع بنفس التكوين العقلى الذى للرجل ولا يعيقها إلا نشأتها وان لم « تتأكد مصادر هذا الرأى .

وقد ظهرت أول مجلة تحررها فتاة عام ١٨٩٠ وهى مجلة الفتاة لهند نوفل ثم فتاة الشرق للبيبة هاشم وتوالت الصحف التى صدرت فى القاهرة وكان بعض أصحابها من الشام .

وكانت مدرسة البنات الأمريكية قد تأسست فى بيروت ١٨٦٣ فكان لها أثرها فى تعليم المرأة ودفعها نحو السفور — وظهرت إذ ذاك كاتبات منهن زينب فواز وسليمة أبو راشد ومارى عجمى وجوليا دمشقيه .

وكان للمدارس الأجنبية أثرها فى مصر ولبنان . وقد تبادلت مصر والشام المدرسات لمدارس الأمريكان والفرير والجزويت . وفتحت أبواب التعليم للفتاة المصرية ، ومن تقارير المرسلين الأمريكان يظهر أن عدد البنات اللاتى يتلقين التعليم فى المدارس فى مصر بلغ عام ١٨٩٨ : ٣٧٢٠ بنتا أغلبهن من الأقباط : وقد حال الاستعمار البريطانى فى مصر دون فتح أبواب التعليم الثانوى والعالى أمام الفتاة وكان المستشار الانجليزى يمنع ذلك بحجة أنه مخالف لتقاليد البلاد .

ومما يذكر أنه أبان الثورة العرابية (١٨٨٢) بينما كان «عبد الله نديم» يخطب الناس فى الاسكندرية تقدمت « زينب ضيف » وطالبت بحقوق المرأة وقالت:

هل يرضيكم أن يعيش نصفكم ويموت النصف الآخر . إن العلم هو الحياة والجهل موت زؤام . ان المرأة المصرية لها فى أعناقكم حقوق ولها عندكم واجب وهو أن تعلموها . ومن العار أن تخلو بلاد كمصر من مدارس البنات » ثم كان صالون نازلى هانم فاضل الذى جمع محمد عبده وقاسم أمين وسعد زغلول وغيرهم من أصدقاء اللورد كرمر وفيه تمت عملية « مخاض » كتاب تحرير المرأة لقاسم أمين .

ونازلى فاضل هى حفيدة ابراهيم وابنة فاضل باشا وتحسن اللغتين الفرنسية والانجليزية والتركية (توفيت ديسمبر ١٩١٣) .

وقد كشف (داود بركات — الأهرام ٤ مايو ١٩٢٨) وفارس نمر (الحديث يناير ١٩٣٩) حقيقة الدوافع لصدور كتاب تحرير المرأة ، وجملة القول فى هذا أن قاسم أمين حين قرأ كتاب الدوق « داركور : المصريون» ورد عليه بكتاب باللغة

الفرنسية فند فيه اتهاماته . وصف هذا الكتاب بأنه لم يكن فى صف النهضة النسائية فقد رفع من شأن الحجاب وعده دليلا على كمال المرأة كما ندد بالداعيات إلى السفور وقد رأت فيه الأميرة نازلى تعريضا بها . وقد أشير على جريدة المقطم بأن تكتب ستة مقالات عنه تفند اخطاء قاسم فى هذا الاتجاه . ودفاعه عن الحجاب واستنكاره إختلاط الجنسين . وأوقفت الحملة بعد اتفاق الشيخ محمد عبده وسعد زغلول مع قاسم على تصحيح رأيه . وقد حمل الشيخ محمد عبده الدعوة إلى تحرير المرأة فى دروسه فى الرواق العباسى حيث أعلن مراراً أن الرجل والمرأة متساويان عند الله .

وقد ترددت آراء كثيرة بأن الشيخ محمد عبده كتب بعض فصول هذا الكتاب أو كان له دور فى مراجعتها ،ومما أورده لطفى السيد أنه اجتمع فى جنيف عام ١٨٩٧ بالشيخ محمد عبده وقاسم أمين وسعد زغلول ، وأن قاسم أخذ يتلو على الشيخ فقرات من الكتاب تحرير المرأة وصفت بأنها تنم عن أسلوب الشيخ محمد عبده نفسه . وقد صدر الكتاب عام ١٨٩٩ ومعنى هذا أنه أمضى ثلاث سنوات فى إعداده .

وقد قوبل كتاب (تحرير المرأة) بضجة قويه . وألف العلماء لجنة للرد عليه برئاسة محمد حسنين البولاقى . وانبرى الرد عليه طلعت حرب وفريد وجدى حيث أصدر كل منهما كتابا فى معارضة آراء قاسم .

وقد تراجع فريد وجدى شيئا ماعن آرائه غير أنه ظل محتفظا برأيه فى حجاب المرأة حتى ردده مرة أخرى عام ١٩٣٢ فى مقالات له بالاهرام وقد أنشأت زوجته مجلة واشتغلت بالسياسة ،ومما قاله محمد فريد وجدى (المرأة المسلمة — ١٩٠١) أن الحجاب ضرورى للنساء لصالح النوع الانسانى كله على العموم ، وصلاحها على

الخصوص ، لاينقص المرأة المسلمة لكي تبلغ اكمل نقطة يمكن أن ينالها جنسها ألا تعلم مبادىء العلوم الضرورية. وان اشتغال المرأة فى أشغال الرجال قتل لمواهبها وإطفاء لملكاتها .

ولم يستطع أنصار قاسم الذين كانوا يؤمنون برأيه أن يقفوا معه فى الضوء أبان أزمته أو يصرحوا برأيهم ، أو يؤيدونه علنا .

وقال فريد وجدى : أن وظيفة المرأة هى حمل ووضع وارضاع وتربية.

وأن تعليم الأم لابد أن يشمل تربية الطفل وتربية ملكاته؛وقال إن علينا «أن نعمل كل ما يمكننا لتتقرب المرأة من كمالها وتدخل إلى حدود وظيفتها وان نعتبر أن كل ما يبعدها عن هذه الوظيفة داء اجتماعى يجب التغلب على ملابساته أو بذل الجهد فى حصره فى محله وان كل امرأة مهما قيل أنها مكتشفة لنجم أو باحثة فى الميكروبات أو علم التشريح أو غير ذلك ناقصة وعاصية للطبيعة وخارجة عن حدود وظيفتها » وان للمرأة كمالا خاصا بها لايتأتى لها الحصول عليه البتة إلا إذا صارت زوجة وأماً تلد وتربى وتدبر البيت . وان كل شىء يبعدها عن وظيفتها ينقص من كمالها ويؤثر عليها تأثيرا سيئا . ولا تكون الأمة كاملة إلا إذا توزعت فيها الأعمال على العاملين كل على حسب استعداده ووظيفته الكونية .

وقال فريد وجدى عن الحجاب : انا لا أنكر أن فى الحجاب شرا ولكنى اعتقد أنه مانع من شر أكبر فهو بهذا الاعتبار يعتبر خيرا ، وانه لايمنع من التهذيب » وشبيها من هذا كان رأى طلعت حرب ، وهو للتاريخ : ضد سفور المرأة وحده ، ولم يكن ضد تعليم المرأة كما ورد خطأ فى مقال للصحفى العجوز بالأهرام (هامش سبتمبر /١٩٣٢) ومجمله أن الحجاب لايحول دون تعليم المرأة .

وكأنما كان كتاب قاسم أمين قنبلة عنيفة الانفجار احتاجت إلى أكثر من

عام ونصف تشغل الصحف اليومية والأسبوعية وقد وجد قاسم فى الشباب مؤازراً وفى مقدمتهم ابراهيم رمزى الذى أنشأ مجلة خاصة لمقاومة آراء خصوم قاسم أمين وعبد الحميد حمدى الذى أنشأ مجلة السفور من بعد ، وفى خلال ذلك ، كان رأى قاسم مؤيدا فى دوائر اللورد كرومر وصالون نازلى فاضل . ولكنه كان مكروها فى دوائر اللواء والحزب الوطنى والقصر .

وظل قاسم خلال هذه الفترة صامتا يجمع النقود الموجهة إلى آرائه ويعد الرد عليها وكان ثمرة ذلك كتابه الثانى: « المرأة الجديدة » الذى أهداه إلى سعد زغلول . وقد تناول فيه أسانيد الخصوم وفحصها ورد عليها . وقد كان فى كتابه الثانى مثل ما كان فى كتابه الأول حصيفا ، تسلح بضبط النفس وبعد قلمه عن الهوى والعاطفة ومضى يقنن بأسلوب العلم وفق منطق العقل كل رأى . ولم يتناول رأيا جديدا ولكنه وضح بعض الجوانب خاصة فى الموضوعات الرئيسية : الحجاب وتعليم المرأة والطلاق وتعدد الزوجات .

ولقد كان مجمل رأى خصوم قاسم : أن تحرير المرأة يناقض أصول الدين بينما اعتمد هو فى كتابه الأول على نصوص الدين : القرآن والحديث ، وقد كان الفرق بينه وبين خصومه فى هذه المعركة أنهم حملوا عليه بعنف وتركوا لعواطفهم العنان فى تجريحه واتهامه ولم يتخذوا الأسلوب العلمى ، بينما وقف هو يرد الحجة فى أسلوب قائم على المنطق والدليل وخال من الشطط أو الحماسة أو الهوى .

وكان الكتاب الجديد مثار جدل ومناقشات جديدة وقد استمرت الزوبعة بعض سنين ثم هدأت ، وظل قاسم يواصل جهاده فى سبيل رأيه حتى توفى (فى أبريل عام ١٩٠٨) .

تردد قاسم فى رأيه

× غير أن قاسم أمين فيما تروى صحيفة الظاهر (اكتوبر ١٩٠٦) قد بدأ له أن يغير رأيه فيمادعا إليه تحت تأثير نتيجة التجربة التى عاناها المجتمع فى مصر خلال هذه الفترة منذ أصدر كتابه ١٨٩٨ حتى أعلن رأيه ذاك (١٩٠٦) وصاحب جريدة الظاهر هو محمد أبو شادى الصحفى المعروف فلا غرو أن جمع هذا الرأى أحمد تيمور باشا فى كناشته المحفوظة فى دار الكتب (تحت رقم ٣٢ جرائد تيمور) ولو كان قد وجه قاسم اعتراضا أو مراجعة لهذا الرأى لاحتفظ به أحمد تيمور فى كناشته أو لتردد أمره وهذا وهو رأى قاسم الذى يعتبر رجوعا منه عن رأيه الأول فى تحرير المرأة وخلاصته أن الدعوة إلى تحرير المرأة سابقة لأوانها .

« لقد كنت أدعو المصريين قبل الآن إلى اقتفاء أثر الترك بل الافرنج فى تحرير نسائهم وغاليت فى هذا المعنى حتى دعوتهم إلى تمزيق ذلك الحجاب وإلى إشراك النساء فى كل أعمالهم ومآدبهم وولائمهم ، ولكنى أدركت الآن خطر هذه الدعوة بما اختبرته من أخلاق الناس فلقد تتبعت خطوات النساء فى كثير من أحياء العاصمة والاسكندرية لأعرف درجة احترام الناس لهن وماذا يكون شأنهم معهن إذا خرجن حاسرات فرأيت من فساد أخلاق الرجال بكل أسف ما حمدت الله على ما خذل من دعوتى واستنفر الناس إلى معارضتى . رأيتهم مامرت بهم امرأة أو فتاة الا تطاولوا اليها بألسنة البذاء ثم ما وجدت زحاما فى طريق فمرت به امرأة الا تناولتها الأيدى والألسن جميعا .

إنه قد تصح الدعوة فى الاستانة لتحرير المرأة التركية تمام التحرير مثل نساء الأفرنج لأن الآداب العامة راقية جدا فى دار الخلافة ولكن لاتجوز الدعوة من هذا القبيل فى مصر . ولهذا كله لا أجد الوقت مناسبا للدعوة إلى تحرير المرأة بالمعنى الذى قصدته قبل » .

تطور الحركة النسويه

تطورت الحركة النسائية وبدأت تأخذ سمتاً واضحاً فى (الشام ومصر) ففى مصر . بدأ سنة ١٩٠٦ تجدد هبوب العاصفة على أثر مقالات نشرها عبد الحميد حمدى فى جريدة المنبر التى كان يحررها محمد مسعود وحافظ عوض تحت عنوان (كلمات عن المرأة) وكانت ملك حفنى ناصف (باحثة البادية) قد تقدمت إلى الامتحان الذى كان يتقدم اليه الفتيان وحدهم وفازت بالشهادة الابتدائية . وكانت أول فتاة لأول مرة (١٩٠٠) ثم لم تلبث أن مضت فى طريقها فنشرت فى المؤيد قصيدة تفاخر فيها بأن الفتيات أخذن يسايرن الرجال وأتيح لها بعد أن تشتغل بالتعليم فكانت أول فتاة أقدمت على اتخاذ هذه المهنة وكتبت فى الجريدة مقالات (النسائيات) المعروفة ، حيث تناولت مشاكل المرأة فى عصرها : علاقة الرجل بالمرأة وسن الزواج وتعدد الزوجات ، والحجاب والسفور . ولم تكن ملك تجرى وراء بريق الآراء الجديدة بل كانت معتدلة محافظة عارضت فكرة السفور إلا بشرط التدرج .

وقد أعلنت باحثة البادية (ديسمبر ١٩١٠) إن نساء مصر قد اعتدن الحجاب « فلو أمرتهن مرة واحدة بخلعه وترك البرقع لرأيت ما يجلبن على أنفسهن من الخزى وما تقع فيه بحكم الطبيعة والتغيير الفجائى من أسباب البلاء . وقالت « إن خروجنا بغير حجاب لا يضر فى نفسه إذا كانت أخلاقنا وأخلاق رجالنا على غاية الكمال . ورأت أن الوقت لم يحن بعد لرفع الحجاب . ودعت إلى إيجاد مدنية خاصة بالشرق تلائم غرائزه وطبائع بلاده وأعلنت أن تعدد الزوجات مفسدة للصحة والمال والأخلاق والأولاد وقلوب النساء .

× وفى هذه الفترة تقدمت نبويه موسى لامتحان الثانوية (١٩٠٧) فرفض (دنلوب) قبولها وتقدمت فى السنة الثانية فقبلت ونجحت بعد أن أحدثت ضجة

فى الصحف وإن لم تفز فتاة مصرية بالشهادة الثانوية من ١٩٠٨ — ١٩٢٩ وأرسل الشيخ محمد المهدى ابنته لتلقى العلوم فى إحدى الجامعات الانجليزية . وتقدمت (أسماء منصور) إلى محكمة الاستئناف العليا بقضية بعد أن منعت من امتحان شهادة (الكفاءة) فحكمت المحكمة بأنه يجوز للبنت المصرية أن تتعلم كالولد تماما .

وقد حملت (باحثة البادية) لواء الدعوة إلى تعليم البنت وتهذيبها وإدخال بعض الاصلاحات فى الحياة الزوجية . فلما عقد مؤتمر مصر الجديدة (مايو ١٩١١) قدمت له رسالة ضافية عن ترقية المرأة المصرية جملت أساس مذهبها فى تحرير المرأة تقرير المساواة لا على وجه الاطلاق بل فى حدود الاعتدال والدين وقال عنها لطفى السيد انها [اكتب امرأة قرانا لها فى عصرنا الحديث]

ولم يحل الموت دون مهاجمة آراء قاسم فقد قام معارضوه بعد وفاته فى نفس اليوم (يونيه ١٩٠٨) الذى أقيمت حفلة لتأبينه تحت قبة الغورى بعقد اجتماع برئاسة الشيخ شاويش وتوالت هذه الحملات فى صحف الحزب الوطنى بينما دافعت (الجريدة) لسان حال حزب الأمة عنه .

وكان الرجال هم حملة لواء تحرير المرأة والدفاع عنها ، هذا الدفاع الذى امتد بعد اغلاق الجريدة ١٩١٥ إلى مجلة السفور التى أصدرها عبد الحميد حمدى وجمل رسالتها مشتقة من اسمها واستمرت تعمل سبع سنوات حتى كانت الثورة الوطنية ١٩١٩ .

وقد حدث هذا فى نفس الوقت الذى كان الكتاب الرجال فى أوربا يدعون إلى تحرير المرأة ومساواتها فى الحقوق مع الرجال وخطاب اميل فاجيه فى الأكاديمية

الفرنسية (١٩١٠) مشهور حيث أبدى أسفه لحرمان المرأة حق الالتحاق بالأكاديمية .

وكان لإعلان الدستور العثمانى ١٩٠٨ أثره فى تركيا والعراق والشام فقد ظهرت أمينه سامى الكاتبة المشهورة وحررت خالده أديب فى جريدة طنين لسان حال جمعية الاتحاد والترقى ودعت إلى تحرير المرأة ووجوب تعليمها ومساواتها بالرجال ، وكان لها أثرها فى فتح باب التعلم أمام المرأة بمساعدة نجية هانم . وقد إختار نادى الوجاق خالدة عضوا وحيدا من الجنس اللطيف بها وألفت عام ١٩١٢ أول كتاب (طوران الجديدة) ١٩١٢ فى تأييد الجامعة الطورانية وقد وصلت خالدة بعد إلى قريب من منصب الوزارة فى عهد مصطفى كمال (أتاتورك)

وفى هذه الفترة بدأ الزهاوى فى العراق حملة لتحرر المرأة فلقى مصادمة وخصومه وإعراضا .

أما عائشة التيمورية (١٩١٢) ووردة اليازجى (المتوفى ١٩٢٤) فانهما لم يحفلا بالدعوة إلى تحرر المرأة — ولم يعرضا لمشاكلها الاجتماعية .

ثم أسست أول رابطة نسائية باسم جمعية الرقى الأولى للسيدات وبدأت المرأة تدخل الجامعة المصرية القديمة التى افتتحت عام ١٩٠٨ وتلقى بها محاضرات أمثال ملك ناصف ونبوية موسى ولبيبة هاشم ورحمة صروف ومى زيادة .

(٣ — ثورة ١٩١٩)

وكان لثورة ١٩١٩ أثرها الواضح فى دخول حركة تحررالمرأة دورها الإيجابى فقد اشتركت المرأة المصرية فى مظاهرات مارس ١٩١٩ وهزت الفكر العربى الحديث حيث وصفها الشيخ محمود أبو العيون (١/٢/١٩٢٢ — الأهرام) فقال: أنه ليس أكبر أثراً مما رأى الناس وشهد التاريخ يوم مظاهرة النساء أمام بيت

الأمة إذ أحاط الجند المسلح بالمدافع والسيوف والحراب جاثين على ركبهم مستعدين للنزال فانبرت فتاة منهن فاتحة صدرها قائلة لقائد الجند هذا صدرى اقتلني إن أردت فسأموت شهيدة الإيمان والعقيدة الوطنية المقدسة وقالت (عزيزة على فوزى — الأهرام ١٩٣٢/٣/٢) أن النساء خرجن بالرغم مما أرسلت به إليهن الحكمدارية الانجليزية مهددة إياهم أن لايبرحن ؛ خرجن سائرات على الأقدام ومشينا الهوينا « ثم التقينا (وقد شهدت المظاهرة واشتركت فيها) فاذا بالجنود محيطة بنا والعربات المصفحة تصوب مدافعها علينا ، والطيارات تحلق فى الجو وتبدى أسلحتها فى أشعة الشمس فتبرق . والشمس تصلينا ناراً وتسمر بلظاها رءوسنا وقد حاصرنا جنودهم البواسل أكثر من ثلاث ساعات » .

وقد استشهدت المرأة المصرية فى ثورة ١٩١٩ : وحفظ التاريخ أسماء الشهيدات : شفيقة محمد وفهيمه رياض وعيشة عمر وحميدة خليل وقد سيق بعضهن إلى السجون واتخذن من سجنهم أوكاراً للحركة الوطنية وكان لهن فضل إخفاء المنشورات السرية وتوزيعها .

وعندما أعلن الحاكم البريطانى فصل كل موظف لايعود لعمله فى اليوم التالى توجه عدد كبير من النساء المصريات إلى أبواب الوزارات والمصالح ورابطن بها ومعهن سلال الخبز والطعام والنقود فكن إذا رأين موظفا متسللا بادرن علاقاته قائلات له « هذا هو الخبز إذا كنت جائعا وهذا المال إذا كنت محتاجا فيعود خجلا وعندما أعلنت مقاطعة البضائع الانجليزية بادرت السيدات بمحاصرة المحلات الانجليزية دون سواها ومعهن جيش مرابط من طالبات المدارس يمنعن كل أحد من دخولها .

وقد اشتركت المرأة فى ثورة ١٩١٩ (فى المظاهرات والخطابة وقيادة

الشعب وإذكاء جذوة الوطنية دون أن تصادف معارضة الرجال) وكان هذا تطوراً طبيعياً للحركة فى مصر تبعه تطور فى مختلف أنحاء العالم العربى فقد اشتركت السورية فى ثورات ١٩٢٥ وكان لها دور واضح .

وفى هذه الدور ظهرت هدى شعراوى وشريفة رياض وتشكل الاتحاد النسائى المصرى ١٩٢٤ .

واتسعت بعد الحرب العالمية الدعوة إلى تخرج المعلمات والمرأة التى تعمل فى التطبيب وفتح باب الجامعة أمامها عام ١٩٢٣ حيث سجل التاريخ اسم (عفيفة إسكندر) التى حضرت درس الآثار مدى ست سنوات ويمكن القول بأن هذه المرحلة التى استغرقت خمسين عاما قد حققت هدفين من أهدافها : التعليم والسفور .

وبدأت قضية المرأة تدخل معركتها الكبرى فى سبيل حل مشاكل (١) تصحيح الأوضاع القانونية (٢) الاختلاط (٣) المساواة (٤) الحقوق النيابية السياسية .

مراجع

عبد الحميد حمدى — السياسية الأسبوعية ٤/١٢/١٩٢٦ .

الهلال — يونية ١٩١٠ — المرأة فى القرن العشرين .

الأهرام — نهضة المرأة فى الشرق ٢٥/٧/١٩٢٦ .

باحثة البادية — النسائيات (الجريدة) ١٩١٠ .

جريدة الظاهر : ٨ اكتوبر ١٩٠٦ .

/ ك / تطور النهضة النسائية فى مصر : درية شفيق وإبراهيم عبده .

/ ك / المرأة المسلمة . محمد فريد وجدى ١٩١٠ .

خطاب هدى شعراوى — الأهرام ٢٤/٤/١٩٣٨ .

أراء قاسم أمين — الهلال ١٩٤٥ مجلد ٣٦ .

كلمات لهدى شعراوى . مجلد الشئون الاجتماعية (أغسطس ١٩٤٢ .

الأهرام ٢٣/٣/١٩٢٣ -- ذكرى قاسم .

(٢)

الفكر العربى إزاء الغزو الثقافى

(بعد الحرب العالمية الأولى)



(١)

الاستعمار وأثره الفكرى

كان من الطبيعى بعد أن نهضت أوربا وحققت انتصارات ضخمة فى مجال الصناعة والتجارة والكهرباء أن تتجه إلى الشرق والعالم العربى بالذات ، وقد كانت حملة نابليون ١٧٩٨ على مصر ارهاص هذا الاتجاه الذى ظل يوالى انقضاضه خلال القرن التاسع عشر كله حتى اكتمل له استعمار العالم العربى كله عام ١٩١٨ وقد بدأ الاستعمار باحتلال فرنسا للجزائر ١٨٣٠ وبريطانيا لعدن ١٨٣٨ ثم احتلال فرنسا لتونس ١٨٨١ وبريطانيا لمصر ١٨٨٢ واحتلال إيطاليا لليبيا ١٩١١ .

وكانت الدول الأوروبية منذ حملة نابليون حتى الحرب العالمية الأولى قد رتبت خططها لهذا الغزو : عسكريا واقتصاديا وثقافيا على نحو يحقق لها البقاء الطويل فى المنطقة والقضاء نهائيا على شخصيتها ومقدراتها وقيمها وثقافتها ودينها وتاريخها . وقد ظهرت ملامح هذه الخطط فى الفترة التى سبقت الحرب العالمية والتى تمثلت فى :

(١) أساليب الاحتلال فى مصر وعدن والجزائر وتونس .

(٢) النفوذ الاجنبى والامتيازات وعمليات الغزو الاقتصادى والثقافى الموجهة إلى السلطة العثمانية .

(٣) امتداد النفوذ الاجنبى والامتيازات والغزو الاقتصادى والثقافى إلى مختلف البلاد العربية وجميعها واقعة تحت سلطان الدوله العثمانية وقد اعان على تمكن الغرب من فرض سلطانه ضعف الدولة العثمانية التى كان يطلق عليها اسم « الرجل المريض » واستبداد الحكام والولاة والأمراء المسيطرين على مختلف

الأقطار العربية وضعف القوى الشعبيه وانهزامها نتيجة لتسلط الأمراء وحروبهم وفساد نظام الحكم .

غير أن عوامل اليقظه كانت قد دبت منذ أواخر القرن الثامن عشر بدعوة «محمد بن عبد الوهاب» وكانت لحركة «محمد على» أثرها فى اليقظة غير أن العوامل كلها كانت تدل على أن الغرب إنما يعد خطة واسعة المدى للسيطرة على المنطقة واحتلالها .وقد كانت الحرب العالمية الأولى فرصة للقضاء على دولة الخلافة وتمزيق جبهة الدول العربيه وتجزئتها .

وقد كانت فكرة «القوميةالعربية» قد بلغت مداهاقبيل الحرب العالمية الأولى وفرضت وجودها وانتزعت كيانها من سلطان تركيا العثمانية التى انضمت إلى المانيا ووجدت من بريطانيا ما شجعها على دخول الحرب العالمية فى صفها وصف حلفائها بناء على وعد بقيام الدولة العربية بعد الحرب . وكان أن خدعت بريطانيا العرب ونفذت مشروع تقسيم المنطقة بينها وبين حليفتها فرنسا واعلنت قيام الوطن القومى اليهودى فى فلسطين .

وبذلك تمزقت هذه المنطقة الواحدة إلى دول لها حدود وجيوش وملوك ونظم ونقود وثقافات ومناهج تعليمية .

وسيطرت فرنسا على لبنان وسوريا وتونس والجزائر ومراكش :

وسيطرت انجلترا على العراق والاردن والخليج العربى والسودان ومصر .

وسيطرت ايطاليا على ليبيا .

وقام فى فلسطين نظام استعمارى مزدوج : بريطانى يهودى .

وبذلك انفصلت الدول العربية لأول مرة بعد اربعة قرون وعام واحد (١٥٠٧ — ١٩١٨) عن تركيا ولكنها لم تنفصل عنها فى الحقيقة إلا سياسيا أما فكريا فقد

ظلت مرتبطة بها متطلعة إليها . وقد استغل الاستعمار هذه الرابطة استغلالا بعيد المدى بعد تغريب « تركيا الكمالية » .

ومنذ اليوم الأول لهذا التقسيم الذى فرضه الاحتلال العسكرى بدأت حملة الغزو الثقافى التى قصد بها الاستعمار إلى تركيز سلطانه على نحو عقلى وعاطفى يتصل بالنفس العربيه ويحول مفاهيمها ومعالمها وتيارات فكرها على النحو الذى يحقق له البقاء وقد ركز الاستعمار فى غزوه الثقافى على :

(١) خلق جواً من عدم الثقة بشخصية المواطن وتشكيكه فى جميع عقائده وقيمه وتراثه وتاريخه على النحو الذى يجعله يعتقد بان وطنه دائماً كان نهبا مقسما لكل الأقوياء وتحويل هذه الافكار إلى عقائد بتعليمها فى المدارس ونشرها فى الصحف والكتب .

(٢) إقامة فواصل طبيعية بين كل قطر وإقامة معالم قوميه خاصه به تنبع من تاريخه البعيد وتسبق الروابط الاسلاميه العربيه التى بدأت فيما بعد ظهور الإسلام وخلق جامعات متعددة ودعوات متباينه لخلق البلبلة الفكرية إلى لا تمكن من قيام فكرة واحدة .

(٣) رسم صورة باهرة للغرب ، جبارة لاوربا، رهيبة للاستعمار، مخيفة للاحتلال وسطوته وجبروته ، وتلقين معنى الثقة بهذا الحلف القوى ، والايمان بحضارته والتيقن من أن الاندماج فيها هو وحده السبيل لتحقيق الحرية والاستقلال والوصول إلى النضوج والقدرة على حمل مسئولية الحكم .

(٤) سيطر الاستعمار على الحكام والأمراء والاعيان واسماهم « اصحاب المصالح الحقيقية » واعانهم على التوسع فى التملك ليتخذ منهم ركائز يسيطر بها على العامة وإخضاع الوزراء والحكام لنصائح مندوب الدولة المغتصبة . وفرض المستشارين على الوزارات وجعل أوامرهم نافذة .

(٥) سيطر على الحياة الاقتصادية بواسطة أعوانه من الأجانب ، وخفض أسعار المحاصيل الرئيسة للبلاد وبيعها بأبخس الأثمان والحيلولة دون تصنيع البلاد أو انتفاعها بالمخترعات الحديثة وبقائها بدائيه .

وتأسيس البنوك الاجنبية وشركات الرهون والحيلولة دون استخدام الوطنيين فى هذه الأعمال وقد بلغت أرباح هذه الشركات أكثر من ميزانيات الدول نفسها .

(٦) أدخلوا إلى البلاد المحتلة ألوفا من المستوطنين الذين استطاعوا بسلطان الاستعمار الاستيلاء على آلاف الافدنة الجيدة والقضاء على الصناعات الوطنيه والسيطرة على مالية الدولة ووضعها تحت وصايته ـ أى الاستعمار ـ بفضل سلطان الامتيازات الاجنبية ونفوذ المحاكم المختلطة .

(٧) القضاء على روح المقاومة بشراء الذمم بالمال والمنصب والمرأة وخلق روح « النفعية » وقتل روح «المثالية » . وخلق نزعة الانانية بدلا من نزعة الجماعية وتحويل الوطنية إلى سياسة . وإثارة الطوائف بعضها على البعض الآخر وخلق حياة نيابية وأحزاب تتصارع .

(٨) إلغاء الجيش الوطنى للأمة المحتلة وعرض جيش الاحتلال فى ميادينه وإيقاف الأمراء وأولياء النعم تحت أعلامه .

(٦) فتح أبواب السجون والمنافى لكل مجاهد أو مفكر صاحب رأى حر يحاول أن يرفع رأسه أو يقوم واصطناع أساليب القتل فى الظلام .

(١٠) تحويل الصحافة إلى موالاة الاحتلال . ومصادرة الصحف ذات الطابع الوطنى المعارض للاحتلال وذلك لتكوين رأى عام يؤمن بعظمة المستعمر ويجرى وراءه .

(١١) إلغاء مجانية التعليم وتدريس العلوم بلغة المحتل ، وقصر التعلم على

طبقة خاصة وإحلال المدرسين الأجانب محل الوطنين ووضع برامج تهدف إلى تحطيم معنويات الأمة وتصويرها بصورة الأمة المستعبدة وتدريس تاريخ الأمة المحتلة على نحو تعظيم أو إكبار واستبعاد التاريخ القومى وحجب كل معانى عظمة الأمة من لغة وتاريخ وبطولات وامجاد . واثارة جو من الشكوك والريب حول القيم الروحية والوطنية ومحاولة اقناع الأمة المحتلة بأن الاحتلال عمل مدنى وإن الأوربيين هم سادة البشر وأنهم المكلفون بنشر الحضارة وتمدين الأمم غير البيضاء .

(١٢) فى خلال الحرب العالمية الأولى والثانية جندت بريطانيا وفرنسا عشرات الألوف من أبناء الأمة العربية فى جيوشها . وقد قدمت مصر فى الحرب العالمية وحدها مليون عامل مصرى لم يعد منهم أحد فضلا عن الغلات والدواب والخيرات.

وكان لهذا الاتصال بين الغرب والشرق أثره البعيد المدى فى استيراد عديد من النظريات والمذاهب الفكرية الغربية .

مذاهب الفكر الغربي

اتصل النفوذ الأجنبي والاستعمار الغربي بالغزو الثقافي وكان من نتائجه استيراد عديد من النظريات والمذاهب والآراء : وقد تأثر الفكر العربي بالثقافة الغربية ومذاهب الفكر الغربي تأثرا بعيد المدى ، وقد كانت هذه المذاهب تهدف في الحقيقة إلى رسم فلسفة حياة للمجتمع التي تخلص من نزعته الدينية المسيحية بعد أن تحرر من سلطان الكنيسة وسلطان الكهنة وفصل بين الدين والدولة وتوالت شكوكه في الخالق والانبياء والاديان والكتب المقدسة .

كان هذا كله بين العوامل التي دفعته في الطريق التجريبي لمحاولة رسم فلسفة حياة له تمثلت في نظريات متعددة : كان اقدمها المذهب المادي ونظرية النشوء والارتقاء ومذهب نيتشه وروسو ثم النظرية الماركسية والتحليل النفسي والسريالية والنازية والفاشية والبراجماتزم وكان للاستعمار نظرياته التي كان أبرزها نظرية الاجناس (الآرية والسامية) ونظرية تفوق الرجل الأبيض وحقه في حماية الحضارة وتمدين الجنس البشري .

المذهب المادي والنشوء والارتقاء

أما « المذهب المادي » فقد غمر الفكري الأوربي وارتبط بالحضارة الحديثة ومكتشفات البخار والكهرباء في القرن الثامن عشر ومؤداه أن الوجود قديم وأن المادة هي مصدر كل كائن . وأنها تدرجت في حلقات متقابعة وفق نواميس ثابتة تبتدأ بالجماد وتنتهي بالإنسان في أرقى درجاته الفكرية ، وأنكرت نظرية المادة ماجاءت به الأديان من وجود عقل مدبر وروح مفكر خلف هذا

العالم، وقالت أن هذا القول وهم جهال . واتصل المذهب بنظرية «النشوء والارتقاء» التي جاء بها « تشارلس دارون — ١٨٤٢ » في كتابه « أصل الانواع » وخلاصته: القول بوحدة المخلوقات الحية جميعا ؛ أي أن الإنسان والحيوان والطير والاسماك والحشرات مشتقة من أصل واحد أو بضعة أصول واحتقر « دارون » الإنسان وهاجم القول بأنه سيد الخليقة وأن الروح هي ميراث الإنسان دون سواه من سائر الخلائق .

وقد نقلت هذه الآراء إلى الفكر العربي فأثارت مساجلات ودراسات ومعارك فكرية بعيدة المدى ، وكانت مجلة المقتطف والدكتور شبلي شميل أول من حمل لواء هذه الأفكار حيث نشر مقالات متعددة في المقتطف ١٨٨٤ و ١٨٨٥ ثم جمعه في كتاب فلسفة النشوء والارتقاء وقد حرص الدكتور شبلي شميل أن يبدأ معركة مع القارىء العربي بهذه العبارة « طالع هذا الكتاب بكل تمعن ولا تطالعه إلا بعد أن تطلق نفسك من أسر الأغراض لئلا تنم عليك وأنت واقف تطل على العالم من شرفة عقلك تتلمس الحقيقة من وراء ستارها » .

وقد رد على هذا المذهب كثيرون في مقدمهم : جمال الدين الافغاني في كتابه (الرد على الدهريين) ومحمد عبده ، وفريد وجدي في كتابه (على أطلال المذهب المادي) الذي نشره في المقتطف ١٩١٨ ثم حمل لواء الدعوة المذهب المادي: سلامة موسى وإسماعيل مظهر في الوقت الذي كانت أوربا قد انتقضت هذا المذهب . وشرحته واشارت إلى الأخطاء التي تتصل به فقد سقطت نظرية ناموس الانتخاب الطبيعي التي نادى بها دارون وتشكك العلماء في ناموس الوراثة وأشارت دائرة المعارف الفرنسية بأن العلماء قد اعترضوا على هذه النظرية واتهموها بأنها مختلة من أساسها لأنها تفرض أن جميع الصفات النافعة : اعني كل صفات الأنواع الحية قد حدثت في بداءتها اتفاقا (أي بالصدفة) .

وجاء العلماء من بعد ذلك يقولون بقصور العلم ، وبدأ فى أوربا — كرد فعل على النظرية المادية — مباحث الروحية العصرية،وقد تشدد علماء المادية فى رفض الروحية وأنبائها ورموا القائلين بها بكل مثلبة ، غير أنه العلم التجريبى سلم فى نهاية الأمر بأنه قد اكتشف العالم الروحانى بأسلوبه العلمى المحسوس » .

وقد دارت هذه المعركة فى أوربا خلال القرن التاسع عشر ، ولكننا نحن هنا فى العالم العربى كنا مازال نقذف بسيل من الابحاث حول المادية والنشوء والارتقاء كوسيلة من وسائل البلبلة الفكرية والغزو الثقافى والتشكيك فى ثقافتنا الروحية وعقائدنا الدينية .

المادية التاريخية

وظهرت نظرية المادية التاريخية التى دعا إليها ماركس (١٨١٨ — ١٨٨٣) وملخصها : أن الظواهر الاقتصادية يمكن ملاحظتها وتسجيلها بنفس الدقة التى تسجل بها العلوم الطبيعية ، وهى مقتبسة من نظرية الفيلسوف الالمانى « هجل » التى تتلخص فى « أن كل شىء كائن فى العالم فى حالة تغير دائم متواصل وأن التقدم والارتقاء نتيجة للاثر والتأثر بين قوى يدافع بعضها البعض . وقد لخص ماركس نظريته فى أن تاريخ المجتمع الحاضر كله ماهو إلا تاريخ نزاع بين الطبقات . فالعبيد والأحرار والدهماء ورجال الطبقة العليا والسيد والتابع والمعلم والصانع . وفى الجملة كل هؤلاء وقف الواحد منهم ضد الآخر فى حرب لا هوادة فيها .

وتفسر « المادية التاريخية » التاريخ تفسيرا ماديا وتملل الثورات والحروب والأحداث . وقد وجد ماركس « أن التاريخ يمثل صراعا عنيفا بين الطبقات الاقتصادية . وأن جميع أنواع الصراع فى التاريخ سواء فى ميدان السياسة أو فى ميادين الدين والفلسفة والاجتماع ماهى إلا تعبير صادق عن الصراع الطبيعى فى المجتمع » .

ويتصل بهذا نظرية « كارل ماركس » فى رأس المال وتوزيع الثروة وحق الطبقات العاملة وهى النظرية التى قامت على أساسها الثورة الشيوعية السوفيتية التى أطاحت عام ١٩١٧ بحكومة القياصرة .

* * *

وقد أثارت هذه النظريات جدلا كبيراً فى الفكر العربى ، ووقف العالم العربى الذى كان واقعا تحت سلطان الدول الغربية الرأسمالية إلى مقاومة النظرية الماركسية وجرت مقارنات بينها وبين ما يماثلها فى النظم الاسلامية مما أطلق عليه اسم الاشتراكية الاسلامية . ووجهت حملات عنيفة على الاشتراكية بصفة عامة تحت تأثير الاستعمار الذى كان يحرص على تدعيم أنظمة الأقطاع والرأسمالية والاستغلال الاقتصادى الذى تقوم به الرأسمالية الاستعمارية فى العالم العربى .

(نظرية ماركس)

« إن الضرورة الأولى والأساسية والشغل الشاغل لبنى الإنسان هو الطعام والشراب والملبس والمأوى التى لايستطيع بدونها أن يشغل باله بالسياسة والعلم والفن والدين وغير ذلك . وهذه الحقيقة تعنى أن إنتاج المواد الضرورية الحيوية لبنى الإنسان وما يتبعه من تطور مظاهر الاقتصاد القومى القائم فى عصر ما ، أو أمة ما؛ هو الأساس الذى بنيت عليه جميع أنظمة الدولة من قانونية وفنية وحتى المعتقدات الدينية نفسها ، وجملة القول أن التنازع على الطعام والمأوى هما العاملان اللذان يهيمنان على شئون الجنس البشرى جميعا ، ويرى ماركس أن « المسيحية تعلم الناس القناعة بنصيبهم فى الحياة الدنيا وتشيد بالاستسلام والخنوع والتواضع فكأنها تخدر أعصاب الشعب وتعمل فيه عمل الأفيون « روبرت . ب . داونز : كتب غيرت وجه العالم » .

وقد وجه للنظرية الماركسية الكثير من النقد . وقد نقضها الماركسيون أنفسهم أمثال (سدنى هوك) .

وقد تحولت نظرية ماركس إلى دولة بقيام الثورة الشيوعية فى روسيا ولكنها كانت بعيدة الأثر فى التفكير الاقتصادى فى العالم كله ، فإنها عدلت كثيرا من أنظمة الدول الرأسمالية ودفعت الدول المختلفة إلى تقبل نظم (الاشتراكية) وتأميم المرافق لصالح الشعب وبذلك قامت أنظمة وسطى بين الرأسمالية الديمقراطية وبين الشيوعية الماركسية .

النظرية الديمقراطية

واتجه التفكير الغربى إلى نقل نظريات الديمقراطية الغربية إلى الفكر العربى على أنها أصلح النظريات فى الحكم والفكر للعالم العربى وأجرى الاستدلال على قرابتها للفكر العربى واتصالها به أشد اتصالا من التفكير الاسلامى ونظريات الحكم الاسلامى .

وكان لهذا أثره فى نقل الأنظمة الديمقراطية إلى الحكم فى جميع البلاد التى استطاعت بعد جهاد مع الاستعمار أن تحصل على الاستقلال الذاتى ، عن طريق معاهدات أقرت وجود قوات الاحتلال وارتبطت مع الدول المحتلة بواسطة محالفات عسكرية وثقافية واقتصادية .

ثم قامت دساتير فى الاقطار العربية وتأسست أحزاب وفق النظام الديمقراطى وقامت برلمانات ومجالس نيابية وقد أثبتت هذه الأنظمة فشلها خلال الفترة التى طبقت فيها ، فقد كان النظام الحزبى الذى هو أساس النظام النيابى فى النظرية الديمقراطية وسيلة من وسائل الصراع فى كل قطر ، واداة من أدوات التفكيك والتجزئة والحيلولة دون قيام الوحدة الأقليمية مما جعل الأحزاب تتهم بعضها الآخر بالخيانة وموالاة المستعمر ، وكان المستعمر ينتصر لهذا الحزب تارة ولذلك

الحزب تارة أخرى بما يحقق بقائه وسلطانه وبما يحقق اسراع كل حزب لإرضائه بأكثر مما يستطيع الحزب الآخر لضمان البقاء فى الحكم وعلى حساب الوطن نفسه .

وفى الحق أن العالم العربى لم يكن فى حاجة إلى تقبل نظام بعينه أو رفض نظام بعينه ، وإنما كان فى حاجة إلى الحرية التى تمكنه من أن يبحث ويغربل ويقتبس الصالح من جميع النظريات والمذاهب بما يتفق مع كيانه ومقدراته ومقومات شخصية وتراثه وارتباطه بماضيه وموقعه وحاجاته دون أن يفرض عليه هذا الاقتباس التبعية لنظام معين أو مذهب معين ، تبعية تجعله يسير فى ركاب الديمقراطية الرأسمالية أو الشيوعية الماركسية ولم يكن ذلك ممكنا فى ظل الاحتلال القائم الذى كان يفرض مذاهبه وآرائه وأفكاره بالقوة المسلحة .

نظرية الشك : ديكارت

وتأثر الفكر العربى بنظرية « ديكارت » التى سجلها فى كتابه « مقال عن المنهج » وكان ديكارت وقد اهتدى إلى نظريته فى ١٠ نوفبر ١٦١٩ .

وهو فى جملة؛لا ينظر إلى الماضى ولا يأخذ النظريات المقررة المتداولة حقيقة مسلما بها، غير أن الشك الذى يفرضه منهجه لا يجعل من الذهن صحيفة بيضاء فهو يؤمن بعملية الغربلة والانتخاب بين الأفكار والمعانى التى تداولها الذهن البشرى ولا يمنع هذا عنده من الاحتفاظ بالقديم الصالح ، غير أنه يرى هدم ما لا يستحق البقاء من الآراء المتوارثة وقد نعى على فلسفة أرسطو الحيرة والعمق .

ورفض ديكارت كل سلطة تحاول أن تفرض على الفكر فرضا ورأى أن العقل هو أساس قبول أى نظرية أو رأى وهو لايسلم بشىء مالم يتبين له صحته بداهة ومن غير التباس .

ووجد خصومه من البروتستانت الذين اتهموه بالتشكك والالحاد والعمل على هدم الجامعات والكنيسة والدولة . كما وجد خصومة من الكاثوليك الذين اتهموه بالمروق فى الدين .

وقد رأى ديكارت أن يتحرر من قيود الدين المسيحى الذى رآه بصورته لا تمكن من البحث العلمى الحر . فدعا إلى تغليب العقل على الموروثات وقال أنه قصد بمذهبه مجال العلم وحده وأنه استبقى اعتقاده فى الحقائق الدينية . وقد تأثرت بمذهبه ميادين السياسة والدين (توفى ١٦٥٠) .

وقد حاول كثير من المفكرين اصطناع مذهب ديكارت فى البحث العلمى فى مجال الفكر العربى ونادوا به كشىء جديد فى حين أن الفكر العربى القديم عرف نظرية ديكارت وحمل لوءها الغزالى وابن حزم وابن رشد ولهم عبارات واضحة الدلالة [عثمان أمين — الثقافة مايو ١٩٤١] فى مذهب الشك الذى يؤدى إلى اليقين ولكن هذه النظرية حين حملت الى الفكر العربى حرفت فى أساسها بغية الوصول بها إلى الهدف التغريبى الذى يرمى إلى التشكيك فى تراثنا وتحطيم مقوماته .

الفاشية والنازية

وقد قامت بعد الحرب العالمية الأولى دعوتان أخريان على أثر قيام « الثورة الماركسية فى روسيا ١٩١٧ هما الفاشية فى إيطاليا والنازية فى ألمانيا كرد فعل لها، وقد ظهرت الفاشية أولا كحركة مقاومة للشيوعية وجعل الفاشيست شعارهم القوة والاتحاد وقد زحف الفاشيست على روما فى أكتوبر ١٩٢٢ وتسلم الحزب مقاليد الحكم وبدأت هذه المبادىء تتسرب إلى مختلف بلدان العالم، وكان أبرز معالمها إدخال الحماسة فى كل فروع الحياة وتمجيد حب الوطن وحب الأسرة وقد استهدفت الفاشية أحياء المجد الرومانى باعتبار أن روما مهبط العلم والعرفان . والاتجاه

إلى جعل الكنيسة الكاثوليكية هى كنيسة العالم كله . كما أدخلت التعاليم الدينية على المنهج الدرامى .

وفى المانيا ظهرت الفكرة النازية عقب خروج المانيا من الحرب مهزومة ، تحمل لواء الدعوة إلى انقاذ الوطن الجرمانى وبعثه من جديد ومقاومة البلشفية وأطلقت على نفسها « الوطنية الاشتراكية » وقد اتخذت النازية من نظريات الجنس والدم والسلالة قاعدة لها ، وغلا الهتلريون فى نظرية الدم الالمانى ونقاءه وتفوق السلالة . ونادى هتلر بتفوق الجرمان على جميع أجناس البشر ووصموا الاجناس السامية بعدم الاهلية لانشاء الحضارة[1] .

وقد جرت مراجعات لنظريات النازية وتردد أن ما أورد هتلر فى كتابه (كفاحى) إنما نقله من اراء جوبنيو ورينان ، وكان هتلر يهدف بمهاجمة السامية إلى مهاجمة اليهود .

وقد قسم هتلر فى كتابه « كفاحى » الجنس البشرى إلى ثلاثة أقسام : الأول يضم الامم التى خلقت الحضارة وهى الشمالية أو الآرية وخاصة الشعب الالمانى . والثانى يضم الأمم الناقلة للحضارة مثل اليابانيين . والثالث يضم الأمم الهدامة للحضارة مثل اليهود والزنوج . ويرى هتلر أن من حق العنصر المتفوق أن يغزو ويستغل ويطرد أو يبيد جميع الاجناس الأخرى تحقيقا لمصلحته. ولما كان الألمان هم أقوى أجناس الدنيا فلهم الحق كل الحق فى التحكم فى الأجناس الأقل رقياً من سكان الأرض .

وبذلك كانت « نظرية الجنس » كما طبقتها « النازية » نظرية استعمارية وقد استولى الحزب النازى على السلطة فى المانيا سنة ١٩٣٣ .

---

(١) وهذه المعركة ضد « السامية » عامة جزء من معركة أخرى ضد اليهود وقد أطلق اسم « ضد السامية » على الحملة التى قامت فى أوربا ضد اليهود .

ولعل من أهم أسباب سقوط الفاشية والنازية أنهما مذهبان يقومان على التفرقة العنصرية وسيادة جنس من الاجناس وتفوقه على سائر أجناس البشر .

وقد تأثر العالم العربي بالفاشية والنازية فجرت محاولات مشابهة للقمصان السوداء فى ايطاليا والبنية فى المانيا فظهرت القمصان الخضراء والزرقاء فى مصر كمحاولة تقليديه .

وحاولت حركات القمصان الملونة أن تجعل من هذا الاتجاه تنظيما عسكريا للشباب أو توحيدا للزى غير أن هذه الحركات لم تلبث أن تحولت إلى أدوات حزبية ولم يتحقق من ورائها قيام جيل جديد من الشباب . وقاوم الاستعمار هذه الحركة وربطها بالدكتاتورية .

فرويد والجنس

وكان لنظرية فرويد من التحليل النفسى أبعد الاثر فى الفكر العربى المعاصر فقد حملها الفكر الغربى إلينا وحاول تاكيدها مع أنها لم تكن أكثر من نظرية تعرضت للمعارضة والنقض والتحول من يونج وادلر وهم زملاء فرويد .

لقد رأى فرويد أن الغرائز الجنسية بلغت أهم الادوار فى تكوين شخصية الفرد وقال إن الطفل يتجه اتجاها جنسيا إلى والديه . كما أنكر فرويد الحب والقلب ووصف النفس البشرية بأنها مجموعة من الرذائل تتحكم فى قواها .

وجاء أدلر نخالف فرويد فى أساس النظرية فقال أن الغريزة الجنسية ليست أساس الدافع البشرى ولكن الدافع هو حب السيطرة والتملك .

ولما كان فرويد يهوديا فقد انتشرت نظريته انتشاراً كبيرا فى كل الاقطار التى حمل لواء الثقافة فيها المفكرون اليهود ، وكان لها أثرها فى الأدب الأوربى المعاصر حيث ظهرت نزعة التحليل النفسى فى القصة ودراسات الاعلام وتراجم العظماء والقادة .

ولقد تأثر الفكر العربى بنظرية فرويد والتحليل النفسى وخاصة فيما يتعلق بالغريزة الجنسية حيث ظهرت معركة الجنس والأدب المكشوف .

وكان فرويد (١٨٥٦ — ١٩٣٩) قد نادى بنظريته قبل نهاية القرن التاسع عشر واتسع نطاق الدعوة لها فى أوائل القرن العشرين وواجهت الكثير من النقد والتعديل كما ذكرنا . وألف الدكتور «هافلوك اليس» فى بريطانيا كتابه عن الحب والعلاقة الجنسية بين الرجل والمرأة (١٩٠١) وقدم لمحكمة الجنايات التى اتهمته بأنه كتب أشياء « وقحة » لا يصح نشرها بين الجمهور ثم جرت أبحاث حول الصراحة فى المسائل الجنسية .

ويرجع المؤرخون هذا الاتجاه إلى الأدب الماجن والاباحى فى الأدب الأوربى إلى أن عصر النهضة فى أوربا قام على أساس التحلل من قواعد الدين والاتصال بالتراث الأغريقى الذى كان فى أغلبه من الأدب المكشوف مما دعا إلى ظهور أوسكار وايلد ولورنس بعد هافلوك اليس وفرويد . وقد جرت فى الأدب العربى المعاصر مساجلات حول الأدب المكشوف والأدب المستور .

السريالية

وتأثر الفكر العربى المعاصر بمذهب السريالية فى الفن ويهدف إلى التحرر من ضغط كابوس المقاييس الفنية ويرمى إلى أن يتم تسجيل ما يرد على مخيلة الفنان من صور ابداعيه كما هى بصرف النظر عن جمال هذه الصور أو قيمها أو مطابقتها للمقاييس الاجتماعية .

وقد اتسع نطاق هذه المذاهب المنطلقة ، بعد الحرب العالمية الأولى وخروج ملايين الجنود من الخنادق بعد قضاء فترة أربع سنوات كاملة فى خطوط النيران وهو اتجاه طبيعى يقع فى المجتمعات المختلفة بعد الحروب وكان المفهوم أن هذه النظريات جميعها ، وهى لم تثبت فى ميدان الفكر الأوربى ولم تاخذ صورة الحقائق أو العقائد إنه لاضرورة إلى نقلها إلى الفكر العربى ولكن الاستعمار أراد من نقلها

وإذاعتها دعم معركة الغزو الثقافي الذي يهدف إلى بلبلة الفكر العربي وتشكيكه في قواعده وأصوله ومحاولة تحطيم مقومات هذا الفكر القائمة على دعائم من الروحية والقيم الانسانية العليا .

البراجماتزم

وتأثر «الفكر العربي» بمذهب «البراجماتزم» الذي دعا إليه وليم جمس وحملت لواءه الثقافه الامريكية وهو مذهب الذرائع أو الوسيله ، والذي يرى أن الحقائق إنما هي وسائل لفهم الدنيا وهو مايطلق عليه بمذهب «الغاية تبرر الواسطة» .

وقد امتزجت هذه التيارات الفلسفية في شبه تيار فكري مؤثر أخذ جانب الغلبة على القيم والمثل العليا الإنسانية والروحية التي اتسم بها الفكر العربي في تاريخه الطويل وحاول التيار الجديد الطغيان عليها ، لولا أن تعمق التيار العربي الأصيل وازدادقوة نتيجة لنظرية «التحدى والمواجهة» التي عرفها الفكر العربي في هذه المرحله . ولم يكن هذا التيار العربي جامداً ولا متزمتا ولكنه كان متطوراً مرنا عمل على الاستفادة من التيارات الفكرية الغربية على النحو الذي يزيده قوة ، مع محاولة الحيلولة دون سيطرتها أو تمكينها من تشويه الملامح العامة للشخصية العربية والمعالم الاساسية للفكر العربي .

وقد ساعد على هذه المقاومة اضطراب الفكر الغربي نفسه ، وتميعه وتأثره بالحروب والازمات العالمية مما دعا الكثيرين إلى الشك في هذه التيارات ومهاجمتها وارتفاع الصيحة بالاتجاه إلى ثقافة الشرق الروحية ومحاولة تطعيم الفكر الغربي بها ــ فالفكر الأوروبي الذي اتجه في أول النهضة لمقاومة الدين نتيجة لخروج أوربا من أسر الدين المسيحي واتجاهها إلى الثقافات اليونانية واللاتينيه القائمة على الأسطورة والجنس ، وظهور الاصلاح الديني الذي أقام البروتستانتية بجوار الكاثوليكية ، لم يلبث أن مر بما أسموه «أزمة الضمير» وهو

بمهاجمة كل قديم من دين ونظم وسياسة ومن أصول الاخلاق والاجتماع (أواخر القرن السابع عشر وأوائل القرن الثامن عشر) وقد أحدث تقدم العلم والكشوف اضطرابا فى الحياة الدينية ، دفع المفكرين إلى تمحيص المسيحية فى ضوء القوانين العلمية والشك فى الكتب المقدسة. وظهور مذهب ديكارت . وتأثر المؤرخين به مما دعاهم إلى الشك فى مصادر «التوراه» وما أعلن (أوجست كنت) من أن الدين نظام اجتماعى قابل للتطور؛ كل هذا أصاب الفكر الأوربى بالاضطراب والقلق ، حتى إذا انتهت الموجة التى أثارتها نهاية الحرب العالمية الأولى من ارتفاع موجات الالحاد والاباحة علت الصيحة التى تقول بأن أوربا مصابة فى صميم كيانها وإن دعائمها الثقافية تتداعى وتنهار .

وأشفق ذوى الرأى من الحد الذى وصلت عليه زعزعة العقائد الدينية حيث أصبح المذهب الكاثوليكى فى نظر الغالبية الأوربية مجرد أوضاع تقليدية جوفاء وطقوس مادية قد تبدو براقة ولكنها لا تقنع العقل العلمى . هنالك قام جماعة من الفلاسفة والمفكرين أمثال الكونت هرمان دى كايسرلنج ورينيه جينون وجان كاف وموريس ماترلنك وبرتراند رسل يدعون بالرجعة إلى الشرق وجرت محاولات لتقليح الحضارة الأورنية بالبوذية والبرهمية ، والاتصال بالصوفية ومحاولة تغليب قيمة القناعة والتأمل والتطهر .

ونعى «برتراندرسل» على الحضارة ماديتها وقال إن الإنسان فى الحضارة الصناعية تتضاءل حياته إلى حد أنه يعتقد أنه مخلوق لكى يكون جزءا من آلة كبيرة لا غاية لها إلا الإنتاج .

وجرت أبحاث بأن اشتغال المرأة قد زاد إنحلال الأسرة ، فان المرأة التى تعمل تتمرد على تقاليد الأخلاق ويؤدى الكسب عندها إلى تفسخ الرابطة الاقتصادية بينها وبين الرجل غير أن هذه الدعوة لم تلق عند الأوربيين صدى .

وقد جرت محاولات لنقل ميدان هذه المعركة إلى الفكر العربى ولم يكن ذلك طبيعيا ولا مؤديا إلى نتائج غير بلبلة الفكر ، ذلك أن الاسلام يختلف عن المسيحية كثيرا فى حرية الفكر ومناهج البحث ، وقد أعطى المفكرين فى الأزمنة المختلفة الحرية التى أتاحت لهم انتاج أعمال فكرية بعيدة المدى ، وإذا كان الشرق الأقصى (الهند والصين) قد عرف بالمذاهب الروحية المطلقة وإذا كان الغرب (أوربا وأمريكا) قدعرف بالمذاهب المادية البحتة فقد كانت الأمة الاسلامية العربية (الشرق الأوسط) تؤمن بمزيج الروح والمادة فى الفكر والحضارة والحياة .

وجملة القول أن الفكر العربى وقد وقف من هذه المذاهب والآراء والدعوات موقف الحذر غير أن تجربة ذات خطر حدثت وطبقت فيها نظريات الفكر الغربى واتجهت نحو الغرب اتجاها كليا : تلك هى تجربة تركيا .

المراجع

ديكارت : عثمان أمين : الثقافة مجلد (١٩٤١)

أرنون وساسيون : المازنى : البلاغ : ٢١ يونية ١٩٢٦

الفاشية : الأهرام : نوفبر وديسمبر ١٩٢٣ ويوليو ونوفبر ١٩٣٦

دارون : الهلال : مجلد ١٣ ومجلد ١٨ .

محمد فريد وجدى : /ك/ على أطلال المذهب المادى : ١٩٢١

برتراندرسل : المقتطف يناير ١٩٣٠ .

إبرهيم المصرى : /ك/ الفكر والعالم .

يعقوب فام : /ك/ البراجماتزم : مذهب الذرائع = ١٩٣٦ .

تغريب تركيا

وأثره فى الفكر العربى

كان لتغريب تركيا بعد الحرب العالمية الأولى أثره البعيد المـــدى فى حركة التغريب والغزو الثقافى فى العالم العربى . ذلك أن تركيا كانت دولة الخلافة التى ارتبطت بها الأمة العربية أربعة قرون كاملة ، ولذلك فقد كانت تتطلع اليها بعد أن انفصلت عنها (بعد الحرب) لتتابع خطواتها على الطريق .

ولقد اهتز العالم العربى لمصطفى كمال حين قام بمحاولته الجريئة فى إجلاء اليونانيين وتحرير تركيا وإعادة هزيمتها فى الحرب نصراً .

غير أن تحول مصطفى كامل بعد ذلك إلى الغرب كان موضع الدهشة والغرابة، هذه الدهشة التى بلغت قمتها عندما ألغى مصطفى كامل «الخلافة الإسلامية» وفرض الكتابة من الشمال إلى اليمين وفرض القبعة والحضارة الغربية بقوة الحـــاكم الديكتاتور وليس بالتربية والإقناع .

وقد كان هذا بالنسبة للامة العربية امتحانا خطيراً عاشت فى بوتقته خلال هذه الفترة حتى الحرب العالمية الثانية .

* * *

كانت الثورة الكمالية رد فعل لحكم عبدالحميد واتجاه عكسى له على طول الخط × فقد اعتنق عبد الحميد مذهب الجامعة الإسلامية واعتنق مصطفى كمال مذهب القومية التركية .

× أقفل عبد الحميد أبواب تركيا فى وجه الحضارة وفتح مصطفى كمال الأبواب على مصاريعها لتركيا أمام الحضارة الغربية .

× قاوم عبدالحميد ما أسماه التغلغل الأوربى الفكرى وذهب مصطفى كمال إلى الغاية فى قبول أفكار أوربا إلى الحد الذى نزع به إلى اعتبار تركيا من الغرب وليست من الشرق ورفض كل الافكار الشرقية التى تتصل بالحكم واللغة والدين والمجتمع والتقاليد والأخلاق .

وإذا كان « الاتحاديون » قد دعوا إلى تتريك عناصر الامبراطورية العثمانية وعارضوا بمذهب [الجامعة الطورانية] مذهب [الجامعة الإسلامية] الذى دعا إليه عبدالحميد فإن مصطفى كمال رفض غير « ما تركيا » نفسها وأدار وجهه للعالم العربى .

واقد كان اتجاه تركيا إلى الغرب اتجاها طبيعيا كونته عوامل مختلفة أهمها ماقاسته تركيا العثمانية قبل الحرب العالمية وخلالها من تسلط الدول الأوربية عليها وتغلغلهم واتساع النفوذ الأجنبى فيها نتيجة لضعف مركز الخلافة . هذا بالإضافة إلى روح الاستبداد الذى عاشته تركيا خلال حكم عبدالحميد من إرهاب وجاسوسية وكبت للحريات وقصص أسطورية عن قتل المعارضين والالقاء بهم فى البسفور .

وكان للثورات المختلفة التى قامت فى أطراف المملكة والانتفاضات التى أحرز بها الغرب الاستيلاء على عدد من الأقطار، ثم ما كان من اشتراك تركيا العثمانية فى الحرب العالمية فى صف ألمانيا ثم هزيمتها واحتلال الحلفاء ومنهم اليونان لها ؛ هنالك سيطرت فكرة تحرير تركيا من تاريخها وماضيها كله ؛ وكان لانتصار مصطفى كمال فى معركة « سقاريا » وقيام الجمهورية التركية على أنقاض السلطة العثمانية أثره الواضح فى إحداث هذا الانقلاب التغريبى .

وكان لسلطان الحاكم الذى أطلق عليه « الحكم الأبوى » قوته وسيطرته على تحويل النواميس الاجتماعية بقوة القانون وفرض الأنظمة الجديدة لسلطان الحاكم وحده ، دون تقدير للعوامل النفسية للشعوب وحملات التعبئة للمشاعر إزاء عمليات التطوير وشحذ الأذهان لتقبل الأفكار الجديدة ، كان لهذا كله أثره البعيد المدى فيما بعد وصف بأن تركيا ماتزال إلى الحرب العالمية الثانية تعانى « آلام المخاض » .

ولست أدرى إلى أى مدى يمكن قبول ماأذيع وردده الصحف من أن شروط الصلح التى عقدت بين تركيا والحلفاء فى لوزان عام ١٩٢٣ والمعروفة بشروط كرزون الأربع قد تضمنت (١) قطع كل صلة بالإسلام (٢) الغاء الخلافة (٣) إخراج أنصار الخلافة والإسلام من البلاد (٤) اتخاذ دستور مدنى بدلا من دستور تركيا القديم .

وقد اتجهت تركيا إلى الغرب اتجاها عاصفا عنيفا شاملا ، وقبلت نظرية الغرب قبولا كاملا . لم تتردد فى النظر اليها أو الاقتباس منها كما فعلت الأمة العربية ، بل قطعت كل صلتها بالماضى القديم واتجهت نحو الغرب اتجاها كاملا فى ميادين اللغة والزى والدين والمرأة وحققت :

— إلغاء الخلافة وإلغاء الأوقاف وحذف مادة دين الدولة الرسمى الاسلام .

— إلغاء الزى الشرقى وفرض الزى الأوربى والقبعة .

— إلغاء الحروف العربية .

— تحرير المرأة ودفعها إلى المجتمع والحرية .

(١) اللغة : قرر مؤتمر باكو (٢٧ مارس ١٩٢٦) استعمال الحروف اللاتينية فى كتابة اللغات التركية والتتارية وجاء فى قراره « لقد دفن المؤتمر الحروف

العربية نهائياً «ولم يقم مندوب واحد للدفاع عنها» واستعمال الحروف اللاتينية بعد أن رأى هذه الحروف أوفى بالعمل من الحروف العربية من الوجهتين الأدبية والاجتماعية . وقد حمل مصطفى كمال بنفسه لواء العمل فوقف أمام السبورة وعلم الشعب الكتابة بالحروف اللاتينية . وكلف حوذيا أميا يدعى بكير أغا ولا يعرف القراءة والكتابة بأن يقف عند السبورة وعلمه عليها الحروف اللاتينية وقال مصطفى كمال للأهالي : إمحوا من أذهانكم الحروف القديمة محواً تاماً . وقال إن الكتابة الجديدة ستمكن الكفايات العالية والعبقريات الباهرة من التقدم وصدر الأمر بتعليم اللغة الجديدة فى المدارس التركية كلها . وأرغمت الصحف والمجلات على أن تطبع بالحروف اللاتينية وصدرت الأوامر ألا تطبع أو تنشر شيئاً بالحروف العربية ورفعت اللافتات العربية وأمرت مكاتب البريد ألا تقبل أو تخرج رسالة معنونة بالحروف العربية . واستقدمت ما كينات لينوتيب مجهزة بالحروف اللاتينية .

ثم تقرر قطع كل صلة باللغات العربية والفارسية وتنقية اللغة التركية من جميع الألفاظ العربية والفارسية والاستعاضة عنها بكلمات تركية أو أوربية

فصل الدين عن الدولة

وأعلن مصطفى كامل بأن الدين يجب ألا يتعدى المعابد وأن حرية الفكر هى أساس لحرية الدولة ، ولكل أنواع الحرية وقال : أن المادة التى تنص على أن الإسلام هو دين الدولة الرسمى لم تعد صالحة لهذا العصر وإنه يجب حذفها من الدستور فى أول فرصة .

ثم ندد تنديداً شديداً بالذين استخدموا الدين سلاحا لهم ووسيلة لتحقيق أغراضهم الدنيوية . وقال فى الدفاع عن اتجاهه هذا بأنه لا يتوق من فصل الدين عن الدولة إلا المحافظة على كرامة الدين وانتزاعه من أيدى محتكريه وإعادته إلى ضمير الأمة مخافة أن يصير مع الزمن كما كان فى عهد الخلافة آلة بيد المستبدين الظالمين .

وفى خلال السنوات التى سبقت معركة سقاريا (١٢ اغسطس ١٩٢١) وهزيمة اليونان (٦ أغسطس ١٩٢٢) بدأت معركة التغريبية التى استمرت خمسة عشر عاما فقد خُلع السلطان (نوفمبر ١٩٢٢) وأعلنت الجمهورية (اكتوبر ١٩٢٣) ثم الغيت الخلافة ووزارة الأوقاف والقوانين الشرعية والمحاكم الدينية ، واغلقت المدارس الدينية (مارس ١٩٢٤) ثم الغى الطربوش واستبدل بالقبعة (يوليو ١٩٢٥) ولم يمر على ذلك عامين حتى الغى الدستور وحذفت مادة « الاسلام دين الدولة » وأبدلت الحروف العربية بالحروف اللاتينية (١٩٢٨) وفى العام التالى ألغى تعليم الدين فى المدارس (١٩٢٩) وفى عام ١٩٣٣ ألغى قسم الدين من الجامعة وفى العام التالى (١٩٣٤) منع اللباس الشرقى نهائيا وفى عام ١٩٣٧ نص الدستور على أن تركيا دولة علمانية . وبذلك تم اتجاه تركيا نحو الغرب .

وقد كشف الغرب عن صلته بالتحول القهرى الذى تم فى تركيا حين أعلن لورد كرزون فى مجلس العموم البريطانى (مارس ١٩٢٣) تصريحه : لقد قلت للترك بأن توجيههم وجوههم إلى جهة ايران والافغان مضر بهم وأنه ينبغى لهم أن يوجهوا وجوههم نحو الغرب ويقيموا أنظمتهم على أساس الحضارة الأوربية ؛ غير أن صحف تركيا لم تؤيد حركة التغريب وقالت جريدة « توحيد أفكار » أن على الغربيين أن يقيموا الدليل على أن انظمة الحضارة الأوربية خير من أنظمة الحضارة الشرقية .

وقد كان لحركة التغريب فى تركيا أثرين واضحين :
١ — فى تركيا نفسها والعالم الغربى .
٢ — فى العالم العربى .

وقد كان للحركة أنصارها وخصومها ؛ أما انصارها فقد قالوا أنها اكسب للشرق كله وأن نجاح دولة اسلامية فى ميدان التقدم والنهضة والحرية لا شك له أثره الكبير فى مواجهة الغرب .

وأن الحركة قضت على جميع الخرافات المذهبية التى كانت متسلطة على عقول السذج ، ومحت الأمية من البلاد وبثت روح العسكرية والنظام فى الشعب التركى وحررت المرأة التركية وعلمتها واجبها فى الحياة .

وقال أنصار الحركة : أن التفكير الذى تتجه إليه تركيا هو ثمرة من ثمار المدرسة الفرنسية التى تقود الروح التركيه ؛ وإن الروح الفرنسية هى التى ستظل على على الحياة التركية الفكرية اتجاهاتها وإن الثورة التركية وليدة الثورة الفرنسية : وأرجع الكثيرون أثر الحركة إلى حركة الماسونية الفرنسية التى انتشرت فى سالونيك وأنقرة والتى كان من أثرها الاتجاه بالروح التركية إلى ما أطلق عليه «الراديكالية الفرنسية» وقد أكد هذا المعنى قول مصطفى كمال (١٩٢٤/٢/٣) أن وجهتنا هى السير من الشرق إلى الغرب . أعلموا إننا لاننا اضطررنا إلى إختيار موطن لنا فى الشرق قد وقع اختيارنا على موطن غربى بقدر الإمكان لمـــا للغرب من علاقة بمنشأنا الأول فإذا كانت أجسامنا فى الشرق فانظارنا ما برحت متوجهة إلى الغرب » .

وقال خصوم الحركة : إن العمل الذى تم فى تركيا إنما فرض عسكريا ولم يقم على أساس الاقناع . وإن الحركة جاءت من رجال الجيش وليس من جانب الأمة « وإن الذهنية التى غلبت على جماعة أنقرة فى أن يقنعوا أوربا بأنهم صاروا مثلها لن تتحقق إلا يوم يستطيعون أن يصنعوا بندقيتهم ومدفعهم وإبرتهم ، أما البرنيطة والرقصة فيأتيان بعد المدرسة » .

وقال الدكتور هيكل (كتاب ولدى ص ٢١٦) أن هذه النهضة تبدو كأنها ليست أثراً محتوما لتطور طبيعى وأنها مصنوعة على يد مصطفى كامل وأصحابه الذين فرضوها على تركيا عن طريق التشريع ، وألزموها الأخذ بها بقوة القانون ،

وعا وراء القانون من الجندى وسيفه ومدفعه ، وهاجم الكتاب العرب موقف تركيا من الألفاظ العربية واتجاههم إلى حذفها من لغتهم ،وقالوا أنهم بعد أن حذفوا هذه الألفاظ التى استعانوا بها طوال مدة الدولة العثمانية قد أحدثوا إزاء ذلك عقبات لا يمكن اقتحامها ، ولذلك لم تستطيع اللغة التركية أن تبلغ مرتبة اللغة العلمية وقالوا : أنه بينما كان علماء العرب فى الأندلس والعراق ومصر والشام يسهرون الليالى على ضوء السراج الضئيل لخدمة الفلسفة ووضع اصطلاحات لها كان أجداد الترك لا عمل لهم غير ركوب الخيل وطلب الرزق من وراء الدخول فى مختلف الجيوش » .

نظرة العرب إلى تركيا

وقد نظر العالم العربى إلى حركة التجديد فى تركيا وهى تتجه بسرعة إلى التغريب بعيون مفتوحة فيها دهشة وتطلع ، وفى عقولهم أسئلة : ترى هل يسيرون وراء هذه الحركة وينقلونها ، وجدت قضايا بحثت فى الصحف والكتب : حول الخلافة وهل هى من الاسلام أم ليست منه . والحجاب والسفور وما مدى حرية المرأة وهل يمكن أن تنطلق المرأة من حياة البيت المحجبة مرة واحدة إلى حياة المراقص كما يحدث فى تركيا حينما أصبحت الصحف تقول أن مهنة أستاذ الرقص من أعظم المهن قيمة وأكبرها ربحا .

وبدأت معارك حول الطربوش والقبعة . ومدى أثر الزى فى نهضة الأمة وشخصيتها وتقاليدها ، وكان للمجددين من الكتاب والباحثين دورهم فى رسم صور الاعجاب بالحركة التركية . التى لم تلبث أن تبعتها حركات فى إيران وافغانستان ومصر نحو الحرية الاجتماعية .

وفى مصر جرت محاولات لخلع العمامة فى الأزهر ودار العلوم ، واصطناع الطربوش ، وجرت محاولات فى محيط المتمدينين نحو تغيير الطربوش بالقبعة .

وجرت حملات ترمى إلى مهاجمة اللغة العربية على أثر تغيير الحروف التركية واستبدالها بالحروف اللاتينية .

× أما أثر الحركة فى تركيا فقد انتهى بعد ربع قرن إلى تأكيد معنى الروحيه الأصيلة . فقد عاد الآذان للصلاة باللغة العربية . وتحول الاتجاه إلى الناحية المضادة ، فقد أدخل تعليم الدين بعد الحرب العالمية الثانية وفرض تعليم الدين إجبارياً عام ١٩٥٣ وتأسس قسم لتدريس الدين فى جامعة أنقره . وبلغ الاتجاه الفكرى فى تركيا قمته بالعودة إلى الدين لاصلاح المجتمع وقال (جون بيرج) فى كتاب الإسلام فى نظر الغرب : إن أصول الاسلام فى تركيا من حيث هو دين مازالت راسخة فى الأعماق وقد تصور التركى أنه يعيش فى دولة غير دينية وقد يذهب إلى أبعد من ذلك أنه لايزال عنده إحساس قوى متصل بالاسلام وبأنه هو الذى يقرر أعماله » .

وعادت تركيا فطالبت بأنه من الضرورى على التركى أن يعرف الحروف العربية وذلك ليتعمق فى تاريخ الترك وآداب الترك . ويقرأ مؤلفات « نعيم » والبجوى وجودت باشا وهم كبار مؤرخو الاتراك ، فإذا لم يعرف الحروف العربية فأنه لن يستطيع أن يقرأ المخطوطات ولا النقوش على الاحجار ولا كتابا واحداً من خمسة وأربعين ألف كتاب مطبوع . كذلك لم يجد الاتراك بداً من تعلم اللغة العربية حتى يمكنهم دراسة تاريخ بلادهم .

مراجع

(٥) الاسلام فى نظر الغرب : جون بيرج

نهضة الاتراك : هل تدوم : الهلال ص ٤٦ مجلد ٣٥

إلغاء الخلافة العثمانية

إذا كان حدث الحركة التركية التجديدية بمختلف تطوراته بعيد المدى في الفكر العربي المعاصر ، فقد كان الغاء الخلافة «الإسلامية» العثمانية من أبعد هذه التطورات أثراً . وقد أثار وقع هذا الحادث البعيد المدى في العالم العربي والعالم الإسلامي عديداً من المساجلات والمعارك الفكرية — وقد تم الغاء الخلافة على مرحلتين :

الأولى : فصل الخلافة عن السلطنة (نوفمبر ١٩٢٢) .

الثاني : إلغاء الخلافة (٣ مارس ١٩٢٤) .

وذلك أن مصطفى كمال بدأ بفصل الخلافة عن السلطة وعزل السلطان وحيد الدين « محمد السادس » واتخذ خليفة بغير سلطة زمنية كخطوة أولى في سبيل إلغاء الخلافة نهائياً بعد ذلك بأقل من أربعة شهور .

وكان من رأى مصطفى كامل أن السلطنة شيء والخلافة شيء وأن السلطنة العثمانية قد اغتصبت السلطة من الشعب ومن حق الشعب أن يستردها ويفصل بين السلطة والخلافة ثم الغى السلطنة وأقام الجمهورية التركية .

وقال بعد أن عين عبد المجيد خليفة بغير سلطنة زمنية : أن منصب الخلافة لا يزيد الآن عن أن يكون أثراً تاريخياً ليس له حق شرعي يسوغ له البقاء ، وهكذا مهد لإلغاء الخلافة .

وقال السلطان محمد السادس أن الفصل بين السلطة المدنية والسلطة الدينية لا يطابق ماهو معروف في التشريع الاسلامي وأنه لا يمكن أن يكون الخليفة رئيساً دينياً فقط .

ومشروع فصل الخلافة عن السلطنة مشروع قديم كان قد أعده « مدحت » أبو الدستور مع الدستور ذاته ولأجله نفى السلطان عبد الحميد مدحت وقضى عليه أخيراً ؛ ذلك أن مدحت كان يرى فصل الخلافة عن الحكم على أساس

أن السلطة للامة وقد كان اعتراض العلماء على فصل الخلافة على السلطة مبنيا على أنه إذا جرد الخليفة من هذه السلطنة فقد جرد من كل شىء وأصبح عضوا أشل لا معنى لوجوده » .

وفى ٢٣ مارس ١٩٢٤ قدم مصطفى كمال اقتراحا للمجلس بالغاء الخلافة بعد أن قدم اتهامات مؤداها تعاون الخلافة مع النفوذ الاجنبى .

وقد أشار الـكماليون فى تقريرهم عن الخلافة أن وجودها لم ينقذ تركيا من أن تـكون ذات رأسين فى سياستها الداخلية والخارجية وأن آل عثمان كانوا سبب مصائب تركيا .

ومن الطبيعى أن يتخلص مصطفى كمال من الخلافة لعدة أسباب منها : أنه لم يكن يرغب فى أن تـكون هناك قوة أكبر منه أو لها صفة من الصفات التى تجمل فى تركيا أكثر من نفوذ،فضلا عن إيمان أتاتورك الاكيد بالطريق الذى سار فيه نحو الغرب : ثقافة وحضارة .

* * *

وقد واجهت تركيا خصومة عنيفة من العالم الإسلامى كله لهذا العمل الذى قضى على القيادة العليا للدول الإسلامية .

ورسمت (المقطم) لالغاء الخلافة (٤ مارس ١٩٢٤) هذه الصورة :

« اليوم تهتز أعصاب العالم كله لنبأ يطير من أنقرة إلى الشرق والغرب عن إلغاء الخلافة فى تركيا وانزال آل عثمان عن عروشهم التى سمت دهرا طويلا على عروش المماليك والامارات والامبراطوريات . حكموا ٨٣٢ سنة فلأو التاريخ بأعمالهم وبطولة رجالهم وحسناتهم بالرحمة وسيئاتهم بالبطش . منذ ١٥١٧ انقرضت خلافة العباسيين فى أرض مصر بعد انقراض خلافة الأمويين بها من قبل وانتقلت هذه الخلافة إلى آل عثمان فى الاستانة فتولوها ٤١٧ سنة من حكمهم الذى ابتدأ ١٠٩٢ وانتهى اليوم إلى ١٩٢٤ جلس على عرشهم ٧٢ سلطانا » .

ولم تلبث أن قامت فى « العالم العربى » حركة فـكرية بعيدة المدى : فى مصر

وفى الحجاز وفى الأردن وفى الهند . فى مصر أعلن علماء الأزهر أن خلع الخليفة غير شرعى «لانه صادر من طائفة قليلة » من المسلمين وقال وكيل الازهر (محمد حسنين) لقد أخطأ الترك إذ ظنوا أن الخلافة عقبة فى سبيل ماريدون من أنظمة الحكم . فإن سلطة الخلافة كما تتمثل فى فرد يقوم بأعبائها تتمثل فى ملك أو خليفة أو سلطان . ثم طالب المسلمين بالنظر فى إسناد الخلافة لمن هو أهلها وأحق بها « فإن الاجماع منعقد على وجوب نصب الخليفة وأولى الناس بالقيام بذلك هى الأمة المصرية فإن بها علماء الدين والأزهر الشريف » .

وقالت الاهرام (٨ مارس) أن الاتراك أرادوا الطفرة والتشبه بغيرهم . وجعلوا معيار عملهم الثورة الفرنسية يقلدونها ناسين أن التقليد الذى لا يتفق مع أخلاق الأمة ومداركها لا يفضى إلى غير الخراب والدمار .

وقالت أراء أخرى : أن العرب ماانفكوا ينظرون إلى الخلفاء الترك شذراً ويعدونهم المغتصبين للخلافة اغتصابا . وقد جهد عبد الحميد لاحياء عظمة الخلافة الدينية واسترداد ما كان لها من الجلال والهيبة . وقد ظن الغربيون أن مقام عبد الحميد فى الاسلام كالبابا فى النصرانية .

ولم يلبث شيخ الأزهر (أبو الفضل الجيزاوى) أن دعا فى ١٢ مايو ١٩٢٦ إلى عقد المؤتمر الاسلامى للخلافة فى القاهرة وذلك « لما كان لزوال الخلافة من الوقع الشديد فى أنفس الشعوب الإسلامية . ولذلك أصبح على المسلمين أن يفكروا فى نظام الخلافة على قواعد توافق إحكام الدين الاسلامى ولا تجافى النظم الإسلامية التى رضيها المسلمون نظاما لحكم » وقد أرسلت دعوات إلى مختلف بلاد العالم الإسلامى .

وقال «حسن محمود علم الدين» فى نداء إلى الأمة المصرية «أن علينا ألا ندع الخلافة

تسقط من أيدينا بل علينا أن نتكاتف على رجاء مولانا جلالة ملك مصر فى قبولها »
وكان الشريف حسين قد أسرع فأعلن نفسه خليفة المسلمين بعد سقوط خليفة الاستانه ولذلك حرص علماء مصر فى نداءاتهم أن يحذروا من بيعة الشريف حسين « أياكم أن تخدعوا بنداءات بيعة الملك حسين بن على صنيعة الانجليز ومانع حجاج بيت الله الحرام من القيام بالفريضة فى العام الفائت (الاهرام ١٠/٣/ ١٩٢٤)
وقد أبرق العلماء إلى الشريف حسين بعمان فى التريث فى قبول البيعة حتى يتكون رأى عام إسلامى لجمع كلمة المسلمين على خليفة واحد .

وقد أبلغت حكومة شرق الأردن فى ٧ مارس شركة روتر رسميا « أن الملك حسين قبل الخلافة التى عرضها عليه مسلمو العراق وشرق الاردن والحجاز الذين أعلنوه خليفة » .

ولـكن الجهات الغربية أخذت تبدى رغباتها فى أحقية ملوك العالم الاسلامى للخلافة فأعلنت صحف روما (ايطاليا) تأييدها للملك فؤاد وأعلنت أنه إذا قبل منصب الخلافة فإن المسلمين يقابلون قبوله أعظم مظاهر السرور وتوارت الابحاث والدراسات واشترك فيها عدد من الـكتاب : رشيد رضا ومحمد لبيب البتانونى .
وقال كتاب أن الاسلام « مارمى بسهم أوهى لجلده وأوهن لعضده وأدمى لـكبده من هذا السهم الذى رماه الـكماليون . وأن إقدام الـكماليين على إلغاء الخلافة أ كبر جريمة فى عهد الدولة وأشنع خيانة فى تاريخ الاسلام على الاسلام (الاهرام ١٤ / ٣ / ١٩٢٤) .

واشارت جريدة الطان أن الملك فؤاد سيزور فرنسا من شان الترشح للخلافة وتركزت الدعوة فى مصر حول مطامع الملك فؤاد فى الخلافة وأيدها علماء الأزهر وبعض الصحف - ونشرت الأهرام فى ٢١ مارس ١٩٢٤ مقالا تحت عنوان « يكون ملك مصر خليفة » جاء فيه أن مصر اليوم أ كبر دولة اسلامية وأرق دول الاسلام طرا وأغناها وأغزرها علما وأعلاها نهضة ولربما يكون رأى

كبار علمائها أن يجعلوا الخلافة فى وطنهم وفى عرشهم ناظرين إلى ذلك من الوجهة الدينية والاجتماعية …

وعيب مصر الوحيد - وقد لاتخلو منه مملكة إسلامية — هو وجود جيش أجنبى محتل لأرضها ولكن هذا الجيش الاجنبى قوة زائلة بحكم السياسة وباعتراف الإنجليز ·

وكذبت الأهرام ما يدعيه الإنجليز من « أنهم لا يتعرضون للخلافة لأنها عمل دينى » وقالت « أن أوربا كلها تهتم بالخلافة اهتماما عظيما لأن نفوذ الخلافة الاسلامية فى العالم الاسلامى هو فوق نفوذ البابويه فى العالم المسيحى وعملها أكبر إذا عادت هذه الخلافة إلى أصولها ونظمت على الطريقة المصرية · إذ ليس قول الأتراك بأنها لم تنفعهم بالقول الصحيح على اطلاقه » ·

ودارت أبحاث حول « مفهوم » الخلافة : وتسمى « الإمامة » وهى رئاسة عامة فى الدين والدنيا قوامها النظر فى مصالح الملة وتدبير الأمة والامام نائب عن صاحب الشريعة صلى الله عليه وسلم فى حياطة الدين وتنفيذ احكامه . ويصير الامام إماما بالبيعة من أهل الحل والعقد أواستخلاف إمام قبله ولابد مع ذلك من نفاذ حكمه فى رعيته (الاهرام — ٢٥ مارس ١٦٢٤) .

* * *

٣ — وتحدث الانجليز عن رأيهم فى الخلافة على لسان لويد جورج رئيس وزراء بريطانيا السابق الذى قال « قضى الأمر وألغيت الخلافة الاسلامية · ثم جاء عرب الحجاز وشرق الأردن فبايعوا الملك حسين بالخلافة . وبذا عادت أو على الأقل شطر منها إلى الشعب الذى أسسها واحتفظ بمجدها » . وشبه إلغاء الخلافة بقضاء نابليون على الامبراطورية الرومانية المقدسة وإلغاء سلطة البابا الزمنية .

ورأيه أنه لا يبعد أن تنقلب الخلافة وتتحول إلى نظام يشبه نظام البابوية وأن « محمد على » من كبار مسلمى الهند — يرى أن خير بديل للخلافة هو أن تختار جمعية مؤلفة من رجال الدين المستقيمى السيرة فى البلدان الاسلامية رجل لا ثروة له ولا مال ويسند إليه منصب الخلافة . وإنه ليس بين ملوك العرب من هو جدير بملء الفراغ الذى حدث بعد خلع الخليفة التركى ، وأن السلطة الزمنية قد أخذت تنهار فى كل مكان وقد جاء الآن دور العقيدة لكى يظهر تأثيرها مرة أخرى » .
(الأهرام ٢٨ مارس ١٩٢٤) .

ولم يكن الملك فؤاد وحده طموحا لمنصب الخلافة ، بل أن قلينى فهمى يذكر فى مذكراته (ج ١) أن عباس حلمى كان شغوفا بأن يكون يوما ما خليفة المسلمين وإنه استخدم لتحقيق هذا الغرض وسائل جمة منها استخدام نفوذ مسلمى الشام والأناضول . وأنفق مبالغ طائلة فى هذا السبيل وقال قلينى فهمى أن أول من دفعه إلى هذه الفكرة هو الشيخ محمد عبده . « ولذلك تخلص الباب العالى منه » .

ودعا محمد لبيب البتانونى إلى الإسراع للعمل من أجل الخلافة حتى « لا يدعو الملك حسين لنفسه فى الحجاز والعراق وشرق الأردن والسلطان يوسف فى مراكش والإمام يحيى فى اليمن . والإدريسى فى عسير وابن السعود فى نجد وابن سعيد فى عمان وأغا خان فى الهند والبهاء فى العجم والسنوسى فى مجاهل لوبيا والميرغنى فى السودان ولا نبعد أن نسمع بالدعوة للورد هلدن فى انجلترا . »

* * *

٤ — وكان للحجاز دورها فى الخلافة فان الملك عبد العزيز آل سعود كان فى هذه الفترة قد استولى على الحجاز وأنهى فيه حكم الشريف حسين وأولاده . ولذلك دعا إلى عقد مؤتمر إسلامى بمكة وأرسل إلى ملوك الأفغان والعراق

وإلى شاه إيران ورئيس الجمهورية التركية والإمام يحيى ورئيس المجلس الإسلامى المقدس وجمعية الخلافة فى بومباى وجمعية الحديث فى أمرتسر بالهند وجمعية الخلافة فى دلهى وباى تونس ورئيس حكومة طرابلس وبدرالدين الحسينى وبهجت البيطار فى دمشق وجاوه برقيه (٢٢ ابريل ١٩٢٦) لعقد مؤتمر الشعوب الإسلامية فى مكة .

وقد تم انعقاد مؤتمر مكة وألقى الملك عبد العزيز خطاب افتتاحيا جاء فيه قوله :

« تفاقم البغى والعدوان بعد زوال سيادة الدولة العثمانية من هذه البلاد وخلوص أمرها إلى الشريف حسين بن على آخر أولئك الأمراء فاضطرب العالم الإسلامى كله من استبداده وظلمه ، ومن عجزه عن توطيد الأمن فى البلاد من جعلها تحت السيطرة الأجنبية غير الإسلامية . جعل نفسه عاملا موظفا لبعض الدول الأجنبية . وكنا معشر النجديين جيران الحجاز عرضة لبغيه وايذائه لنا . منع أداء فريضة الحج وأغرى بعض رعايانا بالخروج علينا . وقد ثبت بالتشاور مع أهل الحل والعقد أنه يجب علينا إنقاذ مهد الإسلام من بغيه وظلمه وعزمنا على ذلك » .

وقال إن المسلمين قد أهلكهم التفرق فى المذاهب والمشارب فائتمروا فى التأليف بينهم والتعاون على مصالحهم وعدم جعل اختلاف المذاهب والأجناس سببا للعداوة والبغضاء » .

وكما أن مؤتمر مكة لم يؤد إلى نتيجة ما فان مؤتمر القاهرة الذى عقد فى ١٣ مايو ١٩٢٦ لم يؤد أيضا إلى أى نتيجة إذ انتهى إلى تقرير أن الخلافة الشرعية المستجمعة لشروطها المقررة فى كتب الشريعة الغراء ومن أهمها الدفاع عن حوزة

الدين فى جميع بلاد المسلمين وتنفيذ أحكام الشريعة الغراء فيها لا يمكن تحقيقها بالنسبة للحالة التى عليها المسلمون الآن .

وقال أحمد شفيق فى حولياته (جـ ١ ص ١١١) : إن جمعية الخلافة أعلنت عدم صلاحية مصر لانعقاد المؤتمر العام للخلافة بها ووجوب انعقاد المؤتمر بمكة المكرمة لأنها خالية من النفوذ الأجنبى . وأرسل مؤتمر الخلافة الإسلامية برقية إلى مؤتمر مكة المكرمة راجيا أن يوفق فى وضع نظام للحكم فى البلاد المقدسة وقال أن عمل هذا المؤتمر فى نظر البعض هو تأكيد سقوط الخلافة وعدم قدرة المسلمين على جمع كلمتهم وتوحيد أعمالهم لدرء الأخطار التى تهددهم وتعبث بكيانهم الدينى والسياسى وقال أنه استقر الرأى على وجوب الخلافة وتعذر إيجادها بين المسلمين وأنه كانت هناك مآرب خاصة لفئة من ذوى النفوذ فى مصر وقال رجال السياسة أن رجال الدين ليسوا ذوى اختصاص وأن الفشل حالفهم .

٥ — وقد واجه الفكر العربى هذه المعركة مواجهة لها وجهين واضحى الخلاف ؛ فوجه كان يهدف إلى تأييد قيام الخلافة ووجه يعارض فى إعادتها . أما الذين يؤيدونها فقد كانوا مختلفين فى شخص الخليفة ، بعضهم يرى أن الملك عبدالعزيز آل سعود أحق بها لوجوده فى بلاد الحجاز مهد الإسلام والبعض يؤيد قيامها فى مصر والبعض الآخر يرى أن تقوم خلافة عربية .

والأزهر الرسمى الذى أيد الخلافة لحساب الملك فؤاد واجه معارضة لرأيه من أربعين أزهريا وقعوا مذكرة أعربوا فيها عن أن مصر لا تصلح داراً للخلافة لتسلط الانجليز عليها ودعا بعضهم إلى أن يعقد مؤتمر الخلافة فى مكة المكرمة .

وكان لرأى الشيخ على عبد الرازق دوى حين أصدر كتابه (الإسلام وأصول الحكم) معارضاً اعتبار الخلافة أصل من أصول الإسلام . وكان مصدر الدوى

أن الكاتب منسوب إلى حزب الأحرار الدستوريين الذى كان يعارض عودة الخلافة أصلا لاتجاه دعاته إلى التغريب ، ولأن الحزب بالذات كان يحارب رغبة الملك فؤاد فى الخلافة ٠

ولقد أعلنت صحيفة السياسة قبل صدور كتاب على عبد الرازق رأيها فى الخلافة (٣ فبراير ١٩٢٦ وما بعدها) إذ أعلنت أن مسألة الخلافة تمس سياسة الدولة وأن الدستور ينص على أنه لا يجوز الملك أن يتولى مع ملك مصر أمور دولة أخرى بغير رضاء البرلمان ولذلك فان أمر بحث الخلافة هو من عمل السياسيين وليس رجال الدين .

وقال على عبد الرازق أن البلاد التى تهتم بالخلافة هى البلاد التى يحركها الأجنبى وأن الذين يتولون أمر البحث فى الخلافة رجال لا يملكون لانفسهم أمرا ولكن يحركهم غيرهم فيتحركون (السياسة ١٢ مارس ١٩٢٦) ٠

وقد شغلت الصحف العربية وصحف مصر بالذات بالخلافة بين مؤيدة ومعارضة، وظهر أكثر من كتاب فى هذا الموضوع من أهمها كتاب رشيد رضا (الخلافة أو الامامة العظمى) وهو فى تأييد الخلافة وكتاب على عبد الرازق (الاسلام وأصول الحكم) فى معارضتها ثم ظهر مؤلف بعد فترة للدكتور عبد الرزاق السنهورى يدعو إلى أن تحل محل الخلافة عصبة أمم اسلامية ٠

١ - وقد كشف رشيد رضا فى كتابه عن أنه هناك ثلاث جبهات تقف إزاء الخلافة الأول وهم (١) المجددون أو (المتفرنجون) : يرون أن الدين لا يتفق فى هذا العصر مع السياسة والعلم والحضارة ٠ وهم يرون أن تكون الحكومة غير دينية وهم موجودون فى تركيا ومصر وسوريا والعراق والهند ٠

(٢) الفقهاء الجامدون : وهم الذين يرفضون القول بالاجتهاد المطلق فى كل المعاملات الدنيوية ولو فوض اليهم أمر الحكومة لعجزوا عن أن ينهضوا به .

(٣) المؤمنون بالاجتهاد والاصلاح وهم الذين يجمعون بين الاستقلال فى فهم فقه الدين وحكم الشرع الاسلامى وهم القادرون على إزالة الشقاق من الأمة وذلك بإحياء منصب الإمامة وأن موقفهم الوسط من شأنه أن يجذب المستعدين لتجديد الأمة من الطرفين .

وقد بين رشيد رضا أن الخليفة فى الاسلام ليس إلا رئيس الحكومة المقيدة ، لا سيطرة ولا رقابة له على أرواح الناس وقلوبهم ، وإنما هو منفذ للشروع وطاعته محصورة فى ذلك فهى طاعة للشرع لا له نفسه ، فالخليفة عند المسلمين ليس بالمعصوم ولا هو مهبط الوحى ولا من حقه الاستئثار بتفسير الكتاب والسنة . وبين الفارق بين الخليفة عند المسلمين وبين البابا عند المسيحيين الذى ينفرد بتلقى الشريعة ويستأثر بالتشريع .

٢ — أما « على عبد الرازق » فى كتابه الاسلام وأصول الحكم وقد حاول إثبات أن الخلافة نظام ابتكره المسلمون ولم يكن له أصل فى الشريعة . وأن الخلافة ليست من الدين فى شيء وإنما هى خطة دنيوية صرفة لا شأن للدين بها فهو لم يعرفها ولم ينكرها ولا أمر بها ولا نهى عنها ، وإنما تركها لنا لنرجع فيها إلى أحكام العقل وتجارب الأمم وقواعد السياسة . وإن رئاسة النبى كانت رئاسة دينية جاءت عن طريق الرسالة فلما انتهت الرسالة بموته انتهت الزعامة وما كان لأحد أن يخلفه فى هذه الزعامة . وأن بيعة أبو بكر كانت بيعة سياسية ملكية عليها كل طابع الدولة المحدثة .

ويقول الدكتور م . محمد حسين (الاتجاهات الوطنية — ج ٢) بأن على عبد الرازق تأثر فى مراجعه وآرائه بالمستشرقين وبالكتاب الذى أصدرته الحكومة التركية لتبرر به الغاء الخلافة وهو (الخلافة وسلطة الأمة) الذى ترجمه عبد الغنى سنى عن التركية وقد وضعته لجنة من كتاب الترك باشارة من الكماليين .

٣ — ويتجه كتاب الدكتور عبد الرزاق السنهورى (الخلافة وتطورها لتصبح

عصبة أمم شرقية) الذى ألفه بالفرنسية إلى محاولة إيجاد نظام بدلا من الخلافة يجمع شمل المسلمين ، وطالب الدكتور السنهورى بتطوير نظام الخلافة فيصبح عصبة أمم شرقية .

وقد أشار إلى أن الاسلام الذى يعنيه هو تلك الثقافة الاسلامية التى أنارت جوانب العالم فى ظلمات القرون الوسطى « فالثقافة الاسلامية لا الدين الاسلامى هو الذى يعنينى . ذلك أن الذين يؤمنون بتعاليم الدين هم المسلمون . أما الذين ينتمون إلى الثقافة الاسلامية فاولئك هم أولاد ذلك الوطن الاسلامى الكبير . وقد وسع المسلمين والنصارى واليهود ، وقد عاشوا جميعاً تحت علم الاسلام طوال هذه القرون » .

وتطلع الدكتور السنهورى إلى أن تتخطى الشريعة الاسلامية أعناق القرون فتصبح شريعة العصر تتسع لمقتضيات الحضارة وتصبح شريعة الشرق دون تمييز بين دين ودين » .

* * *

ولقد تجدد الحديث مرة أخرى فى شان الخلافة بعد توقيع معاهدة ١٩٣٦ وتولى فاروق الملك ، واتسع نطاق هذا الحديث عام ١٩٣٨ بعد أن صلى فاروق الجمعة فى الأزهر الشريف برؤساء وملوك الدول العربية .

وقد تناولت الصحف الموضوع تناولا يكشف عن وجهات النظر المختلفة . أما الصحف الفرنسية فقد أعلنت (١٩٣٨/٤/٢٤ الأهرام) بأنها تخشى أن تؤدى إعادة الخلافة إلى تأليف كتلة من الدول الاسلامية تقف فى وجه الدول الاروبية، وأن فرنسا تهتم اهتماما كبيراً بالمسألة وبما أن الخلافة ستعاد يوما ما فلابد أن ذلك مع فرنسا أوضدها، ولما كانت المصلحة تقضى بأن تكون الخلافة معنا بطبيعة الحال وجب أن تكون مقرها القاهرة . وأن فرنسا هى أشد الدول الأوربية تفاهما مع المسلمين ولا سيما مع المصريين منهم .

وقالت صحف إيطاليا (١٩٣٨/٦/٢ – الأهرام) أن القاعدة الاساسية للسياسة البريطانية فى القسم الشرقى من البحر المتوسط وفى الشرق الأدنى عامة هى الدفاع عن طريق الهند وحماية منابع البترول فى العراق وغيرها . وقد كانت انجلترا حتى الأمس تخشى أن تصبح مصر دولة قوية على رأس البلاد العربية ، ولكنها غيرت سياستها إزاء الخطر الايطالى وأصبحت تؤيد اسناد الخلافة إلى مصر على أمل تاليف كتلة فى البلدان العربية خاضعة لنفوذها وقصدها من وراء ذلك التوصل إلى تعزيز مركزها ومقاومة الدعاية الايطالية وتأمين طريق الهند وحماية منابع البترول فى البلاد العربية .

وأشارت جريدة ستمبا (روما – عن الأهرام ١٩٣٩/٣/٩) أن على ماهر والشيخ المراغى يعملان على إعادة الخلافة إلى الملك فاروق . وأن المناداة بخليفة جديد لا يمكن أن يكون من الحوادث المفاجئة ولا يتم إلا إذا اجتمع مؤتمر إسلامى ورأى فى الأحوال الحاضرة أن فاروق هو الاصلح والاجدر . وهل يوافق ملوك البلدان العربية الأخرى على أن يتولى ملك مصر الخلافة أم لا . وأشارت إلى أن تركيا تعارض فى إحياء الخلافة فى القاهرة ، وأن العالم العربى يتجه إلى مقاومة ترشيح رجل تركى للخلافة وفى هذه المرحلة ظهرت جبهة جديدة من الكتاب تؤيد قيام الخلافة وجبهة تعارضها : ويرى عبد الحميد سعيد (الهلال الذهبى — ١٩٣٩) أن الخلافة فى العصر الحاضر الزم منها فى أى عصر مضى . وأن دول أوربا تعلم أن فكرة الخلافة تهدد سياستها الاستعمارية والذى يرعب أوربا أن قيام الخلافة يؤدى إلى اتحاد الأمم الاسلامية وتعاونها فى سبيل نهضة الشرق كله ، هذه النهضة إذا قويت باتحاد الأمم الاسلامية تحطمت دونها مطامع الدول الأوربية وشهواتها الاستعمارية .

ويقول عبد القادر حمزة : أن من الحكومات الاسلامية المستقل والمستعمر

والمحمى والخاضع للانتداب وهى حكومات ملكية وجمهورية وإمامية وسلطانية وأميرية جمعها تحت لواء الخلافة متعذر فضلا عن أن تركيا والمغرب تعارضان فى الخلافة ولافائدة من نظام لايعترف به الجميع ، كما أن الخلافة فى مصر تكون مصدر خطر عليها من الدول القوية وقد تحرك فى نفس بريطانيا عوامل جديدة تدفع بها إلى الرغبة فى البقاء حتى تحين ساعة الجلاء . والخلافة عبء قبل أن تكون مزية .

ورأى بعض المعارضين فى الخلافة أنها ربما تخلق مع الزمن كهانة .

* * *

وهكذا ظلت مسألة الخلافة تشغل الفكر العربى بآراء وأدلة تؤيد هذا الجانب أو ذاك ولم تتوقف الدعوة إلى إعادة الخلافة ، وهى فى نظر دعاتها إنما هى وسيلة لربط المسلمين برباط روحى ، وهى كالجامعة الاسلامية فى هذا الغرض وكل وسيلة من شأنها أن تربط أو توحد بين المسلمين يمكن أن تقوم مقام الخلافة .

ولاشك أن الاستعمار قدحرص علىألا تقوم هذه الرابطة على أى وضع كان ، وكان ينظر إلى الخلافة من وجهة نظره الخاصة فهو حين يؤيدها ويدعو إليها إنما كان يحرص أن يلتمس من ورائها سيطرة وتأكيداً لنفوذه ، وهو حين حال دون قيامها إنما قصد إلى تمزيق وحدة المسلمين ومع ذلك فقد عجز الاستعمار عن فصم الروابط الروحية فى العالم الاسلامى بل ربما زادتها مقاومةالاستعمار قوة وبأسا .

- ٣ -

مرحلة التحدى ورد الفعل

تطور الفكر العربى خلال الحربين العالميتين

- حملات التغريب
- حملات الغزو الثقافى
- حملات التجزئة

١ — حملات التغريب والغزو الثقافى

قامت الحضارة الغربية على أساس المادية والاقتصاد والصناعة . لذلك كان الاستعمار ثمرة من أهم ثمارها ، وجزءاً مرتبطا بها مكمل لها لا ينفصل عنها . وقد اختلفت بذلك عن الحضارات التى سبقتها والتى كانت تجمع بين المادة والروح .

ولقد قامت الثقافة الغربية على أساس تفكير بدأ بالتحرر من سلطان الكنيسة عندما رأى المسيحية تحده عن الانطلاق فانفصل عن الدين كلية وجرى مع العلم الحديث فى مكتشفاته وعلومه وأنشأ نظما وقيما اشتقها من حاجاته ورغباته وحاول تطبيقها .

وقد بدأت الحضارة الغربية بالثورة الصناعية وقامت على أساس التنافس فى البحث عن المواد الأولية والخامات والصلب والبحث عن أسواق لتصريف المنتجات ، وكان لاختراع وسائل المواصلات السريعة أثره فى ربط أنحاء العالم وسرعة الانتقال بين أجزاءه المختلفة .

ولما كان الاستعمار هو عامل « الحركة » فى الحضارة الغربية المادية فقد كان لابد أن يتخذ من الوسائل التى تكفل له البقاء فى المناطق التى يغزوها . وذلك بعد أن استطاع فى خلال القرن التاسع عشر أن يخضع القارتين الأسيوية والأفريقية وجنوب إمريكا وكما ارتبطت الحضارة بالغزو الاستعمارى ارتبط هذا الغزو بالخصومة لغير الرجل الأبيض وغير الاوربيين . وصاحبت عمليات

الغزو العسكرى عملية غزو فكرية واقتصادية وكان هذا الغزو أشبه بحملة انتقام عنيفة ربما كان مصدرها هزيمة الغرب فى الحروب الصليبية .

وقد بدأ الغرب نهضته على أساس ترجمة العلوم والفلسفات العربية التى كانت قوام حضارته الجديدة ومع ذلك فقد حمل معه لواء الغدر والافتراء والحقد على العرب وإنكار فضلهم وأثرهم . وقد استهلت أوربا حملتها بحرب صليبية عنيفة على العرب فى أسبانيا وعلى المسلمين فى تركيا وعلى العرب فى المغرب وهذه ربما كانت انتقاما لمقتل القديس لويس وهو يقود الحملة الصليبية التاسعة إلى ساحل المغرب ، ولم يلبث اللورد اللنبى أن كشف خبيئة هذا الأمر حين أعلن عند دخول « القدس » عام ١٩١٧ أنه قد انتهت الحروب الصليبية .

وقد ارتبطت الحضارة بالاستعمار ، وارتبط الغزو بصورة تحمل معنى الخصومة للاسلام على نحو صليبى فيه معنى الصراع بين المسيحية والاسلام ومحاولة الانتقام أو ربما كان الضغط على الاسلام إنما جاء باعتباره العدو الاول للاستعمار وأن بقاء الاستعمار الغربى المسيحى فى العالم العربى لا يتم إلا بالقضاء عليه .

ويظهر ذلك واضحا فى أول مشروع استعمارى تقدم به القس « لبنتر » فى ١٥ مارس ١٦٧٢ إلى لويس الرابع عشر ملك فرنسا جاء فيه « أريد أن أتحدث إليكم يامولاى فى مشروع غزو مصر ، ولا يوجد بين أجزاء الأرض بلد غير مصر يمكن السيطرة منه على العالم كله . وعلى تجارة الدنيا بأسرها وهى تستطيع أن تلعب هذا الدور لسهولة استيعابها لعدد كبير من السكان . وهى اليوم معقل الديانة المحمدية ، ولاى داع تخسر المسيحية تلك الأرض المقدسة التى تصل آسيا بأفريقيا والتى جعلت منها حاجزا بين البحر الأبيض والبحر المتوسط ومدخلا لبلاد الشرق بأجمعها والذين يحقدون على فرنسا سينظرون بعين الارتياح لهجومكم على المسلمين تحدوهم روح مسيحية » .

وعندما عرض المركيز دى سنيلاى مشروع شق قناة تصل البحر الأبيض بالبحر الأحمر قال فى مشروعه « إنه مشروع صليبى ومن مميزاته إمكان حفر قناة تكون ملكا مشتركا للعالم المسيحى » .

ويمكن أن يطلق على هذه المرحلة « مرحلة التحدى » لما حفلت به من حملات التغريب والغزو الثقافى والتجزئة التى اندلعت وفق مخطط مرسوم له هدف واضح وخطة واسعة المدى قوامها الغزو التجارى والاقتصادى والثقافى والعسكرى والسياسى ، وعمليات الغزو الثقافى عن طريق الصحافة والكتابة والسينما والتعليم ، وحركات التبشير والاستشراق والدعوات المتعددة التى تهاجم التراث والقيم والدين ومحاولة التشكيك فيها ، والثنائية فى التعليم الدينى والمدنى وثنائية الثقافة بين الفرنسية والانجليزية والحملات على القيم ، والاتهامات ودعوات التجزئة والتمزيق ومحاولات نقل حشد هائل من المذاهب والنزعات والدعوات الغربية المتصلة بالدين والمجتمع والفكر وحملات الشيوعية والصهيونية والالحاد ، والحملات على الدين واللغة .

وقد وقفت الأمة العربية من الحضارة الغربية موقفا رائعا ، لم يكن موقف الجمود ولا موقف الانصهار . لم يمانع من تقبل الأضواء الحديثة من الحضارة على أساس أن تظل معالم شخصيتنا حية قائمة ، على أن تزداد بهذه الأضواء الجديدة قوة وحياة واندفاعا فى طريق الأمم الناهضة .

ولم يكن لدى الأمة العربية مانع من تقبل الحضارة باعتبارها نتاج بشرى اشترك فيه الجنس الإنسانى كله ، وقد قام العرب بدورهم فيها وحملوا أمانتها — وحدهم — فترة تزيد على أربعة قرون كاملة وحدهم نحموها وزادوا فيها وأضافوا إليها .

والإسلام دين متطور فسيح منطلق يتجاوب مع الأزمان المختلفة والبيئات

المتعددة ، ولا يحول دون اقتباس أسباب الحضارة ، وقد تقبل مجتمعنا الحضارة من قبل واقتبس وترجم من ثقافات الشرق والغرب ومن حضارات الفرس والروم والهند والمسيحيين واليونان مازاد شخصيته قوة وحياة .

ولكن الغرب عندما اتصل بالعالم العربي لم يقدم لنا من الحضارة إلا الجوانب المتصلة بمظاهر الحياة وهى فى مجموعها جوانب الغرائز والترف وإرضاء الاهواء .

وللحضارة الغربية جانبها : العلمى العقلى المتصل بالآلة والاختراع والتقدم العلمى والكشوف المختلفة . وجانبها المتصل بالترف والمتاع الحسى واطلاق الاهواء واللذات مما كانت المرأة والمراقص والحانات والكحول والمخدرات وسائلها وأدواتها .

وقد حرص الاستعمار أن ينقل هـذا الجانب وحده إلى البلاد المحتلة ، وأن يحجب عنها الجانب الايجابى ، ولم يقصد بتقديم هذا الجانب من الحضارة إلا العمل على تحطيم المجتمع العربى وبث روح الفساد فيه وتمزيق كيانه واستلاب ثروات الأثرياء الذين اندفعوا وراء اللذات ، وسقطوا فى حمأة المتاع الحسى فتركوا القرية وعكفوا على الاهواء فى المدن وبذلك فقدوا ثرواتهم والتهمتها المؤسسات الاستعمارية الربوية والمقاربة ، أما فيما يتعلق بالثقافة فقد حجب الاستعمار عن العالم العربى جانبها العلمى الرفيع المتصل بترقية الحياة والسمو بالفكر إلى عوالم الاحساس والتسامى ، وأباح الجانب المتصل بالمذاهب الهدامة والآراء الالحادية والشبهات وقضايا الفكر التى مازالت معروضة للبحث والتى لم تصل بعد إلى درجة العقائد ، واتصل هذا بالنظريات ذات المظهر العلمى التى خلقها الاستعمار ليحاول إقناع الشرقيين والشعوب الملونة والمحتلة بأنهم أقل من الشعوب البيضاء قدرة عقلية ، وأن الرجل الأبيض هو الانسان الذى خصته العناية الالهية بتحضير الشعوب المختلفة وحمل أمانة حمايتها وتنويرها . وهذا هو ماأقام هذا الاضطراب العميق والصراع العنيف بين الفكر العربى والحضارة والثقافة الغربيتين .

وعندى أن أمر الحضارة والثقافة الغربيتين لو انتقل الينا انتقالا طبيعيا دون أن تـكون وراءه هذه القوى التى تقوم على الغزو الثقافى وتنظم الحملات فى سبيل « سحق الشخصية العربية » لما حدث أى انحراف ، وانما الذى أحدث الانحراف هو محاولة الغرب فى غزو بلادنا بجانب من ثقافته أن يفرض الجانب المنحرف المضطرب المتشكك .

والواقع أن الآراء والمذاهب الغربية لم تـكن قائمة فى الغرب بهذه الـكثرة أو التعدد فى وقت واحد وإنما جرت محاولة حشد كل الآراء والأفـكار والدعوات التى مرت بمختلف الثقافات والفلسفات فى الفترة الطويلة من عصر النهضة إلى الآن حتى تأخذ صورة الحملة الجائحة التى تثير الأعصاب وتبعث الشك وتزلزل العقائد فى حين أن هذه الدعوات والمذاهب قد ظهر بعضها أثر البعض الآخر وانها لم تكن فى صيغة الحقائق المقررة وإنما فى صيغة الآراء المعروضة للمناقشة وكاراء قابلة للنقد وأن أغلبها انطوى وظهرت مذاهب أخرى تنقضه ثم ظهرت أفـكار أخرى قضت على الأولى .

ولقد كانت هناك معركة ضخمة هائلة ، هى « معركة التغريب والغزو الثقافى وقدحدث انحراف ووقعت ضحايا وظن الاستعمار أن تجربة « تغريب تركيا » يمكن أن تتـكرر فى العالم العربى .

حقا ؛ لقد كانت تجربة تركيا سلاح رهيب فى ابانة ، ثم تبين من بعد أنها عمل فاشل وأن « التطور » غير « التغرب » وأن « الاقتباس » غير « النقل »

ذلك أن « تجربة تركيا » لم تقنع الأمة العربية بتقبل الحضارة الغربية كامله ، بل لعلها زادتها حذراً من أن تمسخ شخصيتها ولعلها هى التى حكمت بأن « الاقتباس » خير من النقل ، وأن قبول جوانب من الحضارة والثقافة ورفض أشياء أقوى لشخصية الأمة من نقل كل شىء ، لقد ظهر كيف تميعت الشخصية التركية فلم تعد اسلامية أو شرقية أو غربية وإنما هى خليط غير واضح المعالم .

— ١ —

حملات على الجنس

السامية والآرية

اتسمت حملات « تحطيم الكيان » التي قام بها الاستعمار بالتعصب والهوى والمغالطة وتجاهل المنهج العلمي الصحيح . وقد اتصلت هذه الحملات بكل مايتعلق بكيان الشخصية العربية من قيم وتراث وخاصة في ميادين الدين واللغة والتاريخ والجنس . وصدرت عن مخطط مرسوم واضح وضع قاعدته الأولى كاتبين متعصبين استعماريين هما: جوبنيو ورينان.

وتقوم النظرية على وجود فوارق طبيعية بين الساميين والآريين ، وهما قاعدة الفوارق بين الشرق والغرب والرجل الأبيض والرجل الملون ، بل قاعدة الاستعمار نفسه حين فرض الرجل الأبيض نفسه على افريقيا وآسيا باعتباره حامل لواء المدنية.

حمل الغرب لواء الدعوة إلى نظرية الجنس وأقام على أساسها معركة التفرقة العنصرية . وترى هذه النظرية أن هناك اختلافات جوهرية وجسمانية وذهنية بين الأجناس البشرية وبين الآريين والساميين بالذات ، وتفسير التاريخ تفسيراً يقوم على الهوى والانانية مع احتقار كل ماهو ليس آريا وتجريد غير الآريين من خير الصفات الإنسانية .

وقداختلفت أوربا في حمل لواء هذه النظرية فقالت فرنسا بسيادة الجنس الكلتي ضد الجرماني ودعت بريطانيا إلى سيادة السكسون ضد الكلت. وأكدت ألمانيا سمو العنصر الجرماني فوق الكلت والسلاف واللاتين .

ونشأ عن هذه الدعوة نظرية الحاجز اللوني التي تقوم على أساسه ظاهرة

الإضطهاد الحضارى . وقد طبقت هذه النظرية فى أفريقيا وآسيا وأمريكا باضطهاد الزنوج أصحاب الأرض الأصليين .

نظرية جوبينو

ونظرية الاجناس البشرية التى دعا إليها الكونت دى جوبينو الفرنسى (Recialism) عام ١٨٥٨ فداستغلها الاستعمار فى الفتح والتوسع ، على أساس أنه لامساواة بين البيض والسود ولابين المستعمرين والشعوب التى يحتلونها ، وأن البيض المستعمرين أعظم عقلا من السود المحتلين . وأن هناك اختلاف جوهرى فى سلالة العرق وجريان الدم .

وترى هذه النظرية أنه مادام هناك شعوب عليا ، ومادام قانون الطبيعة يعطى الغلبة للآرى المتفوق فإن من حقه أن تكون له السيطرة وأن يقبض بيده على مقدرات العالم . وأن الجنس الأبيض ينفرد بكل الخلق العظيم كأنه اختص بالجمال والذكاء والقوة فى تاريخ الحضارات المتعاقبة وأن ماعداه من الأجناس الأخرى عالة عليه .

وقال جوبينو : ان (اليتو توبيين) هم أرقى الأجناس البيضاء جميعاً وأفضل السلالات البشرية على الاطلاق .

ولقد كان لاتصال جوبينو مع الموسيقار « ريتشرد فاجنر » الألمانى أثره فى تبنى الموسيقار الألمانى للنظرية التى تلقتها ألمانيا فى الوقت الذى تحققت فيه الوحدة الجرمانية واتجهت إلى تأسيس امبراطورية كبرى وقد اتخذها رجال غليوم الثانى وسيلة لتعبئة قوى الشعب لغزو المعسكرات .

وتأثر « فردريك نيتشه » الفيلسوف الألمانى بهذه النظرية وأوحت إليه بعض قصائده عن « السوبرمان » .

نظرية رينان

وكان للفيلسوف الفرنسى ارنست رينان (١٨٦٣ ـ ١٨٩٢) أثره الواضح فى توسيع هذه النظرية الاستعمارية وخلاصة آراء رينان هى :

● أن هناك فوارق بعيدة المدى بين الأمم السامية والأمم الآرية .

● أن الأمم السامية قصيرة الخيال ، جافة التصوير ، تدرك الأشياء إدراكا أولياً ولا تتعمق فى بحثها ولا تسترسل فى كشف الحقائق ومعرفتها وتحكم على الأشياء لأول مرة حكم المعتقد الجازم بصحة الشيء الذى اعتقدته . وخيالاتها محدودة وإدراكاتها محدودة ، ونظاماتها الإجتماعية لا تعرف التطور . وليس فى نظام حكومتها ما يدل على سمة الإدراك ولا على أثر التفكير . وليس لها فى علم الأدب والفن أثر يذكر بالنسبة لما تركته الأمم الأخرى ، بل ليس لها فلسفة ولم تسترشد الأمم الأخرى بشرائعها .

● إن الإسلام لا يشجع على العلم والفلسفة والبحث الحر ، بل هو عائق لها بما فيه من اعتقاد فى الغيبيات وخوارق العادات والإيمان التام بالقضاء والقدر .

● من اشتغل بالفلسفة من المسلمين اضطهد واحرقت كتبه وما وصل إليه هؤلاء من الفلسفة ليس له قيمة كبيرة فهو ليس إلا فلسفة اليونان مشوهة . والفلسفة التى أخذها الأوربيون عن المسلمين فى أسبانيا كانت فلسفة رديئة الترجمة مشوهة الأصل لم تستفد منها أوربا الفائدة الحقة .

● العنصر العربى بطبيعته أبعد العقول عن الفلسفة والنظر فيها ، فالزمن الذى كان يسود فيه العنصر العربى — وهو عهد الخلفاء الراشدين — لم تكن

× هذه النظريات هى أساس كل ما حمل لواءه كتابنا المتغربون أمثال طه حسين وسلامه موسى ومع أن كتابا غربيون كثيرون قد أنصفو الإسلام والحضارة العربية . فقد ظلت هذه الآراء المتعصبة قوى أثرا عندهم .

فيه فلسفة ولم يظهر البحث العلمى ولا الفلسفة إلا حين انتصرت الفرس ونصروا العباسيين على الأمويين .

● إن العقل العربى لا يصلح للدراسة والبحث لأن العقلية السامية مجدبة كالصحراء التى نبتت فيها ولا تقوى على التحليل والتعمق كما هو الحال بالنسبة للعقلية الآرية .

● إن عقيدة الجبرية عند المسلمين من شأنها أن تخنق الروح العلمية وأن تحول دون المضى فى سبيل التقدم . وأن الإسلام عجز عن التطور وعن قبول أى عنصر من عناصر المدنية فأجتثت من قلبه كل بذرة من بذور الثقافة العقلية .

وكان رينان قد أذاع هذه الآراء فى محاضرة ألقاها فى السربون فى ٢٩ مارس ١٨٨٢ تحت اسم (التعاليم الإسلامية والعلم) ونشرت فى جريدة الديبا وردعليها جمال الدين الافغانى — الذى كان بباريس إذ ذاك — وجرت بينه وبين ارنست رينان مقابلة نوقشت فيها هذه الأفكار .

رد جمال الدين الأفغانى

وقد كان رد جمال الدين على هـذه الآراء علميا واضح الدلالة : قسم موضوع المحاضرة إلى عنصرين :

(١) إن الديانة الإسلامية كانت بحالها من نشأة خاصة تناهض العلم .

(٢) إن الأمة العربية غير صالحة بطبيعتها لا لعلوم ما وراء الطبيعة ولا للفلسفة

وأجاب عن [النقطة الأولى] فقال :

إن المرء ليتساءل أصدر هذا الشر عن الديانة الإسلامية نفسها أم كان منشؤه الصورة التى انتشرت بها الديانة الإسلامية فى العالم أم أن اختلاف الشعوب التى اعتنقت الإسلام أو حملت على اعتناقه بالقوة وعاداتها وملـكاتها الطبيعية هى جميعها مصدر ذلك .

إن مناهضة المسلمين للعلم أو الفلسفة فى بعض عصورهم المتأخرة لا ترجع إلى طبيعة دينهم بل أولى بنا أن ننسبها إلى سوء فهم بعض الشعوب التى اعتنقته من غير العرب .

٢ — أما عن النقطة الثانية فالكل يعلم أن الشعب الذى خرج من حال الهمجية التى كان عليها وأخذ يسير فى طريق التقدم الذهنى والعلمى ويغز السير بسرعة لا تعادلها إلا بسرعة فتوحاته السياسية وقد تمكن فى خلال قرن من التمكيف بالعلوم اليونانية والفارسية فتقدمت العلوم تقدما مدهشا بين العرب وفى كل البلدان التى خضعت لسيادتهم .

وقد كان العرب فى ذلك الجهل حين شرعوا يتبادلون ما تركته الأمم المتمدنة فاحيوا تلك العلوم المندثرة • ورقودها وحلقوا عنها بهجة لم تكن لها من قبل • أو ليس هذا دلالة بل برهانا على حبهم الطبيعى للعلوم ! صحيح أن العرب أخذوا عن اليونان فلسفتهم كما أخذوا عن الفرس ما اشتهروا به ، بيد أن هذا العلوم التى أخذوها بحق الفتح قد رقوها ووسعوا نطاقها ووضحوها ونسقوها تنسيقا منطقيا وبلغوا بها مرتبة من الكمال تدل على سلامة الذوق وتنطوى على التثبت والدقة النادرين . وقد كان الفرنسيون والانجليز والألمان لا يبعدون عن رومه وبيزنطه بعد العرب عنهما ، وكان من السهل عليهم أن يستغلوا كنوز علوم تلك المدينتين ، ولكنهم لم يفعلوا حتى جاء اليوم الذى ظهر فيه منار المدنية العربية على قمة جبال البرانس يرسل ضوءه وبهاءه على الغرب .

فالواقع يكذب ماذهب إليه رينان فليست عقلية العرب التى استطاعت تحصيل ثقافة الفرس والروم بسرعة لا تعدلها سوى سرعتهم فى الفتوح الإسلامية بعقلية جامدة راكدة .

إن هناك نوعا من التناقض عند مايصف (رينان) عقلية العرب بالاجداب ثم يقول بأنهم أخذوا الفلسفة من الحرانيين ا . هـ

وقد دارت مناقشه بين رينان وجمال الدين انتهى رينان منها بأن أعلن أن رد الافغانى وقع منه موقعاً طيباً وأنه سيعود إلى دراسة موضوعه وأن محادثاته مع جمال الدين بينت له «أن الإسلام فى نصفه الأول لم يحارب العلم وإنما حاربه فى نصفه الثانى . وأن المسلمين لا يحاربون العلم والفلسفة إلا عندما يبتعدون عن المنابع الأولى لدينهم وعندما تضطرب أحوالهم الاجتماعية والسياسية واستطرد رينان : « لقد خالنى الشيخ غير منصف مع انى لم أوف الكلام حقه ، ولم أقل فى المسيحية ما قلته فى الإسلام وأن الاضطهاد بين المسيحيين لا يقل عما كان بين المسلمين وهذا قول حق ، فجاليلو لم يلق من الكاثوليك خيراً مما لقيه ابن رشد من المسلمين .

* * *

وقد ظلت هذه الآراء التى قدمها جوبينو ورينان مصدراً للحملة على الفكر العربى والإسلامى وأساساً لم ينقض أبداً بالرغم مما وجه إليه من رد وبالرغم من تراجع رينان عنه فيما روينا من حديثه مع جمال الدين .

وبالرغم من أن هناك مؤرخون منصفون وأحراراً فى الفكر : أمثال جوستاف لوبون وسيديو ودوزى فإن الحملة على الكيان العربى قد اتخذت آراء المتعصبين أساساً وتجاهلت آراء المنصفين ومضى الكثيرون من الكتاب العرب المتغربين على هذا النحو الخاطىء الظالم فهاجموا كياننا وقادوا حملة التغريب ، ولعل كل ماأورده طه حسين وانطون سعادة وغيرهم إنما كان مصدره آراء رينان مما سنعرض له فى مكانه .

المراجع

مجلة المجلات العربية : مايو ١٩٠٧

الإصلاح والتجديد : تشارلس ادمس

الاتجاهات الوطنية : د . م . محمد حسين

جمال الدين الأفغاني : د . محمود قاسم

زعماء الإصلاح : أحمد أمين

مصر الحديثة : كرومر — ترجمة اسكندر شاهين ١٩٠٨

رائد الفكر المصرى : د . عثمان أمين

تاريخ الأستاذ الامام : رشيد رضا

قاسم أمين : أحمد خاكى

مجلة الرسالة : نظرية الاجناس البشرية لجيبون

حملات على الدين

مهاجمة الدين واعتبار الاسلام سبب التخلف

تعددت حملات كتاب الغرب الذين قادوا معركة التغريب الثقافى على الدين وعلى الاسلام بالذات بادعاء أنه سبب التخلف للعرب والشعوب التى اعتنقته .

وتمثل الحملة على الدين ومهاجمة الإسلام بحملة الدوق دار كواز بكتابه « مصر والمصريون » الذى صدر عام ١٨٩٣ جريا فى نفس الطريق وإن اقتصر الكتابة عن المصريين وحدهم . وقد ضم كتابه سلسلة من المطاعن القاسية وكان قوامه التعصب .

وحاول مؤلف الكتاب أن يصور الاسلام فى صورة الدين الخرافى العتيق ، ويصور المسلمين فى صور الضعاف العجزة . ونعى على المصريين ضعف الخلق القومى وعزا تأخر الحركة الفكرية إلى الاسلام . وقال أنه — أى الاسلام — هو السبب الأساسى فى هذا التأخر وأنه لايحض على البحث فى العلوم غير الدينية وأنكر أن للعرب الأولين مدينة خاصة واتهمهم بأحراق مكتبة بالأسكندرية وأدعى أن الاسلام هو الذى أمر بالحجاب .

رد قاسم أمين

وقد رد قاسم أمين على دوق دار كور بكتابه « المصريون » Les Egyptiens باللغة الفرنسية . وقال أن رادكور ملىء بالحقد على المصريين والاسلام ، جاهل بأصول الدين وتاريخ العرب . وأن ماوجد فعلا مما رمى به المصريين من قصور لايرجع إلى طبيعتهم ولا إلى دينهم ، وإنما يرجع إلى أنهم كانوا يعيشون فى ظل الاستبداد الذى أوقف تقدمهم ونهضتهم .

وقال قاسم أمين : أن الاسلام سبق الثورة الفرنسية بألفى سنة أو يزيد حيث

أنكر امتيازات النبلاء والثروة ، ودعا إلى العدالة الاجتماعية . وأن ليس فى الاسلام طبقة تمثل السلطة الروحية التى كانت للكنيسة وأنه أفسح المجال للكفايات وجعل للفقراء حقا معلوما فى أحوال الاغنياء . وأن النظام الاسلامى يؤكد الاخاء والمساواة ، وأن ضعف هذا النظام إنما حدث نتيجة لاضطراب المسلمين وقيام أمراء طغاة يحكمون العالم الاسلامى مما أدى إلى شيوع الظلم والقسوة .

وأن الاسلام ليس هو الذى انزل المرأة هذا المنزل ، إذ أنه قد منحها من الحقوق مالم تكن المرأة الفرنسية قد منحته فى أواخر القرن التاسع عشر ، فالمرأة المسلمة إذا تزوجت كان من حقها أن تحتفظ بحقوقها المدنية فلها الكفاءة شرعا على أن تتصرف فى أمورها .

ونقد قاسم أمين حال المرأة فى أوربا وقال : أن نظام تعدد الزوجات والطلاق هو نظام أرقى وأنقى من نظام الخلائل والتعدد غير الشرعى السائد فى فرنسا وأوربا ؛ هذا النظام الذى يطبع الاطفال بطابع الجريمة . وأن الاسلام قد احتاط لهذه الاخطار على أن الأصل أن يكون للرجل زوجة واحدة .

وأورد قاسم أمين إحصاءاً عن البغاء فى فرنسا ودال على أن ربع المواليد فيها غير شرعيين . وأن ١٥٠ الفا منهم قتلوا وهم يخرجون من بطون أمهاتهم .

وقال قاسم : أن المصريين يؤمنون بأن الفضيلة مثل معنوى أعلى يضحى فى سبيله بلذات الدنيا .

وأن الاسلام لم يمنع المصريين من دراسة الرياضة والجغرافيا والكيميا والطبيعة والفلك ، وليس هو الذى أسلمهم لجماعة الطغاة المستبدين . وأن الاسلام لم يعترض تطور العقل الإنسانى ولا تقدم العلوم ولا الآداب . ولم يحل دون اكتشاف الحقائق العلمية وأن ما تسرب إلى الدين من أوهام وخرافات مما يراه بعض السائحين

ليس من أصول الدين وخلص قاسم أمين إلى أن الاستعمار هو الذى حال بين بلادنا بين التقدم وأن القناصل الاوربين كانوا يكونون حكومات داخل الدولة تحمى المجرمين واللصوص وسفاكى الدماء من رعاياهم ، وأن الغرب فرض تجارته علينا . وأن رعاياهم كانوا مثلا للفساد والتسلط ، وأنهم نمموا بخيرات البلاد دون أن يدفعوا مقابلا لها .

وأعلن سخطه على المحاكم المختلطة والامتيازات الاجنبية .

وقال أن حكام مصر حاولوا السير بمصر لولا أن أوربا خلقت لهم العثرات فاضحت البلاد مزرعة للغريب الأجنبى . وأنه على الرغم من أن مصر تقابلهم بالاحترام فأنهم لم يجدوا سبيلا للاساءة إلا سلكوه . (ترجمة أحمد خاكى : الثقافة — ١٩ / ٥ / ١٩٤٢) .

٢ ـ حملة هانوتو

مهاجمة الاسلام والمفاضلة بينه وبين المسيحية

وكانت حملة « هانوتو » واحدة من هذه الحملات التى شنها الغرب على الاسلام ومحاولة اثار الشبهات حوله والسخرية منه وقد حاول هانوتو (وزير خارجية فرنسا) أن يلصق بالاسلام كل عيب. متهما أياه بالتعصب والتخلف. وحاول أن يرفع من شأن المسيحية على حساب الغض من قدر الاسلام حيث قال: أن الاسلام رفع حق الربوبيه ويجعل الانسان فى حضيض الضعف ودرك الوهن بينما ترفع المسيحية من شأن الانسان وتخوله حق القربى من الذات الالهية ، وقال هانوتو أن نتيجة الاتجاه الأول هو تحريض الانسان على إغفال شئون نفسه وبث القنوط فى قلبه وتثبيط همته .

وقال أن « المسيحية » هى الوارثة لآثار الآريين ، وهى منقطعة الصلة بالمذاهب السامية وان كانت مشتقة منها . أما الاسلام فهو متأثر بالمذهب السامى ، ولذلك فهو ينزل بالانسان إلى أسفل الدرك ويرفع الإله عنه فى علاء لانهاية له .

وأعاد قول كاتب آخر هو « كيمون » الذى يعتقد أن الاسلام جذام فشا بين الناس وأخذ يفتك بهم فتكا ذريعا ويقول كيمون « بل هو مرض مريع . وشلل عام . وجنون ذهولى . يبعث الانسان على الخمود والكسل ويرى أن المسلمين وحوشا ضارية ويعتقد أن الواجب أبادة خمسهم والحكم على الباقين بالاشغال الشاقة وتدمير الكعبة ووضع ضريح « محمد » فى متحف اللوفر .

وأشار إلى أن الاسلام دين وسياسة وأن شعور المسلمين مبهم من حيث الجامعة السياسية والرابطة المدنية أو الوطنية، فالوطن عندهم فى الاسلام وهم يقولون أن السلطة مستمدة من الألوهية فلا يجوز أن يتولاها إلا المسلمون .

وقال هانوتو : أن الاسلام عقبة فى سبيل العلم والحضارة ·

رد محمد عبده

ورد محمد عبده على هانوتو متهما إياه بتحريك نيران العداوة فى الفرنسيين وأثارتهم على حرب المسلمين · وقال أن أصل التمدن الآرى هو الهند وأن الاسلام هو الذى حمل إلى أوربا مدنيات العالم من فارس ومصر واليونان بعد أن صفاها وهذبها ، وذلك عن طريق الاندلس . وقال أنه لاصلة بين الدين المسيحى والمدينة الحاضرة ، فالانجيل يأمر اتباعه بالانسلاخ من الدنيا والزهادة فيها · ويقص عليهم أن دخول الجمل فى سم الخياط أيسر من دخول الغنى فى ملكوت السماوات . فهل تقوم المدينة الأوربية على هذا الأساس .

ثم قال أن الفينيقيين — وهم ساميون — هم أساتذة العالم فى الصناعة والتجارة بل والقراءة والكتابة ولازالت الأمم يأخذ بعضها من بعض فى المدينة لا فرق بين آرى وسامى .

ودفع «محمد عبده» عن الاسلام تهمة الاتكال على القدر والجبرية وبين أن النبى وأصحابه جاهدوا فى سبيل نشر الدعوة ولم يكتفوا بالتسليم للقدر فى إتمامها ، قائلين أن الذى كفل لهم النصر يكفيهم التعب . وأن الآريين الذين دخلوا فى الاسلام من فرس ورومان هم الذين أفسدوا العقائد الاسلامية فادخلوا فيها ماليس منها · وقال أن ربط هانوتو بين المسيحية وبين الديانة اليونانية باطل ، وأن نظرية التشبيه لم تظهر فى المسيحية ألا بعد قرون من نشأتها · وقال أن من المسيحيين الآن من يعتقد أن المسيح لم يكن إلا نبيا مختاراً بعثه الله لخلاص البشر . أما الإسلام فقد دعا إلى التوحيد وبعقيدة التوحيد فتح المسلمون الدنيا وجالوا فى علوم السماوات والأرض

فنبغوا فى مختلف العلوم ، وإنما فسدوا وتأخروا حين فسدت عقيدتهم ودخل فيها ما ليس منها » ا. هـ

* * *

ومما يذكر أن عصر التغريب الذى امتد فى مصر خلال هذه الفترة (١٩٢٠ — ١٩٤٠) قد فرض أن يختار « هانوتو » هذا نفسه ليكتب تاريخ مصر فى مقابل ثمانية آلاف جنيه، والعجيب أنه كتب تاريخا مشوها نقدته الصحف وعارضه الكتاب ؛ فقد زعم أن مصر لم تستقل فى حياتها الا فترات قصيرة جدا وأجابت مجلة النهضة الفكرية (١٨ يناير ١٩٣٢) على ذلك : بأن مصر كانت أمبراطورية كبيرة يوم كانت أوربا تتخذ من الكهوف والمغاور مساكن ومن جلود الحيوانات أطعمة . ولو لم يتصل اليونان بمصر لظلت فرنسا وانجلترا فى العصر الحجرى إلى القرن العشرين. وتساءلت المجلة : هل كانت مصر مستعمرة فى عهد البطالسة أيام كانت فرنسا مسكونة بصنف من البشر همجى متوحش .

٣ – حملة كرومر

على الإسلام والعرب ومصر والشرق

ويمثل كرومر بحملاته المتوالية التى أوردها كتابيه مصر الحديثة والخديو عباس وتقاريره السنوية صورة الحملة الجماعية على كل مقومات شخصيتنا ومعالمها وتراثنا ووحدتنا وثقافتنا وماضينا .

يقول : إن الاسلام ناجح كعقيدة ودين . ولكنه فاشل كنظام اجتماعى قد وضعت قوانينه لتناسب الجزيرة العربية فى القرن السابع الميلادى . ولكنه مع ذلك أبدى لا يسمح بالمرونة الكافية لمواجهة المجتمع الإنسانى . وأن الاسلام يحرم المرأة من كل حقوقها ويعتبرها أحط من الرجل وأنه يبيح الرق . وأنه دين متعصب متطرف يبيح لاتباعه أن يتخذوا المخالفين لهم فى العقيدة أسرى حرب ورقيقا . ويجعل من أتباعه جماعة من أنصاف الهمج المحبين للحروب والدين لاتتسع صدورهم لأى تسامح فهم لا يفهمون أن الخلاف فى الرأى ليس موجبا للكراهية والحقد .

وقال إن الاسلام دين مناف للتجديد ولم يكن صالحاً إلا الزمن والمحيط الذين وجد فيهما . وأن المسلمين لا يمكن أن يرقوا فى سلم الحضارة والتمدن الا بعد أن يتركوا دينهم ، وينبذوا القرآن وأوامره ظهريا لأنه يأمرهم بالخمول والتعصب ويثبت فيهم روح البغض للاغيار والشقاق وحب الانتقام وأن الإسلام على الجملة هو العقبة الكؤود فى سبيل رقى الأمة الاسلامية .

وقال أن الشرقيين أسرع الناس إلى تصديق الشائعات وهم يتملقون من فوقهم بنفس القدر الذين ينتظرون فيه الملق ممن هم دونهم . وهم لا يكترثون المستقبل ولا يتبصرون فى العواقب ولا يرون شيئاً لمن يتركونهم من خلفهم وهم يدسون

فى الخفاء ولا يعملون فى الضوء نتيجة للعصور المتوالية التى عانوا فيها من الاضطهاد وهم يؤمنون بالقضاء والقدر . ويدفعهم إيمانهم هذا إلى الرضوخ لكل ذى سلطان .

وقال : إن المسلم غير المتخلق بأخلاق أوربية لا يصلح لحكم مصر ، وأن المستقبل الوزارى سيكون للمصريين المتربين تربية أوربية .

وفاصل كرومر بين الاسلام والمسيحية وانتصر لديانته .

الرد على كرومر

وقد رد على كرومر : مصطفى الغلاييني وفريد وجدى ومصطفى المنفلوطى ورشيد رضا ومصطفى كامل وغيرهم .

وجملة ردودهم أن كرومر إنما قصد إلى محاولة تشويه سمعة المسلمين والعرب والمصريين فى العالم الغربى انتقاما منهم . وأن هدفه هو التشفى من السخط الذى واجهه وأن حملته على الاسلام إنما هدم الرابطة التى تمد القوة الأولى فى مواجهة الاستعمار . وأن الاسلام لم يكن فى يوم من الأيام مناقضا للمدنية العصرية أو حائلا دونها ، وهو لا يناقضها ولكنه لا يقبلها كلها ويرفض زيفها وأنه إذا كانت المسيحية وقفت مانعا أمام المسيحى وبين المدنية والحضارة فأن الاسلام ليس مانعا .

وأن الاسلام لم يعرف فى عصر من عصوره سلطة البابا على الأمم المسيحية عند ما كان يضع القوانين التى لها قدسية الأوامر المنزلة .

وأن ادعاء الغرب بأنه فصل حكومته عن الدين ليس إلا أكذوبة ضخمة فأن فرنسا ما تزال حامية الكاثوليكية ومملكة إنجلترا حامية البروتستانت .

وقد اضطر كرومر أمام الحملة العنيفة إلى التراجع فأعلن أنه كان يعنى مجموعة القوانين الاسلامية التى تسمى « العقد » وأنه لم يهاجم الدين الاسلامى نفسه .

المراجع

الاسلام : رسالة هانوتو : ورد الشيخ عبده عليها

الاسلام والرد على منتقديه : محمد عبده

الاسلام روح المدنية : مصطفى الغلاييني (الرد على كرومر)

شبهات النصارى وحجج الاسلام : محمد رشيد رضا

الاسلام والنصرانية مع العلم والمدنية : محمد عبده

حملات التعصب

وليست هذه الحملات التى عرضناها إلا نموذجا لعديد من الحملات المتصلة القائمة على الهوى ، وقد قام بها كتاب وقسس وقضاة جندهم الاستعمار فى خدمته للانتقاص من الأمة العربية ومقدارتها ، واتهامها بمختلف الاتهامات .

قال القاضى « مارشال » أن مابين المسلمين والاقباط فى مصر كما بين المسلمين والهندوس وأثنى على مصطفى فهمى رئيس الوزراء الذى أبقاه كرومر ثلاثة عشر عاما رئيسا للحكومة وقال : إن مصطفى فهمى بكل تأكيد ليس مصريا وقال إن دم سعد زغلول ربما كان مزيجا من الدم الأوربى . وقال إن المصرى يمقت كل دين غير الاسلام ولا يعطف إلا على الطغاه الذين يعاملونه بحزم .

وقال مسيو لوى برتران فى كتابه « بازاء الاسلام » أن الأوربى النازل إلى مصر لم يبق موضع التقديس والمهابة ، وإن المصريين يعطفون على الأمير عبد الكريم الخطابى ويجمعون له الأموال وعبد الكريم ومن معه ليسوا إلا ثائرين على فرنسا . وإن مساجد المسلمين تشعرأن أهل البلاد يعيشون فى طمأنينة لايخشون إغارة مغير ولا عدوان معتد ، بينما كنائس النصارى فى صورة القلاع تدل على أنها عرضه لغارة هؤلاء الهمج عليهم .

وقد رد عليه الدكتور هيكل فى السياسة الاسبوعية (٢٠/٣/١٩٢٦) مقال : إن مسيو برتران يريد أن يعتقد أن قومه أكرم عنصرا وأشرف مقاما فى الإنسانية من الشرقيين ومن المسلمين ، فليعلم أن الزمن الذى أتاح لأوربا أن تحكم العالم ردحا من الزمن قد أتاح مثل ذلك من قبل لأمم آسيا ولأمم أفريقيا ؛ ومصر قد حكمت العالم عصوراً عديدة وقد صبغت العالم بمدنيتها ولعل أهلها يومئذ كانوا يعتقدون أن الأجناس التى تقطن أوربا كلها همج وبرابرة ومتوحشون » .

وهناك كتاب « فولتير » عن النبي محمد الذى رفعه إلى البابا وكتب فى مقدمته يقول « فلتأذن قداستك فى أن أضع الكتاب ومؤلفه تحت قدميك . ولتستغفر قداستك لعبد خاضع من أشد الناس إعجابا بالفضيلة ، إذا تجرأ فقدم إلى رئيس الديانة الحقيقية ماكتبه ضد مؤسس ديانة بربرية كاذبة . .

ومن هذه الحملات حملة الكردينال لا فيجرى على الرقيق (يوليو ١٨٨١) والتى أدعى فيها بأن سوء معاملة الرقيق أمر يبيحه الإسلام ومن مغالطاته قوله : أن الرق قد ألغى منذ عشر سنين فى معظم البلاد الإسلامية بتقيدا للمعاهدات التى عقدت بينها وبين إنجلترا .

وقد تصدى للرد عليه المؤرخ أحمد شفيق ١٨٩٠ بمؤلف بالفرنسية عن الرق فى الإسلام قال فيه أن الدين الإسلامى لا يبيح فى أى حال من الأحوال معاملة أحد من الناس معاملة الرق إذا كان أبواه مسلمين حربين ، ولا يكون الاسترقاق إلا فى الحرب ، ومع ذلك فهو مقيد بشروط وروابط معلومة ، وأن الشريعة الإسلامية تأمر تابعيها بالتزام الرفق والرأفة مع المملوكين .

وقد تحدث اللورد لويد فى كتابه « مصر منذ عهد اللورد كرومر » الذى أصدره عام ١٩٣٩ عن البلاد العربية فقال أنها لاتزال كل قرية فيها حتى اليوم تمثل الحوادث والتقاليد والعادت التى سمعنا بها فى أيام الطفولة . والنساء يطحن الحبوب بالرحى اليدوية والثيران تدرس الحصاد حول الجرن ، ومن دواعى الأسف أن الذباب لا يزال يحوم على الصيدلية ويجمل ما نصنعه من العقاقير ذا رائحة كريهة . .

وقال : أنه لايظن أحداً فى رأسه عقل يصدق أن بريطانيا ستمنح الهند حكما

دعقراطيا بمعنى الـكلمة أو استقلالاً تاما،وتساءل عن فائدة الاستقلال فى مصر وفلسطين والهند للجماهير .

وقال : لقد رفعنا الحماية عن مصر وصرحنا باستقلالها بموجب الصيحة التى كانت ذائعة يومئذ وناديناً فى الوقت نفسه بقدآسة المصالح البريطانية .

وطعن القس « جوين وكدويدن » على مصر والاسلام وقال : أن العلاقات بين حكومة المبشرين والإسلام على ما يرام ، وقال أن تأسيس مركز قوى للتبشير فى السودان يحول دون إنتشار النفوذ الإسلامى فى الشمال .

كما هاجم الـكاهن (لا كى) الإسلام فى صحف بريطانيا وهاجم نظام الزواج الاسلامى كما هاجم الأزهر والقرآن وقد رد عليه الـكاتب المصرى المسيحى « قرياقص ميخائيل » فقال : إن ما نشره القس من معلومات خاطئة من أساسها وغير صحيحة . فهو أما أن يعرف ما يتحدث عنه وأما أنه بالغ فى رواياته ، فإن الدين الإسلامى لايسمح لأحد بأن يتزوج أكثر من أربع نسوة فـكيف جعلهن لا كى ستا ، فضلا عن أن تعدد الزوجات ليس مألوفا إلا فى جزء من المجتمع لايقيم وزنا للخلق الـكريم وفى وسعى أن أؤكـد بأن يقولون صادقين أن تعدد الزوجات لا يسمح به إلا فى أحـوال المسلمين استثنائية .

وقال قرياقص ميخائيل : أن الاسلام دين عظيم متمدن سمح بتعدد الزوجات تحت شروط معينة ، وإن منزلة المرأة فى مصر تزداد قوة واحتراما ، وإن الـكاهن مخطىء فيما ذكره عن الأزهر الشريف مركز الثقافة الإسلامية فى العالم وليس صحيحا إن القرآن الـكريم هو المادة الوحيدة التى يدرسونها فى هذه الجامعة

بل يعكفون فى الأزهر على التضلع فى اللغة العربية والفقه ويتعلمون الحساب والتاريخ والطبيعة .

* * *

وقد لقيت هذه الحملات نقداً شديداً من الصحافة العربية وردوداً مدعمة بالوثائق والأدلة من كتاب العالم العربى فى هذه الفترة ، ولم تنقطع هـذه الحملات بل استمرت وتوالت ، حتى لقد ذكر الدكتور عمر فروخ فى كتابه « التبشير والاستعمار » إن هذه الـكتب بلغت عشرات الألوف ، ومما لا شك فيه أن معظم هذه الـكتب كانت حملات حاقدة طائشة وأن البقية القليلة منها لم تقم على أساس مذهب البحث العلمى الذى ابتدعه الغرب وباهى به وإنما غلب عليها هدف واضح محدد هو التغريب وخدمة الاستعمار ومحاولة الانتقاص من هذا الـكيان العربى وتمزيقه وتحطيمه .

ولا يمنع هذا الحـكم الذى يعم الـكثرة الغالبة من استثناء قلة قليلة من الـكتـاب حاولت أن تنتصف للعرب وأن تذكر الحقيقة ولقد كان للفكر العربى دوره الواضح فى هذه المرحلة ، وعمله الإيجابى الضخم إزاء هـذه الحملات فقد واجهها فى حكمة ومرونة وقدرة على ضبط النفس وبعد عن أساليب الهجاء أو الحقد .

وقد بلغ تجنى كتاب الغرب حداً جعل كاتبا من المؤمنين بالغرب و كتاباته يهاجم تخبط كتاب الغرب فى فهم بلادلبنان هو فؤاد أفرام البستانى (مجلة المشرق مجلد ٧ ص ٩٣١) حيث يقول : أن الصحفى ربما يأتى ليراسل إحدى الصحف الغربية فيتصل ببعض الفتيات الراقصات فتريه ما يشاء من بلاد الشرق وتخبره عما يجول فى مخيلتها من سيطرتها على بعض رجال الحـكومة البارزين فيؤخذ

الصحفى بكل هذا ويكتب أن حكومة البلد الفلانى بهتز الراقصات ولذلك أصبحنا نقف موقف الريبة والشك إزاء كل كتاب جديد من بلادنا » . .

* * *

ولم يقف أمر الغربيين عن مهاجمة الأمة العربية بالكتب والصحف بل امتدت إلى الاذاعات والسينمائيات . فطالما عرضت دور السينما فى مختلف عواصم أوربا أفلاما تمثل المصريين والعرب « فى هيئة مزرية قذرة متوحشة وكتبت تحت عبارات تقول أن « الاسلام هو السبب فى جذب هذه الأمم إلى الوراء وأن تعاليمه هى التى قذفت بهم فى احضان الهمجية والتوحش وشعائره هى التى أمرتهم بالكسل والخمول وحالت بينهم وبين الأخذ بأسباب المدنية الحاضرة» وذلك كما صورته عبارة الأمير شكيب أرسلان (مارس ١٩٣٢) فيما صور من المطاعن التى يوجهها الغربيون وقال «أن نظرة إلى القرآن وتاريخ النبى كفيلة بأن تظهر عملا أن ناشرى هذه الآراء السخيفة عن الاسلام من المنغمسين فى بحار الجهالة بهذا الدين » وقال أن هذه ليست الحملة الأولى من نوعها فإن كثيراً من مشاهير الكتّاب والمفكرين أمثال توربان وباسكان وجيترار وجانبيه ورنيان والدوق داركور وهانوتو وكازانوفا تناولوا الاسلام على هذا النحو وقد علقت جريدة الاهرام ١٩٣٢/١/٢٩ على مثل هذا العمل عن فيلم عرض فى لندن وصف بأنه يتضمن وقاحة غريبه وقالت نقلا عن الديلى تلغراف : أن أكبر عدو لمصر هى السينما الأوربية فأن رجالها يبحثون فى مصر عن أخطر الأمور حتى يصوروا الأمة المصرية على أنها أمة همجية متوحشة ليس لها من التقاليد ما يضمها فى صف الأمم الراقية . وقالت الأهرام أن أيه أمة لا تخلو من الطبقات الدنيا وأن فى أشد بلاد العالم مدينة مناظر تفوق ما فى مصر من مناظر فى هذه الناحية» .

ولقد ظل كتاب الغرب يتحاملون على تاريخنا ويصورون الفتوحات العربية والاسلامية فى أوربا بأنها غزوات بربرية وحملات ناهبة مخربة ولطالما هاجموا فضل هذا الفضل وجحدوا العرب الذين حملوا إليها ضياء الحضارة وأنكروا هذه الحقيقة التاريخية .

ويتصل بهذا ما قامت به الصهيونية بما لها من سيطرة على دوائر النشر والاعلان فى أوربا وأسيا وافريقيا من تزييف تاريخ العرب لمصلحة قيام وطن قومى فى فلسطين ومنع نشر حقائق الانصاف عن العرب والاسلام . وقد نشرت خلال هذه الفترة التى نؤرخها مؤلفات ومراجع ودوائر معارف بمختلف لغات العالم كتبها اليهود وعملاؤهم من المؤرخين والباحثين اغفلت أثر العرب وفضلهم على التاريخ والحضارة مع إقحام أسماء اليهود بغير مناسبة .

النظرية اليونانية

وإنكار فضل العرب على حضارة الغرب

من أهم الدعوات التى أثارها الغرب فى سبيل الغزو الثقافى والتغريب: النظرية اليونانية ، مستهدفا تحطيم مكانة الثقافة العربية . وغاية النظرية : إنكار أثر العرب على الفلسفة اليونانية وتجاهل فضل مصر والشرق على حضارة اليونان . ثم يستطرد هـذا إلى محاولة فرض فضل للثقافة اليونانية على الثقافة العربية .

فقد أنكروا أن أعلام اليونان سافروا إلى الشرق لارتشاف علومه ، وقالوا إن الفلسفة العربية ليست شيئا آخر إلا الفلسفة العربية دون بحروف عربية .

وقد أشار المستشرق جويدى فى محاضراته التى ألقاها فى مصر عام ١٩٢٨ فقال : إن سفر أعلام اليونان إلى الشرق للاستفادة من علومه قول منتحل ، وإن مصر وسائر بلاد الشرق لم يكن لها فضل على العلوم والآداب والثقافات التى تنسب إلى اليونان .

وقد ذهب طه حسين فى بحثه الذى صدر به كتاب (نقد الشعر) لقدامة إلى أن قواعد البلاغة العربية إنما أسست على وضع أرسطو ونقله العرب عن اليونانية وشايعه كثيرون .

وقال طه حسين : أن الناس فى الشرق والغرب وفى جميع الأجيال مدينون

لثقافة اليونان . وقال أن عقلية مصر عقلية يونانية ، وأنه لم يكن للشرق في تكوين الفلسفة اليونانية والعقل اليوناني والسياسة اليونانية تأثيرا يذكر وإنما كان تأثير الشرق في اليونان تأثيرا عمليا ماديا ليس غير .

وقد جرت بشأن هذه النظرية مجادلات شتى وكانت إحدى الدعوات التي قصد بها القضاء على مكانة الفكر العربي القديم أو التقليل من شأنه والواقع الذي روته كتب التاريخ وإبحاث العلماء المنصفين فيه اجماع على أن المعارف اليونانية منقولة من المعارف المصرية ، وأن فلاسفة اليونان تلامذة فلاسفة مصر القدماء . واليونانيون يعترفون بأنهم تلاميذ المصريين ، وكانت زيارة مصر واجبة على كل يوناني يريد التفقه في أسرار الوجود . (زكي مبارك : الرسالة ١٥/١١/١٩٤٣) .

ولقد بلغ من عنف دعوة التغريب أن فرض هذا القول الخاطىء على الكتب المقررة للتدريس في المدارس في مصر ، ليؤمن الطلاب بالإدعاء الكاذب الذي يقول بأن العقل الشرقي قد انهزم أمام العقل اليوناني مرات .

والواقع أن أرسطو وزملائه أخذوا من الفلسفة المصرية القديمة وأنه سجل الفضل للعقلية الشرقية في مقدمة كتابه (مابعد الطبيعة) أما ما ذكر من أن العرب لم يزيدوا في فلسفة اليونان عندما ترجموها فالرد عليه يظهر لكل منصف فيما أضاف العرب إلى علوم اليونان ، وأول فضل للعرب على فلسفة اليونان هي النزعة الديمقراطية التي أنزلت الفلسفة من السماء إلى الأرض ويسرت لكل إنسان أن يفكر فيها والرأي مجمع على أن العرب أضافوا إلى الفلسفة اليونانية كثيرا ، وأبرز ما أضافوه ما ابتكره (أبو النصر الفارابي) من وضع أصول علم الموسيقى ووضع التعاليم الصوتية . كما أن العرب سنوا سنة الجمع بين الحكمة والعلم ، ولم يكن ذلك معروفا لليونان ، والمعروف أن العرب عندما تمثلوا فلسفة

اليونان أضافوا إليها عنصرا جديدا وهو الدين ،أما الرد على ما يقال من أن العرب نقلوا فلسفة اليونان وعلومهم ، ولم ينقلوا آدابهم ، فان آثار اليونان الأدبية التى لم يتقبلها العرب فقد كانت من الأدب المكشوف الذى يثير الشهوات وهى الدعامة التى قام عليها الأدب الأوربى الحديث .

وقد سجل ذلك الشيخ رشيد رضا (المنار حـ ٥ م ٢٧ ص ٣٩٧) موقف العرب من الشعر اليونانى على أثر ما أثير من أن العرب نبذوه ولم يترجموه أو يقتبسوا من معانيه ، قال : قد كنا نجهله قبل أن يترجم لنا سلمان البستانى (الالياذه) نظما ، وكنا نبيح لانفسنا الحكم عليه ، فلما أطلعنا على (الالياذه) وهى أعلى شعر الاغريق ومفخرتهم التاريخية حكمنا بأن أجدادنا لم ينبذوا شعرهم وراء ظهورهم ، ألا لانهم وجدوه دون الشعر العربى فى حكمة وسائر معانيه وأنه على ذلك محشو بالخرافات الوثنية التى طهر الله عقولهم وخيلاتهم منها بالاسلام .

* * *

ومما يتصل بالنظرية اليونانية المحاولات الفكرية التى جرت فى إنكار فضل العرب على الثقافة العربية والعمل على التشكيك فى مساهمة العرب فى الحضارة ورد كل فضل إلى اليونان ثم الادعاء بأن العرب كانوا نقلة ومترجين فى الوقت الذى سجل لهم التاريخ الفضل فى الاضافة والاغناء للثقافة والعلوم التى ترجوها من اليونانية .

وقد كانت أسبانيا العربية (الاندلس) بعيدة الأثر فى ثقافة أوربا وحضارتها : سواء فى الأدب أو الموسيقى أو الفن أو العمارة .

وقد سجل أكثر من باحث ومؤرخ وفى مقدمتهم المستشرق الأسبانى الأب أسين بلاسيوس الذى قال : أن شعراء (التروبادور) قد تأثروا بالشعر الاندلسى وان قصص (سرفانيتس) إنما تصور فى الحقيقة شهامة ونجدة الفارس العربى :

كما أشار غيره إلى اثر (ابن رشد) هذا الأثر الذى بقى فى إيطاليا حتى القرن السادس عشر بعد أن نقلت مؤلفاته إلى اللاتينية ، وقامت له مدرسة من الفلاسفة الأوربيين ، كما نقلت آثار الطب وفى مقدمتها كتاب أبو القاسم الزهراوى فى الجراحة الذى ظل يدرس فى جامعات أوربا واكسفورد بالذات حتى عام ١٧٧٨ ، كما خرجت جامعات طليطلة وقرطبه عدداً من الباحثين الأوربين الذين سجلوا أن قرطبة كان بها ٧٠ داراً للكتب ، و ٩٠٠ حمام بينما كانت أوربا تعيش فى ظلمات القرون الوسطى ؛ هذه القرون الوسطى الذى يطلقها الغرب على أزهر فترات الحضارة الاسلامية تمنتا منه وتعصبا ، فإنما كانت القرون الوسطى ثقافة واجتماعا ، بربرية وظلاما على الغرب وحده .

أما فى الاندلس العربية والشرق العربى كله فقد كانت أزهر فترات اليقظة والنهضة وانضر صفحات الحضارة والمدنية .

ولقد انهزمت هذه النظريات باقلام كتاب من الغرب نفسه ، ومن المستغربين الذين استفاق ضميرهم إلى الحق كزكى مبارك وهيكل ومنصور فهمى.

حملات « التغريب » والغزو الثقافى

ليس شك ان حركة « تغريب الشرق » Westernism هى دعوة كاملة لها نظمها وأهدافها ودعائمها ولها قادتها الذين يقومون بالاشراف عليها .

وهو حلقة من مخطط واسع فى تأكيد الاستعمار ودعمه ، وعمل استعمارى فكرى بعيد المدى قصد به إلى القضاء على معالم الشخصية العربية وتحويل هذه الأمة إلى الصورة الغربية ومسخ ملامحها .

ويدعو « التغريب » إلى تغليب الأنظمة والمذاهب والثقافات الغربية والقضاء على القيم والتراث الغربى والمذاهب والثقافات العربية .

وقد اصطنع التغريب لتحقيق رسالته وسائل متعددة ، كان أبرزها أعمال الاستشراق والتبشير والامتيازات وفرض المعاهدات على الأقطار المحتلة وإلزامها باتخاذ أنظمة الحكم الغربى وفرض الإرساليات والمعاهد والجامعات باتجاهاتها التبشرية .

واستهدف الاستعمار من وراء حملة « التغريب » تركيز قواعده التى أقامها بالاغتصاب والتسلط والغزو العسكرى ، وذلك بمحاولة تغيير مفاهيم العالم العربى ومحاولة كسب عقليات الشعوب وتفكيرها وعواطفها إلى صفة والفصل بينها وبين ماضيها وقيمها ، ومحاولة تحطيم هذه القيم والتشكيك فيها وإثارة الشبهات حول الدين واللغة والتاريخ ومعالم الفكر ومفاهيم الآراء والمعتقدات جميعا .

وقد بدأ الغزو الثقافى قبل الغزو العسكرى ومعه ، وتسللت جيوشه فى أزياء

العلماء والمبشرين الذين يدرسون عقليات الشعوب ونفسياتها ويقرأون تاريخها السياسى والفكرى ، وبدأت مؤسسات أمريكية وفرنسية وبريطانية تعمل فى هذا المجال باسم : المدارس والصحافة والثقافة والتربية والتعليم والسينما وفى ميادين أخرى كالتطبيب .

ولقد كان لتعدد هذه الألوان من الثقافات أثرها فى بلبلة الفكر العربى واضطرابه وتخريج أفواج متعددة تدين كل طائفة منها بالولاء للجهة التى خرجها .

وقد « كان هذا التعليم — كما صوره جبران خليل جبران — يأتى من الغرب بشكل الصدقة . وكنا ولم نزل نلتهم خبز الصدقة لأننا جياع متضورون . ولقد أحيانا ذلك الخبز ، ولما أحيانا أماتنا . أحيانا لأنه أيقظ بعض مداركنا ونبه عقولنا قليلا . وأماتنا لأنه فرق كلمتنا وأضعف وحدتنا وقطع روابطنا وأبعد مابين طوائفنا حتى أصبحت بلادنا مجموعة مستعمرات صغيرة مختلفة الأذواق متضاربة المشارب . كل مستعمرة منها تشد فى حبل إحدى الأمم الغربية وترفع لواءها وتترنم بمحاسنها وأمجادها ، فالشاب الذى تناول لقمة من العلم فى مدرسة أمريكية قد تحول بالطبع إلى معتمد أمريكى . والشاب الذى تجرع رشفة من العلم يسوعية صار سفيراً فرنسيا والشاب الذى لبس قميصا من نسج مدرسة روسية أصبح ممثلا لروسيا » .

أضف إلى هذا الأثر للغزو الثقافى ما قاله لورد كرومر من « أن الشبان الذين يتلقون علومهم فى انجلترا وأوربا يفقدون صلتهم الثقافية والروحية بوطنهم ولا يستطيعون الانتماء فى نفس الوقت إلى البلد الذى منحهم ثقافته فيتأرجحون فى الوسط ويتحولون إلى مخلوقات شاذة ممزقة نفسيا » .

وكان هذا بالطبع هو الهدف من الإرساليات المختلفة التى غزت بلادنا والبعثات المفروضة إلى التعلم فى أوربا .

وهكذا كان « التغريب » عملا منظما دقيقا قوامه الحرب المنظمة للقيم الذى عاشت عليها الأمة العربية والحيلولة دون وصول أضواء الثقافة والعلم الغربى الينا . والاكتفاء بنشر غمامة كثيفة من الغموض والتشكيك والآراء المتناقضة وذلك فى محاولة ضخمة لاعطائنا الصورة المظهرية دون الصورة الحقيقية للثقافة فقد قاوم الاستعمار التعليم الشامل والتعليم لوجه الثقافة ووقف فى وجه إنشاء الجامعة المصرية.

وحاول أن يجعل هدف التعليم قاصراً على إخراج موظفين وليس لتخريج علماء وباحثين .

كما قدم فى ميدان الحضارة أسوأ ثمراتها فى تجارة الرقيق الأبيض والكحول ومواد الزينة واللهو وهى الأجهزة التى تمكن الغرب بها من القضاء على مقومات شخصيتنا والاستيلاء على أموالنا .

ولقد ظهر واضحا أثر هذا « التغريب » فى الأقطار التى تحررت من بعد وكسبت الاستقلال ، فقد ظلت خطط التغريب قائمة فى كل ميادين الفكر : الصحافة والتعليم والثقافة وذلك بفضل ما تمكن به الاستعمار من خلق طبقة من المفكرين ورجال الدولة الذين انصهروا فى بوتقة التغريب فآمنوا بهذا الاتجاه ودافعوا عنه، وكان ذلك باسم التمدين وباسم العهود التى قطعتها الاتفاقيات والمعاهدات بأن نسير سيرة الأوربيين فى أنظمة الحكم والتعليم والثقافة وقد اتخذ « الغزو الثقافى » فى سبيل فرض « التغريب » وسائل متعددة ، فالكتب التى تترجم هى كتب معينة تعين على حماية الاستعمار ودعم مركزه ، وتصورنا بصوره القصور والتخلف . وتصور أوربا والغرب بصور الأمم العظيمة ذات القوى الجبارة وقد كانت هذه الكتب دائما من النوع الهدام الذى يهدف إلى الفتك بالدين والأخلاق وتحطيم كيان المجتمع وتحويل نظره عن الحرية والجهاد فى سبيل الاستقلال والجلاء

ومحاولة قتل الشخصية العربية ومحو مقوماتها وتدمير تفكيرها وتسميم ينابيع الثقافة فيها وعن طريقه ارتفعت أصوات الدعوة إلى إذابة الأمة العربية فى الحضارة إذابة كاملة باعتبار ذلك هو السبيل الوحيد إلى النهضة والحرية . وجرت الادعاءات الغربية التى تنفى أن العرب أمة وتحاول أن تجعل من دول البحر الأبيض المتوسط جامعة ورابطة .

ولقد ركز الغزو الثقافى أعماله كلها على مهاجمة « الاسلام » كدين واتهامه بأنه سبب انحطاط الشعوب، ورأى «جب» أن «حركة التغريب كانت بعيدة المدى بانزال الاسلام من عرشه فى الحياة الاجتماعية» وقد أعلن الكثيرون من دعاة التغريب أننا لسنا شرقيين إطلاقا . وإننا أوربيون فى الدم والمزاج والثقافة واللغة ، وادعى هؤلاء اننا سكان العالم العربى من بغداد شرقا إلى طنجة غربا نشترك وأوربا فى ميراث واحد هو ميراث الدولة الرومانية .

وكان من نتائج هذا كله أن أضيف إلى الفكر العربى « ترقيمات » متعددة من الثقافات الفرنسية والانجليزية والأمريكية ، وهى البطاقات التى فرضت نفسها فى المنطقة .

النقل والاقتباس

كان لحركة « التغريب » أثر واضح فى الفكر العربى المعاصر والحياة الاجتماعية فى العالم العربى فقد كانت مصدر كل الانحرافات والاضطرابات التى أصابت الشخصية العربية وانحرفت بها فترة من الزمن عن طريقها الطبيعى ، وليس من شك أن الثقافة والحضارة الغربيتين كان لها نتائج إيجابية ونتائج سلبية .

ولو قد استقبلت الأمة العربية هذه الحضارة وهذه الثقافة دون أن ترتبطا بحملات الاستعمار والغزو الثقافى والتغريب لأمكن لها أن تنقل منها ما تراه صالحا لها ، كما فعلت من قبل فى أبان النهضة الفكرية الأولى خلال العصر العباسى الأول .

غير أن الأمر لم يكن باختيارها فقد فرضت الحضارة الغربية فرضا وفرضت معها الثقافة الغربية بما فيها من تيارات ومذاهب ونظريات فى الاجتماع والدين والسياسة وأساليب فى الحكم والتشريع والتعليم والصحافة ·

ولذلك فقد كانت القضية الأولى فى الفكر العربى المعاصر هى :

النقل أم الاقتباس ؟

وكانت هناك تجربه كاملة من تجارب النقل هى تجربة تركيا ، فقد تحولت من الشرق إلى الغرب ، ومن اللون الاسلامى إلى العلمانية اللادينية فى الثقافة والحكم والتعليم ·

وقد قام تياران واضحان : أحدهما يدعوا إلى النقل الكامل والثانى يدعو إلى الاقتباس ، وكان تيار « النقل الكامل » الذى دعا إليه سلامه موسى ومحمود عزمى وطه حسين جريا وراء دعوة « جاك الب » التركى وهم جميعاً من تلاميذ (دوركايم) العالم الاجتماعى الاسرائيلى الذى نقل آراء كارل ماركس من ميدان الاقتصاد والسياسة إلى ميدان الاخلاق والاجتماع · والذى يؤمن بأن الفرد لا قيمة له وإنما القيمة للمجتمع · وأن القيم كلها كالاخلاق والأديان والعقائد والأداب إنما يخلقها المجتمع ولذلك فهى ليست ذات قيمة أو أهمية حقيقية ·

وقد كان طه حسين تابعا لأحمد غايف التركى فى القول : بأن المدينة الأوربية كل لا يتجزأ، أما أن يؤخذ كله أو يترك كله وهو قول مردود وكان الطرف الثانى يقول : أن التجديد فى الأدب والثقافة كالتجديد فى العلم لا يمكن أن يقوم إلا على أساس تعاون الماضى والحاضر، وأن الفكر يبنى فى حاضره على ما أسس فى ماضيه ·

ولم يكن لدى العالم العربى مانعا من تقبل الحضارة باعتبارها نتاجا بشريا اشترك فيه الجنس الأنسانى كله وقد حمل العرب أمانتها فترة تزيد على أربعة قرون .

أما الذين قالوا بالتوقف دون الاقتباس فلم يكونوا على فهم صحيح بحقيقة الاسلام وقدرته على تقبل التطور وحقيقة مفاهيم الفكر العربى ؛ ذلك أن القاعدة فى ذلك هى أننا لا نتقبل كل شىء ، ولا نتحول إلى صور ممسوخة من الأمم الأخرى ، وأن علينا أن نضع أمام أنفسنا أولا المحافظة على ملامحنا الحقيقة ومعالم شخصيتنا الواضحة والايمان الصادق بتراثنا وقوميتنا وتاريخنا ولغتنا ومشخصات فكرنا ثم نقتبس ما يزيد هذه الخصية قوة وحياة ويدفعنا إلى الأمام فى طريق الحضارة جنبا إلى جنب غير متخلفين فى ركب الأمم .

وقد كان هذا المبدأ « البناء على الاساس » هو حصاد المعركة الفكرية الطويلة الممتدة خلال أكثر من مائة عام .

فالمزج بين القديم والجديد والماضى والحاضر والشرق والغرب إنما يقوم على وجود شخصيتنا أولا والمحافظة على ملامح فكرنا العربى الواضح بحيث لا يجوز أساس عليه هذا الاقتباس ولا يطمس ملامحه هو أساس البناء .

وقد كنا طوال تاريخنا (١) متحركين غير جامدين ولا متوقفين (٢) أصلاء أكبر من الأحداث وغير أمعات تجرى مع التيار (٣) لدينا من المرونة والحيوية ما يمكننا من التكيف مع الظروف والمقاومة الدائمة لكل محاولة للطغيان علينا أو سحقنا ومن القدرة ما يمكننا من مواجهة التحدى برد الفعل السريع الذى يرقى فوق الأحداث ولا يحملنا نضيع فى زحمتها .

وقد كان « الاقتباس» فى معناه مزيج من « المعالم الاساسية » التراث الجديد ومن هذا كله يتكون شيئاً جديداً هو شخصيتنا الفكرية العربية الجديدة .

وكان هذا التيار « الوسط » أصدق التيارات التى حققت ما أراده دعاة الثقافة القديمة من بعث التراث وتجديده بأساليب جديدة وحقق خير ما أراده دعاة التغريب الذين يريدون منا التحول نهائيا إلى الصورة الغربية .

وكان مفهوم الاقتباس ؛ أن معنى نقل الحضارة ليس فى مستوى مفهوم نقل

الثقافة . وأن نقل الحضارة ليس معناه نقل كل الحضارة فهناك فوارق واضحة بين الثقافة والحضارة .

* * *

غير أن « التغريب » لم يكن يهدف إلا إلى النقل الكامل للقضاء على شخصيتنا وكياننا ، ولذلك كان يضغط علينا ليحولنا من الاقتباس إلى النقل عن طريق دعاته وعملائه .

وقد حدث انحراف فعلا ولكن آثاره لم تمتد طويلا ، فأن بعض دعاة التغريب أنفسهم قد تحولوا عن دعواهم : تحول منصور فهمى والدكتور هيكل ومحمود عزمى .

وهكذا سار تيار النقل وتيار الاقتباس جنبا إلى جنب ، كان الاقتباس يعنى الاعتدال وكان النقل يعنى الاندفاع وقد كان لمادية الفكر الغربى ونحلل الجوانب المنقوله من الحضارة الغربية أثره فى موجة الانحراف التى أصابت الأمة العربية .

ذلك أن أول آثار الثقافة الغربية والحضارة الغربية كانت القضاء على مقومات حياتنا الفكرية وهى مقومات روحيه مقتبسة من الدين والخلق فظهرت ملامح الذاتية الفردية وإسراف الطبقة الوسطى فى تقليد الطبقة العليا المترفة التى صنعها الاستعمار له ، وتفشى الوصوليه والزلفى والتبذل واستشراء روح الخنوثة والميوعة ، حيث سرت روحها إلى الصحافة والاغانى والكتابة والمسرح .

وبلغ الاهتمام غايته بالالفاظ ، واستولى روح من اليأس ، صاحبه روح من الاستهانة والسخرية بامجادنا وتراثنا وأعلامنا وتاريخنا ولغتنا وديننا ، وبدأ العالم العربى تحت ضغط صراع الثقافات المتعددة من إمريكيه وفرنسيه وبريطانية ، وثنائيه التعليم الغربى والقديم ، مزيجا غريبا مضطربا من القديم والجديد ، دون أن يتبلور ذلك فى حضارة جديدة أو ثقافه جديدة ، وحرص الاستعمار على أن تظل هذه الجماعات المختلفة والآراء المختلفة ، والدعوات المختلفة ما بين إسلامية وعربية وبابلية وأشورية وبربريه قائمة حتى لا يتم « الامتزاج والتبلور » بين أجزاء الأمة

العربية التي انفصلت فعلا بحواجز وحدود وقامت فيها حكومات وعروش ونظم مختلفة ما بين ملكية وجمهورية وأمارات وما بين حماية ووصاية وانتداب واستقلال واحتلال.

وبذلك أمكن للتغريب أن يسيطر وأن يحول الحياة الاجتماعية في الأمة العربية تحت ضغط « النزعة المادية » إلى الاندفاع وراء اللذات والمتاع المادى مما أدى إلى إفلاس عدد كبير من التجار وسقوط عدد كبير من أعيان البلاد وهو ما أطلق عليه فريد وجدى « المبالغة في المتاع بالحياة المادية » مما أدى إلى استيلاء الأجانب أصحاب البنوك والأندية على هذه الثروات تحت تأثير التهالك على الشهوات على نحو خطير لم يعرف من قبل .

وقد كان حرص الغرب على نقل هذا الجانب الآثم من حضارته إلى بلادنا خطير الأثر في عملية التغريب والقضاء على كياننا ، وكان أخطر ما فيه من أثر هو القضاء على الكيان الاجتماعي والاقتصادى والنفسى لنا ، مما يجعلنا عاجزين عن الجهاد والنضال في سبيل مقاومة الاستعمار ، ومما يؤدى إلى سحق قوانا وهدم معالم روحنا المعنوية وتطرق الفساد إلى النفوس والوصول إلى درجة التحلل التى تقضى قضاءاً نهائيا على كياننا .

ولذلك كان كتاب الغرب يحرصون على تسجيل هذا المعنى في دراساتهم ومشاهداتهم : يقول روث فرانسيس في كتابه الشرق الناهض « لقد أصبحت البضائع التي تغمر الأسواق الشرقية هي الجوارب الحريرية والأثاث والمفروشات وثياب الشهرة المكشوفة والأحذية العالمية الكعوب . والسيارات والمشروبات الكحلية والمياه المشبعة بالصودا والكتب الأفرنجية .

وقد حرص التغريب أن يربط بين التجديد وبين الأباحة وأن يجعل التجديد هدما دون بناء وأن يكون التجديد في أعمق معانيه هو ترويج البضائع الأجنبية وازدراء المصنوعات الوطنية وهدمها وجعل كل قديم مزدرى .

وكان لضغط التغريب أثره فى أن العربى كان يعرف عن شكسبير وبرناردشو وكبلنج أكثر مما يعرف عن المتنبى والجاحظ وابن الرومى .

وكانت غزوات المفكرين الغربيين لبلادنا إنما تهدف للبحث عن صور مسمومة يراد بها الأساءة ، وإلقاء محاضرات ترمى فيها بالإتهامات حتى أن أحدهم كان لا يتورع عن أن يحاضرنا فى الجمعية الجغرافية عن عقليتنا باسم (عقلية الشعوب المنحطة) أمثال الدكتور ليفى برول ويفسر هذه الشعوب بأنها شعبنا .

والجمعيات الثقافية التى أنشئت فى بلادنا كان هدفها ربطنا بالغرب ، من هذه جمعيات التاريخ المصرى ونادى القلم وجماعة أكسفورد والمجمع الجغرافى والاتحاد المصرى الانجليزى الذى كان يتولى رئاسته اللورد ملنروبرنامجها كما ذكرت الصحف هو « إفهام الرأى العام الانجليزى الخدمات التى أدتها الحكومة المصرية للحكومة البريطانية والحلفاء فى خلال الحرب » كما كان هدف هذه الجمعيات خلق صداقات بين المصريين والفرنسيين من ناحية وبينهم وبين الانجليز من ناحية أخرى تولى رئاستها أجانب ثم مصريين متغربين .

حتى الجمعية المصرية التى أنشئت ١٨٣٦ باللغة الانجليزية كان هدفها كما ذكر توفيق إسكاروس (الأهرام ١٣/١/١٩٢٥) جمع معلومات خاصة بمصر وما لها من العلاقات بينها وبين بلدان أفريقيا وآسيا وأن أعضائها كانوا من الأجانب وأغلبهم الانجليز ، وقد استعملت طبعا هذه المعلومات والابحاث لخدمة الاستعمار البريطانى ومهدت لوضع يده على بلادنا وقد عزا الدكتور محمدحسنى ولاية (الاهرام ٣/١/١٩٣٤) جمود روح البحث العلمى فى مصر إلى وقوعها تحت نير الحكم الأجنبى عصوراً طويلة ومايتبع ذلك من التضييق على ميادين الاقتصادوالعلم والزراعة .

ولا شك أن حركة التغريب كانت تستهدف أن تظل معرفتنا بتاريخنا ناقصة ، مما كان له أبعد الأثر فى ضعف الوطنية والقومية . ولذلك دعا عباس مصطفى عمار

(الأهرام ١/٤/١٩٣٤) الذين يعالجون ضعف الوطنية عندنا ويثيرون الشعور القومى أن يتأكدوا أن الاهتمام بشئوننا السياسية وحدها لا يكفى ، وأن تقوية العقيدة الوطنية إنما يكون بقدر فهمنا لهذا الوطن الذى نعيش فيه من حيث جغرافيته وتاريخيه ومدنيته وحضارته كما أدى التغريب إلى فقدان « الطابع » وانعدام التجانس الفكرى وأن الاستعمار الفكرى حرص على أن لا يصهر فى بوتقة واحدة حتى لا يحدث « التجمع » الذى هو أخطر عوامل مقاومة الاستعمار ولذلك كان يعول كثيرا على أثاره عناصر التفكك والتمزيق والتجزئة مما يحول دون خلق طابع واضح .

وقد كان أبرز عوامل فقد الطابع كما أوردها عباس عمار (الأهرام — ٣/٩/١٩٢٥) هى : احتقار تراث الأجداد والنظر إلى الدين نظرة ليس فيها احترام ولا تقديس والإعجاب بمادية الغرب والسخرية بروحانية الشرق واعتبار كل ما فى الغرب جميل حتى إباحيته ونواحى الضعف فيه وكل ما فى الشرق حقير أن استحق أن ينظر إليه بعين الاحترام يوما ما فزمنه قد انقضى . وقد آن الأوان للتخلص من تراثه ووئده حيا » كما اعتبر ظاهرة الزواج من الغربيات أبعد الأثر فى هذا التفكك لما يؤدى إلى تنشئة الأولاد النشأة الغربية التى لا صلة لها بالشرق والتعلم باللغة الأجنبية وتجاهل اللغة العربية .

ونعى عبد العزيز الاسلامبولى (المعرفة — يولية ١٩٢٣) على مفكرينا التنكر لأبنائنا وأجدادنا وأنكار أدبنا ولغتنا والزراية بتاريخنا وثقافتنا وقطع الصلة بين ماضينا وحاضرنا » وطالب بالتعرف إلى التراث العربى والبحث عن أثاره ومخلفاته من إسلامى وعربى وقبطى وفرعونى فى أديانه وفلسفاته وروحانياته ومادياته . وأنه لا بد للتجديد من شرط الدين والقومية الصحيحة .

وليس أدل على اضطرابنا فى هذه المرحلة إننا احتفلنا بذكرى رينان وهو الداعية الاستعمارى الذى جهر باتهامنا بالقصور وصاحب نظرية الآرية والسامية .

الحملة على العقائد والقيم

انصبت حملة « التغريب » على ثلاث قيم هامة فى الفكر العربى هى : الدين واللغة والتاريخ فقد كان مفهوما أن القضاء على العوامل الثلاث من شأنه أن يحقق لمركة التغريب نصراً بعيد المدى .

الحملة على الاسلام

ولقد كان « الدين » عنصرا هاما فى الفكر العربى ولا يزال دعامة كبرى من دعائمه لا سبيل إلى تجاهل مدى خطرها وأثرها . كانت وستظل عاملا فعالا فى الثقافة والحضارة العربيتين والنهضة التى حققتها . وعندما أصيب الدين بالضعف ودخلت عليه القشور والزيوف والبدع وانتفت عنه عوامل القوة ممثلة فى التجديد والاجتهاد كان مصدر الاضطراب والجمود الذى أصاب الامة العربية والعالم الاسلامى، ولذلك فأن ظهور أول حركة لتجديد الدين ورفع الزيوف عنه ممثلة فى دعوة « محمد بن عبد الوهاب » كان علامة على يقظة الفكر العربى . ولما كان الدين عاملا هاما فى حياة الأمة العربية وكان الاسلام وهو دين الاغلبية قد اصبغ حضارة عربية اسلامية اشتركت فيها جميع العناصر وكان لها أثرها الواضح فى قوة الأمة العربية وهيبتها، ولما كانت عناصر القوة والحرية والكرامة والوحدة والتجمع والذود عن الكيان والجهاد فى سبيل الله من أبرز عناصر الاسلام وهى إذا استيقظت فى الأمة كانت عاملا بعيد المدى فى مقاومة الاستعمار والقضاء عليه لذلك عول الاستعمار فى غزوه الفكرى وحملته التغريبية فى حشد أكبر قواه لزلزلة قواعد الدين والقضاء عليه وعزله عن المجتمع وتحطيم قواعده وإبعاده عن ميدان السياسة

والاجتماع والفكر وسلبه سلطانه وفرض قوانين أجنبية وتشريعات غربية بدلا منه حتى تزول أثاره القويه في مقاومة الاستعمار .

من أجل هذا وجه الاستعمار للاسلام حملات عنيفة قاسية فوصف الاسلام بأنه دين مناف المدنية وأنه ليس صالحا إلا للزمن الذى ظهر فيه ومحيط الصحراء الذى عاش فيه .

وحاول كرومر أن يقنع المصريين والعرب بأنهم لا يمكن أن يرقوا فى سلم الحضارة والتمدن إلا بعد أن يتركوا دينهم وينبذوا القرآن وأوامره ظهريا « لأنه يأمرهم بالجمود والتعصب ويبث فيهم روح البغض .

وردد هانوتو الفرنسى أن تقدم المسلمين مستحيل لأن الاسلام يحول دون ذلك ، وأن كل حكومة انفصلت عن الشرق وسارت على منهج أوربا نجحت وأن «موات» الشرق وضعفه وتخاذله وتواكله « وحياة» الغربى وقوته وانتصاره مصدرها اتصال الأول بالدين وانفصال الثانى عنه ، وأن الرابطة الوطنية أقوى من الرابطة الدينية .

وردد عشرات غيرهم مثل هـذه الاتهامات حول النبى والقرآن والاسلام وزوجات النبى والطلاق وتعدد الزوجات ومجافاة الاسلام للمدنية ، وتعصب الاسلام ومعاملة الاقليات والاجانب .

وجرت فى هذا المجال محاولات نقد للانظمة والشرائع القديمة واتهامها بأنها لم تعد صالحة نظراً لاختلاف الزمن وقيل أن أغلب هذه الانظمة والآراء بدائية وذلك بقصد القضاء على قداسة الشريعة ، وجرت محاولات المقارنة بين الاديان السماوية والاساطير ووضع الـكتب السماوية موضع النقد وايجاد شبه وشكوك وإحياء الاساطير والاسرائيليات والاحتفال بها وتحويلها إلى أدب وفن وتعمد الفصل بين الدين والقومية، والدين والتاريخ، والدين والأدب واذاعة مذاهب متطرفة

فى البحث تدعو إلى عـدم الاحتفال بتمجيد الأمة والغض من تاريخها أو الاكتراث بنصر الاسلام أو هزيمته · ودون التقيد بما ترضاه القومية أو تنفر منه العاطفة الدينية · ويتصل بهذا الحملات التى أثيرت على الغيب وتشكيك الناس فيما يخرج من دائرة المحسوس .

وكل هذا المخطط الذى جرى على ألسنة كتاب الغرب وغيرهم من كتابنا السائرين فى مجرى التغريب يهدف إلى هدم الدين والقضاء عليه والقضاء على الروح المعنوية التى تحمل راية جهاد المحتلين والمغيرين وتفـكيك الرابطة بين المسلمين والقضاء عليها نهائيا وهما الحائلان الهامان أمام اضطرار الاستعمار ونموه وتدعيم مقامه .

وحول هذه النقط ردد الـكتاب الغربيون اتهامات متعددة فندها كتابنا فى ردود قوية ؛ كان أبلغها ما كتبه محمد عبده وفريد وجدى ومصطفى الغلاييني ومحب الدين الخطيب وشكيب وأرسلان وأحمد زكى باشا ورشيد رضا وعبد القادر المغربى .

وكان مجمل الرد على ذلك بأن الشريعة الإسلامية كليات وحدود عامة قابلة للتطور مرنه ،تستطيع مسايرة الحضارة وهى بذلك شريعة لاتصطدم بالواقع وتجرى مع كل زمان وكل أمة ، وقد قام الاسلام على النظر العقلى والاقناع بالحجة : وأقر قاعدة تقديم العقل على ظاهر الشراع عند التعارض والتجاوب مع الزمن وتطور البيئة واختلافها ودعامته فى الحـكم : الشورى ،والحاكم فيه ليس بالمعصوم ولا هو مهبط الوحى وهو مطاع مادام على الحق ورضى المسلمين عنه ، وليس فى الاسلام سلطان الهى . كما ليس فى الاسلام وساطة ولا أكليروس وفيه ــ إلى ذلك ــ تسامح مع العلم وتقبل له ، وتسامح مع الطوائف الأخرى وحماية لحقوقها وحرية اعتقادها وحماية مصالح الدنيا وأباحة الزينة والطيبات والمزج بين الروحية والمادية .

وأن الجمود الذى استولى على المسلمين ليس سببه الإسلام، فجوهر الإسلام الذى دفع الأمة العربية بقوة عجيبه وأنشأ هذه الحضارة الضخمة لم يتغير، وإنما الذى تغير هو المسلمون حين أقفل فقهاؤهم باب الاجتهاد وأخذوا بالتقليد وترويج خرافات وأوهام وثنية نسبت إلى الدين الذى لم يكن فى حقيقته ألا محرراً للعقول والافهام من معانى الوثنية أو معانى الإستبداد، أما المرأة فقد كرمها الاسلام ومنحها من الحقوق فى الحياة والمال والقضاء ما سبق الغرب بقرون طويلة :

الحملة على نظم المجتمع

واتصلت الحملة على الدين بالحملة على نظم المجتمع وهدم الأخلاق واللغة والتاريخ وقد أذيع الالحاد ونشرت الاباحة تحت اسم حرية الفكر بالدعوة إلى التحرر من قيود البيئة والوراثة وكل ما فيها من عقائد وعادات ونظم وقوانين مع التشكيك فى كل العقائد والاراء الموروثة والمتداولة .

وجرت محاولات أخرى لنقل ما حدث فى تركيا من القضاء على اللغة العربية والكتابة بالحروف اللاتينية .

واتصل هذا بالعمل على زلزلة النظام اجتماعى وتحطيم الاسرة . وانتشار المخدرات وظهور الكوكاكين وحماية المحتل له وتجارة الرقيق الأبيض ودور البغاء . وقد ظلت هذه التجارات محتكرة للإنجليز وأعوانهم، ومضت فرنسا وبريطانيا تصدر المورفين والحشيش وتحمى أعمال تسميم الأمة العربية بحاجز ضخم أطلق عليه إسم المحاكم المختلطة والمحاكم القنصلية والامتيازات الاجنبية تحمى المهربين واللصوص والسفاكين ومصاصى دماء الشعوب وفى الصحافة والسينما جرت محاولات متصلة لعرض الصور المنحرفة والمائعة والرخوه وتغليب الحديث عن الممثلات والمغنيات والراقصات وأحاديث الأزياء والسهرات وملكات الجمال واستعراضات المانيكان والحديث عن مذاهب العرى والأدب الماجن والكتابة المكشوفة والاختلاط ووصف الشهوات وأثاره الأهواء وترجمة القصص الاباحية وقد طغا هذا على كل شىء ، وانزوى

الحديث عن المثل العليا والقيم والأفكار الحية والتسامى فإذا جرى حديث حولها فهو عن المذاهب الغربية فى الفلسفة والأدب والاجتماع والترجمة لعظماء الغرب وتمجيد دعاة الاستعمار والالحاد والاثارة .

وحجب التراث العربى والاسلامى وسير أعلام العرب والاسلام وجرى أضعاف النعرة الوطنية والدينية باثارة الشكوك والاتهامات أو بالغض من شأن العاطفيات والحماسة باعتبارها عيب وخطأ أمام المذهب العلمى الحديث .

وقد كان لتعمق تيار التغريب أثره الحياه الفكرية العربية فقد اضطربت الطوائف المختلفة واهتزت أمامها القيم . وانطوى معنى الزهادة والتجرد وغلبت روح النفعية على حد قول داود بركات (لا تجد اليوم الشيخ الأزهرى العالم يكتفى بالجراية مأكلا ولا الزعبوط ملبسا ، ولا تجد الراهب فى عزلته فى صومعته لا يشغله شاغل غير تسبيح ربه) .

ومرجع هذا إلى غلبة النزعة المادية وتسلطها واختفاء روح التجرد والاريحيه .

واتصل بهذا ما جرى من السخرية بالجادين والعاملين واحتقار المتدينين والاكتفاء بقشور الحضارة وغلبة روح التفرنج ، وأعلن كرومر أن المسلم غير المتخلق بأخلاق أوربية لا يصلح لحكم مصر وأن المستقبل الوزارى سيكون للمصريين المتربين تربية أوربية .

وانتهى هذا إلى ضعف الفكر والعلم والدين عن التجرد واستشرى التطاحن والتسابق فى ميادين الماديه وتفشت « المنفعة » والوصولية فى جسم الأمة .

حتى الشبان العرب الذين سافروا إلى أوربا عادوا ليضعوا ثقافاتهم واقلامهم فى خدمة الطبقات الحاكمة والاحزاب والاقطاعيين ممن اسماهم كرومر أصحاب المصالح الحقيقية فقدا كانوا يتطلعون إلى بيئة الساده من الاغنياء والمترفين والوصول إلى المناصب العليا وقد علمتهم الثقافة الأوربية تغليب المنفعة على القيم ولم تكن والدعوة إلى الحرية عندهم مذهبا فكريا ولا عقيدة اجتماعية بل قشوراً لامعة لا تخفى وراءها إلا تدمير القيم الحقيقية لذلك لم يستطيعوا قيادة الأمة وإنما اكتفوا بأن عاشوا على هامش الحكام المستبدين وفى ظلهم .

- ٢ -
حملات التجزئة

كانت حملات تجزئة الأمة العربية من أقوى حملات الغزو الفكرى والثقافى والسياسى التى شنها الاستعمار على الوطن العربى والفكر العربى خلال هذه الفترة كجزء مكمل لحملات التغريب والتبعية الثقافية . كان الهدف هو تقطيع أوصال الأمة إلى دول لها حدود ونظم وقوانين وعملات ومناهج تعليمية مختلفة وصحف ، مع إيقاد نيران الصراع بين هذه الأجزاء وبين ملوكها وأمرائها وحكامها ، ثم « تجزئة التجزئة » وذلك بتقسيم القطر الواحد إلى أحزاب وعنصريات وإثارة عصبياتها القديمة وخلافاتها الدينية والجنسية والفكرية وخلق قوة شعوبية يؤيدها الاستعمار تعمل على مهاجمة القيم والتراث والآراء والعقائد المتعارف عليها وتحطيمها والنيل منها وذلك توسيعا لشقة الصراع وعملا على دعم سياسة التمزيق وتعميق جذور التجزئة .

(الشعوبية)

وقد تركزت فى الشعوبية كل دعوات « التمزيق » و « والتجزئه » وإثارة القوميات الضيقة ، ولما كانت « الأمة العربية » قبل النفوذ الغربى والاحتلال والغزو الثقافى موحدة : ثقافة وأرضا ، فقد حرص الاستعمار أن يثبت أقدامه فيها عن طريق تمزيق هذه الأمة فى دول وجزئيات وإمارات، واتخذ دعوة « الشعوبية » ركيزة لتثبيت هذه التجزئة ، والشعوبيون هم خصوم وحدة الأمة العربية وهم دعاة كل ما من شأنه أن يحول دون عودتها إلى الوحدة مرة أخرى وذلك بخلق قوميات ضيقة ، واتخاذ سلاح الغزو الثقافى وسيلة إلى تفتيت وحدة

الأمة العربية ، كالفينيقية والفرعونية والبربرية وخلق دعوات جديدة كدعوة البحر الأبيض المتوسط والكيان المصرى والكيان السورى والكيان اللبنانى والكيان السودانى .

وقد اتخذ الشعوبيون عديدا من الصور على هيئة كتاب وأحزاب وهيئات وصحف وحملوا لواء هذه الدعوات بقصد التفريق بين العرب والبربر فى المغرب والسوريين واللبنانيين فى المشرق والموارنة والدروز فى لبنان والمسلمين والمسيحيين فى مصر والسنة والشيعة فى سوريا والعراق والعرب والأكراد فى العراق .

وحملت هذه الدعوات لواء التبشير عن طريق البحث العلمى القائم على المغالطات واتخاذ الصحافة والكتابة ودور النشر وبعض الإذاعات وسلطان الحاكمين وسيلة لفرض هذه الآراء والدفاع عن هذه النظريات المضللة .

وقد كان حصاد هذه النظريات الشعوبية ، ما أذيع من أن اللبنانيين ليسوا عربا وأن أصلهم فرنسي والدعوة بأن سوريا أمة تامة ، هذه الدعوة التى حمل لواءها أنطون سعادة ، وأن العلويين بقية من الصليبيين وأن الدين العلوى جزء من الديانة المسيحية . وقد حرص الاستعمار الفرنسى على نشر هذه الدعوات وأيدها ، وكان من ثمارها « سليمان المرشد » أحد زعماء العلويين الذى أمدته فرنسا بالمال عندما أدعى الألوهية (١٩٤٦) كما فتحت فرنسا باب الهجرة للأرمن إلى سوريا وفتحت بريطانيا باب الهجرة للاشوريين من العراق إلى الجزيرة فى سوريا لخلق شعوبية جديدة ، وفى العراق استغلت الشعوبية الخلاف القديم بين السنة والشيعة ، كما عمد الاستعمار إلى خلق صراع بين الأكراد والعرب فى العراق وأجج ثوراتهم وثورات السريان أعوام ١٩٣٠ و ١٩٣١ و ١٩٣٢ وكانت الشعوبية فى فلسطين أشد خطراً فإن تصريح بلفور قد أباح قيام شعوبية عارمة تهدف إلى خلق

حاجز أجنبى بين الأجزاء العربية فى آسيا وأفريقيا وفى مراكش حاولت فرنسا خلق أمة من البربر لا صلة لها بالعرب حتى فى الدين وذلك بإرجاع البربر إلى التقاليد القديمة ، وإيفاد الأرساليات المسيحية إلى المناطق البربرية ومساعدتها فى نشر النصرانية ومنع اختلاط العرب بالبربر وجعل الانتقال بينهما يتم بواسطة جواز سفر . ويعد الحزب القومى السورى أكبر منظمة شعوبية قامت فى الوطن العربى .

دعوات التجزئة

× تجزئة المغرب : البربر والعرب

× تجزئة لبنان : الدروز والموارنة / القوميون السوريون / الكتائب

× تجزئة مصر : المسلمون والمسيحيون .

× التجزئة بالقومية الضيقة : المصرية .

× التجزئة باحياء الماضي القديم (١) الفينيقية

(٢) الفرعونية

× دعوات التبعية : ثقافة البحر المتوسط .

× دعوات التمويه : توحيد الإسلام والمسيحيه .

تجزئة المغرب : البربر والعرب

اتجهت حملة التجزئة التى قامت بها فرنسا لشمال أفريقيا إلى (١) التجنيس (٢) الفرنسة (٣) الأدماج (٤) الفصل البربر بين والعرب .

وكانت حملة التجزئة الأولى هى «التجنيس» وتحويل أهل المغرب (تونس والجزائر ومراكش) إلى فرنسيين وقد فتح باب التجنيس بالجنسية الفرنسية أسوة بما فعلوه فى مراكش واستصدروا فتوى من رجال الدين والعملاء بأن تجنيس المسلمين يتعارض من مع الدين ثم اتجهو إلى «الفرنسة» عن طريق «تمسيح» الشعب العربى ولما باءت هذه المحاولات بالفشل اتجهوا إلى فكرة تمزيق عنصرى الأمة العربية المغربية : البربر والعرب وذلك بالفصل بين البربر وبين لغة العرب وقضائهم وثقافتهم فى اتجاه إلى إقامة ثقافة وقيم منفصلة للبربر تستمد من تراثهم القديم قبل ارتباطهم بالعرب . وقد عمدوا فى هذا إلى البحث عن الروحانية القديمة التى عرفها البربر فى اتصالهم بروما وأذاعوا فيهم الدعوة إلى تحريرهم من سيطرة العرب الروحية والزمنية .

وقد قامت الثقافة الفرنسية الاستعمارية التى تحمل لواء التغريب إلى توجيه الاستعمار نحو هذا العمل حين أشار الباحثان « جود فروى » و « مونبين » فى رسالة لهما عن التعليم إلى خطورة ترك كتلة ملتحمة من المغاربة تتكون ، وتكون لغتها واحدة وأنظمتها واحدة ، وقالا : لابد أن تستعمل لفائدتنا العبارة القديمة « فرق تسد » وإن وجود العنصر البربرى هو آلة مفيدة لموازنة العنصر العربى ويمكننا أن نستعمله ضد الحكومة المراكشية نفسها . وإنه يجب أن تقوم اللغة الفرنسية — لا البربرية — مقام اللغة العربية كلغة مشتركة ولغة المدينة »

ورسمت هذه الدعوة أن تقوم برامج التعليم فى المدارس البربرية على اللغة الفرنسية وتحذف منها اللغة العربية والديانة الإسلامية وأن تكتب اللهجات البربرية بحروف لاتينية . وأن يعلم البربر كل شيء ماعدا الإسلام » وقد بدأت هذه السياسة تظهر (ستمبر ١٩١٤) بزعامه « المارشال ليوتى » مقنن الغزو الثقافى فى المغرب ، وصنو الجنرال فورد فى سورية ولبنان وكرومر فى مصر .

وقد حققت فرنسا الخطوات التنظيمية لذلك حين أصدرت الظهير البربرى الأول ١٩١٩ والثانى ١٩٣١ ومجملهما أن القبائل ذات التقاليد البربرية يجرى عليها الحكم والإدارة بموجب شرعها الخاص وعاداتها أما ظهير (١٦مايو١٩٣١) فقدقضى باغلاق محاكم الشرع الإسلامى بين البربر على أن ترجع قضاياهم إلى هيئة تؤلف تسمى الجماعه تربط مباشرة بالسلطه الفرنسيه وتنصيب قضاة فرنسيين من البربر وأعلنت أنها إنما تفعل ذلك بدعوى احترام التقاليد البربريه .

وافسح الفرنسيون المجال للبعثات التبشيرية بين البربر لتنصيرهم ، ووجهوا حملة أعلامية دعائية إلى البربر على أساس أنهم شعب مستقل عن « الغزاة العرب» ينحدر من شعوب أوربية ، وأنهم أوروبيون أصلاء ، ولذلك يجب أن يرتبطوا مع فرنسا وأن يتجهوا إلى الغرب . وعمد الفرنسيون من ناحية أخرى إلى إحياء العرف والعادات والتقاليد القديمة . واعترفوا بها مصدراً للتشريع المدنى . وأقاموا لهم عملاء وأعوانا من شيوخ القبائل الذين اصبحوا حلفاءهم ويعدوجلاوى باشامراكش الذى حاصر قصر السلطان محمد الخامس نموذجا لهؤلاء الشيوخ .

وهكذا تركزت سياسة التجزئة فى المغرب فى (١) القضاء على مقومات الوحدة بين العرب والبربر (٢) غزو البربر بتمزيق وحدتهم مع العرب فى اللغة والقضاء والثقافة (٣) دفع عدد ضخم من المستوطنين الفرنسيين والأوربيين إلى الهجرة إلى المغرب العربى للقضاء على الأصل العربى وتقليل وزنه ، وبذلك تقوم

ثلاث قوميات أقلها القومية العربية مع اتحاد البربر مع قومية المستوطنين كما اتخذت حركة « التجزئة » وسيلة بالغة الخطورة حين عزلت المغرب العربي من الشرق العربي وعمدت إلى إقفال أبوابه ثقافيا واقتصاديا عن باقي أجزاء الأمة العربية في آسيا ·

كما حالت بين الأجزاء الثلاثة : تونس والجزائر ومراكش بعضها عن الآخر ، وأقامت في كل أقليم سياسة وثقافة وخطط استعمار تختلف عما اتخذته في القطر الآخر ، ولم يستطيع المثقفون في الأقطار الثلاثة من الالتقاء إلا في القاهرة لارتياد الأزهر أو في باريس .

(حركة المقاومة ورد الفعل)

وقد قاوم المغرب بأقطاره الثلاث هذه الدعوات وحطمها في جهاد طويل ممتد وكان عبد العزيز الثعالبي (تونس) هو رائد دعوة الوحدة العربية والربط بين المغرب والعالم العربي وقد قام بجولات متعددة في القاهرة ودمشق وبغداد ودعا إلى توحيد الثقافة بين البلاد العربية وهاجم في القاهرة بعنف أساليب التجزئة والتغريب والتجنيس والفرنسة التي تصطنعها فرنسا في الشمال الأفريقي كما قام المغاربة الذين التجئوا إلى الاستانة برفع صوت المغرب عاليا ضمن الجامعة الإسلامية ، وقد كان للشيخ على باش جمعه والشيخ العتابي أثرها الكبير في الدعوة للشخصية العربية المغربية في السويد والدنمرك والنرويج وقد عقد لذلك مؤتمر في أستكهلم ١٩١٧ .

كما كان لعبد الحميد بن باديس وجمعية العلماء في الجزائر التي قام عليها ، أثرها البعيد في مقاومة هذا الاتجاه وذلك بمكافحة البـــدع والخرافات ومهاجمة « الأيدلوجية » التي أقامتها حملات التغريب لتجزئة المغرب وفصل العرب عن البربر فقد دعمت اللغة العربية بإنشاء المدارس العربية في المساجد والزوايا ·

وكذلك قامت حركة « رد الفعل » والمقاومة للغزو الفكرى على أساس علمى صحيح قوامه العقل والاستقراء فهدمت كل النظريات التي قدمها الغرب وكشفت

كيف أن عنصري الأمة (البربر والعرب) قد امتزجا منذ ألف وأربعمائة عام وأن الفوارق المختلفة قد ذابت كلها ولم يبق لها وجود حتى وأن إطلاق إسم البربر إنما جاء نتيجة تاريخية لإنقسام الدولة الرومانية بعد وفاة الأمبراطور [تيودو سيوس] عام ٣٨٨ م بين بزنطة وروما ، وكان من نصيب بزنطة ما يعرف الآن بالجبل الأخضر من ولاية بنى غازى إلى مصر، أما باقى أفريقيا فقد كان من نصيب رومه وقد أشار البستانى فى دائرة معارفه إلى لفظ (البربر) وقال أنه مأخوذ من لفظ (ورورا) باللغة السنسكريتية ومعناه غريب . ولم يكن لفظ خاص بأمة خاصة بل أطلقه اليونانيون على من لم يتكلم لغتهم وبه سمو إيطاليا (ربار) ثم أخذه الرومان وأطلقوه على من لم يتكلم اليونانية اللاتينية .

وقد جرى تقارب اللغتين العربية والبربرية إلى حد كبير يدركه من له إلمام بهما .

٣ – وكان للحركة السلفية فى مراكش بقيادة « محمد ابن العربى العلوى » دورها كرد على احتضان حركة التجزئة والغزو الفكرى لمشايخ الطرق . وقد حملت الحركة السلفية لواء عملين هامين فى محيط الفكر العربى هما :

(١) التحرر والجهاد ومقاومة الاستعمار، ودعوة الشعب إلى العلم والاصلاح ومقاومة الجمود وتحطيم الخرافات وتربية الشخصية الاسلامية على مبادىء الإسلام (٢) وتكوين وحدة سياسية تحت لواء الروابط الثقافية والعقائدية . كما دعت الحركة السلفية إلى مقاومة الاقليمية والتجزئة وجعل اللغة العربية صالحة لأن تكون لسان العالم العربى كله وصلة الوصل بين سائر أفراده .

الرد على النظرية البربرية

وقد كان مجمل الرد على النظرية البربرية قائماً على أساس ما اتفق عليه النسابون من أن القبائل البربرية ترجع إلى أرومتين مهمتين ، وهما : برنس ومادغيش . بحيث

لايوجد بين البرابرة من يخرج عن هذين الاصلين . فهم أما برانس كالمصامدة وصنهاجه وكتامه أو بتر كنفوسه وضريسه . وقد ذكر المورخون أن البرانس من ولد مازيغ بين كنعان بن حام وأن البتر من ذرية برين قيس، وأن قبائل البربر كانت تسكن الشام وتجاور العرب فى المساكن والاسواق ، فازداد العنصران امتزاجا وتداخلا منذ أقدم العصور ، فالبتر عرب مصريون والبرانس أغلبهم من عرب اليمن . ونص كثير من المؤرخين على أنهم قدموا من آسيا فروا بمصر وليبيا ودخلوا المغرب .

ولم يكد « أدريس » يشارف العقد الثانى حتى جمع حوله من العرب الاقحاح واناط بهم مهمه نشر اللغة العربية بين البربر ، وتعليم القبائل المنضويه تحت راية الادراسة الدين، وسارت اللغة العربية فى أعقاب جيوش (ادريس) فتركزت حيث تركزوا وأن الفضل فى تعريب برابرة الريف لايرجع للادارسة وحدهم .

ومن هذا ينكشف مدى بطلان نظرية العرب والبربر بعد أن امتزجا منذ آلاف السنين .

وهكذا فشلت دعوة التجزئة التى قام بها الفرنسيون فى تونس والجزائر ومراكش لاحياء القومية البربرية .

المراجع

عبد العزيز بنعبد الله — مظاهر الحضارة المغربية .

علال الفاسى — الحركات الاستقلالية للمغرب العربى .

(د) نبيه أمين فارس — هذا العالم العربى .

الاهرام: ٤ أغسطس ١٩٢٥ — شمال أفريقيا وأصول سكانه .

٢ - النظرية الفينيقية (لبنان)

وتعد مؤامرة فصل لبنان عن الأمة العربية من أهم أحداث حركة «التجزئة» التي قام بها الاستعمار عن طريق الغزو الفكري . فقد قامت هذه الحركة على أساسين (١) خلق دعوة فكرية تعتمد على عزل لبنان ، واعتباره قطرا مستقلا له حضارة تتصل بالغرب والبحر الأبيض المتوسط . (٢) خلق قوى حزبية كتائبية تعتمد على الارهاب والقتل تحمل لواء هذه الاتجاه ولا تتورع عن اغتيال أحرار الفكر الذين يقفون في وجه الاستعمار .

ولحملة التجزئة في لبنان تاريخ قديم منذ بدأ صراع الاستعمار حول تقسيم العالم العربي والسيطرة عليه . ووقوع لبنان بين نفوذ فرنسا وبريطانيا ومؤامراتهما ، هذه المؤامرات التي أدت إلى خلق النزاع والصراع بين الدروز والموارنة وهما عنصري لبنان ، وقد امتدت هذه المؤامرة حتى حققت أزمة دموية عام ١٨٦٠ كان لها أثرها في دعم النفوذ الأجنبي وتأكيد سلطان فرنسا وارتباط المارونيين بها وقيام وضع (التجزئة) في لبنان ، وهو ما أطلق عليه « الوضع الخاص للبنان تكفلة الدول الغربية الستة » وقد أعطى السلطان ، لهذه الدول عهدا بأن يكون للبنان وضع إداري وسياسي خاص ولا تزيد علاقته بتركيا عن العلاقة الاسمية ، فقد كان يرشح لبنان حاكميه ويعرض أسماءهم على سفراء الدول التي تحمى استقلال لبنان فيختار هؤلاء السفراء واحداً منهم ويصدر السلطان الفرمان الخاص به .

كان من حق لبنان ألا يدفع أى ضرائب للاستانة أو يجند رجاله أو تمر القوات التركية ببلاده إلا بأذن، ولقد استغلت فرنسا هذا الموقف استغلالا كان بعيد المدى

فى مفاهيم أهل لبنان وتفكيرهم ومحاولة عزلهم عن الفكر العربى والأمة العربية.
فحيث تاريخا قديما ارتبط بتصريحات لويس التاسع إلى بطريرك لبنان التى حاول أن يربط بين لبنان وفرنسا وفى هذا قوله «نحن على يقين من أن هذه الأمة التى وجدناها قائمة تحت اسم القديس مارون إنما هى قسم من الأمة الفرنسية ، لأن إخلاصها للفرنساويين أشد باخلاص الفرنساويين بعضهم لبعض» وقد ضمن لويس رسالته «٢١ مايو ١٢٥٠» تمهيدا بأن تحمى فرنسا لبنان «أما نحن وكل الذين يخلفوننا على عرش فرنسا فنتعهد بأن نوليكم أنتم وشعبكم نفس الحماية التى لفرنسا وبين أنفسهم وأن نعمل على الدوام كل ما هو ضرورى لسعادتكم» وقد ارتبط هذا بموقف المارونية من الحروب الصليبية حيث أمد الموارنة الصليبيين بثلاثين ألف نبال وإذا كان لهذا الخطاب معنى حقيقى فى مفهومنا اليوم فانما هو إخفاء مطامع فرنسا تحت اسم الطائفية وحماية المارونية .

ثم أعلن لويس الرابع عشر (٢٨ أبريل ١٦٤٩) الحماية الفرنسية على الطائفة المارونية .

وعمل الغزو الثقافى الغربى فى حملة التجزئة الضخمة على لبنان إلى محاولة تصوير لبنان بصورة القطر الذى ليس عربيا وليس لاتينيا أوربيا وإنما هو جسر وممر ، وأنه مكون من طائفتين : من المسلمين والمسيحين . وأن كل طائفة منهما تضم طوائف فالمسيحية تضم الموارنة والارثوذكس والكاثوليك والاسلامية تضم: السنة والشيعة والدروز .

وادعت فرنسا أن الشعب العلوى هو بقية من الصليبيين وأن الدين العلوى جزء من الديانة المسيحية وأن اللبنانين من أصل فرنسى .

وأثارت فرنسا دعوى فينيقية لبنان وذلك فى محاولة عزلها عن الأمة العربية

وقد تبين من بعد أن «الفينيقية» هي موجة عربية صدرت من جزيرة العرب كالفرعونية تماما .

وقد حملت البعثات التبشيرية والمرسلين الامريكان والفرنسيين لواء هذه الدعوة لهدفين واضحين : (أولها) التفريق بين جزئي لبنان : المارون والدروز (أو المسيحيين والمسلمين) على نفس النحو الذى اتخذته فرنسا في المغرب (ثانيا) عزل لبنان عن العالم العربي واقامه قومية خاصة به تستمد معالمها ومقوماتها من الكيان القومي الضيق ، والارتباط مع الغرب .

ولذلك فإن فرنسا لم تلبث بعد احتلال لبنان ١٩١٧ أن نفذت منهاجا ضخما للقضاء على عروبة لبنان وعزله من الأمة العربية . بعد أن كان الارساليات الغربية قد تقدمت بهذه المحاولة سنوات تزيد عن ستين عاما .

وكان أبرز معالم ذلك هو : وضع اللغة الفرنسية في مستوى اللغة العربية في الدستور وفي المدرسة والمحكمة والمصرف ، والصحافة ، والكتابه وبذلك خلقت ثنائية فكرية وثقافية أدت إلى كثير من الانحراف الفكري .

كما حاول الاستعمار الفرنسي في غزوته الثقافية القضاء على دعوة القومية العربية التى كان لبنان أول من حمل لواءها ودعا إليها في العشرينات من القرن العشرين ، والحقيقة الثابتة أن المسيحين في الشام وفي لبنان بالذات هم أول من حمل لواء الدعوة إلى القومية العربية ولكن الاستعمار حرصا منه على تمزيق كيان لبنان الداخلي وعزله عن القومية العربية عمد إلى خلق «ازدواج لبنان» بدعم الطابع الطائفي تحت أسم المحافظة على الكيان اللبناني .

غير أن مؤامرة التجزئة مالبث أن انكشفت ، وتبين أولا أن الصراع بين بريطانيا وفرنسا هو الذى خلق الطائفية وعمقها باحداث ١٨٦٠ التى حرضت

عليها بريطانيا وأن الطائفية — كما يقول أدوارد حنين (مجلة : الندوة اللبنانية ٢٢ نوار ١٩٥٠) ليست إلا مزيجا من قشور الدين دون لبه ، ومن شعائر الاديان دون الايمان ، ومن غيرة القساوسة والمشايخ دون رأفتهم . ومن سذاجة اللبنانى دون فطنته ومن عمل السياسة دون وعيها وضميرها ومن خبث السياسيين وقساوة قلوبهم » .

كما تكشفت حقائق الاقتراح بين طائفتى لبنان « حتى أن بعض العائلات اللبنانية الدرزية كانت تربط نفسها بوشائج الأخوة والقربى إلى بعض العائلات اللبنانية المارونية وبالعكس ، وأن ماجرت به العادة بين الموارنة والدروز كان جاريا مثله بين الموارنة والشيعيين وبين المسيحين والمسلمين » .

وتكشف « أن بريطانيا عملت على إزالة المملكة الناشئة فى مصر بالاحتلال وتهديم الامارة المستمكنة فى لبنان بالفتنة » .

وأن الاستعمار بنفوذه قبل احتلال لبنان وبادواته ووسائله بعد احتلاله عمد إلى « اغاء روح التفرقة بين اللبنانين » وقال حبيب أبو شهلا «أن الطائفية فى لبنان معطلة للوحدة القومية ومسببة للتفكك فى الجسم اللبنانى وأن الانانية الطائفية والتوازن الطائفى والمصلحة الطائفة نكبة عظيمة وشر مستطير » وقد تأكد باجماع الرأى أن المطامع الأوربية هى التى مزقت لبنان .

وقد ألقت الاربعينات على لبنان ضياء جديدا حين أعلن استقلال لبنان ١٩٤٣ إذا كان هذا الاستقلال نقطة تحول ونقطة التقاء .

فقد أعلن رياض الصلح أن (لبنان وطن ذو وجه عربى — وأن لبنان لن يكون للاستعمار مقرا ولا لاستعمار الاقطار العربية ممراً .

وكان هذا مقاومة أفكار التجزئة التى تمثلت فى منظمة (الحزب القومى السورى) ثم وجه بشاره الخورى وهو من أصدق الوطنيين الذين حكموا لبنان عند

اعتزاله النظر إلى القومية العربية فقال «لا تحولوا وجوهكم عن دنيا العرب فأن لكم فيها إخوان فكر وقلب ولسان » .

الحزب القومى السورى والكتائب

وقد تركزت هذه الدعوة إلى تجزئة لبنان وعزله عن الأمة العربية فى منظمتين فى لبنان : هما الحزب القومى السورى الذى يعمل فى سوريا ولبنان وحزب الكتائب وهما متحدين فى الأهداف — وأن كان حزب الكتائب فى حقيقته منظمة طائفية متطرفة — غير أنها تحمل نفس الاهداف فى الولاء لفرنسا لا للبنان وفى الايمان بوسائل الأرهاب والاغتيال .

وقد حمل الحزب القومى السورى لواء الدعوة إلى الاقليمية والتجزئه وتزييف الحقائق للقضاء على الوحدة العربية ومقاومة دعوة القومية العربية فالوطن السورى — عند الحزب القومى السورى — هو البيئة الطبيعية التى نشأت فيها الأمة السورية وهى ذات حدود جغرافية تميزها عن سواها تمتد من جبال طوروس فى الشمال إلى إلى قناة السويس والبحر الأحمر فى الجنوب .

وحدد الحزب موقف سوريا من الأمة العربية فقال أنطون سعادة (مارس ١٩٣٨) أن العرب ليسوا فاتحين كغيرهم من الأمم التى مرت بهذه البلاد والفتح لم يغير هوية القومية السورية واندماج القضية السوريه القومية فى القضية العربية كان سببه وقوع بلاد عربية غير سورية تحت التسلط التركى مما ساعد تولد فكرة اجتماع أمم العالم العربى الخاضعة لتركيا على القيام بحركة تحريرية مشتركة » كما وصف العرب بالصحراويين وبلادهم بالصحراء وقال أنهم متخلفون عن بيئة سوريا وعنده « أن الأمة السورية هى الأمة المؤهلة للنهوض بالعالم العربى » .

وجرى الحزب القومى السورى على هدم التراث العربى وأحياء تراث الشعوب

التى حكمت سوريا قبل الإسلام كالاشوريين والكلدانيين والبابليين والحيثيين والفينقيين .

وبذلك حملت منظمة القومين السوريين لواء حملة التجزئة فى لبنان لمقاومة الوحدة بين أجزاء العالم العربى وجرى الأب لامنس فى كتابه عن سوريه على نفس النهج فأعلن أن السوريون أمة تامه وأن القضية السوريه قضية قائمة بنفسها ومستقلة عن أى قضية أخرى . وأن الأمة السورية هى وحدة الشعب السورى والمولدة من تاريخ طويل وأن الوطن السورى هو البيئة الطبيعة التى نشأت فيها الأمة السورية .

وجرى أنطون سماده على نفس النهج فقال بأن الأمة العربية شىء غير قائم فى الواقع وأن هناك شعوباً متعددة تتكلم اللغة العربية . وأن العرب لم يؤثروا فى سوريا أى أثر يذكر ، وإنما هى التى أثرت فى العرب . وهو نفس ماتردد فى مصر بالنسبة للعرب فى الدعوة إلى المصريه الضيقة وإلى الماضى الفرعونى .

ولم تقف منظمة (الحزب القومى السورى) إلى حد إذاعة هذه الأراء والدعوة لها وإنما عملت على فرضها بالقوة عن طريق الأرهاب المسلح والقضاء على من يقف فى وجهها بحجة أن الشعب العربى لا يعرف ما يريد، وهدفها الاتجاه إلى قلب الأوضاع باسم « تغيير عقلية الحكم » . ولو كانت هذه الدعوة مجردة خالصة من التبعية والعمالة للأستعمار والغزو الاستعمارى الفكرى والتغريب لكان هناك مجال لقيام سجال فكرى بينها وبين مبادىء القومية العربية . للكشف عن مدى زيف هذه الآراء، غير أن تأكد الصلة بين هذه المنظمة وبين الاستعمار قد حكم عليها بأن توضع فى صف الاستعمار نفسه كمنظمات التبشير ومختلف هيئات العمل الاستعمارى فى ميدان الغزو الفكرى الغربى .

ذلك أن أنطون سعادة إنما بدأ دعوته إلى فكرة القومية السورية فى المهجر ثم تابع الدعوة ١٩٢٩ بعد عودته إلى وطنه لبنان ثم انشأ فى (١٦ نوفمبر ١٩٣٢) الحزب القومى السورى وكون تشكيلاته العسكريه متأثراً بالفاشيه الايطالية والنازية وعلى أساس الإرهاب والتعصب والاقليمية والخيانه .

وقد أظهر عداءه للكيان السياسى اللبنانى ، فاعتقل مع أعضاء حزبه ، وحكم عليه بالسجن وحل الحزب ١٩٣٧ وعاد إلى المهجر ، وفى أبريل ١٩٤٤ أنشأ أتباعه الحزب القومى الاجتماعى برئاسة نعمت ثابت . فلما عاد أنطون سعادة ١٩٤٧ إلى لبنان رأس الحزب ثم بدا يدخل مرحلة تنفيذ فكرته باحداث انقلاب فى لبنان وفق مخططه الاستعمارى واتصل بالسلطات الاجنبية وانكشفت هذه التحضيرات (يونيو ١٩٤٩) التى اتجهت إلى تسلم الحكم بالعنف حل الحزب وأعلن سعادة التعبئة الشعبية العامة وأعلن الثورة فى لبنان حيث هاجم أنصاره المخافر ودور الحكومة (تموز ١٩٤٩) ثم هرب سعادة إلى دمشق بعد فشل الثورة حيث قبض عليه وحوكم فى ٢٠ يوليو ١٩٤٩ وحكم عليه بالاعدام ، غير أن الحزب عاد مرة أخرى بصورة أخرى كان لها بعد الحرب العالمية الثانية دور كبير فى خيانة أهداف القومية العربية . وكان للحزب تاريخ واضح فى التغريب والتجزئة والعمل للاستعمار عن طريق عصابته الارهابية التى كانت سلاح المستعمر وأداته فى القضاء على الاحرار وقتلهم أمثال : رياض الصلح أول من قال (أن لبنان وطن ذو وجه عربى) وعدنان المالكى داعية القومية العربية فى الجيش السورى ونسيب المتنى الصحفى اللبنانى الحر .

وقد التقى حزب الكتائب اللبنانى مع الحزب القومى السورى فى أهدافه ومخططاته واغتيالاته يؤمنا بأن الاخلاص للقومية العربية خيانة واشتركا فى كل

مؤامرة ضد الوحدة وضد تجمع الأمة العربية وحريتها واتخذوا لهم من لبنان قاعدة ومنطلقا .

وقد أيد الحزبان الصهيونيه فى فلسطين ووقفا فى وجه العمل لتحرير فلسطين وكشفا عن دورهما بالوقوف صراحة فى صف الصهيونيه وهاجموا وثيقة الاستقلال التى أعلنها رياض الصلح واتفقا مع الجنرال كاترو (١٩٤٤) على مقاومة التيار العربى .

وقد عمل سعاده مع الألمان والأمريكان والإنجليز وكان إيمانه بفرنسا أنها «الأم» .

وقد واجه الفكر العربى المعاصر هذه الدعوة بالتفنين والتحليل وكشف عن مغالطاتها وأخطائها وزيفها وعناصر الافتعال فيها والهوى الاستعمارى والتغريبى الواضح فى مخططها .

وأول عوامل الخطأ فى نظرية أنطون سعادة اضطرابه فى تحديد المنطقة التى يعتبرها (الوطن السورى) وتغييره حدود هذه المنطقة عدة مرات بالزيادة والحذف . وأن نظريته قامت على أساس الخروج من نطاق لبنان دون الدخول فى حوزة العروبه ، وزعمه أن سوريا منطقة منفصلة عن الأمة العربية .

فقد عين حدود سوريا ببادية الشام ثم أدخل إليها قسما كبيرا من العراق ثم بلغ بحدودها إلى جبال بختيارى وبذلك أدخل العراق كله فى حدود سوريا وقد فسدت منذ وقت بعيد نظرية العامل الجغرافى فى تكوين القوميات والامم وتأكد أن دعامتى القومية هما اللغة والتاريخ .

ومن مغالطات سعادة معارضته للغة كعنصر من عناصر القومية ورفض القول بأنه متى استبدل المرء لغة جديدة بلغته خسر قوميته ، وقد أعلن نظرية لا تثبت المنافسة وهى أن فى الإمكان أن تقبل الامة لغة جديدة دون أن تفقد خصائصها وهو قول لا أساس له .

واقد كانت الدعوة إلى «التجزئة» وخيانة القومية العربية ، وتأييد الصهيونية وخيانة لبنان العربى باحداث انقلاب ضده . وتأييد المستعمرين كلها من العوامل التى كشفت عن زيف الدعوة فضلا عن سيرها ضد التيار الضخم ؛ تيار التقاء الجزء بالكل وارتباط سوريا الأكيد بالأمة العربية تاريخيا وفعليا .

ويرى ساطع الحصرى أن الدافع الذى دفع أنطون سعاده إلى التحامل على القومية العربية هو (١) أن فكرة العروبة تختلط فى ذهنه مع معانى البداوة والصحراوية (٢) ومع الفكرة الاسلامية (الحزبية المحمدية) فقد توهم أن فكرة الوحدة العربية قناع لهدف أسلامى وهو فى هذا غير سليم النظرة .

نظرية البحر المتوسط (More mostrum)

هذه دعوة من دعاة التجزئة والتغريب معا : وهى ليست قاصرة على لبنان وحده وإنما هى : دعوة « فرنسية » تحاول أن تربط العالم العربى : المغرب بأقطاره ومصر ولبنان بأوربا • بدلا من ارتباطها بالأمة العربية ، وهى إحدى نظريات التجزئة الثقافية وهى دعوة القول بأن لحوض البحر المتوسط وحدة جغرافية وتجارية واجتماعية وفكرية قوامها : الفكر اليونانى والنظام الرومانى والدين السامى وأن الذين ساهموا فى ابداع هذه الحضارة : الفينيقيون أصحاب الفضل فى استنباط الحروف الهجائية ومن نماذج مصرية ويونانية ورومانية وسواهم وقد حاول الاستعمار الفرنسى أن يذيع دعوى أن اللبنانيين ليسوا عربا بل فينقيين وأن حضارتهم هى حضارة البحر المتوسط وأنهم لايمتون للعرب بصلة وقربى إلا باللغة — كما نادى موسولينى أبان دعوته الفاشيه إلى حضارة المتوسط — وقد حمل الاستعمار الفرنسى لواء الدعوة إلى بعث أمجاد الفينيقيين عن طريق الشعر العربى (قد موس — سعيد عقل) وجرت مع ذلك محاولة بعث اللغة العامية واتخاذها أداة الكتابة وقد دعت نظرية البحر المتوسط والاتجاه إلى الغرب بدلا من الاتجاه نحو الشرق والصحراء •

كما حاولت فرنسا تأكيد الدعوة إلى حضارة المتوسط فى المغرب كمحاولة لربط تونس والجزائر ومراكش بأوربا والغرب وفرنسا ووقف تيار الارتباط مع الأمة العربية التى هى جزء منها •

° ° °

وقد واجه الفكر العربى هذه المركة كما واجه أفكار التجزئة الأخرى وأعلن زيفها وشكك فى جديتها ، وقال ذلك أن الثقافة أمر معنوى و يمكن ربطه بالعوامل الجغرافية .

كما تبين أن الفينيقيين فرع من الأمة العربية ، وأن الحضارة الفنيقية جزء من الحضارة العربية . وأن العرب عندما دخلوا معترك التاريخ سيطروا على البحر المتوسط وحولوه إلى بحر عربى . وكان لثقافتهم أثرها فى شاطىء البحر الأبيض المواجه ، فقد تأثرت إيطاليا وفرنسا وأسبانيا بهذه الثقافة .

٤ - المسلمون والمسيحيون : مصر

اتخذ الاستعمار الانجليزى فى مصر من قضية الأقليات نقطة إرتكاز فى « مؤامرة التجزئة » فقد أثار الخلاف بين المسلمين والأقباط وأدعى حماية الأقباط وخلق مشكلة الأكثرية والأقلية ، وبينما كان المصريون يعيشون فى ظل مجتمع متحد قبل الاحتلال ، حرص الإنجليز على ضم فريق المسيحيين إليهم وخلقوا لهم وضعا معينا فى مختلف ميادين العمل والتعليم .

وقد سجل المؤرخون الأوربيون والمنصفون سماحة المسلمين إزاء الأقليات وإن الإسلام أكد حقوق أهل الكتاب ، غير أن النفوذ الغربى اتخذ من حماية الأقليات وسيلة للتدخل لتوطيد أقدامه ، وخلق عديدا من المشاكل والخلافات والفتن بين الطوائف المختلفة .

وكانت لبنان أبرز مثل لقدرة الاستعمار على استغلال الخلاف بين الموارنة والدروز ، أما فى مصر فأن الموقف قد اختلف عن ذلك نظراً لليقظة وضبط النفس والقدرة على إفساد الخطة التى حاولها الاستعمار .

وقد شهد بذلك غوردو كاتنج (١٩٢٩/١٠/٢٧ — الأهرام) فقال إن الأقليات المسيحية واليهودية كانت تعامل على الدوام خير معاملة فى البلاد الإسلامية إلى أن تأتى دولة أوربية وتستخدم تلك الأقليات لقلب الحالة .

وقد كان للاقباط منذ تعريب مصر مكانة مرموقة حيث كان إليهم إدارة البلاد وأعمال المال وبينما اختص الأتراك بالمناصب العسكرية والأدارية واختص

المسلمون بالقضاء اختص المسيحيون بأعمال المال ، ولم يكن عدد الأقباط عام ١٩٠١ يزيد عن عشر سكان القطر بينما كانوا يحتلون ٤٥ فى المائة من الوظائف ويحصلون على ٤٠ فى المائة من المرتبات ، بينما لم يزد نصيب المسلمين منها عن ٤٤ فى المائة وقد أحرز عدداً منهم الباشوية ، وكان أول قاض قبطى هو (عبد الملاك كتكوت) بمحكمة قنا الأهلية كما عين يوسف عبد الشهيد مديراً لديوان القضايا بمديرية المنيا ومرور بك وكيلا لمديرية الدقهلية وكان ذلك رمزا لاتحاد البلاد كما ألف الأقباط الجمعية الخيرية القبطية برئاسة قرياقص مفتاح .

غير أن الاستعمار البريطانى بدأ يدس بين والمسلمين الأقباط على نحو يفهم منه أن هناك أقلية وأكثرية وأنهم - أى البريطانيين - يراعون فريق المسلمين كما يحمون فريق الأقلية ، وذلك حتى يجعلوا نفوذهم مرجعا للفريقين ؛ وقد بدأت سنة ١٩٠٧ حملة صحيفة قادتها صحيفتى « الوطن ومصر » المسيحيتين حيث هاجمتا الإسلام هجوما عنيفا اضطرت معه اللؤاء والمؤيد للرد عليها فكتب اللورد كرومر فى تقريره (١٩٠٨) يقول أنه يوجد فرق ظاهرى شاسع بين المسلمين والأقباط . ولكن هذا الفرق لا يكاد يذكر فى الواقع . غير أن الضرورة تحتم أن الأقلية تتأثر بالأغلبية » وتحت ضغط الإشاعات التى روجها المستعمر بأن هناك دستور سيوضع وستهمل حقوق الأقلية ، رفع الأقباط إلى كرومر عام ١٩٠٨ مذكرة ضمنوها أربع مطالب :

١ — المساواة الكاملة مع المسلمين فيما يختص بالتعيين فى الوظائف .

٢ — أغلاق المحاكم يوم الأحد .

٣ — تعيين عضو آخر فى الجمعية الاستشارية .

٤ — تعليم الدين للطلبة المسيحيين فى المدارس الأميرية .

وقد قبلت السلطات المطلبين الأول والثالث . تبادلت جريدتى المؤيد واللواء التهانى لهذه الخطوة نحو المساواة الاجتماعية .

غير أن الاستعمار البريطانى لم يشأ أن يلتقى الأقباط والمسلمون فوسع شقة الخلاف حيث أزال إمتياز المسيحيين فى العمل المالى وأخذ يدفع المسلمين إليه (توفيق حبيب وجاك تاجر (ك) أقباط ومسلمون) ثم لم يلبث أن عين بطرس غالى رئيسا للوزراء (١٣ نوفمبر ١٩٠٨) وقد كان هذا عملا مستغربا إذ أنه لأول مرة يرأس الوزارة مسيحى فى بلد له أغلبية مسلمة ، وقد أثار هذا عاصفة من النقد فى مجال الصحافة ، وإن كان بطرس غالى عندما سألته الصحف المسيحية عن مطالب المسيحيين لم يشأ أن يعلن عن وجهته واكتفى بأن قال أنه لا ينوى التدخل فى هذه المسألة . وكان بطرس غالى قد رأس المحكمة المخصوصة لمحاكمة أهالى دنشواى ووقع مع كرومر اتفاقية السودان ١٨٩٩ التى قضت على كل صلة لمصر بالسودان وقد كان هذا كله مما أعده الانجليز للوصول إلى النهاية التى وقعت بعد إذ تقدم شابا متحمسا من شباب الحزب الوطنى فاغتال رئيس الوزراء ٢٠/٢/١٩١٠ وإن كان قد ثبت أن هذا الشاب كان مدفوعا بمفاهيم السياسة لا بالعاطفة الدينية .

وبذلك وصل الانجليز إلى غايتهم فى تعميق شقة الخلاف، وكان مصطفى كامل من قبل قد حاول أن يجمع بين عنصرى الأمة . وضم إلى حركته عدداً كبيراً من أعيان الأقباط أمثال ويصا واصف ومرقس حنا وهو القائل « إن المسلمين والأقباط شعب واحد مرتبط بالوطنية والعادات والأخلاق وأسباب المعاش ولا يمكن التفريق بينهما مدى الأبد . وإن الأقباط أخوة لنا فى الوطن وقد شهد (مرقس حنا) بعد وفاة مصطفى كامل بأنه هو الذى « أرانا طريق الحرية والإخاء وأفهمنا أن الاتحاد هو السلم الأول للوصول إلى الحرية والاستقلال »

وقد أمكن أن يلتقى نخبة من رجال العنصرين فى مؤتمر عام استنكروا فيه عمل تلك الفئة التى اتجهت إلى استعداء سلطات الاحتلال. بيد أن الاستعمار استطاع أن يدفع الغلاة إلى العمل على أثارة الخلاف مرة أخرى وتعميقه وأعانت على ذلك الصحف الأوربية فى الخارج والأفرنجية فى مصر التى وصمت المصريين المسلمين بأقبح النعوت (إبراهيم عبده تاريخ الأهرام ص ٣١٠) وقد كسب الاستعمار من هذه الفرقة أن شغل المصريين عن الجهاد الأساسى الذى يقوم ضد الاحتلال إلى الانقسامات والخلافات المذهبية .

ثم عقد الأقباط مؤتمرهم فى أسيوط (مارس ١٩١١) وتم به إعداد مطالب خمسة هى :

(١) راحة يوم الأحد .
(٢) المساواة فى الوظائف .
(٣) تشخيص العناصر القبطية فى الهيئات النيابية .
(٤) المساواة فى التعليم فى مجالس المديريات وأعانة مدارس الأقباط .
(٥) الانفاق من الخزينة المصرية على جميع المرافق المصرية على السواء .

وقد واجهت صفوة رجال الأمة هذا المؤتمر بالتسامح ولم تشأ أن تعقد مؤتمرا يحمل إسم المؤتمر الإسلامى حتى تفسد على المستعمر خطته فى التفرقة بل عقدوا مؤتمرا «مصريا» ضم المسلمين والمسيحيين فى مصر الجديدة برئاسة رياض باشا (مايو ١٩١١) وقد رفض هذا المؤتمر تقسيم الأمة المصرية إلى عنصرين أكثرية إسلامية وأقلية قبطية ودعا إلى وحدة الأمة السياسية وسجل هذا فى عبارة مضيئة : « إن لكل أمة دينا رسميا . ودين كل أمة هو دين الأكثرية منها ومن غير المفهوم أن يكون فى الأمة أكثر من دين رسمى واحد وعليه فلا معنى للاعتراف بأقليات دينية تعمل فى السياسة بهذه الصفة » .

وبذلك حطم المصريون مؤامرة « التجزئة الدينية » بعد أن استمرت أكثر من ثلاث سنوات .

* * *

وعندما طالبت مصر بحقوقها بعد الحرب العالمية الأولى ، ومنعت بريطانيا المصريين من حضور إجتماعات مؤتمر الصلح ، هب المصريون جميعاً مسلمين ومسيحيين فى ثورة ١٩١٩ : وكان القساوسة ومشايخ الأزهر يتبادلون الخطابة والدعوة إلى الحرية الوطنية فى الأزهر والمساجد والكنائس وكانت الأعلام التى رسم عليها الهلال والصليب تظهر متعانقة فى كل مكان ، وسجلت الحركة الوطنية مبدأ واضحا هو : الدعوة إلى حرية مصر على أساس أن الجميع مصريون ، ولما أصدرت بريطانيا تصريح ٢٨ فبراير من جانب واحد لم تنس أن تنص على أن من المسائل المعلقة بينها وبين مصر « حقوق الأقليات » وعندما بدأ وضع الدستور دس الاستعمار البريطانى دسائسه مرة أخرى بين المسلمين والأقباط فظهر اتجاه يدعو إلى تحديد تمثيل نسبى لجميع الطوائف الدينية : وقال أنصار هذا النظام (جاك تاجر — أقباط ومسلمون) إنه إذا ضمنوا للاقليات الدينية تمثيلا ثابتا فى الجمعية الوطنية فإنهم يمنعون بذلك الانجليز من التدخل فى شئون مصر الداخلية بدعوى حمايتهم للاقليات ، وقد أيد هذا بعض المسلمين غير أن أغلبية الأعضاء عارضوا هذا الاتجاه كما عارضه المستبشرون من المسيحيين : وكان الرأى أن هذا لو تحقق سيبقى على الانقسامات القديمة ويضعف الوحدة القومية ، وقد جرت مساجلات طويلة فى الصحف فى هذا الشأن حمل فيها لواء الدعوة إلى تحديد التمثيل « توفيق دوس » ومن شايعه وحمل لواء الدعوة إلى الاطلاق (عزيز ميرهم) ومن شايعه .

ومما كتبه عزيز ميرهم فى هذا الصدد تحت عنوان حماية الأقليات (افتتاحية الأهرام ٨ مارس ١٩٢٢) قوله « لا أنكر أن فى مصر أقليات من قبط وعرب ويهود وطوائف من المسيحيين الشرقيين وإن كثيرا من هذه الأقليات يتمتع بقوانين خاصة وامتيازات مختلفة من التمثيل فى الهيئات النيابية ، وقد وجدت هذه الأقليات بحكم أسباب تاريخية لا تختلف كثيرا عن الأسباب التى انتجت ما يشابهها من الأقليات التاريخية فى بلاد الغرب . من هذه الأسباب قيام الوطنية فى الماضى على أساس الدين قبل قيامها على وحدة الدم والتاريخ والوطن . وإنما تقدم الغرب على الشرق فى فكرة بناء الوحدة القومية على أساس وحدة الدم والتاريخ والوطن . أما فى الشرق فلتساهل الدين الاسلامى وتسامحه لم يمنع الإسلام الطوائف غير الإسلامية من المعيشة والانتشار فى جواره . » ثم أشار إلى الصعوبات التى وقعت بين طوائف من الأديان فى الشرق وقال إن هذه الخصومات لم تكن إلا أعمالا فردية وقتيه ، وقد وضع الإسلام منذ نشأته قاعدة حريه الدين وأجاز للطوائف غير الإسلامية حق مباشرة شئونها الداخلية بنفسها . وإن مصالح الأقليات فى مصر مضمونه ضمانا تاما من مدة مديدة ومنها تمتع الأقباط فى مصر بالأنظمة الدينية الخاصة بهم والتمتع بشعائرهم الدينية وحق بناء المدارس والكنائس والأديرة من غير قيد ، وحق امتلاك الأملاك الموقوفة عليها وإدارتها .

وقال إن إدعاء بريطانيا حماية الأقليات إنما يفتح باب الدسائس واسعا ، وأشار إلى الأساليب التى يستعملها الانجليز تحت ستار حماية الأقليات للتفريق بين الطائفتين ، وقال إن الأمه المصريه قامت تنادى بمبدأ واحد وأن جميع عناصرها قد التقت فى وحدة المطلب ووحدة الوطن وإن مثل هذا الإجراء — تحديد نسب التمثيل — تدخل معيب تأباه كرامة شعب يريد الحياة » .

وعادت الأهرام فسجلت شعور المصريين (٩/٣/١٩٢٢) ورغبتهم فى إلغاء مذهب الاكثرية والأقلية الذى خلقه الانجليز وابتدعوه « ليغروا به ضعاف النفوس وضعاف العزائم حتى يستميلوهم إلى قوتهم فيكونون خدمة لهـــا فى ما تطمع وتريد » .

وقد نص دستور ١٩٢٣ على المساواة التامة بين جميع المصريين أيا كان دينهم أو عقيدتهم كما نص على حريتهم فى ممارستهم لشعائر دينهم وقبولهم بالوظائف الحكومية . وجرت التقاليد على أن يكون دائما ضمن مجلس الوزراء وزير قبطى .

ولكن بريطانيا لم تتوقف عن إثارة النعرة الطائفة فترددت تحذيرات الصحف منها فى سنوات ١٩٢٨ و١٩٢٩ معلنة «أن الأكثرية والأقلية بضاعة من بضائع أوربا السياسية تصنع للتصدير إلى الخارج وترسل إلى الشرق التعس الذى ألقى فيه هذا الميكروب منذ دهر بعيد فغفل عنه وعمل عمله . وإن الشرق لم يعرف فى أبان مجده وحضارته مثل هذه التفرقة ، وقد سجل « جاك تاجر » فى كتابه أقباط ومسلمون : إن الإندماج بين المسلمين والمسيحيين فى الحضارة والثقافة قد بلغ حداً بعيداً وأن تقاليد المسلمين فى مصر لم تخل من الأثر الفرعونى ، بينما طبع الاسلام بروحه الأقلية القبطية التى ظلت متمسكة بالمسلمين ، وقد كف الأقباط عن التكلم بلغتهم وتعلموا اللغه العربية ونقلوا عباداتهم فى الكنائس إلى اللغة العربيه أيضا وما حل القرن الثانى عشر حتى أصبحت كلها تتحدث باللغة العربية ، كما أخذ الأقباط عن المسلمين ختان الأطفال كما تشبهوا بالمسلمين من حيث المظهر وهو ما عجز عنه اليونان والرومان من قبل الاتراك من بعد وكان هذا علامة على امتزاج العرب بالأسر المصرية وإلتقاء المسلمين والمسيحيين فى وحدة حضارية وثقافية كاملة .

التجزئة بالقومية الضيقة : المصرية والفرعونية

كانت حملة التجزئة بخلق القوميات الضيقة جزءاً من خطة التمزيق والقضاء على وحدة الفكر العربى وخلق وحدات فكرية أقليميه ضيقة تقوم على أساس المفاهيم المحدودة بحدود كل أقليم بحيث تصبح هناك نزعات وفلسفات ضيقة: مصرية وسورية ولبنانية وعراقية وتونسية ومغربية وهكذا ،وقد تمثلت هذه المفاهيم فى التغنى بأنهار الاقليم وجباله وأثاره وعلاماته المميزة على أساس أنه شخصية مستقلة منفصلة وبلغ هذا العمل مداه فى معاداة مفاهيم الأقطار الأخرى ، فمصر غير العرب ولبنان غير سوريا وتونس غير مراكش كما جرت محاولات للفصل بين كل قطر على أساس أن لكل قطر مقومات خاصة وعلامات مميزة فكرية وجنسية ونفسية، وأن كل قطر شعب ، وكل أقليم له جنس وحضارة وماضى وتراث ؛ وكانت كل هذه المحاولات مصطنعة مفتعلة حيث كانت الأمة العربية منذ قرون «وحدة» فى فكرها ومقوماتها تتلاقى فيها جميعا بتراث مشترك وتاريخ واحد ولغة واحدة .

وقد كانت دعوة التجزئه بالقومية الضيقه أقوى ماتكون فى مصر ، ذلك لأن مصر سقطت فى يد الاستعمار منذ ١٨٨٢ مبكرة عن العالم العربى كله ماعدا الجزائر ، ولذلك كانت عملية الغزو الثقافى لعزلها عن الأمة العربية بعيدة المدى ، وكانت عملية تغريبها وردها إلى ماضيها القديم السابق على ماضيها العربى باسم أحياء مجدها والتغنى بعظمة الأهرام وأبو الهول التى لا مثيل لها فى العالم .

وقد ارتبطت الدعوة إلى القوميه المصرية الضيقة بالدعوة الفرعونيه وأحياء ماضى مصر القبطى . وقد حشد الاستعمار لبث دعوة الفرعونية كل القوى : فكانت الصحف التى تسير فى ركابه تدعو كل يوم دعوى الفرعونية وتربط مصر الحديثه بماضيها القديم وتتحدث عن الحضارة الفرعونية كما تبرع روكفلر بعشرة ملايين

دولار لإنشاء متحف للاثار الفرعونية فى مصر ومع ذلك الجهد المتبدل فقد ظلت الدعوة الفرعونيه غامضة ، حيث لم يكن هناك تراث فكرى حقيقى يمكن أن تقوم على أساسه الدعوة .

وكان من أبرز الاخطاء تجاهل الحقيقة التى تقوم على أن الفرعونيه عصراً من العصور وليست جنسا من الاجناس .

وظن البعض أن الهدف أن تحيا مصر اليوم حياة مصر منذ خمسين قرنا مضت تعيش كما كان الفراعنة يعيشون . أو أحياء الفرعونية فى الفن والأدب أو ترك الدين الذى تدين به الغالبية أو اللغه التى تكتب بها .

وقد قيل فى مجال خلق المقارنة أن الغرب لم يستطع إقامة حضارة قوية الدعائم إلا بعد أن وصل بينه وبين حضارة اليونان والرومان .

وعارضت صفوة المفكرين أن يكون الفن المصرى فرعونى ، لأن الفن الفرعونى إنما هو فن وثنى قائم على التهاويل والأساطير والخرافات .

ووجد الفكر العربى أن الفرعونية لا تتمشى مع روح العصر ، إذا لم يكن لها ثقافة ، وأنها توقفت منذ ظهور الاسلام وجمدت ، وفصل بيننا وبينها تاريخ إيجابى الفعالية قوامه : اللغة العربية والاسلام .

— ٢ —

لم تكن الدعوة الاقليمية أو دعوة التجزئه قاصرة على دعوة واحدة وإنما تعددت دعواتها وتنوعت ، فكانت هناك (١) الدعوة إلى المصرية (٢) والدعوة إلى المصرية الفرعونية القبطيه (٣) والدعوة إلى المصرية النيلية — ومن الناحية الأخرى كانت هناك دعوات الوحدة العربية والجامعة الاسلامية والرابطة الشرقية .

وكان الهدف من إثارة هذه الدعوات جميعها ومناقشتها فى الصحف والتركيز

على أحداها بعد الأخرى ، وقيام دعاة لهذه وتلك ، ومحاضرات وكتب وأحاديث ؛ كان الهدف من ذلك كله جو من البلبلة والتمزيق للفكر العربي ، وتفسيخه حتى يعجز عن السير في تياره الطبيعي وأداء واجبه .

وكان الاستعمار البريطاني في مصر حريصا على التركيز على دعوة القومية الضيقة بأنواعها للوقوف بها ضد القومية العربية التي كان معروفاً أنها الاتجاه الطبيعي والمجرى الاساسي العميق الذي يؤدي إلى تضامن سائر دول العالم العربي في وحدة سياسية وهو ما يحرص الاستعمار على إفساده . كما حرص الغزو الثقافي في مجال التجربة إلى أن يحمل الأقباط لواء الدعوة إلى القومية المصرية ذات اللون الفرعوني المرتبط بالقبطية، بينما يحمل المسلمون لواء الدعوة إلى القومية المصرية ذات اللون النيلي أو اللون الاسلامي .

وكان لظهور الأفكار القومية في أوربا أثره في الاتجاه إلى دعوة القومية ، غير أن الاستعمار حصر هذه الدعوة في المجال المحلي الضيق ، وبذلك ظهرت دعوة « تمصير » الفكر وعزله عن الفكر العربي تأثرا بالمفاهيم الأوربية، ومحاولة خلق صورة ذات ملامح للقومية المصرية والشخصية المصرية قوامها ميل المصريين إلى التدين وتمسكهم بعادات اجتماعية معينة ، وهي صورة لا تزيد عن أنها جزء من صورة القومية العربية والشخصية العربية. فقد كانت ملامح الاجزاء العربية كلها متحدة في المشاعر والتقاليد والاخلاق والفكر والتأثر بالاحداث المختلفة نتيجة للركيزة الأساسية من الثقافة العربية والتراث الإسلامي والأديان والتاريخ المشترك.

وجرى في ظل هذه التيارات الدعوة إلى الأدب المحلي الذي يصور الحياة المصرية وحدها ، وجرت الدعوة إلى اللغة المحلية والانفصال عن اللغة العربية الام والعصبية للاقليم وتفضيله ورفعه فوق كل أقليم .

وجرت الدعوة إلى « مصر المصريين » وكانت تحمل هدف فصل المصريين عن الأمة العربية وعن جيرانها فقد هاجم دعاة القومية الضيقة أولئك الذين هبوا لمساعدة الليبيين من أهل طرابلس الغرب عند الهجوم الايطالى عليهم وقالوا أن على المصريين ألا يتأثروا بعواطف غير منبعثه من أقليمهم وحده .

وحملت دعوة مصر المصريين الكراهية للارتباط بالعرب أو المسلمين أو دعوة الخلافة وكانت مثل هذه الدعوة تجرى فى سوريا والسودان وفى كل مكان بدأت فيه حركة مقاومة الاستعمار .

ولم يشأ أحد أن يرى الطريق الصحيح بعيدا عن العاطفة الاقليمة العصبية المندفعة بفعل الغزو الثقافى وتحت رداء التجزئة ويفهم أن الوحدة المصرية عمل نافع لإلغاء الخلافات المذهبية والحزبية والارتفاع عليها كمقدمة لتكوين حلقة من وحدة أكبر كالوحدة العربية ، إنما كان الدعاه يرون ان مصر وحدة مستقلة ، منفصلة تقوم على أساس الهرم أو النيل فقط وتحمل الكراهيه للعرب ولكل ما هو عربى وترى أنهم دخلاء غزاة كاليونان والرومان .

وكانت الحركة الفكرية قد رسمت خطة لدعم هذه التجزئة بدعوة القومية المحلية بدراسة الكتابات الهيروغليفة وتاريخ الفراعنة والربط بين العصر الفرعونى والعصر القبطى .

واستهدف هذا العمل القول بأن مصر أمة مستقلة لها مقوماتها العقلية والاجتماعيه ، وأنها ظلت معزولة عمن جاورها ، تفصل بينها وبين جيرانها البحار والصحارى وأن الصحراء تحيطها شرقاً وغرباً وأنها نمت منفرده منذ أقدم الأزمان كوحدة تاريخية منعزلة لها تراث خاص وتقاليد مستقلة .

وكانت تحاول أن تصور العرب بصورة مزرية ، هى صورة أولئك الاعراب

الذين يقيمون فى الخيام ويرعون الاغنام ، وهى صورة غير صحيحة أطلاقا فالامة العربية فى حضرها لا تقل من حيث المدنية والحضارة والثقافة عن مصر ، وأن بغداد ودمشق والمدينة وطرابلس والخرطوم وتونس ومراكش والجزائر لا تقل من حيث الحضارة والثقافة عن القاهرة . وأن لكل قطر حاضرته وباديته .

١ — الدعوة المصرية

كانت الدعوة إلى « المصرية » تحمل هدف إقامة أدب محلى وفن فرعونى . وأحياء التاريخ المصرى القديم فى حلقاته الثلاث : الفرعونية والقبطية والرومانية واعتبار العرب غزاة كالفرس والترك والانجليز . والعمل على تمصير كل شىء : اللغة والفكر والتاريخ . وقد ارتبطت الدعوة إلى المصرية بالدعوة إلى الماضى الفرعونى فى سبيل ذلك أبحاث عن عظمة الحضارة المصرية القديمة ، وكما جرت أبحاث أخرى لمحاولة إثبات أن المصريين ليسوا من العرب ولا من الشرق ولكنهم من دول البحر الابيض يرتبطون مع الغرب ومع أوربا فى العقلية والثقافة وتركيب الجمجمة والبشرة ، وكان الدكتور محمد شرف قد أذاع أن المصريين أمة غير شرقية وأن جماجم المصريين تشبه الشعوب التى عاشت حول حوض البحر الأبيض فى جنوب أوربا ولا علاقة لهم بآسيا أصلا . وقال أنه من البحث فى الدم يتضح أن المصريين هم من الطراز الادرى من ٢ إلى ٤ وليسوا من الطراز الاسيوى . ويمكن القول أن مصر الحديثة هى نفسها من سلالة مصر القديمة وأن الفحص عن الدم أثبت أنها غير أفريقية وغير اسيوية وأنما أوربية وردد سلامة موسى أراء اليوت سمث التى أذاعها فى كتابه المصريون القدماء The Ancient Egyptians بما يفيد المشابهة بين المصريين وسلالة البحر المتوسط والتى تقول بأن شعوب البحر المتوسط من جهاته الأربع تنتمى إلى أصل واحد وأن قدماء المصريين وقدماء الانجليز يرجعون إلى سلالة واحدة . كما أن هناك كلمات فرعونية

تتفق لفظا ومعنى مع الـكلمات الانجليزية الحديثة، وأنه ليس هناك فرقا بيننا وبين الاوربيين في السلالة والدم · وأنه لذلك ليس بيننا وبين الاوربيين خصومة فنحن وهم ننتمي إلى أصل واحد ونتفق في المزاج النفسي والذهني ونختلف قليلا في الاخلاق لاختلاف الاحوال الاقتصادية وليس هناك فرق ألا أننا نعيش حضارة زراعية وهم يعيشون حضارة صناعية » ·

وليس معنى هـذا القول إذا نظرنا إليه نظرة مجردة — ألا أنه دعوة لنا إلى قبول الاستعمار البريطاني والتغريب والغزو الثقافي والانفصال عن الأمة العربية والاسلام والشرق ، باعتبارنا جزء من أوربا وبيننا وبين بريطانيا نسب قديم وهو معنى استعماري ودعوة إلى قتل روح النضال الفـكري والمقاومة السياسية ·

وإذا كانت الدعوة إلى « المصرية » الضيقة هي في حقيقتها دعوة تغريبية فإنها قد حققت بعض جوانب اليقظة للفـكر العربي إذ خلقت الدعوة إلى الاستقلال عن الفـكر الغربي وعدم نقله نقلا آليا أو سيطرته على ثقافتنا · فقد ظهرت صيحات تطالب بأن علينا أن نمصر الفن والادب فلا نقتبسه من الأدب والفن الاجنبيين ، أو اعطائه روحا أيطالية أو فرنسية فإن ذلك يمسخه مسخا على حد تعبير عبد الله حسين (الاهرام ١٦ / ٥ / ١٩٢٣) ·

فهو يرى أننا نقتبس من البلاد الاوربية علومها الحديثة واختراعاتها وسياراتها وقاطراتها واقتصادها ، ولـكننا يجب لا نواصل الإمعان في اقتباس الفن الاوربي وجعل النهضة الفنية في مصر قائمة على رقابة اجنبية · · ذلك أن الفن كالشعر والأدب والعادات من مشخصات القوميه فإذا جعل الفن أجنبيا آذينا قوميتنا وحكمنا على فننا بالعقم واستحال علينا النهوض » ا هـ ·

كما أن الدعوة إلى القومية المصرية بالرغم من خضوعها للغزو الثقافي الغربي

قد أعانت على تحقيق وحدة عنصرى مصر مما أعان على مقاومة خطة الاستعمار بالتفريق بينهما ، غير أن الدعوة إلى المصرية بالرغم من — الاقلام المتعددة القوية ذات النفوذ والصحف الكبرى التى كانت تظاهرها — لم تستطع أن تقدم مخططا واضحا لها ينفصل انفصالا تاما عن الأمة العربية ، ذلك لأن عناصر الفكر العربى كلها كانت عميقة التغلغل فى أى دعوة قومية مهما كانت ضيقة وجزئية ،وأن الفصل بين الدعوة المصرية وبين الأمة العربية أو الفكر العربى أو اللغة العربية أو التاريخ العربى كان أمر ميئوساً منه ، وأن محاولة الارتباط بتراث فرعونى كان مستحيلا . وأن المحاولات التى جرت لإحياء ذلك التراث أو بعثه او أمجاده لم يكتب لها أى نجاح فضلا عن ذلك الهجوم العنيف الذى لقيته الدعوة ودعاتها من مثقفى العالم العربى على أساس من العلم لاالعاطفة .

وقد كان من أبلغ المتناقضات أن دعاة التغريب كانوا فى الوقت الذى ينكرون على المصريين الارتباط بالتراث العربى وهو الماضى القريب الحى المتصل بحاضرنا باللغة والدين والتاريخ ، يدعونهم إلى الارتباط بماض أشد ايغالا فى القدم يبعد عنا خمسة آلاف سنة وليس له قيم ولا تراث ولا ثقافة وقد انقطعت رابطته وزالت بعد ظهور الاسلام وتعرب مصر .

٢ — التيار الفرعونى

كانت الدعوة الفرعونية فى مصر والفينيقية فى لبنان والاشورية فى العراق : دعوات تجزئة وانفصال تقوم على أساس إحياء الماضى القديم وبعثه ، وإلغاء الماضى العربى الطبيعى واعتبار العرب غزاة .

وكان العثور على حجر رشيد عام ١٨٠١ ونقله إلى لندن وقيام (شامبليون) بتفسير كتاباته عام ١٨٢٢ هو نقطة البدء فى هذه الدعوة التى أتسع نطاقها مع

حملات الغزو الثقافى فى عهد الخديو إسماعيل ثم حمل لوائها الاستعمار البريطانى بعد احتلال مصر .

وكان تأسيس متاحف بولاق الفرعونى ١٨٦٣ بواسطة ماريت وما سبيرو دعاة الفرعونية ودار الاثار العربية١٨٦٩ والمتحف القبطى ١٩٠٠ علامة على الشروع فى خطة « البلبلة » والمسخ لتاريخنا وتصورنا فى صورة البلاد التى غزاها العرب والرومان واليونان والتى لها ماض فرعونى وقبطى ويونانى وعربى . وأن الصلة بيننا وبين العرب هى صلة غزو وليست رابطة اساسية قامت على أساسها الحياة الفكرية والسياسية والاجتماعية والاقتصادية فى محيط الأمه العربيه منذ تعربت هذه المنطقة جميعاً وارتبطت باللغه العربية والاسلام وشاركت فى ذلك التراث والثقافه والتاريخ الحافل بالامجاد .

وقد عمد الانجليز إلى الدعوة الفرعونيه كاساس للحركه الانفصاليه ودعوة التجزئه فاثاروا حملة ضخمة — لافى مصر وحدها — ولكن فى العالم العربى كله للكشف عن الاثار القديمه والتهليل لهذه الاثار، وخلق تيار قومى يحمل لواء الدعوة إلى فرعونيه مصر وقد تحقق للاستعمار نصراً كبيرا فى هذا المجال بالكشف عن قبر توت عنخ أمون ١٩٢٢ مما عمق هـذا التيار وظهر محمود مختار بتماثيله الفرعونيه ونحت تمثال نهضه مصر فى باريس ١٩٢٠ ثم إنشاء قبر سعد زغلول على الطراز الفرعونى ووضع صورة أبى الهول على طوابع البريد واتخاذ الجامعه المصريه تمثال الآلهه الفرعونيه رمزا لشارتها .

وقد حاول ماسبيرو عام ١٩٠٨ وضع نظرية لربط مصر المعاصره بمصر الفرعونية فى محاولة ملفقه قوامها أن مصر قاومت كل الغزاة وأثرت فيهم بما فيهم العرب ، وأن المصريون أقباط أصلا . وأن التراث الفرعونى القبطى صمد فى وجه الفتح الاسلامى وأن الأقباط حافظوا على نقاوة دمهم بينما اختلطت دماء المسلمين

مع دماء شعوب أخرى . وقال أن القومية المصرية تقوم على أساس تغلب مصر على دخلائها وأن المصريين أصلهم فرعونى وأنه لا يوجد مصران : مصر مسلمة وأخرى قبطيه بل توجد مصر واحدة ، وأن مسأله مسلم وقبطى مسألة دينية فقط .

وكانت الاكتشافات الفرعونية قد بدأت عام ١٩٠٣ عندما ظهرت مقبرة الملك تحتمس الرابع واكتشف مستر كارتر مقبرة الملكة حتشبسوت وكشف (كوبيل) ١٩٠٤ عن مقبرة الملكة (تى) والملوك أخناتون وحرمحب وسيبتاح وأمفى كارنفون وكارتر فى الحفر عن طيبه من ١٩١٧ حتى اكتشفوا عام ١٩٢٢ قبر توت عنخ أمون ، وتوالت الابحاث واشترك فيها المصريون فكانت حفريات متصلة لم تتوقف وكان أحمد كمال باشا (المتوفى عن ٧٣ سنة فى أغسطس ١٩٢٣) أبى الأثريين فى مصر وصاحب المدرسة التى أنشئت لتمصير علم الآثار ، قد تحقق له إنشاء أول مدرسة لتعليم اللغة المصرية القديم ١٨٦٩ وأشهر من نبغ منها سليم حسن ومحرم كمال لكمال باشا أبحاث متعددة وقاموس هيروغليفى عربى فرنسى يضم الألفاظ العربية ذات الأصول العربية ، هو أول القائلين بأن اللغة المصريه القديمة فرع من اللغة العربية ، وأن اللغة العربيه أصل لها . وقد كان لأحمد كمال محاولة هامة فى قتل هدف الدعوة الفرعونيه التغريبى وكان لسليم حسن دوره وخطره فى الاستكشافات والابحاث وهو الذى كشف عن الهرم الرابع (فبراير ١٩٣٤) وكان قد بدأ العمل فى منطقة الهرم منذ ١٩٢٩ حيث كشف عن مضجع أول امرأة حكمت مصر فى التاريخ (خنت كاوس) وهى الحلقة الموصلة بين الأسرة الرابعة والأسرة الخامسة وقد أسمت نفسها ملكة الوجهين القبلى والبحرى كما كشف من بعد حتى عام ١٩٣٥ عن الطريق الموصل بين المعبد الوادى والمعبد الجنائزى وكشف عن أسرة (خفرع) كما كشف عن حقيقة جديدة لم تكن معروفة من قبل ، فقد كان الشائع أن أحجار

الأهرام قد نقلت من جبل المقطم على حين أن الواقع أن هذه الاحجار إنما قدت من الصخور المنبثة حول الأهرام .

وقد ظل علم الآثار احتكاراً للغربيين والفرنسين بالذات خلال مدة طويلة بدأت منذ قدوم (ماريت) إلى مصر ١٨٤٦ بعد أن وقف على رموز الهيروغليفيه على طريقة شامبيلون وقد أتيح له عام ١٨٥٠ أن ينفذ خطه واسعة ظاهرها قيامه بشراء الكتب القبطيه من بعض الأديار والبحث عن مدفن العجل أبيس . وقد وجد فى رمال سقاره تمثالا لأبى الهول ينطبق على الوصف الذى وضعه المؤرخ سترابون لهيكل العجل أبيس ، هنالك تبين له أن الهيكل مدفون تحت الرمال فاستاجر بعض الفلاحين لرفع الرمال وكشف عن ١٢٤ تمثالا وظل يحفر حتى عثر على تمثال لابيس من الجبس وسمح الخديو لماريت أن يرسل إلى فرنسا ٥١٣ قطعة . وكانت هذه مقدمة حركة لسرقة الاثار المصريه وتهريبها إلى الخارج حيث غمرت عواصم أوربا .

وامكن لماريت فتح قبر أبيس (نوفمبر ١٨٥١) وكان هذا أول كشف أثرى من نوعه وكان محمد على من قبل اسماعيل قد وهب الفرنسيين مسلتين من قصر الأقصر حيث نقلت إلى باريس ونصبت أحداها فى ميدان الكونكورد (٢٥ أكتوبر ١٨٣٦) وتكلف نقل المسلة الواحدة إلى باريس مليون وثلاثة وخمسين ألف فرنك ذهبا .

وقد ارتبطت الكشوف الأثريه بالدعوة إلى الفرعونيه وتأثر بها «شوقى» بعد كشف قبر توت عنخ أمون . هذا فضلا عما كشف من أوراق البردى التى باعها الاثرى بريس دافين ١٨٤٧ وهى تمثل أقدم كتاب فى العالم يضم نصائح وحكم ومواعظ منذ ٥٥٠٠ سنة كما اتصل ذلك بدعوة أحمد كمال إلى تعليم اللغة المصريه القديمة باعتبارها لغة الاجداد وقد نشر (١٩٢٣/١/١٥) اسماء الكتب التى تعين على ذلك .

وقد ارتفع صوت الصحافة فى الثلاثينيات بتسرب آثار مصر إلى الخارج طالما

أأن أعمال الحفر والتنقيب فى أيدى الاجانب الذى يرون أن (سرقة) هذه الاثار لا يعدو أن يكون خدمة علمية .

وكان «هوارد كارتر» مكتشف قبر توت عنخ أمون (المتوفى فى ١٩٣٩/٣/٤) قد جاء إلى مصر ١٨٩٠ وعاون فى حفائر تل العمارنه وعين مفتشا لمصلحة الآثار وتنظيم دار الآثار فى مصر العليا وأدخل نور الكهرباء إلى وادى الملوك وأبوسمبل واكتشف لحساب الحكومة المصريه مدافن الملوك منتوحب وحتشبسوت وتحتمس وامنحتب الأول .

وكان أخر مديرى المتحف المصرى الأب أيتين دريتون (١٩٣٧) وقد تبين أنه خلال عمل الامناء الاوربيين قد اختفت من المتحف ٣٦ ألف قطعة، وقد حرص هؤلاء الأثريون جميعا على تحريف التاريخ وافتعال نظريات تهدف إلى تعزيز (الدعوة الفرعونيه) كجزء من خطة «التجزئه والتغريب» التى كانت هدف الاستعمار كله فرنسيا كان أو إنجليزيا ، ولكن خطوة واحدة لم تتحقق هى أن تصبح الهليغريفيه لغة مرة أخرى أو أن تصبح الفرعونيه حركة أو ثقافة أو تيارا فكريا وضحا .

٣ — التيار القبطى

هذا هو الوجه الثالث للقومية الاقليميه الضيقة فقد كانت « المصريه » ترتبط بالماضى الفرعونى . وكان حملة الدعوة إلى الفرعونيه هم المثقفون الاقباط الذين اتصلوا بدعاة التغريب ورجال الآثار الذين ركزوا على أحياء الفرعونيه فى الثقافة والفكر والمجتمع، وكان دعاة الفرعونيه الاقباط يحاربون الاتجاه إلى الوحدة العربية أو التراث الاسلامى ويعملون فى نفس الوقت إلى الربط بين الفرعونية والقبطية باعتبار أن الأقباط هم خلفاء الفراعنه وورثة هذا التراث .

وقد ردد دعاة القبطية ما نادى به «ماسبيرو» من أن المصريين أقباط أصلا، وأن العرب غزاة وعملوا على تمجيد الفرعونيه وتعظيم الحضارة المصريه القديمة ، وكان فى مقدمة هولاء الدعاة: مرقص سميكه منشىء المتحف القبطى وجرجس فليتاؤس عوض وميخائيل

عبدالسيد وتوفيق أسكاوروس وتادرس شنوده وميخائيل عبد السيد وسلامه موسى .

ولما كان عدد الأقباط فى أول القرن التاسع عشر ١٥٠ الف قبطى بين ثلاثة ملايين مصرى فقد كان ذلك عاملا على الاحساس بمعنى الأقلية الذى يفرض قيام طائفية قوامها المحافظة على مصالح مجموعهم من الأغلبيه عن طريق التماسك والتكافل . وكان الإسلام قدرسم نظاما عادلا للطوائف المختلفة التى تعيش فى مجتمعه غير أنه فى خلال عهود الظلم وسيطرة الولاة والأتراك والمماليك قد أحس الأقباط بضغط واضطهاد ، ولذلك كان لهم موقف أزاء المستعمر ، وقد كان هذا الموقف واضحا أبان الحملة الفرنسية ثم تكشف بصورة أوضح بعد ذلك أبان الاحتلال البريطانى .

ويؤكد الدكتور أنيس صايغ — وهو كاتب مسيحى لبنانى — فى كتابه الفكرة العربية فى مصر — ص ٩٨) أن الأقباط تحالفوا مع الفرنسيين وتجسسوا لصالحهم على حساب الشعب وتنكروا لحق المشاركة القومية .

وأنهم انحازوا إلى نابليون وزودوا جيشه بالرجال والعتاد وكان لهم اليد اليمنى فى دعم الحكم الإنجليزى فى مصر وقد أقاموا الصلاة فى كنائسهم يوم وصول الإنجليز إلى مصر . وقال أن الأقباط « كانوا يبررون علاقاتهم مع عدو البلاد بحقهم فى حفظ كيانهم وحقوقهم » وأشار الدكتور صايغ إلى زعامة المعلم يعقوب القبطى الذى عاون الفرنسيين واستحق أنعام السلطة الفرنسية عليه بتعيينه قائداً للفرقة القبطية التابعة للجيش الفرنسى والذى رقى إلى رتبة جنرال وصاحب مشروع إستقلال مصر عن العثمانيين المسلمين برعاية الغرب المسيحى هو أول من طالب بأن تكون مصر وطن مستقل عن العرب والأتراك وأن يعتبر مصر جزءاً من أوربا وقد اضطر الجنرال يعقوب أن يسافر مع الفرنسيين فى حالة جلائهم عن مصر ومعه مشروعه ليعرضه مستجديا عطف فرنسا وبريطانيا .

وقد انطوت هذه الصفحة حتى جاء الاحتلال البريطانى فبدأت دعوة المصرية التى ترتبط بالماضى الفرعونى تبرز فى حضانة الأقباط الذين بدأو يؤلفون الكتب

ويصدرون عشرات الصحف التى تدافع عن الفرعونية والربط بين الماضى الفرعونى والقبطى كما أنشأوا عشرات النوادى والجمعيات والمدارس وفى مقدمتها جمعية التوفيق ١٨٧٢

وقد بدأ عمل تاريخى لإعادة دراسة التاريخ المصرى وإيضاح أثر الأقباط فيه وكان لظهور الآثار المصرية واتساع نطاقها أثر فى دعم هذا الاتجاه التاريخى والقول بأن الحضارة المصرية القديمة هى أولى حضارات العالم القديم .

وقد كانت أهم هذه الأبحاث ما يتعلق بتصوير الروابط بين الفرعونية والقبطية وبين اللغة الهيروغليفية اللغة القبطية .

وقد صور (مرقص سميكة) كيف حافظ الأقباط على تاريخ أجدادهم بمحافظتهم على اللغة المصرية القديمة وكيف «أن اللغة التى تستعمل فى إقامة الشعائر الدينية عند الأقباط هى نفس اللغة التى كان يتكلم بها الفراعنة، وقد أدخل عليها طائفة من الألفاظ اليونانية . وقال أنه لولا المحافظة على لغتهم الأصلية لما تمكن شامبليون من قراءة وترجمة الكتابة المنقوشة بالحروف الهيروغليفية والديموطيقية واليونانية على حجر رشيد الموجود الآن بالمتحف البريطانى ، وقال أن لفظ قبطى معناها مصرى وهى محرفة من اللفظة اليونانية arguttlios وقال : لذلك فإن جميع المصريين : بعضهم أقباط مسلمون والبعض مسيحيون وكلهم متناسلون من المصريين القدماء .

وقد جرت أحكام كثيرة من هذا النوع ، ليست قائمة على الأساس العلمى وإنما قائمة على التعصب . ولقد بلغ هذا الأمر حداً دفع مثل أحمد زكى باشا إلى أن يصحح الاوضاع حتى يذود التعصب والطائفية وكانت دعوته مثلا جرى على الألسنة : وهى قوله : « مصريون قبل كل شىء » غير أن جرجس عوض جبهه بدعوة أخرى مضادة هى « أقباط قبل كل شىء » واتخذ نفس أسلوب مرقس سميكة ودعواه .

وقد حمل دعاة الفرعونية القبطية فى هذه الفترة الدعوة لفصل العرب عن مصر وهاجموا الحزب الوطنى واشادوا بالاحتلال البريطانى .

الفرعونية والعربية

كانت الدعوة الفرعونية إحدى دعوات التغريب والتجزئة والغزو الثقافى وقد وجدت أرضا خصبة وحمل لواءها الكتاب المسيحيون ثم اشترك فيها عدد من دعاة التغريب من الكتاب المصريين واستغل الاستعمار الكشوف الأثرية واصطنع أسلحة الصحافة والكتابة وغيرها فى سبيل أثاره « عاطفة » لأمجاد مصر القديمة لربط مصر الحاضرة بها ،وكان قوام دعوته أن المصريون جميعا أقباط وإن العرب غزاة . وإن القوميه المصرية تتطلب فنا مصريا خالصا وأدبا محليا ولغة مصرية منفصلة عن اللغه العربية . وقد حمل لواء الدعوة إلى اللغة المصرية كتاب غربيون وقضاة ومهندسون ، ثم حملها كتاب مصريون . بغية القضاء على اللغة العربية.

وقد ظل دعاة التغريب يوجهون النظرية الفرعونية إتجاها منحرفا ضد القومية العربية حتى ظهر أحمد كمال باشا أول رائد مصرى لعلم الآثار وأعلن أن اللغة العربية أصل للمصرية القديمة (الهيلوغريفية) لما بينهما من الموافقة فى كثير من الصور . وقد دفعه إيمانه بهذه النظرية إلى إعداد قاموس للغة المصرية القديمة لم يطبع حتى الآن ، قضى فى تأليفه ربع قرن ويقع فى ٢٢ مجلدا ضخما كشف فيه عن حقيقة العلاقة بين اللسان المصرى القديم واللغة العربية وجملة قوله « أن نصف اللغة التى استعملها قدماء المصريين هى عربية الأصل لفظا ومعنى فضلا عن أنها شبيهه بالعربية المصرية التى نستعملها اليوم ؛ وبالجملة فان لغة المصريين القدماء هى لغة جزيرة العرب لا تختلف إحداها عن الأخرى إلا بالأمالات وبعض المترادفات فهما لهجتان فى لغة واحدة وبذلك يكون قد تحدد القول بأن الفرعونية سلالة

عربية وفدت إلى مصر من بين الموجات التي خرجت من جزيرة العرب ولم يعد هناك صراع حقيق بين العربية والفرعونية .

* * *

ولا شك أن عظمة الفراعنة جزء من تاريخنا وإن ريادتهم للحضارة الإنسانية شرف كبير ، غير أن هناك فارق بين الحقائق تعرض مجردة أو في حلقة من حلقات التاريخ وبين استغلالها ونقلها إلى اتجاه منحرف للقضاء على الروابط العربية والإسلامية بين مصر والأمة العربية .

وقد كان الهدف السياسي لدعاة التغريب من بعث الدعوة الفرعونية هو إحياء الوثنية وإضعاف روح الإسلام واللغة العربية وتمزيق وحدة الفكر العربي المتجه في مجراه الواسع ، وخلق ثنائيات فكرية ودعوات متعددة وقطع الماضي القريب عن المستقبل ومحاولة الارتباط بقديم منعزل ليست له ثقافة واضحة .

وغاية ماحققت هذه الدعوة في مجال الفكر العربي هو كسر الحاجز الذي كان يقف أمامه المفكرون دون دراسة تاريخ الفراعنة واعتباره من تراث الوثنية . وبذلك اعتبرت الحضارة المصرية جزءاً من أمجادنا كعرب وشرق وخاصة بعد إن تبين مدى الارتباط بين الفراعنة والعرب وإن الفراعنة ماهم إلا موجة من موجات الجزيرة العربية .

* * *

وقد جرى سجال في المقطم (اكتوبر ١٩٢٩) أثاره نقولا الحداد حيث نقل رأي المؤرخ (رو لنصون) الذي يقول أن المصريين الأولين وفدوا من بلاد العرب وعزو البحر الأحمر ونزلوا عند حدود الحبشة ثم تدرجوا إلى أن هبطوا وادي النيل وأسسوا دولتهم فاذا رجحت هذه النظرية فسيكون العرب قد دخلوا إلى

مصر ثلاث مرات : الأولى وهى التى نحن بصددها والثانية غزوة الهكسوس أى الرعاة والثالثة : الفتح الإسلامى وبذلك لايبقى شك أن المصريين القدماء (الفراعنة) سلالة عربية الأصل .

وردد أحمد زكى باشا (١٠ اكتوبر ١٩٢٩) قوله : «الفراعنة عرب عرباء» وقد أشار إلى أن القول الراجح من علماء العاديات المصريه أن أوائل المصريين الأقدمين قد هبطوا من أرض آسيا إلى وادى النيل . وقد أثبت ذلك بروكس الألمانى وابيرس الألمان ولوث وليبلن النرويجى . وكان أول من أثبت هذه النظريه « هومل الألمانى »حين ذهب إلى أن الحضارة المصريه بحذافيرها كلها إنما هى مشتقه من الحضارة البابليه أما الاخصائيون فيقولون بمجيء أوائل المصريين إلى هذا الوادى عن صحراء لوبيا وما إليها من الاصقاع الممتدة على ساحل البحر الأبيض المتوسط . (اهـ .)

* * *

وفى مجال المساجلة الفكرية قال دعاة الفرعونية إن عشر اللغة العربية التى نتحدث بها هيروغليفى ومنها الأرغول والدف والناى والعود وكان الرد على ذلك بأن أكثر من نصف اللغة المصرية القديمة إنما هى فى الأصل عربية .

وقال ساطع الحصرى (أراء وأحاديث فى القومية العربية) إنه لاتعارض بين الفرعونية والعربيه وإن التعارض والتصادم لا يحدثان إلا بين الأشياء التى تسير على مستوى واحد فى عالم واحد . والفكرة العربية التى تعمل فى القرن العشرين للاجيال القادمة لا يمكن أن تتعارض مع أثار بقيت ميراثا من ماض سحيق يرجع إلى أكثر من خمسة آلاف من السنين . وإن الإهرام لم تمنع مصر من

الاتحاد مع سائر الأقطار العربية إتحاداً تاماً فى ساحة اللغة ، فهل يمكن أن تحول دون اتحادها مع تلك الأقطار فى ساحة السياسة أيضا وإن العرب لم يطلبوا من المصريين التنازل عن مصريتهم بل إنهم طلبوا إليهم أن يضيفوا إلى شعورهم المصرى الخاص شعوراً عربيا عاما .

كما ذكر محب الدين الخطيب أن « مينا رأس الفراعنة رجل أسيوى جاء إلى مصر من آسيا عن طريق سينا العربية أو من جبال وأودية أخرى وراء سينا وأعمق فى العروبة » بل إنه ليس هناك ما يمنع من القول بأن مينا ابن جزيرة العرب . وذلك أن جزيرة العرب تغذى مصر بأبنائها من قبل مينا ومن بعد مينا ومن قبل عمرو بن العاص ومن بعد عمرو بن العاص . وإن فرعون نفسه كانت تجول فى عروقه دماء غير قليلة من الدماء التى كانت تجول فى عروق عدنان .

وقال ساطع الحصرى فى مجال الرد على العلاقة بين الفرعونية وبين الآثار إن مصر قد تباعدت عن ديانة الفراعنة دون أن تهدم أبا الهول وتخلت عن لغتها القديمة دون أن تقوض الأهرام . وجميع آثار الفراعنة التى زينت بها متاحف مصر ومتاحف العالم لم تولد نزوعا إلى الديانة التى أوجدت تلك المآثر الخالدة ولا حركة ترمى إلى بعث اللغة التى رافقتها خلال قرون طويلة .

ورد ساطع الحصرى على القول بان تاريخ مصر مستقل تمام الاستقلال عن تاريخ أى بلد آخر فقال : أن هذا الإدعاء إفتئات صارخ على الحقائق الواقعة فان تاريخ مصر اختلط اختلاطاً عميقا بتاريخ سائر البلاد العربية وتشابكت أوشاجه معها خلال القرون الثلاث عشرة الأخيرة على الأقل ، وإن من يلقى نظرة عامة على تواريخ الأمم المعاصرة لنا يضطر إلى التسليم بان العلاقات التاريخية التى

تربط مصر بسائر الأقطار العربية أقوى وأعمق وأطول من العلاقات التاريخية التى تربط الاقاليم الفرنسية بعضها ببعض .

وفى هذا المجال أعلن مكرم عبيد المصرى القبطى أن المصريون عرب «نتيجة امتداد أصلنا القديم إلى الاصل السامى الذى هاجر إلى بلادنا من الجزيرة العربية » وأشار المؤرخ فيت (الأهرام ١/٤/١٩٣٣) إن المسيحية لم تنفح مصر بمدينة جديدة غير مدينتها الفرعونية ،وأن مصر حين انتقلت ذلك الانتقال الرائع من حكم بيزنطة إلى حكم االعرب لم تضطرب ولم تتقلقل لأن القبط الذى أساء إليهم الاغريق قابلوا العرب وتلقوهم تلق المنقذ المخلص . وإذا كانت قد وقعت فى أواخر القرن الثامن وأوائل القرن التاسع أحداث،فان سبب الثورة لم يكن الاضطهاد الدينى ولـكن سببه ثقل عبء الضرائب . ولا يستطيع المؤرخ أن يغفل أن الخليفة العزيز أصدر عام ٩٧٥م أمره بالمساواة فى الحقوق بين المسلمين والمسيحين وكم مضى من القرون والأجيال على أوربا حتى وصلت إلى مثل هذه الموادة بالدين .

وإذا كان الدكتور محرم كمال (الاهرام — ٢٨ سبتمبر ١٩٢٥) يمجد عظمة مصر ويقول : أنه بينما كانت اليونان تغط من نومها كانت مصر تحمل علم الفنون ومصباح المعرفة . وبينما كانت اليونان فى مهدها كان ذكر مصر من حيث عظمتها وبهائها وثروتها وقوتها قد طار يعم البلدان واعترف لها بالجميع بالتفوق بل بمنصب الاستاذية فى الحـكم والمدينة . وقد أخذ الاغريق منهم كثيرا من الاشـكال المصرية » فإن هذا القول يرد إلى أن عظمة الفرعونية هى جزء من عظمة الأمة العربية .

المراجع

الاتجاهات الوطنية : الدكتور محمد حسين .

المعارك الأدبية : أنور الجندى .

الفكرة العربية : أنيس صايغ .

آراء وأحاديث فى القومية العربية : ساطع الحصرى .

الاهرام : ٢٥/٩/٢٨ — ٢٣/٤/١ — ١٩٣٣/٩/١٩ .

المقطم : ٩ / ١٠ / ١٩٢٩ و ١٠ / ٩٢٩ .

الاهرام : ١٩٢٦/٢/٣ (اللغة القبطية ـ مرقس سميكه)

أدوات التغريب والغزو الثقافي

* الاستشراق
* التبشير
* دعوات التغريب
* صراع الثقافات الغربية
* دور الحضارة الغربية
* الامتيازات واستعارة النظم

الاستشراق

كان الاستشراق والتبشير من أبرز أدوات التغريب والغزو الثقافي . ولا شك أن بين الاستشراق والتبشير فوارق واضحة . ذلك أن الاستشراق « عمل ثقافي » يحمل معنى دراسة الشرق وجغرافيته وتاريخه ونفسية أممه وتراثه . وليس الكشف عن التراث المدفون والمخطوطات الفردية النادرة وتقديمها محققه مراجعة على مختلف النسخ مبوبة مفهرسة ألا غشاء شفاف يخفي الهدف والغاية التي هي في حقيقتها « استكشاف الأرض المستعمرة » وإعدادها للغزو والتبشير وسيطرة الاستعمار .

الاستشراق والمستشرقون

أما التبشير فهو « حركة » ينتقل بها مجموعة من المرسلين إلى بلاد الشرق حيث ينشئون المدارس أو المستشفيات أو المعاهد التي تجتذب أبناء البلاد وفق منهج مرسوم لنشر المسيحية بينهم .

غير أن هناك بين الاستشراق والتبشير خيوطاً دقيقة وصلات أساسية تتجه كلها إلى الهدف الذي رسمه الاستعمار وهو التغريب والغزو الثقافي .

ولقد بدأ الاستشراق والتبشير معا بعد الحروب الصليبية ونشآ في حضانة الكنيسة والبابا ، وكان الاستشراق يستهدف ترجمة القرآن إلى لغات أوربا وترجمة الانجيل والتوراة إلى اللغة العربية .

أما التبشير فهو قوام حركة الغزو الثقافي الغربي إلى العالم العربي وفق مخطط مدروس على أساس استغلال الطلاب والمرضى وتحويل عقائدهم والتأثير على

مفاهيمهم وتحطيم معنوياتهم وتنشئة أجيال ممسوخه مبلبلة العقائد مضطربة الثقافة منكرة لقيمها وتراثها ولغتها وتاريخها وبذلك يمكن القول أن المستشرقين هم طلائع المبشرين »/ وليس ما يمنع من أن ننظر إلى رجال الاستشراق على أساس أنهم علماء لهم جهدوكفاية وقد قدموا أعمالا هامة فى أحياء التراث ،غير أن الهوى والتعصب كان عند أكثرهم يغلب على الحق والانصاف وانهم لم يطبقوا المذهب العلمى الذى نادوا به فى ابحاثهم ، وإذا أخذنا برأى باحث تغلغل فى هذه الاوساط وتعرف بالمستشرقين وعاشرهم وصحح معهم ترجمة التوراة وخدم مطابعهم فى مالطه ولندن كفارس الشدياق وضعنا نظارات سوداء على أعيننا ونحن ننظر إلى أعمال المستشرقين فهو يقول (ذيل الفارياق ص ٣) : أن هؤلاء الاساتيذ لم يأخذوا العلم من شيوخه وانما تطفلوا عليه تطفلا وتوثبوا توثبا . ومن تخرج فيه بشىء فإنما تخرج على القسس ثم ادخل رأسه فى أضغاث احلام وتوهم أنه يعرف شيئاً وهو يجهله ، وكل منهم إذا درس فى أحدى لغات الشرق أو ترجم شيئاً منها تراه يخبط فيها خبط عشواء ، فما اشتبه عليه منها رقعه من عنده بما شاء ، وما كان بين الشبهه والتبين حدس فيه وخمن فرجح منه المرجوح ، وفضل المفضول » .

ونحن إذا نظرنا فى عوامل نشأة الاستشراق وجدنا هدفه وغايته :

لقد نشأ الاستشراق لمقاومة الامتداد والتوسع العربى الإسلامى،هذا الامتداد الذى عبر إلى أوربا وسيطر على أسبانيا وأجتاح جزءاً من جنوب فرنسا حتى مدينة (بواتيه) أو بلاط الشهداء ، ونفذ إلى جزيرة صقلية وبدأ يسيطر على جنوب إيطاليا معقل المسيحية ، وكان من نتيجة ذلك أن تالف (مؤتمر فينا ١٣١١) الذى ترأسه البابا كليمان الخامس وتقرر فيه تأسيس مدارس خاصة فى براين وبولون واكسفورد وسلمنكة تدرس فيها العربية والعبرانية والكلدانية لتخريج وعاظ يستطيعون تنصير المسلمين أو تشكيكهم فى عقائدهم .

وقد كان هذا العمل الذى بدأ فى أحضان البابوات والكنيسة ثم تحول إلى خدمة الملوك ورجال السياسة . يهدف إلى دراسة الشرق ولغاته وتاريخه والعقلية العربية .

وكان ذلك كله يقدم فى تقارير إلى الحكومات ، وكان جلة المستشرقين على اتصال دائم بوزارة الخارجية أو وزارة المستعمرات . ولم تكن بعثاتهم التى قاموا بها إلى بلاد الشرق بعثات علمية خالصة لوجه العلم وإن حملت أسماء الجامعات والمعاهد العلمية ، وإنما هى بعثات سياسية يذهب محصولها إلى وزارة المستعمرات ولا زلنا نذكر البعثات العلمية التى وردت إلى العالم العربى قبل الحرب العالمية الأولى والتى ساحت فى صحراء سينا وجزيرة العرب وكيف إنها كانت فى الحقيقة بعثات سياسية حربية إرادت أن تكشف عن الطرق والمياه والسكك الحديدية ومواقع الجيوش وتحركات الغزو ، وقد جاء الجاسوس « لورنس » الذى أطلقوا عليه من بعد الحرب العالمية الأولى ملك العرب غير المتوج مع إحدى هذه البعثات .

وقد استهدف الاستشراق خدمة الاستعمار عن طريق العلم ، وظهرت جميع النظريات الاستعمارية التى قامت على التهوين من شأن الشرق والعرب والإسلام فى أحضانه . وكلها نظريات انخدع بها باحثونا فى الثلاثينيات من هذا القرن ورددوها فى مؤلفاتهم ، وقد قامت على الهوى والغرض وكان فى مقدمتها نظرية « السامية » والآرية التى تصف العرب والجنس السامى بأنهم قوم أقل درجة فى الفكر والثقافة من الأجناس الأخرى كما سجل ذلك أرنست رينان أحد كبار المستشرقين (١٨٩٢) فى كتابه تاريخ اللغات السامية قال : ليس للجنس السامى روحانية الآريين التى عرفها الهنود والألمان وليس لهم هذا الاحساس بالجمال الذى بلغ حد الكمال عند اليونان : وقد ارتبط التوحيد عند الساميين

بالتعصب . فالساميون تنقصهم الدهشة التى تدعو إلى التساؤل والتفكير . فلسفتهم منقولة عن اليونان . ينقصهم الإحساس بالتنويع . ملكة الضحك عندهم معدومة . وعندهم نقص فى الفنون الجميلة مثل صناعة التماثيل والتصوير » .

ولعل هذه النظرية وحدها تعطى حقيقة الاستشراق وموقفه من المنهج العلمى ومن التعصب .

وقد أداهم هذا التعصب إلى أن يتخذوا طريقا محفوفا بالمخاطر حيث تراهم يفرضون فرضا يتفق مع أهوائهم ثم يبحثون فى القرآن أو الحديث أو الآثار المختلفة عن الأدلة التى تؤيد وجهة نظرهم .

وقد كانت مؤتمرات الاستشراق لا يدعى إليها من البلاد العربية إلا أعوان المستشرقين ودعاة التغريب وإن أحداً منهم لم يعارض أى اتجاه المستشرقين فيما عدا أحمد زكى باشا شيخ العروبة وعبد الله فكرى فى أول مؤتمر المستشرقين حيث تحدث الأخير عن بطلان دعوى اللغة العامية .

(التركيز على الإسلام)

ولعل أهم ما ركز عليه المستشرقون هو الإسلام والنبى محمد فهم معتدلوا الرأى عندما يتعرضون لتاريخ العالم العربى القديم فإذا بلغوا مرحلة الإسلام بدأ التحريف والافتراء والكذب على الدين وعلى النبى فرجليوث يقول أن « محمد » هو مؤسس دين حربى لاصلة بينه دين الفضيلة وإن « ابن عبد الله » تطلق على الوالد المجهول أو على من ليس لى أب وكان لفظ (عبد الله) معناه الشخص المجهول . وإن القرآن ملفق . وإن القرآن كسجل تاريخى ليس مرتبا حسب

الحوادث والتاريخ . وفنسك رئيس تحرير دائرة المعارف الإسلامية قد حشا دائرة المعارف الإسلامية طعنا جارحا على النبي وعلى الإسلام فى كل مادة .

وهم فى سبيلهم إلى إثارة الشكوك والبلبلة لا يدرسون الإسلام الصحيح ولكنهم يدرسون الإلحاد فى الإسلام والشخصيات التى عرفت بالانحراف كابن الراوندى والحلاج والسهروردى وابن عربى ويدرسون مذاهب الخلاف والفرقة كالمذاهب الكلامية والتصوف والزندقة كما يدرسون القرامطة والزنج والشعوبية البابكية وغيرها على إنها فرق من الإسلام ومذاهب منه .

والغرض من هذا كله تصوير الإسلام بصورة مضطربة منفرة قوامها الخلاف والصراع والتخلخل .

وقد وزع المستشرقون أنفسهم على أبحاث الإسلام فاختص قسم منهم بمباحث القرآن وآخر بمباحث النبي وثالث بأبحاث الدين الإسلامى .

وفنسك المستشرق الهولندى المتعصب قد زود جماعة المستبشرين والمستعمرين بإجابات على أسئلة ورد على فروض لتكون أداة فى زعزعة عقائد المسلمين ومما ردده فنسنك أن محمداً كان وثنيا قبل البعثة وقول أميل در منجم أن محمداً كان يتعبد على طريقة اليهود والمسيحية .

وأعلن المستشرق سيكارو صراحة : إن الإسلام فى روحه الخاصة يتنافى مع مصلحتنا فيجب التقليل منه بين الشعوب الخاضعة لنا .

ويقول مرجليوث إن الإسلام معناه الذل والخضوع ، وقال عن القرآن أن أول ما يلفت النظر إليه هو كثرة التكرار لدرجة المبالغة وهو يحوى شيئا كثير من اللفظ الحوشى .

وجملة أراء المستشرقين فى الإسلام والقرآن واللغة العربية :

● — محمد : مجهول الأب ، كان وثنيا قبل الهجرة .

● — القرآن كتاب وضعه محمد ، وإنه حرّف وبدل بعد النبي وإن التوراة والإنجيل مقدسين وإن القرآن غير مقدس .

● — الدين الإسلامى مخترع ملفق .

● — اللغة العربية الفصحى لا تصلح لشيء وهي لغة قديمة قد ماتت ولا يتكلم بها أحد واللهجات المحلية أنفع منها .

● — لم يكن للعرب فضل فى ثقافة أو تاريخ .

كما جرى الاهتمام بإنكار أن أصل العلوم اليونانية وتطورها لم يكن له صلة بالشرق . وإنكار النصوص اليونانية التى تعترف للشرق بأنه واضع العلوم وأن اليونان أخذوا عنه معارفهم (جويدى) .

— العناية بدراسة اللهجة العامية بمصر . وهي ما يطلقون عليها اللغة المحكية . (نلينو) .

● إن أهالى مراكش من البربر لم يعرفوا الإسلام ولم يؤمنوا به . وأنهم لازالوا غير مسلمين ، وإن «العرب» الذين فتحوا الأندلس وغزوا فرنسا وإيطاليا كانوا مسيحيين وأن طارق بن زياد لم يكن عربيا ولكنه كان بربريا مسيحيا .

* * *

وإذا كان بعض مؤرخو الغرب أو كتابه قد انصفوا الإسلام والقرآن أمثال كارليل وجوستاف لوبون وجوته وهنرى دى كاسترى وولز وبرناردشو فانهم ليسوا من المستشرقين .

ومن مثال ذلك قول ولز : عن خصائص الإسلام « إن أبرز خصائصه الوحدانية المطلقة التي لا تعرف هوادة ، وعقيدته السهلة المتحمسة في الله وحكمه وخلوه من التعقيد المذهبي والتحرر المطلق من الرهينة والمعبد ، ذلك هو تأكيده الأخاء والمساواة بين المسلمين أمام الله مهما تكن ألوانهم وأجناسهم وأوضاعهم » .

موقف الفكر العربي من الاستشراق

كان موقف الفكر العربي من الاستشراق كشأنه دائما من كل ماهو غربي : الحرص والحذر بالرغم من ظهور طائفة من دعاة التغريب من تلاميذ المستشرقين الذين رددوا آرائهم وحملوا لواء أفكارهم امثال منصور فهمي وأحمد ضيف وطه حسين وزكي مبارك وإسماعيل مظهر وتوفيق الحكيم . فقد كتب منصور فهمي رسالة الدكتوراه في باريس تحت إشراف المستشرق الإسرائيلي « ليفي بريل » عن (حالة المرأة في التقاليد الاسلامية وتطوراتها) وكان مما جاء بها أن محمد شرع لكل الناس واستثنى نفسه وكان له ضعفه واختص نفسه ببعض المزايا . وقال منصور أنه نشأ مسلما في وسط اسلامي وأنه قصد باريس ففُتح عليه بارشاد العلامة ليفي الاسرائيلي فظهرت فيه « المؤثرات السعيدة » فدون هذه الرسالة التي بحث فيها حالة المرأة في الإسلام .

وكتب طه حسين تحت إشراف اليهودي دوركايهم رسالة عن ابن خلدون نقل فيها رأى المستشرقين في كفاح أهل المغرب ضد الغزاة والمستعمرين الفرنسيين وهاجمهم واتهمهم بأنهم يؤخرون عمل فرنسا في نشر الحضارة .

ونقل آراءه في كتاب الشعر الجاهلي من رسالة لمبشر وليس لمستشرق هو (هاشم العربي) وفي الشعر الجاهلي كذب طه حسين القرآن في إخباره عن ابراهيم

وإسماعيل وأنكر القراءات السبع المجمع عليها فزعم أنها ليست منزلة من عندالله تعالى وطعن فى نسب النبى وأنكر أن للاسلام أوليته فى بلاد العرب وأنه دين إبرهيم وردد توفيق الحكيم آراء «رنيان» فى العقل العربى . وردد إسماعيل مظهر آراء المستشرقين الغربيين من أنه لاعلاقة البتة بين الدين وبين المجتمع وقال أن الذين يقولون بأن للدين أثرفى المجتمع واهمون فان المجتمع قائم على أمرين : القوانين الوضعية والمعاهدات والنظم الموروثة « فما دخل الدين إذن فى النظام الاجتماعى » ؟

وقد عرض كثير من كتابنا لرأيهم فى الاستشراق والمستشرقين:

من ذلك أن محمد كرد على رئيس المجمع العلمى بدمشق الذى ألقى فى القاهرة (٧مايو ١٩٢٧) محاضرة بمدرسة المعلمين العليا امتدح فيها المستشرقين بأنهم خدموا اللغة العربية بإخراج ذخائرها وتعريف المعاصرين من أهلها مجد إسلافهم وذكر عشرات من مستشرقى كل مملكة وأسماء أمهات الكتب التى كان لها الفضل فى طبعها،وقال إن الإستعمار كان سببا من أسباب عناية الأوربيين بدراسة اللغات الأجنبية عامة والشرقية وفى مقدمتها العربية خاصة ورد عليه عبد العزيز شاويش فقال إن المستشرقين فى العصر الحديث قد أصبحوا دعاة للاستعمار وقال إن تأدبهم بأداب العرب لم يزدهم إلا جفوة وغلظة وعقوقا .

وقال إن المستشرقين إنما يتفوقون بما يجدونه من مساعدات مادية ومعنوية فهم يسيرون فى البحث العلمى تقدمهم مدافع حكوماتهم وأحوال أوقافهم المرصودة لخدمتهم . وقال إن المستشرقين مع كل إمتيازاتهم قل منهم من يفقه آداب اللغة وأسرار الإسلام ومنهم من يظن أن أكل لحم الجمل من الفروض الإسلامية وطبع أحدهم كتابا عن القرآن ملىء بالأخطاء فى اللغة وإن مستر فولار مدير دار الكتب المصرية طعن فى القرآن فى محاضرة إلقاها فى مؤتمر المستشرقين فى الجزائر سنة ١٩٠٥ .

وتساءل الدكتور على العنانى (الهلال م ٤٠ ص١٣٩٣) من عناية المستشرقين بالأدب العربى وهل هى خالصة للعلم . وقال أن الغربيين الذين يكتبون فى أوربا عن الشرق ينقسمون إلى قسمين : قسم يكتب فى الناحية السياسية . وقسم يكتب فى الناحية العلمية .

وهذا القسم الاخير ينقسم إلى فريقين (١) فريق تحرر أفراده من الهوى فى مباحثه العلمية (٢) وفريق تغلب عليه العواطف المغرضة ، والقسم الأول مهمته الاشادة بعظمة أوربا والحط من كرامة الشرق لتقرير نظرية دوام وصاية أوربا على الشرق؛ والقسم الثانى : على القارىء الشرقى أن يتعرف روح كتابته ويفرق بين الكاتب الذى يتأثر بعاطفة مخصوصة وبين الذى يكتب للعلم مجرداً من أيه عاطفة» ومؤدى الرأى التشكيك فى أغلب مايكتب المستشرقون .

أما « روحى فيصل (الرسالة ع ١١١ ص ١٣٣١) فيرى أن بين المستشرقين طائفة معتدلة قد أخلصت فى دراستها الاخلاص كله . فنظرت إلى الأدب العربى والتاريخ الاسلامى وإلى كل ما أنتجه الشرقيون من دين وعلم وفلسفة نظرة مجردة عن الهوى كما يتطلبها البحث العلمى الحديث إلا أن أفراد هذه الطائفة أن عدوا لا يتجاوزون عدد الاصابع وهم أزاء الكثرة الهائلة المغرضة من المستشرقين لايذكرون شيئاً وقد قيل أن النادر لاحكم له » .

وقد عنى محمد كرد على بالدفاع عن المستشرقين والاشادة بفضلهم من : سلفستر دى ساسى (زعيمهم الأول) إلى اليوم نتيجة لعملهم (فى الكشف عن تراثنا الذى كنا نجهله وطبع المخطوطات العربية) غير أنه عاد فاعترف بخطر أعمالهم فقال (الرسالة ع ١١٤ ص ١٤٧٧) أنى موافق على ماقاله (روحى فيصل) فى تزييف بعض من تعلموا لغات الشرق ألا أننى لا أغمط حق العاملين منهم . أعلم أن

كثير منهم يعملون لسياسة بلادهم وأن منهم دعاة دين متعصبين يتخذون الاستشراق سلما لخدمة دينهم على نحو ماعمل أسلافهم فى القرون الوسطى » .

أما الدكتور حسين الهراوى فقد هاجم المستشرقين بمناسبة تعيين «فنسك» عضوا فى المجتمع اللغوى المصرى (نوفمبر ١٩٣٣) فقال (الهلال م ٤٢ص٣٢١) : إذا قلبت أى كتاب اجتماعى أو عمرانى باللغة الاجنبية يتكلم عن مصر أو الشرق أو الاسلام وجدت أشياء كثيرة لايقرها عقل ولا يستسيغها منطق وليس من الحقيقة فى شيء . ويلفت نظرك بصفة خاصة مايوصف به الدين الاسلامى من الصفات التى لاتنبو فقط عن الذوق السليم والحقيقة . بل أن الكتاب الاوربيون يصورون الاسلام بصورة بشعة غريبة لاتكاد تقرأها حتى يقشعر بدنك من هول ما تقرأ .

وقال: كنت أطالع هذه الكتب التاريخية فأجد فرقا كبيراً عندما يكتب عن التاريخ القديم كوصف مصر القديمة وأثارها وسوريا وتاريخها والعراق وماضيها . فإذا تكلمت عن الجزء الاسلامى أو حياة سيدنا محمد (ص) أجد تحريفاً ظاهراً واضحاً وتشنيعاً كثيراً .

وقال: أطلعت على تقرير لجنة العمل المغربى الذى كتبه المستشرق سيكارو يصف طرق مقاومة الاسلام وهو واحد من التقارير السرية التى يرسلها المستشرقون من البلاد المستعمرة إلى حكوماتهم لمقاومة الاسلام لانه روح يتنافى مع الاستعمار والتقليل من أهمية اللغة العربية وصرف الناس عنها باحياء اللهجات المحلية فى شمالى أفريقيا وتحبيذ اللهجات العامة حتى لا يفهم المسلمون قرآنهم ويمكن التغلب على عواطفهم» ويقول سيكارو أن الاسلام فى روحه الماضية قوة مخالفة لاحتياجاتنا ورغباتنا ونزعاتنا . وأن من مصلحتنا التقليل منه بين الشعوب الخاضعة لسلطتنا » .

قال : وفى زيارتى لاوربا علمت أن الاوربين يربون طائفة من العلماء على كراهية الاسلام واحتقار الشعوب الاسلامية . وأن المستشرقين جماعة يربون تربية استعمارية — ليعملوا فى المستعمرات — على أسلوب يحذرهم من العطف على الشرق أو الميل للاسلام .

وقال : أما عن مواضع دسائس المستشرقين فهم يتكلمون فى التاريخ الاسلامى بروح المؤرخ،أما عن سيدنا محمد (ص) وعن الاسلام وعن القرآن فهم يتكلمون بروح المنفر الذى يخيف الناس من الاسلام وبروح المتحامل الذى يكيل الشتائم من غير وزن .

وقال أن من طريقة «فنسك» فى البحث التوصل إلى الآيات التى تتناسب مع الرأى الذى يفترضه فإذا وجد آية لدخص رأيه حذفها حذفا وأنكرها إنكاراً حتى يخرج بالنتيجة التى تزرع الشك فى فؤاد من يطلع على أقواله من غير تمحيص . وقال إنهم تنقصهم فى مباحثهم من الاسلام : « الروح العلمية » . ولهم فى الاستقصاء طريقة لاتشرف العلم . وهى أنهم يفرضون فرضا ثم يلتمسون أسبابه،فإذا وجدوا فى القرآن آيات تتناسب فى معانيها مع فرضهم اقتبسوها ، وإذا وجدوا آيات لا تتناسب مع أغراضهم تجاهلوها، وقالوا أنها غير موجودة فى القرآن—وقال أننا إذا ما خلعنا عنهم تلك الزخارف البراقة من الوهم الذى أحاطوا به أنفسهم لظهروا قوماً ضعافا فى العلم لهم فى الإسلام مآرب سيئة » ا . ه .

المستشرقون والإسلام للدكتور الهراوى

وحاول زكى مبارك الدفاع عن المستشرقين فأثبت كل ما وجه إليه من تهم (الهلال ص ٣٢٥ م ٤٢) قالوا : أن المستشرقين طلائع الاستعمار وهذا صحيح . على أن المستشرقين لا يستطيعون أن يقضوا أعمارهم جميعاً وهم أدوات استعماريه فبعضهم تغلب عليه النزعة العلمية وتضعف النزعة الاستعمارية ، ومن دلائل ذلك

إنكباب كثير من المستشرقين على مسائل نظرية بحتة لا تقدم ولا تؤخر في خدمة الاستعمار وقالوا : وللمستشرقين أغلاط : وهذا صحيح فإن كبار المستشرقين لهم أغلاط مضحكة في فهم المعاني الشعرية .

وقال زكي مبارك « وللمستشرقين أخطاء في شرح قواعد الإسلام وهذا صحيح فلكثير منهم فصول لا تجمل بالعلماء . وخاصة حين يتحدثون عن حياة الرسول . ولهم نظرات إلى حياته المنزليه والاجتماعيه والتشريعية تدل على أن فريقاً منهم يخدم بعض الهيئات الدينية .

وقد سبقونا إلى الدراسات الأدبية والإسلامية بنحو ثلاثة قرون . والباحث الجاد في مصر والشرق لا يستطيع الفرار من بحوثهم : وليس لدى ما يمنع من الاعتراف بأن أثر المستشرقين أبقى في ذهني وأوضح . ومن النصيحة أن أشير بتأثر خطوات المستشرقين في غير زيغ ولاضلال . ولا ننسى أن المستشرقين ناس لهم مطامع ولهم أهواء . وأ كثرهم لا يتصل في بلدة بغير وزارة المستعمرات وأنا لا أهون من أغلاط المستشرقين ولا أدعو إلى متابعتهم في غير بصيرة ولاروية » .

وقال الدكتور هيكل (حياة محمد ص ٦١) أنهم متأثرون بالنصرانية الأدبية تأثرا يجعل أ كثرهم ينظرون إلى الأديان نظرة تملؤها الريبة . وتجعل الاقلية المستمسكين بمسيحيتهم يتأثرون بما كان بين المسيحية والعلم من نضال فيخضعون في بحوثهم الإسلامية لمثل ما خضع له أمثالهم في بحوثهم المسيحية أو بحوثهم الدينية بوجه عام . . وقال « أن الخطأ يتسرب إلى بحوث المستشرقين : لعدم الدقة في إدراك أسرار اللغة العربية تارة ولما يشوب نفوس طائفة من هؤلاء العلماء من الحرص على هدم مقدرات دين من الأديان أو على هدم مقررات الأديان جميعاً . ومن الأدلة على تأثر بعض المستشرقين بحرصهم على هدم المؤثرات الدينية وإسرافهم

فى ذلك ماتدل عليه مباحثهم من أن القرآن ليس وثيقة تاريخية لا محل للريبة فيها ، وأن تجنيهم على الإسلام لم يمليه إلا الحقد . وأن دراساتهم لم تمكنهم من إدراك روح الإسلام وأساس حضارته » .

ويضيف نجيب العقيقى (فى كتابه «المستشرقون ص ١٩٧) كيف ساعد المستشرقون ملوكهم وولاتهم فى استيلائهم على الشرق وعن طريقهم درسوا كل ما فى الشرق: عقليته وكتبه وأديانه وعقائده وتاريخه ولغاته مقدمة لغزوه — وبذلك تمكنوا من فرض ثقافتهم ولغاتهم فما بقى فى الشرق اليوم زاوية إلا ولغة غربية تعلم رسمياً فيها إلى جانب لغاته « ومن أجل ذلك أحسن ملوك الغرب صلات المستشرقين وانتدبوهم سفراء وقناصل وتراجم وموظفين فى سلكى الجيش والسياسة ومنحوهم ألقاب الشرف كبارون وكونت والأوسمة وكراسى التدريس فى أشهر الجامعات » .

وقال شكيب أرسلان : أنهم إذا عثروا على حكاية شاردة أو نكتة واردة فى زاوية كتاب قد يكون محرفاً سقطوا عليها تهافت الذباب على الحلواء وجعلوها معياراً ومقياساً ، لا بل صيروها محكا يعرضون عليها سائر الحوادث ويغفلون أو يتغافلون عن الأحوال الخاصة ، ويرجع هذا التهور إلى قلة الاطلاع على الأصل .

وقال يوسف داغر فى كتابه (مصادر الدراسة الأدبية) أن لبعض المستشرقين أبحاث فكرية تفتقر إلى الدقة وذلك لعجمتهم وقلة خبراتهم بمذاهب الكلام عند العرب وضعف الروح العربى فيهم .

أخطاء المستشرقين

وقد سجل نجيب العقيقى — (ص ٢٢٣ من كتابه المستشرقون) أخطاء المستشرقين :

أولا: التعصب الديني: وقال أن الضلال في العصبية الدينية ، فإذا كتب المستشرق المسيحي عن ديانات الشرق غير المسيحية فلا يكتب بذلك القلم الذي يكتب به في الآداب والتاريخ والأخلاق والعادات ، لأنه لم ينس دينه ساعتئذ ، منهم من يفكر أن يكون لمحمد ولد من الذكور ولو دعي بأبي القاسم ويشك في تلك الشجاعة التي عرف بها العرب ويميل بها إلى الخرافة . ومنهم كازانوفا الذي يتقول بأبي بكر أنه أضاف في جمعه القرآن قوله : أن الله انزل القرآن على النبي » وأغرب من ذلك قول مرغليوث أنه كان للنبي جمعية كالجمعيات السرية اليوم .

ثانيا : أخطاء الترجمة والنسخ : لما كان بعض المستشرقين لا يحسن الترجمة عمد إلى الاستنتاجات . ترجم كازنوفا كلمة «أمي» بشمي ومما يؤخذ على المستشرقين اعتمادهم على أصول اللغة ومعظمها لا قواعد له فيشرحون على الطريقة الكلامية دون معرفة القصد الذوق فيها . وثمت تعابير عربية أو دخيلة يشق عليهم فهمها وخاصة إذا استندوا إلى من تقدمهم من مستشرقين وقد كتبوها بالحروف اللاتينية التي كثيرا مالا تفي بحاجة اللفظة العربية .

ثالثا : نرى أن بعض هؤلاء الناس يغترون بنفوسهم فيترفعون عن العلماء العرب ولا ينظرون إليهم ألا نظرتهم إلى تلامذة الكتاتيب .

نرى أن بعض هؤلاء — أي المتغربين العرب — خدعو بينهم وبين أنفسهم فظنوا أن المستشرقين أتوا فصل الخطاب والحجة الواضحة .

وقال نجيب العقيقي: أن السير وراء المستشرقين حتى النهاية هو عين الضلال .

* * *

× كما هاجم أمين الخول الاستشراق (الأدب سبتمبر ١٩٥٧) وقال أن الاستشراق والاستعمار والتبشير أشبه بالحلقات الثلاثة المتداخلة وهاجم مؤتمراتهم

التى قال أنه يحضرها منذ عام ١٩٣٢ لأنها تتجاهل اللغة العربية بالرغم من أنها لغة الدراسة الإسلامية على اختلاف صنوفها. وقال: أن هذه المجامع لا تمد اللغة العربية لغة لهم بصفة عامة ، وقال : أن كل اقتراح قدم فى مؤتمرات المستشرقين لجعل اللغة العربية لغة رسمية رفض .

المراجع

مجلة المجمع (دمشق) مجلد ٨ ص ٦٨٠ : خطاب كرد على فى مؤتمر المستشرقين با كسفورد.

حياة محمد : الدكتور هيكل

حسين الهرواى : المستشرقون والإسلام

أغراض الاستشراق : الرسالة ع ١١ ، ص ١٣٣١ و ع ١١٤ ص ١٤٧٧

الهلال : المستشرقون: الهراوى وزكى مبارك م ٤٢ /٣٢١

الهلال : المستشرقون والآداب العربية م ٤٠ /١٣٩٣

الثقافة : عدد ١٤ ص ٢٢ وعدد ٧ ص ٣١ عدد ١٨ ٢٧.

المكشوف : عدد ٤٣

التبشير والاستعمار

(ليس « التبشير » إلا أحد الحركات الكبرى للغزو الثقافي والتغريب والسيطرة على العالم العربي وقد سبق الاستعمار ومهد له وفق خطة ضخمة تهدف إلى القضاء على العقائد الدينية والثقافات والقيم التي تقوم عليها مقدرات الأمة العربية باعتبار هذه العقائد على أساس القوة الروحية والنفسية التي ألهبت مشاعر هذه الأمة للدفاع عن كيانها والجهاد في سبيل حريتها . وقد وضع مخطط التبشير على أساس القضاء على كل مقاومة أو مناعة مسخرين العلم والطب والسياسة والحياة الاجتماعية والثقافة والأدب واللغة في سبيل هذا الهدف واستغلال فقر هذه الشعوب وجهلها وضعفها في السيطرة على عقائدها وعواطفها ومشاعرها)

ويهدف مخطط التبشير إلى :

١ — تشويه الثقافة الاسلامية والتراث العربي والاسلام .

٢ — افساد الخصائص القومية في البلاد العربية والاسلامية .

٣ — خلق تخاذل روحي وشعور بالنقص مما يؤدي إلى الخضوع للمدنية الغربية .

٤ — توسيع شقة الخلاف بين الطوائف والمذاهب وإثارة النزاع بين الأديان .

٥ — إخضاع الأمة العربية للاستعمار الغربي .

٦ — إعداد شخصيات عربية لا تقاوم النفوذ الأجنبي .

(وقد بدأ التبشير عمله ١٨٣٠ بعد أن أقره البابوات ورسموا خطته ووضعت الدول الاعتمادات الضخمة له ، وفي مقدمتهم بيوس الحادي عشر (ك / التبشير والاستعمار — م. خالدي وع .فروخ) عن طريق المدارس الأجنبية والارساليات

الخاصة والجمعيات العلمية والجامعات والأندية والصحافة والمستشفيات والملاجىء كطليعة للاستعمار وكوسيلة للسيطرة الثقافية والدينية والسياسية على العالم العربى .

ومن طريق التعليم زيفوا التاريخ الوطنى والاسلامى والعربى . وطعنوا على على العرب والاسلام .

(وقد استخدم التبشير بعثات الكشف فى أفريقيا لغرضه ، ومن ذلك أن (لفجنستون) الذى اكتشف وسط أفريقيا لم تكن رحلته الكشفية إلا جزءاً من عمل البعثات التبشيرية .

وكان المبشرون من ناحية أخرى أداة لتقديم معلومات وبيانات إلى وزارات الخارجية والمستعمرات واستغل الاستعمار صفا من دعاة التغريب فى البلاد العربية لمعاونة المبشرين ووضع خططهم وأفكارهم موضع التقريب إلى الجماهير ، ونشرت فصول فى الصحف لاثارة الشكوك والاتهامات وخلق قضايا ثقافية تتعلق بالالحاد والاباحة باسم حرية العلم والتخلص من سلطان الدين والتقاليد ومهاجمة اللغة العربية والاسلام . ورموا كل من يقف فى وجه سمومهم بالجمود والرجعية .

عمل المبشرين فى ميدان التعليم

إتخذ التبشير اتجاهين كبيرين : الاتجاه الأول عن التعليم وإنشاء الكليات والمدارس وقد تركز فى لبنان ومصر واستهدف المرأة العربية بنوع خاص والإتجاه الثانى : وهو التبشير السرى وقد شمل العالم العربى كله /وقد بدأت حملات التبشير على العالم العربى فى الربع الأول من القرن التاسع عشر فى صورة المرسلين الامريكان الذين وصلوا إلى بيروت بزعامة غالى سميث ١٨٢٧ ثم بوصول فان ديك ١٨٤٠ ودانيال بليس موسس الجامعة الأمريكية ١٨٥٦ .

وبدأ نشاط اليسوعين (العازارين) بأنشاء أول مدرسة فى عنيطورة ١٨٣٤ وأسس الانجليون الامريكان أول مدرسة فى عبيه ١٨٤٦ ، وقد تم إنشاء الجامعة

اليسوعية والجامعة الأمريكية ، كما وفدت جماعة المرسلين الأمريكية الانجليين إلى مصر ١٨٥٥ حيث أنشأت كلية أسيوط ثم الكلية الامريكية بالقاهرة [وقد وردت إرساليات لدول عربية متعددة وكانت كل دولة تحتضن مذهبا من مذاهب المسيحية، فالكاثوليكية فى حماية فرنسا، والارثوركية فى حماية روسيا، والبروتستانتية فى حماية بريطانيا وانجلترا، وقد استهدف التبشير تحقيق غاياته الاستعمارية عن طريق التعليم وهو تنشئة جيل يدين بالولاء للدولة التى تتبعها المدرسة أو الجامعة فضلا عن الولاء للثقافة الغربية نفسها والاستعمار والاستهانة بالقومية والدين واللغة .

وقد عدت الجامعة الامريكية فى بيروت مركزا هاما من مراكز الغزو الثقافى فى الشرق الأوسط كله واستهدفت منذ اليوم الأول تعليم الدين المسيحى والمذهب البروتستانتى ؛ وصرح المستر بنروز أحد عمداء الجامعة : أن الغاية الأولى من تأسيس الجامعة لم يكن تعليم العلم وإنما نشر المذهب البروتستانتى .

وقد كان جميع رؤساء الجامعة الامريكية ومدرسوها مبشرون وعلى أساس أنها مدرسة بروتستانتية ولذلك فهى تجبر الطلبة على حضور الصلوات .

وقد استغلت الجامعة الأمريكية — وأن توارى اتجاهها الآن قليلا — كل دروسها فى سبيل تأويل مسيحى لفروع العلم كالتاريخ وعلم الحيوانات . وقد أعلنت الكلية فى كل مناسبة أعرض فيها الطلبة المسلمون الذين تضمهم من الشام والعراق ومصر والسودان عن إجبارية دخول الكنيسة : أنها كلية مسيحية أسست بأموال شعب مسيحى وأنهم قد عملوا لايجاد تعليم يكون الانجيل من مواده ولذلك لابد أن تعرض منافع الدين المسيحى على كل تلميذ .

التبشير والاستعمار

٢٦ وقد صرح بنروز رئيس الجامعة الامريكية (١٩٤٨) عن هدف التبشير من التعليم فقال : لقد برهن التعليم على أنه أثمن وسائل التنصير .

ولذلك كان الهدف الامريكي من التبشير هدفا دينيا أساساً ، ولكنه تحول إلى هدف سياسي بعد أن بدأت أمريكا تتدخل في سياسة العالم العربي وخاصة موقفها من إسرائيل بعد أن خلقتها وأمدتها بالحياة وقد استهدفت هذه الدعوة :

(١) التشكيك في الاسلام .

(٢) القضاء على اللغة العربية وتغليب اللهجات العامية .

(٣) كتابة هذه العامية بالحروف اللاتينية .

أما هدف المبشرين الفرنسين (ومركزهم الجامعة اليسوعية في بيروت) فهو خلق صداقة روحية مع فرنسا ، فالاستعمار في المؤسسات الفرنسية يستهدف خلق روابط ثقافية وسياسية مع فرنسا ، على أساس البرنامج الفرنسي الذى وضع عام ١٨٦٤ وهو « معرفة فرنسا ومحبتها » وقد أعطى الاحتلال الفرنسي لبيروت فرصة كبيرة في سبيل دعم هذا الهدف .

ولا شك أن تعدد جهات التعليم في العالم العربي كانت في حد ذاتها هدفا استعماريا وغزوا ثقافيا وتعزيزاً للتغريب وذلك بتمزيق وحدة الفكر العربي عن طريق تمزيق تيارات التعليم في التبعية لفرنسا أو لبريطانيا أو لأمريكا مما يؤدى إلى القضاء على الوحدة الفكرية ؛ وهكذا سيطرت هذه المعاهد التغريبية المسيحية النزعة على الشباب المثقف الذى أصبح بعد من قاده بلاده ، وذلك بإنشاء فلسفة متسامحة مع الاستعمار ، محرومة من روح الجهاد والحرية التى يدعو إليها الاسلام .

اهداف التبشير

وقد لخص كثير من الباحثين أهداف التبشير في أنه العمل لسيطرة الاستعمار سياسيا واقتصاديا وذلك بالقضاء على اللغات والأديان غير النصرانية والتاريخ القومي موصلا إلى استعباد أتباعها ، ذلك أن الاسلام بأهدافه في المقاومة وتاريخه في الجهاد كان موضع خشية الدول الأوربية التى تراه قوة ضخمة تحول بينها وبين

استعباد الأمة العربية والسيطرة عليها وترى أنه شديد المراس فى صد كل دخيل وأنه دين الحرية والكرامة والمقاومة ، وقد أجمع المبشرون ومنهم (كارل بيكر وجاردنر) أن القوة التى تكمن فى الاسلام هى التى تخيف أوربا ·

ولقد كان أشد ما يخشاه الاستعمار أن يتم الالتقاء بين أجزاء الأمة العربية فتتم الوحدة التى تقاوم الاستعمار — كما أشار المبشر لورنس برون — إلى ذلك حين أشار إلى أن هدف التبشير أن « يبقوا متفرقين حتى لا يكون لهم وزن ولا تأثير إذ أن تجمع العرب يساعدهم على التخلص من السيطرة الأوربية » .

كما هدف التبشير إلى إظهار الأوربيين فى ثوب الأبرار حماة الحضارة أنصار الضياء والعلم وذلك حتى يتمكنوا من الوصول إلى قلوب العرب والمسلمين وتحقيق أهدافهم التى ترمى إلى سلب القيم العربية العقلية والخلقية والروحية عناصر قوتها وتمييع هذه القيم والتشكيك فيها ·

ويرى المبشرون أن هدف التبشير فى الأغلب ليس نشر المسيحية بقدر ما هو هدم الاسلام . ويقول المستشرق هنرى جسب أن [المبشرين] أستغلو اجهودهم لخدمة دولهم وأذكوا نار العدواة فى الذين كانوا يبشرون بينهم .

التبشير والاسلام

لا شك « أن محاربة الإسلام » هى العمل الأول للتبشير · وقد اتخذ لذلك خططاً متعددة تقوم على أساس المغالطة فى تاريخ المسلمين ودينهم وتاريخ النبى محمد ووقائع حياته .

وكان أبرز ما يركز عليه التبشير هو محاولة إخضاع الاسلام لمذاهب الفكر الغربى وفق ما خضعت له المسيحية ؛ وذلك بالأغضاء عن الحقيقة الواضحة التى لاسبيل إلى إنكارها أو تجاهلها فى النظر إلى الإسلام وهى :أنه عقيدة ونظام اجتماعى وذلك بخلاف النصرانية · ولذلك فإن المسلمين ينظرون إلى النظم الغربية التى تهدف

إلى إقامة مجتمعات جديدة على أنها تقوم على تجارب خاضعة للنجاح والفشل ، بينما يجد المسلمون عندهم نظاما اجتماعياً قابلا للتطور مع الزمن والالتقاء مع البيئات المختلفة وهم لذلك ليسوا فى حاجة إلى النظام الموضوعة تحت التجربة .

ومن الاتهامات التى توجه الفكر الغربى عن الاسلام أنه قام بالفتح على أساس السيف . وأنه سفك الدماء وأقام المذابح والحروب فى سبيل تحقيق غايته وهو اتهام واضح خطأه . ومدى المغالطة فيه .

(٢) ومن ذلك قولهم أن الفلسفة العربية هى الفلسفة اليونانية مكتوبة بحروف عربية؛ وعند رينان أن كل مظهر للفلسفة الإسلامية إنما هو للفرس واليونان أو النساطره أو اليعاقبة . وذلك الرأى مخالف لما رواه المصنفون أمثال جوستاف لوبون ، من أن العرب لم يتقبلوا الفلسفة اليونانية فقط وإنما ناقشوها ونقحوها وزادوا فيها .

(٣) أدعى المبشرون أن نصارى لبنان هم الذين بعثوا النهضة العربيه الحديثة وأن البربر وحدهم هم أصحاب المدنية فى شمالى أفريقية والأندلس . وأن العالم العربى هو (مصر والشام والعراق ونجد والحجاز واليمن) وأنه مساحته ٣ ملايين كيلو مربع وسكانه ٤٠ مليونا (مع أن مساحة الجزرة العربية وحدها ٣ ملايين كيلو مربع)وأن النهضة العربية بدأت فى مصر . وأن البربر لم يقيموا وحدهم مدينة المغرب والأندلس بل شاركهم العرب وإن البربر كالعرب مسلمون ، والمدنية التى خلقوها عربية ، وإن السودان وشمال أفريقيا وليبيا وتونس والجزائر ومراكش أجزاء من العالم العربى وإن النهضة العربية بدأت فى مصر وليس فى لبنان وإن النهضة بدأت فى القسم الأخير من القرن التاسع عشر وليس فى مطالع القرن التاسع عشر . وإن حصر الحركة فى نصارى لبنان والمبشرين الأمريكيين ظلم للتاريخ والأدب وخطأ لا مبرر له .

وقد صور عدد من المبشرين مدى خطر الإسلام على الاستعمار. وقال (أنشميا بومان) إن الإسلام ليس دينا فحسب بل إن من أركانه الجهاد. ولم يتفق قط إن شعبا دخل فى الإسلام ثم عاد نصرانيا .

المرأة والتبشير

إستهدفت خطة التبشير فى أساسها استغلال المدارس المسيحية فى إلقاء بذور الشك فى نفوس النشء المسلم وإفساد عقيدتهم . ولذلك كان الاهتمام بالفتاة العربية بالغ الأهمية إذ أن تربيتها فى المدارس المسيحية وإلقاء بذور الشك فى نفسها منذ مهد النشأة مما يساعد على تحقيق هدف التبشير والاستعمار بالنسبة إلى تحطيم الأسرة العربية والقضاء على الجيل الجديد الذى تنشئه الفتاة العربية التى تعلمت فى مدارس التبشير — لذلك عول المبشرون على الغزو التبشيرى عن طريق المرأة فقال (أتين لامى) فى مجلة العالمين الفرنسية (سبتمبر ١٩٠١) « إن تربية البنات فى مدارس الراهبات أدعى لحصولنا على حقيقة القصد ووصولنا إلى نفس الغاية التى وراءها نسعى ، بل أقول أن تربية البنات فى مدارسنا هى الطريقة الوحيدة للقضاء على الإسلام بيد أهله . إن التربية المسيحية أو تربية الراهبات لبنات المسلمين توجد للاسلام فى داخل حصنة المنيع عدوه لداء لا يمكن للرجل قهرها لأنه سهل على المرأة والحالة هذه أن تؤثر على إحساس زوجها وعقيدته فتبعده عن الإسلام وتربى أولادها على غير دين أبيهم » .

وقد أنشئت أول مدرسة للبنات فى العالم العربى فى بيروت عام ١٨٣٠ للمبشرين الأمريكان الذين اهتمو بإنشاء مدارس البنات — أولا قبل مدارس الأولاد . فى مصر وسورية والسودان ، ووضعت الخطة على أساس أن التبشير يكون أتم حبكا فى مدارس البنات الداخلية حيث الصلة بالطالبات أوثق ولأنها تنتزعهن من نفوذ حياة

بيئة غير مسيحية — كما قالت المبشرة أنا ميليجان ـ حيث يجتمع بنات مسلمات من أسر باشوات وبكوات تحت النفوذ المسيحى وليس ثمة طريق إلى حصن الإسلام أقصر مسافة من هذه المدرسة » .

وقد عمد التبشير فى رسم هذه الخطة إلى نظرية نفسية واضحة الدلالة هى أن الأثر الذى تحدثه الأم فى أطفالها ـ ذكورا وإناثا ـ حتى السنة العاشرة من عمرهم بالغ الأهمية وبما إن النساء هن العنصر المحافظ فى الدفاع عن العقيدة ، لذلك كان لابد من العمل بين النساء المسلمات على أنه « وسيلة مهمة فى التعجيل بتنصير البلاد الإسلامية » وقد استعملوا لذلك المبشرات المثقفات ووضعوا البرامج التى تجعل سيطرتهم نفسيا على المرأة العربية يسيرا .

وهذا هو السر فى اللهفة العجيبة التى يبديها الاستعمار وكتابه وأعوانه من كتاب التغريب على تحرير المرأة وتعليمها والدفاع عن دعاتها وهو ما لا يتفق مع خطط الاستعمار فى تأبيد تفوير المرأة وتعليمها وسفورها بينما هو يقف موقف الخصومة لتعليم الرجل وتثقيفه .

خطط التبشير

بدأ التبشير عمله فى كنف الكنيسة لمقاومة الإسلام ثم اتجه إلى العمل السياسى ، وقد أعلن بلفور وزير خارجية بريطانيا (١٩١٧) إن المبشرين هم ساعد جميع الحكومات المستعمرة وعضدها فى كثير من الأمور الهامة ولولاهم لتعذر على تلك الحكومات أن تذلل كثيرا من العقبات .

وقد اتخذ التبشير فى أول أمره خطة المهاجمة والبحث عن المناطق التى تصلح للتضليل أهلها ومحاولة تحويلهم إلى المسيحية ، وذلك بوسائل الإغراء المختلفة ، غير ان هذه الخطة لم تجد نفعا وفشلت فشلا كبيرا ، فقد قاوم المسلمون عمليات

التنصير وواجهوها بالخصومة مما دفع المبشرين إلى الفشل والبحث عن خطط أخرى ، وقد كان المبشرون فى القرن التاسع عشر يدخلون فى جدال مع المسلمين يسوقون فيه الاتهامات الباطلة .

وقد عقد المبشرون عديدا من المؤتمرات وأصدروا ألوفا من النشرات والصحف والمجلات فى البلدان المختلفة وباللغات المختلفة كما استغلوا الصحافة غير التبشيرية لنشر أغراضهم بالتشكيك فى الإسلام ومهاجمة اللغة العربية والتاريخ وإيقاع الخلاف بين الأديان والمذاهب والمعتقدات . وقد اتخذ التبشير من تقسيم العالم العربى بعد الحرب العالمية الأولى فرصته الكبرى وعد هذا العمل بالنسبة له نصراً كبيراً ، غير أنه لم يصل إلى نتائج ذات أهمية واضحة .

وقد نصت معاهدة فرساى (المادة ٤٣٨) على جواز التبشير فى سوريا . وبذلك استطاع المبشرون فى الشام أن يضغطوا على النصيرية فى بلاد العلويين ونشر الدعوى بينهم بأنهم من أحفاد الصليبيين .

وقد كان عام ١٩٣٢ هو موعد تعديل هذه الخطط والاتجاه إلى محاولة إقناع الأفراد والوصول إلى قلوبهم عن طريق الصداقات واحترام العادات الشرقية والإسلامية للتمكن من بث أرائهم .

غير أن هذه الخطة الجديدة لم تحقق للتبشير الوصول إلى نتائج أكبر . وظهر المثقفون الذين آثروا أن يكونوا من دعاة التغريب وانكشف أمرهم ولم تخدع كتبهم ولا أراؤهم المجموعة الواعية ، ولذلك كانت دعوات الفرعونية فى مصر والفينيقية فى لبنـــان والأشورية فى العراق والبربرية فى المغرب أسلحة التجزئة والتمزيق التى حمل لواءها التبشير ، ولقد كشف القس زويمر رأس المبشرين فى العالم العربى عن فشل جميع الخطط التى وضعت للتبشير بين

المسلمين ونقلهم إلى المسيحية • ودعا إلى بذل مجهودات مضاعفة لهذا الغرض •
ومن أمثلة ما كان يذاع من نشرات لدعم خطط التبشير ما كتبه القس باركين
إلى المبشرين يطالبهم فيه بحشد الجهود للعمل : فى الجزيرة العربية ، ومما قاله
« إن الحاجة شديدة الآن إلى مائة مبشر يذهبون إلى قبائل بلاد العرب المهملة
التى لم تبلغها الدعوة بعد ، هناك نحو مائة قبيلة فى بلاد العرب يمكن تبليغهم
الدعوة وهم يسكنوا بلاداً غير إنجيليه مساحتها ثلث مساحة الهند وهم يعيشون
فى الخيام • إذهب بنفسك إلى بلاد العرب • أسأل غيرك أيضاً . أحمل الكتاب
المقدس إلى بلاد العرب • أدع بلاد العرب والعرب إلى المسيح • أدع ٢٢٠مليونا
من المسلمين ليدينوا بديانة المسيح : (الجمعية العالمية الصليبية للتنصير فى العالم
وبلاد العرب ١٩ هبيلندرود ـ أرنورود ـ لندن) .

ومع ذلك فقد عجز التبشير أن يحقق لا فى الجزرة العربية ولا فى قلب
أفريقيا بمثل ما استطاعه التاجر المسلم البسيط من الدعوة لدينه بالرغم من
الاعتمادات الضخمة وقوة الدول المستعمرة التى ظاهرت ركب التبشير .

تطور التبشير فى العالم العربى

اتخذ التبشير وسائل متعددة فى سبيل تحقيق هدفه الذى هو ليس إدخال
العرب المسلمين فى المسيحية بقدر ماهو القضاء على الإسلام والتشكيك فيه والتهوين
من شأن القيم العربية واللغة العربية والتاريخ،وبذر بذور البلبلة فى الفكر العربى
وإقامة ثقافات متعددة متصارعة وخلق جيل من مضطربى العقيدة ، الذين لا يقيمون
وزنا لتراثهم ولا أمجادهم ولا لغتهم ، والمتسامحين مع الاستعمار والمتغربين ، المعجبين
بحضارة الغرب،المتطلعين إلى مزيد من الحضارة والمدينة لبلادهم عن طريق الاستعمار
وكذلك خلق قادة لهم لا يدينون كثيرا بالقيم العربية الإسلامية فى الحرية

والكرامة والجهاد فى سبيل الحق والإلتقاء مع الغاصب ومصادقته واعتباره ممدنا ناشراً للحضارة والعلم .

وقد استطاع التبشير أن يحقق جانبا من هدفه عن طريق الجامعات والمدارس والصحف والبعثات ، بينما أخفق بالنسبة للمجموعات الشعبية الضخمة التى كانت رغم الفقر والجهل أصلب عوداً من طبقة المثقفين .

لبنان والتبشير

ولقد كانت لبنان أخصب حقل للتبشير ولذلك ركز عليها المرسلون من كل أقطار العالم الغربى وجعلوها مقرهم الأساسى للعالم العربى كله . وكانت لبنان فى الستينات من القرن التاسع عشر موضع صراع ضخم بين بريطانيا وفرنسا ، عمل فيها كل فريق على تأييد طائفة ومحاربة الأخرى وإثارة الفتنة لتحقيق هدفه . وكانت بريطانيا قد أرسلت الكاهن الارلندى (وود) لإغراء البطريرك بإعلان لبنان إمارة مارونية مقابل مساعدة الموارنة البريطانيا . كما قصد إليها تشرشل وأونفرا واللادى استنهوب لإثارة الصراع الطائفى بغية فتح المجال أمام بريطانيا غير أن فرنسا هى التى استطاعت أن تكسب الجولة لروابطها مع الموارنة المسيطرين على لبنان إذ ذاك والمرتبطين مع فرنسا عن طريق الكاثوليكية .

ولقد كان لنجاح التبشير فى لبنان أثره فى الدعوات التى انطلقت تنادى بأن لبنان بلد كاثوليكى وأنه يجب أن يكون وطنا قوميا لكل المسيحين فى العالم العربى ، كما أنطلقت من لبنان الدعوة إلى قيام وطن قومى لليهود فى فلسطين .

وفاخر دعاة التغريب فى لبنان بالدور الذى قامت به لبنان أبان الحروب الصليبية حيث أمد الموارنة طلائع الصليبيين بثلاثين ألف نبّال أجمع الفرنجة على الاعجاب بشجاعتهم ومهارتهم . (فؤاد أفرام البستانى : الندوة ٢١ / حزيران / ١٩٤٨)

وقد حمل لواء التبشير فى لبنان غالى سمث ودانيال بليس وكان أبرزهم « كرنيلوس فاندبك » الذى أقام فى لبنان طبيبا ومبشرا أكثر من أربعين عاما (١٨٤٠ — ١٨٨٠) وقد تعلم اللغة العربية وأنشأ مدرسة عبية المشهورة وعمل معلما وواعظا ومبشرا وعنى بترجمة التوراة والانجيل، وقد أتم هذه الترجمة عام ١٨٦٤ بمساعده صديقيه البستانى واليازجى ، وهو صاحب فكره البدء بالتبشير من القرية والتوسع فيه للوصول إلى المدينة .

ولكى نرسم صورة لأثر التبشير فى الثقافة العربية والفكر العربى نعرض نموذجا من تاريخنا كما يكتبه المبشرون ويدرسونه فى مدارس الارساليات الاجنبية فى لبنان بقصد تشويه تاريخنا وإهدار عظمته وجلاله :

يقول (لاكولى) فى كتابه البحث من الدين الحقيقى : « فى القرن السابع للميلاد برز فى الشرق عدو جديد ذلك هو الاسلام الذى أسس على القوة . وقام على أشد أنواع التعصب . لقد وضع محمد السيف فى أيدى من اتبعوه . وتساهل فى أقدس قوانين الاخلاق . ثم سمح لاتباعه بالفجور والسلب . وبعد قليل أصبحت آسية الصغرى وأفريقية وأسبانية فريسة له .

ثم هاهى النصرانية تضع بسيف كارل مارتل سدا فى وجه الاسلام المنتصر عند بواتيه ٧٥٢ م ثم تعمل الحروب الصليبية فى مدى قرنين تقريبا (١٠٩٩ — ١٢٥٤) فى سبيل الدين لنجاة النصرانيه، وهكذا تقهقرت قوة الهلال أمام راية الصليب وانتصر الانجيل على القرآن » .

مصر فى ظل التبشير

ظهر التبشير فى مصر منذ أوائل القرن الماضى واتسع فى عهد إسماعيل وبلغ ذروته بعد الاحتلال البريطانى (١٨٨٢) وكان أبرز دعاته « القس زويمر » الذى

اقتحم الازهر ووزع منشوراته فيه علنا فى عهد حكم إسماعيل صدقى (١٩٣٣).
وقد كانت : الجامعة الامريكية ومستشفى هرمل هما أبرز معاقل التبشير فى مصر .

وقد كان احتلال السودان خطوة عزو بعيده المدى بالنسبة لحركة التبشير فقد فتح لها الطريق إلى قلب أفريقيا .

وروى توفيق حبيب (الصحفى المعجوز فى هامشة ٢٩/٤/٣٨ الاهرام) أنه فى أوائل القرن الماضى ١٨٠٠ حضر إلى مصر خمسة من رجال الكنيسة الانجليزية للوعظ والتبشير ثم عادوا إلى بلادهم الواحد بعد الآخر ولم يبق منهم إلا رجل واحد هو المستر (ليدر) وسكن بالدرب الواسع ، واتصل ببطريرك الاقباط الانبا كيرس الرابع وذكر له أن الكنيسة الانجليزية مستعدة لإنشاء مدرسة خاصة لتعليم أبناء الاقباط وأرسل بعثة منهم إلى مالطة للتعليم على حسابها . ثم أنشأ الاسقف جون الانجليزى مجلة (الشرق والغرب) وكنيسه فى حى قصر الدوبارة ومستشفى هرمل فى مصر القديمة . وكانت لهم دار فى ميدان الازهار (الفلكى) للمساجلات الادبية والبحث فى العقائد لم تلبث أن عطلت منعا لما كان يقع فى بعض اجتماعاتهم من المشاغبات . وكان القس (جاردنر) من أبرز رجال الارسالية الانكليزية وأعرفهم باللغة العربية وكان لهذا القس اليد الطولى فى تأسيس فرع مصر لجمعية اتحاد الكنائس وإنشاء أقسام مصرية لجمعية أتحاد الشبان المسيحية » .

أما المبشرون الامريكيون فقد ظهروا فى مصر فى عهد إسماعيل وأخذوا يطوفون أرجاء البلاد للتبشير داعين الاقباط الارثوزكس إلى التمذهب بالمذهب البروتستانتى . واستمالوا عائلتى ويصا وخياط الذين تحولوا من ارثوزكس إلى بروتستانت (١٠ فبراير ١٩٣٢ — مجلة الدنيا المصورة) .

وقد كان للخديو إسماعيل دوراً كبيراً فى تشجيع الارساليات ومدها بالمال والارض اللازمة لإنشاء المؤسسات . ولما أراد مقاومة مدارس المبشرين البروتستانت لانهم يتدخلون فى السياسة ويثيرون الاضطرابات فى البلاد منعته القنصليتين الانجليزية والامريكية وأيدتا المبشرين وحملتا الحكومة المصرية على التقيد بالدستور العثمانى الذى ينص على احترام الحرية الدينية .

وقد اتسع نطاق التبشير بعد الاحتلال البريطانى وبلغ درجة بالغة الخطورة حتى أن عبد الله النديم هاجمه فى مجلة الاستاذ ١٨٩٣ ونشر فصلا من كتاب مبشر يدعى (يوحنا هورى) الالمانى سماه (الاسلام وتأثيره على تابعيه) قال فيه : حيث أن الدين الاسلامى دين غير صحيح وأنه لاتأثير له فى حياة تابعيه الدينية ولافى تقدمهم فى العلوم ، حينئذ يلزمنا أن نضع الدين النصرانى محله » .

وقال عبد الله نديم أنه لو أن أى مسلم كتب مثل هذا التعصب لقامت عليه قيامة أوربا وقالوا : هذا دعاء للحرب الدينية وتعرض للدين المسيحى وسحبوا قناصلهم ونادوا بين أتباعهم المتمدين فى الشرق بالرحيل بدعوة فقدان الامن العام وتوحش المسلمين ، نحن نسأل من ملأو أعمدة التيمس وغيرها من نسبة التعصب إلى المصريين خصوصا والمسلمين عموما . هل رأوا المسلمين اجتمعوا لتغيير دين النصارى ليكونوا معهم . أو تعرضوا لمسيحى بالمجادلة والمناظرة » .

وقد كان القس البروتستانتى « زويمر » رئيس إرسالية التبشير العربية فى البحرين ورأس مؤتمر المبشرين فى القاهرة ١٩٠٦ هو أبرز الدعاة إلى وضع الخطط للتبشير فى العالم العربى .

وقد سمحت الجامعة الامريكية فى القاهرة كما يذكر صاحب الهلال (١٥ يناير ١٩٠٤) بعقد حلقات جدل بين النصرانية والاسلامية . وإحضار بعض الذين

فرد بهم ليتكلموا وقد أدى ذلك إلى إثارة كثير من الاضطراب والبلبلة تحت سمع الحكومة الخاضعة للاستعمار وبصرها .

وكان لعقد مؤتمر المبشرين في القدس ١٩ أبريل عام ١٩٢٨، برئاسة القس جون موت الرئيس العام لجمعيات الشبان المسيحية ومطاعنه على الاسلام أسوأ الأثر في نفوس العرب والمسلمين .

وقد استغل المبشرون حوادث تركيا أعانهم على ذلك دعاة التغريب في العالم العربي الذين هاجموا الاسلام ودعوا إلى أن تطبق مصر أنظمة تركيا في اللادينية وأغلاق المساجد والكتابة بالحروف اللاتينية وكان ذلك إيذانا بحركة ضخمة مركزة بدأت على أثر ذلك حيث أقتحم زويمر الازهر الشريف وقت اشتغال الطلاب بدروسهم (١٨ أبريل ١٩٢٨) ووزع عليهم رسائل تحتوى تشكيكا وطعنا في الاسلام .

زويمر

ومن بين ماوزعه كتاب عنوانه (وجوب الرجوع إلى القبلة القديمة) .

وقد أشارت الصحف إلى أنه دخل على طلبة القسم الرابع من السنة الأولى بالقسم العالى ومعه سيدة وثلاثة رجال وكان الشيخ على سرور الزنكلونى هو أستاذ الفصل وقد سألوا عن بعض آيات من القرآن .

وهاجمت الصحف هذا العمل وقالت إن الإمتيازات الأجنبية تحمى النزلاء من المثول أمام المحاكم المصرية ومن التقاضى أمامها . ولكن هل تحمى مثل الدكتورزويمر الذى قضى سنينا طوالا يطعن في دين الدولة ويوزع نشرات الطعن على أكبر معهد موجود في الشرق وهو الأزهر . وقالت الصحف أن كنيسة روما قد خصصت ملايين الجنيهات عام ١٩٢٩ للتبشير وتنصير المسلمين ومن ثم بدأت جرائم خطف الأحداث وتعذيبهم وإخضاعهم للتنويم المغناطيسى :

وعلق فكرى أباظة (الأهرام ١٩٢٨/٤/٢٣) على الأحداث فقال : إلا الدين يا أجانب ، سكتنا على تهريب الحشيش والأفيون والكوكاكين ، وسكتنا على تقحمكم بحرية القتل بالمسدس والسكين . وسكتنا على امتصاصكم دماءنا وخيراتنا عن طريق القانون والتجارة الخبيثة فلم نضرب عليكم الضرائب ؛ إلا الدين يا اجانب ... لقد دخل الأب زويمر الأزهر . إذن فليكتسح الإسلام ودين الإسلام ما دامت الوكالة البريطانية وراءه تسنده وتحميه . أيها الناس : وصل منسوب الذل إلى الأفواه» .

وقد اشتهر زويمر القس الأمريكي بعداوة الإسلام ، وحرر كتبا هاجم فيها النبي والإسلام ، ومن رأيه عدم مجادلة المسلمين بالبراهين العقلية . بل الدخول عليهم من الجهة القلبية باستجلاب عواطفهم وإستمالة أهوائهم وتمريض أجسامهم ومواساة فقرائهم ، وقد دعا المبشرين النصارى إلى توحيد العمل فى شن الغارة على الإسلام من كل جهة ، ويعتقد أن هزيمة المسلمين تمت فى الحرب العالمية الأولى وإن هذا كان انتصاراً ساحقا للكنيسة المسيحية . ويدعو إلى إتباع برامج تعليمية مثل ما هو متبع فى كلية غردون بالسودان « فإن هذه الخطة مما يزيد الحواجز بين الإسلام والنصرانية » وقد طالب الكنيسة بأن تعبىء جميع قواها وتشن الغارة على العالم الإسلامى ومن رأيه أن نشر المدنيه الغربية فى العالم الإسلامى كفيل بزعزعة العقيدة الإسلامية فى نفوس المسلمين .

وقد بلغت حركة التبشير ذروتها عام ١٩٣٣ حيث وقعت حوادث تنصير فى الجامعة الأمريكية كان أولها (يوسف عز الدين عبد الرحمن) وقد تبين للنيابة من التحقيق (الأهرام — ١٩٣٢/٧/١٩) إن الجامعة الأمريكية تدرس للطلبة علم الأخلاق والإنجيل . وتبين إن إجابات الطلبة تدل على نزعة دينية خاصة . وقد وجد أن منهج الأخلاق الذى يدرس بالجامعة يشمل دراسة نوح وإبراهيم

ويعقوب ويوسف وموسى ويوشع بن نون وشمشون وشاول وداود وسليمان وأيوب ودنيال .

وتبين أن هذا يدرّس بدلا من الدين ويقوم بتدريسه أساتذة مسيحيون لجميع التلاميذ على السواء . ومن ناحية أخرى كانت هناك الارسالية الأسقفية الإنجليزية (C. M. S) ولها ١٥ فرعا فى بولاق ومصر القديمة والجيزة وقصر الدوبارة وكان لمستشفى الدكتور هرمل فى مصر القديمة شهرة ضخمة فى أعمال التبشير فقد تبين أنه يلقى على المرضى دروس الصباح من الإنجيل من مبشر يذهب مع المريض إلى الطبيب الذى يفحصه فيقابله بالبشاشة والترحاب ويسأله عما سمع مما ألقى من دروس الصباح وينبث المبشرون بين المرضى ويقومون بزيارات متعددة المنازل بعد خروجهم من المستشفى .

وأعلن الدكتور هيكل فى السياسة (١٩٣٣/٦/٢١) إنه ثبت بالوثائق إن هذه المعاهد تتخذ برامجها التعليمية وسيلة لتغيير العقائد وإنها تحمل النزعة الدينية هى الغالبة على كل شىء وإنها تقدم إلى تلاميذها كتبا تقضى بالطعن فى الدين الإسلامى وفى النبى العربى ،وأشار بيان هيئة كبار العلماء (٢٧ يونية ١٩٣٣) إلى أن هذه المعاهد تعلم أولاد المسلمين أموراً ضد الدين الإسلامى وضد النبى وضد القرآن الكريم . أما فى الملاجئ فانهم يقصدون الفقراء الذين مسهم الضر ثم يضمونهم فيها ليطعمونهم وعند ذلك يتصرف المبشرون فى عقائدهم الدينية حتى يخرجوهم من دين الإسلام .

وقد انضمت حملة الصحافة ضد التبشير وكان قوامها مهاجمة حكومة صدقى باشا على نحو حزبى،ولم تكن هذه الحملة بقادرة على مقاومة هذا الخطر إلا بمطالبة الحكومة بالقيام بعمل إيجابى ومناشدة الاغنياء وأصحاب الرأى إلى إنشاء مدارس ومستشفيات تحول بين التلاميذ والمرضى من الوقوع تحت سيطرة هذه

المدارس ، كما ارتفعت الدعوة بالمطالبة بالعدل الاجتماعى ووضع نظم لأداء حق الطبقات الفقيرة وكان مصدر هذا العجز عن مقاومة التبشير بصفة فعالة حماية الإمتيازات الأجنبية لهؤلاء الأجانب من المحا كم، واقد لقيت حركة التبشيرأزدراء العالم العربى كله ، لأساليبها الوحشية التى لم يعرف لها مثيلا فى الدعوة إلى دين من الإديان حيث لم تقم من قبل دعوة قوامها الغدر والخيانة واستغلال الفقراء والجهلاء كما فعل الاستعمار عن طريق التبشير .

وقد صور الدكتور هيكل فى مذكراته السياسية (ص ٣٢٨ / ج ١) كيف ظهر نشاط المبشرين بالمسيحية فى ثوب مخوف قال « لقدقالت الصحف يومئذ أن الجامعة الأمريكية بالقاهرة هى مصدر هذه الدعايات التبشيرية وإن بها أركان الحرب التى تنظم هذه الدعايات ،وكان غريبا حقا هذا النشاط الذى أبداه المبشرون والذى لم نسمع بمثله من عشرات السنين وقد امتد هذا النشاط من القاهرة إلى بور سعيد إلى غيرها من المدن والأقاليم . وتحدثت الصحف عن وسائل الأغراء التى يلجأ إليها المبشرون لحمل السذج على أعتناق المسيحية ولتنصير الأطفال الأبرياء من أبناء المسلمين الفقراء،وارتاع الناس لهذه الحملة التبشيرية أيما ارتياع وتألفت جمعية لمقاومة هذا التبشير تجتمع فى دار الشبان المسلمين وكنت من أشد الأعضاء تحمسا لمقاومة التبشير ، اقتناعا منى بأن هذه الحركة يقصد بها إضعاف ما فى النفس من ثقة بدين الدولة ولما ينطوى عليه من قصد سياسى وهو إضعاف معنويات هذا الشعب باضعاف عقيدته » وقد أشار صاحب هامش الأهرام (١٩٣٣/٦/٢٤) إلى موقف أقباط مصر من التبشير فقال:إن المسيحيين عارضوا الحملات وإن جرجس فليثاؤس عوض قال إنه لم يسمع أن مسلما لجأ إلى القبط لينصروه وأنه قد وقع الخلاف بين الأقباط وهذه الأرساليات .

° ° °

ولم تكد حركة التبشير فى مصر تخف قليلا حتى ظهرت دعوة تبشيرية أخرى هى «البهائية» التى اصطنعت أساليب تفوق أساليب المبشرين فى الإباحية والغزو عن طريق المرأة ، وعقد الاجتماعات ذات الأضواء الصارخة والعرى ولكن هذه الدعوة لم تلق صدى الأعند بعض الأغرار والسذج ولم تقو على البقاء أو أحراز أى نجاح؛ وبجمل هذه الدعوة أن بهاء الدين جاء للعصر الجديد وهو روح العصر الجديد وتهدف البهائية إلى توحيد الأديان جميعا تحت علم البهائية ، وقالت النهضة الفكرية ١٥/٧/١٩٣٣ أن للبهائية أساليب تختلف عن أساليب المبشرين وتفوقهم ولهم فى اباحيتهم الاخلاقية أكبر ضرر لهم . وأن الذين يعدون المبشرين بالمال يعدون البهائيين . وبينهما فروق ولكنهما يلتقيان عن نقطة أساسية وغاية مرجوة هى الخروج عن الاسلام والتشكيك فى الرسالة والنبى » .

فى السودان

وقد وجد الاستعمار البريطانى فى السودان مجالا خصبا لحملات التبشير التى أنطلقت منه إلى أفريقيا كلها وتمالت الصيحات المتوالية بما يقع فى السودان وخاصة فى جنوبه من وسائل العنف والغزو لفرض المسيحية، وقد وقعت عام ١٩٣٧ أحداث ضخمة إذ تبين أن أهالى المناطق الجنوبية من المسلمين لا يعاملون على قدم المساواة مع أفراد الجاليات الأخرى ، وأنه محظور عليهم أداء واجباتهم الدينية وأن هناك موانع تحول دون سفر المسلمين من شمال السودان إلى جنوبه .

ونشرت (جريدة السودان - ٢٥/١٢/١٩٣٧) أن المبشرين يتمتعون فى جنوب السودان بحماية الحكومة السودانية التى لها السلطة فى أبعاد من يرون أبعاده من التجار والموظفين غير المرغوب منهم ، وأن المسلمين هناك يلقون عنتا فى سبيل إقامة شعائر دينهم مع مساعده المبشرين بالمال الذى تدفعه الحكومة ، كما عمدت بريطانيا إلى محاولة اتخاذ لهجات القبائل فى جنوب السودان لغة رسمية لهم يدرسونها فى المدارس لتقوم محل اللغة العربية وتحول دون انتشار اللغة التى من

تمكنهم من معرفة الاسلام كما منعوا التكلم باللغة العربية فى هذه المناطق حتى تنشىء الرطانة الأعجمية .

وقد حاول حاكم السودان الانجليزى عندما وجهت له هذه الحقائق أن يدافع عن موقفه فقال: أن مافرض فى جنوب السودان من القيود المحلية على صغار التجار وأمثالهم فقد قصد به منع استغلال الاهالى الذين هم فى أبسط حالات الفطرة استغلالا غير مشروع .

وفيما يتصل بذلك أنشأ الانجليز كلية غردون عام ١٩٠٣ فى الخرطوم وقد جمعت لها بريطانيا ١٠٠ ألف جنيه من أعيان أنجلترا ونفذت فيها نظاما يربطها بالثقافة الانجليزية .

فى الجزائر

وفى الجزائر :قام الكردينال «لافنجرى» رئيس الاساقفة بعمل ضخم فى سبيل التبشير فقد كان ينشىء بعض مراكز التبشير فى منتصف الطرق الموصلة بين المدن على نمط الزوايا الاسلامية لاغراء المسلمين وتنصيرهم وكان يخفى طابعها المسيحى زيادة فى الخداع والتضليل ، ومن ذلك المركز الذى أنشأه فى مدينة بسكرة فى منتصف الطرق بين جبال الاوراس وبحيرات شط العرب وأطلق عليه اسم بيت الله ولبس المبشرون فيه لباس رواد الصحراء تشبها باللباس الاسلامى .

ومما يذكر أن الكردينال (١٨٢٥ — ١٨٩٢) لافنجرى قد عجز بعد أن أمضى اسقفا فى الجزائر أربعين سنة أن يحقق خطته فى تنصير المسلمين وكان قد عمل فى أفريقيا والسودان بتكليف من البابا بيوس التاسع نفسه .

فشل الغزو

تحولت خطط الغزو التبشيرى فى خلال الفترة من ١٨٣٠ — وهو تاريخ احتلال الجزائر إلى نهاية الحرب العالمية الثانية — أكثر من مرة ، وعقدت عشرات

المؤتمرات ، وألفت فى محاربة الاسلام والقرآن والنبى محمد أكثر من مائه ألف كتاب ، وجندت أوربا عديد من كتابها من «فولتير» داعية الحرية إلى زويمر ولافنجرى بل أن عدداً من كبار المستشرقين قد تحولوا إلى التبشير التحقوا بوزارة المستعمرات أمثال ماسينون الفرنسى وجيب المستشرق الانجليزى الموظف بوزارة المستعمرات البريطانية كما استعان التبشير بجميع الاقليات المستوطنة والطارئة فى الوطن العربى لمعاونته أمثال الارمن والاشوريين ومهاجرى اليهود والروس . وهاجت فرنسا اليسوعيين فى بلادها وطاردتهم وجمتهم فى المستعمرات وأمدتهم بالعون . ووضع الاستعمار للتبشير مخططا يرمى إلى خلق دعوات : كالشعوبية والفرعونية والاشورية ، وأثارة الشكوك فى اللغة العربيه والاسلام والتاريخ ، وذلك كوسيلة لخلق جيل خاضع تابع مستغرب لاسيطرة للحرية ولا للكرامة العربية عليه .

× وفى مصر وجد التبشير يعقوب أرتين باشا وكيل وزارة المعارف الذى عين المبشر « دوجلاس دنلوب » معلما فى مدرسة بالإسكندرية ثم نقل إلى وزارة المعارف مفتشا ثم أصبح صاحب السلطان الأعلى على التعليم والتربية فى مصر طوال فترة الاحتلال وفى ظل كرومر وظل أثره قائما طوال الفترة .

وقد وجد التبشير فى كثير من الاحداث سبيله إلى دفع خططه إلى التنفيذ : فاستغل صدور الدستور العثمانى ١٩٠٨ فقال استورد لروفورد رئيس مؤتمر ١٩١١ فى لكنئو بالهند أنه بعد الانقلاب العثمانى يمكن انتهاز الفرصة لهداية العالم الاسلامى إلى الانجيل .

كما استغلت فرصة الحرب العالمية الاولى وتقسيم العالم العربى ؛ وقال زويمر أن هذا التقسيم هو الذى سيقضى على الاسلام ويحقق مهمة التبشير — وكان الاحتلال البريطانى لمصر والاحتلال الفرنسى للجزائر فرصة للتوسع بشمال أفريقيا، وكان احتلال السودان فرصة للتوسع فى وسط أفريقيا ، ومع كل الاعتمادات الضخمة التى وجهت

التبشير فى ميزانيات عدد من الدول الغربية كفرنسا وانجلترا وأمريكا وإيطاليا وهولندا وبالرغم من أنشاء فروع لجميات الشبان والشابات المسحيات فى مختلف نواحى العالم العربى فقد كانت النتيجة هى ما قاله مستر أوجين يونج المندوب السامى الفرنسى (١٩٢٨) فى مؤلفه عن استعباد الاسلام : قال :

« أن الاسلام قوة كبرى لا يمكن الاحاطة بها ولا معرفتها معرفة تامة فلا العقيدة اللاتينية ولا المذهب الكاثوليكى يمكنهما أن ينالا من الاسلام شيئاً أو يسيطرا عليه . بل أن الأمر على العكس من ذلك أن الإسلام ينتشر ويسير فى هذه الطريق بخطوات واسعه » .

وكانت نتيجة عمليات الغزو الضخمة باسم التبشير والتى أنفقت فيها الدول المستعمرة ملايين الجنيهات أنه لم يحدث انتقاله صورة جماعية من الاسلام إلى المسيحية على النحو الذى كان يتخيله دعاة التبشير . وقد كانت النتيجة مخيبة لآمالهم على طول الخط ، فبعد أكثر من تسعين عاما من العمل المتصل (١٨٤٠ إلى ١٩٢٠) عاد المبشرون يغيرون خططهم ليحاولوا تحقيق نصر فردى فى هذا المجال بعد أن عجزوا عن النصر الجماعى ، غير أن كل الخطط فشلت ومؤدى هذه النتيجة ينطبق مع موقف الفكر العربى من الغزو الثقافى ، ويجرى وفق نظرية «التحدى ورد الفعل » التى لم يظهر أثرها فى أى عمل من أعمال التغريب الثقافى كما ظهر فى هذه الحركة .

وقد أشار مؤلف كتاب «فى الدراسات الدينية » الفرنسى إلى عجز المبشرين فى مجال تحويل المسلمين عن الإسلام حيث قال : ينبغى أن نذكر أن الدين الاسلامى يخالف كل المخالفة لهذه الابراج المتشامخة التى تسقط من ضربة واحدة لأن فيه قوة كامنة وصلابة ومتانة تجعله قادراً على المقاومة مقدرة تامة » .

المراجع

التبشير والاستعمار : الدكتوران مصطفى خالدى وعمر فروخ .

حاضر العالم الإسلامى : ج ١ عجاج نويهض وشكيب أرسلان .

آراء وأحاديث فى التاريخ والاجتماع : ساطع الحصرى .

مذكرات الدكتور محمد حسين هيكل السياسية — ج ١ .

مجلة الفتح : محب الدين الخطيب : (العدد ٤٤) ٥ مايو ١٩٣٢ .

منهج البحث العلمى الحديث

أزاء العقل العربى

كان من أهم مادعا إليه الفكر الغربى وحمل لوائه المستشرقون: منهج «البحث العلمى الحديث» وهو سليم الأسس يقتضى أن تمحو من نفسك كل رأى وكل عقيدة سابقة من هذا البحث وأن يبدأ البحث بالملاحظة والتجربة ثم بالموازنة والترتيب ثم بالاستنباط القائم على المقدمات العلمية للوصول إلى نتيجة علمية خاضعة للبحث والتمحيص.

ولم يكن الغرب الذى دعا إلى هذا المنهج محدثا فى مذهبه ، وإنما كان قد اتخذ أساساً له من مذهب الفكر العربى الاسلامى القديم فى البحث الذى دعا إلى العقل والبرهان « قل هاتوا برهانكم » والاقناع بالحجة وتقديم العقل على ظاهر النص.

وقد جرى «الغزالى» على هذه الطريقة حيث أعلن فى كتبه أنه جرد نفسه من جميع الآراء ثم فكر واستدل حتى وصل إلى ماوصل إليه من رأى على أساس الدليل والبرهان.

ولذلك فان ماادعاه الغرب من إيمان العرب بالعقلية الغيبية محض افتراء لا أساس له ، فقد وصفت العقلية الشرقية بأنها جزئية تنتقل من الجزء إلى الجزء الآخر دون أن تربط بين الاجزاء ، ولا تبحث فى المقدمات والنتائج ولا تعنى بالتحليل وهذا مالا يتفق مع مقدمات العقل العربى ولا الفكر العربى عامة الذى أثبت على طول القرون علميته وبراعته فى الشك والنقد والبحث عن البرهان للوصول إلى الحقائق على أساس المنطق والمقدمات والنتائج ووفق أسلوب التحليل.

يقول « ابن رشد » فى تصوير منهج البحث العلمى العربى : يجب علينا إذا

الفينا ممن تقدموا من الأمم السالفة نظراً فى الموجودات واعتباراً لها بحسب ما اقتضته شرائط البرهان أن ننظر إلى هذا الذى قالوه من ذلك ، وما أثبتوه فى كتبهم ، فما كان منها موافقاً للحق قبلناه منهم وسررنا به وشكرناهم عليه . وما كان منها غير موافق للحق نبهنا عليه وحذرناهم منه وعذرناهم . أن كل ما أدى إليه البرهان والعقل وخالفه ظاهر الشرع فإن ذلك الظاهر يقبل التأويل » .

ويقول الامام الشافعى فى تصوير منهج البحث العلمى كما يراه : أن هذا العلم دين فانظروا عمن تأخذون منه ، لقد أدركت سبعين ممن يقولون : قال رسول الله عند هذه الاساطين فما أخذت منهم شيئاً . وإن أحدهم لو أؤتمن على بيت المال لكان أميناً ، إلا أنهم لم يكونوا من أهل هذا الشأن » .

وهذا يعنى فى نظر الفيلسوف العربى الاندلسى والفقيه العربى القاهرى أن يقوم البحث العلمى على أساس أهلية من يحمل العلم ، والقدرة على فحص النصوص ومطابقتها للحق على أساس البرهان والعقل ، وبذلك وضع الفكر العربى قواعد البحث العلمى وأصول التفكير وحصرها فى الملاحظة والاستقراء وتحكيم العقل .

ولقد تخلف الفكر العربى من بعد عن مذهبه وعلاه التراب ثم جاء الغرب فوضعه فى قالب جديد دون أن يخرج به عن مضمونه ولذلك فإن نظريات باكون وديكارت ليست إلا صورة مما جاء فى أقوال ابن رشد والغزالى والشافعى .

وقد أعلن الفكر العربى «نظرية المعرفة» قبل الفكر الغربى بسبعة قرون ، هذه النظرية القائمة على أساس الاختبار المحسوس ، والاستقلال والتجربة دون التقليد، قال ابن حزم « أن المعرفة تكون أولا بشهادة الحواس، أى باختبار لما تقع عليه الحواس ومايقول العقل أى بالضروره من غير حاجة إلى استعمال الحواس الخمس ، وببرهان راجع من قرب أو بعد إلى شهادة الحواس وأولها العقل .

وقال ابن حزم : أن التقليد حرام .

وعلى أساس نظريته التى هى من صميم الفكر العربى خالف كثيرا من الاقوال التى كانت معتمدة فى زمنه ، وهو القائل بأن الغرض من الفلسفة والشريعة إنما هو « إصلاح النفس » .

وفيما يتصل بهذا ماعرف الفكر العربى من أصول النظريات السياسية المستقلة عن الفكر الاغريقى والرومانى . وقد سبقت ما انتجه العقل الأوربى .

وأبحاث الامامة والعقد السياسى والاشتراكية وتطبيقات الشيعة والمعتزلة والمرجئه وشئون المعاملات والبيعة ، كلها غير مسبوقة وأن كان ما أدعاه الغرب من أن اليونان هم وحدهم الذين عرفوا النظريات السياسية هى دعوى تغريبية تكذبها الوقائع الصحيحة .

وقد صور الغزالى فى كتابه (المنقذ من الضلال) أسلوبه العلمى فى فهم الاسلام فقال أنه رأى « صبيان النصارى ينشأون على النصرانية ، وصبيان اليهود ينشأون على اليهودية ، وصبيان المسلمين على الاسلام وأنه لم يقتنع بهذا الدين التقليدى اليقينى ولذلك اتجه إلى أن يعلم حقائق الأمور ، وأن يبنى دينه على يقين ، ولذلك بدأ بالشك فى كل ذلك حتى يقوم البرهان على صحته ؛ وقال بالنص : كل ما أعلمه على هذا الوجه ولا أتيقنه هذا النوع من اليقين فهو علم لا ثقة به ولا أمان معه وكل علم لا أمان معه فليس بعلم يقينى » .

وتطبيقا لنظرية « المنهج العلمى العربى » نقد الفيلسوف « النظّام » أراء أرسطو كما نقضها الجاحظ أيضاً ونقد « البيرونى » نظريات اليونان والهند فى الرياضيات . ووقف الغزالى فى كتابه « المنقذ » موقف ديكارت الذى جاء من بعده .

* * *

وبعد فهل طبق الغرب منهج البحث العلمي الحديث عندما بحث تاريخ الأمة العربية ودينها ولغتها وتراثها .

وهل تجرد كتاب الغرب ومحوا من أنفسهم أحقادهم وخصوماتهم وتعاليهم عندما نظروا إلى تاريخ الأمة العربية أم تأثروا بنظريات جيبون ورينان في الفرق بين السامية والارية ونظريات الاجناس والعنصرية ورسالة الرجل الأبيض .

الواقع أن من ينظر إلى ما كتبه علماء الغرب ويجده مليئاً بالافتراءات والاكاذيب على الاسلام والنبي والقرآن وتاريخ العرب وأصول دينهم وحضارتهم هو في أغلبه جانح أشد الجنوح عن مذهب البحث العلمي الذى لا يريد الغرب حين يفرضه علينا إلا إثارة الشكوك والاتهامات ومحاولة التصغير من شأن بطولاتنا وأمجادنا .

والواقع أن نظرية قصر العلم على أساس البحث والملاحظة والاستقراء إنما وضعت أول الأمر للنظريات العلمية وحدها ، ثم انسحبت على الفكر والتاريخ والدين غير أن الإيمان بقدرة العلم المطلقة لم تلبث أن تراجعت أمام الجوانب الغيبية وأقرتها بعد أن أنكرتها أول الأمر انكاراً مطلقاً .

وكان « أوجست كت » العالم الفرنسي أول من قدر ذلك حين قرن بفلسفته العلمية ديانة الإنسانية .

ثم تحرر العلماء من قيد النظرية وأعلنوا إلى أن العلم قد عجز عن أن يمد غذاء نفسيا للشعوب الغربية وأنه لا مفر من الالتجاء إلى أديان الشرق ومذاهبه ، وقد نشأت على أثر ذلك نظرية « اقتراض » الغرب لثقافات الشرق الروحية وظهر مذهب الثيوصوفية .

دعاة التغريب

اعتمد التغريب على عناصر ثلاث (١) خليط الأفكار الغربية التي قذف بها الفكر العربي دفعة واحدة ، وركز فيها على النظريات التي طالما نظر فيها الغرب ورفضها وعارضها بنظريات أخرى وخاصة ما يتصل منها بأنكار الخالق والشك في الأديان وتغليب جانب المادة والجنس كنظريات دارون وفرويد .

(٢) المستشرقون والمبشرون والعلماء الذين وردوا إلى الشرق في أفواج متوالية وتحت اسماء وشمارات مختلفة،والذين حملوا معهم أفكار جوبنيو ورينان حول فوارق اللون والعقل بين الارية والسامية ورسالة الرجل الأبيض ، وقد حرص هؤلاء الكتاب والعلماء على نقل أسوأ الصور ، والاتهامات والأخطاء وكانوا بطبيعة الدراسات التي تلقوها واستعدادهم الطبيعي — إلا القليل من المنصفين أحرار الفكر — منحرفين استعماريين .

ولذلك كانت كتاباتهم جميعاً بعيدة عن نزاهة المنهج العلمي الحديث ، متعارضة مع الحقائق والوقائع .

(٣) كتاب العالم العربي المتغربين ، الذين سافروا في بعثات علمية إلى فرنسا وبريطانيا وأمريكا،والتقوا هناك بأساتذة من علماء التبشير والاستشراق فارتبطوا بهم فكريا وحملوا لواء نظرياتهم إلى العالم العربي . وترجع النظريات التي حملتها كثير من الدراسات والتي أحدثت ضجة في بلادنا إلى اقتباساتها من آراء هؤلاء الكتاب وهي لاتخرج في مجموعها عن آراء مرجليوث ودوركهيم وليفي بريل وماسنيون ومرسيه وجميعهم مستشرقون متعصبون لليهودية أو المسيحية ، يخدمون الاستعمار ويحقدون على الإسلام واللغة العربية ومن أمثلة ذلك ما تأثرت به رسالة (منصور فهمي) عن المرأة في الإسلام التي كتبها عام ١٩١٣ بآراء ليفي بريل

الاسرائيلي كما تأثرت رسالة طه حسين عن ابن خلدون (١٩١٨) بآراء دوركهيم وتأثرت رسالة طه حسين عن الشعر الجاهلي بآراء مرجليوث وماسنيون .

وأبرز مظاهر عمل هذه الطائفة : « التشكيك » فهؤلاء أقرب بالطبع إلى أهل أوطانهم ويكتبون باللغة العربية ، ولذلك فأن كتاباتهم من شأنها أن تجد قبولا حاصا إذا قامت بناء على منهج مرسوم ، فيه الموالاه والتدرج والتكرار ، وقد قام بهذا العمل كتاب كثيرون وصحف كثيرة من أهمها المقتطف والمقطم وكان أجرأ كتاب هذه الدعوة : فرح انطون وسلامه موسى وإسماعيل مظهر وطه حسين .

وهناك كتاب قاموا فى مطلع حياتهم بهذا الدور ثم تخلوا عنه بعد أن تكشفت لهم الحقائق من هولاء : منصور فهمى والدكتور هيكل وزكى مبارك .

ومما يذكر أن هناك كتاب سافروا إلى أوربا ودرسوا بها واتصلوا بالمستشرقين والعلماء ودعاة التغريب ولكنهم أستطاعوا الاحتفاظ بروحهم العربى الأسيل .

ولقد كان الكتاب المتغربون يوماً من الأيام سلاحاً بتاراً أزاء كل قلم كريم أو رأى حكيم ، وكانوا يهاجمون كل دعوة إلى الاعتدال فى نقل الحضارة أو المحافظة على الدين والقيم أو مقومات الشخصية العربية أو تراث الاسلام فما أن تنطلق دعوة من هذه الدعوات حتى تخرج لها أقلام دعاة التغريب لتدحرها متهمة أياها بالرجعية والسطحية والخيانة للحضارة ومقاومة تيار التمدن وممارضة التطور .

ويمكن أن توصف كتابات هؤلاء الكتاب بأنها حملة تغريبية شاملة متعددة الجوانب، فقد تناولت واللغة الزى والدين والمجتمع والمرأة وموقفنامن الشرق والغرب وأقليمية الأدب والايمان بفرنسا ومهاجمة الشريعة الاسلامية .

وهاجم طه حسين أحمد زكى باشا شيخ العروبة لأن مجّد مدنية العرب وأشاد بها وكشف عن حقائقها ورد أخطاء المستشرقين وكشف عن بغضهم ومغالطاتهم .

واتهم سلامه موسى العرب بأنهم دبروا هجوماً على المدنيات الرومانية والأفريقية .

وقال أن إسماعيل باشا أعظم من مصطفى كامل لأنه سبق إلى اتخاذ قانون نابليون .
كما اعتبره زعيم المجددين .

التعصب والتسامح بين الاسلام والمسيحية

والكاتب (فرح انطون) نموذج لهؤلاء الكتاب فى اتهاماته للاسلام بالتعصب والمسيحية بالتسامح (الجامعة — يوليه ١٩٠٢) قال :

«أى كان أكثر تسامحا وأقل تعصبا فما يختص بالعلم والعلماء : الدين المسيحى أم الدين الاسلامى فمنهم من يرى أن الدين المسيحى كان أكثر تسامحا من الدين الاسلامى لأن بعض علماء النصرانية وكتابها قالوا فيها أقوالا فى منتهى التطرف والغلو والتحامل ومع ذلك لم يضرهم شيء ، ويرد عليهم آخرون يقولون إن الدين الاسلامى كان أكثر تسامحا من الدين المسيحى فإنكم هل رأيتم فى تاريخ الدين الاسلامى علماء يحرقون وهم على قيد الحياة لأنهم أنكروا ما أنكروه كما جرى فى ديوان التفتيش فى أسبانيا ، كلا .

إننا نرى أن السلطة المدنية فى الاسلام مقرونة بالسلطة الدينية بحكم الشرع لأن الحاكم العام هو حاكم وخليفة معاً . وبناء على ذلك يكون فى هذه الطريقة أصعب منها فى الطريقة المسيحية ؛ فإن الديانة المسيحية فصلت بين السلطتين فصلا بديعا مهد للعالم سبيل الحضارة الحقيقية والتمدن الحقيق : وذلك بكلمة واحدة : أعطوا ما لقيصر لقيصر وما لله لله .

ثم إن العلم والفلسفة قد تمكنا إلى الأبد من التغلب على الاضطهاد المسيحى ولذلك نما غرسهما فى تربة أوربا وأينع ثمر التمدن الحديث ولكنهما لم يتمكنا من التغلب على الاضطهاد الاسلامى »ا . ه

رد محمد عبده

«إنى أعمل فى الجواب عما يلاقى هذين الحكمين إجمالا : أما الأول فإن كان الإنجيل فصل بين السلطتين بكلمة واحدة فالقرآن قد أطلق القيد من كل رأى بكلمتين كبيرتين لا كلمة واحدة « لا إكراه فى الدين قد تبين الرشد من الغى » .

أما الثانى : فاسأل الجامعة فى جوابه : أين الاضطهاد الواقع على العلماء اليوم عند المسلمين وأين أولئك العلماء المضطهدون . وأريد بالعلماء أولئك الذين يساوون من ذكرتهم من فولتير وديدرو ورسو وأمثالهم .

فإذا أرادت — أى مجلة الجامعة — شاهدا على حال المسيحية والعلم فلتمر بنظرها اليوم على أسبانيا ولتقف برهة من الزمان لتحكم . يمكنها أن تعد من طلبة العلوم المسلمين مئين من مدارس المسيحين من جزويت وفرير وأمريكان . فهل يمكننى أن أجد طالباً واحداً مسيحياً فى مدرسة دينية إسلامية يباح الدخول فيها لكل طالب علم من أى ملة ، لا نجد إلا قليلا منهم فى مدارس الحكومة ، فهل سمع أن والداً اضطهد لأنه بعث بولده إلى مدرسة مسيحية يديرها قسوس مسيحيون ؟ ألا يعد هذا من تسامح الاسلام مع العلم اليوم .

ومثله اشتراك المسلمين فى الجرائد المسيحية وعدم اشتراك النصارى فى الجرائد الإسلامية إلا نادراً .

ولا يجوز فى شريعة الانصاف أن يذكر المسلمون فى جانب جمهور المسيحين إذا ذكر الغلو فى التعصب الدينى فضلا عن أن يقال أن المسلمين أشد إفراطا فيه، وما على طالب الحقيقة إلا أن يسبح بفكر ، فى مثل المستعمرات الهولاندية فى الشرق ومملكة الترنسفال قبل سقوطها وبلاد الناتال فى الجنوب ثم يرجع إلى الجزائر وما يليها من جهة الغرب ليعلم كيف تكون الشدة فى المعاملة مع غير

أهل المذاهب المسيحية وكيف يبلغ التعصب من أهله حداتنظر إليهم فيه الإنسانية شزراً . ولا تقبل لهم فيه المدينة عذراً .

الفكر العربي بين الغيبية والسطحية

وكتب إسماعيل مظهر في المقتطف (فبراير ١٩٢٦) يهاجم الفكر العربي ويرميه بالغيبية والتحلل والسطحية قال : إذا نظرت فيما أبرز العرب من نتائج الفكر من علم وأدب أو فلسفة أو فن وجدت أن فيها آثار التخلخل والتشعب . ماهو جدير بأن يبرز في عصر عكف فيه الفكر على طريقة الشك الغيبي لم يعدها إلى طريقة التحليل والنقد . وذاعت بينهم مذاهب فلسفية نقلها المترجمون وجلهم من النساطرة واليهود ووثني حران عن اليونان . ولكنك لا تجد عندهم مدارس فلسفة ينسب إليهم ابتكارها فليس عندهم مدرسة تعزى إلى الفارابي أو ابن رشد أو ابن سينا مثلا . فالمذهب الفلسفي ظل رأيا فرديا عند العرب .

هذه العقلية بذاتها هي التي ورثها السيد الافغاني عن العرب ، عقلية وقفت عند حد الأسلوب الغيبي لم تتعده وتنكبت كل سبيل كان من الممكن أن يصل بها إلى الأسلوب اليقيني .

ورد عليه الأمير (مصطفى الشهابي) المقتطف نوفمبر ١٩٢٦ فقال :

اليونانيون ساروا في بعض اتجاهاتهم العلمية على الأسلوب اليقيني وحادوا عنه في بعض آخر — وكذا أجدادنا العرب — وقد يكون اليونانيون أقرب إلى الأسلوب اليقيني من العرب إجمالا ، ولم ينفرد العرب باتباع الأسلوب اليقيني فلا غضاضة إذن عليهم بل على العكس كانت علومهم المستمدة من علوم اليونان والفرس والهنود متأثرة بتأثير باقي الأقوام في هاتيك العصور المظلمة .

فالعرب وهم تلامذة اليونانيين قام منهم عدد غير قليل ممن اتبعوا الأسلوب الغيبى فى أبحاثهم فأثبتوا حقائق ستظل فخرا لهم إلى ؛ الآن وخلاصة الرأى أنه يجب إما أن نقول بأن العرب كانوا كاليونانيين والرومانيين يتبعون الأسلوب الغيبى فى بعض أبحاثهم واليقينى فى البعض الآخر · وإما أن نحكم على الأقوام الغابرة جميعاً حكما صارما فنقول إنهم أصحاب أسلوب غيبى على الإطلاق وأن الأسلوب اليقينى لم يوجد إلا فى عهد إسحاق نيوتن ودى كارت وفى هذه الحالة يشمل الحكم اليونانيين بلا ريب ·

٧ - دعوات التغريب

تعددت دعوات التغريب ، وظهرت في كل بقعة من الوطن العربي دعوة منها تختلف عن الدعوة التي تظهر في المكان الآخر ، وهي متنوعة بين معالم المزج بين الأديان ، أو هدم بعض هذه الأديان ، أو التغريب الكامل والهجوم على الاسلام والشرق واللغة العربية وظهرت دعوة إلى الإيمان بالغرب إيمانا كاملا وكذلك إلى الأدب المحلي وإلى تقديم المستشرقين على علماء العرب في فهم الاسلام والقرآن والدين ، وهناك دعوات فرنسا الأم والهجوم على الاسلام في موقفه من المرأة ونظرية ديكارت وغيرها .

وقد تحدثنا عن هذه النظريات في أماكن متعددة من هذه الدراسة وهذه نظرة عامة إليها :

توحيد الإسلام والمسيحية

من بين دعوات التغريب والغزو الثقافي : دعوة التوحيد بين الإسلام والمسيحية وقد بلغت هذه الدعوة قمتها حين أيد الاستعمار الحركة البهائية باعتبارها « دينا » جديدا يتمشى مع روح العصر وتهدف إلى توحيد الأديان جميعا تحت علم البهائية ، قد تمدد الدعاة التي قدموا إلى العالم العربي يحملون الدعوة إلى محاولة التقاء الإسلام والمسيحية في دين واحد . وقد جرى سجال في هذا الشأن بين الشيخ محمد عبده وأحد القسس الانجليز عام ١٨٨٧ في دمشق إبان نفيه . وعندي أنها دعوة ماكرة مغرضة لا تستهدف إلا القضاء على الإسلام أو التشكيك في شأنه .

وقد روى الشيخ حمزة فتح الله للدكتور حسين الهراوي (٨ يوليه ١٩٣٢ السياسة الأسبوعية) أنه وفد على القطر المصري في أوائل هذا القرن رجل فرنسي يقال له (جباره) أخذ يفاوض المفكرين العرب ورجال الأزهر في فكرة توحيد الأديان، فلما ذهب إلى الشيخ حسن الطويل شيخ الأزهر : قال له : إن الفروق بين الأديان مسائل فرعية الغرض منها الدعوة إلى الخير ، والنهي عن الشر فماذا علينا لو عملنا على إدماج هذه الأديان .

وروى حمزة فتح الله أن الشيخ حسن الطويل كان يتناول أفطاره فلم يلبث أن ابتسم ، وقال للمبشر جبارة فى تهكم :

— هل لك ياخواجة فى أكلة لذيذة من الفول المدمس .

وقال «منيا ابراهيم» أحد رجال المسيحية فى مصر لجباره : أنه من الخير للعالم والإنسانية أن يهمل فكرته حتى لايأتى بمذهب جديد فتكثر الملل والنحل !

٢ — ومما يتصل بهذه المؤامرات ما ذكره «بلنت» من أن أحد القسس الانجليز (اسحاق تيلور) التقى بالشيخ محمد عبده فى دمشق أثناء منفاه ١٨٨٧ وكان يقوم بالدعاية لتوحيد الاسلام والنصرانية .

٣ — وقد عقد المستشرقون والمبشرون عدداً من المؤتمرات الخاصة للبحث فى تاريخ الأديان من أهمها مؤتمر باريس ١٩٣٣ الذى اشتركت فيها جامعات فرنسا وانجلترا وسويسرا وأمريكا وإيطاليا وبولونيا وأسبانيا وهولندا والاستانة .

وفى مؤتمر الأديان الدولى ببروكسل عام ١٩٣٥ ألقى الشيخ أمين الخولى بحثا عن صلة الإسلام بإصلاح المسيحية أشار فيه إلى ما قامت به أوربا من اقتباس الإصلاح الدينى من الإسلام وقال :أن أثر الإسلام فى حياة أوربا الدينية لايقل أبدا عن أثره فى حياتها الفلسفية والعلمية والفنية .

وفى مؤتمر الأديان العالمى (يوليو ١٩٣٦) الذى دعا إلى تضافر جميع الأديان فى سبيل الإسلام وعقد فى لندن وأعلن أنه يرمى إلى تعزيز روح الأخاء والزمالة بين الشعوب على اختلاف أديانها وجنسياتها ، وأن الاتفاقات السياسية عجزت عن إيجاد أساس صحيح لسلام العالم وأن فى وسع كل ديانة أن تساهم فى حل مشكلة العالم الفكرية ، وقد دعى الأزهر إلى الاشتراك فى هذا المؤتمر لتمثيل الإسلام . وكتب شيخ الأزهر مصطفى المراغى رسالة عن المثل الأعلى للروحية صور فيها مفهوم الإسلام لرسالة السلام .

٤ — والواقع أن « التوفيق » بين الإسلام والمسيحيه — وليس توحيدهما هى الدعوة التى حملها الأحرار فى العالم العربى لمقاومة النفوذ الأجنبى الذى كان يعتمد دائما على التفرقة بين الطوائف والأديان ويناصر أحدها على الآخر .

وقد كان « التوفيق » بين الإسلام والأديان الأخرى اتجاه قديم عُدّ من أصول الشريعة .

وفى التاريخ الحديث التقى الهلال والصليب فى ثورة ١٩١٩ المصرية ، كما ترابطت المشاعر باسم الوطنية فى أنحاء العالم العربى وحمل المسيحيون فى الشام لواء الدعوة إلى القومية العربية ومزج الكتاب المسيحيون بين عواطف الإسلام والعروبة والتغنى بالتراث العربى الإسلامى وبطولة محمد وعمر وخالد باعتبارها بطولات عربية وقد مجد كتاب العرب من المسيحيين النبى محمد على أساس أنه مفخرة للعرب واسمى مارون عبود ابنه محمداً وكتب لبيب الرياشى وشبلى ملاط والياس فاعور ونجيب نصار وجورج سلستي والتقى المسلمون والمسيحيون فى معركة الحريه .

وأشار توماس أرنولد فى كتابه « الدعوة إلى الإسلام » بأن الكنيسة المسيحيه قويت وتقدمت فى رعاية المسلمين وحكمهم ، وأن جميع المذاهب المسيحيه كانت تتمتع بالرعاية والتسامح من الحكام المسلمين على حد سواء . بل أن هؤلاء الحكام من المسلمين كانوا هم الذين يمنعون أضطهاد بعض المسيحيين للبعض الآخر ويكفلون الحرية الدينية للجميع » وقد التقى رأى قادة الإسلام والمسيحيه على العمل لصيانة هذه الوحدة فقد حدث عام ١٩٣٠ أن أرسل الشيخ الببان شيخ معهد الاسكندرية خطابا إلى الانبا يؤنس بطريرك الاقباط يقول فيه : أن فريقا متهوسا من زعماء الكنيسة المرقسية يعمل على هدم مابناه العقلاء ويدبر الحملات الطائشة ضد الإسلام دين الدولة الرسمى معرضا بذلك الوطن لأعظم الأخطار » فأجاب الأنبا يؤنس بقوله :

«إذا وجد فرد أو إفراد يعملون ضد الوحدة المقدسة بالطعن فى الدين الإسلامى الذى هو دين إخواننا فى الوطنية فإنهم يكونون من شر الجناة على الوطن .

٥ — وقد أجرت مجلة الهلال استفتاء (أبريل ومايو ١٩٣٩) فى شأن توحيد الإسلام والمسيحيه فكان رأى علماء المسلمين (فريد وجدى) أن الإسلام جاء للتوفيق بين جميع الأديان ورفع أسباب الخلاف بينهما . وقال إن الإسلام يتقدم إلى الناس لا باعتبار أنه دين جديد ولكنه باعتبار أنه دين البشرية الاقدم خالصا من جميع الشوائب التى الحقتها به الاجيال المتعاقبه .

وقال القس ابراهيم سعيد : إن الدين ليس غاية فى ذاته ولكنه وسيلة لغاية وقال أنه يعتقد بامكان توحيد الأديان لا ببتر جزء من هذا الدين وجزء من ذاك الدين ليتكون منهما دنيا واحداً ، وإنما اعتقد بتوحيد الأديان على أساس روحى يحتفظ فيه كل بجسمه . وقال القمص مرجيوس : أن هناك اتحاداً ممكنا هو أن تتحد المسيحيه والإسلام فى محاربة الالحاد والاباحة .

* * *

ومعنى هذا أن مؤامرة استعمارية فكرية استهدفت الغزو الثقافى والتجزئة والقضاء على الإسلام أو تشويهه قد فشلت أيضا لأن عقائد الفكر العربى وقيمه استطاعت بعمقها وحيويتها أن تقاوم كل تيار من تيارات التغريب .

٢ — التغريب الكامل :

وهناك دعوة تغريبية أخرى هى : الاتجاه المطلق إلى الغرب وقد حمل لواءها سلامه موسى وطه حسين

ويعارض (سلامه موسى) الشرقية والعربية والاسلامية ويهاجم اللغة العربية والدين والقومية العربية ويدعو إلى التغريب الكامل وهذه مجمل آرائه :

× ليس هناك حد يجب أن نقف عنده من اقتباسنا من الحضارة الأوربية .

× لنا من العرب ألفاظهم فقط ولا أقول لغتهم . بل لا أقول كل ألفاظهم ، فإننا ورثنا عنهم هذه اللغة العربية . وهى لغة بدوية لا تـكاد تـكفل الأداء إذا تعرضت لحالة مدنية راقية كتلك التى نعيش بين ظهرانيها الآن .

× نحن فى حاجة إلى ثقافة حرة أبعد ما تـكون عن الأديان . ولا بأس من أن نعتمد على الترجمة إلى حد بعيد حتى يتحضر العلم وتتحضر الألفاظ .

× علينا أن نرتبط بأوربا وأن يكون رباطنا بها قويا . نتزوج من أبنائها وبناتها . وننظر للحياة نظرها ، ونجعل أدبنا يجرى وفق أدبها ، بعيدا عن منهج العرب ونجعل فلسفتنا وفق فلسفتها ونؤلف عائلاتنا على غرار عائلاتها .

× اصطناع القبعة أكبر ما يقرب بيننا وبين الأجانب ويجعلنا أمة واحدة ؛ القبعة هى رمز الحضارة يلبسها كل رجل متحضر .

أن الحركة التى قامت فى العام الماضى ، وكانت غايتها اصطناع القبعة قاومها زعماؤنا وقتلوها فى مهدها ، فأثبتوا بذلك أنهم لايزالون أسيويين فى أفـكارهم لايرغبون فى حضارة أوربا إلا مكرهين .

× الجامع الأزهر يبث فينا ثقافة القرون المظلمة — وإذا كانت الرابطة الدينية سخافة فإن الجامعة الدينية وقاحة .

× كلما ازددت خبرة وتجربة وثقافة توضحت أمامى أغراضى فى الأدب ، كما أزاوله فهى تتلخص فى أنه يجب علينا أن نخرج من آسيا وأن نلتحق بأوربا فإنى كلما زادت معرفتى بالشرق زادت كراهيتى له وشعورى بأنه غريب عنى وكلما زادت معرفتى بأوربا زاد حبى لها وتعلقى بها . وزاد شعورى بأنها منى

وأنا منها ، هذا هو مذهبي الذي أعمل له طول حياتي سرا وجهرة فأنا كافر بالشرق مؤمن بالغرب .

— نريد من الأدب أن يكون أدبا أوربيا ٩٩ في المائة قائم على المعنى والقصد . لأعلى اللفظ كما كان الحال عند العرب .

— نريد من التعليم أن يكون تعليما أوربيا لاسلطان للدين عليه ولا دخول له فيه .

• أن هذا الاعتقاد بأننا شرقيون قد بات عندنا كالمرض . ولهذا المرض مضاعفات . فنحن لأنكره الغربيين فقط ونتأفف من طغيان حضارتهم فقط بل يقوم بذهننا أنه يجب أن نكون على ولاء للثقافة العربية ، فندرس كتب العرب ونحفظ عباراتهم عن ظهر قلب كما يفعل أدباؤنا الماكين أمثال اللازني والرافعي وندرس ابن الرومي ونبحث عن أصل المتنبي . ونتعصب للجاحظ ونيسر علينا للعرب أي ولاء . ثم يجب أن نذكر أن أدمان الدرس للعرب يشتت الأدب المصري ويجعله شائها لا لون له .

• الرابطة الشرقية سخافة . إننا في حاجة إلى رابطة غربية .

× عندي أن قليلا جدا من ألفاظ اللغة يكفينا بلا حاجة إلى هذه القاعة التي لا تكاد تخلو منها صحيفة من الصحيح والخطأ .

وإذا كانت ٨٥٠ كلمة انجليزية تكفي الانجليز فلماذا لا تكفينا مثله أو ضعفه أو ثلاثة أضعافه .

× أرى أن مصلحتنا ومصلحة العالم كله أن نغرس في أذهان جميع العرب في مصر والعراق وسوريا وشمال أفريقيا أنهم أوربيون سلالة وثقافة وأنهم يجب

عليهم أن يسيروا سيرة الشعوب الأوربية يتثقفون بثقافتهم ويتعودون بعاداتهم .

× أن العلماء يتجهون إلى القول بأن مصر هى التى انشئت الحضارة فى العالم وأن المصريين القدماء لم يكونوا أمة شرقية بل كانوا أمة غربيه الدم والمزاج .

× حرمان لغتنا من كلمات الثقافة المصرية هو كذلك حرمان للأمة من المعيشه المصرية ، فنحن مازلنا نعيش بكلمات الزراعة ، ولا نعرف كلة الصناعة ولذلك فإن عقليتنا قديمة جامدة متبلدة تنظر إلى الماضى . حتى أننا نؤلف فى ترجمة معاويه ابن أبى سفيان فى الوقت الذى كان يجب أن نؤلف عن هــنرى فورد أو كارل ماركس .

• بلاغتنا التقليدية هى بلاغة الانفعال والعاطفة فى الوقت الذى نحتاج فيه إلى تأكيد المنطق والعقل .

• ما تحمل اللغة من رواسب تاريخية قد يعود علينا بالضرر لأنها كانت تخدم مجتمعا ربما كانت فضائله معدودة بين الجرائم فى سلوكنا المصرى .

٣ — الإيمان بالغرب

ويؤمن « زكى نجيب محمود » بالغرب أيمانا مطلقا : يقول : من الغرب عنيت لو أشرق على بلادى شعاع من نور ؛ من الغرب الذى شاءت له أرادة الله أن يكون فى عصرنا مبعث المدينة ومنارها . ومنه ينتج العلم والفلسفة والأدب والفن . وتنشأ النظم الاجتماعية والسياسية . وبين أهله تقوم الثورات التى تحطم أسوار القديم لتنبت فى الأرض نباتا جديدا .

أنى فى ساعات حلمى ، حين أحلم لبلادى باليوم الذى اشتهيه لها فانما أصورها لنفسى وقد كتبنا من اليسار إلى اليمين كما يكتبون . وارتدينا من الثياب ما يرتدون . وأكلنا كما تأكلون . لنفكر كما يفكرون وننظر إلى الدنيا بمثل ما ينظرون» .

الأدب المحلى

دعا كثير من دعاة التغريب وفى مقدمتهم أمين الخولى إلى أقليميه الادب وخلق أدب أقليمى « متميز موسوم بسمة الاستقلال ومطبوع بطابع البيئة المحلية بدلا من الأدب العربى المشترك الذى (لا يميز أقليما على أقليم ولا بيئة على بيئه) ويرى أن عوامل البيئة المحلية تفرق بين الاقطار العربية « أقرأ كتابه فى الأدب المصرى » .

علماء الأزهر والمستشرقين

ويرى طه حسين أن « المستشرق بول كازانوفا » أعظم علما فى الاسلام نفسه من علماء الازهر ويقول (٢٧ / ٣ / ١٩٢٦ السياسة اليومية) :

« عرفته أستاذاً فى الكوليج دى فرانس ولم أكد أسمع له حتى اعجبت به اعجاباً لم أعرف له حدا . كان يفسر القرآن وكنت حديث العهد بباريس ، وكنت شديد الاعجاب بطائفة من المستشرقين ، ولكنى لم أكن أقدر أن هؤلاء المستشرقين يستطيعون أن يعرضوا فى أصابه وتوفيق لالفاظ القرآن ومعانيه والكشف عن أسراره وأغراضه .

فلم أكد أجلس إلى كازانوفا حتى تغير رأيى أو قل حتى ذهب رأيى كله وماهى ألا دروس سمعتها منه حتى استيقنت أن الرجل كان أقدر على فهم القرآن وأمهر فى فهمه وتفسيره من هولاء الذين يحتكرون علم القرآن ويرون أنهم خزنته وسدنته وأصحاب الحق فى تأويله .

كان كازنوفا مسيحيا شديد الإيمان بمسيحيته يذهب فيها إلى حد التصوف . ولكنه كان إذا دخل غرفة الدرس فى الكوليج دى فراس نسى من المسيحية واليهودية والاسلام كل شيء ألا أن لها نصوصا يجب أن تخضع للبحث اللغوى كما تخضع المادة للعلماء .

نعم لم يكن مسلما ولكنه لم يكن مسيحيا ولا يهوديا ولا متدينا حين كان يعرض لنص من نصوص القرآن يدرس لفظه ويكشف معناه ويبحث عن تاريخه » وظاهر فى هذا القول معنى الخداع فكازنوفا ليس ألا مستشرقاً متعصباً ضد الاسلام يلبس مسوح البحث العلمى ويتخذه وسيلة لمهاجمة الاسلام والتشكيك فيه .

نقل الحضارة وما يعاب وما يكره

« ودعا طه حسين أن (نسير سيرة الاوربين وتسلك طريقهم) وأن نقبل من الحضارة (خيرها وشرها وحلوها ومرها وما يحب منها وما يكره وما يحمد منها وما يعاب » وقال « أن العرب غزاة دخلاء على المصريين وأن صلة مصر بالغرب أوثق منها بالشرق . وأنه لاسبيل لنا أن نفعل غير هذا لاننا التزمنا أمام أوربا أن نذهب مذهبها فى الحكم ونسير سيرتها فى الادارة ونسلك طريقتها فى التشريع فى معاهد مونترو » .

عرب المغرب

كما هاجم الدكتور طه فى رسالته عن « ابن خلدون » عرب أفريقيا الشمالية ورماهم بالهمجية والتوحش قال: أن الفرنسيين قد عانوا مشقة شديدة فى سبيل اخضاعهم. وزعم أن ابن خلدون مخطىء فى أسناده هذا العصيان من عرب المغرب إلى العزة والآباء . وقال أن الفرنسيين انفسهم قد عانوا ولا يزالون يعانون مشقات فادحة فى مراكش فى سبيل بسط حضارتهم عليها ، ولم يستطع الرومان ولا الاسلام أن يلطفا من أخلاق هذه القبائل أو يروضاها على الحياة المنظمة لشعوب التمدينة ولكن الحضارة الحديثة مع مالديها من وسائل أقوى وأنفذ قد تصل إلى هذه الغاية يوما ما » ١ . ه (ص ١٠٨) ولاشك أن هذا البحث ليس لوجه العلم ولا لنصرة الحق ، وإنما هو إرضاء المستعمرين وتسمية الاشياء بغير اسمائها ، فالاستعمار

غير الحضارة والدفاع عن الوطن وحمايته شيء والاقتباس من الحضارة شيء آخر وأن أباء المغرب وعزته ووقوفه فى وجه الاستعمار لا يمكن أن يوصف أبدا بالتوحش والهمجية إلا من كتاب التغريب الذين ينقلون وجهات نظر المستعمرين بألفاظ عربية.

فرنسا الأم

وقد أشاد بعض كتاب العرب ومصر خاصة بفرنسا عندما تحطمت أمام الغزو الالمانى وخرت ، ونظمت فى رثائها القصائد وقال الكتاب عنها أنها ـ أى فرنسا ـ هى الوطن الروحى لهم ؛ حدث هذا فى مصر فى الوقت الذى كانت قنابل فرنسا تضرب دمشق والجزائر وتونس ومراكش وقال على الطنطاوى (دمشق) لزكى مبارك (القاهرة) لقد أثرت صلة هواك بلادهما ـ أى فرنسا ـ وحبك لمعاهدها على صلتك باخوانك الذين سقاهم أبناء النور الصاب وأورد وهم شرمورد ، أثرت هذه على صلة الدم واللسان والاسلام ما كان لك أن تنساها .

وقال : أن الاستاذ الزيات صاحب الرسالة شريكك فيما أعاتبك عليه وقال الزيات: يجب التفريق بين فرنسا السياسية وفرنسا الروحيه ، فأنه لو فعل ذلك لوافقنا على أن فرنسا الروحية هى الوطن الفكرى لكل أديب .

وهذا كلام مضلل ، لأن فرنسا المستعمرة هى فرنسا الروحية ، وأن أبرز معالم الفكر الفرنسى هو التفرقة بين السامية والارية ، وبين الرجل الأبيض والرجل الملون ، وأن دعوى المساواة والحرية والاخاء إنما هى كلمات براقة لاتعرفها فرنسا خارج فرنسا .

المرأة والإسلام

ورقف الدكتور فخرى فى الجامعة الامريكية بالقاهرة (٤ فبراير ١٩٠٠) وهاجم الشريعة الاسلامية باسم العلم وطعن على الدين باسم الانتصار للمرأة وقال

الدكتور فخرى أن الشريعة الاسلامية مخطئة لعدم مساواة الرجل والمرأة فى الميراث .

طريقة ديكارت

ودعا دكتور محمد كامل حسين فى مقال له أن يتقدم باحث جرىء ليحمل لواء رسالة ديكارت كما حمل لطفى السيد رسالة أرسطو وقال « يجب أن نخطو الخطوة التالية فى تطور حياتنا الفكرية على الطريقة الغربية . وسيتم ذلك حين يقوم بيننا من يدعو إلى ديكارت على طريقة لطفى السيد إلى أرسطو ، ولن يكون ذلك بمجرد نقل مؤلفاته إلى العربية وإنما يكون بقيام رجل فيه روح التفكير التحليلى والايمان به والاستعداد الخاص له وأن يكون دعوته إلى طريقة ديكارت بأن يكون مثلا حيا لهذه الطريقة يحمل الناس عليها .

صراع الثقافات الغربية

كان للثقافات الغربية الثلاث (الفرنسية والانجليزية والأمريكية) أثرها في الفكر العربي المعاصر ، وكان صراعها بعيد المدى ، وذلك لأبد لكل منها اتجاها وطابعاً وأسلوباً مغايراً لأسلوب الثقافة الأخرى . لقد بدأت الأرساليات الثلاث عملها في العالم العربي على هيئة الغزو ، كان أسلوبها أسلوب السيطرة ، كانت تحمل لواء الدعوة الدينية اللاهوتية التبشرية في أول الأمر ثم تحولت عنها إلى أسلوب التعليم الغربي بما يحمل من دعوة كل أرسالية إلى تعزيز لغة دولتها وثقافتها .

وقد كان بين الأرساليات الأمريكية والفرنسية تنافس واضح بعد منتصف القرن التاسع عشر في لبنان ومصر ثم لم تلبث الارساليات الإنجليزية أن أزدادت قوة بعد احتلال مصر ودخلت في صراع عنيف مع الارساليات الفرنسية مما خلق مشكلة الصراع بين الثقافتين الفرنسية والبريطانية في مصر ، أما في لبنان فقد ظلت الارساليات الأمريكية والفرنسية تتنازعان السلطان والدعوة للثقافتين السكسونية واللاتينية .

أما في المغرب العربي فقد سيطرت الثقافة الفرنسية سيطرة كاملة منفردة منذ بدأت تحتل هذا الجزء من العالم العربي .

وعندما عاد رفاعه الطهطاوي وعلى مبارك في الاربعينات من القرن التاسع عشر كان شعارهما « نقل الوجوه الحسنة من مدنية الغرب ونبذ السيء منها » وقد تحول هذا الاتجاه من بعد في بعثات العشر بينات من القرن العشرين عندما أرتفع الصوت بالتغريب الكامل .

ولا شك أن الثقافة الفرنسية كانت ذات أثر منذ قدم نابليون إلى مصر وعندما

توثق أتصال محمد على بفرنسا سياسياً وثقافياً واتجهت البعثات إلى فرنسا وتأثرت تركيا العثمانية بفرنسا بعد أعلان دستور الثورة الفرنسية بعد عام ١٧٨٩ مما وجه أنظار دعاة الاصلاح العثمانى أمثال نامق كال ومدحت إلى اقتباس النظم الأوربية وخاصة الدستور الفرنسى ، واتسع أمر المطالبة بالدستور فشمل تركيا ومصر وتونس .

فلما وقع الصراع بين دعاة الاصلاح من الاتحاديين فى تركيا وبين السلطان عبد الحميد كانت فرنسا موئلا لهم . ولما وقع الخلاف بين مصر وبريطانيا احتضنت فرنسا كل مقاومى بريطانيا فوردها جمال الدين ومحمد عبده وأصدرا بها جريدة العروة الوثقى ووردها دعاة القومية العربية وأقاموا بها مؤتمر باريس ١٩١٩ ووردها مصطفى كامل وكان ذلك جزءا من خطة الصراع الاستعمارى بين فرنسا وبريطانيا .

ولقد حرص دعاة الثقافة الفرنسية إلى الربط بين الأمة العربية وبين الثورة الفرنسية وقالوا إن الحملة الفرنسية هى بداية اليقظة فى العالم العربى . ولطالما رددوا أن الثورة الفرنسية كانت ثورة (سياسية) لأنها انتهت بقلب نظام الحكم الملكى فى فرنسا إلى نظام جمهورى (واجتماعية) لأنها ردت إلى العامه امتيازات الاشراف ورجال الدين ومحت الفوارق التى كانت قائمة بين طبقات الشعب الفرنسى و (اقتصادية) غيرت نظام الضرائب والرسوم الجمركية وإلغت نظام الاحتكار ورفعت القيود التى كانت على الصناعات وانتزعت أملاك الكنيسة وجعلتها ملكا للأمة .

ولكن هل كان العرب فى حاجة إلى مثل هذه الدعوة إلى الحرية والاخاء والمساواه وكل كانت هذه المبادىء جديدة بالنسبة لثقافتهم وتراثهم . وإن إعلان حقوق الانسان فى ٢٦ أغسطس ١٧٨٩ قد وقع بالنسبة للعرب من قبل ذلك بألف عام .

والواقع أن اليقظة العربية بدأت بحركة محمد بن عبد الوهاب وهى حركة سابقة على الثورة الفرنسية وفيها كل معانى « النهضة » على النحو الذى عرفه الشرق ، فإذا كانت عوامل الثورة الفرنسية قد نقلت إلى الشرق بعض المعانى المستحدثة للحرية فإنما كانت هذه المعانى أساساً موجودة فى الثقافة العربية ولم تكن جديدة عليها . وأن موقف العلماء عام ١٧٩٥ فى تحرير الشعب من ظلم الحكام وتوقيع وثيقة حقوق الإنسان العربية فى مصر إنما جاء قبل أن تستكمل الثوره الفرنسية نضوجها ، ولم يكن تقليداً لها ، وإنما كان أنبعاثا من واقعنا العربى الإسلامى ؛ فقد أحرز العلماء نصراً بأرغام أبرهيم بك ومراد بك على أن يوقعا حجة عامة يتعهد آن فيها أن يتوبا عن الظالم ورجعا إلى الحق ويكفا أتباعهما عن أمتداد أيديهم إلى أموال الناس وأن يسيرا فى الناس سيرة حسنه .

ثم كانت ثورة الأهالى على الحاكم خورشيد وأقصائه تحمل نفس المعنى المستمد من المفهوم العربى للحرية وقد قال عمر مكرم بالنص :

« لقد كان لأهل مصر دائما الحق فى أن يعزلوا الوالى إذا أساء ولم يرض الناس منه » .

لذلك فإن أثر الثورة الفرنسية لم يكن أكثر من ترديد للمعانى التى كانت واضحة فى مقومات الفكر العربى ، والتى يمكن أن يقال أنها انتقلت منه إلى فرنسا وأوربا جميعاً بحكم الاتصال وعمليات العطاء والأخذ التى تمت عن طريق أمتداد الثقافة العربية من أسبانيا إلى فرنسا وعن طريق الحروب الصليبية وعن طريق أمتداد النفوذ العثمانى الإسلامى إلى أسوار فينا .

غير أن الغزو الفكرى الفرنسى لم يدع فرصة فى خلال فترة ما بين الحربين دون أن يشير إلى أثر الثورة الفرنسية فى الفكر العربى الحديث ومدى ما تأثرت به الدولة العثمانية والشام ومصر .

ويمكن القول بأن سلطان « الجديد » ، وأرتباط الثقافة الغربية بالاحتلال

العسكرى إنما كان هو المصدر الأول لاقتباس أنظمة الحكم الغربية . فقد كان لابد من رد فعل عربى للتحدى الغربى بالوقوف فى صف غزوه واحتلاله بنقل أنظمته ومحاولة تعريبها وهى محاولة لم تنجح أول الأمر ، ذلك لأن أمثال إسماعيل وخير الدين التونسى ومصطفى كمال وكرومر وليوتى إنما كانوا يهدفون جميعا إلى فرض هذه الانظمة السياسية فرضا للقضاء على الانظمه المستمدة من الإسلام .

ولا شك أن دعوة « القومية » للتحرر من « استبداد العثمانيين » التى قامت فى العالم العربى قد وجدت عونا من الغزو الثقافى العربى الذى كان يهدف من وراء مظاهر هذه الدعوة إلى تفتيت الوحدة القائمة فى العالم العربى ، فإذا جاء دور اكتمال دعوة القومية العربية حال دون قيامها كما حدث فعلا بعد الحرب العالمية الأولى بتمزيق الوطن العربى إلى دول ودويلات .

الحملة الفرنسية

وقد كان لدعوة الغزو الثقافى الفرنسى أثرها البعيد المدى فى تصوير النتائج المترتبة على الحملة الفرنسية بحيث أمكن رسم صورة بعيدة عن الواقع لآثار ونتائج هذه الحملة وقد أغرقت كتب التاريخ التى يدرسها الطلبه فى العالم العربى بمثل هـذه « الاكذوبه » الضخمة . وقد تردد أن الحملة الفرنسية هى أول مجارى الثورة الفرنسية إلى الشرق العربى وإن ما أطلق عليه رئيف خورى « الفتح النابليونى » قد « هز جو الجمود الذى كان مخيما على مصر فنهضت واتجهت الميول إلى الارتشاف من الثقافة الفرنسية » .

والواقع أن الحملة الفرنسية كانت أول صدام حقيقى بين الشرق والغرب بعد الحروب الصليبية . وأن الأمة العربية التى كانت قد غفت تحت سيطرة الجمود الذى

* * *

أساب الامبراطورية العثمانية لم تلبث أن استيقظت على هذا الغزو فواجهته مواجهة جبارة رائعة ما زال التاريخ يحمل لها صورة من البطولة فى المقاومة والفداء فى البذل . إذن ، فليست الحملة الفرنسية هى التى أيقظت الأمة العربية بآثارها ، بل أن الأمة العربية استيقظت على هذه القوة الغازية وأرغمتها على العودة وكانت ثمرة هذه اليقظة قيام منظمة المقاومة الشعبية التى عزلت الحاكم العثمانى وفرضت حاكما بدلا منه باختبار الشعب ، ثم بدأت النهضة العسكرية والصناعية والثقافية التى وجهها محمد على إلى عمل ديكتاتورى لتحقيق مطامعه الخاصة فكان أن تحطم الكيان كله لأنه لم يقم على أساس من القوى الشعبية التى تحمل على كواهلها أعباء النهضات .

ولقد كانت نهضة مصر باسم « الامبراطورية العربية » فى عهد محمد على عملا ضخما ، لولا أنه لم يقم على أساس شعبى من ناحية ولم يكن خالص القومية من الناحية الأخرى ، وكانت دوافعه ذات مطامع خاصة لإقامة حكم اوتقراطى خالص لأسرته وأبنائها وأحفادها .

ولقد اتصل محمد على بفرنسا وكان هذا هو أساس تركيز الثقافة الفرنسية فى مصر لتكون من معاقلها أسوة بلبنان والمغرب .

ولقد كشفت فرنسا عن « تبعية الحضارة الغربية » وبعدها عن العمل الخالص لخير الوطن الذى تتصل به ، عندما اشتركت فرنسا مع سائر الدول الغربية فى ضرب أسطول مصر فى « نفارين » وسحبها قادتها البحريين وضباطها الذين كانوا يعملون مع الحملة المصرية فى سوريا وكان هذا درساً ضخما للوطنية العربية فى عدم اعتمادها على الغرب .

وقد حرصت فرنسا على دعم الروابط الثقافية بينها وبين العالم العربى ، أما فى لبنان فقد سيطرت الثقافة الفرنسية سيطرة كاملة عن طريق الارساليات الكاثوليكيه .

أما فى مصر فقد نازعت الثقافة الانجليزية واللغة الانجليزية الثقافة الفرنسية بعد الاحتلال البريطانى (١٨٨٢) وأن ظلت سيطرة الثقافة الفرنسية قائمة بدافعين؛الأول : محاربه النفوذ البريطانى — فقد كان المصريون يقبلون على الثقافة الفرنسية بدافع وطنى حتى لايتعلموا لغة المستعمر ولا ثقافته ، وكانت الطبقة الحاكمة من القصر إلى الوزراء والأمراء وكبار رجال الدولة من اتباع الثقافة الفرنسية ، حتى كانت اللغة الفرنسية وإلى قبل الحرب العالمية الثانية هى اللغة الرسميه فى المكاتبات حتى مع بريطانيا ، وكان المفاوضون المصريون وفى مقدمتهم سعد زغلول لايتحدثون إلا باللغة الفرنسية ويتناولون نصوص المعاهدات ومداولاتها بها ماعدا فئة قليلة من السياسيين الذين خرجتهم كلية فيكتوريا التى كانت دعامة من دعائم الثقافة البريطانية ، ولقد ترددت فى مصر دعوات كثيرة لخدمة الثقافة الفرنسية ، وكانت أضخم الصحف العربية فى مصر تحمل لواء الدعوة إلى الثقافة الفرنسية وتهاجم الاتجاهات البريطانية السياسية خدمة لمصالح فرنسا الاقتصادية والثقافيه ، وعلى الجملة فقد كان الاتجاه الثقافى الفرنسى يعانى مقاومة الاستعمار البريطانى ومعارضته .

وكان المدارس الفرنسية التى اتسع نطاقها أثراً كبيرا فى تأكيد هذا التيار ودعمه ،فضلا عما كانت تنشره الصحف فى مختلف المناسبات الثقافية عن فرنسا : عيد الثورة الفرنسية وسقوط الباستيل وعيد جان دارك والدراسات المتعددة عن كتاب الثورة الفرنسية وأبطال فرنسا وقناة السويس .

وكانت الدعوة التغريبية الفرنسية « حضارة البحر الأبيض المتوسط » من

الروابط الوهمية التى أقامتها فرنسا لتربط بينها وبين مصر ولبنان والمغرب باعتبارها جميعا دولا يجمعها مناخ البحر الأبيض ووحدته الجغرافيه .

وتردد ما قيل من أن لكل إنسان وطنان : وطنه الخاص وفرنسا ، وما كان ردده سفير مصر فى فرنسا إذ ذاك قوله : بين بلدينا اللذين يصل بينهما البحر الأبيض ولا يفضل بينهما شيء تزداد علاقات الصداقة والثقة المستمرة وفى خلال مياة النيل والرون التى يمتزج فى البحر المتوسط يجرى تياران من تيارات الصداقة وفى خلال الأمواج المتتابعة فى تيارها نحو مصر تبدو لؤلؤة البحر المتوسط جزيرة (كوركسيا) حيث ولد نابليون » .

ومما يتصل بهذا قيام الجمعيات الثقافية الفرنسية فى مصر وقيام معاهد متعددة فرنسية فى روما واثينا ومصر وسوريا وتركيا لنشر الثقافة الفرنسية ، كما قامت أكاديمية البحر الأبيض المتوسط التى وصفتها مجلة الرسالة بأن مهمتها أن تساهم فى تأدية هذا الدور الذى تضطلع به فرنسا فى توجيه الثقافة فى البحر الأبيض المتوسط وإن اهتمام فرنسا بتوجيه الثقافة فى أمم البحر الأبيض المتوسط يرجع إلى عهد الصليبيين فقد بدأت فرنسا هذه المهمة فعلا فى لبنان منذ القرن الرابع عشر الميلادى .

وطالما ردد الأهرام (١ / ٥ / ١٩٣٨) بأن مصر إبنة فرنسا البكر فى الثقافة ، وقد قال مسيو فرنان برون سكرتير جمعية (فرنسا ـ مصر) أن فرنسا منذ ١٨٠٢ قد ساهمت فى تكوين خير المصريين وتثقيف عقولهم « وهى — أى مصر — ابنتنا البكر فى الشرق كما قال سعد زغلول » .

ومع هذا فإن عديدا من كتاب فرنسا المشهورين الذين زاروا مصر أمثال اندريه مروا وبول موران فرنسيس كاركو ، واندريه سجفريد ، وادوار هريو

قد كتبو عن مصر كتابه مشوبة بروح السخرية والانتقاص .

ودعت الكاتبة المصرية «الفرنسية الثقافة» سيزانبراوى منذ عام ١٩٢٩ إلى نشر الثقافة اللاتينية فى مصر لأنها تتفق مع استعداد المصريين وميولهم ، وأن علينا أن ندخل اللغة الفرنسية فى التعليم الثانوى وأن محاولات بريطانيا بإنشاء مدارس انجليزية لم يضعف أثر الثقافة الفرنسية .

فى المغرب

وفى المغرب سيطر الفرنسيون على الثقافة وحاربوا الفكر العربى وقال هانوتو ١٨٩٧ لقد فصلنا بين شمالى أفريقيا والتاريخ العربى ، وقد قام المارشال ليوتى بالدور الذى قام به كرومر ودنلوب فى مصر حيث فصل بين البربر والعرب ، وأوقف اللغة العربية والثقافة العربية وحصرها فى المساجد ؛ وقالت الأهرام (١٩٣٢/١/١٦) أن المارشال ليوتى الفرنسى خدم بلاده خدمة جليلة فى بلاد الإسلام وعرف طريقة استمالة المسلمين إلى فرنسا .

فى لبنان

أما فى لبنان فقد أكد الفرنسيون فى أكثر من مناسبة أنها معقل لغتهم وثقافتهم الأول — كما قالت جريدة الطان (يونيو ١٩٣٧) وأنه «إذا كانت اللغة الفرنسية باقية فى العالم العربى — ماعدا فلسطين — كلغة من الدرجة الثانية بالنسبة للغة العربية ، مع محافظتها على سيادتها فى التجارة والعلاقات الاجتماعية فإن الفضل فى ذلك يرجع إلى المرسلون الملمانيون والدينيون والمدارس المسيحيه والأباء اليسوعيين وإلا رسالتات العلمانية والاتحاد الفرنسى والاتحاد الإسرائيلى العام .

وقالت الطان «ولا يزال الاعلام الفرنسيون الذين هاجروا من وطنهم إلى الربوع الشرقية لنشر ثقافتنا يقومون بعملهم الخطير .

(الصراع بين الثقافتين الفرنسية والانجليزية)

غير أن الثقافة الفرنسية لم تنفرد بالسلطان الأوحد فى العالم العربى ، فإن الصراع بين الارساليات الفرنسية اليسوعية والكاثوليكية والأمريكية ، الانجيلية البروتستانت قد بدأت فى لبنان منذ الثلاثينات من القرن التاسع عشر .

وقام الدكتور فانديك الأمريكى بدور ضخم فى هذا العمل وقد بدأت هذه الحركة بالقرى دون المدن . بدأها الفرنسيون من قرية (عينطورا) وبدأها الأمريكين من مدرسة (عيبة) ثم عمت لبنان ، وكان الدكتور « فنديك » يصور التنافس بين الأمريكين والفرنسيين فيقول أنا فى طريقى إلى قرية كذا لافتح مدرستين فإذا قيل له أنها لاتحتمل ذلك قال : سافتح مدرسة وسيأتى اليسوعيون فيفتحون مدرسة أخرى، ثم نشأت الكلية الأمريكية والكلية اليسوعية فى بيروت غير أن هذا الصراع لم يكن فى عنف الصراع الذى قام بين الثقافتين واللغتين الفرنسية والانجليزية . ذلك لأن أمريكا لم تكن مشاركة فى الاحتلال العسكرى لأقطار الدول العربية مثل فرنسا وبريطانيا ، وإنما كانت تعمل على السيطرة عن طريق الغزو الثقافى . وإن الصراع بين الثقافة الفرنسية والانجليزية إنما قام على أساس الصراع السياسى بين الدولتين فى الشرق ، ومحاولة بريطانيا احلال ثقافتها على الثقافة الفرنسية فى البلاد الواقعة تحت احتلالها وكان التيار الفكرى المهجرى تياراً أمريكيا وكانت الهجرة إلى أمريكا جزء من الأثر الثقافى الأمريكى للفكر العربى .

لقد انفرد نفوذ بريطانيا الثقافى فى العراق والسودان وفلسطين كما انفرد نفوذ فرنسا الثقافى فى المغرب ، أما مصر فقد وقع الصراع حيث أخذ البريطانيون فى طرد الأساتذة الفرنسيين (ذوى النفوذ) من مدارس الحقوق والطب ووزارة المعارف وحلت اللغة الانجليزية بدل الفرنسية فى معظم المواد . وتولى الاساتذة الانجليز مقاليد

الإدارة والتعليم فى معظم المعاهد ، وتحولت البعثات الخارجية إلى إنجلترا بدلا من فرنسا .

وفى ميدان الصحافة الثقافية حملت مجلة المقتطف (التى صدرت فى بيروت ١٨٧٦) وانتقلت إلى القاهرة (١٨٨٥) لواء الثقافة الانجليزية حيث كان أصحابها الدكاترة : صروف ونمر ومكاريوس من خريجى الجامعه الأمريكية ثم حملت «المقطم» لواء الدعوة إلى الثقافة الانجليزية وتأكيد مركز اللغة الانجليزيه فى مصر وحملت الترجمة لواء الغزو الثقافى وتأثرت بالصراع بين الثقافيين ، وكانت فى أول الأمر فى خدمة البعثات التبشيرية حيث ترجمت التوراه والانجيل . ثم تحولت إلى خدمة أغراض التغريب .

وكان الأدب الفرنسى أثيرا فى العالم العربى لأن رواده ودعاته قد نقلوا إلى الأدب العربى لونا معينا من ألوانه هو أدب الأباحة والكشف والجنس ؛ وقد لاحظ المستشرق « جب » ولاحظ « كروس » من قبله أن الثقافة الفرنسيه إنما فتنت المصريين لأنها تحرص على نقل اتجاه معين من الأدب الفرنسى لا الأدب الفرنسى فى جملته وقال «جب » إننا إذا تصورنا الثمرة التى قد يؤدى إلى انتاجها التلقيح بهذه العناصر السلبية والمتشككة فى الثقافة الفرنسية الحديثة فان المرأ لا يسعه إلا أن يشاطر المحافظين خوفهم من أن يكون التخريب هو كل ما تقضى به هذه الدراسات الأدبية .

(الصراع بين اللغتين الفرنسية والانجليزية)

وقد كان صراع اللغتين فى مصر من أبرز معالم الصراع بين قوى الغزو الثقافى والسيطرة والتبعية عن طريق اللغة والثقافة وأخذت اللغة الانجليزية فى

السيطرة على مناهج التعليم منذ اليوم الأول للاحتلال غير أن نفوذ الثقافة الانجليزية ظل ضعيفا بعامل احتلالها للبلاد وكراهية أهل الوطن لها .

وقد أدهش بريطانيا بعد مرور نصف قرن أن مركزها فى الغزو الثقافى ليس على النحو الذى يتفق من مكانها الاستعمارى فى المنطقة وقد أبدى ولى عهد بريطانيا ملاحظته من أن نفوذ اللغة الانجليزية فى مصر مازال محصورا فى دائرة ضيقة (يوليو ١٩٣٥) مع « أن ابريطانيا مركزا ممتازا فى مصر منذ ١٨٨٢ » وقال أن اللغة الفرنسية لا تزال تعتبر اللغة الرسمية فى التخاطب مع الأجانب وانتقد ذلك ، وقال أن المسئولية فيه ترجع إلى « تسامح » البريطانيين ، ودافعت الأهرام عن اقتراح الانجليز بالغاء دراسة الفرنسية من التعليم الثانوى فقالت (فى ١٦٣٥/٢/١٤) أن نشر الثقافة الانجليزية عن طريق تعلم لغتها إنما كان ضرورة قضت بها ظروف ليست خفية ، وأن المصريين لو تركوا وشانهم لآثروا الثقافة اللاتينية . وأن أكثر من نصف قرن من قيام هذه الضرورة لم تكف لزحزحة اللغة الفرنسية عن مكانها .

وعللت سر ذلك بأن هذه الظاهرة نتيجة لدوافع قوية مشتقة من طبيعة البلاد وحاجتها العلمية والاقتصادية وهى وقوع مصر فى منطقة واحدة من البلاد اللاتينية بصلها بها البحر الأبيض الذى طالما أسموه « البحر اللاتينى » . وأن التشريع فى الدولة وهو مظهر حياتها الاجتماعية مشتق من التشريع الفرنسى وقالت تقارير دعاة الثقافة الفرنسية (الأهرام — ١٩٣٥/٣/١٦) أن اللغة الفرنسية فى مصر لها وظيفة « خاصة » فى تكوين أذهان التلاميذ . وأن أهمية الفرنسية لمصر إنما مرده إلى أنها بلدا من بلاد البحر الأبيض ، وأن مصر اتصلت بالغرب من طريق هذا البحر وأنه إذا كانت مصر ترغب فى أن تكون على رأس بلاد الشرق الأدنى أو على رأس البلاد الاسلامية فيجب عليها أن تذكر أن سوريا ولبنان مثلا

تحظى جميع الطبقات العليا فيها باتقان اللغة الفرنسية كذلك الحال فى بلاد شمال أفريقيا الاسلامية .

وفى الجانب الآخر أعلن أنصار الثقافة الانجليزية فى مصر أن اللغة الانجليزية لغة عالية . وألقى المستر باكستون محاضرة بالجامعة الأمريكية(١٩/١٢/١٩٣٤) قال فيها : أن من أهم مزايا اللغة الانجليزية سهولة تعلمها ، وقال أن اللغة العربية لا تصلح لما تصلح له لغة بلاده . وقال أن كلمة (to Enter) لا تفيد الدخول فحسب بل « تفيد الدخول والتوغل فى » . وقال أن ما يقابل هذه الكلمة فى اللغة العربية فى كلمتان (مشى فى) وعاب على اللغة العربية كثرة أصواتها ومترادفاتها ومثل لذلك بان للاسد من الأسماء ما يزيد على مائة اسم وقال أن نفوذ اللغة الانجليزية يتوقف على نفوذ انجلترا فى العالم العربى .

وقالت كاتب آخر(الأهرام ـ ٢١/٣/٣٥) أن اللغة الانجليزية فى هذه السنوات الأخيرة تجرف أمامها بقوة وعنف جميع اللغات الدولية الأخرى حتى أصبح لزاما أن نسمعها فى المؤتمرات والاجتماعات الدولية . ويبلغ عدد متكلمى اللغة الانجليزية نحو ٥٠٠ مليون نسمة بينما يتكلم الفرنسية ٧٠ مليونا وتبلغ كلمات اللغة الانجليزية ربع مجموع كلمات اللغة الفرنسية فهى أسهل استظهاراً وأقرب حفظا، ثم أن تصريف الأفعال فيها اسهل من تصريف أفعال اللغات الأخرى وأن مراجع اللغة الانجليزية فى العلوم الفنون والسياسة هى أكبر مراجع اللغات جميعا .

وقد حدث هذا فى نفس الوقت الذى أصدر فيه عن «عبدالسلام ذهنى» المستشار بالمحكمة المختلطة أحكاما باللغة العربية لأول مرة فهز العالم الغربى كله واضطربت فرنسا لأن المستشارين المصريين منذ إنشاء هذه المحاكم فى عهد اسماعيل لم يصدروا أحكاما بغير اللغة الفرنسية مع أن القانون يجيز إصدار الاحكام باللغة العربية .

وقد رفض رئيس المحكمة أجازة الأحكام التى أصدرها عبد السلام ذهنى وأوقف أرسال القضايا إليه وقد تبعه مستشارون آخرون فاصدروا أحكامهم باللغة العربية

وقال الكثيرون : أن هذا الصراع بين اللغتين الفرنسية والإنجليزية إنما كان على حساب اللغة العربية ، وإن الحل الوحيد لوقف هذا الصراع هو إحلال اللغة العربية محل اللغات الأجنبية المتحكمة فى مرافق البلاد بحسبانها اللغة التى تستطيع « أن تتمتع بجميع عناصر القوة وتتسلح بكل الأسس القامة والتى تكفل لها النصر على آية لغة أجنبية فى البلاد » .

ثم اتسع نطاق الدعوة إلى إحلال اللغة العربيه فى خطابات البنوك واللافتات ومختلف أعمال الشركات والمصالح .

وأقامت بريطانيا « الاتحاد الانجليزى المصرى » برئاسة الدكتور أحمد زكى أبو شادى الذى أعلن فى الصحف (١٩٢٦/١٢/٥) أن هدف الاتحاد « تنمية روح الولاء والمحبة بين مصر وبريطانيا ودعم حسن التفاهم الذى جنينا منه خير الثمرات » وأن الاتحاد الانجليزى المصرى يعتمد على الوسائل الثقافية والاجتماعية

وفى ميدان الصراع الفكرى بين الثقافتين ، أقام الفرنسيون مؤتمراً لكتاب اللغة الفرنسة من الشرقيين اشترك فيه الكتاب المصريون (يونيو ١٩٢٧) .

وقال رئيس المؤتمر أن إزدياد عدد الشرقيين الذين يختارون اللغة الفرنسية للتعبير عن أفكارهم دليل على ما فى لفرنسا من النفوذ .

وجرت مساجلات بين منصور فهمى والصاوى محمد فى الأهرام بعنوان « من السين إلى النيل » علامة على الروابط الفكرية بين كتاب مصر الذين أطلقوا على فرنسا وطنهم الروحى ، وفى حادثين هامين كشف الفرنسيون عن موقفهم الحقيق من أن الثقافة الفرنسية إنما هى عامل من عوامل الغزو والسيطرة وأحلال التبعية . وكشف الكتاب المصريون فى الثانى عن مفاهيمهم الحقيقية ازاء فرنسا .

الأول : إلغاء الامتيازات الاجنبية ١٩٣٧ بعد توقيع معاهدة ١٩٣٦
والثانى : سقوط فرنسا تحت براثن الغزو الألمانى .

ذلك أنه عندما عقدت بريطانيا مع مصر معاهدة ١٩٣٦ وقفت فرنسا فى وجه إلغاء الامتيازات وهددت بريطانيا بالإستيلاء على جميع المعاهد والموسسات التابعة للدول المختلفه وإدارتها بمعرفتها .

وكانت فرنسا تخشى أن يضعف توقيع المعاهدة نفوذها فى مصر بعد إلغاء المحاكم المختلطه ولذلك تواترت حملات أثبتت « النفوذ الفكرى الفرنسى » فى مصر ومن ذلك ما كتبه (أوكتاف أوبرى) فى الأهرام (٩ / ٤ / ١٩٣٦) حيث يقترح على فرنسا أن ترسل بطريق الجو الصحف والكتب الفرنسية حيث أنها عن طريق البحر يقتضى وصولها تسعة أيام أو عشرة أيام . وأن عليها أن تزود دور السينما بالأفلام الفرنسية لمنافسة الدور الأخرى التى تعرض الأفلام المختلفة . وقال أن على فرنسا أن تبذل الجهود للمحافظة على الارث المتصل إليها من فرنسا القديمة ومقاومة الإدارة البريطانية التى توجد فى وجهها عراقيل شديدة .

وتوالت أقوال الصحف الفرنسية مؤكدة ضرورة الاستمرار فى غزو العالم العربى عن طريق التعليم والتربية ، ولذلك اسرعت فرنسا فأرسلت مسيو هريو رئيس مجلس النواب الفرنسى وقال طه حسين عميد كلية الآداب إذ ذاك بمناسبة زيارته (٥ / ٥ / ١٩٣٨) « أن فرنسا لها صبغة مشهورة إذ أنها أقدر الأمم على توثيق الصلات بينها وبين أمم الأرض » . وقال الدكتور هيكل وزير المعارف إذ ذاك موجها كلامه إلى مسيو هريو : حين تزور بعض البلاد الاجنبية ويلقاك أهل البلاد بما أنت أهل له من الـكبار إنما يكرمون فيك فرنسا التى تمثلها أصدق مثل وأروعه . تمثل ثقافتها الراقية الممتازة وتمثل ديمقراطيتها الحرة . تمثل حبها للخير ورغبتها فى السلم . تمثل شعورها الممتاز . ألم تقل فى مقدمة كتابك البديع عن مركز فرنسا فى العالم أن الحياة الفرنسية يجب أن تقوم على أصلين أساسيين : أحدهما مراعاة المنفعة

المحققة ، والآخر الوفاء بالعهد » ثم لم تلبث فرنسا أن دعت الدكتور طه حسين إلى جامعة ليون (١١ / ٩ / ١٩٢٦) وأنعمت عليه بنيشان جوفة الشرف من درجة أوفسيه « تقديرا لمواهبه الأدبية وتوثيقا لعرى التعاون الفكرى بين فرنسا ومصر » وقال طه حسين هنالك . أن مصر مدينة بكثير من الفضل لفرنسا ، ووصفت جريدة البروجرية طه بانه « ريفان مصر الضرير » أو « ريفان الاسلام » وقالت أنه ألف عدداً من الكتب فى مختلف الموضوعات مبينا فيها الأفكار اليونانية المنقولة إلى العبرية ثم إلى العربية . ومنها إلى الحضارة الغربية حيث أزدهرت فى علم الأدب الفرنسى وكيف رسخت فيه الأفكار الفرنسية فاعطاها فى بلاده قوة شديدة مؤثرة » وهكذا صورت صحافة فرنسا مفهوم طه حسين الحقيقى للثقافة الغربية وقال الدكتور طه : نحن مع تعلقنا بفرنسا بالفكر والقلب نحافظ على أتفاقنا الصادق مع انجلترا (معاهدة ١٩٣٦) فإنها برت بوعدها لنا بمساعدتنا على توطيد أركان استقلالنا الوطنى ، ووصف طه حسين أعانه بانجلترا وحرياتها الديمقراطية وقال أن على مصر أن تتوخى السير فى سنن الحضارة الغربية والرقى الدمقراطى ناهجة نهج فرنسا وانجلترا فى الاقرب العاجل .

وأشارت جريدة البروجريه إلى العناية التى تبذلها قرينة طه حسين لمونته وما كان لها من شأن عظيم فى حياته وأنها قد هدت خطاه منذ كان فى مونبيليه .

وقد ألهم هذا الموقف الدكتور طه حسين وضع كتابه « مستقبل الثقافة فى مصر » الذى صور فيه ماينبغى أن يكون عليه نظام التعليم والتثقيف فى مصر بعد الاستقلال كما أشار إلى ذلك فى حديث له مع الأهرام ٧/١٠/ ١٩٣٨ بعد عودته من فرنسا إثر إحرازه دكتوراه جامعة ليون . قال أن قراءآته كانت عن نظم التعليم فى البلاد الأوربية والمعروف أن كتاب (مستقبل الثقافة) كان بعيد الاثر فى تيار التغريب الفكرى ، إذأن طه حسين دعا فيه لأول مره دعوته الجريئة إلى نقل الحضارة : خيرها وشرها وحلوها ومرها وما يحب منها وما يكره وما يحمد وما يعاب وقال « أننا لا سبيل لنا غير ذلك

لقد وقعنا فى مونترو معاهدة تفرض علينا أن تأخذ نظم الغرب فى الحكم وأساليبه فى الثقافة » .

× والموقف الثانى عندما سقطت فرنسا فى براثن الغزو الفرنسى واستقبل كتابنا العرب هذا الحدث بالرثاء البالغ لها · وفى مقدمتهم طه حسين .

ولم يقل أحد من كتاب التغريب فى فرنسا كلمة الحق التى قالها المارشال بيتان « لقد جاءت الهزيمة من الانحلال فدمرت روح اللذات واللهو ما شيدته روح التضحية .

وقد حمل كتاب العالم العربى على مصر وكتابها لهذا الموقف فى الوقت الذى كانت فيه فرنسا (حاملة لواء الرأى الحر والحضارة) تضرب أهل دمشق بالمدافع وتذيق عرب المغرب أشد ألوان الاضطهاد والعدوان باسم مبادىء الثورة الفرنسية : الحرية والاخاء والمساواة . وعجب كتاب سوريا من كتاب عرب يبكون على فرنسا متناسين ما فعلته بالعرب وما أنزلته من النكبات بعد الحرب العالمية الأولى .

وآية عدوان فرنسا أن الجنرال ليوتى الاستعمارى الفرنسى الطاغية قد اختير عضوا فى الاكاديمية الفرنسية نظراً لعملة الاستعمارى فى شمال أفريقيا فكان خطابة الافتتاحى عن تمجيد الاستعمار وتزيينه والحث عليه ومما وقال «أن الأدب الفرنسى لاينفصل عن الاستعمار الفرنسى » · وقال أن الاستعمار مصدر هام للقوة والثروة ومنبع لاينضب للجيش وساحة تدريب وتكوين للقوادوقد ردد كتاب العرب أن ما توصف به فرنسا من أنها محررة الامم أو مشعل النور ما هى إلا أكاذيب .

وأشار ساطع الحصرى إلى ما أدعاه كتاب مصر من التفريق بين فرنسا الفكرية وفرنسا السياسية فقال أنه محض أختلاق وأنه لايمكن التمييز بين فرنسا الأدبية المتمدنة وفرنسا المستعمرة وأن الأدب الفرنسى لم يلتزم الحياد

تجاه السياسة الفرنسية بوجه عام ، وحيال السياسة الاستعمارية بوجه خاص بل على العكس من ذلك أنبرى لخدمة تلك السياسة بكل الوسائل الممكنة فقد كتب الأدباء الفرنسيون المقالات والخطب والاشعار والقصص والرويات التى تمجد الاستعمار وتزينه فى النفوس ، وأن الاكاديمية الفرنسية اختارت رجالها من بين صناديد الاستعمار وإن الأدب الفرنسى لم يرفع النفس الفرنسية إلى درجة الوصاية الرشيدة على ميراث الفضائل الانسانية . وأكبر دليل على ذلك الاسس الاجتماعية الفاسدة والبراكين الداخليه والأغلال والتفكك . وأن فرنسا كانت أعظم عائق فى طريق المفاوضين المصريين فى مؤتمر مونترو لالغاء الامتيازات كما عرض كثيرون من الكتاب للادعاءات التى طالما رددها الفرنسيون من أن ثورتهم هى أولى الثورات فقالوا أن هناك عشرات من الثورات قامت قبل ثورة باريس الملومة ، وقد أعترف الفرنسيون بأنهم تأخروا فى تحقيق المساواة والعدل الاجتماعى . كما نقد الفليسوف الانجليزى هربرت سنبسر الاسطورة القائلة بتفوق الفرنسيين على جميع الشعوب وأنتقد انتقاداً لاذعا المبالغات التى أطلقت على فرنسا لقب محررة الأمم . وقالوا أن سبق فرنسا إنما كان فى أواسط القرن السابع عشر وأواخر القرن الثامن عشر غير أنه فى القرن التاسع عشر تبدلت حالة أوربا تبدلا هائلا ولم تحتفظ فرنسا بمنزلتها السابقة ، هذا فضلا عن أنهيار فرنسا السريع إزاء الغزو الالمانى .

الثقافة الأمريكية

كان الغزو الثقافى الأمريكى فى الأول الأمر غزواً تبشيراً دينياً ثم تطور إلى غزو فكرى كامل عن طريق الارساليات والتبشير والسينما والصحف والمطبوعات . وقد أنشأت أمريكا سبع جامعات أمريكية فى العالم العربى غير المدارس والبعثات الدينية وبلغ ما ينفق عليها سنوياً حوالى ١٥ مليونا من الدولارات .

وإذا كان الاتجاه الثقافى الأمريكى هو محاولة سيطرة المسيحية البروتستانتية على الاسلام وعلى المسيحية فى المذاهب الأخرى ، فإن هناك هدفاً آخر أخذمكانه بقوة هو تأييد «الصهيونية» فكرياً وثقافياً وعن طريق البحث العلمى والتاريخى فى محاولة إيجاد حق لليهود فى فلسطين، وقد كان واضحاً تمام الوضوح فى جميع الدراسات التى قام بها المستشرقون والمبشرون والكتاب اليهود فى مختلف المؤتمرات الفكرية العالمية والصحف والمؤلفات والموسوعات التاريخية ودوائر المعارف .

وقد تأثر العرب والمصريون فى الحرب العالمية الأولى بالدعوة التى حمل لواءها « ولسون » رئيس الولايات المتحدة وهى « حق تقرير المصير » غير أن العرب صدموا أشد صدمة عندما أعلن ولسون موافقته على احتلال بريطانيا لمصر وفرنسا لسوريا ولبنان وتأكيد تصريح بلفور فى أقامة الوطن القومى لليهود فى فلسطين .

* * *

كما كان لأمريكا أنطباعات أخرى لزيارة روزفلت لمصر وتصريحاته من تأييد احتلال بريطانيا ومن عامة رجال الغزو الثقافى الأمريكى فى العالم العربى[1] دانيال بليس الذى قام بتأسيس الجامعة الأمريكية فى بيروت[2] تشارلز وطسن الذى قام بتأسيس الجامعة الأمريكية فى مصر[3] كورنيلوس فان ديك الطبيب المبشر الأمريكى الذى عاش فى سوريا أربعين عاماً وأشترك مع نصيف اليازجى وبطرس البستانى فى ترجمة التوراة إلى العربية .

وقد تغلغل الغزو الأمريكى عن طريق التعليم وعن طريق الصحافة ثم تحقق له بعد ذلك الحصول على امتياز استخراج البترول فى المملكة العربية السعودية سنة ١٩٤٣ وشملت عمليات الحفر أكثر من ٤٣٤ ألف ميل وتداخل رأس مال الأمريكى فى صناعة استخراج البترول ونفط الكويت ووضعت أمريكا يدها على ٤١ فى المائة من بترول البلاد العربية .

ثم كان لأمريكا دورها فى تمكين الصهيونية من السيطرة على جزء هام من

الوطن العربى هو « فلسطين » كما عمدت أمريكا إلى محاولة تقديم خدمات اقتصادية واجتماعية فى أنظمة تغريبية كالتربية الأساسية والاتجاه إلى القرى والحصول على معلومات أحصائية مختلفة عن الثروات، وقد أنشأت أمريكا مؤسسات تعليمية مختلفة فى لبنان ومصر والأردن . وأدخلت أساليب علم النفس وتجاربه القائمة على نظريات فرويد والجنس لتحويل تفكيرنا ، من الاسس الحقيقية للفكر العربى والخروج من تقاليدنا إلى التقاليد الأمريكية ومحاولة الغض من أدابنا وتراثنا ومعالم فكرنا وشخصيتنا .

أثر الصراع فى الفكر العربى

وبعد : فاذا كان أثر هذا الصراع فى الفكر العربى .

كان أبلغ أثاره ماسوره فرح الله الحايك الكاتب اللبنانى (الرسالة — ١٠ يونيه ١٩٤٠) حين قال : يسألونى لماذا آخذ اللغة الفرنسية كاداة للتعبير . وجوابى هو جواب الاكثرية الساحقة من اللبنانيين ، فنحن لانستطيع أن نفصل بين محبتنا لفرنسا وبين تأثيرها الثقافى علينا . فنحن نعيش فى وسط فرنسى ، فرنسى فى روحة ولغته ، ورغم التباين العميق بين لغتنا العربية وبين اللغة الفرنسية فنحن نهضم هذه إلى درجة أننا أصبحنا نفكر بالفرنسية »ولا شك أن هذا أغراب فى التغريب ، وذهاب فى « التبعية » والولاء للاجنبى إلى أبعد حدوده مما يتعارض مع استقلال الفكر العربى ونزعته الحرة إلى الاقتباس مع الاحتفاظ بشخصيته دون أن يندمج أو يستغرب أو ينطوى ؛ ومثل هذه الصورة تراها فى كتاب الياس أبو شبكة (روابط الروح بين العرب والفرنجة — ١٩٤٥) حيث يقول أن فرنسا أعظم جرم برى فى العالم، ويمعم فى تحيز فيرى أن جميع الحركات الشعبية والفكرية التى تمخضت عنها أوربا وأسيا انتهت إليها ، وأنه أن يكن نابليون فشل فى فتح سوريا فقد تولى هذا الفتح مكانة أعلام الفرنسين فى رجال الأدب والعلم . وهكذا يرى الياس أبو شبكة

أن سائر الآداب الانسانية مدينة لفرنسا بالشيء الكثير « لأن فرنسا هى الفرن الذى يخبز فيه خبز الإنسان الثقافى » وجرى طه حسين مع دعوى جيبون وريتان فى التفرقة بين العقل الآرى والعقل السامى فطبق ذلك على الأدب العربى (الهلال نوفمبر ١٩٢٧) وقال : الفرق بين الأدب الفرنسى والأدب العربى هو فى الواقع فرق ما بين العقل السامى والعقل الآرى . فالأدب العربى سطحى يقنع بالظواهر والأدب الفرنسى عميق دائم التغلغل . وفى الأدب الفرنسى وضوح وتحديد لا وجود لهما فى الادب العربى . والأديب الفرنسى إذا عالج موضوعاً ألم بالتفصيلات وهو مع ذلك لا ينسى الشكل والمجموع . أما الأدب العربى فيجتزىء بأخذ وردة من البستان أو لون من الوردة . ولا يفكر فى البستان . فالمزاج العربى هو المزاج السامى الذى لا يحيط بالموضوع أجزائه وكلياته . ولا ينزع إلى التحليل ودرس التفاصيل ، ثم يجب أن لا ننسى أن فى الآدب الفرنسى والأوربى على وجه العموم فنونا لم يعرفها العرب قط مثل التمثيل والقصص » .

وتمثل هذه العبارات هدف الغزو الثقافى والتغريب . وهى أتهام للأدب العربى بالقصور عن الآداب العالمية ، والنظرية أصلا تقوم على أساس ثبت بطلانه وهو الفرق بين الآريين والساميين من الناحية العقلية أو الثقافية ، وبالرغم من هذا فان طه حسين ناقض نفسه أكثر من مرة وهو ينقل نظريات التغريب وحملوا آراء المستشرقين والمبشرين ودعاة الغزو الثقافى حين قال بعد بنظرية البحر الأبيض وغيرها من النظريات المتعددة التى لم يقصد بها الوصول إلى حقائق معينه ، وإنما إلى بلبلة الفكر العربى بعشرات من النظريات المتضاربة المتعصبة التى تهدف إلى أثارة الشك وخلق روح الشبهات وولادة مذهب الاحتقار والاستهانة لقدراتنا وتتبيع الفكر العربى للفكر الغربى ليكون صورة بالكربون منه تضيع منها ملامح الشخصية العربية ومقومات كياننا الروحى وطابعنا الإنسانى .

ولقد كان الهدف الاساسى للغزو الثقافى الغربى هو خلق جو من البلبلة والتشكيك بتعدد ضروب الثقافات والمدارس والمناهج الفكرية، وذلك عن طريق أرساليات التعليم الفرنسية والإنجليزية والأمريكية والروسية وعشرات من الارساليات التى تحمل أمانة لغات الدول التابعة لها وأديان الهيئات الدينية التى قامت بانشائها وهى فى مجموعها تخرج مجموعاً مبلبلا من المتعلمين والمثقفين الذى يختلف فى الرأى والنزعة والاتجاه بين التعليم الدينى الاسلامى الذى يقوم به الأزهر والقرويين والزيتونة والمدارس اللاهونية البروتستانية والكاثوليكية والارتوزكسية وبين اللغات الفرنسية والإنجليزية وبين تيارات الثقافات اللاتنية والسكسونية مما يخلق تنوعاً عجيباً يحول دون وحدة الفكر العربى والتقاء المثقفين العرب أمام أهداف موحدة وخاصة فى:

(١) مسائل الحرية والقومية والتحرر الفكرى والتبعية الثقافية وقد ظهر ذلك واضحا فى أعجاب المثقفين العرب بالثقافة الفرنسية والتبعية لها .

وفى (٢) النظر بعين الاستهانة إلى التاريخ العربى واللغة العربية والتراث العربى كله والتطلع إلى النقل من الثقافه الغربية حتى فى الجونب التى يبدو غناها واضحاً فى الفكر العربى، وهذا هو أثر سيادة النزعة الاجنبية فى برامج التعليم التى سيطرت على العالم العربى خلال قرن كامل (١٨٤٠ — ١٩٤٠) حيث حرصت هذه المناهج على حجب مفاهيم الحرية وتاريخ الكفاح والانتصارات من البرامج الدراسية والكتب والصحف حتى لا يكون عاملا فى تغذية الشعور القومى وقد صدرت عشرات المؤلفات حتى خلال هذه الفترة عن الثورة الفرنسية وأبطال أوربا وكتابها وفلاسفتها وعن مدن باريس ولندن ولم يصدر بما يوزاى واحد فى المائة منها عن أبطالنا وأعلامنا ومدننا وتاريخنا .

دور الحضارة فى معركة الغزو الثقافى

اجمع المؤرخون والمفكرون المتصفون أن الحضارة العالمية التى أطلق عليها « الحضارة الغربية » هى تراث إنسانى عالمى شاركت فيه البشرية كلها ، وكان للعرب دور كبير فيه . فإن جذور هذه الحضارة التى قامت فى عصر النهضة كانت نتيجة لنقل علوم العرب التى نقلوها عن اليونان وأضافوا إليها ونموها فى مختلف الفنون وهى ليست غربية إلا بالإسم إنما هى ملك مشاع للانسانية وهى ثمرة الحضارات القديمة جميعها .

موقف المسيحية من الحضارة

قامت الحضارة العالمية العصرية على أساس المادة والإيمان بقدرة العلم المطلقة ، وقد ارتبط الأساس المادى للحضارة بانكار الدين والروحية وأسس الألوهية والنبوات وإقامة مذهب البحث على أساس العدمية والإلحاد والشك فى كل ماوراء الواقع الملموس وقصر الإيمان على ما يصل إليه البحث بالملاحظة والاستقراء .

وترجع هذه الخصومة للدين إلى موقف الكنيسة الأوربية من العلم والحرية إذ ناهضتهما واستعدت محاكم التفتيش على العلماء وأفكارهم وبذلك ارتبط « الدين » فى عرف الغرب بالتعصب والوقوف فى وجه العلم ، وهكذا كان على الحضارة أن تصارع الكنيسة الأوربية إذ وجدتها جامدة معارضة لقبس الحرية وضياء الفكر ، كما طاردت رجال الكنيسة إلى المعابد والأديرة وأعلنت فصل الدين عن الدولة وبذلك لم تبق المسيحية فى الغرب إلا كتراث تاريخى ووسيلة للاستعمار فى خارج

أوربا ، وكذلك قامت الحضارة الغربية على الإلحاد والشك والمادية والإباحية والتهافت على اللذة وإطلاق الغرائز وتجهيز المرأة بالمغريات وقيام مذهب الإثرة وشرعية الربا وتغليب مذهب « الغاية تبرر الواسطة » واصطناع الميكافيلية في السياسة وهي إنكار الأخلاق في سبيل تحقيق الغرض ، والبراجماتزم (وهو مذهب الذرائع وتبادل المنافع الذي يجعل لكل شيء ثمناً ومقابلا .

موقف الإنسان من الحضارة

كان الغزو الثقافي الغربي حريصا على أن ينقل إلى الفكر الغربي هذه الشكوك والنزعات والزوايا الحادة المتضاربة ، محاولا تطبيق نظرياته على المجتمع العربي بعقائده ومذاهبه وأفكاره وتراثه ، غير أنه لم يقدر مدى الفروق بين الكنيسة وجمودها الذي واجه الحضارة الغربية وبين الإسلام ، فقد قصرت المسيحية عن التطور والاستجابة للحضارة ، ولكن الإسلام لم يكن طوال حياته جامداً ، بل كان مرناً قادراً على مواجهة التطور في مختلف العصور والبيئات والأزمنة ، قادراً على الالتقاء بالحضارات والثقافات المختلفة ، والاقتباس منها ، وله في ذلك تجربة ضخمة تكاد تكون مثلا حيا لذلك ؛ هي تجربته في اقتباس الثقافة اليونانية والرومانية وحضارتهما ، فقد قامت في ظل الدولة العباسية مدرسة ضخمة للترجمة والاقتباس كانت بعيدة المدى في تطوير كل فنون الثقافة العربية وترجمة كتب العلم والطب والفن والفلسفة ، إذ حمل عباقرة علماء العرب هذه الفنون وزادوا فيها وأضافوا إليها وأقاموا نهضة علمية بعيدة المدى استمرت خمسة قرون كانت أوروبا خلالها تعيش في دياجير الظلام حملت لواءها جامعات دمشق وبغداد وقرطبة والقاهرة ، ثم عاد الغرب فاتصل بهذه الحضارة عن طريق الأندلس وفرنسا وعن طريق الحملات الصليبية ، وعن طريق تركيا العثمانية ، وعن طريق رحلات العلم المختلفة التي قام بها العلماء الغربيون إلى الشرق .

ولقد كان للحضارة المادية ، أثرها فى المجتمع الغربى : هذا المجتمع الذى عاش حياة مضطربة لم تعرف الاستقرار نظرا لكثرة المذاهب والعقائد والنزعات وتضاربها وتقلب المطامع والصراع المادى وقد ردد الغرب بين عشرات المذاهب التى خلقها وحاول بها أن ينشىء مجتمعا مثاليا ، غير أن هذه الأنظمة والمذاهب والعقائد تداعت وفشلت ولم تحقق أى نتيجة إيجابية .

ثم كان لظهور المادية الماركسية الشيوعية أثرها فى قيام صراع عالمى ضخم بعيد المدى بين المجتمعات الرأسمالية المسيحية وبين المجتمعات الشيوعية الماركسية مما حال دون الوصول إلى نظام مثالى أو (أتيوبيا) صالحة .

وكان سقوط فرنسا دلالة كبرى على مدى الانهيار فى النفسية الغربية والمجتمع الغربى وهكذا عجزت الحضارة الغربية أن تقدم للانسانية مجتمعا ناجحا ، وعاش فى ضرام من المذاهب المتناحرة ، القائمة على الاستعلاء بنعرة الجنس وعصبية اللون ومحاولة السيطرة على العالم الملون واستغلال الاستعمار لكل مالدى الحضارة الغربية من علم وأدب وفلسفة فى سبيل السيطرة . وكان غزو أوربا لاسيا وأفريقيا غزوا استعماريا ماديا لا غزواً حضاريا ، انهارت معه كل ادعاءات الحضارة فى الحرية والأخاء والمساواة وتمدين الشعوب وحق تقرير المصير والحريات الأربع وما سوى ذلك من شعارات أعلنها الغرب خادعا بها ، وتبددت فى ظل الاحداث الدموية الرهيبة كل دعوات الرجل الأبيض المتمدن وعن أمانته فى نقل الحضارة إلى الجنس البشرى ، فقد تبين أن الاستعمار والاستغلال والمطامع المادية والاقتصادية هى الاسس الحقيقية للحضارة الغربية ، وقد اشترك فى هذه النزعة كلا المذهبين العالميين على العالم الغربى : الرأسمالية المسيحية والشيوعية الماركسية ، فهما كلاهما : يحاربان الأديان وينكران الجوانب الروحية ويتصارعان على امتلاك أراضى جديدة بها خامات تقدم وقودا للمصانع وأسواقا لتصريف الإنتاج .

غير أن هذا كله لم يمض دون أن ينتبه الفلاسفة والمفكرون إلى مدى خطر «مادية الحضارة العالمية » فتراجعت قدرة العلم المادية المطلقة ، وظهرت مذاهب جديدة تهدم المذاهب القديمة، وأعلن قادة الفكر الغربى بأن الحضارة يجب أن تلتمس لها روح وإيمان ، من ذلك دعوة أوجست كنت إلى ديانة الإنسانية .

ووصل العلماء بتطور المفاهيم والأبحاث إلى أن العلم قد عجز «وحده» عن أن يكون غذاء نفسيا للشعوب الغربية ، وأنه لا مفر من الالتجاء إلى الشرق وأديانه وروحانيته .

وكان هذا إعلانا لإفلاس الحضارة الغربية المادية . وبدأت أوربا فى الثلاثينيات من هذا القرن تبحث مذاهب الهند القديمة ، وانبعثت دعوة الثيوصوفية وهو مذهب يدل على التعطش الروحى ، وكان العلامة « هالدين » عندما أصدر كتابه (المادية) قد أثار ضجة كبرى وصفت بأنها دقت المسمار الأخير فى نعش المادية فقد قال إن أولئك الذين يؤمنون بالمعجزات على حق ، ومثلهم فى صحة العقيدة إخوانهم الذين يؤمنون بأن الحياة أساسها كيانى نفسى ، والنفس من عالم الأرواح منشؤها وإليه مآبها ، وإن الحقيقة التى طفق الانسان يبحث عنها دهوراً عديدة ، وأعياه نشدانها ، هذه الحقيقة روحانية فى جوهرها ، والروح لا يدركها العقل .

ثم قال « انشتين » العالم المادى الكبير « إن العالم فكرة فى عقل الله » وأعلن الكثيرون أن نظرية (النشوء والارتقاء) المبنية على « النظرية الحتمية » قد انهار جوهرها من الأساس بعد ظهور نظرية تحطيم الذرة وإثبات أنها تتجزأ .

وقال (هارلود لاسكى) إنه إذا كانت أوربا تخلصت من وصمة التعصب المذهبى فى نطاق الدين فإنها لا تزال تتخبط فى حمأة التعصب المذهبى فى نطاق الاقتصاد والسياسة .

وقال « لاسكي » أن الحضارة تمر بمحنة من الشك والجدف والالحاد وتميع المعايير الثقافية والقيم الاخلاقية بصورة تنذر بشر مستطير فى حياة الفرد وحياة الجماعة وأن الحضارة فقدت ثقتها فى نفسها كما فقدت إيمانها العميق بحيوية القيم الثقافية السائدة ، وعجزت عن تحقيق ذلك الوفاق المنشود بين عالم المثل الأعلى الممثل فى كتابات الإنسانيين وبين حقائق هذا الواقع الحافل بأهوائه وأطماعه وخصوماته وأن استفحال النظام الرأسمالى سخر سلطات التشريع والسياسة لخدمة مصالحه دون احتضان برامج الإصلاح الإجتماعى .

وقال (جون دودف) أن الغرب الذى يتيه فخرا بطابع حضارته الوضعية الحديثة ، هذا الطابع الذى يطلق عليه اسم « المودرنزم » أو العصرية التطورية قد قامر بكل رأس ماله على مائدة هذا المودرنزم ، بل وافنى شخصيته الإنسانية بكل طاقاتها الابداعية والروحية ، داخل دولابها الآلى الرهيب ، أن هذا الدولاب الدائب الدوران تفعل البخار والكهرباء أو الذره قد غدا فى ذاته قيمة أساسية تقاس بها كل القيم فى مجتمع الغرب .

وقد أصبحت دول الغرب برمتها شوهاء الصورة « من الداخل » إلى حد مخيف ، بعد أن سيطرت حضارة الاليه الديناميكية سيطرة عمياء بلهاء لاهدف لها ولاناموس إلا مجرد التطور الآلى الذاتى ؛ هذا التطور ، بل هذا الاندفاع الذى يسن لنفسه بنفسه قانون حركته مستقلا عن روح الإنسان ومعنوياته كلها مع أنها تراث الآلاف من السنين ، ومادامت الثقافة هى صورة حية للنفس الإنسانية فى جهادها الدائب من أجل الاستعلاء وجهادها المنبثق من الداخل العميق الاغوار فلنا أن نحكم تبعا لذلك بأن أوربا وأمريكا محكومتان بدوافع شخصية آلية أو لاشعورية عمياء وليس بدوافع ثقافية عميقة واعية .

وتسائل (جون وودف) ماذا يبتغى الانسان من وراء السيطرة على الطبيعة ، وكشف أسرار الحياة : هل الهدف هو أن نسود الطبيعة أم تسودنا الطبيعة ، هل الهدف حين نهتك أسرار هذه الحياة سراً وراء سر أن نشقى بهذه الحياة أم أن نسعد بها نحن والأجيال القادمة .

وهكذا تبدو « الحضارة الغربية » وهى تتحول إلى موقف الانهيار الذى وصفها به شبنجلر فى كتابه (احتضار الغرب) :

فقد كان مذهب ما قبل الحرب الأولى هو مذاهب الدم والحديد ، مذهب بسمارك وهو ذات المذهب الميكافيلى القديم القائم على نظرية «الغاية تبرر الواسطة» وبعد الحرب ظهر تعصب مذهبى جديد كان أقسى تطرفا : ممثلا فى الشيوعية والفاشية والنازية مع التعصب المذهبى المصطنع بصبغة قومية مسرفة وانقسم العالم إلى معسكرين خصيمين هما : الدكتاتورى والرأسمالى .

تدهور الحضارة

وقد أجمعت أراء الباحثين على أن الحضارة الغربية مشرفة على عهد انحطاط وتدهور وفناء ، كما أشار اشبنجلر فى كتابه (احتضار الغرب) وقال أن الحضارة الغربيه قد أجديت وأفرغت حميتها .

وقال ليونارد ولف (مقتطف أبريل ١٩٣٤) أنه قد جرت محاولات ضخمة لمقاومه هذه الحضارة ، أهمها ماقامت به الهند أحياءاً لحضارتها الهندية القديمة . وقال : أن حركة التجديد فى تركيا إنما كانت تهدف إلى التحرر من العبء الاقتصادى والسياسى الذى لحقها من الحضارة الغربية » .

وقد عدد الباحثون مظاهر الانهيار فى الحضارة الغربية متمثله فى « العنصرية » التى تنادى بسياسة القوة و« الدعوة الجرمانية » ممثله فى فلسفة نيتشه وتطبيق الولايات المتحدة لسياسة الحاجز اللونى فى طوائف الهنود وفى جنوب أفريقيا (وفى الولايات المتحدة ١٣ مليونا من الزنوج الأفريقى الأصل ، يعاملون أسوأ معاملة) واضطراب ولسون بين إعلان المبادىء الثلاثة عشر فى حق تقرير المصير ، ثم تأييده الحماية على

مصر ، والفلسفات المنحلة المادية والاتجاه نحو الجنس ، وغلبه المدرسة السريالية بعد الحرب الأولى تحمل بذور الحيرة والقلق والحقد والثورة ، وظهور المدرسة الوجودية بعد الحرب الثانية تحمل عناصر الشك والتموية وأطلاق العنان للاعصاب المنحلة ، ودعوة أخضاع الآداب العامة إلى الاقتصاد ، وأن الحوادث الكبرى فى التاريخ ترجع إلى أزمات قامت فى نفوس الأفراد .

كما أكد الباحثون تعصب الحضارة الدينى والمذهبى وقالوا أن الثقافه الأوربية لم تتخل قط عن نصرانيتها وتعصبها . وأشاروا فى هذا إلى تصريح ناظر معارف هولندا فى مؤتمر المستشرقين ١٩٣١ فى ليدن حين قال : أن هولندا لم تذهب إلى الشرق لأجل التجارة بل لنشر حسنات الدين المسيحى . كما صرح وزير الخارجية الألمانية بأن ثقافة المانيا مبنية على الدين المسيحى .

ويتصل هذا بما تظهره دول أوربا من مظهر لاديني فى الثقافة والحكم ، بينما تتعصب تعصبا واضحا للمسيحية فى المراسم الدينيه وحفلات الكنائس وأسماء الاحزاب وأمداد البعثات التبشيريه والارساليات بالاعتمادات الضخمة والدعايه .

* * *

هذه هى صورة الحضارة الغربية فى مذاهبها وعقائدها التى حاول الغرب أن يعرضها فى حملة الغزو الثقافى والسياسى والعسكرى على العالم العربى وأن يفرضها ، بينما لم يصل هو بعد إلى نظام أو عقيدة أو (طوبيا) صالحة لأقامة مجتمعه ، وهو فى خلال هذا الاضطراب بين العقائد والنظم والنظريات التى لم تحقق أى نجاح ، يحاول أن يغزونا بها، واتخذعنا نحن لها حيناحين اعتنقنا بعض هذه المذاهب ودافعنا عنها وتحمسنا لها ، وظهر منا كتاب يدعون إلى نقلها نقلا كاملا ، دون أن يفكروا فى فوارق التفكير والزمن والبيئه والدين والثقافات ، فكان هذا الاضطراب العنيف الذى أصاب الفكر العربى ، وأصابه بالزلزلة العميقة ، وأقام فيه جوا عنيفا من الصراع الطويل حتى أمكن أن يتم التغلب على نظريه (النقل) وأبدالها بكلمة (الاقتباس) .

مواجهة الحضارة

كيف واجه الفكر العربي الثقافة الغربية والحضارة الغربية .

علينا قبل أن نصور ذلك أن نكشف عن الفرق بين الكلمتين : الثقافة والحضارة .

الثقافة فكر والحضارة مادة

وقد جرت إبحاث متعددة حول الثقافة والحضارة ، واختلط على كثير من الكتاب الفرق بينهما : وجملة القول فى هذا أن الحضارة هى الجانب المادى وأن الثقافة هى الجانب الفكرى .

ويرى شبنجلر هذا الرأى فيقول : أن الثقافة أفكار معارف وأراء ، وأنها مجموعة المعارف والأفكار التى تمثل الحياة والتى ينمو بها الأمة وأن الثقافة من الحضارة بمثابة السبب من النتيجة .

ويرى شارلس ريشيه : أن الحضارة هى مجموعة الآراء والعادات الناشئة عن الجهود التى تبذلها الأمة فى ميادين العلوم والفنون والصناعات والدين

ويفرق الدكتور عبدالوهاب عزام بين الثقافة والحضارة فيقول : فرق ما بين الصناعات أو الأخلاق والعادات . فاذا أحسنا التفكير لم يلتبس علينا ما نأخذ من أوربا من العلوم الطبيعية ونتائجها وما نتجنب من أخلاقها وأدابها - فإنه لا فرق بين الحساب والهندسة والكيمياء فى الشرق والغرب .

ولكن شتان مابينهما من العقائد والخلق وسنن الاجتماع ، وما يتصل بذلك»

فان لكل أمة من أخلاقها وأدابها ثوبا حاكته القرون وعملت فيه الأجيال فليس يصلح لغيرها ولا يصلح لها غيره .

وقد أشار الباحثون إلى الفرق بين البحث فى الحضاره والبحث فى الثقافة وكيف أنه لا يمكن تطبيق مبادىء التسامح التى طبقت فى مجال الحضارة والعلوم على الثقافة (الاجتماع والدين) .

معركة المواجهة

حمل دعاة التغريب فى هذا المجال رسالة المستشرقين فى الدعوة إلى قبول الحضارة كلها (خيرها وشرها) وكان فى مقدمة هؤلاء سلامة موسى وطه حسين ولم يصيبوا نجاحا يذكر ، وفشلت الدعوه إلى تعدد الثقافة والقضاء على توحيدها ، وعندما ارتفعت الأصوات بالدعوة إلى ثقافة عربية خالصة موحدة هاجم سلامه موسى هذا الاتجاه . وقال إنه ليس من مصلحة الأمة (البلاغ ١٩٣٦/٣/٢٦) وقال : إن من مصلحة الأمم فى تعدد الثقافة والبعد عن كل محاولة يرادبها التوحيد . وقال: ولسنا ننكر أن تعدد الثقافة يؤدى إلى التزعزع والقلق ولكنه خير من الركود » .

ولا شك أن الدعوة إلى تعدد الثقافة إنما هى دعوة إلى البلبلة وقتل مقومات الأمة ولذلك لم تلق أى قبول .

واعترف فيليب حتى بأن « التحرر الفكرى فى العالم العربى » اصطدم بمجموعة صلبة من المبادىء والأفكار هى (وحدانية الله ونبوة محمد ورسالته وقدسية الإسلام) وأن أحداً لم يخرج على هذه العقائد . وقال : أن بعض المفكرين حاول النظر إلى الاسلام والقرآن بروح النقد (طه حسين وعلى عبد الرازق) غير أن هذا الاتجاه لقى مقاومة شديدة ومات فى مهده » .

ويقصد « فيليب حتى » بالتحرر الفكرى ما نطلق عليه دعوة التغريب ، وقد لاحظ كثير من المستشرقين الذين بحثوا نتائج حملة التغريب « أن تأثير الفرنجة لم يتجاوز المدن لأن كل الوسائل والأساليب التى استخدمها الغربيون من صحافة ودعاية ومؤسسات علمية أو اجتماعية أو سينما أو شراء للأقلام ، كل ذلك وقف عند حدود المدن ولم يتجاوز إلى الريف » وكان من نتيجة ذلك مارسم من خطط جديده بعد الحرب العالمية الثانية لاقتحام الريف بعد عجز التبشير والتغريب عن اقتحامه فى الفترة التى نبحثها .

وقد انقسم الرأى بين المفكرين فى « نقل » الثقافة الغربية أو « اقتباسها » ودعا زكى مبارك إلى ما اسماه « الاستيعاب » وفى مقال له (هلال نوفمبر ١٩٣٦) عن الثقافة العربية وهل ينبغى استقلالها عن الثقافات الأجنبية : قال : نحن نريد أن يكون للامم العربية ثقافة لها خصائص وأصول . ولكننا ننكر انقطاعها عن الثقافات الأجنبية وقال أن فى اللغة الانجليزية ألف كلمة عربية تدور على الألسنة فى المخاطبات والمكاتبات .

ودعا إلى « استيعاب » الثقافات الأجنبية وقال : يحسن حين يمكن ذلك أن نهضمها بحيث تصبح عنصراً من ثقافتنا القومية . وقال : لا أوصيكم بالفناء فى الأداب الأجنبية ، ولكن أوصيكم بالتخلق بأخلاق الأقوياء من الأجانب وعهدى بهم ينقلون إلى لغاتهم ما يملكون نقله من جيد الآراء ثم يتصرفون تصرف العبقريين لا تصرف الناقلين ، وقال أن العرب القدماء هضموا أكثر ما عرفوا من الثقافات الأجنبية ثم فرضوا ثقافتهم على من اتصل بهم من الناس .

وعرض الباحثون لنظريه أبن خلدون عن « ولع المغلوب بتقليد الغالب » وما أورده شبنجلر فى نظرية (التشكل الكاذب) حيث قال : أن التشكل الكاذب

يحدث عندما تضغط حضارة كبيرة قوية على حضارة قديمة ناشئة فتصبها فى قالبها وتعطيها أحيانا شكلا كاذبا لا يمت إلى شخصيتها الحقيقية العميقة بصلة »

ويتصل بهذا فشل النتائج التى ترتبت على نقل الأنظمه السياسية والاجتماعية عن البلاد المثقوفة ، فان هذه الأنظمة قد طبقت فى العالم العربى تطبيقا شكليا تقليديا دون تقدير لفوارق البيئة والزمن والطبيعه .

والواقع أن الأمة العربية كانت فى حاجة إلى أن تمر بمرحلة يقظة حرة لاضغط فيها هى مرحلة « التكيف » وصوغ أنظمة تتفق مع تراثنا وتتمشى مع ملامح شخصيتنا ومعالمها وتطورها غير أن الاستعمار حال دون ذلك .

ويمكن القول بأن (الحضارة المادية) يمكن نقلها واقتباسها ، ولكن (الثقافة الفكريه) تجد من العسير نقلها نقلا كاملا . وفى هذا ما قاله غاندى (إننا لم نهمك فى النظريات بحثا عن حياتنا ، وإنما انهمكنا فى حياتنا بحثا عن النظريات فلم نترك أى عقائد تفرض وجودها على غير واقع ، توجه سير أحداثنا وتصنع تاريخنا » .

ودعا توفيق الحكيم (الأهرام — ١٩٣٨/٥/١٢) إلى أن ننخرط فى سلك الأمم الأوربيه — إذا لم تكن لنا قدرة على خلق حضارة شرقيه، أما إذا كان للشرق رساله — كما يقول الدكتور هيكل — وكان الشرق هو المنوط باصلاح ما فسد فى الغرب ، فان أول خطوة ينبغى أن نخطوها إنما هى إعادة النظر فى الحضارة الأوبية ووصل توفيق الحكيم إلى غايته حين قال : إنك قد تستطيع أن تقتلع من رأس الشرق عظمه السماء ولا تستطيع مطلقا أن تقتلع منه عظمة (العلم الأوربى الحديث) وإنه من اليسير أن تسفه عند الشرق الآن رساله الأنبياء ولا يمكن أن تسفه رسالة الصناعة الكبرى ، نعم اليوم لا يوجد شرق » ولاشك

أن توفيق الحكيم قد جاوز الحق فى هذا التصوير لتحول الشرق عن الروحيه إلى الماديه .

* * *

وقد جرى البحث عن نهضه الشرق وهل هى عربية أم غربية وتعددت الآراء ، ولكنها كانت فى الأغلب مجمعه على » الأقتبــاس » لا النقل (الهلال م ٣١) قال ميخائيل نعيمة : أن القائل لاغالب إلا الله (أى الشرق) لأحكم فى نظرى من القائل لا غالب إلا أنا (الغرب) وأن الغرب أحوج إلى مدرسة الشرق .

وقال سلامه موسى : ليس هناك حد يجب أن نقف عنده من اقتباسنا من الحضارة الأوربية .

ودعا لطفى جمعه إلى « الاقتباس » من الحضارة الغربية : الاشتراكية ومحو تعدد الزوجات والغاء الطربوش والحبره وتوجيه التعليم إلى الكيمياء والطبيعة والرياضيات .

وقال أنيس المقدسى : أن جامعة الشرق العربى هى اللغة وليست الدين وحذر من تقليد الغرب تقليداً أعمى يذهب بشخصيتنا .

وقال جبران خليل جبران : أن الغربيين فى الماضى كانوا يتناولون ما نطبخه فيمضغونه ويبتلعونه محولين الصالح منه إلى كيانهم الغربى ، أما الشرقيون فى الوقت الحاضر فيتناولون ما يطبخه الغربيون ويبتلعونه ولكنه لا يتحول إلى كيانهم الشرق بل يحولهم إلى شبه غربيين :

وقال (مستهل) الكرملي : إذا كان لا بد من الاقتباس من وسائل المدنية الغربية فيجب أن يكون بقدر ما يكفينا ، فإذا زاد عن الكفاية أخرنا . على أن يكون ذلك القدر ملائما لاخلاقنا وبيئتنا وعوائدنا الحسنة وبلادنا وهواءها .

وقال الرافعي : أن نهضة الشرق العربي لا ينهض بهاالا الركنان الخالدان : الإسلام واللغة العربية فإذا أخذنا من الغرب فلنأخذ ما يتفق مع الأصل الراسخ في أدابنا من الشورى والحرية الأجتماعية .

[الحضارة]

وفي مجال البحث عن الحضارة القادمة : هل هي فرعونية أم عربية أم غربية وتعددت الآراء . قال الدكتور علي إبراهيم : إن تقدمنا سيكون في نطاق الحضارة الإسلاميه مع الاقتباس من الحضارة الراهنه . وقال أن اللغة العربية تصلح لأن تكون لغة علمية ، وأننا لن نرتمي في أحضان المدينة الحاضرة ولن نرفضها كلها . وقال منصور فهمي : أن هذه البلاد تلقت عن العرب اللغة والدين ، وأنه إذا كان المصريون مصريون فهم عرب باعتبار لغتهم وما أدخلته اللغة في نفوسهم من العواطف والافكار . وقال أن هناك ثلاث روابط : رابطة الإسلام ورابطة الشرق والرابطة العربية :

وقال طه حسين : أن الدين العربي واللغه العربية مقومان أساسيان للحياة المصرية الحديثة ، وأنه لا يرى رأى الذين ينكرون الحضارة أو يتهمونها بالشر والفساد والإغراق في حب المادة وقال أننا سنأخذ من الحضارة كل ما تحتاج إليه حياتنا العقلية وحياتنا المادية .

وقال الدكتور محمد شرف : أن حضارة المستقبل في مصر ستكون إسلامية

عربية ، لأن اللغة والدين من أسس الحضارة وهى غنية بعادتها الرائعة وبلاغتها الكاملة (الهلال م ٣٩ — ص ٨١٧) .

[الدين والفكر العربى]

كما جرى البحث حول مكان الدين فى حياتنا الفكرية وذلك بمناسبة زيارة الكاتب الانجليزى روم لاندو للشرق؛ قال المراغى : الإسلام كما يفسره الأزهر يسعى إلى أن يطابق بين قواعده وبين مطالب الحياة . وأن الهدف هو التوفيق بين الروح والمادة توفيقا عمليا ونظريا فى أن واحد .

وقال : أنه ليس فى القرآن شىء يناقض العلم والحق . وأعتقد أن الأمه لن تهجر الدين وأنها ستعود إلى حماة .

وقال روم لاندو : أن الغربيين يعتقدون أن التفكير العربى تفكير نظرى ، فإذا كان تفكير مصر فى خلال أربعمائة عام لم يجاوز نطاق الفقه الدينى فقد يبدو أن هؤلاء الغربيين لم يخطئوا . وقال أن التفكير الغربى تفكير واقعى ينفر من الفروض النظرية وينصب على شئون اليوم ، أما التفكير العربى فيبدو أنه منوط ببحث القواعد التى سبق تقريرها فهو كقطع (الأرابيسك) لا ترى فيها حياة نابضة .

ورد على ذلك لطفى السيد فقال : يؤسفنى ألا أوافقك فانى أرى نقيض ما ترى ، إذ يبدو لى أن التفكير العربى أقرب إلى الواقع من التفكير الغربى فالشريعة الإسلامية التى ذكرتها دلالة على (نظرية) تفكيرنا ، ليست كالشريعة المسيحية مقصورة على بحث أصول العقائد والأخلاق فحسب ، بل تتناول تفاصيل الحياة ووقائعها ، فهى تضع قواعد للعمل والزواج والميراث ولما شاكل ذلك من أمور الحياة .

وتساءل روم لاندو : هل لا يزال الدين عاملا قويا فى الحياة المصرية وأجاب لطفى السيد : لا يزال أثره فى الحياة الإسلامية أوضح من أثره فى الحياة المسيحية ، ذلك لأن قوانيننا تقوم على قاعدة من القرآن . ومن العسير فى الأقطار الاسلامية أن تفرق كثيراً بين تعاليم الدين وأمور الحياة اليومية » .

* * *

وقد أشار كثير من الباحثين إلى مدى الفارق بين الشرق والغرب من ناحية الدين ، فالغرب قد ترك دينه لأنه وجده يقف به عن التطور والانطلاق ، ولذلك فصله عن الدولة . أما الاسلام فإنه لا يقف عقبة أمام الفكر العربى أو الحضارة ، بل أنه يفتح باب التطور . كل ما هناك أن صورة المسلمين قد تحاول أن تعطى صورة الاسلام وهذا خطأ ، فإن جوهر الدين واضح الدلاله ، أما مظاهر المسلمين فإنها بطول الزمن وبعوامل الاضطراب والقصور الماضية قد أصابها ما جعلها غير مطابقة تماماً لجوهر الدين وقد أشار « جب » فى تقرير له إلى أن الشرق وصل إلى نتيجة حاسمة هى اتخاذ سبيل المدرسة الوسطى التى تجمع خير ما فى ثقافة الغرب إلى تراثها العربى المجدد قال « لقد أخذ جميع المسلمين المتنورين يسلكون سبيلاً وسطا فأخذوا خيرما فى الشرق وخير ما فى الغرب . وأن الذكريات التاريخية والاعتزاز المشترك بالماضى سيظل لها المكان الأعلى ولن يستطع العرب أن يقطعوا صلتهم بالماضى كما قطعها الاتراك ولما كان الاسلام جزءاً لا يتجزأ من الماضى فليس فى وسع المثل العربى الأعلى أن يتجرد منه تجرداً تاماً .

[الامتيازات واستعارة النظم]

هل ترك الغرب للعالم العربى حريته فى الاقتباس أو النقل من الحضارة ؟ الواقع أنه لم يفعل ، وأنه فرض نظمه القانونية والسياسيةو الاجتماعية وكانت الامتيازات الأجنبية عاملا هاماً فى هذا المجال .

ذلك أن الغرب حين أمتد نفوذه إلى العالم العربى عن طريق قناصله وإرسالياته ثم عن طريق الاحتلال لم يتوقف أمام تحطيم الأنظمة ذات اللون الاسلامى القائم فى العالم العربى بل حطمها وأحل بدلا منها أنظمة جديدة منقولة من القوانين الأوربية . وكان ذلك فى مجال القضاء والتشريع والحكم ، كما فصل الاستعمار بين الاسلام والسياسية .

والقانون المدنى الأوربى يستقى من منبعين إحدهما رومانى والآخر مسيحى وكان إسماعيل أول من سمح بترجمه القوانين الفرنسية وجعلها أساساً لقوانين الدولة ، دون إشراك التشريع الاسلامى فى موادها .

كما عمد مصطفى كمال فى تركيا بعد الثورة التركية إلى أقصاء التشريع الإسلامى كليه ، والعمل بقانون سويسرة المدنى وقانون الجزاء الإيطالى .

وقال : إن التشريع والقضاء فى أمة عصرية يجب أن يكونا عصريين مطابقين لأحوال الزمان لا المبادىء والتقاليد .

وقد كان واضحا أن عمل كلا من اسماعيل باشا فى مصر ومصطفى كمال فى تركيا ليس جريا حراً مع طبيعة التطور ، وإنما كان مفروضا بنفوذ الغرب الفكرى والسياسى . إذ أن هذه القوانين كانت بعيدة عن العقلية العربية أو الإسلامية وعن الذوق والمنزع والمشرب . ولم يكن فيها ما يتفق مع الزمان ، والمكان . خاصة إذا عرف أنها نقلت دون تعديل أو تنسيق مع أحوال البلاد وفروق الزمن والبيئة .

وقد عزل التشريع الإسلامى عزلا تاما فى هذه المرحلة مع سعة مذاهبه ويسره وأجازته العمل بالمصالح المرسلة ، وقد اتخذ خصوم الإسلام من جمود بعض فقهاء العالم العربى الإسلامى حجة على جمود الشريعة .

وفى إبان وضع الدستور المصرى وبعد تشكيل لجنة الدستور (١١ أبريل ١٩٢٢) جرت أبحاث متعددة فى الصحف عن موقف اللجنة من التشريع الإسلامى ، وقد أخذت مواده من الدساتير الأوربية . ولم يرد فيه أى نص من لإسلام سوى العبارة التى تنص على أن دين الدولة الرسمى هو الإسلام .

* * *

ويتصل بهذا سيطرة الامتيازات الأجنبية على الحياة الفكرية والاجتماعية المصرية ، وحيلولتها دون اتخاذ السبيل الحر فى معاملاتها أو تشريعاتها أو إحكامها وقد زاد فى وطأة الامتيازات بعصر إنشاء المحاكم المختلطة فى عهد اسماعيل وظلت الامتيازات الأجنبية عقبة فى سبيل الإصلاح .

ويمكن القول بأن الامتيازات الأجنبية كانت ركيزة استعمارية بعيدة المدى ، فى مجال الاقتصاد والاجتماع والسياسة والفكر .

موقف الفكر العربى

من الصهيونية والشيوعية



أثر « الدعوة الصهيونية »

فى الفكر العربى المعاصر

كان للدعوة الصهيونية أثرها فى الفكر العربى المعاصر ، بعد أن عم أثرها الفكر العالمى كله ، وتداخلت مع الفكر الغربى الاستعمارى والفكر الشرقى الماركسى . ولقد كان الفكر الصهيونى بالغ الأثر فى هذين التيارين المتصارعين . ولعل أول ما يقال هنا أن أقوى نظريات الهدم والتدمير والتخريب التى حمل لواءها الاستعمار الغربى والغزو الثقافى إلى الشرق ، وإلى العالم العربى إنما كانت من « إبداع » فلاسفة يهود أصلا ، وصهيونيين ثانيا ، يحملون الدعوة الأساسية التى حملتها الصهيونية ولونت بها الفكر العالمى بقصد فرض سلطانها على الفكر العالمى والسيطرة على العالم ، وتحقيق حلم إنشاء الحكومة اليهودية الكبرى التى تحكم العالم كله .

ولقد ظهر الصراع قوياً بين الفكر الصهيونى والفكر المسيحى فى نواحى ، وظهر الالتقاء فى نواحى أخرى ، ومن هنا نشأت تيارات ثلاث كانت تتضارب فيما بينها ، ولكنها تلتقى عند هدف واحد هو : السيطرة على العالم العربى الذى هو مفتاح العالم الاسود الأفرسيوى الذى ظل مركز الصراع بين الاستعمار الغربى والاستعمار الصهيونى والإستعمار البلشفى .

الماسونية الحديثة

وإذا كانت الدعوة الصهيونية قد أخذت سبيل العمل الحقيق لإقامة كيان يهودى بمؤتمر « بال » عام ١٨٩٧ الذى يعد أول مؤتمر صهيونى وضعت فيه خطط المشروع الأساسى للعمل على إقامة دولة يهودية . كما وضعت به بروتوكولات صهيون التى استمدت مقوماتها كنظام من « التلمود » ، فان هذا المؤتمر كان

نتيجة لخطوات طويلة وأعمال تمهيدية بعيدة المدى ، هذه الخطوات التي يمكن العودة بها إلى الوراء ، ربما إلى مائة وثمانين عاما ، أي إلى عام ١٧١٧ وهو العام الذي ولدت فيه « الماسونية الحديثة » في انجلترا ثم ١٧٢١ في فرنسا حيث أعلنت الماسونية أن هدفها هو المحافظة على نفوذ الاسرائيليين واتخذت من هيكل سليمان شعاراً لها ، وقد سيطرت اليهودية على أغلب محافل الماسونية في العالم ووجهتها للعمل وإليها عزى كل ما أريق من دم في الاغتيالات الخفية التي دبرت ونفذت حيث سارت الماسونية مع الصهيونية لصنع الثورات أو إشعال نيرانها أو الاســـتفادة منها لتحقيق أغراضها .

وقد حققت الماسونية أكبر إنتصار لها في الثورة الفرنسية (١٧٨٩ — ١٧٩٥) حيث كان أبرز أبطالها من اليهود : ميرابو وفولتير وروبسبير .

الماسونية

وقد حققت منظمات الماسونية نجاحا واضحا في العالم العربي كدعوة وظهر لها تيار فكري واضح في مؤلفات متعددة وكتابات وصحف ، فكتب في الدعوة لها جورجي زيدان وكان شاهين مكاريوس بمجلته اللطائف من أكبر دعاماتها وكتب في الترويج لها محمد سعيد الراغي وأحمد زكي أبو شادي وعزيز ميرهم وغيرهم كثيرون ، وهاجمها مؤلف كتاب « كشف الظنون من حال الفرمسون » والأب لويس شيخو اليسوعي صاحب مجلة (المشرق) .

وقد طبعت قوانينها بالعربية في بيروت ١٨٨١ وطبعت « النظامات » في مصر ١٨٩٠ ووصفها جورجي زيدان بأنها أقدم الجمعيات الحية وأرجع انشاءها لأول القرن الثامن قبل الميـلاد في زمن (نوماپومبيلوس) وقد تقلبت في أحوال شتى . ووصف عزيز ميرهم كلمة (الماسون) بمعنى البنيان ، وأرجع تكوينها الأول إلى النبائين الذين وضعوا فن البناء ، ثم تطورت من مزاولة فن البناء المادي إلى فن البناء

الأدبى والاجتماعى وبقى من آثار الجماعة الأولى نظامها وترتيبها وطقوسها وآلاتها وأصبح ذلك كله رموزاً وأسراراً للكتابة عما يرمون إليه من تربية نفسية وتشييد إجتماعى . وقال: أن المحافل الماسونية لم تجتمع فى سلطة عليا إلا عام ١٧١٧ فى لندن وانتخب أستاذاً أعظم لها الدوق دى مونتاجو .

وقد كشف كثير من الباحثين عن الصلة بين الماسون وبين إضطهاد اليهود ، فقال أنها تهدف فى الأغلب إلى مقاومة التعصب الدينى وخلق جومن السماحة والحرية أمام أعضائها أيا كانت دياناتهم وأداء الخدمات لهم . وقد عزا إليها عزيز ميرهم (السياسة الأسبوعية ٢٦/١٢/١١) وغيره أثرها فى الثورات وحركات التحرر . فأشار إلى أنها وضعت شعار الثورة الفرنسية (حرية وأخاء ومساواة) وأن كبار رجال الثورة كانوا من الماسون أمثال ميرابو وبريسو وكاميل دعولان ودانتون وأن «لافييت» الذى أملى وثيقة الاعتراف بحقوق الانسان والذى حرر الولايات المتحدة كان من الماسون .

وقال عزيز ميرهم: أن الماسون هم الذين حرروا العالم من سلطان البابوية وفرقوا بين السلطة المدنية والسلطة الدينية للبابا، وأنهم حملوا لواء الحرية الفكرية وهدموا سلطان الكنيسة فى ايطاليا وفرنسا وأنالوا تركيا دستورها بفضل محافلهم القائمة بها — وقد اختلفت الكنائس فى النظر إلى الماسونية (هامش الصحفى العجوز — الأهرام ٢/٦/١٩٣٣) فالكنيسة الكاثوليكية مقتت الماسونية وحاربتها ، أما الكنيسة الأنجليكانية فهى على عكس ذلك . ووصف تطور الماسونية فى مصر فقال أنها دخلت فى عهد إسماعيل ، وكان الخديو من أكبر رؤسائها وكان الأمراء والوزراء وكبار رجال القضاء أعضاء فى محافلها . ثم تطورت واتسع نطاقها . وتعددت لوجاتها ومحافلها ودخلها كل من هب ودب . وأشار إلى ما قيل من فوائد الماسونية

ومنافعها لأعضائها ومشتركيها وللهيئة الاجتماعية وما قيل « مما لا يصدق عن عقاب من يبوح بتلك الأسرار المقدسة وجزاءه العقاب بالقتل فى رائعة النهار بالسم أو السيف والمسدس » .

وعارض رأى القائلين بالسرية وقال أن الفضائل يجب أن لايكون سراً ، وأن طبيعة العصر تنافى السريه وأصحاب الأسرار . وأشار إلى أن موسولينى شتت المحافل الماسونية فى إيطاليا وتبعة هتلر .

وارتاب لويس شيخو اليسوعى (مجلد ١٥ ص ٣٢٦ — المشرق) فى أمر الماسونية فتساءل لماذا « تحتجب عن أعين الناس وتتستر فى زواياالظلماتولا يجتمع أعضاؤهاإلا فى الليل الداجى فى بيوت يحصنونها بالحراس فلا يدخل إلامن عرف كلمة الجوازالسرية وإذادخلوا كتموا بكل حرص مايدور بينهم من الأحاديث ، وأشار إلى تعارض العمل الخيرى مع الأقسام والإيمان بعدم البوح بالأسرار . وقال (أن للماسونية طقوساً ورتباً وإزياء غريبة ولمسات وخطوات وطرقات وتهويلات فى درجاتها العديدة من الدرجة الأولى إلى الدرجة الثلاث والثلاثين . ومن درجة الرفيق إلى الأستاذ » .

وقد كشف معارضى الماسونية وأغلبهم من المسيحيين أنها تهاجم المسيحية وأنها ترمى إلى القضاء على الدين كما فعلت فى ثورات ١٧٨٩ الفرنسية و ١٩٣٠ الشيوعية و١٩٢٦ التركية ، وقد ردد الدكتور صروف (المقتطف فبراير ١٩١٠) (أتهام بعض الناس للجمعية الماسونية بأنها حملة سياسية معادية لكل سلطة مدينه) ثم دافع عنهم وقال أن اتهامها بمعاداة الاديان لا يتفق مع وجودعدد كبير من رؤساء الأديان بها وقال : والذين يعرفون الجمعية الماسونية يعرفون حق المعرفة أنها ليس لها غرض إلا أن يساعد أعضائها بعضهم بعضا فى أمورهم الزمنية وأن يسعوا فى كل ما يعلى شأن البشر ولهم فى ذلك مآثر كثيرة » .

وقال خصوم الماسونية أن القضاء على سلطان الكنيسة وهدمه والفصل بين السلطة المدنية فى البابوية المسيحية وإلغاء الخلافة فى تركيا كل هذا كان من عمل الماسونية التى هى فى نظره جمعية سرية صهيونية قامت وفق بروتوكلات صهيون وتسترت فى أغراضها وراء هذا الشعارات والاهداف ، وأنها كانت ذات يد فى القضاء على كل من وقف أمام الصهيونيه كاقصاء السلطان عبد الحميد ، ومدحت وهتلر وموسليني وجمال الدين الافغانى الذى انشق عن المحفل الماسونى وعارضه وأقام محفلا ماسونيا تابعا للمحفل الفرنسى .

ولقد تأثر الفكر العربى بأفكار الماسونية التى انتشرت فى العالم العربى وكان لها محافل متعددة فى مصر والشام والمغرب ، وكان جمال الدين الأفغانى من الماسون :

أما فى العالم الاسلامى فقد تركزت الماسونية فى تركيا على نحو ضخم ، وكان لها سلطانها الواضح على جمعية الاتحاد والترقى العثمانية التى قامت نظمها أساساً وفق أنظمة الماسون وكان أغلب أعضائها من الماسون .

وقال الدكتور صروف أنها هى التى بثت فى نفوس العثمانيين روح الحرية . وقد أعلن المؤرخ برتوبك بأن الماسونية كانت هى المحرك الأول والمرشد الأكبر فى تقويض الاستبداد العثمانى وخلع عبد الحميد .

الصهيونية فى أولى خطواتها

وقد كان نداء ١٧٩٨ الذى وجهه يهودى فرنسى إلى اليهود للقيام بمعاونته فى إعطائهم (أورشليم) داعيا إلى تحقيق مشروع القدس وإقامة مجلس ينتخبه اليهود المقيمون فى ١٥ قطراً للاستيلاء على مصر والمنطقة الممتدة منها إلى عكا إلى البحر الميت إلى البحر الأحمر مؤكداً أن هذا المركز يجعل — اليهود وفرنسا — مسيطرين على سير الملاحة فى البحر الأحمر قابضين على ناصية تجارة الهند وبلاد

العرب ، كان هذا النداء مقدمة للنداء الذى وجهه « نابليون » عام ١٧٩٩ لمعاونته فى إعطاء اليهود « أورشليم » غير أن اليهود الذين كانوا حريصين على أن يتموا مشروعهم بأنفسهم فتجاهلوا نداء نابليون وقصدوا إلى عمل آخر حين إتصلوا بالسلطان عبد الحميد من ناحية ثم بمحمد على من ناحية أخرى، أما (السلطان عبد الحميد) فقد رفض العرض الذى يرمى إلى إستثمار مليون فدان فى السلط بفلسطين بالرغم من سخاء العرض الذى قدم له وهو فيما يروى بعض المؤرخين سبعة ملايين جنيها ذهبا . أما العرض الثانى فيغلب أنه نجح حيث منح « محمد على » إمتيازاً واســـم المدى لموسى مونتو فيورى الثرى اليهودى الكبير لشراء مساحات كبيرة كانت هى أولى المناطق التى إستولى عليها اليهود فى فلسطين وبها أنشئت أول جمعية لاستثمار أراضى فلسطين عام ١٨٧٩ .

وفى هذه الفترة كتب . الدكتور تيودور هرتسل اليهودى النمساوى (١٨٩٥) كتابه الذى أثار ضجة وذيوعا (الوطن الاسرائيلى) والذى ترجم إلى الفرنسية والانجليزية والعبرانية والنمساوية ، وقامت الفكرة فيه على أساس إحتلال اليهود لفلسطين؛ وخلاصة آراء هرتسل أن أعداء الساميين آخذون فى الازدياد ولا يستطيع اليهود مقاومتهم لتشتت شملهم فى الأرض ، لذلك لابد من قيام جمعية سياسية مالية تشرف على شركة يهودية إقتصادية رأس مالها ٥٠ مليون جنيه ومركزها لندن للقيام بشراء أرض فلسطين التى يوجد بها هيكل سليمان على أساس أن الناس ـ أى اليهود ـ لا يساقون إلا عثل هذه الشعائر الدينية، ورسم مؤتمر بال ١٨٩٧ خطة العمل : إيجاد وطن شرعى للشعب الاسرائيلى فى فلسطين وذلك مع أحياء الآداب العبرانية ونشرها وتعاليمها وبعثها بعد انطوائها أكثر من ألفى عام . وقد تحقق ذلك بانشاء الجامعة العبرية فى القدس وبدأ التنقيب على الآثار اليهودية .

ومنذ ذلك التاريخ دخلت إلى الفكر العربي محاولات كثيرة لتسميم حقائق التاريخ والفكر وذلك بمحاولة أبراز تحريف التاريخ والتراث العربي حيث دس اليهود فى مختلف المؤتمرات والمؤلفات والكتابات ما أطلقوا عليه حقهم الكاذب فى فلسطين ، وقد كان لهم من السلطان عن طريق فرنسا وبريطانيا مامكنهم من التسلل إلى كتب التاريخ التى تدرس فى المدارس والجامعات وعن طريق المستشرقين اليهود أو أصحاب الولاء للصهيونية الذين عملوا فى مصر ولبنان وغيرها من دول العالم العربى ، كما أمتد نفوذهم الصحف العربية والمصرية بالذات وذلك ضمن خطة أنشاء الصحف الكبرى فى روسيا والنمسا وأيطاليا وإنجلترا والصين واليابان والباكستان وقد أستغل اليهود الأضطهاد الذى واجههم فى روسيا أبتداء من عام ١٨٨٢ وقضية ديفورس ١٨٦٧ التى تجلى فيها العداء لليهود على أشده، وبدأ ظهور النزعات القومية فى أوربا مما أداهم إلى الاندفاع فى الخطة التى حققت فى نهاية الحرب العالمية الأولى قيام وطن قومى لليهود فى فلسطين بصدور وعد بلفور فى ٢ نوفمبر ١٩١٨ ·

ويهمنا هنا أن نصور أثر الصهيونية فى الفكر والثقافة حيث ظهر عشرات من أعلام الفلاسفة والكتاب الذين سلطت عليهم قوة اليهود المادية وسلطانهم فى ميدان النشر والصحافة مختلف الأضواء ومن هؤلاء سبينوزا أكبر فلاسفة التاريخ اليهودى · وماكس نوردو الذى هاجم النظم البشرية : الدين والملكية والسياسة والذى تنبأ بالمدينة اليهودية المقبلة وقال : أرى أن مدينة اليوم القائمة على التشاؤم والكذاب والأنانية ستبيد وتتبعها مدنية ترتكز على الحق والغيريه والتفاؤل حيث تصبح الإنسانية حقيقة واضحة لا معنى خياليا ، وكان من أعظم زعماء الصهيونية وعضد «هرتزل» عندما أسست الحركة الصهيونية وكان نائبا عنه فى مؤتمر «بال» وهو الزعيم الأكبر لمفكرى الصهيونية ·

«وفرويد» داعية علم النفس الذى حاول بمذهبه تحطيم القيم الروحية للبشرية

« ورويتر » صاحب أضخم وكالة أنباء فى العالم والذى سيطر ووجه أخبار العالم لحساب اليهود فى مدى امتد أكثر من سبعين عاماً .

« واندرية مرو » الذى وجه الأفكار إلى الأثم عن طريق الأدب .

و« كارل ماركس » الذى وضع أساس المذهب الشيوعى وفق خطة الصهيونية فى السيطرة على العالم كما رسمها باروخ ليفى فى خطابه إلى ماركس (مجلة باريس يونيه ١٠٢٨) وقال فيه : يقتضى التنظيم الجديد للانسانية أن ينتشر أبناء أسرائيل على سطح الأرض ويتسلموا فى كل مكان زمام الآمور، خصوصاً إذا نجحوا فى فرض أشراف شديد على الطبقة العاملة . فينتقل زمام الحكومات فى العالم إلى أيدى الاسرائيلين تحت شمار الطبقة العاملة وتلغى حينئذ الملكية الفردية وتفرض رقابتها على كل مكان من الأموال العامة » .

وقد ركز اليهود على خلق أسس الفكر اليهودى كمحاولة للسيطرة على التاريخ والفكر العالمى وتحويل الأنظار نحو تأييد أكاذيبهم فى أدعاء الحق التاريخى فى فلسطين عن طريق أنشاء الجامعة العبريه فى القدس وهو مشروع أعده هرتزل وماكس نوردو وحايم وايزمان؛ وقد صور هذا المعنى (أنشتين) العلامة اليهودى الكبير حيث قال : أن الجامعة هى المكان الذى تتجلى فيه النفس البشرية بأجلى معانيها . وليست جامعات أوربا فى الحقيقة سوى مراجل تغلى فيها الوطنية المتطرفة غليانا آكلا . ويسود التعصب الأعمى فيها كل الأشياء الخارجة عن دائرة الأمة والسلالة وكل الأشياء التى تكون مبصومة بطابع فردى مختلف . وقال أن جامعتنا حرة طليقة من كل قيود التعصب والمفاسد » .

وفى هذه العبارات ما يرسم الهدف الحقيقى للثقافة العبرية القائمه على تمثل أحقاد أسرائيل ومطامعها فى محاولتين كبيرين ؛ الأولى: أبراز أثر اليهود فى الفكر

العربى القديم ، والثانى : محاولة تزييف التاريخ لأثبات حق وهمى فى فلسطين العربية .

وليس أدل على حقيقه أهداف الفكر الاسرائيلى من قول الدكتور أوسكار ليفى : نحن اليهود لسنا شيئاً ألامفسدى العلم ومدمريه ومحركى الفتن فيه وجلاديه .

وقد واجه الفكر العربى هذه المحاولات ولم يقف أمامها صامتاً وإنما فندها واثبت أنها مسمومة ومخالفة لحقيقة الواقع التاريخى وحتميه التاريخ ، فمنذ أربعين قرناً لا يعرف التاريخ لفلسطين سكانا غير العرب وبنو اسرائيل الذين طردوا مصر والتجأو إلى فلسطين إنما وجدوها أذ ذاك يسودها الشعب الكنعانى العربى ، ولم يكن بنو اسرائيل فى وقت من الأوقات أكثريه فى فلسطين ، وأن الذين شردوا من فلسطين بعد تدمير الهيكل فى عهد القيصر « أدريانوس » لم يكونوا سوى رجال الدين ولا يزيد عددهم عن خمسين ألفا ، أما سكان فلسطين الأصليين فلم يتعرضوا للتشريد ، وهذا ما يؤكد بالدليل القاطع أن الصهيونيون الموجودن الأن فى أوربا وأمريكا ليسو هم أحفاد اليهود الذين اخرجوا من فلسطين وأنهم بعيدون كل البعد عن الجنس الاسرائيلى القديم وعن الدين اليهودى الصحيح وهم كذلك بعيدون عن الثقافة اليهودية السامية القديمة فليست لغتهم الأصليه هى اللغة العبرية وأنهم إنما يتكلفون بعث هذه اللغة الميتة اليوم فى محاولة فاشله لايجاد وحدة مصطنعة ، وأن ثقافة الصهيونين الحقيقةهى ثقافة جرمانية ولغتهم المساه « يدش » هى لغة المانية قديمة .

وقد انقضى الاجل الذى يربطهم باليهودية وإنما هم يتخذون من الجنس والدين وسيلة للسيطرة العالمية .

[بروتوكولات صهيونية]

عندما عقد (يتودور هريزل) المؤتمر الصهيونى الأول فى بال بسويسرا عام ١٨٩٧ اجتمع أكثر من ثلاثمائة من حكماء إسرائيل حيث رسموا خطة وضع العالم

تحت سيطرة اليهود وتقويض أركان الحكومات لإقامة دولة يهودية واحدة تحت تاج ملك من نسل داود، وقد وضعت هذه الخطة موضع التنفيذ في بروتوكلات سرية أطلق عليها « بروتوكولات صهيون » .

وقال هرتزل الذى يعده اليهود رابع أربعة هم : موسى وسليمان وزروبابل « ومتى أصبحنا أسياد الناس لاندع فى الوجود سوى ديانتنا التى تنادى بالآله الذى يتعلق به مصيرنا ، لأننا نحن شعب الله المختار . ولأن مصيرنا يقرر مصير العالم ، ولذلك وجب علينا أن نلاشى سائر الأديان . فإن أدى عملنا هذا إلى قيام كفره محدثين . فسوف نجعلهم عبرة لشعوب لابد أن تخضع لديانة موسى المتينة الصوابيه الكفيلة بأن توصلنا للسيادة على سائر الشعوب .

وقد كان من الخطط التى وضعت لتنفيذ وصايا « هرتزل » انشاء الماسونية الكونية، والماسونية الملوكية والماسونية الرمزية العامة لمختلف الملل والديانات والأجناس ، وقد اتخذوا من الماسونية وسيلة لاستغلال غير اليهود فى الوصول إلى المركز الخطير الذى احتلوه فى توجيه السياسة المالية خاصة فى أمريكا وانجلترا . وقد كانت الماسونية هى الاداة التى يتحقق بها حلم الصهيونية عن طريق تحطيم مقومات كل الشعوب والأديان ولها أن تتخذ شماراً خادعا هو (الحرية والمساواة والأخاء) ليخفى حقيقة العمل لامبراطورية يهودا الكبرى .

وقد أشار كثير من الصهيونيين إلى أن هدف بروتوكولات حكماء صهيون هى حكم الجماهير والأفراد عن طريق عبارات ونظريات وقواعد للحياة معدة أعداداً ماهراً وعن طريق شتى أنواع الخداع والحيل وقالوا : أننا وقفنا وراء الكواليس وحرصنا على أن تبقى منظمتنا مستترة خفية . ويتصل بهذا أن الصهيونية هى حاملة لواء الدعوة إلى هدم الديانات . والقول بأن الأديان لم تعد تسد حاجات المجتمع الحديث ، وقد دست الصهيونية على رجال الكهنوت ملحدون يعملون

قسسا ويتحدثون عن الألحاد من طريق خفى ، وقد بلغ هذا العمل حدا عنيفا فيا روى عن أن كبير حاخامى اليهود فى القسطنطينية وجه إلى يهود فرنسا نصيحته: (أجعلوا من أبنائكم أطباء وصيادلة حتى يتمكنوا من القضاء على حياتهم دون أن تخشوا عقابا) .

* * *

وقد تضمنت هذه البروتوكلات (كما أوردها مترجمها محمد خليفه التونسى) خطة قوامها : استغلال العالم لمصلحة اليهود والسيطرة الكاملة على العالم ، وهدم الحكومات فى كل الأقطار والاستعاضة عنها بحكومات ملكية استبدادية ، وأغراء الملوك باضطهاد الشعوب وأغراء الشعوب باضطهاد الملوك . والقاء بذور الخلاف والشغب فى كل الدول عن طريق الجمعيات السرية والدينية والمحافل الماسونية ونقل الدول من التسامح إلى التطرف السياسى والدينى فالاشتراكية فالاباحة فالفوضوية . وإفساد أساليب الحكم . ووضع كل وسائل الطبع والنشر والصحافة والسينما والجامعات والمسارح فى يد اليهود ووضع أسس الاقتصاد المالى على أساس الذهب الذى يحتكره اليهود وأحداث الأزمات الاقتصادية المالية على الدوام .

وهذا نموذج من البروتوكولات :

البروتوكول الأول

« لقد أقمنا على أطلال الارستقراطية الطبقية والوراثية ارستقراطية من عندنا على أساس بلوقراطى (الحكومة الأقلية الغنية التى تملك معظم الثروة) ولقد أقمنا الارستقراطية الجديدة على الثروة التى نتسلط عليها وعلى العلم الذى يروجه علماؤنا .

أننا فى صلاتنا بالناس كنا دائما نستثير مرضى ضحايانا من أجل المنافع ونحرك شرههم ونهمهم وحاجاتهم المادية .

وكل واحد من هذه الأمراض يستطيع وحده أن يحطم قادة الشعب وزعماءه وظاهر من هذا أن حكماء اليهود يوصون قومهم بأن يسددوا ضرباتهم إلى القادة الذين هم فى الطليعة فإذا حطموهم تحطمت الأمم والطوائف التى يتبعهم من غير عناء » .

البروتوكول الثانى

«لضمان الرأى العام يجب أولا أن نحيره كل الحيرة بتغييرات من كل النواحى لكل أساليب الآراء المتناقضة حتى يضيع الأمميون (غير اليهود) فى متاهاتهم وعندئذ سيفهمون أن خير ما يسلكون من طرق هو إلا يكون لهم رأى فى المسائل السياسية . هذه المسائل لا يقصد منها أن يدركها الشعب بل يجب أن تظل من مسائل القادة الموجهين فحسب » . ا . هـ

[السامية واليهودية]

ولقد حاولت الصهيونية فى مخططها الذى قامت به بعد وعد بلفور ربط نفسها بالثقافة السامية حين أذاعت فى ظروف مختلفة أن أوربا المسيحية الآرية تضطهدها باسم السامية . وذلك لمحاولة تزييف الواقع التاريخى بربط الصهيونيين الذين لا رابطة حقيقية بينهم وبين اليهود منذ ٢٥٠٠ عام بالعرب باعتبار أن السامية كانت تجمع العرب واليهود ، والواقع أن هناك فارقا بين اليهودية الشرقية وبين الصهيونية الغربية لا سبيل إلى أنكاره ، مما لا سبيل إلى الربط بينهما بوجه من الوجوه ، فضلا عن أنه ليس من المستطاع التصور بأن الخمسين ألفاً من المشردين قد استطاعوا رغم المذابح والاضطهادات المنكرة أن يصبحوا — خمسة عشر مليونا من الألمان والسلاف يدينون بالدين اليهودى (دكتور محمد عوض محمد الهلال : يونيه ١٩٤٨) .

ولم يعد هناك شك أن الصهيونيين تغلغلوا فى الغرب واختلطوا بالشعوب

الآرية فى خلال هذه القرون الطويلة احتلاطا أضاع صلتهم باليهودية والسامية وصهرهم مع الشعوب التى أندمجوا فيها ، وهى الشعوب الآرية مما أثر فى آرائهم وتفكيرهم ؛ لذلك لم يكن هناك ما يثبت أية رابطة بين الصهيونيين وبين الثقافة العربية التى عاشت مستقلة خلال تسعة عشر قرنا ، ومن الحقائق المؤكدة أن الفكر العربى قد نفر من أساس الفكر الغربى وهو الالحاد .

ولقد وقف يهود من مصر أمثال جاستون زنانيرى فى مؤتمر اللغات والآداب القديمة للبحر المتوسط فى موناكو (نوفمبر ١٩٣٥) ليحاولوا الربط بين الصهيونية وبين السامية القديمة . ولم يكن هناك رد على مثل هذه الادعاءات من أن السامية بقيمها وبطولاتها وثقافتها القائمة على الدين والخلق والكرامة والوفاء تختلف تماما عن الصهيونية بمعالمها الجديدة ممثلة فى بروتوكلات صهيون وفى الاغراق فى المادية والدعوة إلى اشاعة الاباحة والرزيلة فى العالم وتحطيم المعتقدات الإسلامية والمسيحية وسحق القيم الروحية والمعنوية وإثارة الشكوك حول الألوهية وقيادة حركة التغريب .

وقد اتجهت الصهيونية إلى مثل هذا الغزو الثقافى عن طريق أعادة ربط العرب والبهود معا أزاء حملات أوربا على السامية ، النزعة التى أطلق عليها (Antisemitism) وهى فى الواقع ليست موجهه إلى السامية بقدر ما هى موجهة إلى اليهود وإلى الصهيونيين دون غيرهم من الساميين .

وقد اشتدت دعوة (عداء السامية) فى أوربا بعد صدور وعد بلفور وقيام الثورة البلشفية الشيوعية فى روسيا ، فقد تكشف بالدلائل التى لاتقبل الشك أن اليهود هم زعماء الحركات الثورية والانقلابية فى العالم ، وإليهم ينسب كل مايقع من أزمات وحروب ، ومنهم رؤساء الشيوعية وناشروها فى العالم . وهم فى نفس

الوقت ملوك المال والصيرفه الذين يسيطرون على أسعار السلع وتقلب العملة والأوراق المالية ، ولهم جهازاً ضخماً للاستعلام والجاسوسية فى مختلف أنحاء العالم .

وأنهم قد استفادوا من الثورات الفرنسية ١٧٨٩ وأوقدوا نار الحرب العالمية الأولى ١٦١٤ والثورة الروسية ١٩١٧ والثورة الإيطالية ١٩٢٢ والثورة الأسبانية ١٩٣٠ .

وأنهم حماة الدعوات المتضاربة سواء الرسمالية الغربية أو الشيوعية الروسية وذلك بقصد خلق كتلتين فى العالم وإبقاء الصراع الدائم بين الشرق والغرب .

(الجامعة السامية)

وقد احتضنت بعض الدوائر فى مصر فكرة (الجامعة السامية) التى نادى بها اليهود ونشرت صحفها إبحاثا عنها حيث كانت بريطانيا تفرض حمايتها على هذه التيارات المتعددة وتبيح لها الظهور أممانا فى بلبلة اتجاه الفكر العربى ؛ يقول قدمى كوهين (الأهرام — ١٩٣١/٧/٥) أنه بدا منذ عام ١٩٢٢ فى نشر سلسلة من الأبحاث حول (الجامعة السامية) وفى مقدمتها كتابه (إفلاس الصهيونية) ويرى أن الصهيونية قائمة على قواعد واهية لا قيمه لها من الوجهة الأدبية والنفسية . وأنها لن تسفر عن نتيجة ما لم تحـــل المسألة التالية وهى :

هل الصهيونيون الذين يعودون إلى فلسطين يكونون جلادى العرب فيجتاحون بلاد إخوانهم فى الدم ويخونون فضلهم . أم يعودون إلى هذه البلاد للقيام بجميع الواجبات المفروضة على الشرقيين .

ويقول : الصهيونية أما أن تتحد مع الغرب أو مع الشرق . وفى الحالة الأولى تظل شيئا حقيراً لا أمل له فى البقاء إلا إذا وضع نفسه موضع الجشع الاستعمارى الأجنبى، وفى الحالة الثانية يكون مشروعا عظيما يبعث على أعظم الآمال فى نفوس الجنس الذى ينتسب إليه « شعب الله الخاص » وهو يدعو إلى الاتفاق بين العرب والصهيونيين ويقول « الغاية فى نظرى اتحاد سامى يضم جميع البلاد الواقعة بين البحر المتوسط والبحر الأحمر والاقيانوس الهندى وإيران وتركيا وبين هذه الولايات المتحدة فى الشرق الأدنى . وإنى أرى ولاية كبيرة يهودية تسع أبناء إسرائيل، والوسيلة الوحيدة المؤدية لذلك يجب أن نجدها فى الجامعة السامية. أن النهضة العربية لا يمكن أن تسفر عن النتائج المنشودة دون معاونة اليهود . كما إننا فى حاجة إلى الاستعانة بالعرب ولغتهم البديعة لجعل لغتنا ملاءمة لمقتضيات العصر . فأين يجد العرب المال اللازم لإنهاض بلادهم واستثمارها . أن وجوده فى أوربا وأمريكا فانهم يدفعون فيه ثمناً غاليا . هذه الفكرة لا نصل لها إلا باعتناق فكرة الجامعة السامية التى توحد جميع الموارد والجهود لتحقيق أمانى الفريقين . إن العبقرية اليهودية فى حاجة إلى أن تستمد قوة جديدة من الأرض التى نشأت فيها ، وأن مهمة الجامعة السامية هى إحياء الشرق وإيجاد الصلة بين اليهود وبين العرب . » ا . ه .

هذه صورة من الاتجاه الصهيونى الذى حاول السيطرة على الفكر العربى لاقناعه بمغالطات وأكاذيب فى محاولة إيجاد جامعة سامية بين العرب وبين الصهيونيين الذين لا صحة لنسبهم واتصالهم الحقيقى بيهود العالم العربى ولا بالسامية إطلاقاً، فضلا عن الخداع العجيب الذى تطويه الكلمات المسمومة حين يدعى (قدمى كوهين) المستشار بمحكمة الاستئناف بباريس بأنه يكتب ما يطلق عليه (إفلاس الصهيونية) فى حين أنه يرسم مؤامرة أشد خطورة حين يحاول خداع العرب

بصداقة الصهيونية وإمكان الإخاء بينهما ، وهم يغدرون بجزء هام من أرض الأمة العربية ويغتصبونه، وقد رد عليه كثيرون يفندون أرائه المسمومة. وقال محمد رفيق العابدى (١٧/١٠/١٩٣١ — الأهرام) أنه إذا كانت الدعوة السامية معناها أن العرب يتسامحون فى حقوقهم ويتهاونون فى الدفاع عنها وينزلون طواعيه عن بلاد لم تبق ذرة فيها إلا إمتزجت بدم أبائهم وأجدادهم فى سبيل ضفر أكاليل السامية وتكوين الولاية اليهودية لهى فكرة طائشة ؛ وقال أن غاية الدكتور مفادها أن تكون فلسطين العربية الخاصة هى هذه الولاية الفكرة التى تسع جميع أبناء إسرائيل داخل ما يستبيح مما قاله أنه يسوق العرب أنفسهم دعاة فى سبيل السامية لخير الصهيونية التى يحاربها أسما بزخرف القول .

وهكذا ارتبط «مؤتمر بال» بحركة فكرية امتدت وتضخمت وسيطرت على الصحف ومؤتمرات المستشرقين وأساتذة الجامعات وكتاب العالم ، فقامت دعوة أخرى للجامعة السامية إلى جوار الدعوة الفرعونية والأشورية والبابلية والماركسية والشيوعية ، وقد ألقى الحاخام اليهودى فى مصر عدة محاضرات عن تطور اللغة العبرية حاول فيها أن يربط بينها وبين اللغة العربية مبينا مدى الدور الذى لعبه الفكر العبرى فى الفكر العربى القديم وظهرت مؤلفات تعلن يقظة الفكر اليهودى منها (كتاب يقظة الفكر اليهودى : إيلى ليفى أبو عسل — ١٩٣٤ مصر .)

(الحضارة اليهودية)

ولقد برز فى هذه الفترة تيار قوى أطلق عليه اسم (الحضارة اليهودية المستقبلية) كان أساس دعوته أن الحضارة المسيحية التى تحمل لوائها أوربا هى على وشك الزوال وستقوم مكانها حضارة أخرى ستكون أكثر اهتماما بالماديات ولكن على نسق آخر، وقد صور عمر عنايت (المصور — فبراير ١٩٢٩) هذا

التيار الذى انبثق من الدور الذى قام به اليهود حين آزروا فى توجيه الرأى العام إلى جهة غير الجهة التى كان يتطلع إليها . وإنهم قد استفادوا من القلق الاقتصادى الذى ينتج عن الحرب . وقال إنه إذا بحثت كل حركة هدامه أو مجددة فى الوقت الحاضر تجد أن محورها الدعاية اليهودية ، الأمر الذى يمكننا شاهدته متجليا فى موقفين : الأول فى روسيا والثانى فى فلسطين .

فنى روسيا نجد الثورة تركبها الدعوة اليهودية التى تجد المجال فسيحا لمهاجمة المسيحية حاملة علم المدنية الحالية . أما فلسطين فاليهود يريدون أن يشيدوا بها نقطة ارتكاز يوجهون منها جهودهم حيث شاءوا ، فكما أن روسيا ليست غير معمل البارود البلشفى الذى يعمل على نسف المدينة المسيحية، فان فلسطين ليست سوى العش الذى ستولد فيه المدنية اليهودية المستقبلة ، ومن السهل ملاحظة النسيطر المالى اليهودى الأخذ بخناق العالم ومحاولة العمل لإنشاء مملكة داود الجديدة » ومما يتصل بهذا الاتجاه ما عرف من انتهاء سيادة أوربا بعد الحرب العالمية الأولى وانتقال هذا السلطان إلى أمريكا التى عاونت على قيام إسرائيل . وبذلك تخلفت أوربا المسيحية الغربية وسقطت تحت سلطان أمريكا التى تسيطر عليها الصهيونية . وكان هذا التركيز هو مقدمة لإعلان الصراع (كما أعلنه الحاخام عما نوفل إيفانوفتيش — ١٩٥٤ بودابست) بين أمريكا وروسيا « حتى يضعف الخصمان وتتضعضع قواهما . ثم تتم السيطرة اليهودية على العالم . وذلك كمقدمة لتوليد جيل جديد يقوم على تزاوج البيض والسود لإنشاء شعب من الجنس الأسود ونشر العقيدة الاسرائيلية فى جميع أنحاء العالم — وقد بلغ عدد الصحف الصهيونية التى تصدر فى العالم وتوجه الرأى العام ٨٩٩ يصدر منها فى الولايات المتحدة وحدها ٢٢٤ صحيفة .

وهكذا كان الفكر الصهيونى الجديد فى مقوماته هادفا إلى الصراع مع المسيحية الغربية ومع الإسلام والفكر العربى فى أدق خصائصه ومقوماته .

وجملة القول : أن هدف الدعوة الصهيونية الفكرية كان بالغ الأثر فى حملة التغريب التى جعلت قوامها البلبلة والتشكيك وتحطيم المعتقدات والقضاء على القيم الروحية والمعنوية وأثارة الشبهات وأدخال الاسرائليات إلى نصوص الدين .

وقد اتفقت أهداف التغريب المسيحى مع الدعوة الصهيونية التى لم تقم ألا على أساس استعمارى يهدف إلى اقتطاع منطقة من العالم العربى باسم العنصرية لدعم بقاء الاستعمار فى العالم العربى، وقد وصف الدعوة الصهيونية مستر مور غنتو سفير أمريكا فى الاستانة بأنها «أعظم تضليل ظهر فى التاريخ اليهودى» .

وقد تحققت نتيجة لهذه الفلسفة أكبر جريمة فى تاريخ الأمة العربية والانسانية عامة حيث قامت اسرائيل تحقيقاً لمبادىء التلمود وبروتوكولات صهيون وكنواة للمملكة المرتقبة التى تفرض سلطانها على العالم .

ولم تقم هذه الدولة — كما هو شأن كل أعمال الصهيونية — ألا على سفك دماء ملايين البشر واستغلال الثورات والسيطرة على الحكومات بسلاح المال والأعلام .

وقد كان لاحتلال الصهيونيه لفلسطين أبعد الأثر فى الفكر العربى الذى أثاره هذا العمل الخطير وأيقظ روحه ودفعة فى قوة إلى المقاومة ووجه كل طاقاته إلى العمل .

المراجع

أسرار الصهيونيه : عبد المنعم شميس

بروتوكولات صهيونية : ترجمة محمد خليفة التونسى .

صحف الاهرام والمقتطف والمشرق .

٣ ـ الدعوة الشيوعية

عندما وقع العالم العربى تحت سيطرة الاستعمار الغربى ، كان مخطط تغريبه وتحطيم شخصيته يهدف إلى توجيه تيارات فكرية متعددة متضاربه، وكان لسيطرة الاستعمار على أوجه الاعلام أثره فى رسم صور مختلفة لهذه الآراء والمذاهب والدعوات .

ولقد كان من الطبيعى أن تصل هذه الدعوات : الرأسمالية المسيحية والصهيونية والماركسية والشيوعية إلى العالم العربى باعتبارها دعوات عالمية لها أجهزة ضخمة تذيعها ككل الأفكار والآراء والتيارات ، غير أن الاستعمار الغربى كان حريصاً على أن يوجه هذه الأفكار ويرسم لها صوراً معينة حسب وجهة نظره كتأييده للصهيونية ودعوته ومهاجمته للشيوعية والاشتراكية. وليس أدل على هدفه فى زعزعة العقائد وأحداث أضطرابات ضخم فى الحياة الفكرية العربية من أنه سمح بقيام دعوات وصحف وكتابات للشيوعية وهو على خلاف معها وخصومه وتعارض ، ذلك لأنه إنما كان يهدف بذلك إلى تعميق حملة التغريب وتحطيم الشخصية العربية وتمزيقها وسلخها من أهدافها ، فضلا عما فى الشيوعية من حملة عنيفة على «الدين» الذى كان الاستعمار حريصا على القضاء عليه والتشكيك فيه كمقوم ضخم للحياة الفكرية .

وكانت تلك خطته دائما فى اذاعة الاراء ذات الصفة المتعارضة ، فى السياسة والاجتماع والتعليم والدين وذلك لتفسيخ الفكر ومنعه من الاتجاه فى طريق موحد وكان هذا جزءاً من خطة التجزئة التى جعلها من أبرز أهدافه .

* * *

وكانت الدعوة الماركسية الشيوعية قد تسربت إلى الفكر العربي بعد ثورة أكتوبر ١٩١٧ في روسيا وتألفت أحزاب شيوعية سرية في مصر وسورية قام على الدعوة لها والاتفاق صهيونيون وكان (روز نتال) اليهودي هو رأس هذه الحركة في مصر . وقد نظرت الاهرام (١٩٢٥/٧/١٠) إلى هذا الأمر من زاوية بريطانيا لا من وجهة نظر الأمة العربية فقالت أن معظم شعوب الشرق مغلوبة تئن بلادها تحت النير الأجنبي وأنهم ـ أي الشيوعيون ـ يأتون إليهم من الطريق الذي يغريهم بها ، ومما يهم البلاشفة بنوع خاص أن يثيروا الاضطرابات والمشاكل في كل بلد شرقي ذي صلة مباشرة أو غير مباشرة بالامبراطورية البريطانية لأنهم يرون في هذه الامبراطورية عدوهم الطبيعي وهم يشجعون روح العداء للإنجليز في أفغانستان وأيران والشرق الأوسط .

وأشارت الأهرام إلى « أن مصر محاطة بالدعاية الشيوعية من معظم أطرافها ففي فلسطين حزب شيوعي خارج من صميم الحركة الصهيونية وملازم لها وهو يعمل في السر والعلانية . وفي تونس تعمل الحركة الشيوعية وفي جده وصل بلشفي مسلم يعمل في الخفاء وعلقت على ذلك بأن مركز مصر الجغرافي يجعلها عرضه لجميع ما يقذفه الغرب من العلل المادية والاجتماعية إلى الخارج » .

وفي هذه الفترة جرت مساجلات بشأن الشيوعية والاشتراكية ، حيث قامت فئتان ، أحداهما تدعو إلى الشيوعية علانيه والأخرى تدعو إلى الاشتراكية. وفتحت جريدة الاهرام منذ عام ١٩٢١ صفحاتها للكتابات المختلفة حول هذا الموضوع قائلة (١٦ / ٨ / ١٩٢١) أن حاجة البلد الاجتماعية تقضي علينا (أي الاهرام) وعلى كل عامل برقابة حزب كهذا لا لأننا نكره التعاليم والمذاهب الاشتراكية العلمية والعملية ، بل لاننا نكره النظريات المتطرفه التي تقضي بالطفرة ونحن نود التطور رويداً رويداً . وقالت : أن لكل أمة أخلاقها وعوائدها ومنافعها

وما يصح أن يجرى فى إيطاليا والمانيا ورومانيا لا يصح أن يتبع فى مصر — وقال سلامه موسى وعلى العنانى ومحمد عبد الله عنان : أنهم يستهجنون الطرق البولشفية واعلنوا أنا كيد الاعتدال فى خطتهم (س.م — ١٩٢٢/٧/٤) وأن البولشفية الروسية أخفقت أخفاقا يكاد يكون تاما ونشرت فى روع البلاد الروسية الخراب والدمار ، وأن عدداً كبيراً من الاشتراكيين قد أعلنوا عدم موافقتهم عليها لأنها لجأت إلى تحقيق غايتها طفرة وغالت فى تطبيقها . وأن الغرض هو المذاكرة فى أغراض هذا المذهب (الاشتراكية) و تطبيقه على الأحوال المصرية (س.م — ١٩٢١/٨/٨) وطالب روزنتال بحقوق المستأجرين ثم باتحاد النقابات ، وكان سلامه موسى قد ألف عام ١٩١٤ رسالة فى الدعوة إلى الاشتراكية عن طريق النشوء والارتقاء والتطور لا عن طريق الثورة؛ وقال أنه كان عضوا فى الجمعية الفابية الانجليزية وعرف من أعضائها مستر سدنى وب، وأصدر عزيز ميرهم بيان تأليف الحزب الاشتراكى المصرى فى ٢٩ أغسطس ١٩٢١ غير أنه فى عام ١٩٢٤ وبعد صدور الدستور وقيام الحكم النيابى المصرى بدأت حملات متعددة على أتباع هذا الحزب واعتقل عدد كبير منهم فى الاسكندرية ، وقدموا للمحاكمة ثم تجددت الدعوة إلى مقاومة الشيوعية فى فترات متوالية منها ١٩٢٧ و ١٩٣١ . وقد ثبت أتصال دعاة الحزبين الشيوعى والاشتراكى فى مصر بجهات خارجية وأن دعوتهم لم تكن مستقلة لصالح مصر ومثل هذا يقال عن الأحزاب الأخرى التى ظهرت فى سوريا ولبنان وفلسطين تحت حماية الدول المستعمرة البريطانية والفرنسية .

وقد قاوم الرأى العام المفكر فى مصر هذه الدعوة، وأنكر «أحمد حلمى» هذه الدعوة وبين خطرها على نظامنا الاجتماعى ومخالفتها للتعاليم الدينية، ودعا رجال الدين والحكومة إلى محاربة هذا الخطر وقال (١٩٢١/٨/٢٠ — الاهرام) أنه ليس فى مصر مشكلة توصف بحق بمشكلة رأس المال حتى يقال أننا فى حاجة

إلى تأليف مثل تلك الاحزاب، ولا ندرى كيف أن الحكومة التى لم يتسع صدرها لإصدار الصحف اليومية الجديدة، يتسع اليوم لتأليف حزب أشتراكى فى مصر على الأنماط المتطرفة وقال: «هل نسوا أن الاشتراكية التى يدعون إليها تكفر بجميع الاديان وتجعل الاملاك من عقار وأطيان ملكا لواضع اليد عليها والمناجم لعمالها والمصانع لصانعيها . أن كارل ماركس مع أعتدال أفكاره لم تطقه حكومة بلاده بل حاكمته على نشر تعاليمه وأخيراً نفته» .

وقال الشيخ التفتازانى (٢٤/٩/ ١٩٢١ — الاهرام) أى نقص فى الأديان التى تعرض للفقير من مال الغنى قدراً وتحتم على أولى الأمر البذل بين الجميع . أنها لاحدى الكبر أن يقوم فينا نفر من الذين بهرتهم زخارف النظريات الخيالية فيستهينون فينا بقوة العقيدة والأثر على حسن ظن منهم، ولو أنهم كانوا على حصافة فى الرأى لدعونا إلى أحياء موات أحكام أدياننا ولردنا إلى الكتب السماوية والسنن النبوية » ورد عزيز ميرهم عن الحزب فقال « أن خصوم الاشتراكية بمصر لم يقوموا حتى الآن بدليل وجيه فى سبيل معاوضتها وقال أنهم يحاربون أصحاب الثروة ويحاربون الاشتراكية باسم الدين للتأثير على عقول السذج ويحاربونها لاحبا فى الدين ولكن لأن جشعهم فى حب المال يجعلهم يظنون أن الدين يدافع عن مالهم .

وقال التفتازانى (٧ / ٩ / ١٩٢١ – الاهرام) هل جاءت الاشتراكية لتكمل نقصا فى الأديان السماوية . لقد صارت روسيا معملا كيماويا لمدة تجارب أسفر كل منها عن خيبة وفشل .

وقال عزيز ميرهم رداً عليه (١٣/٩/١٩٢١):لا نظن أن التعصب للملكية الفردية يصل بإنسان فيدعى بأنها ركن من أركان الدين . أن النظم الإجتماعية تتغير وتتبدل وتتطور فى أشكال مختلفة حسب الزمان والمكان .

وقال الشيخ عبد اللطيف بخيت (الأهرام — ١١/٩/١٩٢١) أن الاشتراكية

ليست مخالفة للدين بل على العكس من ذلك نجد روح القرآن والسنة تتمشى مع الاشتراكية . ولما فتح عمرو بن العاص مصر وزع أرضها على الجند وغيرهم حسب ما يرى ولم يجد من الدين مايمنعه » وترددت مناقشات طويلة بين سلامه موسى وعلى العنانى ومحمد عبد الله عنان وعزيز ميرهم (سبتمبر ١٩٢١ـ الأهرام) وقال سلامه موسى فى ختام هذه المناقشات (١٩٢١/٩/٢٩) أن الاشتراكية فى نظره تستدعى حالة عليا من الرقى فى الأمة لم تصل إليها بعد الأمة الروسية ؛ وقال أن اشتراكية الروس هى اشتراكية عجلة وإرهاق تشبه كل الشبه تلك الشيوعية التى فشت فى باريس فى حصارها المشهور ١٨٧٠ ، ولا شك أن الاشتراكية المصرية ستكتسب لونا خاصا بتأثير الوسط المصرى والمزاج المصرى . والاشتراكية بانقاصها حقوق الغنى من الجهة الواحدة ستزيد فى حقوقه من الجهة الأخرى « وإن ما ذكر من أن الملكية مبدأ مقدس يجب أن تدافع عنه الحكومة وتحميه من كل اعتداء هو قول مثير للضحك عند عارف تاريخ الملكية المصرية وعدد الملاك الآن ، ويكفينى أن أذكر أن نحوا من ثلاثة عشر ألف نفس أى أقل من عدد طلبة الأزهر يملكون أكثر من نصف ثروة القطر الزراعية وأن هذا العدد الصغير من الناس يملك ويتصرف فى أرزاق نحو ثمانية ملايين مصرى ، وأشار إلى ما فعله محمد على فى نزع ملكية الأرض فقال « لقد نزع محمد على ملكية الأرض ليشغلها على نفقته الخاصة فلما هم بأبراز هذه الفكرة قامت فى وجهه صعوبات استعمل أزاءها كل أنواع التهديد حتى أصبح المالك الوحيد لأكثرها فقد استولى على أملاك المماليك . والأراضى الموقوفة ونزع ملكية الأراضى التى كانت لبقية الأفراد مدعيا حق التسلط على كل الأراضى لأنه الحاكم النائب على الخليفة المالك للأرض ، فاستحضر كل الملاك وطلب منهم أبراز حقوق ملكيتهم فقدموا إليه حججهم رغم أنوفهم ، فكان يضرب ببعضها عرض الحائط ويظهر

بطلان بعضها الآخر ، وعنى بعض الملاك بعوض ، ولما أصبحت جميع الأملاك في قبضته أعدم كل ماديه من الحجج وأصبحت كل الأرض في قبضته واستخدام الفلاحين في زراعتها » .

* * *

ومن جملة هذه الآراء يظهر أن السجال لم يكن علمياً ولا قومياً فلم يفرق الدعاة بين الاشتراكية والشيوعية ، كما أن دعوتهم ارتبطت بعوامل خارجة وباتصالات بالاحزاب الشيوعية في أوربا ، ولم تكن دعوة اشتراكية وطنية متصلة بالواقع المصري أو العربي أو خالصة للهدف القومي المتحرر من المذاهب الغربية أو الاتصال بالشيوعية الدولية .

وكان خصوم هـــذه الآراء يتحدثون من الناحية الدينية وحدها ، ويعارضون المذهب دون مناقشته علميا ولم يكن الرأي العام يحتمل في هـذه الفترة مواجهة مثل هذه المذاهب على نحو يحقق الاستفادة من الصالح منها .

وقد كان الاستعمار وراء السماح بهذه الآراء إذ كان في هذه الفترة (١٩٢١ — ١٩٢٣) يسيطر بالحماية والأحكام العرفية وقوة الاحتلال على توجيه الرأي العام في ميدان الصحافة والفكر والاجتماع ، ولم ترفع الحماية إلا بعد صدور تصريح ٢٨ فبراير ١٩٢٢ وقد ظل المعتمد البريطاني الذي أصبح المندوب السامي بعد إعلان الاستقلال هو صاحب الرأي الأول في كل هذه الأمور ، كما أن إفساح جريدة الأهرام الصفحات الأولى والمقالات الافتتاحية منها لهذه الدعوة من ناحية تأييدها ومعارضتها إنما كان يهدف إلى خلق جو من البلبلة والتمزق وضرب الأفكار بعضها ببعض على نحو يحقق أهداف الغزو الثقافي والتغريب وتحطيم مقومات الفكر العربي والشخصية العربية .

* * *

غير أنه فى خلال هذه الفترة التى نؤرخ لها — حتى الحرب العالمية الثانية — لم يتوقف الحديث عن الشيوعية على نحو أو آخر فى مقالات وأبحاث تتناول شخصيات لينين وتروتسكى وستالين أو مذهب التفسير المادى للتاريخ أو ثورة ١٩١٧ وسقوط القيصرية . كما وجرت محاولات متعددة لتنظيم العلاقة بين أصحاب العمل والعمال وقامت نقابات العمال وجرى بحث مختلف المسائل المتصلة بالرأسمالية والاقطاع، غير أن الاستعمار كان حريصاً على دعم نظامه القائم على تسلط الاتجاهات الرأسمالية الغربية على مختلف التشريعات والقوانين، وكان نفوذ الاقطاعيين من رؤساء الحكومات ورجال القصر والأحزاب يحول دون أى إتجاه نحو الاشتراكية الحقيقيه المستمدة من الواقع العربى .

وقد واجه الفكر العربى الدعوة الماركسية الشيوعية فى مختلف مراحلها كما واجه مختلف النظريات الغربية ، وكان فى كل أدوار هذه المرحلة يكتشف فى عقائده تراثه خير مافى هذه الدعوات لو أتيح له أن يحقق الإصلاح دون أن يتخلى عن معتقداته ، غير أن الاشتراكية الاسلامية كانت لا تزال محارب من قيادة حركة التغـــريب فى سبيل الابقاء على أنظمه الاقطاع وسلطان رأس المال وفوارق الطبقات وحجب العدالة الاجتماعية .

وقد ظل دعاة الشيوعية أو الاشتراكية الغربية فى نظر الفكر العربى غرباء عنه على أساسين واضحين : أحدهما أن لدينافى الاسلام وتراثه وشريعته ما يحقق تنظيم المجتمع وإشتراكيته ويحقق العدالة الاجتماعية دون الحاجة إلى اقتباس أنظم الآخرين فضلا عن أن التجربة التى حاولت الشيوعية تحقيقها فى روسيا لم تحقق النجاح الذى يكسبها القبول ،هذا بالإضافة عن نفور الفكر العربى من إستبعاد « الدين » عن مجال النظم الاجتماعية .

وقد كان الفكر العربى يرى فى الشيوعيـة فى وجها آخر من الغزو الغربى للأمة العربية لأنها تحمل أفكاراً . ومذاهب بعيدة عن طبيعته فضلا عما كانت تتسم به الدعوة الشيوعية من الارتباط بموسكو ، وعدم قدرتها على

التحرر من هذا القيد، واستحالة مواجهة الاشتراكية كنظام يمكن أن ينقل منه ما يتفق مع حاجة أي أمة من الأمم ، وهى فى هذا تحمل نفس الخطأ التطبيقى الذى يطالب به الغزو الاستعمارى من أن تقبل الأمة العربية الحضارة كاملة أو ترفضها جميعا .

وقد كشفت التجربة الشيوعية أمام الفكر العربى نتائج خطيرة زارت حذرها منها فقد الدين والحرية والمساواة . وسلب النظام الشيوعى حرية الفرد ووضعه تحت الوصاية القاهرة والرقابة الشديدة . ولم تنجح الشيوعية فى إلغاء نظام الطبقات وعجزت عن أن تقرب بينها وبقى سلطان الحكام شبيها بسلطان القيصرية وهى أن استطاعت أن تمحو طبقات قديمة فقد أحلت محلها طبقات جديدة .

وقد كان إيمان الشيوعية بأن الوسيلة إلى تحقيق دعوتها إنما يتم بالهدم والتخريب والثورات الحمراء والانقلابات الدامية مما نفر الأمة العربية فى مذهبها ، لأن قوام فكرها وشخصيتها إنما بنى على الأخوة والوفاء والتسامح والاقتناع بالحجة .

وزاد من ذلك النفور أن التآمر كان جزءاً هاما من جوهر الشيوعية ، وقد ظل ملازما لها حتى فى البلاد التى أصبح زمام الأمور فيها بيد الشيوعية نفسها .

كما اعتمدت الشيوعية على الارهاب وخداع الجماهير . وكان طابعها ولاء أنصارها دائما لقياداتهم الخارجية دون أوطانهم مع محاولة أثارة الفوضى فى هذه الأوطان للتخلص من حكوماتها الوطنية وإقامة حكومات جديدة موالية للشيوعية .

الشيوعية وماركس

فاذا رجعنا إلى « الشيوعيه » كفكرة وجدنا أن صاحب الدعوة إليها هو الحاخام الإسرائيلى « كارل ماركس » . وقد عرف اليهود بأنهم يمثلون طبيعة الحقد وكراهية الإنسانية وكانت مطامعهم دائما فى القضاء على كل القوى للسيطرة على العالم وهدم والأديان والقوميات .

وقد كان « ماركس » واحدا من صناع هذه المؤامرة الضخمة ، ولذلك فقد كانت

فكرة « الشيوعية » كما فهمها وإرادها إنما تهدف القضاء على القوميات والأديان وخلق قوة جديدة تصارع قوة (الرأسمالية) وقد حمل اليهود لواء المذاهب الهدامة . وكان (ماركس نوردو) قد وضع مخططا لهذا العمل التخريبي حيث دعا إلى تنشئة الجيل الصاعد على الكذب والتموية والمخادعة وعلى الانانية وحب المنفعة والسعى وراءها بكل الطرق .

وقد وضع زعيم الشيوعية الأول اليهودى فى مذهبه خلاصة إحقاد جنسه فقد قامت الدعوة على « بغض جميع الطبقات والحقد على البشر » وجاءت صدى لنفوس مليئة بالانتقام من مختلف طوائف البشر ، وقد اعترف الصهيونيون أنهم أول من نادى بالشيوعية ، وقال اليهود أن الثورة الروسية كانت من تصميمهم ، وأن ما تحقق فى روسيا كان بفضل العقلية اليهودية التى خلقت الشيوعية فى العالم ولم يكن إتفاقا أن أنصار الشيوعية فى العالم من الصهيونيين وأن ٩٠ فى المائة من أعضاء الحزب الشيوعى الأمريكى من غلاة الصهيونية ، وإن المجلس الذى حكم روسيا بعد قيام الثورة الشيوعية ١٩١٧ كان مكونا من عشرة أعضاء بينهم ستة من اليهود .

ولطالما ردد اليهود إنهم اتخذوا من الشيوعية وسيلة للتغلب على العالم والوصول إلى السيطرة وتسخير الموارد العالمية .

وقد أكد هذه المعانى ما قاله أحد زعماء الشيوعية « لينين » الذى اتفق أنه كان يهوديا أيضا وهو الذى حول فكرة ماركس إلى دوله ونظام : قال « لانحتاج إلى الحب بل إننا أحوج إلى البغض والاحقاد، أنه يجب علينا أن نتعلم البغض وأن نرضعه مع اللبن » .

وقال نيتشه أن اليهود والروس سيكونان أهم العوامل فى المستقبل » :

(فكرة الشيوعية)

فاذا عرضنا لوجهة نظر الفكر العربى وجدنا مخالفة واضحة بين مفهوم الشيوعية ومقومات الفكر العربى . فهذه نظرية ماديه خالصة ونظام مادى بحت · يستمد فكرته من فلسفة ملحدة تؤمن بمادية التاريخ فترى أن كل ما يقع فى التاريخ مرجعة إلى الأسباب الاقتصادية ·

وقد قال ماركس المطبق الأول للنظرية الشيوعية : إن الماركسية هى المادية وهى معادية للدين · وفى فلسفة الشيوعية : أنه لا حقيقة سوى المادة · وأن الإنسان وأعماله مادة ·

ويرد ماركس كل أسباب التطور التاريخى للبشرية إلى العوامل الاقتصادية ، ويرى أن المال والعمل والانتاج والاستهلاك دون غيرها من الدوافع هى التى تسير الحركة التاريخية ، وقال أن مقاصد دعوته هى القضاء على التفاوت الطبقى بالتسوية بين الناس فى المعايش وأن طريق الوصول إلى ذلك هو بالغاء الملكية الفردية والقضاء على ثروة الأفراد وأن ذلك يؤدى إلى تحرير الطبقة العاملة والفقيرة من سيطرة الرأسمالية .

وقد أعلن ماركس بان تحقيق الاشتراكية لا يتم إلا بالثورة والانقلاب والتآمر والقيام ببث هـــذا التآمر بين طبقة العمال ضد أصحاب رءوس الأموال .

أعلن ماركس هذه الآراء ١٨٦٤ وحاول إيجاد اتحاد بين عمال أوربا لمقاومة الممولين ، وفى عام ١٨٨٩ أنشئت الدولية الثانية حيث عقدت مؤتمرات فى بروكسل ثم سقطت الحكومة القيصرية فى ١٦ مارس ١٩١٧ وبدأت الثورة الشيوعية الروسية حيث قامت الدولية الثالثة عام ١٩١٩ .

وقد اعتنق لينين دعوة ماركس وحولها من نظرية فلسفية إلى نظام للحكم وقد تبين فى أول مرحلة من التبطيق مدى الفارق البعيد بين مفهوم النظرية وبين إمكان التطبيق ؛ لذلك لجأ «لينين» إلى إعلان مرحلة وسطى هى ما أطلق عليه (ديكتاتورية العمال المؤقتة) ثم تطورت هذه الفترة المؤقتة التى استمرت حتى الآن أربعين عاما إلى ما أطلق عليه « حكومة الصفوة الممتازة » : هؤلاء الذين وصفوا بالإخلاص والخبرة للفكرة الشيوعية ، وهكذا تطورت الشيوعية من ديكتاتورية عمل إلى ديكتاتورية الصفوة الممتازة .

وجرت حركات التطهير المختلفة المتعاقبة لتخليص الحكم إلى حاكم واحد ، فقد مات لينين ٢١/١/١٩٢٤ ووقع الصراع بين تروتسكى وستالين حتى استولى الأخر على الحكم ونفى تروتسكى وظل حاكما لروسيا حتى توفى فى مارس ١٩٥٣ . والسؤال الذى طالما وجهه الفكر العربى إلى الشيوعية فى خلال هذه الفترة هو هل حققت الشيوعية :

× تحرير الطبقة العاملة والفقيرة .

× قيام مجتمع خال من الطبقات .

× إنشاء القيادة الجماعية .

× إلغاء التفاوت الطبقى وإزالة الفوارق بينها .

× توزيع الثروة على أفراد المجتمع بالعدل .

وقد عرض المفكرون لهذه الأهداف بالبحث ، وقالوا أن واحداً من هذه الأهداف الرئيسية للدعوة الشيوعية لم يتحقق . فقد أصبح العمال مسخرين لطبقة حاكمة جديدة . وأن الحكم ما زال دكتاتوريا استبداديا ، وأن القيصرية لم

يقض عليها، فقد قام قيصر شيوعى بدلا من القيصر الأول فضلا عن أن الاضطراب والتغيير المستمر مازال متصلا مما يدل على عدم استقرار النظام و مخالفته لسنن الطبيعة والنواميس الاجتماعية والنفسية للأمم . مع القضاء المطلق على الحرية الشخصية وحرية الكتابة والرأى والخطابة ، وكان أبرز ما اهتم الفكر العربى فى النظر إليه من أمر الشيوعية : أمران : الدين والحرية .

(الدين)

وقد تبين أن الشيوعية دين جديد يحتقر الأديان القديمة وأنها « مادية » تنكر الله والرسالات . وقد ناهضت الأديان بالإلحاد . وشنت عليها حربا متصلة وألغت التعليم الدينى وأنكرت الكتب المقدسة والهت لينين وستالين وأباحت اللادينية والوثنيه .

وقد أعلن قادة الماركسية الشيوعية : أن الشيوعية والدين ضدان لا يلتقيان ولا يأتلفان . فمن أراد أن يكون شيوعيا وجب أن يكون من غير دين وأعلنت الشيوعيه حربها على المسيحية لأنها تحض على الرحمة . وقالت أن الرحمة مناقضة لتعاليمنا .

وقد أكد ذلك (لونا شارسكى) وزير التعليم السوفيتى : إذا قال : نحن نكره المسيحية والمسيحيين ، وحتى أحسن المسيحيين خلقاً نعده شر اعدائنا فهم يبشرون بحب الجيران والعطف والرحمة ، وذلك يخالف مبادئنا و « الحب المسيحى » عقبة فى سبيل تقدم الثورة . فلنسقط حبنا لجيراننا فإن ما نريده هو الكراهية والعدواة ، وحينذاك نستطيع غزو العالم .

وأكدت الشيوعية أن التفسير المادى للتاريخ يناقض وجود الله فما دامت الأسباب الاقتصادية هى التى تملى على التاريخ حركته وتسيره حيث شاء فلا مجال هناك للاعتراف بالله خالق أو أى قوة وراء الغيب توجه البشر إلى مصائرهم .

وهم يرون أن الدين ليس إلا تفسيراً خاطئا للظواهر الاجتماعية وبقية من بقايا النظم الاستغلالية البائدة ولونا من الخداع صنعه بعض الناس ليستفيد به بعض الناس .

ويعللون انتشار الدين بالظروف المادية التى عاش فيها الانسان الأول · فيقولون أن الإنسان الفطرى فى العهد البدائى كان يقف عاجزا حائراً أمام الظواهر الطبيعية كالرعد والبرق والعواصف والفيضانات وغيرها ، وكان لجهله بأسبابها يردها إلى إرادة عليا تسعى إلى كسب عطفها · والتماس أسباب الزلفى لها بتقديم القرابين وقالوا أن الروحانيات مثاليات نظرية ، قد ألغت الثورة الشيوعية العلاقة بين الكنيسة والدولة فأصدرت فى ١٩١٨/١/٢٣ مرسوما أعلن فصل الكنيسة عن الدولة وفصل المدرسة عن الكنيسة وحظر التعليم الدينى فى جميع المدارس وعزل الشرائع السماوية وحجبها عن علاقات المجتمع فى الزواج أو الطلاق ؛ وترى الماركسية الشيوعية أن الدين أفيون الشعوب إذا لاحقيقة هناك إلا المادة · وقد كانت الحرب ضد الدين من أبرز أعمال الثقافة الشيوعية .

وقد نقدت الديانات والكنائس والمنظمات الدينية وقالت : أن الله قد مات وأن البحث عنه لا فائدة منه .

(الحرية)

وعارض الفكر العربى نظرة الشيوعية إلى الحرية إذ جند الفكر الشيوعى كله فى سبيل تأكيد النظرية الشيوعية دون أى سماح بنقد فى أى فرع أو فصيلة أو تصرف من تصرفاتها مهما كان ·

ويتجه نظام التربيـــة والتعليم إلى الثقافة فى ظل النظرية الشيوعية ولا تتداول إلا الكتب التى يسمح بها الحزب الشيوعى ، والصحف التى يصدرها الحزب ، والكتابة التى تنشر ما يؤيد النظرية ولا يوجد أدب حر وتوجه إبحاث التاريخ والعلوم الطبيعية والمسرح والسينما توجيها شيوعياً وتوقف

على أغراض الشيوعية . وقد صور التاريخ ونقح للتمشى مع أغراض الحزب . كما منعت أى ثقافات أجنبية معارضة للشيوعية ، أما فى نظام الأسرة فقد قام على الانحلال . والعلاقة بين الرجل والمرأة تسير مع المفهوم الاقتصادى المادى للمجتمع . وقد ألغى وضع الزوج كرأس للعائلة وانعدام الحب . وبقى نظام الطبقات والتفاوت .

بين الغربية المسيحية والشيوعية

وهكذا وقف الفكر العربى موقفاً واحداً بين النظرية الغربية المسيحية والنظرية الشرقية الشيوعية . فقد كانت النظرية الشيوعية امتداداً متطرفا للفكر الغربى نفسه الذى أعلن الايمان بالمادية وإقصاء الدين عن المجتمع وإنكار العقائد والروحيات . .

لم يكن هناك خلاف فى أن الدعوتين تغريب للأمة العربية . وأن خلافهما فى المفهوم الاقتصادى هو فى ناحيتيه يختلف مع مفهوم الفكر العربى ، فقد عرف الفكر العربى منذ قديم الاشتراكية الاسلامية والعدل الاجتماعى والزكاة والتكافل الاجتماعى على نحو ليس فى غلو الرأسمالية الغربية ولا عنف الشيوعية الشرقية .

وتساءل الفكر العربى : هل تتفق الشيوعية مع بلادنا وشخصيتنا كما تساءل من قبل بالنسبة للانظمة الغربية التى اضطر إلى نقلها تحت ضغط الاستعمار المسيطر على البلاد والذى فرض هذه الأنظمة فرضاً دون مراعاة فوارق الزمن والحاجة والتطور والثقافة والمفاهيم العامة .

وقد وقف الفكر العربى موقف المعارضة للرأسمالية الغربية والشيوعية الماركسية معا ، وأنكر هدف الرأسمالية الأساسى من السيطرة على العالم العربى . وإستغلالها واعتصار ثرواتها واتخاذها مصدراً للخامات وسوقاً للانتاج . كما وقف

موقف المعارضة للشيوعية الماركسية وأنكر هدفها الأساسي من تدمير أنظمته الاجتماعية والاقتصادية لاقامة حكومات تابعة للشيوعية الدولية .

وقد أيقظت الدعوة الشيوعية في الفكر العربي مقوماته الأصيلة وفق نظرية « التحدي ورد الفعل » فبدأ يراجع تراثه ويستخرج منه مافيه من قيم تتصل بالاشتراكية الاسلامية في التقريب بين الطبقات وتحقيق العدالة الاجتماعية والقضاء على الفقر ، وكان في إستطاعته أن يحقق نتائج باهرة لولا أن الاستعمار الغربي كان يحول دون تغيير نظام الاقطاع والملكية والاستبداد والاستغلال وسيطرة رءوس الأموال الغربية وتجميد مواقف المجتمع والاقتصاد والفكر في اتجاه غربي له مظهر ديمقراطي إسما مع التبعية الواضحة في المحاولة .

وقال الفكر العربي : إنه ليس أخطر على أمة من أن تنقل مذهب أمة أخرى دون النظر إلى طبيعتها وحاجتها وذوقها روحها .

ولم يمانع الفكر العربي من أن « يقتبس » من أنظمة الرأسمالية والشيوعية ما يزيده قوة على المحافظة على شخصية ومقوماته ويحقق له الاندفاع في طريق القوة والحياة .

- ٤ -

مواجهة الغزو ومعارك المقاومة

* السياسة
* الدين
* المجتمع
* المرأة
* التعليم
* اللغة العربية
* الصحافة

لم تكن الفترة بين الحربين العالميتين الأولى والثانية (١٩١٨ — ١٩٣٩) إلا معركة كبرى تفرعت منها معارك قوامها الغزو الثقافى من ناحية الاستعمار فى صورة التحدى والمقاومة ومن ناحية الفكر العربى فى صورة رد الفعل وقد امتدت هذه المعركة فى ميادين متعددة :

السياسه . الدين . المجتمع . التعليم . اللغة العربية . الصحافة .

ذلك أن الاستعمار فى سبيل تثبيت دعائم سلطانه كان يهدف إلى تغيير مفاهيم الفكر العربى فى كل هذه الميادين . وإحلال مفاهيم جديدة ، غير مرتبطة أدنى ارتباط بالماضى ولا بالشخصية العربية ، ولا جارية على سنة التطور الطبيعى .

وإنما كان يهدف فى الأساس إلى خلق جو من البلبلة والاضطراب والتمزق ، وخلق كتل فكرية متصارعة ومدارس متعددة ، وثنائية فى مختلف الميادين الفكرية ودعوات تجرى إلى الوراء فتتعلق بالماضى المدفون محاولة إيقاظه واتخاذه أساساً لحضارة أو حياة ، والعمل على تمزيق الجبهة الموحدة وإثارة الخلاف بين الأديان ، وإثارة الصراع بين مذاهب الأديان وبعث خلافات قبلية وطائفية وجنسية. وكان يركز على «الدين» كأساس للثقافة العربية بغية التشكيك فيه ، ويعمل على تشويه «التاريخ» باعتباره التراث الذى يربطنا بأمجادنا وبطولاتنا حتى ننظر له نظرة الاستهانة . ويرمى إلى القضاء على «اللغة» بتقوية اللهجات أو اللغة العامية المحلية وهو بذلك يرمى إلى القضاء على أساس الوحدة التى تربط الأمة العربية من ناحية الدين والتاريخ واللغة . وكان «التعليم» أداة من أدوات هذا الغزو الثقافى فقد فرض معاهد الإرساليات فى مختلف أنحاء الوطن العربى وبذلك خلق ثنائية التعليم وعن طريق هذه المعاهد والجامعات بث آرائه المسمومة فى اللغة والدين والتاريخ والحضارة .

وعن طريق «السياسة» خلق أسلوب المنفعة للقضاء على أسلوب الوطنية الخالصة، وأحل الحزبية محل الوحدة ، وأقام الصراع بين الأحزاب المختلفة باسم النظام النيابى الغربى الحديث وذلك ليصرف النظر عن الهدف الأول وهو تحرير الوطن ، وحتى لا تقوم جبهة موحدة فى الوطن لمقاومته إلا إذا شاء هو أن يخلق هذه الجبهة لتوقيع اتفاقية يحرص على أن يضم إليها كل العناصر ليكون كلا منها ملزما بتنفيذها إذا ما تولى الحكم .

وعن طريق «الصحافة» قامت حركة التغريب ، فقد ظهرت صحف متينة البناء راسية الأساس مستمرة لا تنغلق ولا تعطل ، وكانت هذه الصحف فى رعايته وتمويله ، يظهر بعضها هدفه صريحا ويخفيه الآخر ، والذى يخفيه أشد خطراً من الذى يُظهره ، قد أفسحت هذه الصحف صدرها لمختلف الآراء والنظريات والمذاهب من رجعية وتقدمية وشيوعية ورأسمالية ومنحرفة ودينية وملحدة وإباحية ومتحررة ، وبذلك خلقت جواً عاصفاً من البلبلة ، يثير العقل ويقضى على روح الوحدة ويدفع دفعاً إلى التفكك والتجزئة والانحلال ويخلق عشرات المعسكرات والمذاهب والدعوات . وبذلك لا يستطيع الوطن أن يندفع فى طريق موحد ، ويصعب حمايته من التيارات الغربية التى تعصف به ، أما الصحف الوطنية الصادقة فقد كانت تعيش فى مهاب الأعاصير تصدر ثم تنذر وتحاكم وتغلق ، ولا تجد من الموادما يدفعها إلى الاستمرار أو القوة أو التبريز فى الميدان كغيرها فتظل لا تصل إلا إلى قلة من القراء . ويظل للصحف الأخرى سيطرتها عن طريق مظهرها القوى ودوام صدورها واتساع انتشارها .

وعن طريق الصحافة أذيعت أراء التغريب فى الدين واللغة والتاريخ وحت الصحافة المستعمر وعملائه وأفسحت صدورها لهم ودافعت عنهم ، ولكن عن طريق الصحافة أيضاً برزت روح المقاومة والنضال والدعوة إلى الحرية والوحدة والقومية العربية وحماية مقدرات الأمة والدفاع عن كيانها وتاريخها وأمجادها .

- ١ -

السياسة

كان الاحتلال الغربى للعالم العربى بدء مرحلة جديدة بعيدة المدى فى الحياة السياسية والاجتماعية والفكرية ، كانت الأمة العربية واقعة تحت الاحتلال البريطانى الفرنسى -- وهو الأغلب — تحت سيطرة الإمبراطورية العثمانيه . ولم يكن ذلك احتلالا بقــــدر ما كان ارتباطاً قوامه الخلافة والسلطنة وقيام الإمبراطورية التى تضم العرب والأتراك والفرس وتخضع لنظام اللامركزية . حيث يقوم فى كل قطر حاكم أو سلطان يتبع السلطنة العثمانية تبعية إسمية قوامها الدعوة للخليفة على المنابر وسك العملة باسمه وجباية الضرائب له . ثم يستقل كل قطر بعد ذلك بشئون حكمه وأنظمته .

ولقد انفصلت مصر والجزائر فى وقت مبكر جداً عن الامبراطوريه العثمانيه بعد احتلال بريطانيا للأولى وفرنسا للثانيه فى وقت بدأ النفوذ الغربى ينفذ إلى العالم العربى كله ويسيطر عليه من خلال حكم الخليفة العثمانى عن طريق الامتيازات وحماية الأجانب وإنشاء مدارس ومحاكم خاصة بهم ونظم مختلفة للضرائب والتجارة .

ثم بدأت حركات الإصلاح الدستورى تأخذ صورة النظم الغربية فى مصر وتركيا وتونس ، وسبقت مصر إلى ذلك فى نهاية حكم إسماعيل، ثم كان الدستور العثمانى الذى أصدره «مدحت » فى أوائل حكم السلطان عبد الحميد ثم النكسة التى استمرت حتى عام ١٩٠٨ عندما صدر الدستور مرة أخرى وتوالت الدعوة فى العالم العربى إلى النظام النيابى الغربى .

حتى كانت الحرب العالمية الأولى ودخول تركيا الحرب فى صف ألمانيا واتفاق العرب مع بريطانيا على دخول الحرب فى صفها مع الوعد بإقامة حكومة عربية بعد الحرب ثم انسحاب بريطانيا من وعدها وتمزيقها العالم العربى بالاشتراك مع فرنسا واحتلاله ومن ثم بدأت سياسة تقسيم العالم العربى إلى أقطار وجرت محاولة تحويل الأقطار إلى أمم، ونشر دعوة مصر للمصريين والسودان للسودانيين وسوريا للسوريين. وهى دعوات مظهرها الوطنية ولبابها التجزئة .

وأقام الاستعمار فى العالم العربى دعوات لهذه الوطنية الضيقة آزرها وأعانها، وضرب بها القوى الوطنية الثائرة التى دعت إلى الجلاء الشامل والاستقلال الكامل ، ثم أسلم إليها زمام الحكم . ودعاها إلى توقيع معاهدات يعترف فيها بالاستقلال مع بقاء جيش الحماية وربطها معه فى تحالف حربى، وسيطرة معتمدة على شئون الحكم واستملاء سلطانه الفعلى على السلطان الشرعى وفرضه الأوامر على رؤساء الحكومات فى صورة نصائح ، ثم قيام دستور قوامه أنه هبة من الملك أو السلطان ، فيتجه فى مظهره إلى أن تكون الأمة مصدر السلطات ثم يعطى للملك سلطات واسعة يحق له بها عزل أى وزارة وإيقاف البرلمان وحله ثم يقوم وفق هذا الدستور حكم نيابى على أساس الصراع الحزبى بين أحزاب تتصارع من أجل الوصول إلى الحكم،وإرضاء المستعمر والحصول على الغنائم المربحة ، أما دعاة الوطنية والجلاء فتظل أحزابهم مبعدة عن الحكم أو يقضى عليهم بالمحاكمات والسجن والنفى لإنهاك قواهم والجرى وفق النظام الحزبى وتمزيق الإقطاع وتمكين الحكام والوزراء من التوسع فى السيطرة واستغلال الطبقات الفقيرة فى الزراعة والصناعة ، ويحكم الاستعمار فى ظل النظام الدستورى العربى من وراء الوزراء الذين يرشحهم للملك ويفرض أعوانه فرضاً فى المناصب التى يختارها ومن طريقهم يحقق أغراضه وعلى سياسته من طريق وزارة المعارف فى مناهج التعليم وعن

طريق وزارة الحربية فى القضاء على القوة العسكرية وإغلالها والسيطرة عليها وعن طريق وزارة المالية فى السيطرة على اقتصاديات البلاد .

وقد حمل الفكر العربى لواء الدعوة إلى الوطنية الخالصة فى مقاومة الاستعمار — كما حمل من قبل الدعوة إلى مقاومة الاستبداد العثمانى — وأقام فى الأدب العربى فناً رفيعاً من فنون القول ، قوامه العاطفة وإيقاظ القلوب الغافية ورفع معنويات الأمة ودفع اليأس عنها وتجنيدها للاستشهاد والدفاع عن الوطن ومقاومة الغاصب والإدالة منه ، ومن أمثال هؤلاء مصطفى كامل فى مصر وعبد العزيز الثعالبى فى تونس وأحمد طبارة فى سوريا بأقلام نارية مؤمنة دفعت الأمة العربية إلى الذود عن بلادها وتقديم الشهداء والارتباط بالوطن الأم والقضاء على مؤامرات المستعمر .

وقد وجد الاستعمار فى أقطار العالم العربى حلفاء أعانوه فى القضاء على الروح الوطنية : أمثال سلطان باشا فى مصر والملك عبدالله فى الأردن والجلاوى فى مراكش ونورى السعيد فى العراق .

كما حمل السلاح زعماء آخرون جاهدوا بالدم أمثال عمر المختار فى ليبيا ومحمد عبيد فى مصر ويوسف العظمه فى سوريا وماء العينين وعبدالقادر الجزائرى وعبدالكريم الخطابى فى شمال أفريقيا .

— ٢ —

قامت الثورات المختلفة فى الوطن العربى نتيجة للتعبئة الفكرية والروحية التى قام بها قادة أبرار ، وكانت هذه الثوارت على الاستعمار تحمل لواء الدعوة إلى الحرية وإجلاء الاجنبى واسترداد حق الأوطان فى الحكم والحياة .

ولقد قاوم الاستعمار هذه الثورات بالحديد والنار وقتل وشنق وسجن وأبعد مئات من الأحرار الذين قادوا هذه الثورات .

وامتدت هذه الثورات وترابطت فى الأقطار المختلفة فثورة مصر ١٩١٩ بعد الحرب العالمية الأولى كانت مقدمة لثورة ١٩٢٠ فى العراق و ١٩٢٤ فى السودان و ١٩٢٥ فى سوريا . .

وكانت هذه الثورات فى مفهومها مقدمة لتحرير هذه الأجزاء من الأوطان من الحماية ومن الاحتلال . وقد عمد الاستعمار إلى إطفاء نار هذه الثورات بوضع الماء على لهيبها المتقد ، وتحويل هدفها والقضاء على روحها . فقد كان للمستعمر أعوان وعملاء أعدهم للدور الذى أطلق عليه الحكم الذاتى ، ولم يرفع الاستعمار يده عن الحماية إلا بعد أن درب عدداً من أعوانه ليتسلموا زمام الحكم من بعده ، وفى مصر مثلا كان حزب الأمة هو القوة التى خلقها الاستعمار البريطانى منذ بدأ الاحتلال ١٨٨٢ إلى ١٩٢٢ حين أصدر تصريح ٢٨ فبراير الذى أعلن فيه استقلال مصر وكان فى خلال هذه الفترة قد قضى على القوة الوطنية الفعالة التى كان يقودها مصطفى كامل ومحمد فريد القوة حتى لم يعد لها من الشأن بعدالحرب ، ما يمكنها من تولى شئون الحكم فضلا عن أنها كانت لا تؤمن بالمفاوضة إلا بعد الجلاء الكامل وترفض تولى الحكم فى ظل الاستعمار ، أما هذه القوة التى أعدها خلال فترة ماقبل الحرب فقد كانت تؤمن بالالتقاء بالاستعمار فى منتصف

الطريق وقبول ما يرضى الاستعمار بالتنازل عنه تدريجياً ، ولا يرى بأسا من تولى الحكم فى ظل الاحتلال ، لذلك كان اللقاء الأول بين ممثلى مصر وبين ممثلى بريطانيا بعد الهدنة يضم ثلاثة من حزب الأمة هم على شعراوى وعبد العزيز فهمى وسعد زغلول .

وقد كانت ثورة ١٩١٩ فى مصر هى عملية تفريغ للشحنة الوطنية والروحية والفكرية التى قام بها الحزب الوطنى والتى كانت تحمل معنى واضحاً هو إجلاء المستعمر عن أرض الوطن .

وقد هزت هذه الثورة العالم الغربى عامة وبريطانيا وكشفت عن روح المقاومة الباسلة ، لذلك فإن بريطانيا استطاعت أن تقضى على هذه الروح بإعطاء مصر « الاستقلال » فى ظل الاحتلال والسماح بأعلان الدستور وإقامة الحكم النيابى تحت سلطة المعتمد البريطانى وبواسطة أعوانه من رجال الاحزاب ولم تحقق ثورة ١٩١٩ ما كانت قد اندلعت من أجله ، بل ماتت أهدافها وذوت وحل بدلها تيار عاصف من الغزو الثقافى والسياسى والاجتماعى الذى كان بعيد المدى فى القضاء على الروح الوطنية الأصيلة وتحويلها إلى عراك سياسى وصراع حزبى حول الغنائم والاسلاب وكراسى الوزارة والبرلمان وإلى خلاف متضرم شامل حجب الهدف الأصيل وهو تحقيق الجلاء وبناء الوطن .

ولعل هذه الصورة لثورة ١٩١٩ هى نفس الصورة لثورات الأقطار العربية المختلفة فى الفترة التى تخلى فيها الاستعمار عن الحكم بنفسه وأوكل الحكم لأعوانه وعملائه .

وقد تأثر الفكر العربى بهذا التطور فأصبح المثقفون خداماً لدى أصحاب المصالح الحقيقية والاقطاعيين وأصبحت أقلامهم مؤجرة لأهدافهم ، وظهر تجمع

أكبر عدد من المثقفين فى حزب واحد صنعه الإنجليز بعد الاستقلال ليقاوموا به حزباً آخر يضم الأغلبية الساحقة ، وكان جل أتباعه هم أعضاء حزب الأمة القديم الذى صنعه الاستعمار فى ظل الحماية ليقاوموا به الوطنيين الذين قادهم مصطفى كامل ولم يكونوا فى واقع الأمر حزباً بل كان الوطن كله . .

ولقد حرص الاستعمار بعد القضاء على الثورات الوطنية التى قامت فى إنحاء الوطن العربى كله من المحيط إلى الخليج أن يقهرها بقوة الحديد والنار ، وأن يحول مجرى ثورتها دون أهدافها الطبيعية فيفرض على هذه الأوطان حكاماً من أنصاره وأعوانه ، مع إبعاد المجاهدين من أوطانهم ، أبعد خير باشا التونسى ومحمد فريد وعبد العزيز شاويش وعبد العزيز الثعالبى وسليمان البارونى (ليبيا) وشكرى القوتلى وشكيب أرسلان وعلى الغاياتى .

لقد أراد هؤلاء أن يجعلوا قضية تحرير أوطانهم عالية ، وكان مصطفى كامل هو أول من خرج بقضية مصر من النطاق المحلى ، كذلك خرج شكيب أرسلان بقضية الأمة العربية وطاف عبد العزيز الثعالبى بالعالمين العربى والاسلامى مبعدا عن وطنه أربعة عشر عاماً وطاف محمد فريد بأوروبا وتركيا ثمان سنوات ومات مغتربا فى برلين .

ولكن الاستعمار حرص دائما أن يجعل من قضية كل وطن عربى قضية محلية ، فى نفس الوقت الذى تضافرت فيه قوى الاستعمار على مقاومة الأحرار . وقد ظن مصطفى كامل نتيجة للخلاف القائم بين بريطانيا وفرنسا أن فى استطاعته استغلال فرنسا للدفاع عن قضية مصر ، غير أن الدولتين لم يلبثا ان عقدتا الاتفاق الودى ١٩٠٤ وأطلقت كل منهما يد الآخر فى البلد الذى تحتله : فرنسا فى تونس وإنجلترا فى مصر .

بل أن تصريح ولسون الذى أعلن حق كل شعب فى تقرير مصيره كان

له هزة كبرى فى مصر والعالم العربى فلما أبرق زعماء مصر إليه يطلبون تأييده أعلن ولسون أنه يوافق على بقاء بريطانيا فى مصر ، وحال الاستعمار دون توحيد جبهة العمل لتحرير الوطن العربى وكان فيصل عن سوريا وسعد زغلول عن مصر وعبد العزيز الثعالبى عن تونس فى وقت واحد فى مؤتمر الصلح ، ولكن الاستعمار حال دون التقائهم ، ورفض سعد زغلول توحيد جهاده مع العرب الذين يمثلهم فيصل ، وقال أن ذلك سيحول بين بريطانيا وبين الاتفاق معه .

ولذلك فقد لقى كل منهم الهوان وحيل بينه وبين دخول مؤتمر الصلح ، فلما عاد إلى الدولة المحتلة ليتفاهم معها عرضت عليه عرضا مهينا ، وكانت الشعوب أقوى من الزعماء ، فإن ملنر الذى جاء مصر ورفض أبناء الشعب الالتقاء به – اضطر سعد زغلول أن يجلس معه على مائدة المفاوضة وقدم سعد مشروعا أعترف فيه بموافقة مصر على بقاء جيش الاحتلال خلف قناة السويس [وهذا نص المادة ٨ من مشروع سعد باشا إلى ملنر فى ١٧ يوليه ١٩٢٠ « لبريطانيا العظمى إذا رأت لزوما أن تنشىء على مصاريفها بالشاطىء الاسيوى لقنال السويس نقطة عسكرية للمساعدة على ما عساه يحصل من الهجمات الاجنبية على القنال وتحديد هذه المنطقة يحصل بعد بمعرفة لجنة مكونة من خبراء عسكريين من الطرفين بعدد متساو]» .

وهذا العرض يبين المدى البعيد بين مطالب محمد فريد الذى كان فى هذه الفترة منفيا مريضا فى إحدى أزقة برلين ، وبين عروض سعد باشا الذى كان يمثل وطنية ما بعد ثورة ١٩١٩ وهو أكبر ورائها ، وقد رفض ملنر مشروع سعد باشا بالرغم من هذا ، وأعلن فى مواجهة وفد مصر : أن بريطانيا واضعة يدها على كل شىء فى مصر وأنه لاينقصها إلا أن يكون ذلك شرعياً بموافقة وفد مصر وعرض ملنر :

— منح بريطانيا (العظمى) حق إبقاء قوة عسكرية فى الأرض المصرية لحماية مواصلاتها الامبراطورية .

— تعين مصر بالاتفاق مع الحكومة البريطانية مستشاراً ماليا يعهد إليه فى الوقت اللازم بالإختصاصات المالية التى لأعضاء صندوق الدين .

— تعين مصر بالإتفاق مع بريطانيا موظفا فى وزارة الحقانية يتمتع بحق الاتصال بالوزير ، ويجب إحاطته بجميع المسائل المتعلقة بإدارة القضاء فيما له مساس بالأجانب .

— يمنح الممثل البريطانى مركزا استثنائيا فى مصر ويخول حق التقدم على جميع الممثلين الآخرين .

— ألا تعقد مصر مع أى دولة أى اتفاق إلا بعد موافقة بريطانيا ولا تعين موظفين إلا بأذنها .

وكان هذا هو ثمرة ١٩١٩ ومنهج ورائها . ومدى تطور المفاهيم الوطنية عن طريق القوى الجديدة التى سيطرت على الحكم فى مصر بعد القضاء على الدعوة الوطنية المتحررة التى كانت تطالب بالجلاء الكامل . وقد عاش دعاة الحزب الوطنى فى ظل المدرسة (الواقعية الجديدة) المؤمنة بالتعاون مع الانجليز موضع السخرية والتهكم من الاحزاب الحاكمة ، لأنه دعا إلى « المفاوضة بعد الجلاء » ووجهت عبارات الهجاء العنيف إلى مصطفى كامل ومحمد فريد على اعتبار أنهما كانا خياليين مغرقين فى الأوهام .

وهكذا تحولت مفاهيم السياسة إلى احتقار الدعوة الوطنية الخالصة ، وتغليب روح التفاهم مع الاستعمار وخلق جو من « الصداقة » بين الاستعمار والحكام .

ولكن الشعب ظل على عدائه لهاجيما ، فقد كان معروفا أن القوى الثلاث : الملوك والحكام والانجليز يسيرون فى خط واحد رسمه الاستعمار نفسه . فالاستعمار هو الذى يحمى العرش ويفرض الوزراء ويغيرهم .

وقد تكشف « نقل » الانظمة الغربية الديمقراطيه فى الحكم عن نتائج فاشلة ،حيث كان البون شاسما بين مدى صلاحية هذه النظم للوطن العربى وقيامها على أساس غير سليم هو بقاء جيش الاحتلال وسلطان المعتمد البريطانى وسلطة الملك .

ولم تكن هناك غير قوة واحدة هى قوة « الشعب » التى تبددت وراء انقسامات الاحزاب وصراعها وتحولت عن مفاهيمها الأولى الصادقة الايمان بالحرية والوطنية إلى المنفعة، وتحصيل مكاسب الحكم مما أدى إلى الانهيار فى مفاهيم القيم وغلبه — روح الأنانية والانعزالية ، وظهور طبقة جديدة من الحكام المترفين الذين انفصلوا عن الشعب واستغلوه وحكموا باسمه ولحساب مطامعهم ، ولقد كانت قوة الشعب تستعيد مراكزها فى المقاومة على فترات متباعدة فتتجه إلى عمل من أعمال المقاومة فإذا حصدها رصاص الانجليز وساقها إلى السجون توقفت عنه حتى يتجمع مرة أخرى لمعركة جديدة . وظلت هكذا بين القوة والضعف والأقدام ولكنها لم تمت .

— ٣ —

سيطر الاستعمار على أقطار الوطن العربى بواسطة أربع قوى : الملوك . المعتمدون . المعتمدون غير الرسميون . العملاء . والأحزاب . الأقـــلام والصحف .

(١) الملوك : أما الملوك فقد كانوا دائما أدوات استعمارية صالحة . ففى مصر مثلا أدعى الانجليز أنهم احتلوا مصر لحماية عرش الخديو . وقد كان الملوك والسلاطين والخديويين فى العالم العربى فى خدمة الاستعمار . وأسقط الاستعمار كل الملوك الذين عملوا لمقاومته ، كما حول الآخرين إلى صفة كما فعل بالخديو عباس الذى احتضن الحركة الوطنية فلما أرسلت له بريطانيا المعتمد البريطانى « ونجت » بسياسة الوفاق أعطى ظهره للحركة الوطنية وقاومها .

ولقد قاوم الاستعمار أى انحراف فى الملوك سوء أكان لرفض تعيين رئيس وزراء معين كما وقع فى حادث ٤ فبراير ومحاصرة قصر عابدين بالدبابات أو على النطاق الوطنى الحر كما فعلت فرنسا مع الملك محمد الخامس الذى ظاهر حركة التحرير فى بلاده فأجبره الاستعمار على النفى ثم أضطر إلى إعادته تحت ضغط قوة المقاومة الوطنية .

وللملوك والسلاطين قصة؛ فقد تعاقدت بريطانيا مع عشرات منهم فى الجنوب العربى على نحو ذليل يعطى لبريطانيا الحق فى فرض سلطانها على كل شىء فى مقابل مرتبات قليلة وارتباط بالاستعمار البريطانى مدى الحياة .

وكان موقف بريطانيا من الشريف حسين غاية فى التآمر والخداع ، فقد تفاهمت معه بواسطة مندوبها مكماهون فى مصر على الانفصال عن الأتراك

والانضمام لها فى مقابل إقامة دولة عربية بعد إنتهاء الحرب . ثم تبين بعد إعلان الثورة خداعها له فاذا ما انتهت الحرب تنكرت لوعودها ، فاذا ما اختلف معها الشريف حسين ورفض قبول « وعد بلفور » اغروا به الملك عبد العزيز آل سعود الذى اجتاح الحجاز وأسقط مملكة الهاشميين.

وقصة الملك فيصل ملك سوريا ثم ملك العراق معروفة . فقد أذعن الملك لانذار القائد الفرنسى «غورو» وحل الجيش السورى فلما تحركت القوات الفرنسية لاحتلال دمشق هرب وترك الوطن يقاسى عقوبة الاستعمار القاسية بدون مقاومه .

ثم رشحه الاستعمار لعرش العراق وهيىء له السبيل وأبعد أهل البلاد الأصليين — وكان فى ذلك أنما ينقل الملوك من قطر إلى قطر كقطع الشطرنج ، فلما وصل إلى العراق كان المعتمد البريطانى برسى كوك هو الحاكم الحقيقى وقد سئل جلالة فى أن ينشىء جامعة فى بغداد فكان اعتذاره صورة لفهم الملوك لمكانهم من الاستعمار حيث قال : إننى موظف فى الحكومة البريطانية برتبه ملك. وقد رأى كيف أذل الاستعمار والده الملك حسين حين رفض الموافقة على وعد بلفور وأغرى به الملك سعود ليحتل ملكه فقبل التفاهم مع « وإيزمان » ممثل الصهيونية وأعلن فى تصريحات له بأن فلسطين تقبل اليهود إخوانا للعرب بها !

وقد تنبه الاستعمار للجيل القادم من الملوك ففرض تعليم أولياء العهد فى بلاده . وقد اضطر الملك فؤاد أن يسلم ابنه لتربية بريطانية ، وكذلك فعل مع فيصل بن الملك غازى والملك حسين بن طلال . وكذلك فعل الاستعمار الفرنسى . .

٢ — المتمدون : اختارت بريطانيا وفرنسا لسيطرتها على أقطار العالم العربى معتمدون مدربون غاية فى المكر والدهاء ، كان أبرزهم كرومر فى مصر وليوتى فى المغرب وغورو فى سورية وولـكوكس فى العراق وجلوب وصمويل فى الأردن وهور فى فلسطين وفردون فى السودان وجزريانى فى إيطاليا .

ولقد قام هؤلاء وعشرات غيرهم بدورهم فى دعم الاستعمار وتأكيد الغزو الثقافى وارتبط تاريخهم بأسوا أعمال الاستعمار ، فـكروص صاحب دنشواى وجزريانى قاتل عمر المختاروليوتى صاحب دعوة فرنسة العرب فى المغرب وتجنيسهم وقام كرومر فى مصر بدور ضخم فى بناء أسس الاحتلال وكان نهجة التدخل الانجليزى فى كل فرع من فروع الإدارة المصرية ورسم خطة انسحاب الجيش المصرى من السودان ثم استعادته بقيادة كتشنر وقضى على المعارضة الفرنسية للاحتلال بتوقيع اتفاق ١٩٠٤ وبنى قواعد اتفاقية ١٨٩٠ مع مصر وبها سيطر الانجليز على السودان كله وفرض على كل وزارة مستشاراً انجليزيا يملى على الوزير ،وفى وزارة الداخلية مفتشون يسيطرون على المديرين وهو صاحب سياسة التفرقة والوقيعة بين المسلمين والأقباط وتقسيم الأمة إلى أحزاب وشيع .

والتفرقه بين مصر والسودان . وهو صاجب الدعوة إلى نظام رأسه انجليزية ويديه مصرية . وهوصانع زعماء حزب الأمة ، ومن الحـكام أمثال مصطفى فهمى الذى وصفه بالشجاعة الأدبية والاعتدال . وصهره سعد زغلول وهو القائل بأن الاستعمار البريطانى يبقى فى مصر إلى الأبد .

وقد سيطر كروص على القضاء فبعد إن كان القانون يحمى الفرد من بطش اية سلطة إذا نشر أراءه السياسة أصدر قانونا أصبح به القضاة الابتدائيون تحت نفوذ السلطه الإدارية . ثم نزع الاختصاص من قضايا الجنح فى محـكمة

الاستئناف وحولها إلى القضاء الابتدائيون بعدأن نزع استقلالهم . ونزعت سلطه القبض والتحقيق والاتهام من القضاء وتقررت للنيابه ١٨٩٥ وبذلك أصبح المواطن خاضعا للقبض عليه والتحقيق ضده واتهامه والحكم عليه بواسطة قضاة كلهم خاضعون للسلطه الاداريه تحت إشراف الانجليز .

وقد صور كرومر أثره فى مصر (١٨٩٢) فقال : من يقارن الحالة الحاضرة بالحالة التى كانت عليها مصر منذ عشر سنوات يجد فرقا شاسعا ، فالشوارع التى كانت مكتظة بدكاكين أرباب الحرف والصناعات قد اختفت تماما وحلت محلها دكاكين مملوءة بالبضائع الأوربية وآلان أقول أن كل شيء فى مصر يدخل فى امتياز ممنوح لإحدى الشركات الأوربية ومصر الآن تزرع القطن وبريطانيا تصنعه .

وكان أبرز أعمال كرومر وظائف المستشارين الانجليز وهو النظام الذى وضعه على أساس قاعدة رءوس انجليزيه وأيد مصريه . فقد وضع فى كل وزارة مستشار ، وهو اسم مبهم يفهم منه أن هذا الموظف الأجنبى سيكون رأيه استشاريا بينما كان فى الواقع هو كل شيء ولم يكن يستطيع أى وزير أن يقضى فى أمر إذا لم يكن قد خطى بتوقيع المستشار وقبوله . وبذلك سيطر كرومر بواسطه جهازه هذا على جميع تصرفات الحكم . وقد بسط هؤلاء المستشارين النفوذ الانجليزى بجميع الوسائل وأهمها الأكثار من الموظفين الانجليز وبا حلال انجليزى محل كل موظف أجنبى فرنسيا أو ألمانيا .

وقد طاردوا كثيرا من رجال التعلم الفرنسية بقصد صنع جميع فروع التعلم بالصبغة الانجليزية . وجعل القوانين المصريه ولا سيما القانون الجنائى انجليزيا

وجعل المرافقات باللغة الانجليزية بقصد القضاء على اللغة العربيه والظهر القومى ...

وقد كان الوزراء يخضعون خضوعا تاما لتعليمات المستشارين ، وكانت كل قرارات العقوبات والغرامات تنفذ بواسطة الموظفين المصريين ثم يكون رفع هذه المظالم بواسطة كرومر ورجاله، وذلك حتى يقع فى أذهان الناس أن الاستعمار عادلا وأن أبناء الوطن هم الظالمين وقد تمسك لورد ملنر فى مفاوضاته الأولى مع سعد زغلول ببقاء المستشار القضائى ولو باسم آخر على أن يكون له حق الدخول على وزير الحقانية ويؤخذ رأيه فى كل ما يتعلق بالتشريعات التى تطبق على الأجانب وكذلك المستشار المالى .

وكان « دنلوب » مستشار كرومر فى وزارة المعارف من أقسى هؤلاء المستشارين وأشدهم على هدم اللغة العربية ومحاربة الأزهر ومقاومة التاريخ الوطنى .

٣ — المعتمدون غير الرسميون

وكان للاستعمار فى العالم العربى معتمدون غير رسميين ، وكان هؤلاء أشد خطرا من معتمدية الرسميين نظراً لأنهم كانوا يتغلغلون فى الوطنين ويحاولون خداعهم بأنهم أصدقاء للعرب يؤمنون بحقهم فى الحرية من هؤلاء : فيلبي ولورنس وبلنت وقد عمل فيلبي مع الهاشمين أولا ثم عمل مع السعودين . أما بلنت فهو صاحب الوساطة فى تخفيف الحكم على عرابى من الاعدام إلى النفى واستخدام المحامين الانجليز للدفاع عنه وصديق الشيخ محمد عبده .

أما لورنس فإن قصته غاية فى الاثارة . فهو البريطانى الذى وصف بأنه ملك العرب غير المتوج والذى كان له دوره الخطير فى الثورة العربية التى أعلنها العرب بقيادة الشريف حسين ١٩١٦ وقد أرسله الانجليز ليعاون فيصل فى الحرب مع

الاتراك وقد شهد معه المارك التى بدأت من العقبة حتى دخول الجيش البريطانى القدس ودمشق . وكان له ودوره فى خداع العرب عن حقائق الموقف وعن المؤامرة التى كانت تدبر لهم بتقسيم وطنهم وإهمال المقررات التى تم الاتفاق عليها بين مكماهون والشريف حسين وبذلك ضاعت أمالهم فى قيام دولة عربية .

وقد خدع العرب بزيه العربى وعقاله ، وتحدثه باللهجة العربية المنتشرة فى قلب جزيرة العرب . وفضح بكتابة أعمدة الحكم السبع حقيقة مشاعرة نحو العرب ورماهم بكل نقيصة وقال : لو كنت ناصحا أمينا للعرب لقلت لهم .

واشترك لورنس فى تقسيم العالم مع « تشرشل » وقيام الصهيونية فى فلسطين ودخول فرنسا دمشق واخراج فيصل ثم أختياره لعرش العراق والتمهيد له بإنشاء أماره شرق الأردن للامير عبد الله .

وكانت مهمة جلوب فى الاردن الاتصال بالبدو والأعراب وأجتياز الصحراء شرقا وغربا ،ولذلك فقد أجاد اللغة العربية الفصحى ولهجات القبائل المختلفة وعادات العرب واستطاع اكتساب ثقة الأعراب الذين يجوبون الصحراء وقد نجح فى حجزهم عن الاتصال بالثورة فى فلسطين .

٤ — العملاء

وكان العملاء فى المنطقة من أعوان الاستعمار وأدواته . وعن طريقهم حكم وتسلط وضرب الوطنيين . ويعد سلطان باشا فى مصر نموذجا لهؤلاء العملاء فهو الذى مهد للجيش البريطانى الزحف على التل الكبير وصاحب الأعراب الذى كشفوا الطريق لمسكر عرابى فى التل الكبير . وكاتب بعض مشايخ العرب والعمد ، ومن لهم شأن يمنيهم بالخلع والرتب والأوسمة . ومنحته الحكومة عشرة آلاف جنيه وكافأته الحكومة الانجليزية بنيشان القديسيين : جورج وميشيل

ووضعه على صدره السرمالت قنصل الانجليز بالنيابة عن جلالة الملكة فيكتوريا .

وقد وصفه الشيخ محمد عبده فى مذكراته : بأنه الهمام الوطنى الذى أوقد نار الفتنة فى البلاد وجمع لها وقودها وحطبها حتى إمتد لهيبها وعم جميع الأنحاء ثم هرب من طريقها عندما خاف أن يلدغه لسان لهيبها ،وجاء فى آخر الأمر نائبا عن الحضرة الخديوية فى حبس كثير من الناس ولم يفرق بين الأبرياء وغيرهم ونال المكافأة من الجناب العالى بالاحسان جزاء إيقاد الفتنة ثم الهرب منها ».

ومن عملاء بريطانيا من الوزراء : حسين رشدى الذى دفع مصر فى الحرب العالمية الأولى إلى جانب الانجليز وجند مليونى عامل مصرى فى ساحات القنابل واقتطع غلات المصريين وأقواتهم ليمون بها جيوش صاحب الجلالة البريطانية وحلفائه وتقييد أسعار القطن . وقدمت ملايين الجنيهات إلى بريطانيا ، وإعادة الموظفين الانجليزيين بأضخم المرتبات والاستفتاء عن بعض الموظفين الانجليز مقابل غرامة باسم التعويضات التى كلفت مصر ملايين الجنيهات وفتح أعمال المنشئات الجديدة لخدمة بعض المصالح الانجليزية وتقديم الاحتكارات والرخص والامتيازات والاعانات للشركات الانجليزية فى مصر وتسخير التعريفة الجمركية لخدمة التجارة الانجليزية فى مصر وتسخير التعريفة الجمركية لخدمة التجارة الانجليزية على حساب المصريين والتسليم للانجليز باقتطاع الأراضى المصرية لها تارة ولحليفتها إيطاليا تارة أخرى .

٥ — الأحزاب

كانت الأحزاب السياسية فى العالم العربى أداة من أدوات الاستعمار فان الدعوات الوطنية إلى مقاومة الاستعمار فان الدعوات الوطنية إلى مقاومة الاستعمار التى بزغت فى العالم العربى بصفة عامة وفى الأقطار المختلفة لم تكن فى حقيقتها أحزابا ولكنها كانت قوى وطنية كاملة ، غير أن الاستعمار حرص على أن يسبق

فيجمع أعوانه من كبار الاقطاعيين وأصحاب الأرض والمال فى أحزاب قوية تصدر الصحف وتجهر بدعوتها فى وضوح . ولم تكن هذه الدعوة مكشوفة لتأييد الاستعمار ، ولكنها كانت لبقة تدعو إلى تغليب العقل على العاطفة ، ومحاولة الاستفادة من كسب كل مايعطيه المحتل ، ولذلك فان محاسنته عندهم هى الطريق الصحيح وليس الطريق الآخر القائم على العاطفة من ناحية والتطرف فى المطالبة بالجلاء الكامل .

وفى مصر عندما التف المصريون حول «مصطفى كامل» أسرع كرومر بانشاء حزب الأمة وأصدر صحيفة الجريدة التى دعت إلى التعقيل والمحاسنة .

وقد تكررت هذه التجربة فى كل قطر : فى سوريا وتونس والعراق .

وكانت الأحزاب أداة تحويل المعركة الوطنية إلى معركة سياسية ، ومنازعات داخلية ، فتوزعت بذلك قوى الأمة وتبددت وحدة الشعب ، واستدعى ذلك أن يستعين البعض بقوة المستعمر على البعض الآخر واستطاع المحتل أن يوسع الشقة وأن يعين هذا على ذاك،وتعرضت قضية الوطن لابلغ الخطر واستتبع ذلك الانحدار الاجتماعى من الأهداف الوطنية العليا إلى المصالح الفردية :

وقد قامت هذه الأحزاب على الأشخاص على لا المناهج فلم يكن لها برامج محددة .

وفى مصر كان مصطفى كامل يطالب بالجلاء ، بينما حزب الأمة لم يورد فى منهاجه الذى أعلن شيئا عن الجلاء أو الاستقلال أو الحرية، وإنما أورد هذا المبدأ «أن نوجه همنا ونصرف قوانا للحصول على حقنا الطبيعى وهو الاشتراك مع الحكومة فى وضع القوانين والمشروعات العامة وذلك بالسعى فى توسيع أختصاص مجالس المديريات ومجلس شورى القوانين » وهذا مدى ما كان يطلب حزب الأمة .

وفى فلسطين كان لصراع الاحزاب أثره البعيد فى سيطرة اليهود وتمكنهم من الانقضاض عليها . وقد أستغل الإنجليز اليهود الخلاف بين أمين الحسينى ونخرى النشاشيبي وسعت بريطانيا لتعميق هذا الخلاف وتوسيع شقته .

٦ — الصحافة

وقد أستغل الاستعمار الصحافة ، وكانت له فى معظم البلاد العربية صحف تعمل له فى صراحة وصحف تعمل له فى الخفاء ، وفى بعض الأقطار كانت هناك صحف لبريطانيا وصحف لفرنسا ، وكانت بين هذه الصحف صراع ، وكانت الصحف الموالية لفرنسا فى الأقطار التى أحتلتها بريطانيا تعرض اتجاهات بريطانيا وتصرفاتها وتحمل بذلك لواء الدعوة الوطنية ظاهرا بينما هى تدافع عن مصالح فرنسا .

وفى مصر كانت صحيفة « المقطم » تتحدث صراحة عن دورها فى تأييد الاحتلال البريطانى ولها فى ذلك فلسفة عجيبة . وقد كشف المقتطف — وهو شقيق المقطم عن هذا الدور تحت عنوان تشيع المقتطف للانجليز (عدد يوليو ١٩٠٥) « يرمون المقتطف بالتشيع للانجليز . ويقولون أنه لا ينوه ألا بالإنجليز ولا يعترف بالفضل ألا للانجليز ولا يستحسن ألا ما هو إنجليزى وبهما حلة هذا الغلو فى حب الانجليز على أستحسان ما يستقبح من غيرهم ويشهدون على الأول باغضائه عن ترجمة حول سيمون الفيلسوف الفرنسى والسيد جمال الدين الأفغانى .

وقال الدكتور صروف : أن أكثر مطالعاتنا فى اللغة الانجليزية فنرى التر جمات المطلوبة فيها وهى فى الغالب عن رجالها ، أما جمال الدين فعذرنا فى إغفال ترجمته هو أننا لا نعرف الرجل ولم نقرأ له إلا كتيبا لا يستحق لأجله مدحا .

وتحدث المقتطف عن الاستعمار البريطانى (يونيه ١٩٠٤) واعتذر لهـم عن أنهم احتلوا أقطار الشرق بأن « بلاد الانجليز جزائر . ليس فيها من الحاصلات

الزراعيه ما يكفى أهلها فلما كثروا إضطروا أن ركبوا البحار ويتجروا بمصنوعاتهم فأوصلتهم التجارة إلى أمريكا والهند وأفريقية واتفق أن بعض البلاد التى دخلوها كانت أحكامها مختلة معتلة أو كانت خالية من الأحكام فكانوا يضطرون أن يلجأوا إلى القوة دفاعا عن أنفسهم . والقوة تدعو إلى الغلب والتملك» .

وبرر الدكتور صروف الاحتلال البريطانى فى مقتطف (يناير ١٩٠٧) فقال: أن «الذى جرى عليه أهل السياسة حتى الآن أنهم دخلوا بلاداً امتلكوها كما فعل الأتراك لما دخلوا القطر المصرى والقطر السورى وكما فعل محمد على عند ما دخل السودان فانه امتلكها بحق الفتح . أما الذى فعله الانجليز فى القطر المصرى والقطر السودانى فبين بين ، لأنهم دخلوا القطرين واحتلوها ولم يمتلكوها بل اقتصروا على مساعدة الوطنيين فى إدارة شئون البلاد، ولقد كان الداعى إلى دخولهم القطر المصرى إختلال الأمن فيه وخوف أصحاب الديون المصريين على أموالهم . وأكثرهم من الانجليز والفرنسيون ، ولما استقل السودان عن مصر وصار بلاداً مطموعاً فيها لو لم تسترده مصر بمساعدة انكلترا افتتحته فرنسا أو أى دولة أخرى وضمته إلى أملاكها وتحكمت بالنيل على أسلوب يجعل القطر المصرى فى قبضة يدها وتحت رحمتها فقامت بريطانيا وساعدت مصر على إسترجاع السودان وقد استفاد القطر المصرى والسودان بالاحتلال فوائد لاتقدر» .

وقال الدكتور صروف «إن احتلال بريطانيا لمصر دفعها إلى التقدم (أغسطس ١٩٢١) لو لم يحتل الانجليز القطر المصرى لبقى سائراً سيره الطبيعى كما كان سائراً حينئذ فليس فى كل قواميس الكون وقوانين العقل ما يجعلها تحكم أنه كان يتقدم على سوريا ويتركها وراءه بمراحل كثيرة».

وقال فارس نمر (مارس ١٩١٠ المقتطف) إن كانوا يعيرونى أنى اعترفت للاحتلال بالإصلاح وللمحتلين بأعمال حسنة فى هذا القطر فأنا على رؤوس الاشهاد

احتلالى من أكبر الاحتلاليين لأنى جاهرت وشهدت ولم أخف ولم أنكر أن المحتلين أصلحوا هذا القطر إصلاحا عظيما ، ونشروا عليه ألوية العدل والحرية وأنهم رقوه ماديا وأدبيا . وقد استقرت الأفكار على أن الاحتلال لا بد وأن يدوم حتى يرتقى الأمة المصرية فى المعرفة والعلم والقوة والكفاءة لتدبير أمورها وتولى شئونها بنفسها وذلك يستغرق زمانا طويلا ».

ويصور المقطم (مايو ١٩١٠) كيف تنال مصر الحكومة النيابية فيقول :

إن مطالب الحزب الوطنى المتعلقة بالدستور من أشرف المطالب وأجلها ، فنحن لا نذم غاية الحزب الوطنى بل غيرها ظاهرا وباطنا . والسبيل الذى نال به العثمانيون دستورهم يتعذر نيل الدستورية فى القطر المصرى . لأن أحوال القطر المصرى مخالفة لأحوال تلك البلدان . إن للقطر المصرى علاقات خصوصية بالأوربين تجعل نيلنا الدستور التام رغما عنهم صعبا جدا وإن لم يكن ضربا من المحال .

وقد اعترف لورد كرومر فى كتابه مصر الحديثة إن مالي أوربا الذين يملكون الدين المصرى هم الذين ألجأوا الحكومة الإنجليزية إلى محاربة عرابى واحتلال القطر المصرى وديون هؤلاء الأوربيون لم ينقص من ذلك الحين إلى الآن بل زادت للأوربيين فى أوربا ١٥٠ مليون وللأوربيين فى مصر ٦٠ مليون أى ما يوازى ثلث ثروة هذا القطر .

هؤلاء الدائنين لم يأتمنوا غير انجلترا على حفظ ديونهم فألجأوها إلى إرسال جنودها لإخماد الثورة العرابية واحتلال القطر المصرى .

فعلينا أن نقنع الأوربين عموما والإنجليز خاصة أننا كفؤ لحفظ الإصلاح الذى تم فى البلاد ، وكفؤ لحفظ أموالهم ومصالحهم وتأدية الفوائد والأقساط فى مواعيدها وذلك بأن نسالم الأوربين ونصادقهم على قدر الإمكان وأن نناظرهم فى

الاجتهاد وأن يهتم كل موظفى الحكومة بعمل ما يطلب منهم بأمانة وإخلاص حتى نثبت أنه أكفأ للوظائف من الأوربيين . وأن ننشر الأمن والاطمئنان فى البلاد . وهذه السكة قد تكون طويلة نقطعها فى سنوات كثيرة ، وقد تكون قصيرة نقطعها فى سنة أو سنتين . واعتقد أن عقلاء الحزب الوطنى وحزب الأمة والحزب الدستورى يوافقوننا على ذلك .

والحكومة النيابية الحقيقية لا تنال فى القطر المصرى بالثورة والمغاضبة بل ما نرى » .

* * *

هذه هى فلسفة الاستعمار البريطانى فى مصر كما رسمتها أقلامه فى المقطم والمقتطف فى دعوة إلى الذلة والاستسلام والخضوع ، وهو نفس المنهج الذى سارت عليه « الجريدة » لسان حزب الأمة والتى كانت تدعى أنها للمصريين وليست للإنجليز ولا للخديوى كما ظهر كتاب أشادوا بالإمبراطورية البريطانية وركزوا على ضرورة تأكيد الصداقة معها .

المقاومة

كانت هذه القوى تعمل فى طريق واحد هو القضاء على الوحدة العربية بين الأقطار التى فصلها الاستعمار وجزأها ، والقضاء على الوحدة الداخلية أيضا بين أبناء القطر الواحد . ومحاولة خلق حياة فكرية إقليمية ضيقة تقوم على أساس اللهجة الأقليمية والانفصال عن اللغة الفصحى ، وإنكار القيم الاساسية للشخصية العربية كالتاريخ والدين .

وفى القضاء على اللغة والتاريخ والدين قضاء على القوة النابضة التى تدفع إلى الحرية والمطالبة بالجلاء وتخليص الكيان .

وكان لسيطرة الاستعمار على الصحافة والتعليم ووسائل الأعلام أثره فى إشاعة روح جديدة تقوم على أساس النظر إلى الغرب نظرة الإكبار والنظر إلى الشرق نظرة الاحتقار ، ومؤدى هذه النظرة محبة الغرب والارتباط به واعتبار الاستعمار صلة حضارة وتمدين وليست صلة تسلط واستيلاء ، مع إكبار ثقافة الغرب القائمة على أساس الإلحاد والإباحة والمادية والتنكر للقيم الروحية والانفصال تدريجيا من الشرق والعروبة . والنظر إلى التاريخ العربى نظرة الشك والتهكم . وبذلك يركز الاستعمار قواعده ويبقى إلى الأبد كما كان يطمع كرومر فى مصر .

غير أن القوة الروحية والوطنية قد استطاعت أن تنفذ خلال هذا الضباب الكثيف ، وأن تشق طريقها فى مقاومة عزلاء من جميع أسلحة الاستعمار القوية الضخمة فكشفت عن خادع الاستعمار ، وأظهرت خيانات الملوك والأحزاب وأعوان الاستعمار وعملائه ، وتركت « ميسلون » فى سوريا « ودنشواى » فى مصر وأمثالها فى السودان والمغرب جروحا دامية فى ضمير الأمة العربية لم تلتئم ، وقد ظلت تثير على الاستعمار وأعوانه روح السخط ، وقاومت الصحافة الاستعمارية صحافة وطنية كانت أقلامها أشد إيمانا وصدقا . وأبعد أثراً فى النفس العربية ، وقد كانت كلمة الحق والكلمة الوطنية بعيدة الأثر فى القضاء على القضايا الزائفة والأكاذيب وصنوف الخداع .

وفشلت كل معارك القضاء على اللغة العربية أو الدين أو التاريخ وتحطمت قضية إقامة صداقة بين الأمةالعربيةوالاستعمار ، وارتفعت الصيحات فى كل مكان بالثورة على الاستعمار وأعوانه فإذا أخمدها الاستعمار ، تحولت إلى ضرام قوى يتصل بالشعب عن طريق الصحافة والكتابة والخطابة ويترقب الفرص لتجمع جديد .

وفى شوارع مدن عربية كثيرة ارتفعت النداءات بخيانة الملوك وخيانة زعماء

ظلوا فترات طويلة يخدعون شعوبهم ، وفى ميادين عامة وأمام مساجد مقدسة قتل ملوك ووزراء خانوا أوطانهم :

ولم يستطع الاستعمار أن يحمى أعوانه الخونة فحاسبهم الشعب . وفى ظروف كثيرة فرض الشعب سلطانه فمنع المستوزرين من تولى الحكم حتى تجاب مطالبه ، واندفعت أيد حره سوداء على الخونة فخررت الأوطان من كثير من العملاء .

وظلت هذه القوة الوطنية المؤمنة حية نابضة مهما حيل بينها وبين الظهور .

وحاولت الأقلام أن تبلغ كلمة الحق مهما حيل بينها وبين إعلانها فكانت النشرات والصحف السرية والكتابات الرمزية .

وكان لقضية فلسطين وخيانات ملوك العرب فيها أثرها الكبير فى تاريخ روح الوطنية والدعوة إلى الوحدة فى سبيل مقاومة الخطر .

وتنادت أجزاء الوطن العربى فى شعرها ونثرها بالرغم من حواجز الاستعمار وخرج زعماء أبرار فطافوا أنحاء العالم يكشفون مظالم الاستعمار ويندددون به . وتلاقت طوائف المسلمين والمسيحيين فى مصر فى وحدة وطنية ، كما تلاقى العرب والبربر فى شمال أفريقيا لمواجهة الاستعمار الذى كان يسعى للتفريق بينهما ، وكشف الشعب خدعة الأحزاب السياسية وفشل النظم النيابية الغربية القائمة فى ظل جيوش الاحتلال وسلطان المندوب البريطانى ولم تنطل كلمات المقطم والمقتطف على الشعب الذى كان يعرف حقيقة طريقه .

ووجد الفكر العربى من هذه المعركة حصيلة ضخمه ، زادته قوته حياة وزادت معالمه قوة ، وقد أفاد الفكر العربى من هذه المعارك أنه جدد نفسه ، وأضاف لعمله دعائم جديدة فى سبيل دعم خطته والانطلاق فى طريقه محافظا على مقوماته متصلا بالحياة متطوراً مع الزمن .

معركة القومية العربية

كانت « القومية العربية » هى أبرز المعارك السياسية خلال ما بين الحربين ، فقد حرص الاستعمار على القضاء على الفكرة والحيلولة دون قيامها وذلك بإقامة النظم الأقليمية وأذاعة الدعوات الانفصالية المختلفة . وقد كانت « الأمة العربية » خلال الحرب تتطلع إلى أن تصبح دولة قوية بعد انفصالها عن تركية العثمانية ومؤازرتها للحلفاء على أساس وعود وعهود .

غير أن نهاية الحرب العالمية الأولى كشفت عن مؤامرة كبرى ذات شقين :

— تقسيم البلاد العربية إلى أقطار تحت الانتداب الفرنسي والبريطاني بمقتضى معاهدة (سايكس بيكو) .

— إعلان تصريح بلفور بقيام وطن قومى لليهود فى فلسطين ولم تلبث هذه الخطة أن قضت على الدولة الهاشمية فى الحجاز وسيطرة السعوديين على الحجاز . ثم قيام عرشين هاشميين فى العراق لفيصل وفى الأردن لعبد الله .

وقد حرص الاستعمار الانجليزى أن يحجب مصر عن دعوة « القومية العربية » التى كانت سوريا هى مقرها الأصلى وموئلها حيث قدمت شهداءها وضحاياها .

وكانت مصر قد تخلصت من سيطرة حكم العثمانيين منذ سقطت تحت الاحتلال البريطانى عام ١٨٨٢ وبذلك لم تشهد معركة مقاومة الاستبداد العثمانى التى خاضتها الشام (بأجزائها الثلاثة : سوريا ولبنان وفلسطين) والعراق والتى كانت المصدر الأساسى لانفصال العرب عن تركيا .

وفى مؤتمر الصلح رفض سعد زغلول أن يندمج مع العرب بزعامة فيصل

فى سبيل الوصول إلى حق « تقرير المصير » وقال عن العرب أنهم أصفار وأن قضيته مصرية وليست عربية ،وجرى عزل مصر عن العروبة والتركيز على أنها صاحبة المجد الفرعونى القديم ، وأنها أم الحضارات العالمية وأن لها مركزاً ممتازاً بالنسبة للدول العربية : وجرى إتهام لحملة لواء الدعوة العربية بأنهم أعوان الاستعمار البريطانى الذى تحاربه مصر؛ ويقول المازنى أن فشل ثورة ١٩١٦ يرجع إلى أننا أحطنا قوميتنا بمثل سور الصين وأن من خطل الرأى أن تنفرد كل واحدة من الأمم العربية بسمتها ، وكان سعد زغلول أحد الرجال الذين أمدهم الاستعمار ليحملوا لواء الزعامة بعد الحرب العالمية الأولى وقد وصف الانجليز بأنهم خصوم شرفاء معقولون .

ومن الطبيعى أن مثل هذا الاتجاه من شأنه أن يحول دون قيام رابطة بين مصر والدول العربية فى سبيل الدعوة القومية .

وقد ظلت مصر مركزاً للدعوة إلى القومية العربية ،كانت ملاذ كل المجاهدين الذين اضطهدوا فى أقطارهم ، وكانت قضية فلسطين فى أول الثلاثينيات أول عامل من عوامل الترابط والاتجاه إلى الوحدة ؛ وقد سجل مؤتمر القدس (ديسمبر ١٩٣١) أن البلدان العربية وحدة لا يتجزأ ولا تسلم الأمة العربية أبداً بتجزئتها وقد اشترك فى المؤتمر مراكش والجزائر وتونس وطرابلس الغرب ومصر وسورية وفلسطين والعراق والجزيرة العربية .

وكانت مصر فى خلال هذه الفترة معقد أمل الدول العربية لتتزعم هذه الحركة

وقد تطورت فكرة القومية المصرية فى مصر حتى وصفها ساطع الحصرى عام ١٩٣٦ بأنها « حالة تخمر اجتماعى عميق يدفعها نحو الفكرة العربية بقوة شديدة ويجعلها تشعر بواجبها الطبيعى » .

وقد كان الاستعماران البريطانى والفرنسى يخشيان سيطرة مصر على دعوة

القومية العربية نظراً لاتجاه قلوب العرب إليها كدولة كبرى ؛ ولذلك عمد الغزو الثقافى إلى خلق عديد من التيارات والدعوات فيها ليحول ذلك دون اتجاهها نحو هدف واحد . وكان أبرز هذه الاتجاهات : الاتجاه النيلى والاتجاه الاسلامى .

وقد وصفت مصر بأنها البلد الذى زودته الطبيعة بكل الصفات والمزايا التى تحتم عليها أن تقوم بواجب الزعامة والقيادة فى إنهاض القومية العربية لأنها تقع — كما قال ساطع الحصرى — فى مركز البلاد العربية بين القسمين الأفريقى والأسيوى كما أنها تكون أكبر كتلة من الكتل التى انقسم إليها العالم العربى بحكم السياسة والظروف وأن هذه الكتلة قد أخذت خطا أوفر من الحضارة العالمية الحديثة .

إدارة الاستعمار

وقد رسم الاستعمار البريطانى والفرنسى خطة تأكيد التجزئة والحدود الوهمية للقضاء على وحدة الأمة العربية . وكان لها فى تنفيذ هذه الخطة أعوان وعملاء ؛ أعوان من دهاقنة الاستعمار والسياسة أمثال جلوب وفيلبى ولورنس وعملاء أمثال سعد زغلول وفيصل وعبد الله ونورى السعيد والجلاوى وعن طريق هؤلاء وهؤلاء وقف الاستعمار فى وجه الوحدة العربية .

الهاشميون

رسم تشرشل فى مؤتمر القاهرة (١٢ ازار ١٩٢١) خطة الحكم فى فلسطين والعراق والأردن : قال تشرشل للامير عبد الله عند أستيلاء فرنسا على سوريا : «لأن انجلترا محايدة فى القضية بين العرب والفرنسيين وهم حلفاؤها فإنها تنصح بلزوم انصراف الأمير فيصل بن الحسين عن سورية وسفره إلى العراق ليرشح نفسه لملك العراق . وأن الحكومة الإنجليزية لا تريد أن ترى على عرش العراق إلا الشخص

الذى تعتمد عليه وأن طلاب عرش العراق كثيرون ومنهم ابن سعود وخزعل خان ، وأن على أن أوثر على العراق بأن يرضوا بالأمير فيصل .

وقد نظم استفتاء شعبى عام لانتخاب الملك فيصل وذلك حتى يتخذ أختيار الملك شرعية واضحة ، وتلقى الأمير برقية من تشرشل تطلب إليه أن يصرح فى خطاب التتويج عن عزمه على تسليم مقاليد الحكم الفعلى إلى يد المتعمد البريطانى ونظمت الاستفتاء الانسة بل وسحب (كور نواليس) فيصلا إلى العراق ممثلا لبريطانيا وصحبت الكابتن بل الملك فيصل إلى كل مكان تقدمه للقبائل وتهيىء المآدب ، واعتقلت بريطانيا المنافس للعرش وأرسلته إلى جزيرة سيلان واعتقل كل من وقف فى وجه فيصل . واهتمت بريطانيا بالاقطاعيين وأرسلت أبنائهم إلى بريطانيا . وكانت تخلق العقبات لفيصل وتشعره بأن عرشه معرض للضياع إذا تخلف عنها .

وقد أيد فيصل وعد بلفور وقال : « نحن العرب لاسيما المتعلمين منا ننظر إلى الحركة الصهيونية بأعمق العطف . وسوف نقدم لليهود أعظم ترحيب قلبى فى الحضور إلى البلاد . وقد كانت لنا ولا تزال أوثق العلاقات مع زعماء حركتكم وخاصة الدكتور وايزمان . وأننا نعمل سويا لبعث وأنشاء الشرق الأدنى ، أن حركتنا تكمل الواحدة منهما الأخرى » ووقع فيصل ١٩١٨ على بيان باللغة الإنجليزية بوصفه رئيساً للعرب أعترف فيه بوعد بلفور وبالهجرة اليهودية إلى فلسطين وأظهر عطفه على فكرة الوطن القومى وتم أتفاق فيصل ووايزمان على : أن أضمن وسيلة لتحقيق أمانيهم القومية هى التعاون لترقية الدولة العربية وفلسطين .

وقد واجه فيصل عنف الحركة الوطنية فى العراق وحاول أن يوازن بين رغبات بريطانيا وبين القومية العربية فى العراق وكونت بريطانيا فى العراق أعوان وعملاء ، وكانت عبارة أذناب الاستعمار والعملاء هى : الواقعية ومسايرة الظروف .

عبد الله

أما الأمير عبد الله فقد استولى على أحدى قطارات السكة الحديد الصاعدة من الحجاز إلى الشمال ، وحين نفد الوقود من القطار ، كان عبد الله يتوقف — كما يروى الكاتب جيمس مورس — وينتزع أعمدة التلغرافات الخشبية ويضعها فى القاطرة ويشعل فيها النار ، واستقبله كيركبرايد على الحدود وبقى معه حاكماً باسم بيريطانيا ومستشاراً للملك ٣٠ سنة وهو نفس الأسلوب الذى أصطنعته بريطانيا مع فيصل .

طلب الإنجليز إلى عبد الله أن يقبل عرش الأردن ، ووعدوه بعرش سوريا وكان يؤمن أن مستقبل العرب ووحدتهم تحت ظل الهاشميين وفى ولاء لبريطانيا العظمى . وهو يؤمن بأن السيدة الوحيدة التى يمكن أن يقبل يدها هى مارى ملكة إنجلترا .

وقد وصف الملك عبد الله موقفه من الانجليز (مذكراته) قال ونستون تشرشل هو سعد بريطانيا وحظها ورجلها الفذ فى العصر الأخير « ومستر تشرشل هو الذى حضنى على أن أسعى لأخى فيصل فى أن يكون ملكا على العراق فأحل فى شرق الأردن وأعمل بالحسنى لاستعادة وحدة سوريا وهو الذى سعى كل السعى فى أن يحل الوئام محل الخصام بين الوالد وابن السعود » .

ودعا عبد الله العرب إلى صداقة بريطانيا « أيها العرب اعلموا أن فى مصاحبة انجلترا وجوب الاستعداد ، وفى مخالفتها ما عجزت عنه الأمم الكبار وحاذروا فأن انجلترا لاتقيم لاحد وزنا أن لم يكن كفؤاً وانجلترا لا تبنى سياستها على العاطفة ، كونوا أقوياء حذرين تكن معكم بريطانيا وتوليكم اعتمادها » ويقول جلوب أن عبد الله كان يعتقد أن التحالف مع بريطانيا هو أسلم وأمن وسيلة لتأمين سلامة بلاده :

وقد عمل عبد الله مع ملوك العرب على أيقاف ثورة فلسطين ١٩٣٦ بعد أن بهرت العالم خلال ستة أشهر .

وكان لبريطانيا فى العالم العربى أعوان : هم لورنس وفيلبى وجلوب وقد أثارت بأعوانها الخلاف بين الأسر الملكية الحاكمة فكان كل منهم فى صف ملك، كان فيلبى يؤمن بصداقة عبد العزيز سعود لبريطانيا . وكان له دوره التاريخى فى أزكاء الحرب الأهلية بين السعوديين والهاشميين .

وكان جلوب هو نصير الهاشميين وصانع قوة البادية لحساب بريطانيا فى الأردن والتى قامت بدور خطير فى ثورة رشيد الكيلانى ومعركة فلسطين من بعد وقد عمل جلوب على أيقاع الشقاق بين القبائل العراقية والسعودية .

العملاء

وكان للاستعمار الفرنسى أعوانه فى المغرب ، كان هناك الجلاوى ذلك الاقطاعى العظيم الذى كان أ كبر منتج للزيتون والغنم والمتحكم فى رقاب القبائل كما وصفه الكاتب الفرنسى (رينه بابان) والذى قال عنه أنه أصبح بفضل مدافع الفرنسيين وطائراته سيد الاطلنطى دون منازع وأنه هو الذى قام بالأعمال الرهيبة والمآسى المخجلة التى تقضى على جميع الانتفاضات الوطنية .

وفى العراق قام نورى السعيد بالعمل ضد القومية العربية وقاوم دعوة العراق للقومية العربية ودعا إلى (العراق للعراق) .

وقد وصفه بول جونسون بانه آخر الجيل القديم من السياسين العرب الذين استخدمتهم بريطانيا أداة تبطش بها وتقوم على أحتلال الشرق الأوسط .

وقال وايزمان فى مذكراته: أن نورى السعيد وسطته الحكومة البريطانية رسميا لمفاوضة الهيئة العربية العليا بفلسطين لتهدئة أضطرابات إبريل ١٩٣٦ وقال

أن العراق يمثله نورى السعيد كان مستعدا لقبول الوطن القومى اليهودى مع بعض الضمانات وقد هيمن نورى السعيد على مصائر العراق ٣٦ سنة وكان فاضل الجمالى عميلا آخر للاستعمار فى العراق .

وقد كانت دعوة حكام البلاد العربية عملاء الاستعمار هى «أقرار التجزئة وتنشئة الجيل الجديد على الاقليميه الضيقة ، وتأكيد الكيانات السياسية التى أوجدها الاستعمار ومحاولة جعلها كيانات مقدسة دائمة . وأخذ أنظمة الحكم من الغرب بالرغم من عدم ملاءمتها .

معركة مقاومة التجزئة

وكان اقامة وطن قومى لليهود فى قلب العالم العربى هو أخطر عمل وجه ضد القومية العربية وفصل العرب فى أفريقيا عن العرب فى آسيا ، وقد تولت بريطانيا هذا العمل وقاومت من أجله كل انتفاضات القومية العربية فى فلسطين التى قاسى أهلها استعمارين : الاستعمار البريطانى والاستعمار الصهيونى .

وكان ملوك العرب سلاحا قويا فى يد بريطانيا للقضاء على ثورة فلسطين وخداعها ، غير أن فلسطين كانت هى بؤره القومية العربية والالتقاء الحقيقى بين الاجزاء العربية التى حاول الاستعمار فصلها ، وفى ظل هذه الحركة عادت مصر إلى مكانها فى الصف العربى .

وفى خلال هذه الفترة أندلعت ثورات متعددة فى العالم العربى ، كانت فى مجموعها تطالب بالحرية والاستقلال ، ولكنها كانت ترنوا من وراء الاستقلال إلى ماهو أبعد من ذلك وهو الالتقاء مرة أخرى فى وحده من أى نوع أو هو ماوصف بعوده الاجزاء إلى وضعها الطبيعى .

وقد ارتفعت أصوات : محمد الخضر حسين وعبد العزيز الثعالبى وعلال الفاسى

وعبد الحميد بن باديس وأمين الريحانى وشكيب أرسلان وعبد الرحمن عزام وساطع الحصرى والدكتور شهبندر والكاظمى والشبيبى والزهاوى والرصافى تدعو إلى الوحدة والتجمع .

وكانت مؤامرة « تهويد » فلسطين مدعاة لأن يبحر أمين الريحانى من أمريكا إلى العالم العربى ليلتقى بالامراء والملوك ويسيح فى قلب الجزيرة العربية باحثا وراء الوحدة وهو ينادى « إنى وأن كان لبنان وطنى الصغير وسوريه وطنى الكبير فإنى أنتسب إلى الأمة العربية وطنى الأكبر . وأنى وأن كانت المسيحية دين أبائى وأجدادى ، فإنى أدين بدين كل من قال بالوحدة العربية وتجديد مجد العرب» وجرى العمل فى كل مكان فى سبيل تحطيم الحواجز التى كان يحرسها الإستعمار ويعززها وماكادت الاقطار العربية تتحرر وتحصل على الاستقلال حتى بدأت بالعمل على تعريب المناهج الدراسية . غير ان عوامل المقاومة ما لبثت أن برزت ؛ قامت قوة عربية فعاله فى الجيش العراق ، وغير كثيرمن الكتاب أرائهم فى الاقليميه والتجزئة ؛ ومن هؤلاء محمود عزمى الذى اضطر بعد زيارته لبعض أقطار أفكار العالم العربى أن يعلن أن الرابطه العربية هى آمن الروابط التى يصح أن تقوم عليها مساعينا ، بل أنها الرابطة الوحيدة التى يجب أن نستند إليها فى تطورنا المحيوم، ومعنى الرابطة العربية إنها تلك التى تستند إلى حوادث التاريخ التى وحدت بين نوع التفكير ونوع الحياة وأساليب الحكم وقواعد الاقتصاد فى تلك الكتلة المتصلة من المحيط الاطلنطى إلى الخليج الفارسى والثقافة والحضارة والمطامح الأملى إنما هى العناصر الفعالة فى توحيد الانجاه . وهى إنما تقوم على واقع جغرافى وعلى واقع اجتماعى يؤيدهما واقع روحى عظيم » .

وبدأت معركة الاستعمار فى الغزو الثقافى فى سبيل دعم التجزئة تضعف ، فالحفريات والبحث عن الآثار القديمة وكشف حضارات البابليين والأشوريين

والـكلدانيين والحيثيين والفراعنة لم تعدلها تلك الرنة الأولى ، بل أخذت ترسم صورة ماض عظيم لأمة عربية عظيمة ، وظهرت النظريات التي تقول أن كل الموجات التي أندفعت إلى العالم العربي وأقامت معظم هذه الحضارات إنما خرجت من جزيرة العرب وفي مقدمتها : الفرعونية والفينيقية ، وتشكك الناس في الـكتب التي ألفت في البلاد العربية لتربط هذه الأفـكار بالماضي القديم أو تعزز التجزئة ، ولم تفلح نظرية الأدب المصري والأدب السوري والأدب العراقي وفشلت نظرية عزل الأدب عن قضية الحرية والمقاومة والتجمع والوحدة .

وفي العراق تحطمت نظرية الأشورية ، وعجز الاستعمار عن أن يفرق بين العرب والأكراد على أساس دعواه الباطلة بأن العراق ليس شعبا واحداً .

وبالرغم من أن فرنسا عزلت تونس والجزائر ومراكش عن العالم العربي عزلا تاما فان عدداً كبيرا من رجاله اقتحموا الاسوار إلى مصر وسوريا والحجاز ورفعوا صوتهم وفضحوا أساليب الاستعمار الفرنسي وانضمت جموع من المثقفين إلى معاهد الشرق العربي

وكان عبد العزيز الثعالبي صوتا حيا مدويا ، فهو أول من دعا عام ١٩٢٤ إلى قيام ثقافة عربية خالصة مستقلة عن الفكر الغربي على أساس مقوماتنا وتراثنا ولا يمنع ذلك من أن نقتبس ما نراه صالحا من الثقافة الغربية .

وجاء إلى الأزهر كثيرون من ليبيا والمغرب كله ، وتنادت الأمة العربية في كل مـكان عند أي حدث أو أزمة في إحداها ، ووصل صوت الرصافي إلى إلى تونس وصوت المنفلوطي إلى ليبيا وصوت المغرب إلى فلسطين .

وقام عبد الحميد بن باديس وإخوانه بأضخم عمل في تاريخ الفكر العربي المعاصر في المغرب فقد أنشأ ثلاثمائة مدرسة في مساجد الجزائر مدنها وقراها

ودساكرها تعلم القرآن واللغة العربية وتقاوم خطة فرنسا فى القضاء على العربية والاسلام .

وهو داعية من دعاة الوحدة العربية ومن ذلك قوله « إن لنا وراء هـــذا الوطن الخاص أوطانا أخرى عزيزة علينا وهى منا على بال فيها تعمل لوطننا الخاص » .

وإنهارت الحوائط المالية للوطنية الضيقة التى كان يحميها دعاة التغريب فى العالم العربى وكان ، الدكتور محمد حسين هيكل فى مقدمة من كشف خطة التغريب قال (السياسة الأسبوعية — ١٤ اكتوبر ١٩٣٢) لما عاد الشبان الذين سافروا إلى أوربا صدمتهم ظاهرتان عجيبتان أثارتا دهشتهم لتناقضها مع أصول الحضارة العربية تناقضا بينا (الأول) هذه الحرب المنظمة التى يقوم بها الاستعمار الأوربى لحرية العقل (ثانيا) إنتشار المبشرين الغربيين فى كل مـكان من المدن الـكبيرة والصغيرة بل فى القرى يدعون إلى المسيحية .

وبالرغم من هاتين الظاهرتين ظل هؤلاء الشبان يدعون إلى الحضارة الأوربية مستندة إلى أصلها الصحيح : أى حرية البحث ونزاهة العلم ، ولـكن مرور الزمن فتح عيونهم على حقيقة أخرى لم تـكن أقل أثارة لدهشتهم فما يصدر الغرب للشرق من أثار حضارته قد وقف أوكاد عند أسوأ ثمرات هذه الحضارة ، وعندما كان يؤتى بلاد الغرب من الربح ما عده بأسباب الرخاء والترف ، فتجاره الرقيق الأبيض والـكحول ومواد الزينة واللهو وجوقات الهذر المسرحى كانت هى أول ما يصدم الناظر لآثار الغرب فى الشرق ، ولم يقدم الغرب إلى جانب هذا من صالح ثمرات حضارته ما يستر سوآتها هذه بل وقف حائلا دون انتشار العلم الصحيح ثم بدت حقيقة أشد من هذه الحقيقة مرارة وايلاما ، تلك أن الغرب الذى تزعم دوله أنه تحرر من قيود التعصب الدينى مازال يذكر الحروب الصليبية التى نشبت

خلال قرون بين المسيحية والاسلام ، وأن كلمة اللورد اللنبى يوم استولى على القدس وقوله أن الحروب الصليبية قد انتهت كانت تعبر عن معنى يجول بخاطر الدول الأوربية جميعا . » ١ . هـ

وهكذا انكشفت خدعة الغرب لخبرة رهبانه وتلاميذه وخدام دعوته التغريبية عندما انكشفت أكاذيب الاستعمار فى دعوته إلى تمدين الشعوب وكذب شعاراته : الحرية والأخاء والمساواه، ظهر أنه كان وراء كل فتنة وثورة ومؤامرة ، وأنه حرض القبائل والاجراء وأثار الخلافات القديمة بين المذاهب والأديان وشجع الخلافات الطائفة والعنصرية وخلق الأحزاب لإفساح جهة الصراع والتجزئة وادعى أنه يحمى الأقليات وسيطر على الصحافة ووجهها لغاياته وأفسد حركة تحرير المرأة وحولها عن طريقها الحقيق .

ولكن كل هذه المؤامرة الضخمة التى قصد بها إلى تعزيز « التجزئة » وتأكيد الحدود المصطنعة ، فسدت ، عندئذ اضطر الاستعمار إلى مجاراه العرب فى دعواة إلى القومية العربية والوحدة آملا أن يستغلها وأن يسيطر بها على الأمة العربية وأن يدفع أعوانه وعملائه لقيادة هذه الحركة ، وأول ما يهدف إليه أن ينفث من الصدور إيمانها الذى يدفع إلى الحركة ليتحول إلى بخار يذهب فى الهواء ، وهو ماحدث فى نهايه هـذه المرحلة وخـــلال الحرب العاليه الثانية .

الدين

لم يتعرض فرع من فروع الفكر العربى للغزو الثقافى كما تعرض « الدين » ، ذلك لأن الدين كان ولا يزال فى العالم العربى وفى الشرق دعامة هامة من دعامات الثقافة ومقوما من مقومات الأمة العربية . وعنصراً حيا إيجابيا غير منفصل من عناصر السياسة والاجتماع والاقتصاد .

ولقد كان الاستعمار يعرف خطر «الدين» وأثره فى الحياة العربية ومدى أثره فى الإيمان بالحرية ومقاومة الغاصب وإنماء القوة وحراسة الثغور . ولما كانت هذه العوامل من أخطر الأخطار على بقاء الاستعمار فقد كانت خطته فى القضاء على مصدر هذه القوة : وهو الدين واللغة والتاريخ . وكان الدين أهمها .

وقد أعد خطته فى مقاومة الدين على نحو دقيق خفى يسرى فى معالم الفكر والحياة سريانا بطيئا حاسما فى المفاهيم المختلفة . وقد امتدت هذه الخطة فشملت الثقافة والصحافة والتعليم والترجمة والبعثات الأجنبية ومفاهيم الاجتماع وتحرير المرأة؛ ومن أجل هذا انطلقت دعوات الاستشراق والتبشير وظهرت مجموعات من دعاة التغريب ، ولما كان دين الغالبية فى العالم العربى هو الاسلام فقد كانت الحملة كلها قد ركزت عليه باعتباره مصدر الثقافة والفكر والتراث المشترك .

ولقد استهدف الغزو الثقافى إلى محاربة الاسلام القضاء على روحه القوية فى مجال الحياة والفكر حتى تنطوى قوته وفعاليته فى مجال مقاومة الاستعمار .

كان التعصب الدينى واضحا فى هذه الحرب ، التى صدرت من حقد بالغ وخصومة عنيفة . ولم تصطنع فى أى جانب من جوانبها « المنهج العلمى » الذى ابتدعه الغرب وأقام على أساسه إبحاثه ونتائجه .

الاسلام : دين وحضارة

وكان أبرز الأخطاء التى طبقها الغرب فى الحديث عن « الإسلام » إنه لم يحاول أن يفرق بين المسيحية والاسلام فى مفاهيمها ومقوماتها .

ولذلك حمل فى الحرب على الاسلام نفس المعاول التى حملها فى محاربة المسيحية إبان عصر النهضة بغية اقصائها عن الحياة السياسية والاجتماعية والاقتصادية بعد أن تبين للغرب جمودها وعجزها عن مسايرة التطور . وبعد أن فسدت أساليب الكنيسة وظهرت أخطاء رجال الدين فى تسلطهم واستبدادهم وجمودهم ووقوفهم فى وجهة الحرية والنهضة وغلوهم فى التعصب وبعدهم عن التطور .

ولقد كان الاسلام مختلفا أشد الاختلاف عن المسيحية فى هذه الناحية ، فان الاسلام لم يكن دينا فحسب ولكنه دين ونظام اجتماعى واقتصادى وسياسى كامل ، ولقد كان الاسلام متطوراً دائما وقادراً على الاستجابة للحضارة والزمن والبيئات المختلفة ، وقد دخل هذه التجربة من قبل ولم يكن للاسلام كهنوت له صفة السيطرة والتحكم فى الناس والوساطة بينهم وبين الخالق .

ولذلك فإن المقارنة بين المسيحية والاسلام من هذه الناحية باطلة ، كما أن محاولة أخضاع الاسلام كدين ونظام لما خضعت له المسيحية — التى هى دين فحسب — ليس من الحق فى شىء .

ولكن التعصب وشهوة الحقد الأعمى والرغبة فى القضاء على روح الدين وتنحية الاسلام عن نفوذه فى الحياة السياسية والاجتماعية والاقتصادية حالت بين دعاة التغريب والغزو الثقافى وبين كشف هذه الحقائق . ولم يستطع أتباع المستشرقين

والمبشرين من مفكرينا التعرف إلى هذه الفوارق لأنهم أتصلوا بالفكر الغربي قبل أن يستكملوا مفاهيمهم في الفكر العربي ومقوماته .

وإذا كان للاسلام في هذه الفترة التي بدأ فيها الغزو الثقافي مغمز فإنما كان في تطبيقه لا في مقوماته وأصوله ، هذه المقومات والأصول التي ظلت طوال القرون ضياءاً هادياً وقوة حيه ، فإن انصراف المسلمين عن مفاهيم الاسلام وضعف الحكومات وسيطرة الاتراك العثمانيين أربعمائة عام والتخلف في ميادين الحرب والسياسة ، والانصراف عن القوة والمقاومة ، قد أحل عصراً من الضعف والركود والتواكل والقوقعة وفرض سلطان الحكام المستبدين والعلماء الجامدين الذين أغلقوا باب الاجتهاد ووقفوا عند التقليد مما خلق غشاءاً دقيقاً من الأوهام والبدع والخرافات التي حاولت أن تحجب جوهر الاسلام ونقاءه ، وتحجزه وراء طبقة كثيفة من هذه الزيوف .

غير أنه لم يخل جيل من مصلح ينبرى ليكشف هذه الزيوف ويرفع هذا الغشاء ويدعو إلى الإسلام المصفى ، ويحاول أن يعود بالناس إلى بساطة الإسلام الأول ويسره وحقيقته الكامنة المختفية .

وقد كانت دعوة محمد بن عبد الوهاب في أواخر القرن السابع عشر الميلادى هي نقطة الانطلاق في تحرير الإسلام من زيوف القرون الثلاثة التي فرضها الحكم العثماني الجامد الذى أنتهى إلى الضعف والفساد ، بينما بدأت أوربا تستيقظ وتنقل آثار العرب وتترجمها وتكون حضارتها وثقافتها الجديدة وتتنبه إلى دورها في القضاء على الإسلام والسيطرة على الشرق في محاولة للانتقام من هزيمة الحروب الصليبية وخشيه من أتساع نطاق الإسلام وتطويقه لأوربا عن طريق تركيا العثمانية التي وصلت إلى أسوار «فينا» وبعد أن توقفت من الجانب الآخر عن طريق الأندلس عند مصب نهر اللوار .

ولقد كانت خطة الغرب فى السيطرة على العالم العربى والإسلامى تهدف أساساً إلى القضاء على الإسلام :

(١) كقوة حرة قوية لا تقبل الذل والاحتلال .

(٢) القضاء على جوهر الدين فى مفاهيم الجهاد والمقاومة والحرية .

(٣) إقصاء الاسلام عن الحياة السياسية والاقتصادية والاجتماعية .

وقد اتجهت حملات الغزو الثقافى إلى وجهتين :

(١) الدين بصفة عامة .

(٢) الاسلام بصفة خاصة .

ولما كانت الحملات موجهة من الفكر الغربى المسيحى فإن كل الحملات التى وجهت إلى « الدين » كانت مقصوداً بها الاسلام أساساً .

وقد تمثلت هذه الحملات على الدين فى أنه ظاهرة : من الظواهر الاجتماعية لم ينزل من السماء ولم يهبط به وحى وإنما خرج من الأرض كما خرجت الجماعة نفسها .

وأن الديانات قيود وأغلال التزمها الناس بدعوى أنها منزلة خالدة، وأن وضع الدين فى جانب العقل يقضى بهدمه ، وأن الدين لا يخلق الانسان . ولكن الانسان هو الذى صاغ الدين ، وليس الدين إلا صدى الألم الذى يتردد فى نفوس المظلومين وأن الدين حادث (عمرانى) لهقدره (التاريخى) وليس له صلة بالاقتصاد .

الحملة على الاسلام

وقد واجه الإسلام حملات غزو ذات جوانب متعددة منها :

(١) الحملة على مفاهيم الإسلام وكتابه ورسوله وتاريخه .

(٢) الغزو عن طريق بعث أديان جديدة كالبابيه والبهائية .

(٣) الغزو عن طريق تعميق تيار الإلحاد فى العالم العربى .

١ — وكانت الحملة التى قادها المستشرقون والمبشرون منذ ١٨٣٠ قد حاولت أن توهم بنهاية الإسلام، ففى أوائل القرن العشرين كان هناك رأى يرى أن الإسلام « لم يبق من عمره إلا قرنان » وهى نبوءة السياسى المؤرخ « رايس » ، الذى قال إن احتكاك الإسلام بالحضارة سيقضى عليه ويؤذن بنهايته .

وإن الإسلام سيذهب بذهاب الدولة العثمانية [الدكتور رون /ك/ العرب والإفريقيين] .

أو أن الإسلام قد يبقى إذا ترك لنفسه ، أما إذا احتك بالتمدن الحديث فإنه يموت لا محالة (المستشرق لنز بعد سياحته فى تومبكتو) .

وفى الحالات الثلاث التى تنبأ بها المستشرقون والمبشرون الغربيون لم ينته الإسلام وكذبت نبوءاتهم ، ولم يذهب الإسلام نتيجة لذهاب الدولة العثمانية ولا بعد احتكاكه بالعلم والمدنية ، ولم يصدق أيضاً ما ادعاه غيرهم من أن انحطاط المسلمين يرجع إلى أسباب متصلة بالإسلام نفسه لعدم موافقته لروح التمدن — كما ذكر المستشرق بيشون الألمانى ١٨٨١ فى كلامه عن تأثير الإسلام فى حياة أصحابه — كما حاول كتاب الغرب دائما تصوير المسلمين بصورة العدد القليل وذلك بإيراد إحصائيات مضللة :

ومع ذلك فقد عجزوا عن إخفاء الحقائق . فقد أشار المستشرق (مرجليوث) في بحث له عن مستقبل الإسلام (الهلال مجلد ١٦ — ١٩٠٦) إن الإسلام غالب في أفريقيا وشائع في آسيا ومعروف في أوربا وأمريكا . ولم يظهر ما يدل على توقف إنتشاره وخصوصا في القرن الماضي لأنه نهض نهضة جديدة .

وأورد قول المبشر « شاتليه » من أن الاسلام هو الدين الوحيد الذي يرتقي الآن وينتشر في الهند والصين . أما الأديان الأخرى فانها آخذة في الانحلال كما أورد ما ذكره أحد كبار المستشرقين من أن الاسلام سيعم الهند كلها وقال أن جماعة كبيرة من الهنود يعتنقون الاسلام ليتحرروا من قيود الديانة البرهمية وكهانها . وأن الاسلام قد انتشر مؤخراً في بلاد الصين حتى أوجس أهل أوربا من إنتشاره مخافة أن يصير ديانة المملكة فيحمل أهلها على الممالك النصرانية في أوربا مثل الحملات الصليبية في العصور المظلمة . وأشار إلى أن الاسلام ينتشر في الهند والصين ومستعمرات هولندا بالموعظة الحسنة .

وأشار «مرجليوث» إلى أن الإسلام إنتشر في أفريقيا بالحسنى بعد أن انتهى عهد الدراويش ، وقد كان الظن أن يتوقف بعد ذهاب الحركة المهدية ،والحقيقة أنه لا يزال آخذا في الانتشار .

الرد — وكذب «مرجليوث» ما رواه زملائه المستشرقين من أن انحطاط المسلمين يرجع إلى أسباب متصلة بالاسلام وقال : إني أرى المسلمين تحت سلطة المسيحيين أرقى من المسيحيين عقلا وأدبا ؛ واستشهد بقول المستشرق « روبل » الذي ذكر بعد سياحة للحبشة ١٨٣٨ أن الأحباش المسلمين أقدر على العمل وأسمى مداركا وأكثر تهذيبا وعلما من الأحباش المسيحيين .

وأشار «مرجليوث» إلى ما ذكره الرحالة ستيفن هيدن بعد زيارته لآسيا من أن

أحد المبشرين قضى فى عمله عشر سنوات فلم يستطع تحويل مسلم واحد إلى النصرانية وأن عشرات من زملائه عجزوا مثله وأن دعاة النصرانية قد ينجحون فى البلاد التى لم يكن المسلمين فيها دولة فى عصر الاسلام » ا . هـ

— ٢ —

وإذا كان مرجايوث قد حاول إنصاف الاسلام، فان الأب لامنس اليسوعى (المشرق : م ٣٨ (١٩٣٠) ص ٧٢٨) قد ساقه التعصب إلى كثير من المغالطات.

وإن كان قد ذكر أن إنهاء (الخلافة الاسلامية) بعد مرور ست سنوات لم يحدث شيئا من العقبات داخل الاسلام وخارجه وذلك فى قوله :

« وهكذا بعد أن مضى ست سنوات على القرار الكمالى القاضى على الخلافة فى آزار ١٩٢٤ نرى الاسلام يعيش وهو لا يكاد يشعر باضمحلال تلك المؤسسة العليا وقد ركز (لامنس) هجومه على الاسلام فى :

× تعسر اتفاق السنيين لأن بينهم كثير من المحافظين التقليديين الذين يحلمون باعادة الخلافة القديمة .

× أن اليقظة القومية قد أحدثت توسعا فى الفوارق بين المسلمين .

× أن الأتراك قد انصرفوا عن الاسلام كلية . وعن أبجدية العربية وكذلك الفرس واتجه المصريون إلى الفرعونية .

× أن الأغلبية السنية فى العالم الاسلامى تنطوى على فرق من الأتراك العلمانيين ومن المسلمين الشيوعيين المقيمين فى الجمهوريات السوفيتية . والمصريين المتبشرين فى مصر والهند .

× الخلاف بين السنة والشيعة .

والواقع أن تقرير (لا منس) للاسلام على هذا النحو إنما يقصد فيه تصوير الإسلام بصورة التفسخ والتجزء وانقضاء وحدته وقوته ، وهو غير صحيح فإن الخلاف بين المذاهب الاسلامية لم يكن فى الواقع إلا خلافا أملته أهواء السياسة ثم حاول الاستعمار إثارته من جديد لاستغلاله فى تمزيق جبهة الإسلام الموحدة .

وأن المسلمون قد تنبهوا إلى مؤامرات الإستعمار . وتلافوا على مقاومته، وعلى الشك فى مقومات الفكر الغربى القائمة على التعصب والهوى ، وأمنوا بضرورة التجمع والاتحاد فى سبيل دفع عدوانه، وقد حقق الفكر العربى تطوراً واضحا فى هذا السبيل حطم كل ماوهمه الأدب لامنس ومن وراءه .

وأن الفريق الذى أطلق على (لا منس) أسم المصريين قد تنبه مبكراً لخدعة الغرب ضد الاسلام ومدى الفارق البعيد بين شعارات الحضارة الغربية البراقة وواقعها الدامى المختفى تحت كلمات الحرية والآخاء والمساواة .

* * *

وقد صور (لامنس) نتائج مؤامرة الغزو الثقافى الموجهة الاسلام حتى عام (١٩٣٠) وما حققته فى ميادين التعليم والأزهر وترجمة القرآن وتحرير المرأة فقال:

١ — أن التعليم القرآنى هو فى تأخر مستمر ومطرد حتى فى البلاد الاسلامية المستقلة . وأن أبرز مظهر لذلك هو تطور التعليم الرسمى ولا سيما فى المعاهد العالية والثانوية « فهو يتحرر شيئاً فشيئاً من تأثير الدين حتى يصبح لا دينيا محضا كما هى الحال فى تركيه » .

٢ — أن دعاه التطور المصرى قد مدوا أصابعهم فى داخل الأزهر فاغتنموا حاجته إلى الاصلاح وتدخلوا فى إدارة الدروس وتعديل البرامج التى حورت مرات حتى غدا تأثير ذلك المعقل العلمى على شفير هار ففقد فى عشرين سنة ثلاثة أخماس

طلابه وهكذا القول فى مدرسة الزيتونه فى تونس . فإذا أضفنا إلى هذا « الروح المصرى السائد فى الجامعة المصرية الجديدة والمستمد مباده من النقد الأدبى فهمنا أنه أبعد من أن تثبث الشبيبة الاسلامية فى مبادئها الدينية وعقائدها ، أدركنا الصدمة القومية التى يعانيها اليوم الاسلام التقليدى .

٣ — محاولة تطبيق القرآن على ذوق العصر والافكار المصرية ، والميول الظاهرة فى العالم الاسلامى للتخلص من الحرمات القرآنية الشديدة فيما يختص بفائده المال وآراء الائمة الاقدمين فى الادانة والربا .

٤ — فى العالم الاسلامى اليوم حركة نسوية ترمى إلى نزع الحجاب وأعتاق النساء وتحتج على استئثار الرجل وحده بحق الطلاق وعلى انتقاص حق المرأة بالارشاد والشهادة . وقد حدثت فى بلاد العرب وسوريا والعراق والجزائر ولاسيما مراكش . وقد عقد مؤتمر المرأة فى دمشق واحتججن كلهن على الحجاب احتجاجات شديدية ولكن لم تكن منهن من تجرأت فرفعت زاوية من خمارها » .

ولا شك أن ما أورد الأب لامنس فى تقريره بعيد فى كثير من تفاصيله عن الحقائق الواقعة ، والواقع أن الاسلام قد استطاع أن يلائم بينه وبين الحضارة فى مختلف فروع الحياة .

ودعا الأب «لامنس» المسلمين أن ينهجوا نهج تركيا فى السير مع التيار المصرى واتخاذ المؤسسات الغربية بكاملها كافملت « بقصد محاربة أوربا بسلاحها نفسه » وأشار إلى أن الاسلام لا يمكنه الاستمرار فى عزلته وألا كان عرضه للصدمة فالسقوط .

والواقع أن الاسلام لم يعتزل الحياة مطلقا وأنه كان قادراً دائما على الالتقاء

بالحضارة والتجاوب معها . وأنه حاول دائما أن يلائم بين عقائده وقيمه وبين الحضارة الغربية وأنه رفض أن يقبل منها ما يتعارض مع هذه القيم والعقائد ·

وقد أعرب الأب لامنس بأن عدد المسلمين فى أزدياد متصل وأنهم زادوا ٢٠ مليونا فى أربع سنوات (١٩٣٠) وأن سكان الجزائر زادو فى مائة سنة خمس أضعاف منذ كانوا مليونا فاصبحوا خمسه ملايين وعزى زيادة عدد المسلمين من أنهم يقومون بنشر الدعاية لدينهم فيستميلون بعض جيرانهم من الزنوج فى أفريقية وأبناء الطفوف السفلى فى الهند · وأنهم فى سبيل نشر الدعاية الاسلامية أسسوا مدارس خاصة يربى فيها المرسلون ويدرسون اللاهوت وطرق التمارين الجدلية والمناظرات الدينية وأن أشد هذه المدارس نشاطا مدرسة الشيعيين فى لكنهو بالهند ومدارس الاحمدية فى قاديان ولاهور بالهند ومدرسة دار الدعوة فى مصر .

(٣)

أما السير ريتشارد وود قنصل انجلترا فى تونس فقد رفع عام١٨٧٨ تقريراً إلى وزير خارجية بريطانيا بعد دراسة شاملة للاسلام والمسلمين خلال فترة عمله لدولته فى دمشق وتونس رد فيه على جميع ما وجه الغرب من اتهامات للأسلام وتصدى لدفع الاتهامات الخاصة : بمعاملة أهل الذمة من المسيحين ورفضه للاخذ بأسباب الحضارة ·

(معاملة أهل الذمة)

قال : من أوهام الناس أن الإسلام يمنع مساواة أهل الذمة بالمسلمين فيما لهم وما عليهم وينبو عن الأخذ بأسباب التقدم والحضارة لأنه لا يجيز انتشار المعارف والتحلى بالعلوم .

ورد هذه الأوهام الباطلة، وأكد أن الإسلام يرى أن الأخذ بأسباب التقدم لا ينافى أصول الشرع، وأورد الأدلة على أن الإسلام يرى أن لأهل الذمة ما للمسلمين وعليهم ما عليهم « إذا ثبت أن غايتهم الوطنية موافقة لغاية المسلمين وأنهم مثلهم فى إيثار مصلحة الوطن والخير العام ، وأن الإسلام يجيز استشارة أهل الذمة فيما يتعلق بالنظامات المدنيوية ولا يمنع استخدام النصارى واليهود واستند فى ذلك على أقوال الماوردى فى كتابه (أدب الدنيا والدين) وأشار إلى أن المتأخرين من سلاطين الإسلام استأثروا بالسلطة واستبدوا بالتصرف فخرجوا عن منهج الشرع الإسلامى حتى توهم الأغيار أن سبب هذا الخلل هو ضيق نطاق الشرع الإسلامى وأنه لا يضمن لغير المسلمين حقوقهم .

وأكد أن الواقع يخالف هذا ، لأن الإسلام يحتم على الملك وسائر الحكام أن يفعلوا كل ما يدعو إلى حسن توزيع العدل والإنصاف فى الحكم والتجرد من شوائب الأغراض والحظوظ الشخصية .

(الإسلام والمدنية)

٣ — وعرض ريتشارد وود للزعم الغربى الذى يزعمه مولفو الافرنج من أن المسلمين لا يتسنى لهم التقدم والارتقاء فى معاريج الحضارة ما داموا مقيدين بنصوص القرآن التى يقولون أنها لا تلائم المعارف واكتساب الفنون . وقال أن هذا وهم نشأ عن الجهل بمقاصد القرآن . ويكفى برهاناً على بطلانه تاريخ صدر الاسلام وعناية علماء العرب بالمعارف والفنون ودرسهم كتب الحكماء الأقدمين مثل أرسطو وابقراط واقليدس وبطليموس .

وقال : أن أكبر بواعث سوء الفهم هو انتشار الظن فى أوربا بأن الاسلام دين القوة والسيف وهذا الظن مخالف للواقع ولطبيعة الإسلام لما جاء فى القرآن

(١) وقاتلوا فى سبيل الله الذين يقاتلونكم ولا تعتدوا إن الله لايحب المعتدين
(٢) لاينهاكم الله عن لم يقاتلوكم فى الدين ولم يخرجوكم من ديارهم أن تبروهم وتقسطوا إليهم إن الله يحب المقسطين » .

وأشار إلى الباحث المدقق فى أسباب الفتن التى سفكت منها الدماء فى الشرق يعلم أن الباعث الوحيد فى حدوثها هو أصبع السياسة الأجنبية التى تنتهز الفرص لإيقاد نارالثورة بين ذوى الاحقاد. وقال: من هذا القبيل واقعة الدروز والموازنة وواقعة الصقالبه والبلغاريين فقد تبين أن الاعتداء إنما يبتدىء من جانب النصارى (كان ريتشارد دور صاحب التقرير قنصلا لدولته فى دمشق ١٨٦٠ أبان الفتنة المشهورة) .

وقال أنه لايجوز الظن بأن المسلمين ينفرون من مجلس الشورى ويرونه تقليداً أوربياً .

— ٤ —

واعترف (جورج سارتون) الأستاذ بجامعة هارفارد بأن الاسلام من أصح النظم الدينية وأجلها على حد تعبيره « وهو عندنا أصح تلك النظم وأجلها على الاطلاق ، ولكن المسلمين اليوم كثيروا البعد عن حقيقة ماجاء به الاسلام » وردد عبارة الشيخ محمد عبده « الاسلام محجوب بالمسلمين » وقال : إننا إذا نظرنا إلى الاسلام من خلال أعمال المسلمين لم نر تلك المبادىء جلية واضحة ، وأكد أن المسلمين يمكن أن يعودوا إلى عظمتهم الماضية وإلى زعامة العالم السياسية والتعليمية كما كانوا من قبل . ولكن هذا لن يكون إلى إذا عادوا أولا إلى فهم حقيقة الحياة فى الاسلام والعلوم التى حث على الأخذ بها .

وأشار (سارتون) إلى أن الهزائم السياسية التى منى بها الاسلام لم تزعزع ثقة المسلمين بأنفسهم بل هى على العكس زادت من غرورهم .

ويقيناً بأن المسلمين سيعودون إلى قيادة العالم كره أخرى « ذلك أن شعوب الشرق الاسلامى وقد قادت العالم فى مرحلتين طويلتين من مراحل التقدم الانسانى طوال ألفى سنة على الأقل قبل أيام اليونان ثم فى العصور الوسطى مدة أربعة قرون تقريباً فليس هناك ما يمنع تلك الشعوب من أن تقود العالم ثانية فى المستقبل القريب أو البعيد .

— ٥ —

وعرض المستشرق (هـ . ١ . جب) لموقف الاسلام من الحضارة والغزو الثقافى ودعوة التغريب (الهلال — م ٤٧ ص ٨٧٣) فأكد أنه رغم ما تسرب إلى العالم الاسلامى من اتجاهات أوربا ونزعاتها وما أصاب جماعاته من الانحلال السياسى وما بينهما من التفاوت الفكرى ما زالت هناك رابطة عامة وثيقة . نشأت من العقيدة والثقافة الدينية المشتركة وهى تؤلف بين المسلمين فى الشعور والرأى والمصلحة .

وأشار جب إلى أن المسلمين مازالوا متمسكين بدينهم متشبثين بعقيدتهم مؤمنين أثبت الايمان بأن الاسلام خير الأديان . وأن الاسلام لا زال حتى يومنا هذا (١٩٥٠) عقيدة دينية راسخة وقاعدة اجتماعية ثابتة ونظاماً خلقياً وطيداً .

وعرض جب لتجربة الاسلام مع الحضارة الحديثة فقال:أن الاسلام استطاع أن يوفق بين الحضاره ونظامه وبذلك مر بأزمة الالحاد .وقال:أن الوحده الاسلامية حقيقة قائمة تزداد على الأيام قوة وجلاء ودلل على ذلك بأنه ما يكاد يغشى ربع من ربوع الاسلام أى حادثه خطيرة حتى تذيعها الصحف فى أرجاء آسيا وأفريقيه بأسلوب مثير عنيف فلا تلبث أن تتجاوب وتتلاقى .

وقال:أن مقتل الشهيد عمر المختار كان له دوى وأن أرجاء العالم الاسلامى من مراكش إلى جاوه قد اضطربت له (كأنما قد مسها تيار كهربائى كاد يصعقها)

وأشار جيب إلى دور الاسلام اليوم بالنسبة لمادية الحضارة وانهيارها المعنوي فقال: أنه ما يزال للاسلام رسالة يؤديها إلى الإنسانية جمعاء ، فهو يقف وسط الشرق والغرب . وقد أثبت أكثر مما أثبت أي نظام سواه مقدرته على التوفيق والتأليف بين الأجناس المختلفة « وإذا لم يكن بد من وسيط يسوى ما بين الشرق والغرب من نزاع وخصام فهذا الوسيط هو الاسلام » ولم يفت جب أن يشير إلى أن الاسلام من حيث هو « عقيدة دينية » لم يفقد إلا قليلا بتأثير الغزو الغربي — ولكنه تنحى عن عرشه من حيث هو قاعدة اجتماعية تسود الحياة وتوجهها، وذلك بعد أن قامت إلى جانبه قوى تحكم في بعض الأحيان بما يناقض تعاليم الاسلام وأن الاسلام كله إلى عهد قريب هو كل شيء في حياة المسلم . وكانت حياته الاجتماعية واتجاهاته الفكرية مستمدة من الدين ومقترنة بالاسلام وأشار إلى ما بذله محمد عبده وتلاميذه من الجهود إلى عملت على التوفيق بين تعاليم الاسلام نظمه دين مطالب الحياة الحديثة وأساليبها . ١ . هـ

— ٧ —

وقد وجد الاسلام من كتاب الغرب بعض المنصفين إلى جانب الكثرة الغالبة من خصومه المتعصبين من أمثال: هنرى دى كاسترى وسيديو وجوستاف لوبون واسحق بطلر وواشنطن ارفنج ولو تروب استوارد وتوماس كارليل وولز .

وفى مثل قول اللورد هدلى : الذى يرى أنه لو ندبت لجنة من الانجليز الاكفاء لفحص الدين الصالح لأن يتدين به العالم كله لأجمعوا على اختيار الاسلام .

أو قول الدكتور كرنسيتان سنوك هيرجرو ونجيه (البلاغ الاسبوعى ٢٧ نوفبر ١٩٢٩) بأن الإسلام لا يقاوم النصرانية ، لأن الإسلام فى المستقبل سيشكل نفسه حسب حاجات العصر الحديث . ولن يدع النصرانية تغلبه وتسلبه

أبنائه الذين كسبهم من مئات الأجيال ، وقد طبعوا بطابعه وصاروا جزءاً منه وهم يمثلونه فى سائر بقاع الأرض .

وهو يؤكد أن المسلمين سيستمرون فى دينهم مهما اتخذوا من الثقافة والمدنية الغربيين ، ويقول أنه فى الجامعات الكبرى نجد الكثيرين من المسلمين ولكن مجرى عقولهم لايزال إسلاميا ، وقال أنه كان يعرف الطالب المسلم من غير المسلم فى جامعته بمجرد الاطلاع على مبحثه الذى كتبه . إذ فى المسلمين ميلا قويا إلى التمسك بدين أبائهم وتطبيقه على الحاجات المدنية .

ويشير المستشرق لوسين بوفا (الزهراء : شعبان ١٣٤٣ ص ٤٩٦ م ١) إلى أن الإسلام يتفق مع مدنية زماننا الحاضر تمام الاتفاق . وأن التقدم الذى نشاهده فى الممالك الإسلامية منذ قرن دليل على أن الإسلام يسير مع المدنية جنبا إلى جنب وأن الإسلام سيظل موجوداً دائما .

وأشار إلى انحطاط العالم الاسلامى فقال : ليس الذنب فى أكثرها على المسلمين وإنما هو نتيجة الحكم المطلق ، وجهل الحكومات الذى أدى إلى أنتشار الجهل ، واضطرار دول الاسلام إلى خوض حروب كثيرة . والعجز عن توزيع العدل وسوء خطة الغربيين فى معاملة الشرقيين .

الدين فى نظر العلم

وركز دعاة الغزو الثقافى والتغريب حملاتهم على جوانب متعددة فى الدين عامة والاسلام بصفة خاصة تنصب على أصول الاسلام . وقد وجه « هانوتو » الحملة على القدروالتوحيد، وهاجم مستر سكوت الاسلام وأدعى أنه دين حرب دائم مع غير المؤمنين به — وقد كان كتابه عن الاسلام الملىء بالمطاعن مما يدرس فى مدارس مصر(١٩١٥ وما بعدها) .

وركز « أرنست رينان » هجومه على التناقض بين الدين والعلم محاولا أثباته أنهما عدوان لدودان . وقدحاول علماء «المادية» فى القرن الثامن عشر والقرن التاسع عشر أن يؤكدوا أن عهد « الدين » قد انقضى . وأن بقاءه على الأرض مرتبط ببقاء السذاجة العاميه . وقد كذبت الأحداث ادعائهم ، فإن العلماء لم يلبثوا أن توصلوا إلى وجود عالم روحانى وراء هذا العالم لا يمكن أنكاره ، وأعلن ذلك فى المجتمع العلمى لما وراء علم النفس ١٩٢٠ ومؤتمر الاساقفة الانجيليكان فى لامبيت وأنشأ كرسى لهذا العلم فى كل من جامعتى كمبروج وأكسفورد .

وكف العلم عن غروره فى نهاية القرن التاسع عشر واعترف بأن لابد للمعرفة من وسائل أخرى غير وسائل الحس ووسائل التفكير وأنه لابد من «البصيرة» .

واستأنف العلماء مراجعة تصوف الهند واليونانيين والعبرانيين والمسيحيين الملين للبحث عن أساس روحى للحضارة . وأعلن « أوجست كونت » الديانة الوضيعة وبذلك تحطمت نظرية (نهاية الدين) التى أعلنها دعاة المادية وكانوا يعتقدون أن العلم الحديث سيحل لهم كل شيء ويكشف لهم عن كل شيء . .

وجاء علماء يقولون أن مذهب «دارون» فرض وليس حقيقة غير قابلة للنقض . وأن الاساس الذى قامت عليه المذاهب العلمية قد أنهار . وأن العلم ليس كل شيء فى الوجود ، وأن الدين وسيلة للسمو بالإنسان إلى مرتبة أرفع (الدكتور محمد خليل عبد الخالق — الهلال م ٣٩ ص ١١٣٧) وأصبح العلم يسلم بوجود ما ليس قائما أمام الحس ، وبدا عصر أعتقاد ويقين بالقوى الخفية ، واتسع التحقيق العلمى للمجهول وأخذ العلماء يعترفون بأن الحقيقة كامنة وراء الظاهر ، وأن الكون ليس حقيقة فى ذاته وإنما هو المظهر الوحيد للتعبير عن الحقيقة (دكتور على توفيق شوشه (نفس المصدر) .

حملة الإلحاد

ركز الاستعمار حملة ضخمة من الغزو الثقافي على «الدين» في العالم العربي . هدفها مهاجمة جميع الأديان وزعزعة العقائد وخلق تيار عميق المجرى من « الإلحاد » ، وكانت أوربا قد واجهت معركة ضخمة بين الإلحاد والدين في القرن السادس عشر حين وقف رجال الكنيسة أمام النهضة محاولين مقاومة كشوفها واتهام أعلامها بالكفر والإلحاد ، وقد نشأ الإلحاد نتيجة لهذا الصراع الذي استعمل فيه رجال الدين سلطانهم فأسرفوا في البطش بخصومهم عن طريق محاكم التفتيش ثم انتصر العلم وأعلن حقوقه للدين عامـــة ومهاجمته ، وساعده على ذلك ظهور المذاهب المادية المنكرة لوجود الخالق والأديان والكتب المقدسة والأنبياء .

وقد حرصت علوم الطبيعة والفلسفة والكيمياء والجغرافيا والفلسفة أن تنقض الدين وتناقضه في كل قضاياها .

وبلغ الإلحاد غايته في منتصف القرن التاسع عشر ثم عاد ينحدر مرة أخرى بعد أن أثبتت الكشوف وجود الروح ، وعادت الفطرة الانسانية إلى خطها الأساسي ، وقد نقل الاستعمار ميدان المعركة إلى العالم العربي في حملة الغزو الثقافي ومن المسيحية إلى الاسلام مع الفارق البعيد بينهما .

فالاسلام لم يقاوم الحضارة ولم يعارضها كما عارضها الأكيريلوس بل ألتقى بها دائما ، ولم يتعارض الاسلام مع العلم كما تعارضت المسيحية .

ولذلك فان حملة الالحاد قد حاولت أن تتخذ حججا أخرى لتعميق مجرى الالحاد في العالم العربي .

وكانت حملة الالحاد التى حمل لواءها دعاة التغريب فى بلادنا هو أن الدين يقيم حياتنا على أساس من التوا كل وأن التدين يبدأ بحثه من الوجوه المتجلية حوله ، فينتهى للخالق ومنه للطبيعة بينما الغربى يبدأ من العالم المتطور لينتهى لعالم الغيب ؛ هذا التباين فى منزع التفكير ذهب بالمتدينين إلى الاعتقاد بأن العالم حادث ؛ أن الخالق مطلق التصرف فى الكون منفصل عنه ومدبر له . وإنه السبب لكل ما يحدث والعلة الأولى والأخيرة لكل ما يكون وما سيكون .

وأن الفرد المتدين فى الشرق خاضع لإرادة علياهى إرادة الخالق الحره . يقضى فيكون ويقدر فيحدث . أما الغربى الملحد فانه يتبع فى تصرفاته وسلوكه نواميس الحياة ويخضع لها .

وأن المتدين يستسلم للغيب استسلاما محضا ، بينما فى الغرب يناضل الملحد قوى الغيب (اسماعيل أدهم — (الرسالة) سبتمبر ١٩٣٨) وحمل دعاة الالحاد لواء الدعوة إلى القول بان الاسلام هو سبب تأخر الشرق، وإن الدين يضع القيود ضد الحريات فى الأدب والأخلاق ولذلك يتأخر الفن والأدب فى ظل الدين وأباح دعاة الالحاد نقد القرآن والنظر فى أياته وتبين ما فيها من فروق وصفوها بالقوة والضعف .

الأديان الجديدة : البابية والبهائية والقاديانية

وقد حارب الغرب الاسلام بالدعوة إلى أديان جديدة كالبابية والبهائية والقاديانية ؛ ولا شك أن ظهور الدعوات الجديدة التى تحمل أسماء الأديان والتركيز عليها واهتمام الصحف والمجلات بالدعوة لها وإذاعة مبادئها والحديث عنها إنما كان عملا واضح الدلالة والأثر فى حرب الاسلام ومحاولة القضاء عليه

وقد أكد ذلك الدكتور تشارلس أدمس حين قال أن « البابية » كانت وسيلة للاستغلال من الاسلام للنصرانية .

وقد حرص دعاة التغريب على حمل لواء الدعوة إلى هذه الأديان وداومت الهلال والمقتطف والمجلة الجديدة والمصور والأهرام والمقطم نشر إبحاث مطولة عن البابية والبهائية .

وقد كان موت زعيم البهائية : عباس عبد البهاء (نوفمبر ١٩٢١) مناسبة لحملة طويلة عريضه ، فقد أشارت الصحف أن كان لنعيه وقع عظيم فى نفوس البهائيين فى أقطار المعموره ، وقد نشرت الهلال التى أوردت الخبر تفاصيل كاملة عن مبادىء المذهب البهائى وأهمها أن أساس الأديان واحد وإن الطقوس التى دخلت عليها أدت إلى التفرق والانقسام .

وقالت إن البهاء رمى إلى تأسيس دين عملى نظر فيه إلى تقويم الأخلاق ووجه دعوته إلى العالم كله وليس إلى الشيعة فقط، فكتب إلى ملوك الأرض وقالت إن البهائية فرع من البابية التى ظهرت فى السبعينات من القرن الماضى من طريق الميرزا على محمد الباب (المتوفى ١٨٥٢) وأن الباب رمى إلى إصلاح الدين الاسلامى .

وقد أشار سلامة موسى فى المجلة الجديدة (فبراير ١٩٣٠) أن البهائية دين جديد يوافق النزعات الجديدة . وقالت إن هذا الدين يجب أن يلقى تأييدا فى مصر حتى ينتشر بين الطبقات التى لا تجد من الأديان السائدة أو من العلوم والآداب ما يقنع نفوسها وقال : أن فى إنتشار البهائية كبت للتعصب ودعوة إلى أخاء البشر ، وأن تنزل على حاجة العصر الحاضر الذى يكره فيه تعدد الأديان وما تجلت فى مخالفة بعضها للبعض من تحزبات وتعصب .

ونشر (عمر عنايت) بمجلة فى المصور إبحاثا متصلة عن البابية والبهائية وتعاليم البهائية وبشر عبد الجليل سعد الناس بالدين الجديد فى مجلة المصور (نوفبر ١٩٢٩) وقال « قل هو نبأ عظيم » وطالب الناس بالا يتعجلوا الحكم عليه فانه سيتم به اتحاد الشرق والغرب والأديان والأجناس وبه تزول الحروب .

وترجمت المصور كتاب الميشر . ج أ . ا . سلمنت عن « بهاء الله والعصر الحديث » ونشر عباس العقاد فى الهلال بحثا بعنوان ساعة مع عبد البهاء (يناير ١٩٣٠ ونشرت الأهرام ٥/٥ و ١١/٥/١٩٣١ بحثا مطولا عن هيكل البهائية فى نيويورك وانتشار هذه الديانة التى « تدعو إلى توحيد الاديان واللغة وترك العصبيات الدينية والجنسية ونبذ الحروب .

٣ — واهتمت دوائر الغزو الثقافى والصحف بالدعوة الأحمدية (الأهرام ٢٤/٩/١٩٣٣) التى قام بها (غلام أحمد القاديانى) مسيح الهند المولود بقاديان بالنجباب والذى أدعى أنه المهدى المنتظر الذى يؤمن به المسلمون وينتظرونه وتتلخص عقيدتهم فى موت السيد المسيح ودفنه وعدم انقطاع الوحى والنبوة غير التشريعية وعدم النسخ فى القرآن .

وقد هاجمهم رشيد رضا (الأهرام ٢٧ / ٩ / ١٩٣٣) وقال أن دعوى غلام أحمد بأنه المهدى المنتظر دعوى باطله . وأن القاديانى أدعى أولا أنه المهدى ثم ادعى أنه المسيح الموعود به وأنه يوحى إليه وجاء بسخافات من النثر والشعر زعم أنها تنزل عليه . وحرف كثيرا من آيات القرآن والأحاديث الواردة

وأشار إلى أنه اعتمد فى دعواه ببقاء لوحى والنبوة غير التشريعية على أقوال بعض الصوفية كعبد الكريم الجيلى فى كتابه الانسان الكامل وابن عربى فى الفتوحات المكية والشعرانى فى كتابه اليواقيت والجواهر .

حركة المقاومة ورد الفعل

ولم يقف الفكر العربى مكتوفا أمام هذه الحملات وإنما واجهها بقوة ودحض أكاذيبها ، وكشف من خداعها وتضليلها وتعصبها . وكشف الغشاء عن الأباطيل التى برغ الغزو الثقافى فى حمل لواءها البراق ، والتى خدعت الكثير من دعاة التغريب فى العالم العربى فصدقوا شعارات الفكر الغربى وكلماته ذات الرنين وخدعهم المبشرون الذين تلقوا عليهم العلم فى جامعات أوربا ، وفرنسا بالذات ، أمثال ما سنيون ودوركهايم ومرسية ومرجليوث وليفى بريل وهم أساتذة منصور فهمى وطه حسين ومحمود عزمى وزكى مبارك .

والعجيب أن كتاب أوربا قد انقسموا أزاء العقائد الشرقية والإسلام واللغة العربية وتاريخ العرب وأمجادهم قسمين ، وأن مفكرين ذوى قدر وصوت عال قد انصفوا العرب ، ومع ذلك فان نظريات المبشرين والمستشرفين كانت دائما لها الغلب ، وكانت هى التى تتردد فى صحف مصر والعالم العربى — لا على أنها نظريات قابلة للنقض ، ولكن على أنها حقائق ثابتة . ومما يذكر فى هذا الصدد أن « رينان » عندما عرض أرائه عن العرب والسامية وراجعه فيها « جمال الدين الأفغانى » لم يجد أمامه إلا أن يعلن أنه سيعاود النظر فى مراجعة على ضوء ما أورده جمال الدين فى الرد عليه ، ومع ذلك فان دعاة التغريب حملوا هـــذه النظريات فى الهجوم على الاسلام والأمة العربية واللغة العربية كحقائق تفرض فرضا .

وقد واجه الفكر العربى فى قوة وصراحة ووضوح وعلى نفس المنهج العقلى والمذهب الغربى فى البحث كل ما عرضه المبشرون والمستشرقون وخصوم العرب والإسلام ؛ وكشف زيفه . وأبان أن هذه الحملة لم يقصد بها إلا توهين عرى

الإسلام وتشويه صورته وصرف أهله عنه ؛ وأشاروا إلى صيحة « غلا دستون » رئيس وزراء بريطانيا فى عهد الملكة فيكتوريا فى مجلس العموم البريطانى وهو يمسك بيده « القرآن » ويقول « أنه ما دام هذا الكتاب باقيا فى الأرض فلن يقر لنا قرار فى بلادهم » .

وقد اعتبرت هذه الصيحة قاعدة للحملة التغريبية الضخمة المتصلة على الإسلام وعلى ضوئها وضع الغرب سياسته فى التعليم والثقافة محاولا الأدعاء بأن الإسلام ليس فى حقيقته إلا عبادات وصلوات وطرق صوفية وأن القران يقرأ للبركة . مع الإغضاء المتعمد والتجاهل الشامل للاسلام كنظام اقتصادى واجتماعى ونظام للحكم ونظام للتربية والتعليم .

واستتبع هذا العمل ؛ على فصل العلم عن الدين وفصل الدين عن الدولة .

وقد عمل الفكر العربى جاهدا على رد كل الشبهات التى أثارها المبشرون والمستشرقون ودعاة التغريب من أن كلمة الاسلام معناها الخضوع والاستسلام ؛ أو أن الاسلام تاريخيا فرع من الديانة الاسرائيلية والمسيحية (فيليب حتى (ك) الاسلام فى نظر الغرب) وكشف عن أن الاسلام لا يعنى الاستسلام وأنه يختلف عن كلتا الديانتين .

٢ — جوهر الاسلام

وكشف الفكر العربى عن جوهر الاسلام فى أنه عقيدة ونظام، وأن مبادىء الاسلام وتعاليمه صالحة للمجتمع على اختلاف الزمان والمكان . وأن أركان العقيدة الاسلامية بسيطة قوامها التوحيد . وقد أقر الاسلام حقوق الحرية والاخاء والمساواة بين البشر ، وألغى العصبية وفوارق الاجناس والالوان والدماء ، وجعل أساس التفاضل بالعمل وحرم العصبة القبلية ودعا إلى الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ونشر المحبة بين الناس وحمل لواء الجهاد فى سبيل الدفاع عن العرض والأرض والوطن ونهى عن عبادة غير الله .

وتشمل الشريعة الاسلامية كافة التكليفات الشرعية العملية ، وتنظم العلاقات بين الناس فى الاسرة والمجتمع بما يحقق مقام مدنية فاضلة تقوم فيها العلاقات على دعائم ثابتة ودعا إلى الحج كمؤتمر اسلامى عام .

وقد نظم الاسلام المجتمع على أساس الخلق والتعاون والتكافل .

وأقام الاسرة على أساس المودة ونظم العلاقات بين الناس وفرض نظام الشورى فى الحكم،وأعلن احترامه للكرامة الانسانية والعدالة وعدم التفريق فى القضاء بين الغنى والفقير أو الأمير والسوقة ، وأعطى توزيع الأعمال بمقدار الكفاية ، وعالج الفقر بنظام العدالة الاجتماعية ، وجعل للفقير فى مال الغنى حقاً معلوما هو الزكاة تجمعه الدولة ، واوجب على ولى الأمر أن ينفق على الفقير العاجز ، وللقاضى أن يحكم له بما يكفيه من بيت مال المسلمين ، وأوجب على أهل كل قرية أن يقوموا بسداد حاجة فقرائها أن لم تكف الزكاة وأعطى المرأة حقها ومنحها حرية الارادة فى البيع والزواج والشراء ، وحث على طلب العلم وأقام الحكم العقلى فيه على أساس البرهان « قل هاتوا برهانكم » .

وقام الاسلام على قاعدة : لاضرر ولاضرار وعلى سد الذرائع وأعطاء الوسائل وأحكام المقاصد والغايات فكل ما أفضى إلى مباح فهو مباح ، وكما أباح أعطاء الظن الغالب حكم اليقين المجزوم به،وقرر تقديم العقل على ظاهر الشرع عندالتعارض ودعا إلى المساواة بين المسلمين فى الاحكام وكذلك بينهم وبين من له ذمة وعهد،فأن لهم مالهم وعليهم ما عليهم . وعمل على تقدير كثير من الاحكام بما تعورف به الناس وأعلن أن من اجتهد واخطأ فله أجر واحد ومن اجتهد وأصاب فله أجران .

— ٣ —

وكان « الاسلام » واسع الأفق فى لقاء الحضارة الغربية الحديثة وقد حرر الفكر العربى نفسه بفتح باب الاجتهاد قبل أن تصل طلائع الغزو الغربى فأن علماء القرن الثامن عشر قد دعوا إلى فتح باب الاجتهاد بعد أن ظل مغلقا فترة طويلة . واعادوا تفسير قوانين الاسلام وكشفوا عن وجه الاسلام الحقيقى بعد أن رفعوا الغشاء الذى خلفه الجمود والتقليد فى ظل الدولة العثمانية .

وكانت الحركات الوهابية والسنوسية والمهدوية ، وهى حركات منفصلة قامت فى الحجاز وليبيا والسودان علامات على وضوح مفاهيم الاسلام الحقيقيه من تحرير الفكر وتحرير الوطن فى نفوس دعاتها،قد عملت هذه الدعوات على التحرر من قيد التقليد والعودة بالاسلام أى منابعه الأولى وفى نفس الوقت قاومت الاستعمار التركى والغربى .

كما توافرت فى (الاسلام) خلال معركة المقاومة التى شنها على الغزو الثقافى والتدخل الاجنبى مرونة واضحة فى تقبل الحضارة ، وتمكين المجتمع الاسلامى من التطور والعمل للملائمة بين الحضارة وبين أسس القيم الروحية والفكرية العربية التى كانت أساساً ضرورياً لبناء المجتمع الجديد .

الإسلام في معركة المقاومة

بين التجديد والاجتهاد والاصلاح

ولقد اتجهت أفكار المصلحين ودعاة الاجتهاد والتجديد من قادة الفكر العربي إلى بحث قضايا الإسلام في مجال التطور ومواجهة الحضارة والاستعمار والغزو الثقافي وتناولت هذه القضايا بحث :

- لماذا تأخر المسلمون .
- هل يستطيع الإسلام تقبل الحضارة .
- ماهو الحد الذي يمكن أقتباسه من الحضارة .
- ما هو سبب الضعف هل الإسلام أم المسلمون .

وقد كشف الباحثون عن أن أكبر عوامل تقهقر المسلمين هو :

١ — فساد أخلاق الأمراء والملوك والحكام الذين أعطوا أنفسهم حرية التصرف على نحو أستبدادى لا راجع، على أساس مفاهيم مغلوطة بأن هذه الشعوب ليست الأخدم لهم ، وقد بلغوا في هذا غاية الظلم والعنف فكانوا يقضون على أي رجل حر يحاول أن يردهم عن استبدادهم أو يكشف عنه .

٢ — ضعف العلماء وتزلفهم للامراء ومحاولة تبرير تصرفاتهم والفتوى بقتل كل رأى حر بحجة أنه خرج عن الجماعة .

٣ — دعاة التغريب الذين يهاجمون كل قديم بما فيه الدين واللغة والتراث .

٤ — الجامدون من رجال الدين الذين قاوموا التطور والجديد على نحو من الجهل والتعصب . والنظر إلى الإسلام على أنه دين وعباده فقط ، وليس

نظام ومجتمع وحضارة . (شكيب أرسلان (ك) لماذا تأخر المسلمون) .

٢ — وكشف الفكر العربي من أن في نصوص الإسلام وتاريخه أدلة أكيدة على أنه « دين » يستطيع أهله أن يجدوا فيه كل مايتفق مع مظاهر الحضارة والمسايرة للزمن وتطبيق الاحكام مع ملاءمات الأحوال والظروف مع المحافظة على روح الدين ، وأنه ليس في الإسلام ما يمنعنا من أن نأخذ من حضارة الغرب ما ينفعنا ويلقح حياتنا باللقاح الجدد ، وأن الوسيلة إلى ذلك هو ظهور الرجال الذين يفهمون روح الدين بالعقل اليقظ العارف حاجات العصر وتيارات الحضارة (محمود الشرقاوى) وأيد الشيخ محمد مصطفى المراغى هذا الاتجاه حين أكد أن القرآن الكريم حث المسلمين حثا شديدا على طلب العلم وتدبر مافى الكون ، ودراسة جميع المعارف والتأمل والبحث فى الخليقة — وقال : أن للمسلمين أن يأخذوا جميع مافى الحضارة الحديثة من حسن لا يتنافى مع دينهم وأن يقتبسوا الرقى فى جميع النواحى العلمية والمادية وقد أكد التاريخ الإسلامى هذا المعنى بأن الإسلام لم يكن يوما ما عدوا للرقى وخصما للعلم وأنا لا أعتقد أن هناك قاعدة علمية صحيحة تنافى الدين الإسلامى » ا ه .

٣ — رسم المفكرون منهج الربط بين الإسلام والحضارة والنظر إلى الإسلام من الناحية العلمية : قال محمد فريد وجدى أن هذا أصبح من أشد الضرورات الاجتماعية نظراً لتمرد العقول على مالا يقوم على أسباب العلم الراهن ولا يوفى بشروط الفلسفة الوضعية .

٤ — كشف المفكرون المسلمون عن أن القصور والنقص إنما سببه المسلمون لا الإسلام ؛ وأن مبادىء الإسلام كانت على الزمن قادرة على مواجهة التطور والحضارة ، وأن الضعف الذى أصاب الأمة كان مصدره العوامل المختلفة التى تتصل بالجمود وأقفال باب الاجتهاد وغلبة البدع والقشور والتواكل وخطأ فهم عقيدة القضاء والقدر وقيام السلبية والفردية والترف والتخلف عن الزمن

نتيجة لغلبة الجهل والتوقف عن الكفاح وحماية الثغور وسيطرة الأمراء المستبدين والعلماء الجامدين والاستهانة بالعدو .

ولقد استغل الاستعمار بعض طوائف المسلمين كرجال الطرق الذين أزروا السلطات الاستعمارية فى شمال أفريقية والسودان .

أما الإسلام فى ذاته وجوهره فلم يكن عاملا من عوامل الضعف والقصور .

٥ — عارض المفكرون الغرب فيما وصف به التفكير العربى الدينى من أنه تفكير تجريدى، واستشهدوا فى ذلك بالاسلام وقالوا أن هذا الفكر رهن بالقواعد المرسومه شبيه بهندسة البناء العربية لاتحتوى صورة من صور الحياة الماثلة فى بنية الانسان وملامح وجهه » كما وصفه (روم لاندو) فى محاوره بينة وبين لطفى السيد (٢١ مارس ١٩٣٨ — الرساله) وقد رفض لطفى السيد هذا الرأى وقال« أن الفكر العربى أشد أيغالا فى الواقعيات من الفكر الأوربى . وهذه شريعتنا الدينية التى أستشهدت بها على نزعته التجريديه تتناول شؤون الحياة اليومية ولا تقتصر على مسائل اللاهوت والاخلاق كما هو الحال فى الشريعة المسيحية، وهى تقضى بالوصايا فى أمور المعيشة والزواج والميراث وأحسب أننا أقرب إلى معرفة الحقيقة حين ندرس (المخيلة المسيحية) بتصور السماء والفردوس . أما المسلمون فكيف تراهم يتخيلون السماء ! أنها دار حقيقية فيها اللبن والعسل والمسجد وفيها الأشجار والأزهار والحور العين » ١٠ .ه

الجماعات الإسلامية

وقد اتجهت مقاومة حرب الاسلام إلى أعمال إيجابية متعددة كان أبرزها قيام الهيئات الاسلامية للدفاع عن الدين . كما طالب المفكرون بمحاربة البغاء وتطهير الاخلاق والدعوة إلى أن يكون الدين مادة أساسية فى جميع مناهج التعليم . وكان الشيخ محمود أبو العيون فى مقدمة هؤلاء الدعاة .

وقد كانت جمعية الشبان المسلمين من أبرز هذه الأعمال التي تجمع فيها دعاة الاصلاح والمقاومة وقد تفرعت منها جماعات أخرى كالانصار والأخوان المسلمين ومصر الفتاة والتعريف الدولي بالاسلام والكفاح لتحرير الشعوب الاسلامية .

وقد واجهت (الشبان) أحداث العالم الإسلامي وأصبحت ملتقى رجال العروبة والإسلام وحركات التحرر في العالم العربي والإسلامي وكانت جبهة دفاع قوية الأثر في مواجهة حركات التبشير والالحاد والتغريب ومعارك الإستعمار في فلسطين وشمال أفريقيا وسوريا والجزائر ، وأبدى المشرق ، كاميفمار اهتمامه بما وراء هذه الحركة من خطر وأثر في المستقبل ، ووصفها المستشرق جب بأنها أكبر دلالة على التنظيم الجديد في الحياة الاجتماعية والعقلية في العالم الاسلامي ، وقد سلكت الجمعية إلى أهدافها في تربية الشباب الاسلامي العناية بالخلق والرياضة كوسيلة إلى القوة وكمال التكوين على أساس أن القوة مطلب أساسي في الاسلام لدفع الاعتداء وأرهاب العدو واحتمال مطالب الجهاد، واستخدمت لهذا الغرض الخطابه — والمحاضرة والصحافة وكتابة الابحاث والمقالات وقد كان للسيد محب الدين الخطيب الفضل الأول في تأسيس هذه الجماعة ودفعها إلى الأمام وأن لم يظهر عمله موسوما باسمه إذا كان يفضل أن يرسم الخطط ويقف وراء منفذيها

فقد روى محمود محمد شاكر (الفتح مجلد ٦ — ١٣٥٣) أنه في ربيع الأول ١٣٤٦ زار مكتب محب الدين الخطيب في المطبعة السلفية الشيخ محمد الخضر حسين وتحدثا عن اجتماعات الشبان المسيحية التي تدعو رجالا ليحاضروا فيها ومن بينهم رجل من رأية أن يحمل القرآن موضعا للتهكم والشك ثم التقى بهما عبد السلام محمد هارون وقد بدأ التفكير في إنشاء جماعة للشبان المسلمين . وقد جمع محب الدين الخطيب بين رجلين هما أحمد تيمور باشا ومحمد الخضر حسين وضمت في مجلسها الأول : محمود الخضيري . محمود محمد شاكر ، هارون . محمد خلاف . محمد أبو الفضل أبراهيم . توفيق أحمد. محمد القاضي، كمال اللبان ، عبدالفتاح كيرشاه . مصطفى محمود

القاضى ، زكى القاضى واشترك فيها عبد العزيز شاويش والمهياوى وأحمد أبراهيم ومحمد أحمد الغمراوى والدكتور يحيى الدرديرى والدكتور على مظهر ومحمود على فضل وأختير عبد الحميد سعيد رئيسا لها .

وقد كان أبرز مافى هذا العمل الايجابى الضخم أنه أول تجمع لمقاومة الالحاد وخصومة الغرب الفكرية للاسلام ، وكان أبرزمافى هذا التجمع أنه ضم مجموعة من الشباب المسلم المثقف الذى ورد جامعات أوربا وأحرز أرقى درجات جامعات لندن وفينا وغيرها . وقد هذا أبلغ رد على المثقفين الذين كانوا يحملون لواء الدعوة إلى التغريب ويهاجمون الاسلام ويدفعون الفكر العربى إلى مهاوى الحيرة والشكوك باذاعة الآراء الالحادية والدعوات الاباحية كتلاميذ وأتباع للمستشرقين والمبشرين ومؤازرين للاستعمار وعملاء للغزو الثقافى ، ولا شك أن الجماعات الأخرى التى تفرعت عن الشبان المسلمين كنواة أولى للتجمع الفكرى كان لها دورها فى العمل للاسلام فى الفترة التالية لهذه الفترة التى نؤرخها مما ليس مكان بحثه هنا ، وقد أبرزت جماعة الشبان المسلمين دورها فى « الأخذ من محاسن حضارتى الشرق والغرب وترك مافيها من مساوئ . غير متكلفة ولا معزولة عن الماضى الصالح والحياة المصرية النافعة لتقضى فى ذهن الشاب المسلم على الفهم المخطىء لحياة التدين من أنها حياة الجمود على القديم ولو كان فاسدا والتغلب على الحديث ولو كان صالحا . والانفصال بين التفكير فى الدنيا والدين والانعزال عن تيارات الحياة ومصارعتها وسوء الظن فيها والرهبة منها ؛ فقد آمنت الجمعية (ص ١٥ من (ك) ٣٠ عاما من حياة الشبان المسلمين) من أول يوم بأنه لا نهوض للمسلمين ألا بالحرص على الباقيات الصالحات من حضارة الشرق ومواريثه والحرص على اقتباس كل ما هو نافع مفيد من حضارة الغرب التى فيها من العلوم والفنون والآداب والأعمال ماجدد الحياة وأضاف إليها عجائب كثيرة وجعل المتخلفين عن الأخذ بها حكموا عليهم بالضعف والضياع . » ا . هـ

ترجمة معانى القرآن

كانت فكرة «ترجمة معانى القرآن» التى حمل لواءها محمد مصطفى المراغى شيخ الأزهر منذ عام ١٦٢٨ من أعمال مقاومة الغزو الثقافى والتغريب . ذلك أن الغربيين كانوا قد ترجموا القرآن منذ منتصف القرن الخامس عشر (١٤٥٧) من طريق المبشرين وتوالت الترجمات التى بلغت ٣٤ ترجمة، وهى ترجمات مغلوطة محرفة ناقصة فى بعضها ومزيدة فى الأخرى . وقد أنتشرت هذه الترجمات فى مختلف أنحاء العالم على أنها ترجمة حقيقية للاسلام ، وقد أستعملها بعض من لا يعرفون اللغة العربية، ولما كان فى ذلك من الخطر ما فيه على مفاهيم القرآن وبلاغته فقد كان لا بد من القيام بعمل من هذا النوع لترجمة « معانى القرآن » ترجمة صادقة .

وقد جرت معارك فكرية طويلة ١٩٣٢ و ١٩٣٥ و ١٩٣٦ حول ما إذا كانت الترجمة للقرآن هى ترجمة كاملة أم ترجمة معانى القرآن؛ وقد ذكرت مشيخة الأزهر (١٦ / ٤ / ١٩٣٦) أن تراجم القرآن إلى مختلف اللغات الأعجمية قد شاع فى هذا العصر وأن بها أخطاء وأغلاط شائنة تتنافى مع ما جاء فى الدين الإسلامى الحنيف وهى من أجل ذلك قد أنشأت قسما خاصا من مجلة نور الإسلام واستقدمت الإخصائيين فى اللغات الذين ناطت بهم ترجمة تفسير بعض الآيات وأخذت من تفسير الالوسى والبيضاوى وغيرهما من التفاسير .

وأشارت إلى أن المراد من ترجمة معانى القرآن الكريم هو « بسط هذه المعانى تبسيطا محكما وتفسيرها تفسيراً دقيقاً على أن تترجم المعانى بعد ذلك؛ وقالت أن القرآن لفظ عربى معجز وله معنى ، أما نظمه العربى المعجز فلا سبيل إلى نقل خصائصه لأن هذا مستحيل استحالة قطعيه .

ودعا محمد فريد وجدى إلى ترجمة القرآن ترجمة صحيحة كاملة ، وذلك حتى يكون بنجوة من تحريف المحرفين وقال أن هذا العمل خير من أن يترك للمترجمين من متعصبة الأمم يحرفونه ويشوهون معانيه .

ونعى فريد وجدى على إصرار بعض العلماء على حبس الإسلام فى دائرة العربية التى لا يحسن فهمها غير أهلها وتجريده من الأسلحة العالية وهى اللغات الحية للدفاع عن نفسه ، وقال أن وضع القيود غير المعقولة فى مسألة نقله يقضى عليه بهزيمة منكرة تقع نتائجها علينا وعلى أعقابنا قرونا طويلة ومعناه صده عن الجولان فى الدورة الفكرية العالمية مع غيره من كتب الأديان وأسفار المذاهب .

وقال : أن الاكتفاء بترجمة تفسير لا يؤدى الغرض المطلوب من نشره ، لأن المفكرين فى العالم يحبون أن يتأملوه عاريا من زخرف التفاسير والشروح وألوان الآراء والأفهام لمعرفة قيمة الذاتية .

وقال أن كل مايخشى منه أن يوكل أمر البت فى هذا الشأن لمن لا يعرفون لغات أجنبية فيخيل إليهم أنها لغات بربرية تخلو من جميع الزخارف اللفظية والمعنوية التى توجد فى العربية ؛ وقال أن تعطيل القرآن عن الترجمة الحرفية والزج به فى معترك الافهام إلى اليوم قضى عليه بأن لا يكسب أنصاراً من الأمم الغربية فصار قاصرا على الأمم الشرقية التى رضيت أن يكون حظها من دينها كحظ الببغاء .

وأشار إلى حركة الاتراك التى أثرت فى العالم العربى أعظم تأثير وأبلغه وزاد اعجابه بها عند أقدامهم على كسر هذا السياج الفولاذى الذى وضعه المتأخرون أمام ترجمة القرآن مع جوازه فى أقدم المذاهب الفقهية (٢ / ٧ / ١٩٣٢ الأهرام) .

وقد عارض ترجمة معانى القرآن كثيرون فى مقدمتهم الشيخ محمد سليمان وكيل المحكمة العليا الشرعية الذى وصفها بأن وراءها غرض استعمارى هو القضاء على القرآن تمهيداً للقضاء على الاسلام وتابعه محمد الهيهاوى وعارضها كذلك الشيخ الظواهرى وكان الخلاف سياسيا فى الأغلب .

ومما يذكر أن أول ترجمة للقرآن كانت باشارة بطرس فيزابلس رئيس كنيسة كلنيه وقد تمت ١١٤٣ م وظلت مختفيه نيفاو أربعمائه سنة حتى طبعت

١٥٤٣ ونقلت بعد ذلك إلى الإيطالية والهولندية . وترجم القرآن إلى الفرنسية وطبع ١٦٤٧، ولم تكن ترجمة صحيحة وبها نقص وزيادة، وترجم إلى اللغة الألمانية ١٦١٦ والهولندية ١٦٢١ والروسية ١٧٧٦ والايطالية ١٥٤٧ والانجليزية ١٧٣٤ والعبرانية ١٦٣٤ والآرية ١٧٩٠ والفارسية ١٨٣١ والجاوية ١٩١٣ والبنغالية ١٩٠٨ والتركية ١٩١٣ .

وقد أعلنت ترجمات متعددة للمستشرقين والمبشرين من الأوربين وكلها ترجمات تفسيرية وليست كاملة .

ومما يذكر أيضا أن القرآن ترجم فى عهد هشام بن عبد الملك إلى اللغة السريانية (لغة الحضارة فى ذلك العصر) ويوجد فى متحف لندن المجموعة الخطية التى وهبها أدوار كاربورى فى ٥٠ ألف مجلد وتشمل ترجمة قديمة للقرآن منذ ٦٩٠ م وبها أيات كاملة ليست من القرآن .

الخلافات بين المذاهب الإسلامية

كان الخلاف بين المذاهب الاسلامية من العوامل التى استغلها الاستعمار فى معركة الغزو الثقافى والتغريب . فقد حرص على أن يثير الخلافات بين هذه الطوائف حتى يؤكد الفروق ويعمق التفرقة،وقد كانت أبرز هذه الخلافات التى أثارها الاستعمار .

× بين السنة والشيعة .

× بين السنة والمتصوفة .

× بين السنة والوهابية .

بين السنة والشيعة

حرص المبشرون والمستشرقون على دراسة المذاهب المختلفة فى الاسلام فيما سوى مذهب السنة ، والاهتمام بها والتوسع فيها ، وكانت الشيعة من أهم هذه الابحاث . وبالرغم من أن الشيعة الأثنى عشرية والزيدية هى وحدها الموجودة الآن فى العالم العربى،فإن هؤلاء الكتاب بما يحملون من روح الحقد والرغبة فى بلبلة الأفكار وتصوير المذاهب بصورة مثيرة ، قد خلطوا بين هذين المذهبين المتدلين وبين مذاهب الاغاخانية والحلول بقصد أثارة خلافات قديمة بائدة . وهم يهدفون من نشر مثل هذه الابحاث فى العالم العربى أثارة السنيين على أخوانهم الشيعة دون أن يكون هنالك ما يكشف بعض المغالطات والاخطاء المتعمدة .

وقد حرص الاستعمار فى معركة الغزو الثقافى والتغريب إلى أحتضان كل الفرق كالاحمدية والبابية واستغلالها فى أثاره الفتنة بين المسلمين والتشكيك فى المعتقدات

الدينية وتوسيع دائرة الخلاف، وذلك رغبة فى تعزيز الوحدة الفكرية والدينية كجزء من خطة التجزئة الشاملة للفكر والوطنية واللغة والدين .

وقد اثارت أسباب هذا الخلاف عدة مرات نتيجة لكتابات مختلفة كتبت من جانب واحد وحجب الجانب الآخر ، وقد جرت الدعوة فى هذه المناسبات إلى العمل على تقريب وجهات النظر بين السنة والشيعة فى العراق وسوريا ، وحرص الأزهر على أن يشترك فى بحث منشأ الخلاف والطرق العملية لازالته . وكتب محمد رضا المظفر من علماء النجف إلا شرف (الرسالة م ٣ ص ١٦١٢) يقول نحن نفهم من كلمة (الشيعة) إذا قلناها الأمامية الاثنى عشرية خاصة، لأنهم الاكثرية من بين فرق شتى وذو المؤلفات والمعارف التى يقال عنها مؤلفات الشيعة ومعارفها ، ولأنهم اليوم شيعة العراق وسوريا وإيران والأمارات العربية على الخليج الفارسى والهند وافغانستان . وهناك الزيدية فى اليمن والبهرة فى الهند . أما الفرق الآخرى فقد أصبحت فى خبر كان ولا يعرف لها أثر .

وقال : أن الخطأ هو الصاق عقائد تلك الفرق البائده بعامة الشيعة (الشيعة بالمعنى المفهوم اليوم) وهذا ما يثير غضب الشيعة الأحياء من غير حاجة تدعو ولا ضرورة .

وأشار إلى أن الفرق التى وصفت بالمرجئة والغالية والمجسمة والمجبرة والسبكية وغيرها مما أوردة الشهرستانى فى كتابه الملل والنحل قد أنتهى وقال : أن كل ما عند الشيعة أنها تتمسك بعترة الرسول صلى الله عليه وسلم ، ولكن ليس كعقيدة موالاه فحسب . وإنما تعنى من التمسك بهم أن تأخذ باقوالهم فى أحكام الفقة وترجع إليهم فى دين الاسلام وتدلل على أن ما جاء به النبى ورثوره عنه وعلم مكنوز لديهم وهم أمناء عليه معصومون » .

وأشار إلى أن هذه الخلافات قد بذرتها السياسة لأغراضها فى زمن بعيد بيننا أبناءه فلا يصطدم بآراء أفراد لا نعرف منهم كثيرا .

وقد أشار محب الدين الخطيب إلى أن الخلاف بين أهل السنة والشيعة هو خلاف جوهرى وأن ابرز هذا الخلاف هو أن الشيعة الاثنا عشرية يدعون العصمة لأمير المؤمنين «على» واحدعشر رجلا من سلالته [وإن لم يدعها «على» لنفسه أو واحد من بنيه] وقال الخطيب: أن النبى وحده هو المعصوم فى هذه الأمة ولا معصوم فيها غيره وهو وحده مصدر التشريع وأصحاب رسول الله هم حملة شريعته وأمناؤها الذين أدوها إلى الأمناء بعدهم .

وأشار كثير من الباحثين بأن الخلاف بين السنة والشيعة ينصب على ثلاث مسائل (١) الرجعة (٢) وزواج المتعه (٣) عصمة الأئمة [وأن هذه جميعها مسائل فرعية فمادام الاختلاف لا ينصب على أصول الدين ومبادئه الاساسية كالوحدانية والنبوة وفرضية الصلاة والزكاة والصوم والحج والتصديق بالميعاد والقبلة والقران فأن خلاف ذلك يعد من المسائل الفرعيه التى لا يضير الخلاف فيها .

بين السنة والوهابية

وقد أستغل الاستعمار والغزو الثقافى والتغريب الخلاف بين أهل السنة والوهابيين ، وكان هذا منذ وقت بعيد ، عندما أغرت السلطة العثمانية محمد على بالوهابيين فى فجر دعوتهم فقامت تلك المعارك الضخمة التى قضت على القوة الجديدة التى كانت تحاول أن تحرر الاسلام من البدع والخرافات حول العقيدة الأصلية . وقد كانت هذه الدعوة تحمل فى ثناياها العمل بمفهوم الاسلام لتحرر الوطن الاسلامى من الاستبداد العثمانى والنفوذ الاستعمارى الغربى الذى كان قد استفحل فى هذه الفترة .

ولقد أستطاعت الوهابية أن تعود إلى قوتها فى مطالع القرن العشرين عندما سيطر الملك عبد العزيز أل سعود عام ١٩٠٢ على الرياض عاصمة ملك آبائه « نجد » حينئذ عادت الوهابية إلى قوتها وحياتها، وقد استطاع فى خلال ربع قرن من السيطرة على مكة والمدينة وفرض مذهب الوهابية على هذه المنطقة حيث هدم المزارات والقباب ، ومضى ليضرب حدود العراق وسوريا ويهاجم ، زارات الشيعة فى العراق وحدود الأردن .

ومنذ ذلك الوقت بدأ خلاف بين السنة والوهابية ، أو بين الطوائف التى تؤمن بالاسلام إيمانا وراثيا تقليدياً وبين الدعوة إلى تحرير الدين من زيوفه . . .

وقد كان « محمد عبده » من أنصار الدعوة إلى تحرير الاسلام على النحو الذى دعا إليه « محمد بن عبد الوهاب » ثم ظل الصراع قائماً فى الأزهر وخارجه حول المذهب التقليدى والمذهب الوهابى حتى عاد « محمد مصطفى المراغى » إلى حمل لواء الدعوة إلى علاج أمراض العالم الاسلامى وتحرير العقيدة .

وقد حدثت عام ١٩٣٧ اجتماعات متعدده حول توحيد المذاهب بين السنة والوهابية فى مصر على أسس خمسة .

(١) الحرية الفكرية وفتح باب الاجتهاد (٢) القبور والاضرحة وأشمال المسارج وزيادة المقابر (٣) النذور وطريقة التصرف فيها (٤) الاستغاثه والحلف بغير الله (٥) البحث فى تقرير أن العلم لا ينافض الدين .

وقد طلب أحمد شفيق المؤرخ إلى الملك عبد العزيز أبطال الرق فى الحجاز وقال « أن الرق الذى هو بها الآن فى الشرق ليس من الشريعة الحنيفية فى شىء » .

وكان الوجه الثالث الخلاف هو الخلاف بين أهل السنة والصوفية ، أو بين الفقة والتصوف . ولقد كان للطرق الصوفية دوران واضحان لا سبيل إلى أنكارهما : الدور الأول هو استغلال الاستعمار لهذه الفرق لخدمة أغراضه والدور الثانى هو ما قام به المتصوف المسلم فى قلب أفريقيا من الدعوة للاسلام ونشره على نحو عجزت عنه قوى التبشير الضخمة المؤيدة بمال وجاه الدول المستعمرة .

وفى مصر فى أبان الاحتلال البريطانى كانت الطريقة الدمرداشية التى يرأسها عبد الرحيم الدمرداش تحظى برعاية الاستعمار . وقد حرصت الصحف الدائرة فى فلك التغريب أن تدعو لها وتحميها وتصورها بصورة العمل النافع .

وفى السودان وفى المغرب كانت بعض الطرق الصوفية أداة من أدواته وقد قام عبد الحميد بن باديس فى الجزائر ومحمد عبده وغيرهم من أهل الفهم الصحيح للاسلام إلى مقاومة هذا التيار الخاضع للاستعمار .

وقد صور محمد عبده الطرق الصوفية بأنها : هذه الفئات التى تتكون « من خليط من الناس جمعتهم وحدة الفرار من الدنيا وحب الكسل والابتعاد عن أى عمل يعود على الانسانية بالنفع ، وهم أما فاشل عجزت نفسه عن السير فى طريق الحياة والأخذ بالأسباب والمسببات . وهم أما مسخ مشوه منبوذ فى المجتمع وأما طريد من طرداء العدالة أراد أن يتستر وراء هذا المظهر الخادع حتى يفلت من القصاص . وإما أبله قد ألقى فى روعه أنه حبيب الله وصفيه وقد وجد لهؤلاء أنصار وعبذون يؤيدونها وينشرونها بين الجماهير فيخدرونهم بخدرهم السام ، وهم يلقون فى روع الناس أن الحياة الدنيا دار فناء ويأخذون فى ذمها وتنفير الناس من العمل السليم ومما يؤثر عنهم قول العامة أن الرزق ليس بالشطارة وأن المجتهد قد لا يكون له نصيب

من الحياة وأن الخامل قد يصيبه الجد فيها وأن الدنيا دار فناء والزهد خير من التمسك بها . . . . . » . ا . هـ

ومما يذكر فى هذا الصدد أن الاستعمار قد أفاد من جموع الصوفيه فى رسم صورة مزرية للشعوب التى احتلها ، وقد نشرت الصحف أن ١٨/٤/٣١ احتفالا فى تكية المولوية بالحلمية الجديدة قد حضره الاجانب من فرنسيين وأمريكان والمان وانجليز وثلاثة وزراء مفوضين . وقالت أن الدراويش قاموا وانتظموا فى حلقة الذكر المستديره وأخذوا يذكرون الله . وكلما احتدم الموسقيون فى عزف الأناشيد رايت الدراويش قد احتدوا فى اللف والدوران على نحو بديع » .

وقد كانت تنقل هذه الصورة إلى أوربا على أنها هى صورة « الاسلام » وقد ظهرت فى خلال فترة سيطرة الاستعمار على العالم العربى عديد من الطرق التى لم يكن لها هدف سوى خلق روح القدرية والنكوص عن الجهاد ومخالفة مفاهيم الاسلام فى الحرية والجهاد ، أما السنوسية والمهدوية فقد آمنت بمفاهيم الاسلام وقامت دعوتهما على أساس تحرير الوطن من الاستبداد العثمانى ومقاومة النفوذ الاجنبى وجهاد المهدوية ضد الإنجليز وجهاد السنوسية ضد أيطاليا معروف .

وقد صور « أحمد توفيق المدنى » ماتطورت إليه الزوايا الصوفيه فى الجزائر بعد الاحتلال الفرنسى (ك/الجزائر — ١٩٤١) حيث « انقلبت الزوايا بعد مؤسسيها الأولين إلى معاهد خرافات وأباطيل تستثمر غفلة العامة وبلههم فتنال منهم مال السحت الذى يدفعونه بصفة نذور وينفقه رجال الزاوية على ملاذهم وملاهيهم ومنكراتهم ، وآل أمر الكثير من هذه الزوايا والطرق إلى أحداث وثنية فى الاسلام وأصبح شيخ الطريقة يتصف بأوصاف (الربوبية) فهو الذى يعطى ويمنع ويقبض ويبسط ، وتطور الأمر إلى أقامة حفلات مؤلمة فى مواسم معينة بقصد جلب

السواحين ، يقومون بدور المهرجين فى الملاعب ، والأوربيون يعتقدون أن ذلك هو عين الاسلام ، هذه المنكرات الدنسة جعلت المتنورين ينفرون من الاسلام وينبذونه، ولذلك فقد قامت فى الجزائر حركة أصلاحية جسيمة ضد هذه المنكرات على راسها «الطيب العقبى» الذى كرس حياته وكتاباته لدحض مفتريات المفترين» .

وأشار «علال الفاسى» فى كتابه «المغرب العربى» عن دور الطرق الصوفية فى مراكش قال « أن الدعاية الفرنسية جندت فى الشمال الأفريقى قسما كبيرا من مشايخ الطرق الصوفية الذين أعتادوا أن يعملوا لمصلحة رجال الحكم أو الذين خلقتهم الادارة الفرنسية لتسخيرهم فى أعراضها فأشتغل محمود التيجانى فى الجزائر وعبد الحى الكتانى فى المغرب وابن عزوز فى تونس دعاة متحمسين للسياسة الفرنسية .

وقال : أن الطرق الصوفية كان لها أثر كبير فى المغرب العربى ولكن تدهور الأمل وتغلغل الفوضى الاجتماعية فى معظم القبائل قلب هذه الطرق إلى منظمات يشرف عليها فى الغالب انتفاعيون نصبوا أنفسهم ليكونوا الوساطة الفعالة بين الحكومات المحلية وبين الشعب، فكانت السلطة لا تستطيع حفظ الامن ولاجبى الضرائب ولا تعبئة الجيوش إلا عن طريق هؤلاء الذين يدعون أنهم يشفقون عليها من بركة نفوذهم مايسهل عليها تحقيق أغراضهم ، وقد سار هؤلاء المشايخ يتجولون فى القبائل والمدن يبشرون بسقوط الالمان وبشاعة حكم الاتراك وينوهون بقيمة العمل العظيم الذى تقوم به فرنسا وانجلترا فى الشرق العربى . »

ومما ذكره علال الفاسى أن فرنسا اتجهت إلى إنشاء خلافة إسلامية فى أفريقيا الاسلامية تحت حكم سلطان فرنسا .

• • •

ومما يتصل بهذا أن المسلمين الذين تيقظوا إلى خطر هذه الفرق على حركة التحرر قد فطنوا أيضاً إلى مفاهيم الاسلام الحقة التي تحرفها الطرق الصوفية على النحو الذي صوره الشيخ محمد عبده من الدعوة إلى التواكل والقدرية وتنفير الناس من العمل ، وتحت هذه المفاوتين يمكن دعوة الناس إلى قبول الاستعمار والرضى بالحاكم المستبد وقبول الغزو الاجنبي ، وهذا مايختلف اختلافاً بيناً مع ما دعا إليه الاسلام من الجهاد ومقاومة الغاصب واليقظة والسعي في الأرض واقتحام مجاهل العلم وكشف قوى الطبيعة والعمل المتصل .

ولا شك أن الطرق الصوفية في مذاهبها هذه تختلف اختلافاً واضحاً عن مذهب « التصوف العقلي أو الجسدي الذي دعا إلى رياضة النفس على قمع الشهوات ورفض الدنيا . فأن هذا المذهب من شأنه ان يدفع المسلم إلى الجهاد في سبيل الله مفطومة نفسه عن كل لذة أو متعة تصرفه عن هذا الجهاد ، مؤمنا بالاستشهاد في سبيل الحق الذي يؤمن به حيث يرى الدنيا لا تغريه ، وهذا هو الفهم الصوفي الذي فهمه المجاهدون من المسلمين في الصدر الأول ، أما الزهد بمعنى الانصراف عن الدنيا فهو ليس مذهبا في الاسلام .

وقد حرص دعاة التغريب من المبشرين والمستشرقين وأعوانهم من كتاب الغرب إلى البحث في الصوفيه وأثارة مذاهبها ودعاواها والحديث عن المتطرفين من دعاتها أمثال :السهروردي وابن عربي والحلاج وعبد القادر الجيلاني،وهم في ذلك إنما يهدفون إلى بلبلة الفكر العربي وأثارة مذاهب الحادية ومعقدة يقصدون من ورائها تصوير الاسلام بصورة غير صورته البسيطة السهلة ،ومن ذلك مذهب الحلول ووحدة الوجود و « الشريعة والحقيقة » وغير ذلك من مذاهب كلامية لم تكن أصلا من الاسلام وإنما دخلت عليه من الفلسفات المسيحية والهندية واليونانية .

دعوة الاجتهاد

حمل الفكر العربي المعاصر لواء الدعوة إلى فتح باب الاجتهاد والعودة بالدين إلى منابعه الأولى كخطة لمقاومة حملات التغريب والغزو الثقافى وكوسيلة لأشاعة اليقظة والتحرر من قيود التقليد التى كانت عاملا أساسياً فى تجميد الفكر خلال حكم العثمانيين .

وكان محمد بن عبد الوهاب أول من حمل هذا اللواء متأثرا بدعوة أحمد بن حنبل وابن تيميه . غير أن الوهابية لم تستطع أن تحرز المدى الواسع الكفيل باندفاعها ، ثم جاءت دعوات من بعد حملت هذا اللواء وانطلقت به إلى أقاليمها . كالمهدوية والسنوسية وغيرها ؛ غير أن جمال الدين الأفغانى كان أقوى من حمل هذا اللواء إلى العالم الاسلامى كله فى كلماته القليلة وكتاباته النادرة ، وفى مصر حمل اللواء من بعده محمد عبده ورشيد رضا والمراغى ، وتأثرت خطاه الشام فظهر بها الكواكبى والمغربى والعراق فظهر بها آل الالوسى وفى المغرب برزت الدعوة إلى السلفية واحتلت حيزا كبيراً من الفكر العربى كسلاح قوى لمقاومة الاستعمار والتغريب والغزو الثقافى والتبعية الثقافية للغرب .

رأى الشيخ محمد عبده

ويرى الكثيرون أن محمد عبده هو عماد التجديد والاصلاح الدينى فى العصر الحديث (محمود الشرقاوى — ١٥/١/٣٦ — البلاغ) فقد وضع فى كتابه (الاسلام والنصرانية) القاعدة حيث قال :

« عند النظر فى أى دين للحكم له أو عليه فى قضية من القضايا يجب أن يؤخذ ممحصا مما عرض عليه من بعض أهله أو محدثاتهم التى ربما تكون قد جاءتهم من دين آخر ، فإذا أريد أن يحتج بقول أو عمل لاتباع ذلك الدين فى بيان بعض أصوله فليؤخذ فى ذلك بقول أو عمل أقرب إلى منشأ الدين ، ومن تلقوه على سذاجته من صاحب الدين نفسه » .

ومن أراء محمد عبده فى تعليم المرأة وتعدد الزوجات يقول « أن الإسلام يقرر المساواة بين الرجل والمرأة فى جميع الأمور الجوهرية ، وأن الإسلام لاتتجلى محاسنة باعتباره دين أنزل للناس كافة فى شىء أكثر مما يتجلى فى تكريمة المرأة والاعتراف بما لها من مقام . »

ويرى أن تجويز تعدد الزوجات فى الاسلام كان لضرورات اجتماعية جعلته محتوما، على أن هذه الاباحة قد شرطت لها شروط ، واحيطت بتحفظات هى مستحيلة استحالة عملية ؛ وأن الزواج بواحدة هو الأصل وهو المثل الأعلى فى الحياة الزوجية.

ويرى محمد عبده فى مجال الاجتهاد أن للأمام أن يمنع المباح الذى تترتب عليه مفسدة ما دامت المفسدة قائمة به والمصلحة بخلافه ، وعند محمود الشرقاوى : أن الشيخ محمد عبده يرى أن الشريعة ليست شيئاً جامداً لا يتحول بتحول الزمن والمصلحه بل هى مطاوعة لذلك دائرة على منفعة الناس .

رأى رشيد رضا

ويرى رشيد رضا (٢٠ فبراير ١٩٣٦ — البلاغ) لتجديد قواعد الشريعة بعد الرجوع إلى بساطتها الأولى: أن يقوم علماء المسلمين بتأليف كتاب جامع لكل العقائد والمبادىء الأدبية التى أجمع عليها المسلمون فى مختلف الفرق ، وأن ينقل هذا الكتاب الذى يعد دستوراً إلى كل اللغات التى ينطقون بها على أن يكون على قدر كبير من المساحة والتوسع .

أما ما وقع فيه الخلاف فى صدر الاسلام فهو غير واجب ، ويترك فيه الأمر إلى التخيير ، وكذلك مسائل الفروع يترك لكل مسلم أن يتبع فيها المذهب الذى يختاره .

وعنده أن توحيد العقائد بهذا الدستور سيؤدى بمرور الزمن إلى تخفيف حدة التعصب لمذهب معين .

ويرى أنه بالنسبة لأحكام المعاملات والأمور الخاصة بالحياة والدنيا ومعايش الناس ينبغى أن تكون مستقلة عن الدين وألا تعد جزءا من قانون مقدس لا يتبدل إلى الأبد ولا يتغير ، بل يحكم فيها العرف على اختلاف الزمان والمكان .

ويرى أن طبيعة الاستمرار والجمود التى أوجدتها كتب المذاهب الأربعة المشهورة وأوجدها أقفال باب الاجتهاد كان لها دخل كبير فى تأخر البلاد الاسلامية وعدول بعض الدول الاسلامية عن أتباع أحكام الشريعة .

ويرى مصطفى المراغى أن الموجة التى طغت على الشرق من الغرب ضد التدين أخذت تضعف وأخذ الشرق يدرك ضرر التقليد فى كل شىء ويدرك أن قوة الغرب وتفوقه لم يكن بهذه المسائل التافهة من التبرج والأناقة واختلاط الجنسين بل قامت على العلم والخلق ومجد الوطن »

موقف التغريب إزاء

الفقه والتشريع الإسلامى

كانت معركة الإسلام الكبرى مع التغريب هى مواجهة الادعاء بأن الاسلام دين عبادة وصلوات وطرق صوفيه وأن القرآن كتاب يقرأ للبركة ، وأن الإسلام بذلك يجب فصله عن الدولة .

وقد حاول التغريب ودعاته تأكيد هذه النظرية الخاطئة فى كل بلاد العالم العربى والاسلامى بواسطه أجهزتهم المختلفة من صحافة وكتابة وجامعات ومحاضرات وأبحاث وذلك حتى يتم القضاء على الإسلام كنظام ومنهج اجتماعى وسياسى كامل .

والواقع كما يقول (نبيه أمين يونس) وهو أحد المفكرين العرب المتصلين بدوائر الغرب (ك : هذا العالم العربى (ص ٤٦) أن الإسلام نظام تام شامل لمتطلبات الدنيا والآخرة ، وهو دين يبين علاقة الإنسان بربه ، وهو نظام اجتماعى يحدد شكل الأسرة وعلاقة الأفراد بعضهم ببعض ، وسلوك الأفراد فى معاملاتهم الدنيوية ، وهو نظام سياسى وتشريع مدنى يبين شكل الدولة وعلاقة الحاكم بالمحكوم وهو إلى ما تقدم علم ومدنية وتاريخ » وأنه لهذا كان بعيد الأثر « فى توحيد العرب والمسلمين عاطفياً وربطهم بوحدة المثل الأعلى وجمل النظم الإجتماعية والفكر متشابهة » .

وقد أشار جب إلى أن « التغريب » استطاع أن ينزل الاسلام من فوق عرشه فى أنظمة الحكم والاجتماع والاقتصاد والتربية والتعليم .

وكان أهم ما دعا إليه الغربيون فصل العلم عن الدين وفصل الدين عن الدولة ،

وفى مجال الفقه الاسلامى أسقط الاستعمار النظم الاسلامية والقوانين القائمة وفرض بدلا منها الأنظمة والقوانين الأوربية المستمدة من الشريعة اليونانية والمسيحية دون النظر إلى وجه الالتقاء أو الخلاف أو الحاجة .

وأثار فى ظل ذلك حملة ضخمة على الفقه والتشريع الاسلامى متهما أياها بالقصور وعدم القدرة على الاستجابة والتطور .

غير أن هذه الحملة قد تحطمت على صخرة عاتية ، فقد عقدت مؤتمرات قانونية عالمية أشادت بالشريعة الاسلامية ،كان أبرزها مؤتمر القانون المقارن فى لاهاى عام ١٩٣٢ الذى أكد مركز الشريعة الاسلامية كمصدر للتشريع بعد البيانات والأبحاث التى قدمها الدكتور عبد الرازق السنهورى وعلى بدوى ومسيو لامبير وكان من نتيجه هذه الأبحاث أن قرر المؤتمر بالاجماع أن «الشريعة الاسلامية مصدر من مصادر القانون المقارن . وهى حية صالحة للتطور ومسايرة المدنية الحديثة وأنها جديرة بأن تشكل مصدراً ممتازا من مصادر القانون المقارن وأكد استقلالها عن التشريع الرومانى » .

وقد أيد كثير من الباحثين الأوربيين المنصفين قوة الشريعة الاسلامية وقدرتها على مواجهة مطالب العصر؛ وكان المسيو أدوار لمبير ناظر مدرسة الحقوق الخديوية فى القاهرة عام ١٩٠٦ كان قد أعد مؤلفاً عن القانون المقارن ضمنه فصل عن الشريعة الاسلامية ، فلما جاء مصر اتصل بأعلام الشريعة وتاريخها وأصول تطبيقها ، وقد كان يظن أن القانون الرومانى أثر تأثيراً كبيراً فى الشريعة الاسلامية ولـكن تبين له بعد ذلك أن هذه الشريعة مستقلة بذاتها . وأعلن أن فى الشريعة الاسلامية كنز لايفنى ومنبع لا ينضب ، وأنه خير ما يلجأ إليه المصريون فى العصر الحاضر فى البحوث العلمية حتى يعيدوا لمصر وبلاد العرب هذا المجد العلمى »

وقال أنه استبان له أن ليس للقانون الرومانى أى أثر فى الشريعة الاسلامية وأنها شريعة مستقلة .

وأعلن ليفى أولمان أستاذ الحقوق بجامعة باريس . اعتبار الشريعة الاسلامية فى المعاملات مصدراً للقانون المصرى .

وقال الدكتور ازيكو انسابانو : أن الشريعة الاسلامية تفوق فى كثير من بحوثها الشرائع الأوربية بل هى التى تعطى للعالم أرسخ الشرائع ثباتاً .

وقال فارس الخورى : أن محمداً أعظم عظماء العالم ، والدين الذى جاء به أو فى الأديان وأتمها وأكملها ، وأن محمداً أودع شريعته المطهرة أربعة آلاف مسألة علمية واجتماعية وتشريعية .

ولم يستطع علماء القانون المنصفون إلا الاعتراف بفضل الذى دعا الناس إليها باسم الله ولأنها متفقة مع العلم مطابقة لأرقى النظم والحقائق العلمية .

وقال سنتيلانا فى بعض مؤلفاته : أن فى الفقه الاسلامى ما يكفى المسلمين فى تشريعهم المدنى أن لم نقل أن فيه ما يكفى الانسانية كلها .

وقال سليم باز المسيحى اللبنانى « شارح مجلة أحكام العدلية » : اعتقد بكل اطمئنان بأن فى الفقه الاسلامى كل حاجة البشر من عقود ومعاملات واقضية والتزامات . وأن فى مختلف خزائن البلاد الاسلامية ودور الكتب الأوربية فى هولندا وروما وبرلين وباريس والمتحف البريطانى والمكتبة البابوية فى قصر الفاتيكان ، ألوف الكتب الفقهية الاسلامية التى هى جهود فحول العلماء ، وهى الشاهد الأكبر على أنه لا يوجد معنى من معانى الأحكام المنشود فيها العدل ولا حاجة من حاجات البشر فى التشريع إلا تقدم لفقيه مسلم قول فيه ؛ وقال الدكتور محمود فتحى أن نظرية « الاعتساف » التى ابتكرها القانون المدنى الألمانى ١٧٨٧ قد تكلم فيها التشريع الاسلامى طويلا ابتداء من القرن الثامن الميلادى :

وقال الدكتور شيرل عميد كلية الحقوق بجامعة فينا فى مؤتمر الحقوقيين : أن البشرية لتفخر بانتساب رجل كمحمد إليها إذ أنه رغم أميته استطاع قبل بضعة عشرة قرنا أن يأتى بتشريع سنكون نحن الأوربيين أسعد ما يكون لو وصلنا إلى قمته بعد الفى سنة .

وقال هولـكم أستاذ الفلسفة بجامعة هارفارد : الشريعة الاسلامية تحتوى على جميع المبادىء اللازمة للنهوض .

وقال الدكتور عبد الرازق السنهورى : أن المقارنة بين الشريعة الاسلاميه وبين شرائع الغرب كفيل بأن يظهر من ذخائر الشريعة الاسلامية فى المبادىء والنظريات مالا يقل فى رقى الصياغة وأحكام الصنعة عن أحدث المبادىء والنظريات وأكثرها تقدماً فى العالم العربى .

وقال على بدوى : ليست مظاهر استقلال الفقة الاسلامى وتفوقه محصورة فى القواعد المدنية والاحوال الشخصية ولـكنها تبينت كذلك فى عدة مواضع من التشريع الجنائى الاسلامى .

ويقول الدكتور صبحى محمصانى « فى كتاب العرب والحضارة الحديثة : التشريع الاسلامى كان وظل تادراً على التجاوب مع المجتمع . وقد فتح التشريع الاسلامى أبوابا للحفاظ على الغاية الاجتماعية والاقتصاد والاجتماع . وقاعدة تغير الاحكام بتغير الأزمان مسالك لصرف التشريع إلى غايته الاساسية وهى تحقق مصلحة المجتمع الإنسانى وقال : أن التشريع الاسلامى كان قابلا للتطور والنمو وملائمة الامكنه والأزمنة المختلفة التى مرت عليه .

وأشار « حسن جلال » إلى أنه فى عام ١٩٥١ عقدت شعبة الحقوق الشرق من المجمع الدولى للقانون المقارن مؤتمر للبحث فى الفقة الاسلامى فى كلية الحقوق

بجامعة باريس تحت أسم أسبوع الفقة الاسلامى ودعت إليها عدداً من المستشرقين وأساتذه القانون فى الدول العربية وجرت ابحاث حول الفقة الاسلامى ، وأشار إلى أن نقيب سابق للمحامين فى باريس قال : « لست أدى كيف أوفق بين ما كان يحكى لنا عن جمود الفقة ألاسلامى وعدم صلوحة أساساً تشريعياً يفى بحاجات المجتمع المصرى المتطور وبين ما نسمعه الأن مما يثبت بجلاء أن الفقة الإسلامى يقوم على مبادىء ذات قيمة أكيدة لأمرية فى نفعها ، وأن اختلاف المذاهب فى هذا الجهاز التشريعى الضخم ينطوى على ثروة من الآراء الفقهية وعلى مجموعة من الأصول الفنية البديعة التى تتيح لهذا الفقة أن يستجيب بمرونه لجميع مطالب الحياة الحديثة . »

الرد على ادعاءات المستشرقين

ورد كثير من الكتاب المنصفين على أدعاءات المستشرقين فقال الدكتور صبحى محمصانى (ك . العرب والحضارة الحديثة) أن ما زعمه بعض المستشرقين من أن الشريعة الإسلامية مقضى عليها بالجمول قول فاسد وقال أن أبرز ملامح الشريعة الاسلامية (١) أن الاجتهاد واجب فيها والتقليد الأعمى محرم (٢) أن الشريعة الاسلامية ليست مذهبا واحداً بل مجموع المذاهب (٣) أن توسيع الفقهاء فى أولية التشريع ومصادرة والأخذ بمبادىء الانصاف المطلق بطريق الاستحسان والاستصلاح : كل ذلك كان له أثر فى جعل الشريعة الإسلامية من أعدل الشرائع وأقربها إلى المثل الاجتماعية العليا (٤) أن قاعدة تغيير الأحكام تطبق فى جميع المسائل التى لا يوجد فيها نص إلى القران والسنة .

* * *

ودعا « جستنيان » ٧ / ١١ / ١٩٣١ (الأهرام) إلى تجميع أحكام الشريعة

الاسلامية المتعلقة بالمعاملات فى (باندكت) إسلامى . وقال أنه سيكون خير معوان للاسترشاد به فى أعداد موسوعة إسلامية عن المعاملات .

الدكتور السنهورى

وقد خطا الدكتور عبد الرازق السنهورى خطوة واسعة فى سبيل التقنين الاسلامى المدنى عند ما كان عميداً لـكلية الحقوق فى بغداد فى وضع مشروع قانون مدنى جديد للعراق ، وأن المشروع وضع على أساس أحكام الفقه الاسلامى فى مذهبه المتعددة (مطعما) بأحكام القوانين الأوربية .

وفى عام ١٩٣٨ بدأ الدكتور السنهورى والمسيو لامبير فى وضع المشروع التحضيرى للقانون المدنى المصرى ، متخذا من الشريعة الاسلامية أساساً وصفه « عبد المنعم الصدة » بأنه تراث قانونى طالما تنكرنا له وأصدرنا فيه أحكاماً بالباطل وقال : أن مصر رزئت بقوانين اقتبس معظمها من قوانين أجنبية وضعت لأناس يختلفون عنا أشد الاختلاف فى العادات والأخلاق والبيئة ، وإذا علمنا أن واضع قانوننا كان أجنبياً أدى مهمته فى أشهر معدودة ، ولم يكلف نفسه فى أثنائها سوى القيام بنقل الأحكام التشريعية الأجنبية دون تعديل أو تحوير أمكننا أن ندرك إلى أحدى كان التعديل ألزم » .

وقد أشار الدكتور السنهورى فى مقدمة كتابه « نظرية العقد » من فكرته فى تمصير الفقه فقال : علينا أولا أن نمصر الفقه فنجعله فقها مصريا خالصاً نرى فيه طابع قوميتنا ونحس أثر عقليتنا ففقهنا حتى الآن لا يزال هو أيضاً يحتله الأجنبى والأجنبي هنا فرنسى ، وهو احتلال آخر ليس بأخف وطأة ولا بأقل عنتا من أى احتلال آخر . أن لدينا ثروة تشريعية يفرض علينا واجبنا أن نستغلها وأن نحسن استغلالها هى « الأحكام الشرعية الاسلامية » منها ما يعد مبادىء

عامة أساسية هى بمثابة قواعد النظام العام بحيث تسمو فوق كل تغيير أو تبديل ويتعين احترامها فى كل زمان ومكان »

× ويقول الدكتور السنهورى فى كتابه نظرية العقد : « الشريعة الإسلامية شريعة الشرق ووحيها الهام وعصارة أذهان مفكرية ، نبتت فى صحرائه وترعرعت فى سهوله ووديانه ، فهى قبس من روح الشرق ومشكاة من نور الاسلام يلتقى عندها الشرق والاسلام فيضيء ذلك بنور هذا ، ويسرى هذا فى روح ذلك حتى ليمتزجا ويصيرا شيئاً واحداً ، هذه الشريعة الاسلامية لو وطئت أكنافها وعبدت سبيلها لكان لنا من هذا التراث الجليل ما ينفح روح الاستقلال فى فقهنا وفى قضائنا وفى تشريعنا ثم أنه ليشرفنا أن نطالع العالم بهذا النور الجديد فيضيء به جانباً من جوانب الثقافة العالمية فى القانون وقال : أنها دعوة باطلة تلك التى يقول أصحابها أن الشريعة الاسلامية التى كانت صالح بالأمس لم تعد تصلح لأن يؤخذ بها اليوم .

* * *

وقد أوضح الدكتور محمد كامل مرسى وسيد مصطفى فى كتابهما (أصول القوانين) والدكتور على بدوى فى كتابه (تاريخ القانون) بجلاء أن الشريعة الاسلامية صالحة لكل زمان ومكان، وأنها غير ما يتوهمه البعض من أن أحكام الشريعة الاسلامية ثابتة وغير متطوره ، وقال أننا حينما ننادى بالرجوع إلى الشريعة الاسلامية لا نطلب قلبا للأوضاع ومحواً لجميع الأحكام الحاضرة ، ذلك لأن جزءاً كبيراً من التشريع الحالى يمكن قبوله وأقرارة وهو لا تنافى مع مبادىء الشريعة للاسلامية .

تجربة السنهورى

وأشار السنهورى إلى تجربته فى التقنين المدنى الاسلامى (١٩٣٦/١١/٢٧)

قال : وضعت نصب عينى عندما بدأت العمل فى وضع مشروع القانون المدنى أن أضع قانونا أوفق فيه مابين أحكام مجلة الاحكام العدلية وبين الشريعة الاسلامية بوجه عام . وأحدث الاحكام المدنية المعمول بها فى البلاد الغربية . بدأت بوضع نموذج أخترته من بين التقنينات الغربية حديثها وقديمها ، واخترت لذلك بعض التقنينات الغربية وعلى رأسها التقنين الفرنسى والتقنين المصرى والتونسى والمراكشى واللبنانى وأخذت من المشروع الفرنسى الايطالى والتقنينات الجرمانية نموذجاً يعد فى نظرى المثل الأعلى للتشريع المدنى فى العصر الحاضر . وبحثت ما يقابله من مذهب أبى حنيفة والمذاهب الأخرى الاسلامية . وهكذا قدمت للعراق مشروع عقد البيع مأخوذا من أحدث التشريعات الغربية ولا يكاد يختلف فى شىء من أحكام الشريعة الاسلامية .

موقف الفكر العربى من الحملة

وقد واجه الفكر العربى المعاصر قضية التشريع الاسلامى مواجهة واضحة قوية كشف فيها عن عظمة هذا التشريع ومرونته وقدرته على مواجهة التطور والحضارة فى مختلف الأزمان والبيئات .

وقد دعا الفكر العربى إلى فتح باب الاجتهاد ورفض التقليد . وآمن بأن « المقلدون فى كل أمة المنتحلون أطوار غيرها يكونون فيها منافذ وكوى لتطرق الأعداء إليها وتكون مداركهم مهابط الوساوس ومخازن الدسائس » .

وظهر الاتجاه إلى توحيد المذاهب الاسلامية وعدم التقليد بمذهب واحد ، على أساس الحقيقة التى تقول بأن الشريعة الاسلامية ليست مذهباً واحداً بل هى مجموع المذهب دون تقييد .

وقد كشف عن أن الخلاف بين المذاهب لم يقم على المبادىء والتعاليم الاساسية بل كان وقفاً على الفروع ، وأن اختلاف المذاهب كان من أسباب مرونة الشريعة

الاسلامية وتطورها ، وأن بعض الاحاديث قد وضعت في بعض عصور التاريخ الاسلامي خدمة للسياسة وانتصاراً لبعض الاحزاب (الدكتور محمصاني (ك) العرب والحضارة الحديثة) .

وكشفت الدراسات المختلفة عن أن الجماعة الاسلامية أعتقدت في العصور المتأخرة أن أبواب الاجتهاد قد أقفلت في وجه أي تفسير مما أدى إلى ركود المجتمع الاسلامي . وأن الحركة الوهابية سبقت الغزو الثقافي وكانت أيذانا باليقظة وفتح باب الاجتهاد ، وقد ظهر هذا التيار وتعمق من بعد داعيا إلى العودة إلى القران والسنة وإعادة فتح باب الاجتهاد وإعادة تفسير قوانين الاسلام للجماعات وكشف الطبقة الجامدة التي علت وجه الفكر العربي الاسلامي وجرى تطويع القوانين العلمانية الغربية للحياة الاسلامية كما فعل الدكتور عبد الرزق السنهوري في أعداد القانون المدني فقد نص في آخر مادة في هذا القانون على أنه إذا درست قضية وثبت أنه لا يطبق عليها أي قانون وجب أن يعتمد الحكم فيها على أرحب تفسير لاى قانون إسلامي في أحد المذاهب .

وكشفت هذه الابحاث عن حقائق لا سبيل إلى الشك فيها وهي أن الاسلام من حيث كونه نظاماً مدنياً قد توافرت فيه مرونة تمكن المجتمع الاسلامي من التطور دون اهمال قواعده الأساسية باقراره حكم العادة والاجماع والاجتهاد .

وأنه تشريع مرن قابل لأن يكون تشريع كل زمان ومكان وله القدره على مسايرة حاجات المدنية الطارئة وأحوال المجتمع المدنية .

وأن الاسلام لم يكن عائقا للمجتمع عن التقدم ، وكانت صيحة جمال الدين الباكره « يجب أن تتحرر عقول الناس من كدر الخرافات وصدأ الأوهام » وأن الاسلام دين ومجتمع وسياسة واقتصاد .

وكان هذا رداً حاسماً على الحملات المنيفة التى وجهها الغرب إلى الاسلام بقصد تنحيته عن مكانه فى الحياة العربية والقضاء على جوهره ومفاهيمه فى الجهاد والمقاومة والحرية من ناحية والقضاء على جوانبه السياسية والاقتصادية والاجتماعية بتغليب الأنظمه الغربية بحسبانه إنه القوة التى تقاوم الاستعمار، وذلك جرياً وراء تمزيق الوحدة وأضعاف الجبهة بالتفرقة المذهبية والعصبية الشعوبية والحيلولة دون مبادىء الاسلام وتعاليمه وبين التطبيق والبقاء مع صلاحيتها التامة للمجتمع وقابليتها للتطور وضرورة بقائها ·

وقد أشار (ويلفرد كانتول شمت) بصدد الأشارة إلى محاولة بناء مجتمع إسلامى فى القرن العشرين قال : أن تاريخ الشرق الأدنى الحديث يدل على أن القومية المجردة ليست القاعدة الملائمة للنهوض والبناء ، وما لم يكن المثل الأعلى إسلاميا على وجه من الوحدة لن تثمر الجهود البته .

وبذلك كله فشلت دعوة التغريب فى «أقصاء الاسلام من مجال الحياة ومناهج التربية والقضاء والحكم » .

الأزهر

لما كان الأزهر هو أداة الإسلام وبوتقته وفقد حرص الاستعمار فى أن يوجه إليه أعنف حملة وجهها فى معركة الغزو الثقافى كمحاولة للقضاء عليه كمعقل من معاقل الإسلام واللغة العربية ،وعاملا من عوامل التجمع الوطنى والقيادة الشعبية . ولم ينس الاستعمار أنه كان مركزا ضخما من مراكز المقاومة للاستعمار الفرنسى ١٧٩٨ والاستعمار الإنجليزى فى والثورة ١٩١٩ ، كان بوتقة الحركة الشعبية التى قاومت ظلم الحكام والأمراء والمماليك فى عهد أبراهيم ومراد ثم فى عزل الوالى خورشيد .

ولما كان الاستعمار حريصا على القضاء على كل ما يتصل بالدين واللغة والتاريخ من مقومات الفكر العربى والشخصية العربية فقد كانت الحملة على الازهر خفية مستترة لها طابع دقيق حتى لا تثير ثائرة الشعب،وقد استطاع الاستعمار باساليبه الماكرة أن يدير المعركة من الداخل وأن يركز على التعليم المدنى ويعزله عن الأزهر على نحو خلق ثنائية التعليم . أقصى الدين من التعليم المدنى . ثم اضطهد بواسطة كرومر ودنلوب كل المدرسين الأزهريين وأبعدهم عن المدرسة المدنية . بل أن هذا الاتجاه قد عمقه الاستعمار فى محيط الحياة العملية حتى أبعد خريجى الأزهر عن جميع الوظائف فى دواوين الحكومة .

وقد كان الصراع الداخلى فى الأزهر هو أهم العوامل التى أوقفت خطة أصلاح الأزهر فقد قامت فى الأزهر جبهتين هما : جبهة الإصلاح والتجديد والاجتهاد وعلى رأس هذه المدرسة الشيخ محمد عبده والجبهة الأخرى هى جبهة التقليديين والمحافظين والمؤمنين بغلق باب الاجتهاد وابقاء الأنظمة القديمة فى التعليم على ما هى عليه ؛ لذلك قامت منذ أول القرن معركة متصلة بشأن تجديد الأزهر

وإصلاحه وتنظيمه . وليس شك أن الاستعمار كان حريصا على تجميد الأزهر وإبقاءه على منهجه القديم لا يستجيب للزمن كوسيلة من وسائل أفنائه والقضاء عليه .

كما واجه الأزهر حملة أخرى من خارجه قام بها تلاميذه الذين اتجهوا إلى الدراسات الأوربية والغربية ، واتصلوا بالمستشرقين والمبشرين وكانوا أشد عنفا وقسوة من الاستعمار عليه : أمثال طه حسين وزكى مبارك وعلى عبد الرازق .

وقد اتصل الاستعمار بالأزهر على نحوما ، حين أرتبط أعضاء هيئة كبار العلماء بالسفارة البريطانية والخديو والملك والأحزاب السياسية وكان الأزهر يوما ما أداة فى هذا الصراع بين الملك والأحزاب .

وفى هـــذا ما أشار إليه المقطم (أبريل ١٩٢٦) من أن كبار العلماء وفى مقدمتهم أصحاب الفضيلة الأستاذ الأكبر شيخ الجامع الأزهر ورئيس المحكمة الشرعيه العليا ومفتى الديار المصرية بعد أحياء ليلة القدر فى جامع الرفاعى يتوجهون إلى دار المندوب السامى فى الساعة العاشرة من مساء اليوم « أجابه لدعوة فخامه لورد لويد فيقضون السهرة فى تلك الدار » .

وقد كان ذلك مثاراً لمعركة حامية أريد بها تشوية سمعه الأزهر فقد كتب فكرى أباظة فى الأهرام (٩/ ٤ / ١٩٢٦) يقول «أذن من الساعة العاشرة حتى السحور سيمضى أصحاب الفضيلة العلماء السهرة فى دار الوكالة البريطانية بعد جامع الرفاعى . أى أنهم سيمضون ليلة القدر فى دار الوكالة . « يعيش الإسلام ياعلما » ليلة القدر التى هى خير من ألف شهر ، والتى يتلى فيها القرآن وتصلى فيها الصلوات وتؤدى فيها العبادات سيمضيها أصحاب الفضيلة فى دار حضرة صاحب الفخامة الحسيب النسيب الشريف اللورد لويد السكسونى البروتستانتى الأصلى .

كلوا هنيئا وأشربوا مريئا بالله عليكم سادتى العلماء ليلة القدر فى دار الوكالة البريطانية ولكن . . إذا رأيتم اللورد قد أضطر لشرب كاس من الوسكى حسب عادته « فصهينوا » أن الله يحب المصهينين ياعلماء : أمروا ما يأتى « رحم الله أمرأ عرف قدر نفسه » .

وسخرت السياسة الأسبوعية (١٠ / ٤ ١٩٢٦) من الشيخ محمد بخيت مفتى الديار المصرية حين أشارت إلى أن دعاءه ليلة القدر فى دار المندوب السامى كان :

اللهم يامجيب كل سائل ورازق كل عالم وجاهل ، أنزلنا بسلطانك من هذه الدار خير المنازل وأمنحنا حمايتها من كل لائم وعاذل . وقربنا اللهم من ذى البأس الشديد مولانا السيد العميد ، وأبسط لنا فى ظله الممدود وحوضة المورود » .

وقد كان هذا جزءاً من حملة الغزو الثقافى التى حرصت على تصوير الأزهريين بصورة مغرقه فى المادية ، وذلك عن طريق إيجادفوارق فى التقييم المادى للمتخرجين من النوعين من التعليم مما جعل الأزهرين يتصورون أنهم أقل قيمة أدبية وأقل منزلة . وكان أتجاه الأزهريين إلى طلب المساواة فى التقدير المادى هو ما استغله الاستعمار لتصوير الأزهريين بأنهم أصحاب دنيا وليسوا أصحاب رسالة على نحو ماصوره الدكتور محمد البهى — « بأنه أدى إلى أن تخف منزلتهم رويداً رويداً من نفوسهم ، ويعلم الله أنهم لم يكونوا أصحاب دنيا وإنما أرادوا أن يعيشوا فقط من أجل رسالة أزهرهم وهى فى الواقع رسالة مقاومة الاستعمار » . وأشار إلى أن هذا العمل قد بلغ به المستعمر غاية له وهى « إضعاف المنزلة الأدبية للازهر والمتخرجين فيه فى الرأى العام المصرى والرأى العام الاسلامى العالمى » .

(٢) الأزهر والإستعمار

وتتجلى مفاهيم الاستعمار لرسالة الأزهر فيما صوره لورد لويد ١٩٢٨ عن المهمة التى بدأها لورد كرومر ومضى فيها لتعويق الأزهر عن مهمته والحيلوله بينه وبين رسالته ، ومن رأى الاستعمار أن الأزهر هو مركز خطير من مراكز الدعاية ضد بريطانيا وأنه فى مهمته تلك متعدد الامكانيات ، وأن الوطنيين قد استغلوا ذلك لتأييد مآربهم مما ترتب عليه نمو روح المعارضة الشديدة لسيطرة الإنجليز على التعليم . ولما كان الإنجليز يريدون القضاء على كل مقاومة فقد اتجهوا إلى الأزهر الذى كان أسلوبه الوطنى عاملا هاما من عوامل المقاومة لتمسكه بالدين ووصفوا منهجه بأنه من الاساليب بأنه الجافة القديمة التى تقف حاجزا فى طريق أى إصلاح تعليمى كما وصفوا خريجى الأزهر بأنهم يحملون معهم قدراً عظيما من غرور التعصب الدينى ولا يصيبون ألا قدراً ضئيلا جدا من مرونه التفكير والتقدير .

وكان الاستعمار يهدف من وراء ذلك إلى غرض ماكر هو أن يلتقى الأزهر بالاستعمار فى « مرونة » تبعد عنه ما أطلق عليه روح التعصب . فاذا لم يستطع الأزهر التجاوب فان ممثل بريطانيا يعمد إلى تجميد الأزهر والاتجاه إلى التعليم المدنى الذى يحقق له ما يريد من تفاهم ولا شك أن ممثلو الإستعمار البريطانى قد أخفقوا فى أن يحققوا هذا اللقاء مع الأزهر كما أخفق من قبل المستعمر الفرنسى وفى كلا الحالين عجزوا عن أن يحققوا فى الأزهر خطة تؤدى إلى ما أطلق عليه « اختفاء التعصب » والواقع أن أصلاح الازهر على النحو الذى أراده له الابرار من دعاته لم يكن المقصود به القضاء على روحه الوطنية فى مقاومة الإستعمار وإنما كان يراد به أن يحقق عن طريق فتح باب الإجتهاد والتطوير فى نظمه ومناهجه

خلق قوة أشد قوة لمقاومة الإستعمار والغزو الثقافى وأستبداد الملوك وطغيان الساسة والاقطاع وفساد أنظمة المجتمع السياسية والاجتماعية والاقتصادية .

فهذه هى المهمة الأساسية التى كان الأزهر مسئولا عن مواجهتها على نحو أيجابى قوى .

(٣) الأزهر والسياسة

تأثر الأزهر بالصراع الحزبى وسيطرة الاستعمار بعد ثورة ١٩١٩ وجرى فى مجارى الحزبية السياسية،وكان أن أصبح للازهر لونا حزبيا ومشاركة فى الخلاف بين الملك والوزارة أو بين الأحزاب بعضها البعض ؛ ويروى عبد الرحمن الرافعى (ك : فى أعقاب الثورة ج ١) « أنه ظهرت فى نهاية وزارة سعد زغلول ١٩٢٤ معارضة قوية فى صفوف الأزهريين ضد وزارة سعد ولم يعرف على وجه التحقيق سر هذا التحول على أنه قد بدأ على أثر تقديم لجنة ألفتها الحكومة لإصلاح الأزهر تقريرها إلى الحكومة وعدم نشره وحسبان الأزهريين أن مطالبهم لم تتحقق فاضربوا عن الدرس فى أوائل نوفبر ، وقام المضربون فى العاصمة بمظاهرة كبيرة فى الشوارع نادوا فيها نداء جديدا لم يكن مألوفا من قبل : « لا رئيس إلا الملك » بعد أن كان نداءهم المألوف « لا رئيس إلا سعد » فعرف من أيه ناحية حدث الايعاز بهذا الأضراب وفهم أن السراى أرادت أن تحرج الوزارة فأثارت مسألة الأزهر وكان معروفا أن السراى تؤلب الأزهر على الوزراء وتدبر مظاهرات الأزهريين » .

وفى مذكرات الشيخ الظواهرى أشار إلى ظروف تعيين شيخ الأزهر (أواسط عام ١٩٢٧) بعد وفاة الشيخ أبو الفضل الجزاوى . وتدخل اللورد لويد فى شئون الدين ونصيحته بتعيين الشيخ المراغى .

وقد أثار الظواهرى شبهات كثيرة وكان خصماً للمراغى وعلى خلاف دائم معه خلال فترة تبادلهما تولى مشيخة الأزهر الواحد بعد الآخر فى خلال فترة تمتد من عام ١٩٢٧ إلى عام ١٩٣٥

وكما وقع الخلاف بين الشيخ محمد عبده — ولم يكن شيخا للازهر — وبين الشيخ سليم البشرى شيخ الأزهر حول أصلاح الأزهر وتجديده . فقد صنع الاستعمار محورين فى الأزهر : أحدهما المراغى (٢٢ أغسطس ١٩٤٥) داعية أصلاح الأزهر والرجل الذى يدين بمذهب محمد عبده وابن تيميه فى مفاهيم الاسلام وتحريره من الزيوف والبدع وبين الظواهرى (١٣ مايو ١٩٤٤) صديق الملك فؤاد والرجل الصوفى المعروف بمحبته للاولياء والمؤمن بروح الأزهر التقليدية . وقد تولى المراغى شيخا للازهر على كره من الملك فؤاد ثم قدم مذكرته فى إصلاح الازهر ، وكان لها ضجيج فلما أحس بمعارضتها من جهات متعددة كانت لا ترغب فى تطوير الأزهر قدم أستقالته ، هنالك ولى الظواهرى هذا المنصب وأتيحت له الفرصة لأن يتحقق على يديه تنظيم للازهر فى صورة الأنظمة الحديثة .

ويقتصر مفهوم الاصلاح عنده إلى حد تهذيب الكتب وطرق التدريس . غير أن عهده وقد اقترن بظروف سياسية حادة فاضطر إلى أن يواجه ثورة أزهرية ضخمة كانت تطالب بعودة المراغى ، فلم يلبث أن استقال وعاد المراغى إلى الأزهر مرة أخرى .

ولقد حاول الشيخ الظواهرى فى مذكراته أن يصور الشيخ المراغى بأنه صديق الإنجليز لأنه أمضى مدة طويلة من حياته فى القضاء الشرعى فى السودان « وكان طبيعيا أن تنشأ الألفة والمودة بينه وبين كبار الموظفين البريطانيين وساستهم فى ذلك القطر الشقيق » .

وأنه « هذه الفترة الطويلة التى قضاها الشيخ المراغى قاضيا فى السودان

قد مهدت له الفرصة الواسعة لكي يتعرف عقلية هؤلاء الإنجليز ويتفهم مشاربهم ومقدار تفكيرهم وحكمهم على الأشياء فلقدتصادقوا ، ولقد جلس وتناقش معهم فتبادلوا المودة وأرتاح كل منهم للاخر » . وأشار الظواهرى إلى أن « المراغى » قد أشتهر عند الإنجليز بسمة العقل والفكر وذلك « عندماأفتى أبان الحرب العالمية الأولى وكانت تركيا قد أعلنت الحرب وقتئذ على بريطانيا بأنه لا مانع من محاربة المسلم لاخيه المسلم . فقد كانت هـــذه الفتوى من أسباب استقرار النظام حينئذ فى السودان » .

وأشار الظواهرى أيضا إلى أن الشيخ المراغى الذى رشحه الانجليز كان منذ تخرجه قد ترك الأزهر فنسيه زملاؤه الأزهريون لأنه لم يجلس معهم للتدريس على الكراسى المقامة بجوار الأعمدة ولم يتخرج أحد من الطلبة على يدية .

وذكر الظواهرى أن عودة المراغى للمرة الثانية إلى الأزهر كانت بسعى الإنجليز أيضاً وأن ذلك كان أبان مرض الملك فواد إذطلب مايلز(لامبسون) السفير البريطانى تعيين المراغى شيخا للازهر ؛ وتساءل عن الدوافع لرغبة الإنجليز فى عودة المراغى للازهر و « أعلان ذلك صراحة فى الجرائد مع أن هذا المنصب ، منصب دينى ولم يسبق تدخلهم فيه بهذا الشكل الظاهر » وأشار الظواهرى إلى أن الأزهر قد زج به فى خضم السياسة الحزبية فيا عدا تدخل الاحزاب والمندوب البريطانى فى أختبار شيخ الأزهر وذلك « عندما ، تألفت فى الأزهر لجان للوفدوأخرى للاحرار الدستوريين ، فانصرف الطلبة بالسياسة عن الدرس وعن التحصيل والتفقه فى الدين وشغلوا بالنقاش السياسى والتهريج السياسى والدعاية السياسية . » ا . هـ

وفيما يتصل بالسياسة وموقف الأزهر من الملك ، أخذ على علماء الأزهر أنهم أيدوا رغبة الملك فؤاد و مطمعه بالخلافة وعقدوا مؤتمرا هاما لتأييد تنصيب الملك فؤاد خليفة للمسلمين بالرغم مما قد يتعارض مع مفهوم الحاكم وأهليته لمثل هذا المنصب الاسلامى الكبير مما عد أنه تأييد من الأزهر لحاكم مستبد .

الأزهر ودعاة التغريب

ولقد كان للأزهر دوره الواضح فى مقاومة دعاة التغريب إذ دافع عن الاسلام ازاء كل حملة من هذه الحملات ، فقد هاجم الأزهر :الالحاد والإباحة والبغاء والتبشير ووقف موقفا حاسماً بالنسبة لـكتابى « الاسلام وأصول الحـكم » لعلى عبد الرازق و« الشعر الجاهلى » لطه حسين باعتبارهما أزهريين .

وقد كان هذا سبباً هاماً من أسباب حملة الصحافة على الأزهر ، وخاصة جريدة السياسة والصحف ذات اللون التغريبى ، وقد حملت جريدة السياسة على الشيخ محمد بخيت أنتصاراً للشيخ على عبد الرازق وبلغت فى ذلك حد القول (١٢ أغسطس ١٩٢٥) « بأن الدستور يكفل للناس حرية الاعتقاد . ويبيح لهم بذلك أن يتبرئوا عن دين الإسلام من غير أن يكون لهم فى درتهم جرح وهذه قوانين الدولة تبيح لهم الخمر ومنازل الدعارة ، وبيوت القمار رخصا وتصدر ببيوت الربا قوانين » .

ورد الشيخ بخيت يهاجم هذا المنطق ويقول كيف يعقل أن الدستور يبيح المسلمين ان يرتدوا عن دين الإسلام .

وقد سخرت السياسة الاسبوعية (١٩٢٦/٤/١٠) من الشيخ بخيت فقالت «أنه لا يعرف شيئاً فى الشيخ بخيت ثابتا لم يتغير ألا عمامته فإنه والحق يقال لم يغيرها الا مرة واحدة يوم توفى الشيخ سليم البشرى شيخ الجامع الأزهر » واتهمته بأنه يتلون بكل لون وينتقل فى أى شكل لأنه أشتغل فى مطلع عمره بأخراج العفاريت !

كما هاجمت السياسة الشيخ محمود أبو العيون فى حملته على البغاء أعنف الهجوم.

وهاجم طه حسين الأزهر سنوات طويلة بعد معركة كتاب الشعر الجاهلى

وكان فى حملاته بعيداً عن روح البحث العلمى الذى يدعى أنه من رواده ساخرا متهكما كقوله « أنا أعلم أن عمامة الشيخ تضيق بفهم هذه الكتب العلمية الخالصة التى يطبعها جماعة من المصريين والاجانب الشرقيين والغربيين » وكان ذلك فى موقف دفاع من الأزهر عن كتاب حوى سبا للاسلام كان مقرراً على طلبة الجامعة .

كما دعا طه حسين إلى إلغاء الأزهر وإلى منع خريجية من الاشتغال بأى عمل من الاعمال؛ ودعا فى كتابه مستقبل الثقافة إلى أن يصبح الأزهر كلية دينية يدخلها من شاء بعد أن يتم تعليمه الثانوى — ولطه حسين مقال معروف ٣١ أغسطس ١٩٢٣ قال « وجه الصواب فى أصلاح الأزهر عبارة عن حملة عنيفة على نسق الشعر المنثور، هكذا هم جاهلون فى اللغة العربية ، هم جاهلون فى الفارسية والتركية والهندية ، هم عاجزون عن أن يذودوا عن الدين ويردوا عنه كيد خصومة . هم عاجزون لأنهم يجهلون الديانات الأخرى ، هم عاجزون عن رد المخالفين . هم عاجزون عن أن يؤدوا ما للاسلام عليهم » والمقال كله قطعة من الحقد والخصومة والتعصب .

ولعلى عبد الرازق حملات متعددة على الأزهر غير أن أعنف ما كتب هو محاضرته التى ألقاها فى الجامعة الأمريكية ١٩٣٢ (عن الدين وأثره) فى وقت كانت البلاد تضج من أثار حملة التبشير التى كان مصدرها نفس الجامعة الأمريكية.

وقد وقف على عبد الرازق على منبر الجامعة الأمريكية أبان هذه الحملة ليقول: أن حركات التبشير المسيحى لا خطر منها على الإسلام .

ولقد كان هذا عملا خطيرا فى عالم الفكر عندما تستخدم الجامعة الأمريكية — مصدر التبشير والتى كانت تواجه إعنف حملة من الصحف والأزهر ورجال الفكر — شيخاً ليهزا بالتبشير ولقد كان هذا نفس موقف طه حسين الذى تحدى المشاعر الوطنية والإسلامية فافتتح موسم المحاضرات فى الجامعة الأمريكية فى عام التبشير — يقول على عبد الرازق « يخيل لمن يسمع حينا بعد حين أن المبشرين قد فتنوا طفلا

أو خادعوا فتاة أن الأمر جلل وأن الإسلام منهم على خطر . غير أن الذى يستنطق الأرقام ويستمع إلى صوت الحقائق يجد أولئك المبشرين أقل شأنا من أن يصلوا بكيدهم إلى حمى الإسلام أو يناولوا منه منالا ؛ ولن تبلغ جهود المبشرين وأن تعاظمت ولا حيلهم وأن دقت ما بلغت من قبل تلك الغوائل التى تقف فى طريق الإسلام » .

وقد حاول على عبد الرازق فى محاضرته بعد أن عدد ما وقع للاسلام من أخطار أن يعلن أن الاسلام بخير ، وهو منطق عجيب .

اشار إلى أن المصريين قد احتكموا إلى غير قوانين الإسلام وأن القوانين قد أصبحت فى مصر تؤخذ أحيانا من قوانين أوربا وإلى أن الاسلام صريح فى تحريم الربا، وأن المصريين قد أخذوا نظام البنوك، وأشار أن الأزهر قد أنشأ لتعضيد السياسة بانشاء قوة دينية « وما برح الأزهر يومئذ ربيب السياسة وآلة الحكام السياسيين وسندهم » ثم أشار إلى الغاء الخلافة وتساءل عما إذا كانت هذه الاحداث كلها قد أثرت فى الإسلام . ثم قال أنها لم تضعف روح الدين وقال أن أصابة الخلق المصرى بالضعف والانحلال ظاهرة خلقية ينبغى أن يشتغل بالبحث عنها علماء الأخلاق قبل علماء الدين، وقال أن خطر المبشرين هو خطر سياسى وخلقى أكثر مما هو دينى وعلى رجال السياسة والأخلاق أن يبحثوا فى طريق الخلاص منه» وكان مفهوم الشيخ على عبد الرازق فى «الدين» هو مفهوم المبشرين والمستشرقين وخصوم الإسلام وهو أن الدين عبادات وليس نظاماً اجتماعياً وسياسياً واقتصادياً ثم سخر من الدين والإسلام والأزهر فى نهاية محاضرته وقال « من كان يظن أن الإسلام بين جدران الأزهر وبين اللحى والعمائم فان الحضارة الحديثة فى مصر ستقضى على دينهم الذى يزعمون وتجتثه أصولا وفروعاً .

الدفاع عن الأزهر

وقد حاولت الصحافة الغربية أن تصور الأزهر فى كل مناسبة بصورة رجعية جريا مع معركة الغزو الثقافى .

ومن ذلك أن جريدة المورننج بوست كتبت فى (يناير ١٩٢٤) من الأزهر أنه هو « تلك البؤرة التى تضغط فيها على الافكار لطمس العلوم حيث ما زال التلاميذ يتعلمون ان الأرض مسطحة وأن الشمس تدور حولها » .

وقد تصدى للرد على هذا رجل من خارج الأزهر هو أحمد زكى باشا (الأهرام ١٩٢٤/٢/١) فأشار إلى ما ذكره الشريف الأدريسى وفضل الله العمرى وشهاب الدين النويرى والاصفهانى « وكلهم قالوا بكرية الأرض من القاهرة التى نعيش فيها » . وقال أن علماء الأزهر قالوا بكرية الأرض . وأنها تدور حول الشمس بينما كان البابا بعد ذلك بزمان طويل كان يصب أنواع التعذيب والتقرير على كل من هذين العبقريين الطليانى والبولندى اللذين قالا بعدهما فى بلاد أوربا بمثل هذا القول » .

مواجهة الأزهر الحضارة

وتعرض كثير من الـكتاب للرد على ما اتهم به الأزهر من روح الجمود التى ترددت فى كثير من كتابات المبشرين والمستشرقين ودعاة التغريب بأن الأزهر قد شارف نقطة باكره وكان له دور ضخم فى ميدانين :

الأول : مواجهة الحضارة بروح الاسلام وتقبل جوانبها الإيجابية .

الثانية : مواجهة الاحتلال والاستعمار ومقاومته والجهاد فى سبيل دفعة وقتاله فى أكثر من معركة .

وقد كشفت هذه الابحاث أن الشيخ حسن العطار وتلاميذه هى المدرسة

الأولى التى واجهت الحضارة الغربية إبّان الحملة الفرنسية، فقد كان العطار خطيب أول حفل لتخرج أول فوج لمدرسة الطب فى كلمة أشار فيها إلى أن العلم دولى وأن الحضارة عالية وأن الأغريق والمسلمين ساهموا فيه يوما ما وأن الأوربيين الآن هم اصحابه وأن على المسلمين المحدثين أن يقبلوا عليه .

وهو الذى حرض تلاميذه على عبور البحر إلى الغرب . فكان تلميذه رفاعة الطهطاوى أول رائد للفكر العربى المعاصر فقد استطاع وهو الأزهرى أن يدرس الفرنسية وأن يترجم منها وينشىء تياراً ضخما قوامه الجمع بين ثقافة العرب وثقافة الغرب .

وقد قام رجال الأزهر فى هذه الفترة بدور ضخم فى الدفاع عن مصالح الشعب وقد كان علماء الأزهر كما وصفهم الشيخ الشبراوى (١٧٥٠) « إنما نحن المتصدرون لخدمتهم وقضاء حوائجهم عند أرباب الدولة والحكام » .

ولم يبد الأزهر مقاومه لحركة التجديد ، بل تقبلها وأعلن أن الاسلام لا يمانع فيها ، وقد أشار الشيخ الجبرتى إلى أنه شاهد مع الشيخ العطار بعض تجارب العلم وأعلن أن الإسلام أقرب إلى التجدد منذ البداءة وأن التغريب ليس له قيمة إذا اقتصر على مجرد التقليد للغرب دون أن يكون تطعيما للميراث القديم .

إصلاح الأزهر

وأشار الباحثون إلى أن الأزهر حفظ اللغة العربية من طغيان اللغة التركية عليها ومن غلبه العاميه وأن الشيخ حسن العطار أول من نبه إلى اصلاح الأزهر بتقصى برنامج العلم فيه وكان شيخا له (١١٨٠ — ١٢٥٠) وأشار إلى النقص الذى يسببه اهمال كتب المتقدمين وإهمال العلوم الحديثة والرياضة وأن الحملة الفرنسية كان لها أثرها فى نفسه .

كما دعا إلى إصلاح الأزهر رفاعه الطهطاوى وهو تلميذه الذى وجهه إلى دراسة العلوم التى نبغ فيها الغرب . وقد دعا رفاعه إلى إدخال العلوم العصرية فى الأزهر .

وكان جمال الدين الأفغانى من دعاة إصلاح مناهج الأزهر وقد درس لمريديه خارج الأزهر علوم الكلام والحكمة والهيئة والتصوف .

وقد جرت فى هذه الفترة محاولات لادخال العلوم الرياضية والفلسفة غير أن شيوخ الأزهر كانوا يرون بقاء القديم على قدمه ، وأن النظر فى تلك العلوم ليس من شأنهم ولا حاجة لهم به — على حد تعبير عبد المتعال الصعيدى فى كتابه « تاريخ إصلاح الأزهر »

دور الشيخ محمد عبده

وتردد حديث طويل عن دور الشيخ محمد عبده فى إصلاح الأزهر والمؤامرات التى واجهت هذه الاصلاح . فقد حاول اقناع الخديو عباس باصلاح الأزهر وقال: « أن فى الإمكان اصلاح الأمة باصلاح الأزهر والمحاكم والأوقاف» غير أن كل ما وصل إليه هو إنشاء مجلس إدارة الأزهر ١٨٩٦ م كان هو وعبد الكريم سلمان من أعضائه وقد جرى خلاف فى وجهات النظر حول مدى الإصلاح . وكان من رأى محمد عبده أن يكون إصلاحا كاملا يقضى على كل أثر للجمود فى الأزهر (على حد تعبير عبد المتعال الصعيدى) فلم يوافقه أولو الأمر ونصحوه بالتدرج وكان من رأى بعض شيوخ الأزهر الجامدين إصلاح نظام التدريس والامتحان وكان هدف محمد عبده من شقين : الأول : الإصلاح الدينى وبعث روح الاجتهاد (والثانى) إصلاح المناهج .

وتحقق بذلك وضع قانون يقوم بإصلاح نظام التدريس والامتحان أصبح به

الأزهر إدارة نظامية وقد سجل قانون الأزهر رقم ١٠ لسنة ١٩١١ أن الغرض من الجامع الأزهر هو :

- القيام على حفظ الشريعة الغراء أصولها وفروعها .
- تعليم اللغة العربية ونشرها على وجه يفيد الأمة .
- تخريج علماء يوكل إليهم أمر تعليم هذه العلوم فى المعاهد الدينية ومدارس الحكومة .

وقد روى أن الشيخ عبده هوجم فى معارضته للنظام القديم وقيل له فى مجال التدليل على تأكيد النظام القديم أنه تعلم ووصل عن طريقه إلى أرقى الدرجات فأجاب « أن كان لى حظ من العلم الصحيح فأنى لم أحصله إلا بعد أن مكثت عشر سنين أكنس من دماغى ما علق به من وساخة الأزهر وهو إلى الآن لم يبلغ ما أريده من النظافه » .

غير أن النظام الذى أقره الشيخ عبده لم يلبث أن عطل عند ما وقع الخلاف بينه وبين الخديو فانقلب أهل الأزهر على النظام الحديث ووجه الشيخ الظواهرى خطابا للخديو يطلب فيه إلغاء النظام الجديد والعودة إلى ما أسماه « الدين كما تركه لنا الأئمة » مشيراً إلى « أن ما سوى ذلك من أمور الدنيا وعلوم الأعصر فلا علاقة للازهر به » وكانت الحجة التى حمل لواءها دعاة المحافظة هو أن النظام الجديد من شأنه أن يهدم معالم التعليم الدينى فى الأزهر ويحوله إلى مدرسة فلسفة وآداب تحارب الدين وتطفىء نوره .

وقد أيد الخديو إدخال العلوم الحديثة ورفض ما يسمى (بالاصلاح الدينى) وهو فتح باب الاجتهاد .

ثم لم يلبث العمل الجديد أن تميع لاختلاف مناهج التفكر بين مشايخ الأزهر فى هذه الفترة، وقد كان الشيخان : سليم البشرى وعبدالرحمن الشربينى من أعداء النظام الجديد .

ثم لم يلبث الأزهريون أن ثاروا على النظام الجديد فصدر الأمر بالغائه عام ١٩٠٩ وكانت حجة الأزهريين أنه يلزمهم الأمتحان فى العلوم الحديثة ويأخذهم بكثير من التكاليف وقد أعيد النظام القديم ١٩١٠ ·

الأزهر القديم والأزهر الجديد

وتعد حركة الشيخ محمد مصطفى المراغى ١٩٢٩ هى المرحلة الثالثة لحركة الاصلاح التى دعا إليها الشيخ محمد عبده ·

وتنصب دعوة المراغى على عنصرين أساسيين (١) أصلاح الأزهر (٢) فتح باب الاجتهاد فى الدين والعلم ·

وقد لقى منهج الاصلاح الدينى من أنصار الجمود فى الأزهر وخصوم الاجتهاد معارضة شديدة كما لقيها هذا المنهج قبل ثلاثة وثلاثين عاماً (١٨٩٦ — ١٩٢٩).

وقد ركز المراغى فى مذكرته التاريخية التى أعلنها فى (١٩٢٨/٨/٥) على أن العلماء فى القرون الأخيرة أستكانوا إلى الراحة وظنوا أن لا مطمع لهم فى الاجتهاد فاقفلوا أبوابه ورضوا بالتقليد وعكفوا على كتب لا يوجد فيها روح العلم وابتعدوا عن الناس فجهلوا الحياة وجهلهم الناس · وجهلوا طرق التفكير الحديثة وطرق البحث الحديث · وجهلوا ما جد فى الحياة من علم وما جد فيها من مذاهب وآراء .فاعرض الناس عنهم ونقموا على الناس فلم يؤدوا الواجب الدينى الذى خصصوا أنفسهم له وأصبح الإسلام بلا حملة وبلا دعاة بالمعنى الذى يتطلبه الدين .

وفى الإسلام عبادات وعقائد وأخلاق . وفقه فى نظام الاسرة وفقه فى المعاملات مثل البيع والرهن وفقة فى الجنايات ·

وقد عرض الإسلام لعقائد لم تكن لأهل الأديان.. وهوجم الإسلام أكثر من غيره من الديانات السابقة ، هوجم من أتباع الأديان السابقة وهوجم من ناحية

العلم ، وهوجم من أهل القانون ؛ لهذا كانت مهمة العلماء شاقة جدا تتطلب معرفة المذاهب قديمها وحديثها ومعرفة ما فى الأديان السابقة ومعرفة طرق البحث النظرى وطرق الاقناع ويتطلب فهم الاسلام نفسه من ينابيعه الأولى فهما صحيحاً . وتتطلب معرفة فقهها وأدابها . والتاريخ العام وتاريخ الأديان والمذاهب وتاريخ التشريع وأطواره يتطلب العلم بقواعد الاجتماع . »

وقد كان لمذكرة الشيخ المراغى ضجة كبرى فى الصحف وأوساط الفكر والاصلاح ، وقد أقرت لجنة أصلاح الأزهر منهجه ، ثم لم تلبث سلطة الاستعمار المسيطرة على جهاز الحكم أن أوقفت المشروع طويلا وأشيع أن الملك فؤاد رفض مشروع المراغى فقدم أستقالة .

وتولى «الظواهرى» مشيخة الأزهر وكان له من قبل رأى فى أصلاح الأزهر يختلف عن رأى المراغى ، ويقف عند أصلاح المناهج فى تهذيب الكتب وطرق التدريس . دون النظر إلى فكرة الاصلاح الدينى وفتح باب الاجتهاد فى العلم والدين التى وقف الاستعمار دونها فى مشروعى محمد عبده والمراغى ، وتنفيذ مشروع أصلاح الأزهر على النحو الذى أرتضاه الاستعمار والملك فيما يتعلق بنظام المدرسة فحسب ؛ فلما أعيد المراغى ١٩٣٥ أعاد نشر مذكرته ومشروعه غير أنه فيما يبدو لم يتحقق الجانب الخاص بالاصلاح الدينى ؛ يقول عبد المتعال الصعيدى فى كتابه تاريخ الاصلاح فى الأزهر : «أن المراغى رأى بعد عودته للمرة الثانية مسالمة الرجعية فى الأزهر فلم يناضبها كالمرة الأولى وآثر أستعمال نفوذه فى أرضاء مطامعهم فى الوظائف وسار على نظام الظواهرى ولم يحدث فيه أى تغيير . وقد لقى من مناوأة أهل الأزهر ما لم يلقه فى عهده الأول حتى خرج عليه بعض أنصاره » . ا هـ

ويبدو أن الشيخ المراغى قد وجه عنايته فى هذه المرحلة إلى أزالة الفوارق بين المذاهب الاسلامية فقد أعلن فى حفل تكريمه (٤ يوليه ١٩٣٥) العمل على إزالة الفوارق المذهبية

أو تضييق شقة الخلاف بينها « فان الأمة فى محنة من هذا التفرق ومن العصبية لهذه الفرق؛ ومعروف لدى العلماء أن الرجوع إلى أسباب الخلاف ودراستها بعيدة عن التعصب المذهبى يهدى إلى الحق . وأن بعض هذه المذاهب قد اخذتها السياسة فى القرون الماضية لمناصرتها ونشطت أهلها وخلقت فيهم تعصبا يساير التعصب السياسى، ثم انقرضت تلك المذاهب السياسية وبقيت تلك الآراء الدينية لا ترتكز على ما يصوغه الخيال وما أقراه أهلها : وهذه المذاهب فرقت الأمة التى وحدها القرآن الكريم وجعلها شيعا فى الأصول والفروع ونتج عن هذا التفريق حقد وبغضا يلبسان ثوب الدين » .

مهمة الأزهر كما يفهمها المراغى

وليس شك أن الأزهر قد تطور فى هذه الفترة تطوراً وضحا ملموساً حتى أصبح يمكن القول بأن هناك أزهر قديم وأزهر حديث .

وقد كان هذا مجال سجال طويل ؛ وقد عرض المراغى لهذا الموقف ورسم صورة كاملة لمفهوم الأزهر عنده ومدى الدور الذى أستطاع أن يؤديه بعد أن خرج من ثوبه القديم (الأهرام ١٩٣٩/٥/٦) .

« من الناس من يقول أن الأزهر القديم كان متمسكا بدينه أكثر من الأزهر الحديث وأنا أقول لهؤلاء : لا ؛ فالأزهر الحديث متمسك بدينه أكثر من الأزهر القديم .

« كل المفاسد الموجودة الأن ليس للأزهر الحديث شأن فيها ألا أنه يطالب أزالتها ، فقد نظم البغاء وليس للأزهر الحديث أثر فيه ، وابيح الخمر فى البلاد وليس للأزهر الحديث شأن فيها ، ووجدت البدع فى الموالد والأسواق والقبور وليس للأزهر دخل فى وجودها .

كل هذا وجد فى عهد الأزهر القديم ، ولم يرفع صوته طالبا أزالة هذه

المنكرآت التى أستقرت في البلاد كأنها شأن من الشئون القومية والتى يطالب الأزهر الحديث الآن بازالتها . فالأزهر مكبل بإثار الماضى وهو يعانى فى سبيل ازالة تلك الآثار ما يعانى .

ولقد أتصل الأزهر الحديث بالناس بالوعظ والارشاد على صفحات الجرائد ليفهمهم دينهم فأستفادت الأمة منه ، وأستفاد العالم الاسلامى كذلك ، أما الأزهر القديم فكان قابعا بين الجدران لا أثر له فى الخارج ولا يعرفه الناس ألا بطريق السماع كأنه تاريخ من التواريخ .

٢ — الأزهر الحديث لامس الحياة العملية ولم يكن للأزهر القديم شأن فيها، لقد كان الأزهر يحتضر منذ عشر سنوات .

ففى عام ١٩٢٨ أرادت وزارت الأوقاف أن تنشىء مدرسة للوعظ والارشاد وفى ذلك التاريخ كانت هناك مدرسة للقضاء وكانت هناك مدارس للغة العربية فلو أن مدرسة الوعظ والأرشاد أنشئت فى وزارة الأوقاف لكان علماء الأزهر الآن بين جدران الأزهر كأنهم من الآثار القديمة .

نظم الدراسة

وقال المراغى : كان أكثر العلماء يطرقون الاحتمالات المتعددة فى عبارات الكتب وكان هذا هو كل شىء أشتهروا به فى العلم .

وما كان يوجد منهم من يستطيع أن يحاضر فى موضوع علمى أو أن يلخص مسألة من المسائل بعبارة يمكن أن تفهم،وما كانوا يعنون بالموضوعات العلمية من جهة الادلة ومقارنة المذاهب ونقدها بل كانوا يعنون بالالفاظ .

— أما الأزهر الحديث فقد أحتفظ من تلك الطرق بما يجب أن يحتفظ به وأضاف إلى ذلك أنه أستطاع أن يحصل العلم تحصيلا حقيقيا وأن يتصل بالبيئات العلمية الأخرى ويجاريها .

وقال الرافعى . منذ ثلاثين سنة فكرنا فى أعادة خطب للمساجد أحسن من تلك الخطب المطبوعة التى كانت تتلى دائما على الناس ولا تغير وأعلن عن ذلك فجاءنا خمسمائة خطبة لم نستطع أن ننتقى منها واحدة نقول أنها صالحة،أما الآن فقد وجد فى الأزهر خطباء ووعاظ ومرشدون يمكنهم أن يرتجلوا الخطب وأن يكتبوها .

أن الناس فى مصر يخشون خطر الأزهر على الحياة العامة . ويقولون أن الأزهر إذا قوى واشتدت عزيمته يدخل فى الحياة الاجتماعية فيكدر هذه الحياة إذ يحظر حرية الفكر ويقف حجر عثرة فى طريق الأفكار العلمية الحرة .

ومن جهة أخرى يحرم الناس ملاذهم وشهواتهم والحياة لا تحتمل أولا انطلاق إذا سيطر الأزهر عليها بسلطان الدين .

— أما الحياة الفكرية فلا أظن بحال أن الأزهر خطر عليها لأن الأزهر يساير أسلافه من العلماء الاجلاء ومن الأئمة الذين كان عندهم من سعة الصدر ما احتمل هذه المذاهب المتعددة .

والاسلام بطبيعة دين تسامح ومبادئه لم تعترف بالاكراه ، وقد حمى الاسلام أديان مخالفه وحمى علماء الاسلام مذاهب غير صحيحة وأجتهدوا أن يردوا عليها بالدليل .

فليس الأزهر من المعاهد التى تكره حرية الرأى والآراء العلمية ولكن الأزهر يكره شيئاً واحداً هو تعمد الاستهزاء بالدين والانبياء والأئمة ويكره أن يشكك العامة فى دينهم . والتشىء فى عقائدهم ، أما الآراء العلمية فى حدود العلم وفى دائرته فأنها تدرس فى المعاهد الكبرى دون أن يخطر ببال أحد أن يقاومها أو يقف حجر عثرة فى سبيلها .

حرروا دينكم من كل ما غشيه . وخذوه من الينابيع الصحيحة خذوه من الكتاب والسنة وآراء السلف الصالح من الأئمة » ١ . ه

تطور التعليم فى الآزهر

كان أخطر خطة خلقت الثنائية فى التعليم هى: اتجاه محمد على إلى إنشاء المدارس المدنية منفصلة عن الأزهر، ومن هذه النقطة بدأت هذه الأزمة التى استمرت طويلا حول التعليم الدينى والتعليم المدنى .

ذلك أن محمد على كان يخشى الأزهر على أثر الدور الذى قام به فى مقاومة الحملة الفرنسية وسيطرة المقاومة الشعبية بقيادة علماء الأزهر وفرضها سلطانها فى إنزال الحاكم التركى خورشيد وتوليته، وقيامها بالسيطرة على الحكم عن طريق الدفاع عن حقوق الشعب ومطالبه، ودفع مظالم محمد على فى رفع الضرائب وتسخير الشعب . ولذلك اتجه محمد على إلى القضاء على هذه الجبهة الشعبية والتخلص منها نهائياً . وكان تجميد الأزهر جزء من هذه الخطة، لذلك اتجه محمد على إلى إنشاء التعليم المدنى والاستعانة فى إنشائه بالخبراء الفرنسيين الذين كانوا يؤمنون بضرورة القضاء على الأزهر كجزء من خطة الغزو الثقافى فى محاربة الدين واللغة العربية .

فلما كان عهد اسماعيل ازدادت درجة التغريب والإتجاه إلى نقل أنظمة الغرب وقوانينه وتشريعاته، وقد أغلق إسماعيل الباب أمام التشريع الاسلامى إغلاقا تاما وأخذ بالتشريعات الغربية دون مراعاة مقومات الحياة الاجتماعية فى العالم العربى وبذلك ازدادت عزلة الأزهر عن التطور والحياة .

* * *

وقد كانت علوم الازهر قاصرة على علوم الدين واللغة كالنحو والصرف والمعانى والبيان والمنطق ومصطلح الحديث والحساب والجبر والعروض والقافيه وعلم الكلام والاخلاق والفقه والتفسير ثم تحقق بعد حركة الشيخ محمد عبده إدخال

علوم الحساب والطبيعة والكيمياء والهندسة والجغرافيا والعلوم الفعلية والتاريخ وكان جمال الدين الافغانى قد دعا إلى إدخال التاريخ فى علوم الازهر وقال : إذا بقيتم على جهلكم بالتاريخ فلا يمكنكم أن تعرفوا دينكم ولا نجاح لكم فى دنياكم ، وأكد أن قراءة التاريخ واجب من الواجبات الدينية وركن من أركان اليقين فلابد من تحصيله .

وقد احتال الشيخ محمد عبده فى إدخال العلوم الحديثة حتى أنه أطلق على علم الطبيعة « علم خواص الاشياء التى أودعها الله فى الاجسام » وقد تراجع الازهر بعد الشيخ محمد عبدة عن العلوم الحديثة حتى كانت حركة الشيخ المراغى التى حققت إعادة تنظيم الازهر ونقله إلى نظام الجامعات الحديثة وتقسيم الدراسة العالية إلى ثلاثة أقسام يتمثل كل قسم منها فى كلية ، وهى الشريعة واللغة العربية وأصول الدين وأقسام أخرى للتخصص وقد شمل مشروع إصلاح الازهر منهجا كليا واضح المعالم يضم :

× دراسة القرآن والسنة دراسة شاملة .

× تهذيب العقائد والعبادات ونفى ما جد منها وابتدع .

× دراسة الفقه الاسلامى دراسة حرة خالية من التعصب المذهبى .

• دراسة الاديان لمقابلة ما فيها من عقائد وعبادات وأحكام بما هو موجود فى الاسلام .

× دراسة أصول المذاهب فى العالم قديما وحديثا .

× دراسة اللغة العربية دراسة جيدة كما درسها الاسلاف .

وهاجم الشيخ المراغى الكتب القديمة وقال أنها كتب معقدة لها طريقة خاصة فى التأليف لا يفهمها كل من يعرف اللغة العربية وإنما يفهمها من مارسها ومرن على فهمها وعرف اصطلاح مواقعها ودعا إلى الاستغناء عنها بأحسن منها .

وقد تحقق وفق هذا المنهج (جمادى الآخرة ١٣٤٣) تحول الازهر ألى جامعة كبرى لتخريج أساتذة علوم اللغة العربية والدين والقضاء الشرعية وأن تكون شهادة التخصص فيه مساوية لشهادات المدارس العليا وإرسال بعثات من متخرجيه إلى الجامعات الاوربية لدراسة العلوم ، وادخل فى القسم الثانوى العلوم المدنية التى يشمل عليها منهج المدرسة التجهيزية الملحقة بدار العلوم ومنهج القسم الادبى المدارس الثانوية الاميرية . وحددت مدة التخصص ثلاث سنوات بعد الحصول على الشهادة العالمية كما أدخلت اللغات الاجنبية إلى الازهر (١٩٣٥) وهى الانجليزية والفرنسية والفارسية واليابانية والصينية فى كلية أصول الدين لمختلف السنين .

وسافرت أول بعثة أزهرية إلى المانيا عام ١٩٣١ باسم بعثة محمد عبده . كما سافرت بعثة أخرى إلى باريس (أغسطس ١٩٣٦) وتواصلت بعد ذلك البعثات .

وقد يحقق لأفراد البعثات الحصول على اجازات الدكتوراه وكان أولها عن الأخلاق عن بن مسكوية (أحمد يوسف موسى) وعن سبينوزا (محمود حب الله) وعن الشريعة الاسلامية من السربون (عبد الرحمن تاج) .

كما تحقق فى عام ١٩٣٦ ابدال الجراية الأزهرية بمرتبات شهرية وقد كان بحث استبدالها قد بدأ عام ١٩١٠ بعد أن ترددت الشكوى من رداءة الخبز الأزهرى وقد أشارت المذكرة الخاصة بإلغائها أن هذه العادة وأن كانت تقليدا من تقاليد الأزهر إلا أنها أصبحت تجافى التطور العلمى .

كما تحقق اشتراك الأزهر فى عديد من المؤامرات الدولية :

* مؤتمر جامعة غرناطة (ديسمبر ١٩٣٢) .
* مؤتمر القوانين الدولى – لاهاى (أغسطس ١٩٣٧) .

— ٢ —

لقيت حركة اصلاح الأزهر التى قام بها المراغى عنه هجوما عنيفا من جهة الاستعمار والتغريب وحوربت وهوجم أسلوب الأزهر فى التدريس باللغه العربية حتى قال الدكتور أمير بقطر فى مؤتمر التعليم الذى عقد فى جينيف ١٩٢٩ أن الأزهر خلق فى طبقة معينة من السكان عقلية خاصة تتصادم مع مبادىء القرن العشرين ومثله العليا فقد أسدلت حجابا كثيفا وأقامت حائلا منيعاً بين ما نسميه العقلية الأزهرية وعقلية سائر الشعب المصرى ، عقلية لا تتفق إلا مع العصور القديمة الفطرية » .

وقال الدكتور رول جوست عميد كلية الاداب الثقافى الأمريكية « أن أثر العربية كما نراها فى الأزهر لا يتفق مع التقدم الحديث فى ميدان التربية ونخشى أن الاصلاح الحديث فى الازهر لم يكن إلا من قبل العناية بالسطح دون العميق فادخل الادوات والاجهزة وإنشاء الأقسام لا تجدى نفعا كانما كان النظام ذاته مطبوعا بطابع القرون الوسطى » .

والواقع أن ما تنبأ به دعاة الغزو الثقافى لم يكن صحيحا وأن الازهر حقق بعد اصلاحه نتائج باهرة وشارك مشاركة فعالة فى الثقافة العربية الحديثة .

ولم يتوقف الغزو الثقافى المتصل ضد الازهر فى سبيل الغاية التى رسمها الاستعمار للقضاء عليه ، وذلك بإنشاء عديد من المدارس والكليات والجامعات والمعاهد التى حملت لواء تمزيق جبهة الثقافة العربية وتعديدجوانبها واتجاهاتها ، وبذلك حقق الاستعمار هدفه فى القضاء على هذه الثقافى العربية ، ويرجع هذا أصلا إلى خطأ محمد على فى فصل التعليم عن الأزهر دون تطوير الازهر نفسه لتحقيق هدف التعليم العام المدنى .

مهمة الأزهر

كانت الدعوة إلى إصلاح الازهر فيما بين عام ١٩٢٩ الذى بدأت فيه بمذكرة المراغى إلى عام ١٩٣٥ حيث عاد المراغى إلى الازهر فرصة واسعة لدراسات ومراجعات متعددة عن مهمة الازهر ودوره فى الحياة الفكرية العربية والاسلامية .

وقد تحدث الكثيرون من الباحثين عن مهمة الازهر فى العصر الحديث ومن رأى محمود الشرقاوى (٢ مارس ١٣٣٦) أن مهمة الازهر ليست تخريج واعظين للشعب ومعلمين فى مدارس الحكومة وحفظة للقرآن أو عرفاء فى الكتاتيب وإنما مهمته تخريج صنوف من الرجال لهم أعمال ولهم مطامع وآمال وبين جفونهم وفى رؤسهم قلوب وعقول أبهى نوراً .

وأن أول مهمة للأزهر مسايرة العصر وما فيه من التيارات المختلفة للذهن والحضارة والتفكير . وليس معنى هذا متابعة العبيد بل نزع خلق الانكفاف والجبن العقلى والخوف من الدنيا والانزواء من الرأى والصد عن كل جديد والخروج من هذا الخلق السلبى إلى روح إيجابى مقبل على الايام والأحداث مشرف على سير الناس والحضارة مرتقب لكل جديد من الفكر .

وكان من رأى الشيخ محمود شلتوت أن يقوم إصلاح الأزهر على أساس التخلص من روح المناقشات اللفظية والتقديس للاراء والافهام التى دونها السابقون السمو بها عن مستوى النقد وكذلك التخلص من روح الاشتغال بالفروض والاجتماعات العقلية واختراع الحيل التى يتخلص بها من الحكم الشرعى . وكذلك التخلص من روح للتعصب المذهبى الشديد .

— ٤ —

وقد حقق الازهر وجوده باشتراكه فى عديد من المؤتمرات العالمية كمؤتمر جامعة غرناطة (ديسمبر ١٩٣٢) .

ومؤتمر الأديان العالمي في لندن ١٩٣٦ ومؤتمر القوانين الدولي في لاهاي (أغسطس ١٩٣٧) .

وفي مؤتمر الأديان العالمي وجه الشيخ المراغي رسالة دعا فيها إلى تعاون أهل الأديان على تقوية الشعور الديني وإعادته يغمر القلوب ويملأ النفوس هيبة ورهبة من الله . وعلى إعزاز مركز الأديان أمام العلم وأمام تيارات التقدم العلمي والتحرر الفكري . وقال: أن تقوية مركز الأديان يقي الحياة الإنسانية من خطر تحكم المادة .

وأشار إلى أن الهدف هو جعل التدين أداة فعالة في تهذيب الجماعة وتمكين العوامل المعنوية التي تشترك فيها الأديان من التأثير في الحياة الإنسانية الواقعية . وكذلك العمل على توجيه التشريع إلى تأييد الأصول العامة المشتركة في الأديان .

وقد حقق مؤتمر لاهاي نصراً كبيراً للاسلام والأزهر إذ أعلن « أن الشريعة الإسلامية لم تتأثر بالقانون الروماني . بل هي شريعة مستقلة قائمة بذاتها ولا يوجد دليل مباشر أو غير مباشر يمكن أن يستنتج منه من الوجهة التاريخية أن القانون الروماني كان له أي تأثير على الشريعة الإسلامية وأن الشريعة الإسلامية تحمل العناصر الكاملة التي تجعلها صالحة للتطور مع حاجات الزمن والمدنية » .

وقد كان هذا رداً حاسما على كل التهم التي ساقها دعاة التغريب بالنسبة للشريعة الاسلامية والإسلام (اقرأ صحف ٢٦/١١/١٩٣٧) وقد كانت اللغة العربية هي إحدى اللغات الرسمية في هذا المؤتمر .

وبالرغم من محاولات الإستعمار لعزل الأزهر عن التطور الفكرى ، وإبعاده عن محيط الحياة العامة ، فأن الأزهر شارك فى مختلف الأحداث وكان له دوره فيها : قاد الثورة على الحملة الفرنسية وقاد ثورة ١٩١٩ على الاستعمار البريطانى من قلب الأزهر ووقف من أحداث المغرب (الظهير البربرى) وليبيا (مقتل عمر المختار) وأحداث فلسطين وسوريا موقف الدفاع ، كما هاجم حركة التبشير الكبرى فى مصر ١٩٣٣ حيث طالب بجمع الكتب التى وضعها المبشرون للطعن فى الاسلام والف لجانا فى مختلف الأقاليم لمناهضة المبشرين .

وطالب الشيخ عبد العزيز شاويش عام ١٩٢١ بإدخال تعليم الفتاة إلى الأزهر وقد اعترف الأب الكسيس مالون اليسوعى (م ٤ مجلة المشرق ص ٤٩) بإجماع علماء الاسلام على أنه لولا هذه المدرسة لما استمرت اللغة العربية لغة الشريعة فى الممالك الاسلامية » .

وقد حمل الأزهر ثلاث أمانات : حفظ التراث العربى الاسلامى وذلك بحماية اللغة ، وحماية الشريعة وقيادة الحركة الوطنية . وبالرغم من مهاجمة كرومر وخلفائه له ، ومهاجمة الصحف التى جرت فى ركاب الاستعمار والتغريب ، وبالرغم من محاولة عزله عن التطور فى مناهجه ورسالته ، وانفصال التعليم المدنى عنه فقد ظل يحتفظ بنفوذ خطير .

وقد خرج الأزهر عدداً كبيرا من أعلام الحياة الفكرية العربية : أمثال حسن العطار وحسن الطويل ورفاعه الطهطاوى وعياد الطنطاوى والمرصفى والمهدى ومحمد عبده وابراهيم النبرواى أبو خطرة كما خرج طائفة من الزعماء أمثال سعد زغلول وابراهيم الهلباوى وعبد السلام المويلحى وابراهيم اللقانى وعلى يوسف .

ومن عجب أن أغلب الذين عارضوا أفكار الاسلام وجروا فى ركب التغريب

كانوا من الأزهر أمثال : طه حسين وعلى عبد الرازق وزكى مبارك وأن الذين دافعوا عن الاسلام كانوا من خارج الأزهر : أمثال جمال الدين الأفغانى وفريد وجدى واحمد تيمور وعبد الحميد سعيد ومحب الدين الخطيب ورشيد رضا .

وقد صور اللورد لويد فى كتابه (مصر فى عهد كرومر) ملامح الخطة التى أريد بها إبعاد الأزهر عن مجال التطور والمشاركة فى الحياة العامة بحسبانه قوة تقف فى وجه الأهداف الاستعمارية لتغريب الفكر العربى قال « أن أهمية الأزهر بصفته مركزاً من مراكز الرعاية المادية لبريطانيا كبيرة متعددة الامكانيات وقد أدرك الوطنيون ذلك فحاولوا استغلاله لتأييد مأربهم ، وترتب على ذلك نمو روح المعارضة الشديدة لسيطرة الانجليز على التعليم به . أن التعليم الوطنى عند ما قدم الانجليز بمصر كان فى قبضة الجامع الأزهر الشديد التمسك بالدين والذى كان أسلوبه الجاف القديم يقف حاجزاً عن طريق أى إصلاح تعليمى . وكان الطلبة الذين يتخرجون منه يحملون معهم قدراً عظيما من غرور التعصب فلو أمكن تطور الأزهر عن طريق حركة تنبعث من داخله هو لكانت هذه الخطوة جليلة الخطر، على أن الخطة الأولى التى يقوم بها إصلاح الأزهر من داخله أقوى فى اتخاذ ما نحن فى أشد الحاجة إليه من إقامة العلائق الانجليزية المصرية على أساس من التفاهم والتعاطف المتبادل » .

وكان معنى هذا أن التطور الذى يتطلع إليه الاستعمار هو تحوله عن هدفه فى حماية اللغة أو التسامح مع الاستعمار فى بث آرائه أو التخفف من العمل فى مجال الحركة الوطنية ومعنى خطة إصلاح الازهر من داخله إنما تعنى الالتقاء مع الاستعمار الغربى بما يحقق إقامة العلاقات المصرية البريطانية على أساس من التفاهم ولما كان ذلك غير ممكن ، فقد حرص الاستعمار على خلق معاهد جديدة لتخريج معلمى اللغة العربية والقضاء ، وفرق بين القيم المادية للمتخرجين من

مدرسة القضاء الشرعى ودارالعلوم وكلية الآداب وبين خريجى كلية اللغة العربية وكلية الشريعة الأزهريتان . وكانت هذا محاولة لقصر الأزهريين على الامامة والخطابة فى المساجد ، وبذلك شعر الأزهريون بأنهم أقل منزلة فإذا طالبوا بمساواتهم اتهموا بأنهم طلاب دنيا وليسوا أصحاب رسالة .

وقد كان واضحا أن القس دنلوب عمد على إبعاد الأزهريين عن المدارس الأولية والإبتدائية ، وكان هذا جريا مع الخطة التى ترمى إلى إقصاء الدين المناهج الدراسية .

وهكذا حقق الاستعمار :

× خلق ثنائية التعليم :
× عزل الأزهر وتجميده وخلق مدارس ومعاهد تتصل بالعلوم الحديثة .
× التفرقة فى القيم المادية بين خريجى الأزهر وخريجى المعاهد الأخرى .
× إقصاء الاسلام عن المناهج الدراسية .

وغلب على منهج الدراسة مذهب «ديوى» الذى يزدرى بالقيم والدين والروحية ويدعو إلى مناهج تتصل بالحياة الواقعية .

وفى الوقت الذى كانت مناهج التعليم الرسمية فى مصر تتبع مذهب ديوى فى إقصاء الاسلام عن برامجه ، كانت المعاهد الاجنبية على اختلاف أنواعها والتى يدرس فيها ٧٠ ٪ من المسلمين تدرس المسيحية بمذاهبها وثقافتها .

ويمكن القول بأن هذه الخطة التغريبية التى اصطنعها الاستعمار مع الأزهر قد اصطنعت مع المعاهد التى تدرس اللغة العربية والاسلام فى مختلف أنحاء العالم العربى كالزيتونة فى تونس والقرويين فى المغرب حيث عمد الاستعمار إلى خلق جامعات ومعاهد تدين له بالولاء وتسير وفق مذاهبه ويخضع لسلطانه وأن كانت هذه المعاهد لم تلبث أن تحولت شيئاً ما عما أريد لها .

التعليم

ركز الاستعمار فى أكبر جانب من حملة التغريب على التعليم وركز الغزو الثقافى أساساً على محاولة تغيير مناهج التعليم فى العالم العربى كوسيلة لدعم الاستعمار وبقائه بخلق جيل جديد من الشباب يصل إلى مقاعد الحكم يؤمن بصداقة الغرب ، ولذلك عمد إلى تشكيله على نحو « مستغرب » قليل الصلة بالتراث العربى ، بعيد عن مفاهيم الحرية والكرامة والقوة التى تبثها تعاليم الروحية العربية ، منكراً لروابط الدين واللغة العربية والتاريخ العربى ، معلق الطرف بأمجاد أوربا وعظمة حضارة الغرب ، ساخراً مستخفا بأمجاد العرب ، وقد ركز الاستعمار على تحقيق هذه الغاية فى التعليم بوسائل متعددة :

- × أنشاء مدارس الأرساليات الإجنبية والطوائف الدينية المختلفة .
- × تجميد الجامعات الدينية الكبرى وخلق نظم دارسية مدنية مستقلة ومنفصلة عنها .
- × قصر التعليم على أبناء الاغنياء وحدهم الذين يدفعون المصروفات وإلغاء المجانية وحرمان الفقراء من التعليم نهائيا .
- × وضع برامج مدرسية تهدف إلى تخريج موظفين فقط .
- × التوسع فى أنشاء الكتاتيب والحيلوله دون أنشاء التعلم العالى .
- × القضاء على اللغة العربية بادخال لغة المحتل وجعلها اللغة الأساسية فى مختلف علوم الدراسة .
- × الغاء تدريس الدين الإسلامى نهائيا . ودراسة فلسفات ترتبط بالأديان البائدة واليهودية والمسيحية .

× تشويه التاريخ العربي بفرض كتب بأقلام المستشرقين تتهم الاسلام بأنه دين السيف وترسم للعرب صوره مزدراه .

× التوسع فى دراسة تاريخ الدولة الفرنسية والدولة الإنجليزية وتاريخ أوربا وحروبها وأبطالها .

وفى مصر كان خطأ محمد على أنه انفصل عن الأزهر وأنشأ تعليما مدنيا فى حين أن جميع الجامعات الأوربية كانت جامعات دينية فى أول الأمر ثم تحولت مدنية ، بل أن الأمريكيين واليسوعيين حين أنشأ كل كليته فى لبنان بدأت دينية لاهوتيه محضة ثم تحولت مع الزمن إلى كلية عصرية .

غير أن سيطرة النفوذ الفرنسي على محمد على قد مكن الخبراء الفرنسين الذين يحملون لواء دعوة التغريب والغزو الثقافى من أن يفرضوا أنشاء تعليم مدنى لخلق ثنائية التعليم التى تؤدى إلى تخريج طوائف مختلفة الثقافة مما يؤدى إلى البلبلة والصراع وقد حدث هذا فعلا .

وفى تونس حيث يوجد جامعة الزيتونه وفى المغرب حيث توجد جامعة القرويين وفى الجزائر حيث توجد جامعة القيروان وكلها على نسق الأزهر حرص الاستعمار على تجميدها وأنشاء أنظمة أخرى للتعليم لخلق هذه الثنائية أيضاً وللقضاء على اللغة العربية .

الاستعمار والتعليم

حرصت الدولتان المستعمرتان (فرنسا وانجلترا) وتبعتهما أيطاليا فى ليبيا — حرصت كل منهما على نشر ثقافتها ولغتها فى الأقطار التى تحتلها باعتبار أن النفوذ الثقافى مقدمة للنفوذ السياسى .

وقد قامت مناهج التعلم والثقافة الاستعمارية على أساس تغليب لغة الدولة المستعمرة ومحاولة القضاء على اللغة العربية باعتبارها لغة غير أساسية أو بالاغضاء

عنها أو تغليب اللغة العامية عليها . كما حرص على أن يوجه التعليم توجيها يقصد به تخريج الموظفين والعمال الذين تحتاج إليهم مصالح الحكومة .

فضلا عن أن نظم التعليم ومناهجه كانت تعمل على تأكيد قيام قوميات ضيقة أساسها التجزئة وتعميق هذه الدعوات بما يؤدى إلى فصل القطر الواحد عن العالم العربى من الوجهة الثقافية مع القضاء على التاريخ القومى والتراث الروحى والامجاد الإسلامية والعربية المرتبطة بالمعارك ومقاومة الأعداء المغيرين وكذلك حجب تراجم الابطال والقادة والاعلام .

وقد أرتبط هذا النظام بعقد معاهدات ثقافية تفرض فيها الدول الغربية على الدول العربية نظمها واتجاهاتها الهادفة إلى الاستعمار التعليمى والثقافة وفرض استيراد أساتذة ومعلمين من البلاد المستعمرة يحملون أساليب التغريب، ومحاولة خلق روح الاعجاب بأدب وأمجاد وبطولات الدول المستعمرة وفرض تاريخ البلاد المستعمرة على الشباب العربى ومحاولة الايهام بوجود خلافات جذرية بين الدول العربية فى الجنس والثقافة والوطن .

ومن هذا ما حاولته فرنسا فى سوريا ولبنان وتونس والجزائر ومراكش من الدعوة إلى حضارة البحر الأبيض المتوسط وربط هذه الاجزاء العربية بالثقافة اللاتينية .

وفى المغرب : فرق الفرنسيون بين البربر والعرب وذلك بحرمان البربر من تعلم اللغة العربية وأحياء لهجاتهم القديمة بغية تمزيق الجبهة الوطنية .

وقد أرتبط هذا بتقييد السفر والتنقل بين البلاد العربية بقيود ثقيلة والحيلولة دون أنتشار الكتب المطبوعة فى البلاد العربية وتشجيع اللهجات واللغات المحلية لبعض الطوائف « لتبعيد » البلاد العربية بعضها عن بعض على حد تعبير ساطع الحصرى .

تجربة مصر

وقد كانت تجربة مصر من أقسى هذه التجارب :

(١) حول التعليم بعد الاحتلال إلى اللغة الانجليزية تدريجيا ولم يكد يهل عام ١٩٠٠ حتى كان التعليم فى جميع المدارس العالية والثانوية باللغة الانجليزية فتدهور التعليم وعجز الطلبة عن اجتياز حلقات الدراسة لرسوبهم مرتين وثلاثا وأوقف «دنلوب» تأسيس المدارس إلا فى حدود العدد الذى يكفى لتخريج الموظفين . والغيت مواد العلوم من المدارس مثل التاريخ الطبيعى .

(٢) الغيت « المجانية » فى جميع المدارس (بأنواعها الثلاث) وحرم أبناء الفقراء من دخولها ، وأعلن يعقوب أرتين وكيل المعارف وعميل الاستعمار ويد دنلوب فى التنفيذ « أن وجود المجانية فى المدارس فى مصر أمر غير عادل » .

وسجل كرومر هذا فى تقريره سنة ١٩٠٠ فقال أنه فى عام ١٨٧٩ كانت نسبة المجانية فى الحكومة ٩٥ ٪ أما فى السنة الماضية (١٨٩٩) فإن نسبة الذين يدفعون مصروفات مدرسية كانت ٥ / ٩٨ فى المائة وفى المدارس الثانوية ٨٦ ٪ وأنا واثق من أن هذه السياسة ستظل متبعة بثبات حتى تلغى طريقة التعليم المجانى كلية أو تكون فى حكم ذلك . وسجل فى تقريره ١٩٠٤ أن تلميذا واحداً فقط يتعلم الآن فى المدارس بالمجان .

الرد على مؤامرات الاستعمار فى التعليم

(٣) استبعد التعليم دراسة التاريخ القومى . ووضعت المناهج بصورة عملت على هبوط مستوى التعليم الثانوى بحيث أصبح يعادل مستوى التعليم الابتدائى فى فرنسا (من مذكرة ناظر مدرسة الحقوق المصرية الفرنسى) .

وبلغ جملة ما أنفق على التعليم خلال ٢٥ سنة من عهد الاحتلال ٢٫٨٠٠٫٠٠٠ جنيه من ميزانية بلغت ٢٥٨ مليون جنيه أى بنسبة واحد فى المائة .

وقد نقص عدد المدارس بعد الاحتلال بنسبة الربع ، كما نقص عدد تلاميذ المدارس . كما جمد الاحتلال (التعليم الدينى) الذى كان قائما على الثقافة الدينية وتخريج طائفة من المعلمين والفقهاء فى القرى بما فى ذلك الأزهر الشريف .

وأوقف الاستعمار أعانة الكتاتيب الأهلية وكان عددها ٩٦٤٧ كتابا .

كما حاصرت سلطات الاحتلال التعليم الثانوى والعالى فلم يكن بعد ١١ سنة من الاحتلال (١٨٩٣) سوى ثلاث مدارس ثانوية أميرية .

وعمدت بريطانيا إلى عدم السماح للوطنيين بالانضمام إلى هيئة التدريس ومحاربة الازهريين ومعلمى الدين واللغة منهم والحلولة دون تسرب أبناء الفقراء إلى معاهد العلم حتى يظل التعليم قاصراً على أبناء الأغنياء الذين هم صنائع المستعمر أصلا والذين يدينون له بالثروة والحكم والبقاء ، وذلك فى سبيل أعداد جيل (مرن) متفاهم ، يلتقى بالاستعمار لقاء الصداقة لا الخصومة وهو الجيل الذى سيطر فعلا على الحكم فى العالم العربى فى الثلاثينات من هذا القرن .

٤ — صور اللورد كرومر منهجه فى التعليم فى تقرير ١٩٠٠ (المقتطف مايو ١٩٠٠) على أنه وسيلة للاستخدام فى وظائف الحكومة قال : ينظر كثيرون من الناشئة المصرية المتعلمة إلى الاستخدام فى وظائف الحكومة كغاية لهم . المدارس التى أنشدها وأرغب فى أن أراها هى التى تعلم فيها القراءة والكتابة والحساب باللغة العربية ويكون الغرض منها تعليم الصنائع . لابد لجعل التلامذة يقومون بجانب من نفقات تعليمهم . يسرنى أن أقول أن نظارة المعارف رأت مضار التعليم المجانى وحاولت تلافيها منذ سنوات . فى ١٨٧٩ كان الذين يتعلمون

مجانا لا أقل من ٩٥ فى المئه من التلامذه الذى يتعلمون فى مدارس الحكومة . فى السنة الماضية كان عدد التلاميذ الذين يدفعون أجرة التعليم ٥ر٩٨ فى المائه فى المدارس الإبتدائية و ٨٦ ٪ فى الثانوية وأرجو أن يستمر هذا الأمر حتى يبطل التعليم المجانى تماما . الذين يتعلمون لغات أجنبية ٥٨٣٥ منهم ٨٥ فى المائة يتعلمون اللغة الإنجليزية . لابد من تعلم من هؤلاء لغة أجنبية ذلك أنه ليس فى العربية كتب للتعليم فى بعض العلوم . أن اجتهاد الذين يهمهم أمر التعليم . يجب أن يكون مصروفا إلى ترقية التعليم الإبتدائى بواسطة « الكتاتيب » الاحصاء الآخر دل على أن ٥ر٨٩ فى المائه من الذكور و ٧ر٩٩ فى المائه من الاناث لا يعرفون القراءه والكتابه . يبلغ عدد الكتاتيب فى القطار المصرى ٩٤٠٤ أعانت الوزارة ٢٤٦ كتّابا منها .

وهكذا يكشف تقرير كرومر عن روح الاستعمار البريطانى فى مصر من ناحية التعليم على نحو واضح الدلالة وهى .

× الانصراف من التعليم العالى إلى الكتاتيب .

× الغاء التعليم المجانى والقضاء على تعليم أبناء الفقراء .

× التعليم باللغة الانجليزية والقضاء على اللغة العربية .

× تخريج موظفين فقط .

٥ — أدى أهمال التعليم على أساس قاعدة « جهل الشعوب نافع للاستعمار وأنه بانتشار التعليم يصعب حكمهم » على حد تعبير أحمد شفيق فى كتابه « مصر الحديثة ونفوذ الأجانب » إلى انحطاط مدرسة الهندسة والطب فقد وكل الأمر فيها إلى أساتذة من الانجليز « لم يكونوا يحملون شهادات تؤهلهم للعمل فيها حتى قل تلاميذ مدرسة الهندسة ، فلم يكن فيها عام ١٨٩٤ سوى ١٧ طالبا

وكذلك مدرسة الحقوق التى ضعف التعليم فيها بعد أن عزل كرومر المشرفين عليها من العلماء الفرنسيين وتولاها « رجال من الانجليز لم تكن لهم الكفاءة المطلوبة » .

اللغة العربية

حوربت « اللغة العربية » كجزء من خطة القضاء على القومية العربية وقطع الصلة بين الماضى والحاضر، وقد أشار اللورد دوفرين فى تقريره (١٨٨٢) إلى خطر اللغة العربية فى التعليم فى مصر .

فقال « أن الأمل فى نجاح تهذيب العامة فى مصر لايزال ضعيفا مادام الصبيان لا يتعلمون اللغة العربية بدلا من تعلمهم لغة القرآن الشريف كما يفعلون الآن، فأن نسبة العامة إلى الفصحى فى اللغة العربية هى كنسبة اللغه الايطالية الحديثة إلى اللغه اللاتينية القديمة » .

وقد كان هذا بدء حملة ضخمة على اللغة الفصحى فقد جرت تعليمات الاستعمار باغفال أمرها فى المخاطبات ووضع التقارير وتأليف اللوائح والقوانين . وبدأت خطة أدخال اللغة الانجليزية فى المدرسة الابتدائية وجعلت لسان التعلم فى علمى الأشيا والجغرافية ثم دخلت التعليم الثانوى وجعلت لسان التعليم فى علوم الطبيعة والتاريخ والجغرافيا .

ومما يذكر أن اللغة العربية كانت لغة التعليم فى مدرسة الطب حتى أغارت عليها اللغة الانجليزية .

وقد كانت حجة المستشرقين والمبشرين فى الهجوم على اللغة العربية أنها لغة الخاصة وأنه لابد لنشر التعليم بين جميع طبقات الشعب من اللغة المحكية (العامية) وهى حجة واهية لم تجد لها مبرراً وقد فشلت هذه الخطة وقضى عليها قضاءا تاماً .

وقد أضطهد دنلوب مدرسى اللغة العربية فى وزارة المعارف وكان هو ورجاله يزدرون لابسى العمائم ويعملون على النيل منهم .

البعثات

وكما عمدت بريطانيا إلى أيقاف البعثات إيقافاً نهائياً فلما أذنت بعد ذلك بإيفاد بعثات وجهت ٩٠ فى المائة منها إلى بريطانيا .

وقد أعلن تصريح فى مجلس العموم البريطانى (٨ مارس ١٩٠٧) عن البعثات والتعلم جاء فيه « لقد مكثنا فى مصر مدة ربع قرن وصلنا بالمصريين إلى الانحطاط فى التعلم وكان لهم بعثة علمية ينتخبونها من نجباء طلبتهم ، أما نحن فقد الغينا هذه البعثة واستبدلاناها بلا شىء .

وقد كانت البعثات ١٩١٧ لا تزيد عن ٢٥ طالبا يتلقون العلم فى انجلترا ثم زادت سنة ١٩٢٠ أى ٣١ طالبا .

المدارس الأجنبية

وقد حرص الاستعمار البريطانى على تعديد الوان الثقافات لتمزيق جبهة الثقافة والفكر العربى والقضاء على وحدته ؛ فأذن لعشرات من الأرساليات بأنشاء المدارس وقد كانت هذه المدارس حرة فى دراساتها وغير مشرف عليها ، خاضعة لسلطان الامتيازات الاجنبية ، وكانت هى أوكار التبشير والعدوان على الاسلام واللغة العربية والقومية العربية وكل مقوماتنا وأمجادنا . وقد استهوت هذه المدارس الطبقات الارستقراطية على حد تعبير محمد العشماوى (يناير ١٩٣٩ — مجلة الحديث) بحسن قيامها على اللغة الاجنبية الأساسية لها وقد كان نجاحها قائما على أنقاض اللغة العربية .

وقد كان من الاعاجيب أن كتب التاريخ العربى والاسلام قد وضعها

مبشرون مليئة بالسموم والاكاذيب وأن قام أمثال الخواجة ميشيل والخواجة توما — على حد تعبير (الرسالة — ١٧ ديسمبر ١٩٤٥) على تدريس سيرة النبي وأبي بكر وعمر . وقد بلغ الأمر أن ذهب أبناء العرب إلى أوربا ليتعلموا «اللغة العربية» لغتهم، على المسيو مارسيه في باريس «كأنما باريس هي بادية البصرة وكأن مارسيه من فصحاء بني عقيل أو كأنه الاصمعي أو الخليل» وهكذا جنت المدارس الأجنبية على أجيال متتالية خرجت منحرفة عن إيمانها بوطنها وتراثها وثقافتها وعقائدها ، حيث تلقوا دروسها على أجانب لا بصر لهم بعلوم العربية ولا علم لهم بمصادرها ولا قدرة لهم على فهمها » .

وكانت هذه المدارس هي أعلى مظاهر الاستعمار الثقافي .

وقد شهد مستر (جب) المستشرق الانجليزي المعروف بهذا الخطر حين قال « في أواخر القرن التاسع عشر نفذت الخطة إلى أبعد من ذلك بأنماء التعليم العلماني تحت الاشراف الانجليزي في مصر والهند . ولعل نصيبنا من الحق في التهمة التي ترمى بها المدارس الاجنبية من أنها مفسدة لقومية التلاميذ . فقد ربت في التلاميذ خروجا على الانظمة الاجتماعية » . .

وقال سير (بانيكار) في كتابه مشكلات الدول الاسيوية والافريقية «أن هذه المؤسسات اصبحت موضع ريبة وشك ، حتى الجامعة الامريكية التي بقيت مدة طويلة تعتبر مركز النهضة القومية نالت قسطها من النقد من قبل الوطنية ، ذلك أن القسم الأكبر من الجهود التربوية يقوم به مبشرون من رجال الدين ، وكان من الطبيعي أن يسيطر جو ديني على الكليات مما يضفي عليها صبغة مسيحية وأن هذا له أثره في إزعاج الأكثرية وأنه لم يكن محاولة لتغليب اللغة ولكن لتغليب الدين أيضاً وأن من معايب النظم التربوية الحديثة فقدان المثل الاجتماعية

العليا والتوجيه السليم ، ولم يكن من مصلحة الاستعمار أن تروج تربية حيوية تدعو إلى الانطلاق . كان يراد التقليل من قيمة الثقافة الوطنية وتمجيد فضائل السيد الاجنبي وإبراز أهداف التربية الاستعمارية وإثارة الروح الانهزامية في نفوس المواطنين لتتمكين من التحكم بهم وبمجيرأتهم دون عناء كبير »

وقال فولتين شيرول فى كتابه (The Egyptian Problem) أنه مهما يكن الأساس الذى نقيم عليه حكمنا على نظام التعليم الذى أعد لناشئة المصريين تحت الحكم البريطانى فإنه لم يستهدف البته تحرير البلاد ، ولاشك أنه أعظم اخفاق لنا . فبعد انصرام ما يقرب من أربعة عقود من السنين ما تزال الامية تعم ٩٢ ./. من الذكور و ٩٩ فى المائة من الأناث بين سكان القطر العربى وقالت الدكتورة علاء عز الدين (العالم العربى ص ١٧٠) أن التعليم فى مصر كان متجافياً مع طبيعة الشعب وبيئته فكان تلقيته بلغة أجنبية وكان يتجه اتجاها نظر يا دون الإلتفات إلى حاجات الشعب .

وقال الدكتور حافظ عفيفى فى كتابه « على هامش السياسة » أن كثرة المدارس الأجنبية قاومت كل حركة ترمى إلى تمصيرها ، كما أهملت اهمالا شنيعاً أمر تعليم تلاميذها لغة البلاد وتاريخها وثقافتها واهتمت بتعليم لغة البلاد التى تنتمى إليها وحدها .

المدارس الأجنبية

كما حرص الإستعمار على إنشاء معاهد وكليات انجليزية صرفه خصها بجانب كبير من عنايته واعتبر خريجيها هم الحكام الجدد فى العالم العربى ، فى مقدمة هذه الكليات : كلية فكتوريا التى خرجت أمين عثمان والأمير عبد الإله وتاريخهما معروف . وتكشف كلمة اللورد لويد فى احتفال كلية فكتوريا السنوى بالإسكندرية ١٩٢٦ الصورة الكاملة لهذه الكلية وهدفها (المقتطف ص ٥٣٠ مايو ١٩٢٦)

« قد يهمكم ان تعلموا أن أبناء الكلية السابقين ثمانية جناس أو ٩ أجناس مختلفة، وأن من الطلبة الأن ٣٠ فى المائة مصريون و ٢٠ فى المائة سكسون . ومنهم يونان ويهود وإيطاليون وأرمن وسوريون وأحباش وغيرهم .. كل هؤلاء لا يمضى عليهم وقت طويل حتى يتشيعوا « بوجهة النظر » البريطانية بفضل العشرة الوثيقة بين المعلمين والتلاميذ فيكونوا قادرين على أن يفهموا أساليبنا ويعطفوا علينا . وأود كثيراً أن أشعر بأن كلية فيكتوريا تنجب نفراً من نخبة الموظفين والمعلمين والتجار . هذه الكلية تنمى فيهم الشعور الانجليزى ما يكون كافيا لجعلهم صلة للتفاهم بين الشرق والغرب وأن كل هذه المشاكل التى بين (بريطانيا ومصر) تحل إذا تعلم كل من الانجليز والمصريين أن ينظر إلى رأى الفريق الآخر نظراً مقرونا بالفهم والعطف » .

مفهوم التعليم

ولا شك أن مناهج التعليم فى ظل الاحتلال كانت خالية من كل ما يقوى الروح الوطنى أو يشجع التفكير الصحيح . وكان التعليم لا طابع له من القومية يدل على أنه مستمد من روح الأمة ماضيها وعاداتها وتقاليدها — على حد تعبير محمد العشماوى — وهو صاحب خبرة طويلة فى وزارة المعارف — يرى أنه برنامج متشعب المواد مهلهل الأطراف خال من دراسة الفنون والأداب ولها مع اللغة الوطنية أكبر الأثر فى إيقاظ الروح القومية .

وقد أجمع الباحثون على أن نظام التعليم كان عاجزاً عن تجهيز الرجل والمرأة بما يجعلهما أكفاء لحمل عبء المسئولية الاجتماعية مما أدى إلى أزمة خطيرة فى الاخلاق فى بلادنا وتدهور القيم الاجتماعية والاخلاقية والسياسية فى هذه البلاد وأن إهمال تعليم التاريخ نضعف الروح الوطنية والقومية فى الصدور حيث يخرج الشاب وهو لا يعلم شيئا عن منشئة واصلة وحضارته .

الصراع بين التعليم الإنجليزى والفرنسى

وقد عمد الإنجليز إلى إحلال لغتهم وثقافتهم محل اللغة والثقافة الفرنسية تدريجيا وخاصة فى المعاهد والمدارس العليا التى كان الفرنسيون يسيطرون عليها مثل مدرسة الحقوق وأخرج الأساتذه الفرنسيون من الوظائف والمراكز المختلفة واحتل الأساتذة الإنجليز بدلا منهم وقد أستبدلت اللغة الإنجليزية فى جميع المدارس باللغة الفرنسية وأعتبرت اللغة الإنجليزية لغة أصلية والفرنسية أضافية ٠

وهاجم كرومر أسلوب التعليم الفرنسى وقال أن أساتذة مدرسة (الحقوق) لا يلامون على ما يرى فى التلاميذ من قلة ما يميزهم بعضهم عن بعض لأنه ليس فى أسلوب التعليم الفرنسى ما يدعو إلى هذا الامتياز ودعا إلى أفضلية الأسلوب الإنجليزى لأنه يجعل التلميذ يعتمد على نفسه ٠

وقد حاولت جبهة الثقافة الفرنسية فى مصر أن تدافع عن التعليم باللغة الفرنسية ، وبررت ذلك بأن اللغة الفرنسية هى لغة التجارة والجمعيات العلمية والصالونات والسهرات والتداول بين الاجانب انفسهم،وهى لذلك أوسع انتشاراً فى هذه البلاد من اللغة الانجليزية ،وأن جميع الشركات بلا استثناء تستعمل اللغة الفرنسية،حتى الشركات الانجليزية فى مصر فمن كتب خطابا باللغة العربية إلى بنك الانجلو أو إلى غيره يأتيه الرد بالفرنسية لا بالانجليزية ولا بالعربية أما صحافتهم فى مصر فلا تطبع بالانجليزية ألا جريدتان هم (الايجبشيان غازيت) والايجبشان ميل والأولى لا يقرأها ألا الانجليز ، وفى مصر خمس جرائد فرنسية مهمه غير المجلات وهى الليبرتية — الريفورم — الجنرال دى كير — البورص - الايكو.

ثم أن الحركة العلمية فى مصر تجرى كلها باللغة الفرنسية فمعظم المحاضرات

التى تلقى فى الجمعية الملكية للاقتصاد والاحصاء والتشريع تلقى باللغة الفرنسية، والجامعة المصرية يلقى فيها بعض محاضرات بالفرنسية ولا يلقى فيها شىء باللغة الانجليزية (الأهرام ١١ / أكتوبر ١٩٢٣) .

وبينما كانت انجلترا تحارب الثقافة الفرنسية كان القصر والحكام الاتراك يؤيدون الثقافةالفرنسية،والمعروف أن صراع اللغتين الفرنسية والانجليزية فى مصر إنما كان على حساب اللغة العربية .

بعد الاستقلال

عندما صدر تصريح٢٨فبراير ١٩٢٢ كان ذلك إيذانا بانتهاء السيطرة البريطانية على مختلف الشئون ، وبدأ عهد جديد هو عهد الاستقلال ، وقد تركت بريطانيا ظاهريا سيطرتها على التعليم وتخلى المستشارون الإنجليز عن مناصبهم ولكن هل انتهى نفوذهم ؟

لقد كان الأمر كله مجرد اختفاء من فوق المسرح السياسى واخراج المسرحية من وراء الكواليس ،فهم قد أختفوا فملاخلف المصريين من عملائهم وبقى نفوذ دنلوب فى وزارة المعارف قائما واستمرت الخطة التعلمية كما هى تستهدف تخريج موظفين فقط وظل القائمون بأمر التعليم فى وزارة المعارف ممن رباهم دنلوب هم أصحاب الرأى الأعلى . وجد فريق جديد من المؤمنين بمذهب « ديوى » الذى ينص صراحة على أقصاء الدين من المناهج الدراسية وقد ظهر دعاة لأسلوب التربية الانجليزى أمثال عطية الابراشى صاحب مقالات التعليم فى انجلترا — الأهرام: مارس ١٩٣١) والدكتور مأمون عبد السلام (التعليم فى لندن الأهرام - فبراير ١٩٣٣) وحافظ عفيفى صاحب كتاب الانجليز فى بلادهم .

معركة المقاومة

ولقد قاوم الفكر العربى اتجاه التعليم كما رسمه الاستعمار منذ اليوم الأول

ولم يستسلم له أو يقبله ، وظل يصارع الانحراف التغريبي ممثلا فى كرومر ودنلوب وسعد زغلول وغيرهم فى معركة طويلة ممتدة .

وقد كانت مدرسة الحقوق أكبر مركز مقاومة ضد الاستعمار الانجليزى حيث تحولت إلى خلية من خلايا الوطن المصرى ،لم تعدم مصر أمثال أحمد حشمت وزيرا للمعارف يقاوم الانجليز ويصطدم بالاحتلال أصطداماً شديداً ، وكان بينه وبين كتشنز ودنلوب معارك متعددة فى هذا الصدد ، وعندما تولى نظارة المعارف ١٩١٢ أعاد قلم الترجمة لتعريب الكتب وأخذ فى إحياء أدب اللغة العربية وطبع الكتب العربية النادرة وبحث مشروعاً لإنشاء مجمع علمى أو اكادعية لإحياء الاداب العربية يكون الغرض منها أصلاح اللغه العربية .

وقد أدخل علم الصحة فى المدارس وأنشأ روضة الأطفال ومدارس التدبير المنزلى وفتح باب التأليف والترجمة للكتاب والمؤلفين .

وقد انزعج الاحتلال لهذه الخطوات وأسرع بنقله إلى وزارة الأوقاف لتجميد نشاطه وقد كان حشمت صوره مضاده لسعد زغلول .

وقد تركزت هذه المقاومة فى (١) معركة اللغة العربية (٢) معركة تعليم الدين (٣) تعليم الفقراء والمجانية .

١ — اللغة العربية

وقد بدأت هذه المعركة عام ١٩٠٦ وكان أول من طالب بأصلاح التعليم على يوسف صاحب المؤيد حيث قدم اقتراحاً فى الجمعية العمومية بطلب عرض لوائح التعليم على الجمعية قبل أقرارها . واقترحت الجمعية العمومية على الحكومة ١٩٠٧م أن تجعل تعليم العلوم فى مدارسها باللغة العربية أن تكون العربية قاعدة التدريس كما كانت قبل الاحتلال ، ونص الاقتراح على « تعليم العلوم فى مدارس الحكومة

باللغة العربية مع إيجاد الوسائل الفعالة لإيجاد الكتب العربية الصالحة فى كل علم وفن .

وقد عارض سعد زغلول الاقتراح (وكان وزير المعارف الذى رشحه كرومر) فأظهر رغبته الشخصية فى إحياء لغة البلاد لولا ما يراه من العثرات فى سبيل هذه الامنية فهو يرى « أن الحكومة لم تقرر التعليم باللغة الاجنبية ألا ليتقوى التلاميذ فيها وعليهم الاستفادة من المدنية الأوربية ويفيدوا بلادهم ويقووا على الدخول مع الاجانب فى معترك الحياة » .

إلى أن قال : وإذا فرضنا أنه يمكننا أن نجعل التعليم من الأن باللغة العربية وشرعنا فيه فعلا،فاننا نكون قد أسأنا إلى بلادنا وإلى أنفسنا أساءة كبرى ، لأنه لا يمكن للذين يتعلمون على هذا النحو أن يوظفوا فى الجمارك أو البوسطة أو المحاكم المديدة التابعة للحكومة ويقتضى نظامها وجود موظفين يعرفون اللغة الاجنبية جيد المعرفة ولا أن يستخدموا فى بنك أو مصرف أو يشتركوا فى شركة من الشركات التى كثر تأسيسها فى بلادنا ولا أن يكونوا محامين أمام المحاكم المختلطة ولا مترجمين ولا غير ذلك مما يحتاج إلى براعة فى لغة اجنبية ، وإذا قطعنا النظر من ذلك كله وأردنا أن نشرع اليوم فى التعليم باللغة العربية أعترضنا صعوبات مادية هى قلة المعلمين الاكفاء الذين يمكنهم تعليم الفنون باللغة العربية » .

ثم ناشد الأعضاء « ألا يندفعوا فى هذه المسألة وراء إحساسهم » إذ لافائدة من طلب تعلمون من الأن أنه لا يقابل بغير الرفض لاستحالة تنفيذه (الهلال - إبريل ١٩٠٧) .

وقد بيّن المقاومون للتيار الاستعمارى التغريبى ومن بينهم جرجى زيدان نتائج التدريس باللغة العربية واللغة الاجنبية وكيف أن التعليم باللغة الاجنبية يؤدى

إلى (١) الضعف فى اللغة العربية وأدابها (٢) ضياع الجنسية العربية (٣) انحصار العلم والتهذيب فى الطبقة العليا وبقاء العامة على جهلهم .

٢ — اللغة والجنس

وقد جرت مساجلات متعددة حول اللغة العربية وقال خصومها : ماذا على المصريين لو استبدلوا لغتهم بالإنجليزية مثلا كما حدث فى الولايات المتحدة . فيمكن أن تذهب اللغة العربية وتبقى الأمة المصرية متحدة بالجامعة الوطنية وكانت هذه أحدى دعوات التغريب .

وقد رد عليها جرجى زايدان (الهلال — أبريل ١٩٠٧) فقال أن الإنسان ضنين بجنسيته حريص على قوميته مهما يكن شأنها من الضعف حتى الأمم الهمجية فكيف بالعرب وتاريخهم مجيد يوجب الفخر لمن ينتسب إليه من أصحابه وذهاب اللغة ذهاب الجنسية فبقاء الأمة المصرية ولغتها إنجليزية مثلا لا يضر اعقابها من أجيال عديدة إذ ينسون جنسيتهم القديمة ولا يعرفون ألا الجنسية الجديدة .

وليس هناك وجه للمقارنة بينها وبين لغة الهنود الحمر الذين يتخذون الانجليزية . أما اللغة العربية فإنها لغة تمدن وعلم ودين وهى من أرقى لغات الأرض فضلا عن أرتباطها بالدين الإسلامى .

٣ — اللغة وتدريس العلوم

واثيرت مشكلة اللغة وتدريس العلوم بها (مايو ١٩٢٠) وكانت الصحف منبرا لمعركة حامية حولها .

وقد أبدى دعاة التغريب وحماة الغزو الثقافى أعتراضا على صلاحية اللغة العربية لتدريس العلوم فى الجامعة منها :

× قصور اللغة عن الوفاء بما تحتاجه علوم الطب من الألفاظ والاصطلاحات .

× المشقة فى ترجمة الكتب العربية ونشرها .

× صعوبة تحويل المدرسين الإنجليز من مدرسين باللغة الإنجليزية إلى مدرسين باللغة العربية .

× ما ينشأ عن التعليم باللغة العربية من أنقطاع الصلة بين الطبيب وبين علوم الطب بعد تخرجه .

× تعذر الدراسة على الطبيب فى المستقبل إذا أراد التوسعة فى معلوماته ونيل درجات عالية من الخارج .

وقد فند الدكتور أحمد عيسى كل هذه الاعتراضات وأبان عظمة « اتساع اللغة العربية » وكثرة ألفاظها وتعدد معانيها تعددا لايدانيها فيه سوى اليونانية وقال « أن لغة يبلغ ما أمكن حصره من كلامها مائة ألف مادة لا يمكن وصفها بالعى والقصور » .

وقال أن اللغة العربية هى لغة الفصاحة . هى لغة البلاغة يتسع المجال فيها الكاتب من أطناب وإيجاز وتصريح وتلميح وكناية واستعارة ولا يعجز الكاتب عن التعبير بها أرق المعانى وتصويرها حتى يخيل إليه أنها مصوره أمامه تلمس باليد (الأهرام — ٤ مايو ١٩٢٠) .

وقد عرض كثيرون لتأييد هذا الرأى : محمد شافعى اللبان (١٤ مايو ١٩٢٠ الأهرام) والدكتور هيكل فى افتتاحية الأهرام ١٠ مايو ١٩٢٠ حيث نعى على مايؤلف من الكتب باللغة الإنجليزية أو بأى لغه إجنبية وبين أن ما يكتب باللغة العربية يكون فى متناول الجميع قراءته وفهم معلومه ، وقال أن أهم ملاحظة تكشف عن الضرر الفاحش الذى يجىء بسبب التعليم بلغة إجنبية هو عدم التفاهم بين طائفة المعلمين وباقى الطوائف تفاهما تاما .

وقد ظلت معركة اللغة العربية فى تعليم العلوم قائمة ، وظل الاستعمار ممثلا فى أعوانه وأتباعه فى الجامعة حريصا على أن لا يتحقق التعليم باللغة العربية فى مصر فى حين استطاعت سورية أن تحقق ذلك .

ومما يتصل بذلك ما طالب به زكى مبارك من إدخال اللغة العربية إلى الأقسام الثانوية فى المدارس الأجنبية : وقال أن الطلاب معرضون لأصعب الأخطار من الوجهة العمومية أن لم يحرسوا حراســـة أمينة من طغيان الدعايات المذهبية ولا يعصمهم من تلك الدعايات الا تذويدهم باللغة العربية . ودراسة تاريخ مصر دراسة عميقة تصل بهم إلى الثقة بأنهم نشأو فى وطن له ماض فى خدمة العلوم والآداب والفنون .

وملاحظة زكى مبارك لها وزنها لأنها جاءت نتيجة خبرته أيام كان مفتشا لوزارة المعارف بالمدارس الأجنبية .

٥ — تعليم الدين

ولقد حرص الكثيرون على مقاومة أقصاء الدين عن مناهج التعليم وكان فى مقدمتهم الشيخ محمود أبو العيون الذى لم يترك مناسبة دون أن يثير هذه الرغبة وقد وجهها إلى كل وزير المعارف « أننا نريد أن يكون تعليم الدين فى المدارس مادة أساسية كباقى المواد التى ينجح فيها الطالب أو رسب . ونريد أن يكون التعليم شاملا للعبادات والعقائد وسير أبطال الإسلام والائمة المعروفين (خطابه إلى وزير المعارف ٦/١٠/١٩٣٠) وكان قد تقدم به لأول مرة عام ١٩٢٣ ثم عام ١٩٢٥ .

وقد أشار عبد الصبور مرزوق فى كتابه فوضى التعليم فى مصر إلى أن الإنجليز علموا مدى خطر التربية الدينية على وجودهم حين « أوحوا إلى عصبة مجرمة من خونة المصريين فانزلوا بهم المحن » وأشار إلى قول جاروفالو المربى

الإيطالى : أن لمقاومة الاجرام يجب رفع مستوى الاحساس الخلقى (Seus Moral) بالتعليم الصحيح القائم على أساس دينى . لأن أسباب الجريمة وموطنها الاساسى هو ضعف التكوين الأخلاق لا العوامل الاقتصادية أو الأحوال الاجتماعية .

٦ — تعليم الفقراء والمجانية

وقد كانت هذه معركة ضخمة من معارك المقاومة فقد حرص الاستعمار على وضع قاعدة تعليمية أساسية هى « عدم تعليم أبناء الفقراء والفلاحين حتى لا يتركوا طبقتهم » وقد دافع لطفى السيد عن هذا الرأى فى « الجريدة » وكان التعليم قبل الاحتلال مجانيا .

وقد أمتد هذا الاتجاه بعد الاستقلال . وقد كانت الاعتراضات دائما بأن تعميم التعليم الالزامى تحول دونه الميزانيات التى لا تكفى ، وقد أمتد هذا إلى عام ١٩٣٩ (الدكتور هيكل — تعميم التعليم الالزامى يقتضى مبالغ طائلة) .

وقد دارت مساجلات متعددة حول أتجاهين فى التعليم :

(الأول) يرى ضرورة قصر التعليم على الصفوة بغيه أعداد القادة الذين ستطيعون أن يتولوا إصلاح البلاد والأخذ بيدها .

(الثانى) يرى أن التعليم حق من حقوق الشعب على الدولة أن تيسره للناس جميعاً . أما تحسينه والرقى به فسيأتى مع الزمن .

ثم ظهرت نظريتان أخريان : هما (١) محو الأمية (٢) تعليم الأمة ؛ واسهبت الصحف فى بحث النظريتين : (الأهرام ٢٠ / ٤ / ١٩٢٥) (فالرأى القائل بنظرية محو الأمية يرى أن يكون تعلم الطفل المصرى والطفلة المصرية أجباريا من سن السابعة إلى العاشرة والفريق القائل بنظرية تعليم الأمة يرى أن يكون تعليم الطفل المصرى والطفلة المصرية من سن السابعة إلى الرابعة عشرة ماحولها .

أما إزالة الأمية فهى إيصال الطفل إلى فك الخط » أما نظرية تعليم الأمة فهى أوسع من ذلك بكثير ·

وقد كانت الصيحات تتعالى بالدعوة إلى « الإستعانة بالبرامج الغربيـة واستقدام خبراء أجانب من التربويين الأوربيين والأمريكين » دون تقدير مدى أهمية حاجتنا المحلية القومية أولا ودون نظر إلى مدى ما يحمل هؤلاء الخبراء من آراء منحرفة وتغريبية أو أن يكونوا من دعاة الغزو الثقافى ·

وقد كان للسياسة والاستعمار أثرهما فى أن يوصف التعليم الأولى (الأهرام — ١٩٣٥/١١/٥) بأن الوزارة أخرجته عن طوره وجعلته غالى الثمن باهظ الحمل بحيث لا يقوى عليه إلا أوساط الناس ومن فوقهم ،أما الفقراء وهم الذين أنشىء لهم هذا التعليم فقد حيل بينهم وبينه وقد امتلأت سجلات الوزارة بمظاهر نفور الأهليين من نظام التعليم الالزامى وعدم مطابقته لعاداتهم وتقاليدهم » وحملت الـكاتبة «مى» على التعليم الاجبارى،بحجة أنه مؤد للبطالة وأفقار الريف وازدحام المدن (١٩٢٩/١١/٢٨) كما عارضت — فى الأهرام (٢٤/٢/١٨) — دون تحويل الفلاحين الذين يعملون فى الحقول إلى أفندية وعارض زكى المهندس وإسماعيل القبانى فتح أبواب التعليم الثانوى لـكل من أراد : وقال اسماعيل القبانى : أنه ينبغى إلا يدخل المدارس الثانوية إلا لمن لديهم استعداد خاص يؤهلهم لها ·

وعارض رياض شمس (١٩٢٩/٢/٢ — الأهرام) التعليم الاجبارى وقال أنه خطر « لأننا إذا عممنا التعليم بين سائر طبقات الشعب فسيكون لدينا بعد سنين معدودة بضعة ملايين من الفلاحين ومعنى هذا أن بلدنا سيكون مسرحا لثورة اجتماعية » وطالبت الأهرام (محمد زكى عبد القادر) بأن يحصر نطاق التعليم العالى فى أضيق نطاق ممـكن (١/ يولية /١٩٠٩) ولا يبق إلا نوع

واحدمن المجانية هي مجانية التفوق والنبوغ وأن فكرة مساعدة الفقراء عن طريق المجانية هي فكرة غامضة وليس لها غرض محدد فإنه لا يمكن القول بأنها تساعد على نشر العلم .

وهاجمت إحسان أحمد (الاهرام ١٩٢٩/١١/٨) تقرير الخبير كلا بارد الذى استقدمته وزارة المعارف لنظر تعديل المناهج من ناحية الاساليب وملاءمتها لقوى الطالب أما من الجهة الاجتماعية العامة وما تتطلبه حاجة البلاد من التعديل فلم يعالجها وعذره أنه غريب عن البلاد لا يعرف ما تحتاج إليه أو تشكو منه، وأن الوطنيين أحق الناس بوضع مناهج تعليمهم حسب حاجتهم وظروفهم.

وكانت أكبر حملة على تعليم أبناء الفقراء ، هى حملة عمر طوسون(٣٢/١٢/٢٣) فقد دعا إلى (إلغاء المجانية بتاتا من التعليم الابتدائى والثانوى . وأن يقتصر على التعليم الأولى . وبعد التعليم الأولى يترك التلميذ ليحترف حرفة أبيه أو أى حرفة تناسب بيئته ودرجة تعلمه) .

كما وقف عدد من النواب فى مجلس النواب فحملوا على المجانية وفى مقدمة هؤلاء : محمود زكى . وسراج الدين شاهين . وقد أعلنا أنه يكفى أن يتعلم أبناء الفقراء تعليما إلزاميا . وقالت الاهرام (١٩٣٢/١٢/٢٧) أن محمود زكى شن غارة على المجانية وأشار على وزارة المعارف أن تعمل على الاقلال منها .

وقد هاجم هذا الاتجاه كثيرون من بينهم عمر الدسوقى وكان أبلغ رد على عمر طوسون والارستقراطية الاقطاعية الاستعمارية فى عهد صدقى هو دفاع الشيخ صادق ابراهيم عرجون من علماء الازهر (٣٣/١/١٩ — الاهرام) تحت عنوان « الارستقراطية عقبة فاحذروها » . وقد هاجم فيه هذا الاتجاه ضد تعليم أولاد الفقراء « فإننا رأيناهم يجمعون على حرمان هؤلاء

المساكين الذين لا ذنب لهم إلا أنهم أبناء الفقراء من التعليم العالى. على أن يعلموا تعلماً أولياً فقط . ثم قال :

ماذا يكون الحال إذا اندفعت الأمة فى هذا التيار وأصبح متعلموها وقادة الرأى فيها من طبقة أبناء الأغنياء . إلا تسودها الاستقراطية الطاغية فتحكم أنفاسها وتعيدها سيرتها الأولى من الخضوع إلى الفردية والاستعباد للحكام وتقديسهم تقديساً أعمى . ذلك الخلق الفاسد الذى جهد المستعمرون طوال حياتهم بيننا فى غرسه وتعهده والذى جاهدت الأمة فى الخلاص منه ، هل من استعداد أبناء الأغنياء وهم على ما نعلم من التربية المدللة والرفاهية المفرطة أن يقوموا بحاجات الأمة فى المستقبل فى خلق رجال سيضربون فى الحياة والمخاطرات . لقد حدثنا التاريخ عن العبقرية فى أجواء الأكواخ الحقيرة . وأن كثرة العلماء والعباقرة من الفقراء . إن الأمة المصرية نسبة العلم فيها ضئيلة جداً بل هى مخجلة حقاً . وأن هذه الأعوام التى طأطأت منها للاستعمار الاجنبى هامتها لم تكن إلا نتيجة الجهل .

لنفرض أن الأمة استجابت إلى هذه الدعوة الخطيرة وأصبح معظمها يحترف هذه الحرف . فماذا يكون مصير الحال . بلا ريب مصيره ارتفاع صوت هذه الاقلية المتحكمة المسيطرة تصرفه فى ملاذها وشهواتها أو فى جيوب الأجانب المتعلمين لأنهم عرفوا طرق تصريف المال فى وجوهه العظيمة النافعة .

عالجوا الأزمة ولكن لا تحرموا عصب الأمة العلم فهو الذى سيغنيها وينقذها من أزمتها ويعيد إليها حريتها .

٧ — وطالب عباس عمار بالعناية بالناحية القومية فى التعليم (الأهرام ٣٠/١٢/١٩٣٤) فقال : علموا الطلبة تاريخهم فى تفصيل لنواحى عظمته وتحليل

لما فيه من فخر وجلال · علوهم روح المدنية المصرية القديمة وأروهم فضل مصر على الفن والعلم والأدب ، وأن تكون موضوعات المطالعة مصرية تدور حول مدنيتنا وبيئتنا والشعر الذى نحفظه ينبغى أن يتغنى بماضينا ويلهب حماستنا والقصص التى تقص علينا يجب أن تقتبس من تاريخنا وعقائدنا وخرافاتنا .
ياقوم عار أن يقف متخرج فى كلية الحقوق يرشح نفسه للسلك السياسى فيقول إن قناة السويس حد بيننا وبين الشام .

تجربة المغرب

عرضنا لتجربة الغزو الثقافى الإنجليزى فى مصر أما الغزو الثقافى الفرنسى فى المغرب فقد كان أشد قسوة :

(١) فرضت اللغة الفرنسية باعتبارها اللغة الوحيدة فى الثقافة والتعليم .

(٢) عمدت إلى التنصير (إقامة المسيحية محل الاسلام) ثم إلى الفرنسة (احلال اللغة الفرنسية محل اللغة العربية) .

وقذفت المغرب بأقطاره المختلفة بالإرساليات التبشيرية .

(٣) إهمال اللغة العربية إهمالا كليا ثم مكافحتها مكافحة فعالة وتقويض دعائم المؤسسات التعليمية الدينية باستنضاب مواردها .

(٤) إذاعة دعاوى باطلة بين البربر تزعم بأنهم لم يكونوا مسلمين تماما وذلك فى محاولة لعزلهم عن العرب واستمالتهم لفرنسا .

(٥) منعت فرنسا التكلم بغير اللهجات البربرية أو اللغة الفرنسية .

(٦) حظرت على الفقهاء ومعلمى اللغة الفرنسية الانتقال إلى مناطق البربر وتعليم القرآن بها .

وقد أشار (م لوكينز) إلى هذه السياسة فقال « إن سياسة الحماية تجلت فى ميدان التعليم فى شكل حرب منظمة ضد الثقافة الوطنية وفى شكل تنظيم تعليم عصرى يرمى قبل كل شىء إلى تكوين موظفين فرنسيين فى الميدانين الإدارى والفنى وأعوان مغاربة ثانويين ·

وقد أشار ساطع الحصرى إلى هذه الخطة (الرسالة م ٤ ص ٢٥١) فقال « ذهبوا إلى أنه يجب أن يرافق الفتح السياسى فتح معنوى بحيث يتقرب أهالى المستعمرات من المستعمرين وأن يندمجوا فيهم اندماجا وذلك بنشر لغة المستعمر وتعليم أهالى المستعمرات تعليما ينشىء فى نفوسهم حب المستعمر · وقد جعل الفرنسيون اللغة الفرنسية محوراً لكل درس فى مناهجهم مع مادة ترمى إلى تحبيب الأهلين فى الفرنسيين وما يترتب على أهل الجزائر نحو فرنسا مقابل الحماية التى تسديها إليهم والعدل الذى أدخلته إلى بلادهم ونعمة التعلم والحضارة . وقال ساطع الحصرى أن هذه السياسة لم تنجح وأتت بالنقيض ولذلك تحولوا منها إلى التعليم بغير تثقيف » على نحو ضيق جدا يجعلهم الآن صماء فى أيدى الاستعمار دون أن يدخل التعليم أى عنصر من عناصر الثقافة العامة ·

وقد أشار علال الفاسى (المغرب) إلى ذلك فقال : إن سياسة التعليم التى فرضها الاستعمار الفرنسى كانت تهدف إلى محاربة اللغة العربية والاستعاضة عنها باللغة الفرنسية . وقد سلطت الحماية حربها على المنظمات الثقافية المغربية فأقفلت عدداً كبيراً ، وصبت عداءها المستعمر على (جامعة القرويين — والمغرب) وفروعها فى مراكش ومكناس والرباط وطنجة ووجده . وعقم التعليم الرسمى وضعفت نسبته ، وأصبحت نسبة التعلم فى عهد الاستعمار الفرنسى : ٢/٥ فى المائة (تونس) ٢ فى المائة (الجزائر) ٣/٥ فى المائة مراكش هذا بالاضافة إلى نشر الدعايات التبشرية والمحاولات لنشر المسيحية ونشر أساليب ملتوية لاستدراج المثقفين

إلى المسيحية فضلا عن الاضطهاد الديني في المساجد والمعابد والأوقاف الإسلامية .

وجاء في تقرير رسمي فرنسي (ساطع الحصري ص ٤٧١ حولية التعليم ج ٢) أن أيالة (الجزائر) لن تصبح مملكة فرنسية إلا عند ما تصبح لغتنا (الفرنسية) هناك قومية . والعمل الجبار الذي يترتب علينا انجازه هو السعي وراء نشر الثقافة الفرنسية بين الأهالي بالتدريج إلى أن تقوم مقام اللغة العربية الدارجة بينهم الآن .

وفي تونس : إنشأ الفرنسيون (١٨٨٣) مدارس ابتدائية فرنسية للأوربين والعرب ليس بها لغة عربية وذلك لمحاولة تنشئه الأطفال تنشئه فرنسيه صرفه) .

وقد قاوم الشعب العربي في تونس والجزائر والمغرب هذا التيار وأسس مدارس حره من ماله الخاص . غير أن السلطات الفرنسية قاومت هذه المدارس ولم تسمح ألا بعدد ضئيل منها ، ولعل أعظم عمل تم في هذا المجال هو ما قام به العلامة الشهيد: عبدالحميدبنباديس وزميليه في الكفاح «البشير الابراهمى» والطيب العقبي في الجزائر حيث أسسوا ثلاثمائة مدرسة في المساجد لحماية اللغة العربية .

* * *

وجملة القول أن العرب استطاعوا في ميدان التعليم أن يواجهو احملة التحدى بحملة رد الفعل ، وأن جميع البرامج التى وضعت لصبغ العرب باللون الفرنسي أو الإنجليزى قد فشلت ، حتى أولئك الذين تلقوا الدراسات في فرنسا وبريطانية عاد منهم كثيرون وقد تحرروا من سلطان التغريب وعملوا على خلق فكر عربي حر قائم على الأسس العربية والإسلامية والأمجاد والقيم العربية الأصيله وتحطمت نظرية الغرب في القضاء على الشخصية العربية وأن أستطاعوا تمييعها إلى حد ما . وقد مضت الشخصية العربية تقاوم وتعمل في سبيل التماسك .

نقص المناهج التعليمية

وبالجملة فأن ما أبعده الاستعمار من المناهج التعليمية هو : الدين والتاريخ واللغة العربية وكانت نظرية « ديوى » هى أساس المناهج ونقطة الإلتقاء مع التغريب .

نظرية ديوى

أبرز مظاهر مذهب ديوى فى التربية هو أبعاد الدين عن مجال التربية وكان هدفه هو أبعاد المسيحية عن برامج التعليم الغربى ، وقد قصد الاستعمار إلى فرض هذا المذهب فى دراسات مدارس المعلمين العليا التى كانت مجال تخريج رجال التربية فى مصر ، ورأى فى هذا عوضا عن الأشراف البريطانى على التعليم الذى كان يقوم به دنلوب حتى عام ١٩٢٢ وكانت نظرية ديوى عماد المنهج التربوى بعد ذلك ، وكان إسماعيل القبانى هى عماد هـــذه الدعوة وحامل لوائها بانشاء معهد التربية وليس أدل على أضطراب نظرية ديوى من أنها هوجمت فى أمريكا نفسها ورميت بأنها (مجرده من العناصر الصالحة لتنشيط الحياة الفكرية) .

وقد ظل لأتباع نظرية ديوى سيطرتهم الكاملة على أنظمة التربية والتعليم فى خلال الفترة التى نؤرخها وبذلك استطاعت أن تبعد الإسلام عن مجال التربية والتعليم مع حملات مستمرة على أساليب التعليم الأزهرية وإبعاد خريجيه عن مجالات التربية بحجة أطلق عليها « النقص فى مستوى الكفاية الفنية للتعليم » وذلك جريا مع الهدف التغريبى الواضح .

كما حرصت هذه المناهج على حجب الدراسات الوطنية والتاريخية التى تعمد إلى بث أمجاد الأمة وعظمة الشخصية العربية فى نفوس الطلاب .

وقد حلت البرامج فى المدارس والمعاهد العربية فى عهد الاستعمار البريطانى والفرنسى فى مرحلتيه: مرحلة الحماية ومرحلة الاستقلال الذاتى من :

١ – الثقافة الإسلامية والتاريخ الإسلامى ·

٢ – القرآن والدين الاسلامى .

٣ – أصول اللغة العربية وفلسفتها ·

فى حين زيدت برامج اللغة الإنجليزية أو الفرنسية على نحو مساو للغة العربية ، وغلب فى التاريخ دراسة التاريخ الإقليمى الذى يدعو إلى خلق روح الانفصالية والتجزئة وتغليب تاريخ أوربا والشعوب الأوربية على نحو يصور الاستعمار بصورة العظمة والجلال · وفى الجزء القليل من تاريخ الوطن العربى والتاريخ الإسلامى كانت المناهج تخلوا خلوا كاملا من الأمجاد والبطولات وتاريخ الأبرار المجاهدين . وفى خلال هذا التاريخ كانت هناك تزويرات وسموم يراد بها رسم صورة مشوهة لتاريخ الإسلام تبدو معه الأمة العربية فى صورة التفكك والصراع بين الحكام وإبراز جوانب المؤمرات والخصومات وعوامل الصراع التى يراد بها القضاء على صورة الوحدة والقوة والتطور : وبالجملة فقد أقصى عن برامج التعليم فى المدارس والكليات العليا جانب الثقافة العربية الإسلامية ·

وقد حدث هذا فى التعلم المدنى بينما ضعف التعليم فى الأزهر والمعاهد الدينية العربية وعزل خريجيه تقريبا عن التربية والحياة الفكرية ·

اللغة العربية فى الجامعة

جرت معارك متعددة منذ ١٩٢٠ حول التعلم باللغة العربية فى الجامعات . كان أولاها بشأن التعليم بالعربية فى كلية الطب · وعارض فى ذلك على إبراهيم ونجيب محفوظ وعبد المجيد محمود وأمين عبد الرحمن وإبرهيم شوقى وقدموا تقريرا نشرته الأهرام فى ١٩٢٢/٧/١٠ يعلنون فيه صعوبة ذلك ونتائجه السيئة .

بينما أجمع الأساتذة «على أن اللغة العربية تصلح للتعليم وتسع جميع الأصطلاحات

الفنية ، ومن أجل إيجاد كتب طبية عربية، على المدرسين أن يبدأو بتدريس الفروع الموكولة إليهم باللغة العربية كمقدمة لظهور كتب عربية طبية فى جميع الفروع » .

وهاجم الدكتور هيكل « الضرر الفاحش والخطر العظيم بسبب التعليم بلغة أجنبية وقال : أنه لوان اللغة العربية هى التى حلت محل اللغة الفرنسية فى تدريس الحقوق لكانت النتيجة الطبيعة أن تظهر بدل هذه المؤلفات الانجليزية مؤلفات عربية تعادلها (١٠/٥/١٩٢٠) .

ودعا محمد الشافعى اللبان إلى التدريس باللغة العربية فى مدرسة الحقوق (١٤/ ٥/ ١٩٢٠) .

* * *

وكان للدكتور زكى مبارك دور واضح فى الدعوة لتعريب التعليم فى كلية العلوم بالذات ومختلف كليات الجامعة، وقد كتب عديداً من المقالات فى يوليه وأغسطس ١٩٣١ قال : أن كل ما يجرى فى كلية العلوم يكتب باللغة الانجليزية حتى جداول الدروس والبيانات التى تعلق على الجدران . اليس معنى هذا أنه ليس لنا لغة ، وأن لغتنا ليست لغة مدنية ولا علم ، وإنما تصلح فقط للمناوشات الكلامية فى الصحف والمجلات .

وقال : هم يزعمون أن اللغة العربية ليس فيها مصطلحات علمية ، وهذه علة لا قيمة لها على الإطلاق . لأن اللغات المشهورة فى أوربا كالفرنسية والانجليزية لم يكن لها أيضاً مصطلحات قبل نهضة العلوم . ولا أكاد أصدق أن كلية الحقوق تريد أن تعود من جديد إلى فرض اللغة الفرنسية على الطلاب وقد قامت الدلائل على صلاحية اللغة العربية لشرح القوانين وهى من أغنى اللغات فى مؤلفات الفقه والتشريع » .

ووجه هجومه إلى لطفى السيد وطه حسين (١ أغسطس ١٩٣٥ — البلاغ) فقال : هل توجد فى العالم كله جامعة واحدة جعلت لغة التعلم لغة أجنبية غير الجامعات التى تنشىء فى المستعمرات : إن التعليم بلغة أجنبية يهدم الاستقلال من الأساس. وقال: أتحتجون بأن اللغة العربية تعجز عن التعابير العلمية. فإن احتججتم فأنا نسألكم ، ما هى القوة السحرية التى جعلت لغات الغرب أقدر من غيرها على التعابير العلمية . وهل تخلق اللغات كاملة مكملة لا تحتاج إلى زيادة و لا يعتورها نقص . أن المصطلحات العلمية فى اللغات الأوربية تنحت نحتا من اللاتينية واليونانية ومع ذلك لم يقل أحد بفقر الفرنسية أو الانجليزية ، فما الذى يمنع أن تؤخذ المصطلحات العلمية مره واحده وتنقل إلى اللغة العربية ويسد هذا الباب فى وجه من يريدون أن نظل دائما أتباعا أبد الدهر لأبناء اللغات الاجنبية . أليس من العجب العجاب أن ندرس الطب باللغة الانجليزية فى بيروت ويدرس بالانجليزية فى القاهرة .

ولا شك أن الهدف من وراء ذلك كان هو أن يؤدى الدين والتاريخ إلى تقوية الروح الوطنية وإحياء الروح العربية الحره .

اللغة الأجنبية

وقد اتصل بهذا غلبه اللغة الأجنبية على الألسنة حتى فى الأحاديث العامة والضعف الواضح فى اللغة العربية فى الكتابة والتعبير وإذا كان الدكتور الطاهر الجبرى (تونس) فى كتابه مكافحة الثقافة يقول « أنه يعرف عائلات تونسيه كل حديثها بالفرنسية ولا يدخل فيه من العربية ألا بعض الكلمات التى لا مقابل لها فى الفرنسية » فإن هذا لم يكن مظهراً تونسيا بقدر ما هو مظهر عربى شامل فى هذه الفترة .

دنلوب

والدور الذى قام به «دنلوب» فى تحويل التعليم فى مصر عن الهدف الأسمى قد

حقق نتائج أكيدة وظل قوى الأثر من بعده ، ذلك الهدف الذى يقصد إلى تخريج موظفين فقط ·

ومما يرويه «الدكتور محمد ناجى» أن الشيخ عبد العزيز شاويش بعد أن عاد من منفاه ۱۹۲۳ عمل مديرا للتعلم الابتدائى وزارة المعارف: يقول «على أثر عودتى لأول مرة تأسست مدرسة عبد العزيز وكان برنامجها يقتصر على سنة واحدة لتخريج معلمين فكتب تقريرا وجهه إلى « دنلوب » قال فيه أن هذه المدرسة أسست لتخريج معلمين ، فالسنة التى قررتموها لا تكفى لتلقين قاصديها وتهذيبهم وتدريبهم وتعليمهم كيف يعلمون ، واقترح برنامجا من ثلاث سنوات .

وقرأ دنلوب التقرير وكتب عليه « غيبتك عن مصر ثلاث سنوات متعاقبة وضعتك فى موضع المثالى فيما يطلب لقومه · أن أمتك يكفيها معلم يستطيع أن يعلمها ألفا باء ومبادىء الحساب » !

المقاومة فى العالم العربى

كما تعددت حركات المقاومة فى جميع انحاء العالم العربى بعد حصوله على الاستقلال ، ففى العراق أمكن بفضل ساطع الحصرى ١٩٢١ أن توجد نظاماً تعليمياً يحمل طابعاً قوميا خاصاً بالرغم من ارتباطه باللغة الانجليزية كما عملت سوريا على تعريب الألفاظ والكتب ودراسات الجامعة وأصبحت كليات الطب وغيرها تدرس باللغة العربية وهو ما لم تبلغه مصر وأدخلت دراسات القومية العربية إلى المناهج التعليمية ·

ثم جرت إبحاث لتوحيد برامج التعليم فى البلاد العربية (أغسطس ١٩٢٧) وقد جرت هذه المشاورات بين مصر والعراق ومع الثعالبى زعيم تونس حول « توحيد الثقافة العربية بين الناطقين باللغة العربية » وقد أعلن الثعالبى أسفه لأن تكون الأمة العربية وهى ممتدة من شطوط الأطلنطى إلى تخوم البلوخستان

مقطعة الأوصال عارية من الثقافة ، ليس لها منهاج معين تتبعه ولا مبدأ تسير عليه وقال :
« إن اليوم التى يجتمع فيه المراكش والجزائرى والتونسى والطرابلسى والمصرى والفلسطينى والسورى والحجازى واليمانى والنجدى والعمانى والعراقى لوضع منهاج للتعليم والثقافة لتوحيد روحية هذه الأقطار يومئذ يعتقدون أنهم عنصر غلاب ويستحيل من حقهم أن يرضوا بالموت حتف أنوفهم تحت صراع وختل سياسة الاستعمار . أن هذا العمل صعب ولكن أصعب منه احتمال الضيم وقبول الفناء فى ارادة الغير » كما دعا المجلس الاسلامى الأعلى فى فلسطين إلى مؤتمر عربى عام للنظر فى توحيد مفاهيم التعليم وقد سجل أحمد شفيق فى كتابة (أعمالى بعد مذكراتى) أنه تفاهم فى الفكرة مع الملك فيصل والملك سعود وأن اطلق السيد وزير المعارف رفض الفكرة ووقف فى وجهها وقال : لقدزرته وأعدت الحديث معه فلم أجد عنده قبولا للفكرة .

الجامعة فى معركة الغزو الثقافى

كان إنشاء « الجامعة المصرية » فى مصر من معارك مقاومة الغزو الثقافى فقد كانت الدعوة إلى إنشاءها حلقة من حلقات الحركة الوطنية ومقاومة الاستعمار .

ولقد فوجىء الاستعمار بالدعوة إلى المشروع وهاجمه هجوما عنيفا، وحاول إيقاف خطواته ، وقال كرومر معلقاً « إن التعليم الذى تحتاج إليه الأمة المصرية هو تعليم «الكتّاب» وحث الحكام والأعيان على إنشاء الكتاتيب لتحويل تيار الرأى العام عن مشروع الجامعة » .

وقد استقبل الرأى العام المشروع بشىء كثير من الأيمان والتضحية وانهالت التبرعات التى بدأها (مصطفى كامل الغمراوى) بخطاب أرسله لجريدة المؤيد (٣٠ سبتمبر ١٩٠٦) متبرعا بمبلغ ٥٠٠ جنيه .

وفى ٤ أكتوبر ١٩٠٦ نشرت المؤيد أسماء مؤيدى المشروع وبلغت التبرعات ٤٤٨٥ جنيها وتبرع حسن زايد (المنوفية) ، ٥٠ فدانا وعقدت الجلسة التمهيدية فى بيت سعد زغلول (١٧ أكتوبر ١٩٠٦) وصدر قرار تأسيس الجامعة (٣٠ مايو ١٩٠٨) وافتتحت فى (٢١ ديسمبر ١٩٠٨) فى مجلس شورى القوانين (مجلس الشيوخ)

وقد أشار حسن حسنى كامل فى رسالة إلى الأهرام (٢٥/١٢/٢٤) أن أول مصرى نادى بوجوب إنشاء جامعة مصرية هو مصطفى كامل عام ١٩٠٢ ولما عاد مصطفى كامل ١٩٠٦ من أوربا جمع المصريون ٥٠٠ جنيه للاحتفال به بعد دفاعه فى حادث دنشواى فأرسل خطابا إلى محمد بك فريد (٢٥ سبتمبر ١٩٠٦) طلب

فيه تحويل هذا المبلغ إلى مشروع الجامعة وقال : على اللجنة أن تقوم بدعوة الأمة كلها وطرق باب كل مصرى لتأسيس جامعة أهلية تجمع أبناء الفقراء والأغنياء على السواء .

غير أن سعد زغلول لم يلبث أن انسحب من مشروع الجامعة بعد تعيينه وزيراً للمعارف — وكان المنتظر أن يعضد المشروع ، وذكرت بعض المصادر أن أحمد باشا المنشاوى كان قد عزم ١٩٠٥ على إنشاء جامعة أهلية فى جهة باسوس وأبى الغيط على نفقته ومات قبل تنفيذ المشروع .

وأعلن أن الجامعة عبارة عن مدرسة علوم وآداب تفتح أبوابها لكل طالب وليس لها صبغة سياسية واشترط فى اللائحة أن من يريد الالتحاق أن يكون حاصلا على شهادة المدارس العليا أو دار العلوم أو القضاء الشرعى أو متخرجا من الأزهر .

وفى ٢١ ديسمبر ١٩٠٨ افتتحت الجامعة الأهليـــة رسمياً فى مكان الجامعة الأمريكية الآن بميدان الأزهار .

وكانت دراساتها : الحضارة الإسلامية والحضارات القديمة والتاريخ والجغرافيا عند العرب وأدخلت ١٩١٠ مادة الأدب العربى .

واعترفت الحكومة بشهادات الجامعة (١٩١٣) حيث كان أحمد حشمت وزيراً للمعارف .

وكانت أطروحات الجامعة الأولى لطه حسين وحسن ابراهيم وأحمد بيلى وحامد المرعشلى وزكى مبارك وإسرائيل ولفنسون وفريد رفاعى وأوفد عدداً منهم إلى أوربا ليعودوا أساتذة .

وقد حاول الاستعمار أن يحارب الجامعة فأعلن الدوق غورست أن الجامعة غير مستقلة وقامت قيامة الصحف .

وقد تولى التدريس فيها : أحمد زكي باشا (الحضارة) اسماعيل رأفت (الجغرافيا) حفني ناصف (الأدب العربي القديم) محمد الخضري (التاريخ الاسلامي) محمد المهدي (الأدب العربي).

كما ألقى بها محاضرات المستشرقين نلينو وجويدي وسنتيلانا واتجه عدد كبير من طلاب الأزهر إلى الجامعة.

في الجامعة بدأ المزج بين الثقافة العربية القديمة والثقافة الغربية الجديدة وفتحت آفاق جديدة للبحث . وقال بعضهم معلقا إن منهج البحث يختلف عن منهج الأزهر فلم يقل المؤلف في أول دروسه « قال المؤلف رحمه الله » ولم ترد كلمات الفنقلة ولا الحواشي والمتون .

وقد جرت محاولات كثيرة للقضاء على الجامعة وحاول الاستعمار تحويلها إلى كلية آداب شرقية بدلا من جامعة كاملة . وحاول رجال الإرساليات البروتستانت والإنجليز رد العاملين والتدخل ، واتهام المشروع بالعقم خلال عامين متتابعين ١٩٠٧ — ١٩٠٨ ووصفت الجامعة بأنها « كابوس بريطانيا العظمى » ثم انتصرت الجامعة على أزماتها وحصلت على إعانات من وزارة الأوقاف .

وقد تلقت من المتاحف والمعاهد الأدبية المختلفة كتبا وهدايا ومجموعات نادرة من الأحجار الجيولوجية والقطع الأثرية كما وهبت إليها مكتبات متعددة من أعلام الفكر في مصر .

٢ — صور قاسم أمين (أهرام ١٨ أبريل ١٩٠٨) الهدف من الجامعة فقال « لا يمكننا أن نكتفي الآن بأن يكون طلب العلم في مصر وسيلة لمزاولة صناعة أو الالتحاق بوظيفة ، بل نطمع أن نرى بين أبناء وطننا طائفة تطلب العلم حبا للحقيقة وشوقا لاكتشاف المجهول . فئة يكون مبدؤها التعليم للتعليم . إن طائفة

المتعلمين فى مصر وهم متخرجوا المدارش العالية يعملون على مبدأ (اكسب كثيرا وانفق قليلا) ولا تجد منهم العاقل المحب لعلمه أو فنه أو العاشق الذى يملك شهوة العمل قلبه :

وقال على الشمسى : إن الجامعة ستبنى ملكات حب العلم والتعمق فيه وحب البحث العلمى لتخرج فى مصر طوائف من العلماء والباحثين المتحرزين لطلب الحقائق العلمية والفنية ، وذلك حتى تحمل مصر قسطها فى بناء الحضارة العالمية ونشارك جماعة الأمم فى العمل على تقدم الدنية وترقية الإنسانية ٠

٣ — رسم قرار إنشاء الجامعة هدفها « ترقية مدارك المصريين وأخلاقهم وذلك بنشر الآداب والعلوم » ومن أخص الوسائل التى تتخذها لتحقيق غاياتها وسيلة البعثات (١) ترتيب تدريس مماثل للحاصل فى المدارس الجامعية بأوربا (٢) تنظيم محاضرات يلقيها أكابر رجال العلم والآداب (٣) منح جوائز لأصحاب المؤلفات العلمية والأدبية باللغة العربية ٠

الغزو فى ظل الجامعة الرسمية

ثم تحولت إلى جامعة رسمية فى ١١ مارس ١٩٢٥ وعين لطفى السيد أول مدير للجامعة بعد أن أصبحت تابعة للدولة . وبدأت بكليات أربع : الحقوق والآداب والعلوم والطب . وكان عدد طلبتها عام ١٩٢٥ = ٢٠٢٧ طالباً ودخلت الفتاة الجامعة لأول مرة ١٩٢٩ ٠

وترى الأهرام : أن سلطات الاحتلال البريطانى سمحت بأن تضم الجامعة المصرية إلى الحكومة خوفا من نفوذ الإرساليات الأمريكية . فقد لاحظت اللجنة التى شكلت لذلك وغالبيتها من الإنجليز أن الإرسالية الأمريكية جمعت تبرعات ضخمة فى أمريكا لإنشاء جامعة أمريكية فى القاهرة على غرار جامعة بيروت

وقد بدأت الدراسة الثانوية بها أكتوبر ١٩٢٠ (ومما يذكر الأرسالية الأمريكية قدمت مصر ١٨٦٥ حيث أنشأت الكلية الأمريكية فى أسيوط وأول مدرسة للبنات)٠

وقد كانت أولى الطالبات بالجامعة سهير القلماوى ونعيمه الايوبى وفاطمة سالم ٠

* * *

ولقد واجهت الجامعة منذ اليوم الأول معارك الغزو الثقافى والصراع بين مستشرقى فرنسا ومستشرقى إنجلترا .

وكانت أولى معاركها حول استقدام المبشرين الذين يلبسون ثياب المستشرقين حيث يكلفون بالقاء دروس عن اللغة العربية والاسلام والقرآن وكان موضع الأعتراض أن هذه العلوم لا تحتاج إلى أساتذة أجانب يكلفون الدولة مبالغ طائلة ليحدثوا الطلاب عن علوم يوجد من يبرع فيها ويفوق المستشرقين من أساتذة الأزهر وعلمائه .

وقد دافع طه حسين عن استقدام المسيو كازانوفا وقال « أريد أن يعلم الناس أنى سمعت هذا الأستاذ يفسر القرآن الكريم تفسيراً لغويا خالصاً فتمنيت لو أتيح لمناهجه أن تتجاوز باب الرواق العباسى ولو خلسة ليستطيع علماء الأزهر الشريف أن يدرسوا على طريقة جديدة نصوص القرآن الكريم من الوجهه اللغويه الخالصة على نحو مفيد حقاً . . . .

ورد محمود أبو العيون (٤ سبتمبر ١٩٢٣ — الأهرام) فهاجم هذا الاتجاه وقال أن كازنوفا وضع كتابا فى تخطيط مدرسة الفسطاط ولكن هل وضع كتابا فى فقه اللغة وتاريخها وآدابها أو مناهج تدريسها يرجع إليه علماء اللغة والأدب فيما جهلوه وهل وضع تفسيرا للقرآن لغوياً خالصاً ٠ أن كان فعل هذا ليكونن له شأن كبير عندنا .

ثم هاجم طه حسين وقال . الآن قد عرفنا مذهب الدكتور طه حسين ورأيه في كل تعاليمنا وإذا كان قد رأى إيثار أستاذه على كل عالم وأديب في مصر فياضيعة العلم في مدراسنا العالية ، العلم الدينى الذى يدرسه لأبنائنا أساتذة أوربيون كالمسيو كازنوفا . ثم ذكر أبو العيون كيف أن جامعات المانيا وانجلترا وفرنسا استعانت بشيوخ اللغة العربية فى الماضى والحاضر وكان فى مستشرقيها الكفاية وأن حسن توفيق العدل والدكتور حامد والى وعبد العزيز شاويش ومحمد جاد المولى ومنصور سلمان كانوا من هؤلاء الأعلام .

ثم هاجم الغزو الثقافى التغريبى الذى تحمل لواءه الجامعة وقال: نحن بلينا بالتقليد الضار . وهو على الحقيقة مسخ وتغيير وتنازل منا طوعا واختياراً عن كل مميزاتنا ومشخصاتنا إلى الغير ولو دام الحال على مثل هذا لاصبحنا مثل كندا واستراليا وبعض جنوب أفريقيا وسواحل تونس والجزائر ومالطه . . »

٢ — وكانت المشكلة الثانية فى معركة الغزو الثقافى هى المحاضرات التى ألقاها الدكتور طه حسين ١٩٢٦ عن الشعر الجاهلى فى كلية الآداب ودعا فيها أقصاء عنصرى القومية والدين فى مجال البحث العلمى . وهاجم الإسلام وأنكر ما ورد فى القرآن من أخباره عن أبرهيم وإسماعيل ، وطعن فى نسب النبى وأنكر أن للاسلام أولية فى بلاد العرب وأنه دين إبرهيم .

ثم تبين بعد أن قامت الضجة ضد ذلك الكتاب فى الصحف ومجلس النواب أن هذه الأفكار مأخوذة من كتاب (مقالة عن الاسلام) لجرجس سال الإنجليزى معربة عن الانجليزية بقلم من يدعى هاشم العربى ومطبوعة ١٨٩١ يرى فيها مارأى الدكتور طه من قصة ابرهيم وإسماعيل وينسبه لنفسه على أنه ابتكار من ابتكاراته. ورأى كما كشف عبد الحميد سعيد فى مجلس النواب ١٩٣١ عن « نوته » لأحد الطلاب

استملاها من محاضرات الدكتور طه على الطلبه فى القرآن، وفيها يحث الدكتور الطلبه على نقد القرآن ويذكر لهم أن فى القرآن أسلوبين مختلفين كل الاختلاف: أحدهما جاف وهو مستمد من البيئة المكية ففى هذا الأسلوب تهديد ووعيد وزجر ، فلما هاجر النبى إلى المدينة تغير الاسلوب بحكم البيئة وأصبح ذلك الاسلوب لينا ، وحث الدكتور طه الطلبة على أن ينظروا إلى القرآن كأى كتاب عادى يجرى عليه النقد العلمى ما يجرى عليها وأن يغضوا النظر عند البحث فيه عن قدسيته وعرض طه لفواتح السور وذكر عدة آراء فيها منها قصد التعمية ومنها أنها كانت فى الاصل علامات مميزة لمصاحف الصحابة » .

وقد ذكر (زكى مبارك) فى مجال سجال بينه وبين طه حسين أن المستشرقين فى السربون عندما قرأو آراء طه حسين قالوا هذه بضاعتنا ردت إلينا .

المعارك الأدبية

٣ — ودار بحث طويل حول مهمة الجامعة ومقدار ما أدته للفكر العربى وقد أجمع الباحثون على أن التدريس فى الجامعة منذ إنشائها (٩ يونيه ١٩٣٣ — الأهرام) لا يختلف عن التدريس فى المدارس الثانوية فالطالب يرجع إلى كلام المدرس وإلى الكتاب ولا يكون له رأيا خاصا ويعتمد على الحفظ أكثر من اعتماده على الادراك، كما سجل موقف الطلبة من أساتذتهم وخروجهم على ما تواضع عليه الناس جميعاً من احترام الأساتذة وتكريمهم والترفع عن هجر القول .

وقال لطفى السيد أن الجامعة لم تستطع أن تجعل اللغة العربية لغة التعليم كما هو مرجو وإن كان لها فى التعليم خط عظيم فى كلية الحقوق وبعض أقسام الكليات الأخرى .

٤ — وقال الدكتور مشرفه : الذى ينقصنا هو روح العلم وجو التفكير الحر ،

والجامعة المنشودة تنفى الروح الطائفية الصحيحة : وواجب الجامعى هو واجبه أولا نحو نفسه وثانيا نحو الأسرة الجامعية ·

وجرى نقد حول خريجى الجامعة وعدم الإستفادة منهم ـ الأهرام (١٦/٥/١٩٢٦) فأقصى عنها معظم المصريين الذين قامت على رؤوسهم الجامعة الأهلية القديمة ، ونحى عن أبوابها بعض الأكفاء من المصريين الذين كان يقضى تعليهم بأن يكونوا بين جدرانها ، وبذلك حرم من وضع أسس الجامعة كثير من أكفاء المصريين ثم انفسح المجال للاجانب غثهم وسمينهم ولم يراع فى انتخابهم سوى احقيتهم ، وهاهى الجامعة تموج بهم ، هؤلاء الإجانب قليل منهم من يفوق شباب مصر المتعلمين فى كفاءتهم وأحس الإنجليز بأن نصيبهم من الغنيمة، ليس بالقدر الذى يجب أن ينالوه ، وكذلك تمر الآن بالجامعة موجة ترمى إلى إكثار عدد الإنجليز بالجامعة بكل الوسائل الممكنة » .ا هـ·

٦ – وأشار تقرير لجنة المالية بمجلس الشيوخ (١٥/٦/١٩٢٩) إلى ضرورة تمصير الجامعة وصوغها فى قالب مصرى لحما ودما لكى تمثل تفكيرنا الماضى وملأ الكراسى بأساتذة مصريين ، وقال التقرير أن كل العلوم لا تزال تلقى محاضراتها باللغة الإنجليزية ولا يكاد يوجد فيها أكثر من أساتذة مصريين ،وأن مستوى التعليم الجامعى دون ما تنشده ولم يحقق كثير من الجامعيين الغرض المطلوب منهم .

٧ – وقال عباس عمار (الأهرام – ٣/١٠/١٩٢٦) : أول ما تستطيع جامعتنا أن تؤديه فى سبيل الواجب العلمى الذى يفرض عليها هو أن تحاول تغيير وجهة نظر المصريين والشرقيين إلى العلم · وأن نسمو بعقليتنا عن هذا الفهم الخاطىء لقيمة العلم والعلماء . فالنزعة التى عندنا نزعة خطرة ونظرتنا إلى العلم نظرة مادية بحته يخشى على العقلية المصرية منها أن ظلت تسير فى ذلك الاتجاه ·

وقال : إن على الجامعة أن تحارب هذه النزعة وأن تعلم تمام العلم أن جهادها فى سبيل غايتها العلمية لن يجدى إلا إذا مهد له بذلك الأساس ، لأن حب العلم لذاته والشغف بالبحث والتفانى فى حب الحقيقة العلمية المجردة يتطلب أن يكون أساس الدراسة هو المثل الشخصى والدافع الذاتى .

والواجب الخاص هو الاهتمام بالدراسات المصرية والشرقية دراسة تفصيلية عميقة أشد العمق متسمة أكبر توسع .

وقال : أليس التراث المصرى تراثا حافلا لم تمط يد المصريين اللثام عن شىء منه ذى بال . ألسنا فى الدراسات الشرقية كلها عيالا على الغربيين المستشرقين ، بل ألسنا فى الدراسات الحديثة نفسها تقف مراجعنا عند حدود ما يكتبه الأجانب وتنحصر مهمة كتابنا فى ترجمة آرائهم وإن هم أحسنوا فيما يتجاوز تصرفهم دائرة التعديل والتنوير .

أليس يجرح كرامتنا ويمس إلى حد كبير شعورنا أن نبقى نحن نجهل هذا التراث الخالد حتى يضع أجنبى يدنا على مواضع الفخر فيه وأن يولى الشرق وجهة غربية يستوحى منها عظمة الآباء والأجداد .

٨ — وقال الدكتور عبد الوهاب عزام (الهلال م ٤٠ ص ٣٤١) أننا كنا إلى وقت قريب عالة على المستشرقين نأخذ منهم ولا نعطيهم ، أما اليوم فنحن نزامل المستشرقين ونتضامن معهم فى أحياء الثقافة العربية وإلقاء النور على حضارة الإسلام .

وقال : أن تراث العرب الفكرى مشتت فى بلاد الله قد نثرته الحروب الصليبيه وبددته الغزوات فتقاسمته تركيا ودويلات أوربا ومن الضرورى استحضار هذه المخطوطات أو أخذ صور فوتغرافية لها .

اللغـــــة العربية

ركز الإستعمار فى غزوه الثقافى على «اللغة العربية» للقضاء عليها كقوة من قوى الوحدة والقومية العربية والإسلام، وسبيلا إلى القضاء على الكيان العربى الإسلامى بما فيه من قيم ومقدرات وتراث يرتبط باللغة العربية .

ولقد كان هدف الإستعمار أن تصير اللغة العربية إلى ماصارت إليه اللغة اللاتينية وأن تتطور اللهجة المحلية فى كل قطر فتصبح لغة مستقلة لها أدبها وثقافتها منفصلة عن اللهجات الأخرى وبذلك يقضى على اللغة العربية والقرآن .

ولقد جند الإستعمار قواه لهذه الغاية وحرص عليها ورسمت خطط بعيدة المدى لذلك ، وفى المناطق التى احتلتها بريطانيا سارت الخطة على نحو معين وفى مناطق إستعمار فرنسا اتخذت الخطة شكلا آخر أشد عنفاً .

وكان هدف هذه الحملة إتهام اللغة العربية بالقصور ، وعدم الكفاية العلمية أو ارتفاع مستواها عن مفاهيم المجموعات العامة أو إتهام حروفها ونطقها وكتابتها بالصعوبة والتعقيد ؛ وكل هذه إتهامات حاول الإستعمار بها النفاذ إلى غرضه فى الدعوة إلى اللغة العامية أو استخدام الحروف اللاتينية وتحطيم عامود الشعر .

وقد توالت هذه الدعوات خلال هذه المرحلة الطويلة واستمرت وتعددت ، واحدة بعد الأخرى ، يحمل لواءها غربيون أجانب أو وطنيون من دعاة التغريب .

١ — قدم المهندس وليم ولكوكس الى مصر ١٨٨٢ من الهند وقد كان موظفا بمصلحة الرى بها وقد دعا إلى نشر العامية والتأليف بها وترجم بعض فصول من مسرحيات شكسبير ومن الإنجيل إلى العامية .

وله خطاب مشهور ألقاه فى نادى الأزبكية (يناير ١٨٩٣) وقد استهله بقوله « لماذا لم توجد قوة الإختراع لدى المصريين الآن » …

قال : أن من جملة العوامل فى فقد قوة الإختراع عن المصريين إستبقاءهم اللغة العربية الفصحى وأشار باغفالها وإستبدالها باللغة العامية اقتداء بالأمم الأخرى . وذكر بنوع خاص الأمة الانجليزية وقال أنها استفادت إفادة كبيرة باغفال اللغة اللاتينية التى كانت لغة الكتابة عندها وإستبدالها باللغة الانجليزية الحاضرة » .

وقد اتخذ لإذاعة هذه الفكرة بمعاونة سكرتيره أحمد الأزهرى مجلة عنوانها « الأزهر » قالت الأهرام ٢٩/٧/٣٢ « لقد قاوم الرأى العام فكرته فأبطل المجلة ومع ذلك فقد ظل يؤلف باللغة العامية فكتب فى ذلك حياة المسيح وأعمال الرسل وترجم كتب العهد الجديد إلى اللغة العامية المصرية وكان ينظم الزجل .

٢ — كما ظهر بعد ذلك بقليل (١٨٩٧) كتاب أطلق عليه إسم « اللغة العامية المصرية بالحروف الأفرنجية » . وهو مشروع ينتقل خطوة تالية بعد خطوة الدعوة إلى العامية فيطالب بكتابتها بالحروف الأفرنجية .

وقد أعده بعض الأجانب ورتبت له أبجدية أفرنجية « عوض فيها عن الحروف العربية الخالصة بأحرف ذات علامات خاصة ومعه تمارين لإستعمال هذه الحروف » على حد تعبير مجلة المقتطف فى التبشير بالكتاب .

٣ — دعا وليم ويلمور أحد قضاة محكمة الاستئناف الأهلية إلى اتخاذ اللغة العربية العامية للكتابة بدلا من اللغة الفصحى . وأصدر كتاباً عنوانه :

The Spoken Arabic of Egypt.

وقد قال ولمور : أن أرباب الصحف أولى من غيرهم بكتابة اللغة المحلية وأسماها (لغة القاهرة) وأشار إلى كتابتها بحروف رومانية كما عنى ولمور بجعل الحروف دالة على الأصوات . ويقع كتابه فى ٤٠٠ صفحة .

قال ولمور : أنه يأسف إذ نسيت العربية الفصحى فى هذه البلاد ويرى أنه يجب أن تدرس فى مدرسة جامعة مع غيرها من اللغات السامية كما يدرس اللغات الحية .

٤ — أصدر الكابتن وليم عبل جردنر كتابه — اللغة العامية المصرية Egyptian Couoquialabic كما أنشأ حلقة لتدريس اللغة العربية لطائفة المرسلين الذين يردون مصر من انجلترا وأمريكا وجعل هذا الكتاب وسيلة لغايته .

٥ — نشر المستشرق فنسك رسائل عديدة مكتوبة بحروف أوربية فى اللغة المصرية القديمة ومن بينها رسالة المقتطف أسماها « أجرومية مصرى » كتبها على هذا النحو (بل لسان المصرى ومعها أمسله) يقصد (باللسان المصرى ومعها أمثلة).

— ٢ —

وعلى ضوء هذا الاتجاه الذى بدأه المبشرون وحملة ألوية الغزو الثقافى كتب عدد كبير من دعاة التغريب محاولين خلق « أزمة » اللغة العربية وفى مقدمتهم الدكتور صروف وأسعد داغر ولطفى السيد وقاسم أمين وأمين الخولى ومحمود تيمور وعبد العزيز فهمى .

فقد كتب الدكتور صروف عام ١٨٨١ يقول أن لغة الكتب عند الأفرنج لا تفترق كثيراً عن اللغة التى يتكلمون بها فيفهم العامى منهم كتاب الفلسفة ، أما نحن المتكلمين باللغة العربية فكتبنا ولا سيما كتب العلوم مكتوبة بلغة غير اللغة التى نتكلمها ، والبعد بينهما كالبعد بين الفرنساوية والانجليزية أو بين اللاتينية والإيطالية فلا يقدر عامتنا على إدراك معانى الكتب مالم يدرسوا لغتها . ثم حاول أن يرسم حلا لعلاج ذلك فى واحد من طرق ثلاث :

× أما أن نستبدل لغتنا بلغة أخرى وهذا يا لارضاء لأنفسنا « مع أنه ممكن ونخاف أن تدعو الأحوال إليه فى مستقبل غير بعيد » .

× أما أن نكتب كتبنا باللغة التى نتكلم بها كما فعل الايطاليون وغيرهم من الأمم التى فسدت لغاتهم بتوالى الازمان .

× أما أن نعلم أولادنا التعلم باللغة العربية الصحيحة حتى تصبح ملكة فيهم ثم قال : أن هذا فيما نظن أشرف الطرق وآمنها وأنفعها لأن العربية الصحيحة واسعة المتن مضبوطة القواعد يمكنها أن تجارى العلم أكثر من كثير من لغات الأرض .

٢ — أما أسعد داغر فقد كتب فى هذا عام ١٨٩٦ فى مناظرة مع شديد يافث ثم جددها فى مارس ١٩٠٢ (المقتطف) وقال أنه كتب فى عديد من الصحف ومنها (ثمرات الفنون) ناعيا على اللغة العربية فأنها لاتصلح أن تكون لغة تكلم ولم توضع إلا لتكون لغة كتابة ، وبيان ذلك أن المتكلم من طبعه يطلب الاختصار فى حديثه . والكلام المعرب طويل جدا بسبب حركات الأعراب ولعدم أمكان الاختصار فيه كما فى المحكى » ثم قال أنه « ليس فى اللغة المعربة مافى اللغة العامية من الصلاحية للتكلم والمخاطبة ، ولذا قضى قانون تنازع البقاء أن تجفوها الالسنة والشفاه » وجملة رأيه هو نقص اللغة المكتوبة وقصورها عن مجاراة اللغات الأجنبية .

٣ — وكتب لطفى السيد فى (الجريدة) فى شهرى إبريل ومايو ١٩١٣ عدداً من المقالات فى (تمصير) اللغة العربية .

وقد اتهم اللغة العربية بأنها واسعة فى القاموس ، ضيقة فى الاستعمال خصبة فى المعانى والمسميات القديمة ، مجدبة فى المعانى الجديدة والاصطلاحات العلمية وأن رقيها قد انقطع من قرون طويلة فوقفت عند الحد الذى وصلت إليه أيام

النهضة العباسية ، ودعا إلى استعمال الألفاظ الأعجمية والعامية المألوفة (كالاتومبيل والبسكلت والجاكتة والبنطلون والجزمة) وقال أنه لايعرف سبباً لهجر المألوف المشهور إلى ابتكار غيره إلا حب الاغراب، ثم قال أنه لا جرح على الكاتب أو المترجم أن يستعمل من الألفاظ ما شاء من المعانى ، وأنه يريد أن لا يترك اللغة العامية تموت بأبعاد عربيها وفصيحها عن عالم الكتابه والنزول بالضرورى من اللغة المكتوبة إلى ميدان التخاطب والتعامل .

٤ — وقال قاسم أمين : أن اللغة العربية مرت عليها القرون الطويلة وهى واقفة فى مكانها لا تتقدم خطوة إلى الأمام ، بينما أخذت اللغات الأوربية تتحول وترق كلماتقدم أهلها فى الآداب والعلوم [وطالب بأن تبقى أواخر الكلمات ساكنة لا تتحرك بأى عامل من العوامل] وقال أن هذه الطريقة هى طريقة جميع اللغات الأفرنكية والتركية وذلك بحذف قواعد النواصب والجوازم والحال والاستقبال بدون أن يترتب على ذلك اخلال باللغة إذ تبقى مفرداتها كما هى .

٥ — وردد سلامه موسى دعوة « ولكوكس » فقال أن الهم الكبير الذى يشغل باله هو هذه اللغة التى نكتبها ولا نتكلمها فهو يرغب أن نهجرها . ونعود إلى اللغة العامية « فنؤلف بها وندون بها آدابنا وعلومنا » . وردد دعوة قاسم أمين الذى نعى على اللغة الفصحى صعوبتها واقترح إلغاء الاعراب فتسكن أواخر الكلمات وردد دعوة لطفى السيد باستعمال العامية .

وأشار إلى أن الخورى فى سوريا قد حمل لواء الدعوة إلى أصطناع العامية السورية بدلا من اللغة الفصحى وقال أن الصحف السورية والفلسطينية حتى العراقية قبحت هذا الرأى ونسبته إلى ضعف الحمية الوطنية .

٦ — وتحدث الدكتور جورجى صبحى فى محاضرة عن اللهجات العربية

الدارجة فى مصر وتاريخ نشوئها · وأشار إلى أن اللغة الدارجة حتى القرن الثالث عشر الميلادى لم تكن كونت فى مصر بعد ، وأشار إلى طريقة تحول الفصحى إلى عامية ؛ وأن أول تغير فى طريق تكوين اللهجات يقع على الحركات كظهور حرف O والاماله E ثم يعقب ذلك الحروف الساكنة بأن نستبدل الحروف الحلقية بحروف أخف نطقا كابدال القاف همزة والطاء ضاداً والذال دالا والثاء تاء ·

٧ — وكتب عبد الله حسين (الأهرام — ٤ مايو ١٩٢٦) فادعى أن اللغة العربية « عجزت عن تأدية » العبارة الدقيقة عن حياة الصناعة وسمو أسرار الطبيعة المكشوفة ، ظهر ذلك حين أراد المترجمون أن ينقلوا إلى اللغة العربية كتب الأدب فاجتهد كل مترجم فى أن يؤدى المعنى الأجنبى باللغة العربية بتصرفه الشخصى ·

وأشار إلى اللغة العامية فقال : أن لنا لغة عامية هى فى الواقع أداة التعبير الحقيقية عن مطالبنا وأحاديثنا ·

ثم تساءل : عما إذا كان من المستحسن « تمصير » اللغة العربية أى جعلها لغة مصرية خالصة توضع لها أسسها وقواميسها وقال أن هذا التمصير يسهل على مصر الاستفادة من بعض المعقول فى اللغة العامية ·

— ودعا عبد العزيز فهمى (يناير ١٩٤٤) إلى اتحاد الحروف اللاتينية لرسم الكتابة العربية وقال : أن أهل اللغة العربية مستكرهون على أن تكون اللغة العربية الفصحى هى لغة الكتابة عند الجميع · وأن فى ذلك محنة حائقة بأهل العربية وأنه تكليف للناس بما فوق طاقتهم وأن اللغة العربية ليست سهلة المنال كاللغات الأجنبية .

ووصف اللغة العربية بأنها ليست لغة أمة واحدة لقوم بعينهم بل أنها مجموع

كل لهجات الأعراب البادين فى جزيرة العرب ، وأنه من الظلم إلزام المصريين وغير المصريين بها .

وأنه من أجل ذلك فكر فى اتخاذ الحروف اللاتينية وما فيها من حروف الحركات بدل حروفنا العربية كما فعلت تركيا . ثم صور مزايا استعمال الحروف اللاتينية فقال: إن الحروف الهجائية الجديدة لا تخل بشيء من نغمات الحروف العربية بل تبرزها جميعاً، وقال أن هذه هى الوسيلة الوحيدة لحل هذه المشكلة .

لرد على الحملات

وهكذا استمرت معركة الهجوم على اللغة العربية طوال هذه الفترة التى تزيد عن خمسين عاماً ، وكان واضحا من لهجة كتابها مدى التعصب والغرض وعنف وسائل الغزو الثقافى ومحاولة البحث عن كل وسيلة ممكنة للقضاء على اللغة العربية سواء كان ذلك بأقلام المبشرين من كتاب الغرب أم بأقلام دعاة التغريب من كتابنا.

وقد أجلت حملات الدفاع عن اللغة العربية حقائق واضحة لا سبيل إلى إنكارها منها :

× أن الفرق بين لغة الكتابة ولغة التكلم عندنا ليس بالشيء الكبير وقد لا يكون أكثر من الفرق بين لغة كتاب الإنجليز ولغة عامتهم .

× أن الناطقين باللغة العربية تختلف لغتهم العامة باختلاف الاصقاع . والفرق بين لغة مصر والشام ليس بأقل من الفرق بين الفصحى والعامة،فاستبدال الفصحى بالعامية المصرية يحرم كل قطر من الانتفاع بإنتاج القطر الآخر .

× أن أغفال الفصحى يستوجب أغفال كل ما كتب عنها من العلوم منذ ١٣٠٠ سنة وهى خسارة لا حد لها .

× لا يعقل أن أمة لها لغة شهيرة ذات حروف منتشرة وإنتاج ضخم وتراث كبير تترك حروفها هذه لتكتب بحروف غربية .

× الجامعة العربية قائمة بالمحافظة على اللغة الفصحى إذ لولا القرآن لتشتت شمل الشعب العربى ·

× الاختصار فى الكتابة العربية مزية لها ·

× أن الحروف العربية التى تستعمل فى سائر العالم العربى هى أهم مظاهر الوحدة ·

× أن اللغة العامية منحطة لانحطاط عقول الناطقين بها ولا تقوم مقام الفصحى فى اللغة العربية أرقى لغات العالم ·

وقد رد جرجى زيدان على ويلم ويلمور (هلال فبراير ١٩٠٢) فقال «هم يشيرون علينا أن نتخذ اللغة العربية العامية بدلا من اللغة الفصحى فى الكتابة فأى اللغات العامية يريدون أن نتخذ · لغة مصر أم لغة الشام أم لغة العراق أم لغة الحجاز أم اليمن أم نجد أم المغرب ، فان لكل من هذه البلاد لغة خاصة لا يفهمها عامة البلاد الأخرى ، فان قالوا ألفوا لغة تشترك بين هذه اللغات قلنا أن اللغة لا تتألف بالتواطوء ، وإنما هى جسم ينمو نموا طبيعياً على مقتضى ناموس الارتقاء . وأسهل منه أن نبقى على اللغة الفصحى وهى أم لغاتنا العامة وأقرب إلى أفهامنا من لغة جديدة ملتقطة من أفواه الأمم ·

فان قالوا : أن كل أمة من هؤلاء لها لغتها ، فالسورى يكتب بلغة عامية الشام والمصرى بلغة عامية مصر كان ذلك رأى القائلين بانحلال العالم العربى وتشتيت شمل الناطقين بالضاد . زد على ذلك أن المسلمين لا يستغنون عن تعلم اللغة الفصحى لمطالعة القرآن والحديث، وأن ما ينطبق على اللغة العربية وفروعها يختلف عما ينطبق على اللغة اللاتينية وفروعها ، وأن استبدال اللغة الفصحى باللغة العامية ضربة قاضية على العنصر العربى وعلى العلم فى اللغة العربية وان لغة العامة لا تكفى للتعبير عن القضايا العلمية إلا باضافة الألفاظ العلمية الجديدة ، أما اللغة اللاتينية فلا تنطبق أحوالها على

أحوال لغتنا الفصحى ولا يجوز القياس عليها . وأن الفرق بين اللغة اللاتينية وفروعها أبعد كثيرا من الفرق بين اللغة العربية الفصحى وفروعها العامة .

وأنه يكفي للشرق ما يعتوره من أسباب الشقاق حتى لم يبق له جامعة غير هذه اللغة فبالله ألا أبقيتم عليها .

وقال: أن تعليم الفصحى ليس بالأمر الشاق الذي يقتضي الأعوام الطوال، أما استبدال الحروف العربية الاعتيادية بالحروف الأفرنجية فلا نرى له نتيجة سوى زيادة التعقيد بتطويل الكلمة وتلبك قراءتها .

٢ — وعلق الدكتور صروف في المقتطف (فبراير ١٩٠٢) فقال: أن إقتصار المتعلمين في مصر والشام على الكتابة باللغة المصرية وشيوع الكتب والجرائد فيها ولا سيما في السنوات الأخيرة واعتياد أكثر الذين يعرفون القراءة على مطالعة الجرائد ، كل ذلك عضد اللغة المعربة وقواها حتى صار إهمالها متعذراً إن لم يكن مستحيلا . لذلك لا نطمع في الكتابة المحكية الآن ولا نشير بها ، ولكننا نطمع ونشير بالتوسع في اللغة المكتوبة حتى يدخل فيها كل كلمة محكية لا تقابلها كلمة فصيحة مالوفة ، ونطمع ونشير بالتوسع في التعريب حتى تجارى لغتنا لغات أوربا فلذلك فاهتمام القاضي (ولمور) ومن جرى مجراه بضبط اللغة المحكيه جاء بعد أوانه .

ورد على قول ولمور : أن أصحاب الصحف أولى من غيرهم بكتابه اللغة المحكية فقال « أن أرباب الصحف أحرص الناس على اللغة المعربة » .

وقال : أن الذين انتقدوا على الكتابة العربية رأوا خلوها من الحركات ولا ندري كيف ذهب عنهم أن هذا الاختصار في الكتابة العربية مزية . وقال أن « ولمور » عنى بجعل الحروف دالة على الأصوات وهو عناء باطل ، لأن أصوات

اللغة تعد بالمئات ونحن نكتفى بعشرين أو ثلاثين حرفاً للدلالة عليها كلها .

٣ — وكتب عبدالقادر حمزة (البلاغ الأسبوعى — ١٩٢٨) بمناسبة سماعه محاضرة فى الكولج دى فرانس سمع فيها المستشرق (ماسنيون) تقول : أن اللغة العربية تذهب إلى المقصود رأسا بينما اللغات الأوربية لا تصل إلى ذلك ألا تدريجيا . ثم قال ماسنيون: إنما توشك أن تشرف على الخطر إذ لم يسعفها المصلحون بما تقوم من ضعفها ، وعلة العلل فى نظره هى الحروف العربية وما يدخل عليها من تغيير فى الرسم وتغيير فى الحركات يضيع المتعلم فيهما شطراً كبيرا من عمره، ودعا إلى أن ترسم اللغة العربية بالحروف اللاتينية فلا تبقى ثمة حاجة إلى شكل الحروف لتعرف حركاتها .

وقال عبد القادر حمزه : أن نزوع الترك فى كتابة لغتهم بالحروف اللاتينية هو الذى يقذف بهذه الفكرة على اللغة العربية — وقال ان اللغه العربية بحروفها الحالية حملت مدنية كاملة ملأت بها جوانب الأرض فى مئات قليلة من السنين . وقد قطعت أدواراً فلم تجمد فى واحد منها ولم تهن بل تطورت فى كل دور بما يناسبه، فالذين يقولون أنها بحروفها الحالية أداة غير صالحة ينكرون حقيقة اثبتتها عدة قرون وهى أن الحروف التى ينتقصونها تمتاز على الحروف اللاتينية بأنها مشبكة والكتابة بها أسرع .

عظمة اللغة العربية

وقد دافع كثيرون من الكتاب والمفكرين عن « اللغة العربية » وكشفوا عن مفاهيمها وحقيقتها التى أنكرها الغزو الثقافى وحرص على إنكارها ليتوصل بذلك إلى التقليل من شأنها والسخرية بها .

وقد أجمعوا على عظمة اتساع اللغة العربية وكثرة الفاظها وتعدد معانيها وقد أمكن حصر مائة ألف مادة من كلامها مما لا يمكن معه وصفها بالقصور .

٢ — يتسع مجالها لأغراض الكتابه وفنون البلاغة : من إطناب وإيجاز وتصريح وتلميح واستعارة .

٣ — خاضت معركة الترجمة من اليونانية والهندية أبان دولة الأمويين والعباسيين حيث أستطاعت أن تستوعب كتب الطب والحكمة والحيوان والنبات والكيمياء والحيل والرياضيات والفلك مما لايقع تحت حصر، ولم يستعص عليها أى مصطلح ، وقد وصف الدكتور أحمد عيسى كيف كانوا يحرصون على اللفظ اليونانى فيهندمونه بحسب أوزان اللغـــة العربية إذا كان للفظ مكانا ومعنى خاصا مع وجود لفظ عربى فصيح يقابله فقالوا (قاطيغوريياس وطوبيقا وبارمنياس وبويطيقا وأنا لوطيقا) وعندهم لفظ المقولة والجدل والعبارة والشعر والخطابه .. » ونقلوا كتب التشريح والنبات مما لم يجدو له فى لغتهم مقابلا فعربوه وأدمجوه فى لغتهم ·

٢ — وتختلف اللغة العربية عن اللغات الأخرى فى النمو والتطور ، فقد ظهرت فجأة فى شبابها دون أن تمر بعهد الطفولة وقد حققت خصائصها الأصيلة رغم اختلاطها باللغات الأخرى ·

٣ — جمعت جميع الاحرف التى فى اللغات الأعجمية . ولها ستة أحرف لم تجتمع لغيرها من اللغات وهى المجموعة فى (ثخذ — ضظغ) ·

٤ — عاشت قرابة الألف وخمسمائة سنة وهى تؤدى مهمتها أداة الخطابة والكتابة والصحافة · وهو ما يعد معجزة من عالم اللغات ·

اللغة العربية والاستعمار

ولم يقف الاستعمار فى معركته مع اللغة العربية عند حملاته عليها، بل حرص على إقصائها عن المحاكم والبنوك والمصالح وفرض لغته بدلا منها ، كما عمل على إهمال اللغة

العربية فى الأوساط المختلفة، وغلب عليها اللغات الاجنبية؛ وفى الأحاديث العامة ظهرت الكلمات الاجنبية على الألسن كجزء من مركب النقص فى تقليد الغالب ، وقد بلغ الأمر أن فرض على أصحاب المصالح وهم فى بلادهم أن يكتبوا رسائلهم وطلباتهم إلى بعض الجهات باللغات الأجنبية . وأن يتلقى الوطنيون خطابات من هذه الجهات بلغاتها الأجنبية .

كما نعت الصحف على المصريين والشرقيين الذين يعرفون العربية أنهم يتكلمون باللغات الاوربية فيما بينهم . ولم يقع هذا فى مصر وحدها بل كان سمة باللغة للفترة كلها فى مختلف بلاد العالم العربى المحتلة .

وقد ذكرت جريدة الجهاد (١٠ / ٩ / ١٩٣٤) أن وزارة المالية توافيها ببياناتها الإحصائية مكتوبة بلغة أجنبية .

وأشارت جريدة مصر ١٩ / ٤ / ١٩٣٤ « أن الشركات والبنوك ما تزال مصرة على تدوين كل مراسلاتها وعقودها مع أبناء البلاد بغير لغتهم ولم تر — حتى من المجاملة — أن تضع ملخصاً باللغة العربية لعقودها ومراسلاتها كى يفهمها المستهلك الوطنى ، وأن ذلك حدث ليس اعتماداً على سلطتها الاجنبية القائمة على احتكار مادة من المواد الحيوية بل لأن لها وحدها حق استعمال لغتها مهما كان هذا الاستعمال من الاستهانه بكرامة الأمم التى تعيش فى دارها » .

ويتصل بهذا اللافتات الموضوعة فوق المحلات والشركات والمخازن وكلها مكتوبة باللغات الأوربية وحدها .

فى المحاكم المختلطة

وقد ظل الاستعمار يحول بين اللغة العربية وبين حقها فى المحاكم المختلطة مع أنها مقررة كإحدى اللغات الرسمية بهذه المحاكم منذ عام ١٨٧٥ ،غير أن قضاة هذه

العهود من المصريين كانوا من الضعف بحيث أنهم لم يجرؤا على تحرير أحكامهم باللغة العربية ، وظلت هذه الاحكام تصدر باللغة الفرنسية حتى جرؤ المستشار عبدالسلام ذهني (أبريل ١٩٣٤) فكتب ثلاثة أحكام باللغة العربية وتمكن من النطق بها باللغة العربية وذلك في جلسة ١٧ أبريل ١٩٣٤ ، وقد تمسك رئيس الدائرة السويسري (هوربيه) دون الاعتراف بها وقد ثارت لذلك ضجة كبرى فكان حدثا ضخما بعيد المدى أحدث أزمة دولية .

وقال عبد السلام ذهني : إنه في تمسكه باللغة العربية إنما يقوم بواجب قانوني وأن لهذا التمسك رابطته الوثيقة باحياء اللغة العربية وتكريم اللسان المصري القومي والترجمان العربي .

وقد دعا هذا مستشاراً أخر هو محمد شكري أن يقدم أحكاما باللغة العربية في ١٧ / ١٢ / ١٩٣٤ .

وجرى الدفاع عن موقف المستشار ذهني بأن النص في اللائحة المختلطة قد أشار باستعمال لغات أربع : هي العربية والفرنسية والايطالية والانجليزية، وقالت الأهرام : أنه لاشك جعل اللغة العربية في المرتبه الأولى يدل على أن المشروع قد قصد أن تكون اللغة العربية هي الأولى ، واستتبع هذا البحث عن المرافعة باللغة العربية أمام المحاكم المختلطة — وقد أجاب وزير الحقانية في البرلمان بأنه ليس في القانون ما يمنع المحامي من المرافعة باللغة العربية أمام المحاكم المختلطة لأن هذه اللغة واللغات الثلاثة الأخرى مقررة رسميا أمام هذه المحاكم، وقد عقد المحامون أمام المحاكم المختلطة اجتماعات عده للمطالبة بجعل اللغة العربية هي لغة المرافعة غير أنه حال بينهم وبين ذلك أن القضاة لم يكونوا يعرفونها .

وأشار عزيز خانكي بهذه المناسبة إلى الضجة التي أثارها الأجانب عند ماندب

قاض مصرى لرئاسة جلسة المحكمة المختلطة وكان من نتائجها إلغاء الانتداب حالا ورفضت الدول الغربية أن يتولى القضاة المصريون رئاسة الجلسات .

وقد ارتبطت الدعوة إلى إعادة الكتابة باللغة العربية فى المصالح والشركات بالدعوة الوطنية فقد كان تغلب اللغة الاجنبية على اللغة العربية فى هذه المجالات امتهانا للكرامة القومية ·

وفى سوريا انبعثت الدعوة إلى أن اللغة العربية هى حصن منيع للوحدة القومية فقد تحدث عبد الرحمن شهبندر فى هذا المعنى فى القاهرة (٢٩ أبريل ١٩٢٩) وحذر من أن مدينة العرب مهددة بالاكتساح ، كما اكتسحت أشرف تعاليمهم وأن الخطر الذى يهدد الثقافة العربية يجىء من ناحية اللغة العربية التى هى رمز المجتمع والذى وصفها « بلاكا روجبلين » بأنها أدت وظيفة مهمة فى التنظيم الاجتماعى . وقال أن من خنق اللغة فقد خنق نفسه لأنها هى أداة التنفس الوحيدة للامة .

إصلاح اللغة العربية

وقد استتبع هذا الاتجاه، البحث فى إصلاح اللغة العربية وإعدادها بحيث يقضى على ما يثار حولها من عجز وقصور وذلك بالتقريب بين العامية والعربية وتيسير قواعد اللغة العربية ، ودعا أحمد أمين إلى تيسير التعريب والاشتقاق والقياس والتخفف من المفردات العسيرة الفهم وخاصة إعدام الكلمات الحوشية التى يمجها الذوق السليم؛ودعا المازنى إلى إيثار الكلمة الشائعة بعد تصحيحها وإزالة تحريفها وقال أن عن الغلو المعيب أن تحاول تطهير اللغة العربية من كل لفظ دخيل .

ودعا غير هؤلاء إلى أن تنقل أسماء المسيحيات الحديثة من لغاتها الاجنبية بعد تهذيبها .

— ودعا الدكتور على مصطفى مشرفة إلى تدوين العلوم باللغة العربية وقال

أن هذا يؤدى إلى تطور اللغة العربية وقبولها للمصطلحات العلمية ، وقال : أن كل لغة حية إنما تنمو عن طريق التأليف والكتابة . وقال أننا ننقل اليوم المعرفة عن غيرنا ثم نتركها عائمة لا تمت بصلة الى ماضيها ولا تتصل بتربتنا فهى بضاعة أجنبية عليها مسحة الغرابة .

وتحدث الدكتور هلال فارحى عن طريق التعريب فقال : أن لها وسائل متعددة : منها التعريب (أدخال ألفاظ أعجمية بحالتها الأصيلة) والتوليد (إدخال ألفاظ جديدة وضعها المولدون فى صدر الإسلام بطريق الاشتقاق) والترجمة (بحسب المعنى الأصلى) والاستبدال (استبدال الحروف الأعجمية الناقمة بحروف عربية متجانسة) والتسمية بالخاصيات (مثل كهربائية للترام) والمجاز والنقل (يطلق الأول على الألفاظ المستعملة فى غير ما وضعت له لمشابهة بينها والثانى يطلق على الألفاظ المنقولة) والاقتباس (عن تعابير وردت كالشاهدة للكوبيا) والاشتقاق (نوع لفظ من آخر يشترط تناسبهما لفظا وتركيبا) .

وقال بهى الدين بركات أن وسيلة الإصلاح هى :

١ — جعل الكتابة العربية مفهومة مع المحافظة على خصائص الخط العربى والكتابة العربية .

٢ — تسهيل تدريس قواعد اللغة والبيان .

٣ — تغيير نظم التدريس بما يجعل الطلبة يعتادون التحصيل .

إنشاء المجامع العربية

وقد اقتضت حاجة اللغة العربية إلى التطور إلى إنشاء مجامع للغة العربية فأنشىء المجمع العلمى فى دمشق (١٩٢٠) والمجمع اللغوى فى القاهرة (١٩٣١) ثم أنشىء المجمع العلمى فى بغداد (١٩٤٧) .

وقد بدأت فكرة إنشاء مجمع للغة العربية فى مصر فى نهاية القرن التاسع عشر لوضع قاموس عربى قريب المأخذ سهل التناول . وقد عقدت اجتماعات لهذا الغرض فى بيت لطيف باشا سليم وبيت البكرى وفى الأزهر وحضرها الشيخ محمد عبده وعالم إسلامى هو الشيخ الشنقيطى وتبلورت عن إنشاء أول مجمع لغوى ١٨٩٧ فى بيت البكرى بالخرنفش برئاسة ووكالة الشيخ محمد عبده وكان من أعضائه : أمين باشا فكرى والشنقيطى وإسماعيل صبرى وحفنى ناصف ومحمد بيرم التونسى ومحمد المويلحى ومحمد عثمان جلال ومصطفى نجيب ، وقد عقد عدة جلسات سجلت فيها بعض الكلمات العاملة والدخيلة واتفق على عدة كلمات أوردها حسن السندوبى فى بحثه بالأهرام (٨ / ٨ / ٩٣٤) .

وهى : المدرة بدلا من المحامى . ومرحى بدلا من برافو ، والمسرة بدلا من التلفون ، وعم صباحا بدلا من بونجور ، وحراقة بدلا من طوربيد .

كما ذكر أنهم اختلفوا فى (الاتومبيل) وأطلق عليه شكيب أرسلان الفرارة وقال زكى باشا السيارة .

ثم تجددت الفكرة عام ١٩١٧ فعقد مجمع لغوى فى دار الكتب برئاسة سليم البشرى — شيخ الأزهر إذ ذاك — ووكيله الشيخ محمد بخيت وسكرتيره لطفى السيد ومن أعضائه عبدالرحمن قراعة، حلمى عيسى، رشيدرضا، أحمدالأسكندرى، عبد العزيزفهمى ، أحمد كمال ، أمين واصف ، إسماعيل رأفت ، فارس نمر ، يعقوب صروف، أحمدزكى، حفنى ناصف ، أحمد تيمور، أحمد عيسى وأضافوا إليهم ثلاثة أعضاء فارسى وسريانى وعربى وعنوا بوضع معجم لغوى يفى حاجة العصر الحديث.

وقد أجمع الباحثون على أن مهمة المجمع هى :

— المحافظة على سلامة اللغة من غلبة اللغات عليها بما يخرجها عن أوضاعها الأصلية بتسجيل لغة أخرى .

— التوسع فى تطبيق بعض قواعدها الجزئية لتنويع طرق التعبير بها وتسهيل إضافة أسماء حديثة لمسميات حديثة إلى معجماتها العلمية .

— العمل على أن تكون وافية بمطالب العلوم والفنون ملائمة على العموم لحاجات الحياة فى العصر الحاضر .

— وضع معجم تاريخى للغة العربية .

ثم كانت المرحلة الثالثة هى إنشاء مجمع اللغة العربية فى ١٤/١٢/١٩٣٢ من عدد العلماء والمفكرين وانضم إليه عدد من المستشرقين الانجليز والفرنسيين وغيرهم .

كما جرت خارج المجمع أبحاث وأعمال هامة فى تعريب المصطلحات المختلفة ، كان أبرزها أعمال الدكتور أحمد عيسى والدكتور محمد شرف والدكتور أمين المعلوف والأمير مصطفى الشهابى وقد عنى هؤلاء الباحثون بتعريب المصطلحات الطبية والعسكرية والزراعية — وكان من رأى الدكتور أحمد عيسى : أنه لا مانع من استعمال الكلمات الأعجمية عند الضرورة على أن يستغنى عنها بعد أن توجد بديلاته عربية عنها ولا ما نع من التعريب ففى القرآن الكريم كلمات معربة كالسندس .

وقد واجه المجمع اللغوى فى مصر حملات متعددة ولكنها كانت مغرضة ، قام بها خصوم اللغة العربية وأن بدأ عمله بطيئاً فى هذه الفترة التى نؤرخها إلا أنه استطاع أن يحقق وضع عدد من المعاجم لألفاظ القرآن والحضارة وغيرها . بل أن عدد من أعضاء المجمع اليوم قد هاجموه قبل أن يشركوا فيه .

رأى للمصنفين

ولا شك أن اللغة العربية فى معركتها إزاء حملة الغزو الثقافى والتغريب قد استطاعت أن تحقق انتصاراً كبيراً بمقاومة فكرة القضاء عليها والتقريب بين لغة الكلام ولغة الكتابة .

وقد شهد للغة العربية كثيرون من مفكرى الغرب حتى أن أرنست رينان

ـ وهو على ماهو تعصبا وخصومة ـ شهد لها فى كتابه [تاريخ اللغات السامية] أنها بدأت للعرب والعربية — فجأة على غاية الكمال وأن هذا عنده من أغرب ماوقع فى تاريخ البشر وصعب حله ، وقد انتشرت سلسة أى سلاسة ، غنية أى غنى ، كاملة لم يدخل عليها منذ ذلك العهد إلى يومنا هذا أى تعديل مهم ، فليس لها طفولة ولا شيخوخة ، إذ ظهرت لأول أمرها تامة مستحكمة ولم يمض على فتح الأندلس أكثر من خمسين سنة حتى اضطر رجال الكنيسة أن يترجموا صلواتهم بالعربية ليفهمها النصارى .

ولحظ شبنجلر فى كتابه انهيار الغرب « مدى تأثير اللغة العربية فى شكل تفكيرهم » وقال أن اللغة العربية لعبت دوراً أساسياً كوسيلة لنشر المعارف وآلة للتفكير فى خلال المرحلة التاريخية التى بدأت حين احتكر العرب على حساب الرومان واليونان طريق الهند .

ويرى العلامة فريتاغ الألمانى فى معجمه الكبير عن اللاتينية والعربية أن اللغة العربية ليست أغنى لغات العالم فحسب بل أن الذين نبغوا فى التأليف بها لا يكاد يأتى عليهم العد ، وأن اختلافنا عنهم فى الزمان والسجايا والأخلاق أقام بيننا ونحن الغرباء عن العربية ، وبين ما ألفوه حجابا لا نتبين ماوراءه إلا بصعوبة .

٣ — وقال رينشرد كوتهيل (الهلال ١٩٢٠م ٢٨) : أنه لا يعقل أن تحل اللغة الفرنسية أو الانجليزية محل اللغة العربية وأن شعبا له آداب غنيه منوعة كالآداب العربية ولغة مرنة لينة ذات مادة تكاد لا تفنى لا يخون ماضيه ولا ينبذ إرثاً اتصل إليه بعد قرون طويلة عن أبائه وأجداده ، وأن التباين الجزئى الذى يبدو بين اللهجات العربية لا بد أن يزول وعليه فستكون عندنا منطقة عربية تتكلم لغة واحدة شاملة .

ولقد كان للعربية ماض مجيد وفى مذهبى أنه سيكون لها مستقبل باهر .

٤ — وأكد وليم ورل (الهلال ١٩٢٠م ٢٨) أن اللغة العربية لم تتقهقر قط

فيما مضى أمام أى لغة من اللغات التى احتكت بها وأنها ستحافظ على كيانها فى المستقبل كما فعلت فى الماضى ،وأن لها لين ومرونة يمكنانها من التكيف وفقا لمقتضيات العصر . وأن اللغات الأوربية فى خلال ٢٥٠ سنة لم تستطع السيطرة على العربية أو إضعاف مكانها .

٥ — وقال مرجليوث (الهلال أكتوبر ١٩١٧) أن اللغة العربية لا تزال حية حياة حقيقية ، وأنها إحدى ثلاث لغات استولت على سكان المعمورة استيلاء لم يحصل عليه غيرها (الانجليزية والأسبانية) وهى تخالف أختيها بأن زمان حدوثها معروف ولا يزيد سنهما على قرون معدودة ، أما اللغة العربية فابتداؤها أقدم من كل تاريخ .

وقال أنطون الياس : أن اللغة العربية أقدم لغة حية ،وأرجع كثيراً من الكلمات الانجليزية واللاتينية واليونانية وغيرها إلى أصلها العربى وبرهن على أنه ليس لها فى غير العربية تحليل ولا تركيب ،قال أن بعض اللاتين قد اتخذوا لهم ديدنا هو إظهار اللغة العربية العظمى بمظهر لغة ميتة وغير مفهومة عند ثلاث أرباع المتكلمين بها . أما لغة الكلام فهى فى نظر هؤلاء اللاتين عبارة عن لهجات عامية لا ارتباط بينها ومصيرها الفناء بعد زمن قليل .

وقال أن حسب هؤلاء أن يذهبوا إلى مصر وسوريا ليتجلى لهم بالبرهان القاطع أن اللغة العربية التى وئدت قبل أن يحين أجلها هى على عكس ما يذهبون إليه لغة حية بكل ما فى الحياة من قوة » .

ولقد جاهد فى سبيل اللغة كثيرون منهم ثلاثة أقطاب لا يمكن تجاهل دورهم فى خدمة اللغة وحمايتها وتطورها : أحمد تيمور وعبد القادر المغربى وانستاس الكرملى (أقرأ دراسات عنهم فى كتابنا حماة اللغة العربية) .

ولعل خير ما يختم به البحث ما سجله الخليل فى كتاب العين من أن عدد ابنية كلام العرب المستعمل والمهمل (١٢٫٣٠٥٫٤١٢) كلمة . وأن عدد الألفاظ العربية ٦٫٦٩٩٫٤٠٠ لفظ لا يستعمل منها ألا ٥٦٢٠ لفظا والباقى مهمل .

المجتمع

إزاء الاستعمار والغزو الثقافى والتغريب

لقد واجه مجتمعنا العربى بين الحربين معركة ضخمة فقد سقط العالم العربى كله — تقريبا — فى قبضة الاستعمار وفرض عليه الغزو الثقافى والتغريب .

وكان على المجتمع أن يواجه تياراً ضخما من الحضارة المادية فى مختلف صورها فقد خف سلطان الدين والمعانى الروحية ، وتغرب التعليم واستطاعت الصحافة أن تبث كثيراً من آراء الحرية والانطلاق .

كما فرض الاستعمار على الوطن العربى غزواً غريباً مدمراً يتمثل فى المخدرات والحانات والبغاء العلنى المصرح به بأمر القانون . وواجه الشباب حياة جديدة تختلف عن الحياة التى كان يحياها أباؤه فى ظل هذه الأضواء والحريات ، وارتفعت صيحات تحرير المرأة . والدعوة إلى تملها وسفورها ، واستتبع هذا ظهور مشاكل جديدة وقضايا متعددة منها أزمة الزواج ، كما واجهت الأسرة أزمات جديدة من التفكك والانحلال .

وحدثت تطورت فى شئون الزى والأغانى وظهرت الدعوات إلى الإصلاح الاجتماعى .

ولا شك أن حركة الغزو الثقافى والتغريب التى قام بها الاستعمار قد أدت إلى خلق جو من الانحلال والفساد ، وقد كانت حملة الاستعمار على الدين عاملا من عوامل الاستهانة بقواعد الخلق ومقومات الفضائل والقيم ، مما أدى إلى الاستهانة بها وبذلك اضطرب المجتمع فى عناصره الثلاث : الشباب والأسرة والمجتمع .

وقد رسم محمود أبو العيون صورة المجتمع فى مصر بعد الحرب العالمية الأولى فقال « أنها — أى الحرب — تمخضت عن عجائب مدهشات . ظهر الجيش الأحمر فى روسيا وطغى سيله ومحا الرجل المريض فى الاناضول تحت ظل القنا وخفق البنوذ ، وأزال شبح الخلافة العثمانية الذى أرهب أوربا . كما أن ثورة ١٩١٩ تركت أثراً بالغاً فى آداب الأمة المصرية وأخلاقها ولكننا لا نفهم أن ما كنا نسميه نهضة سامية نرمز لها بالتماثيل ونقيم لها الانصاب ، وما كنا نود أن نأخذ من معناه كاله الأوفى يجور إلى انتكاس واضمحلال فى كل معانى الحياة الناهضة ، تلك التى بذلنا فى سبيلها مهجا غالية ودماء ذكية . نقول أن ثورة ١٩١٩ التى طأطأ لها التاريخ إجلالا وهومت لها الأمم إكباراً وإعظاما كانت فى حياة مصر فجرا كاذبا لمع نوره فى آفاقها كلسان الشمعة ثم خبأ وأظلم وها نحن فى ديجور الظلمة تائهين حيارى » .

معركة الشباب

تأثر الشباب بالأفكار الغربية فى الحرية والانطلاق من القيود، وكان للدعوات النازية والفاشية التى ظهرت فى أوربا أثرها فى أفكار الشباب المتطلع إلى الحرية فقد أخذت مظهريات الأزياء العسكرية ، والصرخات المتطلعة ؛ غير أن الأحزاب كانت ما تزال تفرض سلطانها ونفوذها وتحمل مع هذا جرائيم الإغراء بالمال ، والنزول عن معانى الوطنية الخالصة ، وتغليب النفعية على القيم ، والمصلحة على التجرد . وجرى مع هذا اتجاه إلى التخفف من أعباء الثقافة والجهاد والحرص على الحصول على النتائج السريعة بأقل جهد ، وأعانت السياسة على ذلك فى الجامعات والمدارس فحصل الشباب على القشور ، واكتفى بالشهادة الرسمية وبذلك ضعف المستوى الثقافى .

وقد وصفهم محمود أبو العيون (الأهرام ٧ / ١ / ٣٤) بأنهم من الطراوة

والميوعة بحيث لايقدسون ماضيا ولا يحفلون بعصير وأنهم يضيعون أوقات حياتهم فى العبث والمجون وان أفكارهم تصور الأوهام الفاسدة وألسنتهم تنطق بالألفاظ المستهجنة ونظراتهم خائنة . وأنه لا شيء أفعل للمصيبة ولا آذى بالمروءة ولا أخطر لكرامة الشعوب من تلك الاباحة الخاسرة .

ويرى عباس عمار (١١ / ٢ / ٢٤) الاهرام — أن الحالة التعسة للشباب سيئة متوترة واليأس فى قلوبهم يملؤها حتى كادت تطفح به . وأن نظرتهم إلى التعليم مادية وأن غرض الثقافة الاسمى يتلاشى ويزول فضلا عن إهمالهم للمثل العليا وتضحية مبادىء الأخلاق فى سبيل الغاية وبذلك أمتهن التعليم وهانت على المتعلمين أنفسهم .

أما لطفى السيد فيرى أن الجيل الجديد أفضل من الجيل القديم إذ كان قوام الأخلاق فى الماضى هو الخوف وأن ملاكها اليوم هو الحرية . وقال « أن عيب هذا الجيل أنه مفتون يتملكه الغرور وقال أن هذا رد فعل طبيعى لطبائع الاستبداد التى كانت تشمل بمشخصاتها الحاكم والمحكوم جميعاً كل فى دائرته . » قالحا كم يظلم المحكومين ورؤساء العائلات يتشبهون بهم فى دوائرهم الخاصة بل فى بيوتهم» .

أزمات الأسرة

وقد تأثرت الأسرة بالتطور الاجتماعى الذى أحدثه الاستعمار فأصابها الإضطراب وضعفت عن التماسك نتيجة لثلاث أزمات متصلة (١) الاضراب عن الزواج (٢) تعدد حوادث الطلاق (٣) اضطراب العلاقات فى الأسرة ؛ وقد تبين أن انحلال الاسر فى الأوساط المثقفة ملفت للنظر ، وكان العامل الاقتصادى له أثره فى الاضراب عن الزواج كما كان لحرية الحياة الخارجية عن طريق البغاء السرى والعلنى أثرها فى ضعف الرغبة إليه .

وقد دعا المصلحون إلى فرض ضريبة العزاب على من بلغوا سن الخامسة

والعشرين أو جاوزوها (٤) ورفع مستوى المعيشة المادية وخفض المهور كحلول لهذه الأزمة .

وقد وصل بعضهم إلى الاعتقاد بأن الحضارة قد كانت بعيدة الأثر فى إهدار ذلك الركن وتعريضه للانحلال حتى أن بعض المثقفين أصبح مقتنعا بأن الزواج ليس من ضرورات الحياة وأن فى الإمكان الاستمتاع بالمرأة بغير زواج .

ورأى البعض أن انتشار الاباحة وتنشيط عواملها كان عاملا من عوامل أزمة الزواج .

وقالوا فى تعليل ذلك أن أزمة الزواج غير موجودة فى الريف حيث لا توجد المدنية الحديثة وربما كان تطلع الزوج إلى زوجة غنية تساعده بمالها فى الاستمتاع بزخارف الحياة ، أو انتظار الزوج حتى يمر بمرحلة تكوين حياته والوصول إلى درجة من الثراء تمكنه من تكوين بيت عصرى من هذه الاسباب .

ومما كان له أثر فى أزمة الاسرة: نزول المرأة إلى ميدان العمل وبلوغها حريتها التامة مما أضعف علاقتها بالأسرة . إذ لم يعد من الممكن أن تقضى وقتها فى أعمال المنزل وحمل عبء الأطفال بعد أن تحررت من هذه الشئون ووكلتها إلى الخادمات .

أزمة الأختلاط

واتصلت بهذا أزمة الاختلاط بين الجنسين ، وقد لقى الاختلاط معارضة كبرى حتى من السيدات المثقفات اللاتى أتهمن الرجل بأنه هو الذى قاد حركة المرأة ووجهها على هواه ولمصلحته ، ولذلك فهو المسئول مما بها من أخطاء .

وقال عبد الحميد سعيد: أن اختلاط الجنسين فى بلادنا لايؤدى إلى الحب والتفاهم ولكن إلى فوضى العواطف وخفض الميول . وغير صحيح أن تقدم الأوربيين يرجع إلى سفور المرأة واشتراكها مع الرجل فى الأعمال ومنافستها له فى كسب الرزق .

وعارض هذا الرأى رأى يقول أن اختلاطا فى الدراسة تحت رقابة عيون الوزارة والاساتذة وفى سبيل العلم وفى بيئه راقية أهون من غير شك من حيث النتائج من اختلاط خفى قد تقع فيه الطالبة فريسة لغواية تقضى على مستقبلها .

الزواج بالأجنبيات

ولقد كان للاستعمار أثره فى خلق مشكلة الزواج بالأجنبيات حرصا على كسب عدد من المثقفين الذين تعلموا فى أوربا كجزء من خطة تغريبهم وربطهم بأهداف الاستعمار . وطال الجدل حول الزواج بالاجنبيات ، وكان هناك رأى يقول أن الزواج المختلط لا يورث الابناء الخارجين منه إلا شر أخلاق الطرفين، ومنهم من يقول أنه إنما يورث خير ماعند الطرفين من غرائز . ومنهم من يقول بأن النتائج لا يمكن الجزم بها لأنها تبقى معلقة على طبائع الغرائز المتفاعلة .

وذكر (محمود عزمى وهو من المتزوجين بأجنبيات) بأن الشرقى المتزوج بغربية تظل هادئة هيئته مادام مقيمين فى الغرب فى البيئة التى تمكنت بينهما الالفة فيها ولكن هذه الحياة لا تلبث أن تنقلب حياة مضطربة إذا ماعادا إلى الشرق .

وقد أيد محمود عزمى الزواج بالاجنبيات وقال أنه يساعد على تحقيق (الأخذ بناصية المدنية الغربية) فيتعرفون عن طريقهن مختلف المناحى العلمية للمدنية الغربية كما يعملون على « بث الدعوة للمدنية الغربية فى أوساطهم الشرقية التى تنتهى بالتعود على فكرة الاختلاط والنظر إلى المرأة على أنها إنسان وشخص يشارك الرجل » وبذلك أكد محمود عزمى الغاية التى أرادها الاستعمار من تشجيع هذا الزواج ، بينما كان رأى المعارضين أن نتيجته كما قال فكرى أباظة « أننا نلقح دمنا المصرى بدم أجنبى لا يمكن أن يكون وفيا للوطن ولا وفيا للنيل ولا مواليا للاهرام، ثم يتغلغل هذا الدم فى أجساد الأولاد واذهان الاولاد وإحساس الأولاد فيغذى مخلوقات لاتحن لمصر حنين المصرى القح الخالص ، هذا فضلا عن النكبات الاجتماعية الكثيرة التى ينكبنا بها الزواج المختلط .

ومن رأى بعض الباحثين أن الزوجة الاجنبية عندما تعود إلى البيئة المصرية التى لم تتعود عاداتها ولم تألف عرفها ، فانها تكوّن جوا جديدا من الأجانب والاجنبيات الذين يمتون وطنها دولة · وتجد أنها مبعدة هى وأولادها عن الوسط المصرى ، عندئذ ينتقل الزوج إلى الوسط الأجنبى بدلا من أن ينقل زوجته إلى الوسط المصرى ؛ لذلك ينشأ أولاده نشأة أجنبية لغة وثقافة وعاطفة .

وقد جرت أبحاث من شأن صدور قوانين تمنع الطلبة والموظفين والمصريين فى الخارج من الاقتران باجنبيات ·

وقد حدث حادث كان له أثره فى البحث عن أخطار الزواج بالأجنبيات ، ذلك هو اطلاق « مرغيت فهمى » الفرنسية الرصاص على زوجها على كامل فهمى (١٠ يولية ١٩٢٣) وفى أثناء المحاكم عزا المحامى الأجنبى عن المتهمين إلى الشرقيين عامة والمصريين خاصة تهما غريبة أثارت الرأى العام .

المسائل الجنسية

وتعددت الابحاث حول « الصراحة فى المسائل الجنسية » : وقد اختلف رأى الباحثين حول تغليب الصراحة أو الإخفاء ، وقال الدكتور أبراهيم ناجى « أن الذى نخشاه أن تفهم — أى المراهق والمراهقة — أشياء كثيرة على غير طبيعتها وأغلب الظن أنهما يلقيانها عن الجهال أو من الكتب المتداولة التجارية التى لا تطرق من الموضوع إلا فى حدود ما تجده مروجا للكتاب .

وقال: أن علينا أن نتحدث فى صراحة لاننا قد نقع ضحايا جهل الأمراض التناسلية .

وقال فريد أبو حديد أنه إذا اضطهد الشعور الجنسى فأن الأفراد يضطرون إلى توجيهه إلى مسائل شتى · وقد يصبح الشعور الجنسى المكبوت عبارة عن

قوة دافعة خفية تعمل على اختلاس اللذة الجنسية فى الخفاء ولا تلبث هذه القوة أن تظهر بآثارها الاجتماعية الخطيرة .

تحديد النسل

وجرى البحث حول تقييد النسل أو أطلاقه ويعد «مريت غالى» أول باحث اجتماعى مصرى دعا إلى تحديد النسل ، ورأى الدين أنه جائز بشروطه وظروفه .

وقد دعا سلامه موسى إلى تحديد النسل ثم عاد فأنكر الدعوة وخطأها .

تعدد الزوجات

كما جرى البحث حول تعدد الزوجات وخطر هذا التعدد ورأى الدين واضح فى هذا حيث لا يجوز التعدد إلا لظروف خاصة .

معركة إلغاء البغاء

وكانت معركة البغاء من أشد هذه المعارك وأقواها فى ميدان البحث وقد حمل لواء الدعوة إليها الشيخ محمود أبو العيون ، فى سلسلة مقالات فى الأهرام بدأها ٢٠ / ١١ / ١٩٢٣ واستهلها على هذا النحو :

«بين سمع الحكومة وبصرها تقام سوق للفجور وتنفض سوق ، وتذهب الاعراض ضحايا الشهوات والأطماع بلا نكير ولا رقيب وبين سمع الحكومة وبصرها تنظم الجمعيات السرية لتجارة الرقيق ويجوب دعاتها الامصار والقرى طلائع وكتائب يختطفون كل طفلة ومعصر وعانس وخود، وبين سمع الحكومة وبصرها والمخدرات تتمرد الروح الخبيثة ، ويؤسس الزعيم « الغربى » مملكة منظمة، داخلها مفقود ، هنالك وفى سجون ذلك المستبد الظالم تزج الفتيات الغافلات جليبات خزى وأسيرات بغى . هنالك يمتهن الشرف وتزهق الإنسانية وتطارد الفضيلة .

ثم هاجم الحكومة التى لم تأخد درسا من الجلادين والجلادات (علام وأبى الدهب وريا وسكينة وغير هؤلاء)وقال وهذه حادثة الغربى ثالثة الأسافى وفضيحة العمر وسبة الدهر .

ثم توالت مقالاته يعرض فيها لجوانب المشكلة · ويعرض « للمذاهب الاباحية إلى تهدد البلاد بالمحن والرزايا — فى الدين والخلق ، فتكثر الجنايات وتتكرر المؤامرات على اغتيال الاعراض وشرف البيوتات ، وتساءل عما وضعته الدولة من مراقبة لصون الأعراض بعد حادثة الغربى .

وتساءل عما إذا كانت الحكومة (تجهل مواطن الموبقات والفسوق فى كل شارع وفى كل حى وفى كل منتدى ظاهر وفى أطراف المدينة وأحشائها) وتحدث عن الزعيم الغربى (الذى هزه لكتابة هذه المقالات) فصور(ما أذهب من شرف وكرامة وما أقام من ولائم وحفلات قصف ونكر ضمت من ضمت من أعاظم الرجال وأخطر السيدات وما شيد من معارض للفسوق يدعو إليها سائحى الأفرنج للتفرج على العرات والفضائح بصور قبيحة كما يتفرجون على أثار الشرق ومدافن توت عنخ أمون » ·

وأشار إلى حالة شارع (كلوت بك) وانتشار بيوت الفساد فيه وحوانيت تعاطى المكيفات والحانات المرخص بها للأشربة وقال أن الحكومة ضعفت أمام سلطان الاستعمار الذى فرض عليها إباحة الزنا والترخيص بالمسكرات ولعب القمار وتغطية محاولات تجارة الرقيق فى خطف البنات .

ثم قدم كشفا بأماكن المنازل السريه بالعاصمة (١٩٢٣/١٢/١٧) وقال أنها غير محلات النوم والخياطة والزار ومكاتب المخدمين والتدليك والدهبيات المعدة للفجور؛ونادى« الغوث الغوث . النجدة النجدة »وكشف عن أن المصابين بالأمراض

التناسلية يبلغ ٨٢٠ ألف — وقال أن هناك مليون إصابة في العام ، وقال أن الحكومة ترخص بالبغاء ثم تهمل مراقبة البيوت السرية والآداب العامة .

ونقل أبو العيون نصا من تقرير قسم اللوائح والرخص هو :

« أن الدول التى حرمت البغاء أو تجاهلته لم تفعل ذلك احتراما للدين والآداب والرأى العام فقط بل لأنها رأت أيضا أن الاعتراف به رسميا مفسدة للاخلاق وأنه مسبب للامراض موجد لجريمة الاسترقاق مروج لتجارة الرقيق الأبيض) .

ولم يتوقف محمود أبو العيون عند هذا الحد بل أنه أجرى استطلاعا صحفيا كاملا عن « فضيحة » الغربى التى هزت الدوائر المختلفة وكانت رمزا على مدى الخطر الذى وصلت إليه البلاد بنتيجة للغزو الغربى فى ميدان الاجتماع .

وكشف عن شخصية (إبراهيم محمد محمود الغربى) الذى تعرض لإفساد الأخلاق بأن اعتاد تحريض الفتيات اللاتى لم يبلغن سن الثانية عشر سنة على الفجور والفسق . ووضعهن فى منازل معدة للدعارة وعرضهن على المترددين لارتكاب الفاحشة معهن .

ثم وصف زيارته لهذه الشوارع والحارات « القذرة » لرؤيتها وقال « رأيت مالم أره من قبل . رأيت أسفل منظر وقع عليه نظرى ، لم أر سوقا للاعراض مرخصا بها من الحكومة مثل سوق الوسعة فى القاهرة هناك ؛ نساء لاعدلهن من جميع الالوان منهن السوداء والبيضاء والنحاسية اللون ، جالسات على أبواب منازلهن ينادين بالعربية كل من يمر ليرينه رخصتهن المصرح بها من الحكومة .

ووصف إبرهيم الغربى : هذا الرجل « إذا شئت أن تقول بحق — هذا الشيطان ، بأنه أشنع منظر تراه فى مصر وقال « وإنى أعتقد أنه الرجل الوحيد من نوعه فى العالم الذى يعلن عن مهنته صراحة وله ميزة تميزه عن زملائه فإنه شرهم .

«فقلما تجد بين هؤلاء السياح من يغادر أرض الفراعنة قبل أن يرى إبراهيم الغربى . وجدنا منزل إبراهيم الغربى منارا بالأضواء الكثيرة ووجدنا القاصرات المرخص لهن جالسات فى مدخله ، كان إبرهيم الغربى جالسا بينهم مرتديا ملابس أمرأة ملونا وجهه كما تفعل النساء رغم سواده . له جلد أسود لامع وعينان واسعتان يضع على رأسه طوقا من الذهب المرصع بالأحجار الكريمة وتجد زراعيه عاريتين إلى الكتف وبهما من الأساور الذهبية الثمينة عدد كبير ، وقد أحصيت ما تحمله الذارع الواحدة منها فوجدت أنها أكثر من أربعة عشر صنفا من الأساور ، وكان حول رقبته عقد من الذهب ، ويحمل فى أصابعه خواتم عديدة ويضع فى رجليه خلخالا من الذهب ويلبس على جسمه ملابس مزركشة بالذهب والفضة والترتر مما يعكس الضوء فيبهر الابصار ، إنهم ينظرون إليه هناك كما لو كان شيئا خارقا للطبيعة » أو كما لو كان شخصا مقدسا ، وسعيد هو الذى أتيحت له الفرصة أن يلمس جسمه وكثير من الوطنيين يجزمون بأنه إذا غضب على كائن من كان فجزاؤه الموت ، وعندى أنه يجب ضرب هذا المخلوق بالكرباج فى ميدان عام وأمام الجمهور يقولون أنه ذو ثروة طائلة ونفوذ واسع . وقيل لى أنه نظرا لنفوذه عرض اسمه على الخديو السابق من اجل ان ينعم عليه رتبة البكويه . . . ولم يتوقف « ابو العيون » عن الدعوة إلى إلغاء البغاء إلا بعد ان انبرت جريدة السياسة تقاومه وتسخر به ، هنالك توقفت الأهرام عن نشر مقالاته ، بعد أن كشف الستار عن فضائح هذه الجريمة وكشف عن شرور البغاء وحمل على الحكومة حملة منكرة .

ولم يلبث أن أرسل إلى البرلمان فى أول جلسة من جلساته برقية يطالب بالغاء البغاء الرسمى ، وقام بمحاولة ضخمة حين مر على وزراء الدولة وعظماء البلاد وكتابها المصلحين يستكتبهم رأيهم فى البغاء ، هنالك ازدادت حملة الصحف التغريبية عليه وقاومت دعوته بالشتم والمنابذة ونشرت له المجلات صوراً كاريكاتورية قاسية .

ووصفوه « بأنه ماجور وصنيعة ومشعوذ ودجال » .

ثم لم يلبث أن عاود الحملة فى يوليو ١٩٣٣ مستأنفا الدعوة إلى محاربة البغاء بالدعوة إلى مطاردة محترفيه وإزالة مواخيره وهدم أسواقه النافقة فى العواصم والامصار .

ووصف البغاء بأنه « احتراف امرأة تبذل أعضاء جسمها للرجل فى مقابل أجر معين . والإسلام دين الدولة الرسمى يحرمه ويعاقب عليه، والاديان كلها تضافرت على تحريمه . وقد راعى الشارع فى ذلك صيانة المجتمع من الشرور والمفاسد التى تتنافى مع الآداب والأخلاق والصحة ونظام الأمن » .

وبين أن أبلغ أضرار أباحة البغاء أمتهانه لكرامة فريق من بنى الانسان ، وردد ما ورد فى تقرير عصبة الأمم سنة ١٩٢٧ عن تجارة الرقيق من أن مصر أصبحت ميدانا حيويا ومركزا هاما من المراكز الدولية .

وصور كيف أن الترخيص بالبغاء السرى سهل على الشباب الاستمتاع بالمرأة من غير زواج ، ودعا إلى سن قانون للزواج فى سن معينة وتعليم الدين إجباريا فى المدارس ومكافحة الامراض السريه ودعا إلى إلغاء البغاء دفعة واحدة .

وكانت الحكومة قد اتخذت قراراً فى عام ١٩٣٢ لبحث موضوع البغاء وجرى أتصال اللجنة التى كونها الدكتور محمد شاهين وزير الصحة بمختلف الهيئات والطبقات للوقوف على وجهة نظرها وقد ظلت هذه اللجنة معطلة حتى عام ١٩٤١ عندما أعلنت توصيتها بالغاء البغاء الرسمى ولم يتم ذلك إلا بعد عام ١٩٤٦ .

تحريم المسكرات

ودارت معركة أخرى لمحاربة المسكرات قادها الدكتور أحمد علوش وحمل لواء الحرب فى سبيل ذلك أمدا طويلا عن طريق الصحافة والخطابة والنشرات

وقد ورد فى رسائله أن نسبة مدمنى الخمر من المصريين لم تكن تزيد قبل الاحتلال البريطانى على ٧ أو ٨ فى المائة ، ونعى على الحكومة الترخيص بفتح محلات لبيع الخمور وطالب بتحريم الخمر صنعا وبيعا وشراءاً واستعمالا .

وبين كيف كانت المسكرات سبباً فى أزدياد الجرائم والاصابة بالجنون وحوادث الطلاق ونقصان قوة الانتاج . وكيف أن ما يرد للدولة من إيرادات نظير إستيراد الخمور مهما بلغ مليون من الجنيهات فأنه تقابله خسارة ضخمة فى القوة العاملة .

وهاجم عام ١٩٣٤ أعتزام الحكومة تخفيض الرسوم الجمركيه على الانبذة المستوردة من بلاد اليونان وردد ما قاله المؤتمر الدولى التاسع عشر للمسكرات ومعظم أعضائه من أساطين الطب وأكابر العلماء .

المخدرات

وكانت معركة المخدرات من أقسى هذه المعارك وأطولها ، ذلك أن حكمدار القاهرة « رسل باشا » الذى استمر فى هذا المنصب أكثر من عشرين عاما كان يتولى بنفسه استيراد المخدرات وحماية وصولها إلى الأراضى المصرية وتوزيعها ، وكان فى نفس الوقت مسئولا بحكم عمله الرسمى عن محاربتها ومقاومتها .

ولقد مر على مصر فترة انتشر فيها الكوكاكين والهروين بدرجة فاتكة وقد تبين أن العدد الأكبر من تجار المخدرات والمهربين هم من الاجانب الذين يحتمون بالامتيازات الاجنبية ولا يمكن محاكمتهم ألا أمام محاكمهم الخاصة وقد ضبط فى عام ١٩٢٦ وحده ٥٦٧ر٥ كيلو من الحشيش و ١٧٢ كيلو من الأفيون و ٦٤٦ كيلو من الكوكايين و ٩ من المورفين وإذا كان هذا هو ما صودر فأن الكميات التى وصلت كانت لا بد أضعاف ذلك . وقد كشفت

التحقيقات المتوالية من عصابات منظمة تنظيماً دقيقاً ينفق عليها بسخاء فى سبيل إدخال هذه المواد إلى البلاد . وقد ورد فى التقارير أنه قبل سنة ١٩٢٢ لم يكن يعرف فى مصر سوى الحشيش والأفيون واصبحت زراعة الحشيش ممنوعة فى مصر منعا باتاً منذ الاحتلال البريطانى .

وذكر رسل باشا فى بعض تقاريره ان المخدرات لا تنحصر فى نوع واحد بل تتناول جميع أنواع السموم القاتلة للعقول والاجساد .

وطالبت الصحافة بتعديل قانون المحاكم المختلطة حتى يمكن محاكمة الأجانب الذين تتاجرون فى المخدرات ، غير ان الاستعمار كان يحول دائما دون تحقيق ذلك لاستمرار الغزو الاجتماعى عن طريق المخدرات ، ولقد تنبأت صحف لندن بأن الأمة المصرية واقعة لا محالة فى هوة الادمان على المخدرات وكتبت الديلى اكسبريس فى ٦ مارس ١٩٢٧ مقالا بعنوان «المصريون اخذوا يصيرون شعبا يدمن المخدرات» وقد جرت محاولات كثيرة لمقاومة هذه الظاهرة الاجتماعية الخطيرة، غير ان الاستعمار حال دون تحقيق أى عمل إيجابى فى هذا الصدد

معركة الأغانى

وكانت معركة الاغانى أحدى المعارك الفكرية الهامة فقد سيطر بعد الاحتلال البريطانى طابع من الاغانى المخنثة المرذولة وصف بأنه يشيع فى النفس الذلة والحسرة والموت .

ونبه الكتاب إلى مدى الخطر الذى يهدد الأخلاق والرجولة من جراء الغناء الشائع على الالسنة والقيت تبعة الانحطاط على الشعراء .

وقد صور إبراهيم المصرى هذا التيار فقال : أن هذا اللون من الأدب فى جملته مخنث مرزول يعنى بالتأنق الشكلى والحلاوة اللفظية دون الفكر ، وأن أخلاقنا مخنثه مرذولة قوامها المجون وطابعها الاستخفاف وعدم الاكتراث ، وذوقنا نفسه

مخنث مرزول يميل إلى الرخاوة ويستمرىء النعومة ويستطيب كل ما هو رقيق حالم فاتر مريض » ووصف أثر ذلك على الشباب ، وقال أنه يصدر عن موجات مروعه من التميع المادى الرخص واللهو الانانى الفاجع » وبين غيره من الكتاب أن الاغانى والأناشيد المصرية لا تمثل روح فضائل العظمه والكبرياء والانفة والشمم واحتقار الجبن والجبناء والنذاله والانذال ،ودعا الكتاب إلى طرق أبواب الحماسة والحكم بجوار التشبيب والمدح وأبواب الفضائل والأخلاق بجوار الوجد والهيام « حتى تتخلل الحكمة النفوس الجامحة باعتبارها الطريق السهل إلى المشاعر واستغلال هذه المفاتح فى الخير العام والاصلاح النفسى » (حسين محمد الرفاعى ٧ / ٦ / ١٩٣٣) .

وقد جرت الدعوة منذ عام ١٩٢٠ إلى إعداد النشيد الوطنى (اسوه بالأمم الراقيه) ونظم شوقى :

بنى مصر مكانكموا تهيا فهيا مهدوا للملك هيا

ونظم الهراوى :

دعت مصر فلبينا كراما لنا مصر فلا ندع الزماما

معركة الزى

وكانت معركة الزى من أهم المعارك الاجتماعية . اتجهت إلى استبدال الطربوش بالعمامة فى البيئات الدينية والأزهرية ، والقبعة بالطربوش فى البيئات المدنية .

وقد جرت معارك فى دار العلوم عام ١٩٢٥ حول استبدال الزى الأزهرى بالزى المصرى . وقال الشيخ حافظ عبد ربه أن الزى الأزهرى بوصفه الحالى عائق كبير يحجب عن صاحبه كثير من حقائق الحياة ويدفع به خطوات إلى الوراء أو على الأقل يمنعه من مشاركة المجتمع فى شتى مرافقه ونواحيه وأنه فى الوقت نفسه يؤكد الطبقية بين صفوف الشعب ويبقى على الفوارق البغيضة المذمومة .

وقد جرى البحث حول العلاقة بين تغيير الزى وتغيير العقلية وهل يمكن أن يؤدى هذا التطور المادى إلى تطور فكرى :

واتصلت الابحاث بمناسبة الثورة التركية وفرض القبعة على الاتراك العثمانين وإلغاء الطربوش والعمامة .

وقد جرت ابحاث حول العمامة والطربوش والقبعة .

وقيل أن «العمامة» زى دينى بحت لا صلة له بالدين ولا بالاسلام، وأن الزى الازهرى خلقته الظروف ودعا إليه الوسط : وقد طالب علماء الازهر بجعله مقصوراً على رجال الدين . وردد الجانب الآخر أن العمامة زى أقره الشرع إذ كانت فى صدر الاسلام زيا يتميز به المسلمون عن غيرهم ، وأن الزى الأزهرى فضفاض يلائم الصحة ولا يحول دون الاندماج فى المجتمع .

وقد وجهت حملة ضخمة إلى «العمامة» بقصد التخلص منها . وهاجم الشيخ

التفتازانى خصوم العمامة (٢٠ مارس ١٩٢٦ — الأهرام) وقال أنه إذا اختفت العمامة قبر الطربوش لانها لا تجد ما تستند إليه وقال: أن العمامة زى قومى وأن العمائم تيجان العرب · أما الطربوش فيكفى أن ينفرد بالظهور بعد العمامة ليختنق بعد أسبوع من تاريخ زوالها لأن الحملة عليه سهلة موفقة · أما القبعة التى تريدونها زيا لنشء هذا البلد الكريم فهى مظهر الفناء المطلق الذى تبلع فجواته، الشخصية المصرية وتضيع فى فيافيه مميزات أهل هذا البلد الظاهرية فلاتعرفهم بسيماهم وتراهم عبدة أزياء تغيرت ملامحهم »

٢ — الطربوش

أما الطربوش فتاريخه أنه جاء مع الاتراك العثمانين الذين لبسوه بعد فتح القسطنطينية ، أخذه الاتراك من اليونان وأخذته مصر من الاتراك، وتخلى عنه مصطفى كمال . ومصر تلبس الطربوش قبل أن تصنع طربوشا واحداً وتستورده من النمسا · وقد لبس أحمد زكى باشا سكرتير مجلس الوزراء الطربوش الأبيض بعد أن قاطعت مصر النمسا وأضربت عن شراء بضائعها ·

وقال المقطم فى حملته على الطربوش (١٤ يونيه ١٩١٧) أن الغربيين والشرقيين يظنون أن الطربوش شعار دينى إسلامى وهو ظن بعيد عن الحقيقة فأنه ليس فى الإسلام زى خاص · كما أن الطربوش ليس شعاراً إسلامياً كذلك البرنيطة ليست شعاراً مسيحياً ·

أما الطربوش فقد اقتبسه السلطان محمود الثانى العثمانى من الروم نصارى الارخبيل ولم ينقضى أكثر من مائة سنة من اتخاذه غطاء الرأس بدلا من تيجان الانكشارية ودعا المقطم إلى أبطال الطربوش واستبداله بلباس آخر ·

وقد ذكر الباحثون أن التمسك بالطربوش يرجع إلى عوامل أهمها مسألة القومية والمصرية والشعار المصرى وتميز المصرى على غيره ·

٣ — القبعة

وقد جرت الدعوة إلى القبعة كلباس صالح صحى بدلا من الطربوش وقال دعاة القبعة : أن الطربوش يحبس الدم وتنجم عنه أضرار الصلع ،وأنه ليس هناك ما ينص فى الدين على تحريم القبعة أو اشتراط أى لباس آخر .

وقد تصدت الرابطة الشرقية والجمعية الطبية المصرية لبحث الأمر من الوجهة الطبية والدينية ،وذكر بأن الجمهورية التركية لم تتخذ القبعة لسبب صحى بل لسبب اجتماعى ، هو اختيار اللباس الأوربى وأفتت الرابطة والجمعية الطبية بأن أفضل لباس الرأس يوافق مصر فى زمن الصيف هو (القلنسوة البيضاء) المصنوعة من الفلين .

وقال الدكتور محجوب ثابت فى حديث له مع محب الدين الخطيب (١٤ أغسطس ١٩٢٦) أن الطربوش صحيا خير من القبعة . وذكر أنه لا يدافع عن الطربوش لذاته وقال : أما أن القبعة لباس المتمدنين فالتمدن ليس بالبرنيطة ولكن بالمعارف العلمية التى جعلت لابس القبعة يصل إلى هذه المكانة فى الدنيا ، هذه المكانة التى وصل إليها بعلوم القوة والثروة والعمران . وقال أن البرنيطة شعار أمم تحاول استلاب استقلالنا والاستيلاء على ديارنا واحتقارنا فى أوطاننا وتاريخنا . وذكر أن الكماليين سجنوا من أجل القبعة من سجنوا وشردوا من شردوا .

وقال « متطربش » معلقا : تبرنطوا إذا شئتم وتعمموا إذا أردتم وتطربشوا إذا حلا لكم . ولكن لا تنسوا أن الدين والوطنية والأخلاق والقومية ليست فى الثياب بل فى الالباب ، ولا فى الدثار بل الأفكار ولا فى شكل الملبوس بل فى العقول التى فى الرءوس .

وأجمع كثير من الباحثين على أن مسالة الخروج من العمامة إلى الطربوش

ومن الطربوش إلى القبعة إنما هى تقليد للغرب ، لا يقصد به منفعة واضحة أو غاية معلومة . وجرى ذكر ما قال سعد زغلول فى معارضته لنبذ الطربوش « مثل الذين يبدلون شعارهم بشعار غيرهم كمثل الذين يتبرأون من أنسابهم » وقال العقاد « أن من سقوط الهمة أن يتوارى الإنسان وراء القبعة خجلا من جنسه ».

وقالت جريدة ما نشيسترجارديان : أنه بينما العرب والترك يستعبدون للازياء الغربية بأبشع أشكالها وأبعدها عن جمال الخيال والتصور يتحول الغربيون إلى التنويع والتزويق .

وقد حققت هذه الحملة تحول كثير من طلبة دار العلوم والقضاء الشرعى من العمامة إلى الطربوش ومنع الأزهر التغيير .

وصدرت فى مصر فتوى رسمية (٢٥ / ٣ / ١٩٢٦) بأن المذاهب الأربعة المعمول بها مجمعة على تحريم لبس القبعة عند عدم الميل إلى دين أصحابها وعدم قصد الاستخفاف بدين الإسلام . وأن فى تغيير الزى القومى فناء للشخصية وذلك شان الضعيف — وردت الفتوى على ماقيل من أن الزى الغربى يدفع احتقار الغربيين وقالت « أن الزى لا يدفع احتقاراً ولا يرد عاراً مع فساد الخلق وتأخر العلم وعدم النهوض بالصنائع والأعمال الاقتصادية والأخلاقية » .

ولم تلبث أن وقعت حادثه الطربوش فى تركيا بين وزير مصر المفوض ومصطفى كمال أتا تورك حيث أشار رئيس الجمهورية التركية إلى الوزير المصرى برفع طربوشه فى حفل رسمى .

وقد امتدت معركة الطربوش إلى سوريا فكتبت جريدة النهار البيروتية (١٢ / ٩ / ١٩٣٣) بأن الطربوش نمساوى ، وليس عربيا وأنه يذهب ثروة البلاد ، وأن دمشق تستورد مائتى ألف طربوش كل عام وتدفع ربع مليون ليرة عثمانية

على أقل تقدير . وقالت : (وإذا فرضنا أن الطربوش كان منتشراً منذ مئتى سنة فإننا نجد أن دمشق دفعت للنمسا ثمن طرابيش خمسين مليون ليرة عثمانية) وذكرت أنه يجرى البحث عن غطاء آخر للرأس ، هل القبعة الإفرنجية ؟ أما الكوفيه اليدوية . أم العمامة ، أم السدارة العراقية وقالت أن فكرة إعدام الطربوش ليست فكرة حديثة فقد أحرق فى العام الفائت واستعيض عنه بالسدارة العراقية .

وفى العراق لبس الملك فيصل السدارة اعلانا لتحرر بلاده والابتعاد عن زى الترك . وانتشرت السدارة الوطنية فى العراق كما جرى عام ١٩٣٦ فرض السترة والبنطلون على سائقى السيارات .

وأثيرت مسألة الطربوش والقبعة مرة أخرى فى مصر بعد توقيع معاهدة ١٩٣٦ وجرى التفكير فى توحيد الزى ووضع لباس جديد للراس ، واجمع الكثيرون على أن توحيد الزى لازمة من اللوازم الاستقلالية .

وصاح توفيق الحكيم (٧ / ٣ / ١٩٣٧ — الأهرام) : آن الأوان أن نلبس القبعة ، وقال أنه طالما يوجد فى مصر شىء اسمه طربوش وشىء اسمه قبعة فستبقى دائما كلمة أهالى وكلمة أجانب ، ومهما مهدنا للتخلص من عار الامتيازات بمقتضى الاتفاقات أو بنصوص القوانين فإن ذلك لن يخفف الا قليلا من وطأة تلك الامتيازات المعنوية والأدبية التى يتمتع بها كل لابس قبعة على حساب لابس الطربوش : ونادى : أيها الشباب أقدموا على لبس القبعة ولا تخشوا شيئاً ما دمتم مقتنعين أن الطربوش لم يعد يصلح لحاضركم ولا مستقبلكم ، وقد رد عليه كثيرون معترضين على رأيه وقال زكى طليمات انه آن للوزراء والكبراء أن يخلعوا طرابيشهم .

وأشير إلى أن كلمة (قبعة) كلمة كلدانية . وأنها تسمى فى قاموس الفيروزبادى « البرنس » وروت الأهرام ١٤/٣/١٩٢٦ أن (سليم سركيس) هو أول من فكر فى لبس القبعة بدلا من الطربوش عام ١٩١٧ وفى نفس العام كتب (شيخ)

يطلب إلى إخوانه المشايخ لبس الطرابيش بدلا من العمائم، وأن معنى ذلك أن فكرة إستبدال القبعة بالطربوش هى فكرة مصرية لا تركية .

ولعل أعظم داعية للقبعة هو الدكتور محمود عزمى الذى حاول منذ عام ١٩٢٥ أن يستبدل الطربوش بالقبعة ، غير أنه لم يحقق هذا العمل إلا صيف عام ١٩٢٦ متعللا « بالأخطاء الوراثية » التى حالت دون ذلك ، وقال مصطفى صادق الرافعى فى الرد عليه بأن هذا التحول مظهر من مظاهر التحلل الاجتماعى .

السينما

وكانت السينما من بين القضايا الاجتماعية التى جرى الجدل حول خطرها على المجتمع والأخلاق . ومدى أهمية إختيار القصص التى تعرضها لتوجيه الشباب والفتيات إلى مفاهيم صحيحة للحياة دون أن تكون وسيلة للاغراء أو خلق جو من الأعجاب بالجريمة أو الإباحة .

ومع ذلك فقد ظلت القصة السينمائية عاملا من عوامل الهدم والتغريب وأشاعة الإثارة والتحريض على الجريمة وتصوير الحياة الاجتماعية بصورة التحلل .

معركة المقاومة الاجتماعية

كانت الحضارة الأوربية قد بدأت تنفذ إلى الشرق كله وتمتد إلى جوانبه . وتمد فى كل مكان معالمها صور اللذة والمتعة والترف وتغلبها على مقومات المجتمع العربى الأصيلة كوسيلة للقضاء على روحه المعنوية ودفعه إلى التحلل والاستهانة بالقيم والكرامة والحريه، وانتشرت صور الحضارة فى البيت والعلم والملبس والفن وخرجت دعوة تحرير المرأة إلى غير مادعا إليه الذين حملوا لواءها ، كما تناثرت فى أنحاء الوطن العربى الحانات وانتشر البغاء الرسمى وظهرت معالم التفكك على الأسرة وبدأ الشباب يتحلل ويضعف عن مواجهة الأضواء ذات البريق ، ونشأت مشا كل الاختلاط وبدع المصايف على شواطىء البحار وزادت موجة تدهور المجتمع قوة ، واستعلن الاثم وبرزت الإباحة وهدفت السينما والمسرح والصحافة إلى إرضاء الجماهير واغرائها وهدهدة غرائزها ، وغلب التحلل على الأغانى والموسيقى .

غير أن الفكر العربى لم يقف إزاء هذه الموجة من التغريب الاجتماعى صامتا، بل واجهها بالاصلاح، وعمل على مقاومة التحلل، ودعا المصلحون إلى إنشاء المجلس الأعلى للاصلاح الاجتماعى (صحف ١٩٣٦/٤/٢٦) ليحمل رسالة الدعوة إلى دراسة تيارات تطور المجتمع وتتبعها بما يكفل حسن إستغلالها لصالح الجماعة والمجتمع ، ذلك أن تطور المجتمع لا يمكن صد تياره أو الوقوف فى سبيله لأنه نتيجة تفاعل عدة قوى طبيعية ومحلية وعائلية ليس من الميسور السيطرة عليها ، كما أن معالجة الاصلاح الاجتماعى بالمقالات والنصائح اصبح أسلوبا باليا ، ولذلك لابد أن تتجه الابحاث الاجتماعية اتجاها علميا قائما على مناهج بحث لها وسائلها وموازينها الدقيقة، فقد تقدم الاجتماع كعلم من العلوم النظريه وأمكن تطبيق نظرياته الاجتماعية تطبيقا

علميا ، وخضعت المجتمعات الانسانية الراقية منها والمتأخرة للبحث الاجتماعى كما تخضع الـكائنات الحية للبحث البيولوجى ».

وأشار الباحثون إلى أن المجتمع المصرى كان متقدما على المجتمع التركى من عدة وجوه فى نظمه الادارية والاقتصادية والقضائية، وكانت المرأة التركية تحسد أختها المصرية لما كانت تتمتع به من حقوق ، ثم انقلبت الآية بعد عام ١٩٢٤ إذ نادت تركيا بوضع سياسة إجتماعية رسمت وسائلها وخططها وأقدمت على تنفيذها، وبدأ تحول المجتمع التركى .

ودعا المصلحون وفى مقدمتهم محمد فريد وجدى (الأهرام ١٢/٤/١٩٣٦) إلى وضع سياسة للاصلاح الاجتماعى فى هذا الدور من الانتقال الذى تجتـازه البلاد صيانة للآداب والأموال والأعراض التى تتحلل وتتلاشى أمام قوى عارمة منصبة عليها من ضروب شتى لا تجد حيالها من ملاذ تحتمى فيه دونها ؛ وقال وجدى « أن اول ما يؤثر على خيال الأمة فى هذا الدور هو أن تنفض عن رأسها غبار الخمول . وأشار إلى الشر الذى تلقاه من نقلها مظاهر المدنية ، وفى هذه المظاهر ما هو شر محض والخير الذى فيها لا يمكن الوصول إليه بمجرد التقليد، وأشار المصلحون إلى أن هناك آفات إجتماعية سرت فى جسد الأمة من مخلفات الاستعمار « الذى وضع بويضات جرأثيمه بين جدران المدارس» وأن مرتعها الخصيب هو الطبقة العامة من الأمة .

وأشار عبدالله حسين (الأهرام ٢/٩/١٩٣٣) إلى أن السياسة القومية للوطن ليست هى الاستقلال وانما تتصل بسياسة التعليم وسياسة المجتمع ، وأن تـكون المدرسة قومية البرنامج والروح،وأن المدرسة المصرية تهمل التاريخ المصرى أشد الإهمال وتقوم الدراسة على كتب وضعها أجانب ،ودعا إلى تربية العاطفه الوطنية بشراء البضاعة الوطنية . وأنحى باللائمة على الطبقة الارستقراطية إلى تحتقر مصنوعات بلادها ولا يرضى رغبتها إلا شراء كل شىء أوربى،وطالب عباس عمار(٣١/٨/١٩٣٣) بضرورة وجود أمور ثلاثة يمتلك الشباب زمامها ليشيدوا صرح وطنهم شامخا هى:

(١) مثل أعلى يقوم على مبدأ الخدمة العامة ويرمى إلى الخير العام .

(٢) عاطفة سامية ترتفع بصاحبها عن الأنانية المقوتة .

(٣) إعداد متين يضمن للمرء تحقيق هذه المثل العليا .

قال عباس عمار: أن مجتمعنا مريض تنتابه العلل، ومرجع النقص فى الإصلاح هو عجز الجماعات عن أن تكون لها برامج عملية تؤمن بها وتعمل على تحقيقها . ودعا إلى قيام نظام « المحلات » التى تعد حجر الزاوية فى بناء الإصلاح الاجتماعى وهى (مؤسسات) تقام فى مناطق متفرقة فى المدن والقرى لرفع مستوى الحياة الاجتماعية فى كل منطقة .

وعالج منصور فهمى (١٩٣٩/٦/٢٠) ما أسماه « علة العلل فى مشاكلنا الاجتماعية وهو : الاقتباس من الحضارة بما يوافق حاجتنا أو قبولها قبولا كاملا . وقال « أنى أتمسك بميراث إنحدر إلى بلدى من قرون وأن استوحى ما يوحى به تاريخى وأن استلهم مايلهمنى جو بلادى . لسنا من الغرب وأنها لكبيرة أن ننهج فى كل شىء سبيل الغربيين فللتقليد حدود — وكان طه حسين قد دعا إلى قبول الحضارة الغربية كاملة غير مقبوضه « ما يحمد منها وما يعاب وما يحب منها وما يكره » .

واتجه الأزهر ووزارة الأوقاف إلى الدعوة إلى إبطال البدع والعادات الضارة وأشار وزير الأوقاف فى خطاب وجهه إلى شيخ الأزهر (صحف ١٩٣٦/١/٣١) إلى أن هناك عادات كثيرة وأمور عديدة لابست الشعائر الدينية واقترنت بأداء العبادة، وتطاول الزمن حتى انطمست من بينها الحدود وتلاشت الفواصل فاختلط الأمر وظنها العامة دينا وأدوها عبادة ووجد من الناس من يدعو إليها باسم الدين ويحض على المحافظة على فعلها فتمكنت من النفوس وهى بدع، واستولت على العقول وهى ضلال، ونشأ عن ذلك جدل عنيف وخلاف شديد ملأ المساجد وأثار الفتن وأورث

العداوة والبغضاء وأوجد التحزب والتفرق ، وأدى ذلك إلى قيام طرائق وفرق وجماعات يضلل بعضها بعضا حتى اتخذ بعض الناس مساجد خاصة على قيد بضع خطوات من مساجد الجماعة » .

وأجاب شيخ الأزهر أن الموالد التى يقيمها أرباب الطرق لبعض الاولياء فى مساجد المسلمين لم تكن على عهد رسول الله بل هى من بدع الفاطميين التى شوهت جمال الدين وصورته أمام الناس بصورة لا تتفق وما ينبغى له من عظمة وجلال ، وهى إنتهاك لحرمة المشاهد كالذى نجده عند إقامة الموالد من تقديرها بالاطعمة والاشربة ودخول الاطفال فيها حفاة أو بنعال ملوثة ، وقد يختلط فى تلك الموالد الرجال والنساء فتعظم الفتنة .

وأشد من هذا أن يتحول المسجد إلى ملهى يتبارى فيه المغنون والمطربون فاذا كانت المغنية امرأة كما شوهد فى مساجد القاهرة كان الفساد أكبر والفتنة أعظم لأن المسجد فى وقت المولد يدخله جميع الناس ، فضلا عن حلقات الذكر التى تقوم على آلات الطرب والاناشيد الغرامية التى تنفخ فى نفوس الشبان روح الفسق ، كما تقوم على تحزيف أسماء الله تعالى وصفاته والتمايل فى الذكر إلى حد الرقص والخلاعة . والواجب تطهير المساجد من هذه البدع والمنكرات حتى تكون خالصة لما أعدها الله له من عبادته على الوجه الذى يحبه ويرضاه » .

كما هاجت الصحف المسرح الفرنسى الخليع فى مصر وأعلن راغب غالى (الاهرام —١٩٣٢/١٢/٧) أننا نحتج على الذين يتوهمون أنهم يستميلوننا بمثل تلك البرنامج المشحونة بذاءة؛ ودعا الحكومة إلى عدم الإنخداع بنظريات الفن والجمال المزيفة حينما يكون فى الأمر ما يخالف الآداب العامة أو تراخى الأخلاق .

المـــــرأة

كانت الدعوة إلى « تحرير المرأة » خطوة كبرى فى سبيل التطور وقد حملت دعويين : هما : تعليم المرأة وسفور المرأة ، غير أن الإستعمار قد حرص على الانحراف بها عن اتجاهها الصحيح ، فقد حملت لواء الدعوة إلى تحرير المرأة طائفة من نساء الطبقة الأرستقراطية وكان الدعاة يطمعون فى العمل فى هذا الميدان لكسب لون من الزعامة ، وقد حالت سيطرة هذا النوع من النساء على ميدان المرأة من إشتراك المرأة الشعبية، كما كان لسيطرة الرجل على حركة تحرير المرأة دخل فى كثير من الأهواء التى وجهت الحركة وجهه غير صحيحة .

وقد كان قاسم أمين فى دعوته إلى تحرير المرأة إنما يقيم منهاجه على أساس من قواعد الإسلام غير أن ماحدث هوأن قلة من ساكنات المدن هن اللائى خرجن من الحجاب . غير أن السفور كان عملا مظهريا محضا ، ولم يقع مادعا إليه قاسم أمين من إرتفاع مستوى الادب (مجلد ٤٦ الهلال ص ٩٧٩) وخلق سعادة البيوت ، بل الذى حدث أن صاحب هذا التطور — على حد يعتبر محمد فريد وجدى « تدهور مروع فى الآداب العامة وإنتشار مفزع لمبدأ العزوبة ، وأصبحت جلسات المحاكم غاصة بقضايا هتك الاعراض وهرب الشابات من دور أهلهن » .

ونمت « إبنة الشاطىء » ماتكشفت عنه حركة تحرير المرأة مما سمته « مهزلة ألمية موجعة » تلك هى « أن الرجال ساقونا لنعمل لحسابهم وهم يوهموننا أننا نعمل ويعملون معنا لحسابنا » ذلك أن الرجال رتبوا لنا الخروج زاعمين أنهم يؤثروننا على أنفسهم، ولكنهم كذبوا فى هذا الزعم فما أخرجونا إلا ليحاربوا بنا السآمة والضجر

فى دنياهم . أن أقسى مانلقاه فى محنتنا هو شعورنا بما انكشف من ضعف الرجال وصغارهم،ونحن شقيات بذلك فكان منه مرارة موجعه» وقد أشارت بنت الشاطىء إلى هذا الانحراف « أن المرأة دفعت ضريبة فادحة ثمنا للتطور ،ويكفى أن أشير فى إيجاز إلى الخطأ الاكبر الذى شوة نهضتنا وأعنى به انحراف المرأة الجديدة عن طريقها الطبيعى وترفعها عن التفرغ لما نسميه « خدمة البيوت وتربية الاولاد »

ذلك لان مصر لم تخرج فتياتها من دورهن لتسد بهن فراغا كانت تشكوه فى ميادين الاعمال . وإنما أرادت أن تجد فيهن الامهات المستنيرات المثقفات . وهذه هى اليوم ترى البيوت منهن مقفرة خلاء . أما الابناء فتركوا للخدم وقد نشأ هذا الانحراف الضال نتيجة لخطأ كبير فى فهم روح النهضة ، وبلغ من سوء ما وصلت إليه أن نادت مناديات بحذف نون النسوة من اللغة كأنما الانوثة نقص ومذلة وعار، وأهدر الاعتراف بالامومة كعمل من الأعمال الاصيلة لناحتى سمعنا من يسأل كيف تعيش أمه رثه معطلة ، يقصـــد بالرثة المعطلة هؤلاء الباقيات فى بيوتهن يرعين الاولاد ،وزعموا أن المرأة تستطيع أن تجمع بين عملها فى البيت ووظيفتها فى الخارج .

وقد نعى بعض المفكرين على أن القائمات بالعمل فى الميدان النسوى لايعرفن اللغة العربيه ولا ينطقنها وانما هم من المثقفات ثقافة فرنسية ، فهل يمكن أن يكون لهن أى نفع فى تفهم حياتنا وحاجياتها وهن منعزلات ثقافيا وارستقراطيا عن المجتمع . وقد اعتذرن بأنهن بمعرفتهن للفرنسية يسمعن صوت المرأة فى الخارج وقداعترض أحمدحسن الزيات على ذلك بأن الثقافة الاجنبية تفقد كثيراً من قيمتها إذا لم تقرن بقسط من الثقافة العربية السليمة وليس صحيحا أن قضية المرأة تخدم فقط عن طريق الكتابة بالفرنسية لأن الفرنسية لا تقرأ فى برلين ولندن .

وصور الدكتور منصور فهمى أما اعتور الحركة النسوية فى ظل الاحتلال

وشابها ما وصفه بأنه « تحول خروج النساء من منزلهن من أن يكون وسيلة يسوغها شرف الغاية ليكون غاية لذاته » وقال أن من أشد العوامل التى أضعفت قيمة الإختلاط بين المرأة والرجل هو إنتشار الآراء دون أن تفهم على وجهها الصحيح، ومن هذه الآراء ذهابهم إلى أن الإختلاط بين النساء والرجال وتوالى المجامع التى يتلاقون فيها من شأنه أن يهذب من المظاهر ويعمل على ترفيع النظرات وترقيق الآداب .

ولعل قاسم أمين كان يخشى ذلك فقال: والذى أراه هو أن الغربيين قد غلوا فى أباحة التكشف للنساء إلى درجة يصعب معها أن تتصون المرأة من التعرض لمثارات الشهوة مالا ترضاه عاطفة الحياء .. وهكذا ظلت حركة الاختلاط تنمو سريعا وتشيع إلى أن أصبحت الفتاة التى كانت أمها منذ نيف وثلاثين عاما لا تستبيح لنفسها الاتصال ببعض المحارم أصبحت هذه الفتاة ترى الاتصال بالرجال للسمر والتسلى حقا من حقوقها،ومن المقرر أن الاختلاط بين الرجل والنساء إذا قام على غير مقتضياته الضرورية الجادة،وكان منبعه اللهو والترف فانه لا يلبث أن يقوض دعائم الامم .

وقد صور عباس عمار الحركة النسوية (الاهرام ٢١/٥/١٩٣٣) بأنها مظاهر لا أكثر ولا أقل،وطالب بأن تقوم جهود المرأة على أساس للسير فى الاصلاح على هدى ، ونعى على الفرق العظيم بين ثقافة الرجل وثقافة المرأة .

ووصف محمود أبوالعيون حركة المرأة بأنها ثورة فهورى (الاهرام ٩/١٢/١٩٣٣) أن المرأة فهمت الحرية فهما معكوسا وفى ظل الحرية الزائفة تحررت المرأة المصرية من الآداب والاخلاق . ورأت فيها قيوداً يجب تحطيمها . وفى ظل الحرية الزائفة داست المرأة أقدس واجباتها كزوجة وأم وربة منزل فتهدمت تلك الاصول

الثلاثة التى تبنى عليها حياة الاسرة وسعادة المجتمع، وهاجت «لبيبه هاشم» الظواهر الحسنة فى حرية المرأة وهى تخفى صفات قبيحة وقالت « أولسنا نرى عيوب المدينة الاوربية بدأت تجر أذيالها بيننا فتكنس أثار الحشمة من طريقنا . أولسنا نشمر بريحها السموم تهب من الغرب فتذر من عيوننا رماداً تعمى به بصائرنا . ما أهمية الشعر مجزوزا أو مترسلا معقوصا أو مضفوراً إذا كانت الرأس لا تحوى عقلا وعلما» .

ونعت نعيمة المغربى (الأهرام ١٢/٩/١٩٣٣) على المرأة العربية الاسراف فى التقليد . والمباهاة بمعرفة إحدى اللغات الاجنبية فقالت « لا أريد أن يكون تعليمنا للغة أجنبية سببا لهجر لغتنا هجرا قد يكون لالقاء بعده .

وهاجم عبد الرحمن فهمى (الاهرام ٢٥/٦/١٩٣٩) خروج المرأة « عارية مرتدية ثوبا يظهر محاسن جسمها بعد أن تصبغ وجهها وقال : لقد حدثنا التاريخ أن الامم العابثة أفل نجمها ، وقال أن قاسم أمين لم يكن يظن أن الامر سيصل إلى هذا « التدهور الخلقى الهادم لكيان الامة » ودعا إلى حرية الامة التى تقوم على قواعد الدين — والتى أعطيت للمرأة فى صدر الاسلام فاباحت لها مزاولة أعمالها وإدارة شئون ممتلكاتها فكانت تقابل من تشاء وتخطب فى الاجتماعات وتساجل الشعراء وتسابق الرجل إلى حومة الوغى ... » .

ودعا نبيه أمين فارس المرأة العربية أن تتحرر أولا من الرجل نفسه « فان جميع أتعابها وبلاياها وجهلها وتأخرها يعود إلى الرجل المتسلط عليها وإلى عقلية الرجل فهو مصدر جهلها وسبب شقائها . »

معارك تحرير المرأة

وقد مرت حركة تحرير المرأة فى مراحل متعددة : التعليم والسفور والمساواة والاختلاط والعمل وتنوعت حقوقها بين حقوق المجتمع والزواج والطلاق والحقوق السياسية .

معركة التعليم

وكانت الدعوة إلى تعليم المرأة أولى خطوات حركة تحرير المرأة وقد قطعت المرأة هذه المرحلة بخطا واسعة وحققت فيها نجاحا واضحا ·

وقد اتسعت حركة التعليم النسوى فى مصر عام ١٩٢٤ حيث تم إنشاء أول مدرسة ثانويه، ودخلت الفتاة الجامعة عام ١٩٢٨ فتخرجت خمس فتيات عام ١٩٣٣ منهن : نعيمة الأيوبى وسهير القلماوى .

وسافر عدد من الفتيات إلى الخارج وكان عدد الفتيات اللاتى يتعلمن فى ذلك العام أكثر من ٥٠ ألف فتاة ·

غير أن الاستعمار كان حريصاً على أن لا يحقق تعليم الفتاة الهدف منه ووصف هذا التعليم (١٦ نوفمبر ١٩٣١ — الأهرام — شهدى الشافعى) بأنه تعليم ناقص مبتور لا تجنى منه الفتاة إلا غروراً وزهوا، وأنه فشل فشلا تاما فى تحقيق الغرض منه « وهو إخراج زوجة صالحة تستطيع أن تدبر شئون منزلها وتربى أطفالها » وقد وصف الكاتب فتاة اليوم : بأنها أيا كان نصيبها من التعليم تحتقر كل ما يتصل بالشئون المنزلية وترى أنه لا يليق بها أن تقوم بما يقوم به الخدم .

وطالبت حنيفة حفنى ناصف (الصحف ٢٨/١/٣٠) الفتيات بالاستزادة من تعليم لغة البلاد وتاريخها والعمل لها وفتح الباب أمام من تظهر نبوغا للتبحر فى العلم .

ونمت (اسمت بدوى) على تعليم المرأة وقالت أنه لا يؤدى إلا إلى تعليم القشور دون اللب والعرض دون الجوهر . وقالت إن نظام التعليم من الفساد بحيث لا تفهم الفتاة قيمة ماتدرسه لتمتحن فيه آخر العام، حتى إذا فارقت المدرسة فارقت مادرسته فيها طوال مدة التعليم التى لا تتفق مع قصر وقت الفتاة الطبيعى مما يضطرها لطول المدة إلى ترك المدرسة ، قبل أن تستفيد شيئاً ينفعها فى حياتها الاجتماعية. وقالت «أسماء فهمى» أن ما يوجد فى المجتمع المصرى من نقائص كالتفكك وضعف البنيان القومى وعدم الثقة بالنفس والغير وتضحية المصلحة العامة فى سبيل الأغراض الشخصية ، إنما هو نتيجة لنقص تربيتنا القومية فى كل من المدرسة والمنزل ، وقالت إن من عوامل النقص هذه تلك المكانة التى يستمتع بها الأجنبى بيننا فى لغته وعاداته التى لها كل احترام وبضاعته التى لها الرواج التام . وانه لمن المؤلم أن يعيش الأجنبى بيننا السنوات الطوال دون أن يفكر فى معرفة لغتنا .

وجرى البحث حول إنشاء كلية للبنات فى الازهر دعا إليها محمود أبو العيون وقال إن تعليم المرأة الدين واجب محتوم . وأن المرأة المصرية تعانى أشد أزمة فى حياتها الخلقية وأن خير علاج لذلك هو تعليم المرأة دينها ونعى على وزارة المعارف عجزها عن تعليم المرأة أمر دينها .

٢ — معركة السفور

وكانت «معركة السفور» أضخم من معركة التعليم ، فقد كان هناك تسليم بمبدأ التعليم ،وكان الخلاف حول النوع والدرجة - أما السفور فقد قامت معارضة ضده بالرغم مما أورده قاسم أمين من حجج من نصوص الدين وعاد محمد فريد وجدى بعد أربعين عاما (١٩٣٢) ليؤكد رأيه فى ضرورة الحجاب ، وكان قد أعلنه عند صدور كتاب تحرير المرأة ١٨٩٩ .

وقد أكدت له الأيام التى مرت — على حد قوله — ضرورة احتجاب

النساء ، وأن الحجاب لا يحول دون التعليم ولا المدنية يقول: « وقد ازددت في عقيدتي هذه رسوخا » وأشار إلى « أن الزرون بالحجاب لا يجدون حجة ناهضة على منافاته لأكرم ضروب الوجود الاجتماعي، وأشار إلى أن نساء اليونان كن محجبات في عهدهم القديم ، ولم يمنع ذلك من أن علا و أطباق الأرض علما وصاروا أعظم الأمم جاها . كما أن الرومان بنوا صرح أكبر دولة لعهدهم ونساءهم محجبات فلما أسفرن في آخر أيامهم أصبحوا أسرى شهواتهم . وتلاهم المسلمون ونساءهم محجبات فانتزعوا سلطان الأرض من براثن أمتين لم يكن لهما ثالث في العالم .

وقال « أنا أطلب للمرأة جميع الحقوق الإنسانية حتى حق الانتخاب والنيابه ولا أرى أن حجابها يمنعها من ذلك . وقال «ان التصدع الذي دب دبيبه في البيوت كان بسبب الغاء الحجاب (الأهرام ١٩٢٢/٩/١٤) :

وعندنا الآن ذلك كان من باب إقامة الحجة، إذ أن السفور كان في الثلاثينات قد قطع مرحلة طويلة ، ولم يعد هناك سبيل إلى العودة به مرة أخرى وهو مع ذلك يدعو إلى وجوب تعليمها « تعلما لا حد له » وكان أول من قال بأن الإسلام فرض التعليم على المرأة كما فرضته على الرجل . وسمح لها بأن تكون قاضية ، وأن تحضر الصلوات في المساجد وأن تشهد الأمور العامة وتبدى رأيها فيها ، ولكنه أصر على أن الغربيين لم يحصلوا على ما حصلوا عليه بفضل السفور ولا بفضل الملاهي وصور غايته في قوله : « أنا لا أطلب سدوداً من الحديد والفولاذ لتمنع عن مجتمعنا هذا التحلل الاجتماعي والاقتصادي فقد فشلت تجربة السفور وتركت وراءها أثراً من التدهور قد يعوزنا لمعالجة آثاره سنون » (الاهرام ١٩٣٢/٩/١٨) .

ولم يكن هذا رأى محمد فريد وجدي الكاتب الاجتماعي ذي الثقافة المصرية وحده ولكنه كان رأى الجانب الداعي إلى عدم اطلاق حرية المرأة اطلاقا كاملا ويقابل هذا الرأى ، رأى جانب آخر يرى أن الحجاب ليس من الإسلام ويقوده عالم ديني

هو الشيخ عبد القادر المغربي : قال إن الحجاب ليس من الاسلام ، وان الحجاب الاسلامى أثر من آثار ارستقراطية المرأة وليس هو أثراً من آثار احتقارها أو عبوديتها

وأشار ابراهيم المابلوى (الهلال م ٤٠ ص ١٦) إلى أن السفور ليس ماديا فحسب بل هو معنوى ، وان سفور المرأة من حجابها لن يكون صحيحاً إذا لم يصحبه سفور عقلها وروحها وعواطفها . وفى احتجاب عقلها خطر وانكماش روحها فناء .

وقالت فردوس كامل (١٩٣٢/٦/٢٢ الأهرام) ، إن السفور ليس هو مصدر الشقاء الاجتماعى والبلاء الأخلاقى الحاضر ، وليس الحجاب بمانع من هبوط المستوى الأخلاقى أو بباعث فينا روحا من الكمال واشارت إلى أن للتدهور الأخلاقى المتفشى أسبابا أخرى تحتاج إلى قوانين صارمة ورجال أقوياء ، وهاجمت « بلسم عبد الملك » أثر الحجاب فى العقل ، فقالت : إن الحجاب نطاق ضرب حول وجه المرأة وجسدها وليس له أدنى اتصال بعقلها وذهنها وأن تأخر المرأة الشرقية راجع إلى نقص فى انتهال من موارد العلم الصحيح ما يؤهلها لخوض غمار الحياة العملية بطريقة جديده .

٣ — حقوق المرأة

كانت المعركة الكبرى فيما بين الحربين هى معركة حقوق المرأة وكان أبرز هذه المطالب : المطالبة « بالمساواة » بين الرجل والمرأة مساواة تامة .

أما حقوق المرأة التى دافعت عنها وجاهدت من أجلها فهى :

× مساواة المرأة بالرجل فى مختلف فروع التعليم وفتح أبواب التعليم الثانوى والعالى والبعثات إلى أوربا .

× إصلاح القوانين العملية للعلاقة الزوجية .

× سن قانون منع تعدد الزوجات إلا لضرورة كعقم الزوجة أو المرض العضال .

× مساواة المرأة بالرجل فى الحقوق النيابية والحقوق التشريعية .

× تقييد الطلاق ووضع حد له .

× جعل السادسة عشرة سنا أدنى لزواج البنت ليتسنى لها تكوين عقلها وتحصيل قسط مناسب من الثقافة والتعليم .

× إصلاح نظم الأحوال الشخصية فيما يتعلق بنظام الخطبة والزواج لتهيئة الجو للأسرة وإستقرار الحياة الزوجية :

× مد حضانة الأم للطفل ومراعاة جانب المرأة فى شروط بيت الطاعة .

× تغيير لباس المرأة وإلغاء الحجاب .

وقد تحققت كل هذه المطالب فى خلال هذه الفترة .

وكانت الدعوة إلى المساواة بين الرجل والمرأة مساواة كلية موضع معارك فكرية متعددة بين دعاة التغريب والمتدلين من المجددين ، وعارض كثيرون هذه المساواة وقالوا أنها مستحيلة عقلا وفعلا (ابراهيم عبد القادر المازنى) لأن لفظ المساواة لايدل على صحة الادراك والفهم للحقائق الطبيعية التى تقيد كلا من الرجل والمرأة على السواء — وعارض منصور فهمى (٤ فبراير ١٩٣٠) مساواة المرأة بالرجل فى جميع الحقوق والواجبات وأثارت محاضرته عاصفة هوجاء .

وقد كانت مسائل الإرث فى مقدمه المسائل التى شملها بحث المساواة .

وأشار الدكتور السعيد مصطفى السعيد (الأهرام ١٩٣٦/٧/٢) إلى هذا فقال : أن حقوق المرأة المسلمة فى مصر مقيدة بالشريعة الاسلامية وأن المنازعات التى تقوم بصدد الزواج والطلاق والميراث والهبة والوصية تحل عن طريق هذه الشريعة . وقال أنها ميسره .

غير أن سلامة موسى حمل حملة عنيفة على الميراث ودعا إلى مساواة المرأة والرجل فيه ، وقد عرض عبد القادر المغربى لحكمه الشرع فى توريث البنت نصف إرث

أخيها فقال : أن الأبناء لما كانوا هم الذين يخلفون آباءهم فى أسرتهم ، كانوا فى حاجة إلى المال أكثر من إخواتهم البنات اللواتى يندمجن فى أسرة أخرى غير مكلفات فيها بالنفقة .

وقال محمد فريد وجدى (١٣/٣/٣٠ الأهرام) أن النظام الاجتماعى فى فلسفة الحسبه وهى فلسفة العصر الحاضر موافقا للنظام الاسلامى ، وقال أن هذا النظام كان يسمح أن لا يجعل لها حقا أصيلا فى الميراث ،ولكن الاسلام الذى زاد من ضمان حياتها وتوفير راحتها قدر لها نصف ما للرجل من ميراث .

وقد أراد سلامه موسى فى اتجاهه التغريبى أن يكسب إلى دعوته هدى شعراوى فأرسل إليها محاضرته التى نشرها بجريدة المقطم (١٩٢٨/١٢/٢٣) ودعاها إلى أن تطالب إلى وزارة الحقانية سن قانون يساوى بين المرأة والرجل فى حق الميراث .

وقد نشرت هدى شعراوى فى الأهرام ١٩٢٨/١٢/٢٨ رأيها فى هذا الصدد وقالت : أنها لا تظن أن نهضتنا النسوية يجب أن تتبع أوربا فى كل مظاهرها . لأن لكل بلد تشريع وتقاليد ، وليس كل ما يصلح فى بعضها يصلح فى البعض الآخر ،وقالت أنها لم تلاحظ تبرماً من المرأة أو الشكوى من عدم مساواتها للرجل فى الميراث «والظاهر أن إقتناعها بما قسم لها من نصيب ناشىء من أن الشريعة عوضتها مقابل ذلك بتكليف الزوج بالانفاق عليها وعلى أولادها كما منحتها حق إستقلال التصرف فى أموالها، وأن الأوربية ترث بقدر مايرث الرجل فضلا عن أنها ملزمة بدفع المهر ومكلفه بالتخلى عن إدارة أموالها لزوجها فضلا من أن الغربية لا حق لها فى إدارة ممتلكاتها إذ لا يمكن أن تنفق أى مبلغ من مالها ولا أن تتعاقد مع الغير ولا أن تحترف حرفه بدون تصديق زوجها وموافقته » ١٠ . هـ

وعارض العقاد الرأى القائل بمساواة المرأة : وقال أنه لم يجد ما يدل على إمكان

مساواة المرأة بالرجل ، ولم ير من النساء واحدة نبغت فى فن من الفنون إلى درجة تعادل بها الرجل حتى من يشاد بذكرهن فى العصر الحديث كدام كورى ، وليس دخول نساء الغرب فى الأعمال والوظائف دليلا على كفاءة المرأة للقيام بأعمال الرجال وإمكان مساواتها فان العبرة فى المساواة ليست بالحد الأدنى .

٤ — مهمة المرأة

وجرى البحث حول مهمة المرأة : وانقسم الرأى حولها هل هى البيت أم العمل، وأيد كثيرون من معتدلى المجددين الرأى الأول، وقال العقاد أن المرأة الشرقية أحس بطبيعة الأنوثة من صاحبتها الغربية فهى أوفر منها حظا من عنصر النسوية . وهى على الجملة أرأم لأبنائها وآلف لزوجها وأسكن إلى المعيشة البيتية من صاحبتها الغربية ، وقال أننا نود أن تظل كما كانت فى كل عصر ملكة البيت الحاكمة المحكومة يسكن إليها الرجل من متاعب الحياة ويستدعى ذلك أن تعيش فى ظله وتعتمد فى شؤون العالم الخارجية عليه وتدع له كسب رزقها وتدبير حاجاتها ، وقال أن عملها فى البيت هو أعداد الجيل القادم وهو أكبر وأجل من أن نجمع بينه وبين السعى فى طلب الرزق والاحتيال على شئون المعاش إلا إذا كان خروجها إلى معترك السعى والجهاد علامة على التقصير والخلل من جانب المجتمع ونذيراً بالشذوذ فى تقسيم الطبيعة .

وقال محمود أبو العيون: أن نظرية مشاركة المرأة للرجل فى الوظائف العامة هى نظرية إقتصادية دلت التجارب على أنها خطرة فى حياة الدولة لأنها تزيد العاطلين من الرجال .

وقال عباس عمار (الأهرام ١٩٣٣/٢/٨) أن وظيفة المرأة هى « الأمومة » وهى لا تستطيع أن تغيرها أو تقلبها فتمسخها؛ إذا فاعدادها يجب أن يكون مرتبطا أساسه بهذه المهمة التى خلقت لها . فهى لا بد أن تتعلم تدبير المنزل ومبادىء الصحة

ونفسية الأطفال، ولا غنى لها من أن تتثقف ليركن الزوج إليها ويرى فيها ناحية جذابة يميل لها ويطمئن إليها . وقال أنه ما يرمى بتثقيف البنت أن تجيد الرقص وان ترطن بلغة أجنبية، وهى مع ذلك عاجزة لاتشرح صدراً ولا تنظم بيتا . ولست أدعو إلى أن تتعلم البنت ألوانا من العلوم لا تتصل بحياتها، وإنما أحب أن تعد البنت لتكون « أماً » تفهم مهمتها بتنشئتها إنشاء ربة البيت بكل معنى الكلمة « وقال أنه مادامت ظروف المجتمع الحالية قد لاتحقق معها هذا الغرض الذى نعد المرأة له وما دامت فرصة الزواج لم تعد ميسرة لكثير منهن ، فمن العبث أن نهمل هذا الجانب الواقعى ومن الأجحاف بحقوق المرأة أن نسقط هذا الأمر من حسابنا وخير للمرأة أن تتسلح بسلاح العمل وأن نعدها للحياة كما نعدها للبيت .

× وقال فيلكس فارس (٢٦/٢/١٩٣٣ — الأهرام) إننا نخدع كثيراً من معنى حرية المرأة الغربية وكثيرات من بنات بلادنا يضعن نصب أعينهن الفتاة العاملة فى أوربا كمثال أعلى للرقى الصحيح .

أنا من أنصار تعليم المرأة وتهذيبها ، ولكن لا أريد المرأة عاملة خارج بيتها يتحكم فيها الغرباء عنها ، فان لم تنزل الإهانة بها كامرأة نزلت بها إهانات التقريع كمأمورة يجب عليها أن تمحو شخصيتها وتكيفها تبعا لواجبات التنظيم وقال : أن كل ما يمكن المرأة أن تحترم به المجتمع من أعمال ليس إلا فضولا ، فالمرأة التى تنشىء أمة وتخلق وطنا لا تكون إلا كالقابضة على الريح فى نضالها الوهوم على الانسانية ... أن ما يحسبه النساء حقا لهن وتطالبن به من عمل فى المجتمع أن هو إلا عبودية مستحدثة من أنانية الرجل فهو المستفيد منها وهن ضحاياها .

وهاجمت المرأة كل رأى يدعو إلى التحرر من التقاليد الغربى الخالص وتطبيق ما يصلح لمجتمعنا وجيلنا . فقالت أنجى أفلاطون : أن نداء « المرأة للبيت » لايؤدى فى حقيقته وجوهره إلا إلى تحطيم البيت وتشريد المرأة والأطفال معا ؛ ذلك أنه يعنى

اعتبار المرأة خادمة فى البيت لا صلة بينها وبين المجتمع الذى تعيش فيه ، لا تدرى منه شيئا · ولا تساهم بشىء فى تدبير أموره وعلاج مشاكله ، ويعنى إخضاع المرأة لسلطان الرجل إخضاعا تفنى به شخصيتها وكرامتها وآدميتها ويحرم المجتمع من جهود النصف من أعضائه ·

وأن فكرة « المرأة للبيت » ليس مضمونها سوى تجميع المساوىء التى تحيط بالأسرة المصرية · فهى تعنى للفتاة إجبارها على الزواج قسرا وكرها ، وتعنى للزوجة إباحة تعدد الزوجات وإطلاق حق الطلاق والزنا والطاعة والتعذيب ، ولذلك قال « المرأة للمجتمع وليست المرأة للبيت » ودافع الكثيرون عن حق المرأة فى العمل وقالوا أنها عملت مع الرجل قبل أن تتعلم ، فى الحقول والمزارع وعملت فى التجارة ولذلك فليس هناك ما نخشاه من فتح أبواب التعليم للمرأة ·

٥ — معركة الاختلاط

وقد أستتبع قضية العمل للمرأة معركة جديدة هى : معركة الاختلاط ·

وقال دعاة التغريب : أن السفور وسيلة لا غاية · وأن الغاية هى تكوين المجتمع المختلط . وقال ابراهيم المصرى : الواقع أن السفور أصبح لا يجدى إذا لم يقترن بوجود مجتمع مختلط إذ السفور فى ذاته وسيلة لا غاية .

وقال محمود عزمى : أنه لا يتم إصلاح بغير إختلاط وتعادل فكرى بين الجنسين وإفساح الطريق للمرأة لغشيان المجتمعات العامة · وعنده « أنه لا يمكن أن يتحقق أى إصلاح من الاصلاحات التى يقوم عليها كيان الأسرة إلا إذا تحقق الاختلاط بين الجنسين فى المجتمعات الخاصة وفى المجتمعات العامة أيضاً .

وقد أباح طه حسين فى الجامعة إختلاط الجنسين وكان لذلك الأمر ضجة وكان رأى المعتدلين من المجددين أن الأمر يتطلب تمهيداً ثقافيا وفكريا وإجتماعيا حتى لا يحدث من جراء ما حدث من ضحايا وأزمات كان لها صدى بعيد المدى ·

وعارض رجل من الأزهر منع الاختلاط ، فقال محمود الشرقاوى : نحن نقاسى فى مصر حجابا صارما بين الشباب والفتاة وبين الرجل المرأة وأن هذه الحجب هى علة العلل فى قعودنا وتخلفنا فى الأدب والفن .

ورفض توفيق الحكيم تقليد الغرب فى كل شىء ورد ذلك إلى مركب النقص ، وقال أن علينا أن نلائم بين الحاجة والوسيلة والضرورة والطريقة فى إطار طبائعنا ونطاق طابعنا .

٦ — الحقوق السياسية

وكانت معركة الحقوق السياسية هى خاتمة هذه المعارك ، فقد ارتفعت الأصوات مطالبة بحقوق المرأة السياسية منذ عام ١٩٢٢ فى أبان وضع الدستور الأول وظلت هذه الدعوة تتردد فى مناسبات متعددة — وقال فريد وجدى : أنه ليس لدى المسلمين ما يمنع أن تجارى المرأة المسلمة أختها فى هذا المضمار ، بل أن لها من دينها باعثاً قوياً فقد أمر النبى (ص) أن تحضر النساء مجتمعات المسلمين العامة التى تعقد للتشاور ، وقد ردّت امرأة على عمر فى مسألة تحديد المهر فرجع عن مشروعه .

وكان من رأى توفيق الحكيم أن هذا نوع من التهريج · وقال أنه لا مانع من أن يكون للمرأة صوت فى كل ما يقرر مصيرها على شريطة ألا يحول ذلك دون إستقلالها الطبيعى فلا تتلاشى فى مجالس الرجال ولا تضيع فى مجامع الأحزاب .

وقالت هدى شعراوى : أن ماتدعو إليه المرأة من المطالبة بالحقوق السياسية إنما يهدف إلى الإشتراك فى التشريع الذى يوضع بشأن الأسرة والمرأة والطفل وكذلك التنفيذ والمساهمة فى علاج الأحوال الإجتماعية والأخلاقية والإقتصادية ، واستشهد بعض الكتاب بقول الكاتبة الألمانية (مارجريت كروسى) التى أقامت بمصر طويلا وكتبت تعارض فى إعطاء المرأة حق الانتخاب بحجة « أنه من النادر أن تفصل المرأة بين العاطفة والتفكير السياسى وتميل عادة إلى إنتخاب ذويها .

المرأة فى العالم العربى

وقد امتدت حركة تحرير المرأة فى العالم العربى كله ولقيت مثل ما لقيت فى مصر ؛ أصحاب معسكر التغريب يدفعون المرأة إلى السفور والاختلاط والانطلاق، ودعاة الاعتدال من المجددين يطالبون بالانارة والتطور حتى لا يقع الصدام وتتكاثر الضحايا .

(فى لبنان)

وفى لبنان ارتفعت صيحة الدعوة إلى تحرير المرأة المسلمة باسم (نظيرة زين الدين) عام ١٩٢٩ فى كتاب ضخم بلغ ٤٢٠ صفحة من القطع الكبير اسمه « السفور والحجاب » اعتمد على الدعوة العاطفية واستغلال الآيات القرآنية والأحاديث فيما ذهب إليه من حرية السفور ، وقد بلغ الأمر أن فضلت الكاتبة المرأة عن الرجل وقالت أنها أصلح من الرجل عقلا ، وعارض العقاد هذا الرأى لأن فضيلة المرأة الكبرى عنده أنها متممة للرجل وليست منافسة له فى ميادين العمل والجهاد وقال العقاد : ان نهضة المرأة ما برحت بخير ما طلبت حقها وعرفت أن حقها لن يناقض حقوق الرجال . أما حين تطلب الحرية لتتحدى بها الرجل وتتمرد عليه فهى فاشلة وخاسرة ونادمة .

— وقد هاجم مصطفى الغلايينى هدف كتاب نظيرة زين الدين وقال : إن هذا الكتاب قد اجتمع على تأليفه عدد كبير من اللادينيين والمسيحيين والمبشرين وأن الآنسة وأباها (الرئيس الأول لمحكمة الاستئناف فى الجمهورية اللبنانية) كانا إما مخدوعين أو شريكين لهؤلاء الدساسين، وأنه كشف النقاب عن غايات مؤلفى الكتاب وغيره ممن يسعون لافساد المسلمين والقضاء على عقائدهم وأخلاقهم بالقضاء على المرأة المسلمة .

وقال إن هذه هى الوسيلة التى وصل إليها أخيراً المبشرون بعد أن عجزوا عن الطعن فى الإسلام وهى استخدام بعض أهله ، وقال ان فى عام ١٩٢٨ كثر اللغط والحديث حول مسألة المرأة فى مصر وسوريا وفلسطين ولبنا ن والعراق فى آن واحد، ثم ظهر كتاب السفور والحجاب المكتوب بأقلام اذناب هؤلاء المبشرين الذين نعرف أسماءهم كلهم ونعرف أكثر أشخاصهم ، وقال ان مؤلفوا الكتاب قصدوا إلى الطعن فى الاسلام فى صور من الأساليب خلابة مموهة بالباطل من القول والزخرف من الكلام . وقد حاولوا إثبات أن الرجل لا عقل له أو انه ناقص العقل وأن المرأة أصح منه عقلا . وإثبات أن المفسرين كانوا مخطئين فى تفسير آيات القرآن وأنهم كانوا جهلة دساسين ، وطعن الكتاب على أكثر الصحابة كما طعن فى العلماء وأجرى الدس بين السنة والشريعة . » ا . هـ

وليس غريبا أن يحمل دعاة التغريب ألدعوة إلى السفور على هذا النحو ، فإن هدى شعراوى التى حملت لواء الدعوة إلى تحرير المرأة فى مصر كانت ترنو إلى المظهر به والزعامة أكثر مما ترنو إلى الايجابية ، ولذلك لم تخرج الحركة النسوية فى مصر عن نطاق مجموعة من السيدات الارستقراطيات ، وهدى شعراوى هى : ابنة سلطان باشا الذى رحب بالاستعمار وفتح الطريق أمام الانجليز فى التل الكبير وزوجة شعراوى باشا أحد الثلاثة الذين قابلوا المندوب السامى البريطانى يوم ١٣ نوفبر ١٩٩١ .

وقد كانت حياتها عبارة من سلسلة من الرحلات إلى أوربا للاشتراك فى المؤتمرات النسوية فى روما وباريس وامستردام وبرلين ومرسيليا واستامبول وبروكسل وبودابست وكوبنهاجن ، وقد جاء فى تشكيل جمعية الاتحاد النسائى (١ مايو ١٩٢٦) انه واسطة تعارف وتعاون بين المرأة المصرية وأختها الغربية ،

لازالة ما علق بأذهان الغربيين من تصور المرأة المصرية عضواً أشل أو لعبة من لعب الزينة فى أيدى الرجال .

وقد كانت هدى شعراوى حريصة على أن تحقق تشريعا يعصم الفتاة من الزواج قبل بلوغها السادسة عشرة من عمرها ، ولعل هذا يرجع إلى أنها هى زوجت قبل هذا السن إلى رجل فى مثل سن والدها فظلت حياتها التعيسة مضطربة طوال حياتها .

فى العراق

وفى العراق دعا الزهاوى إلى تحرير المرأة وكان لمقاله رنة كبرى وأزمة كبرى حيث ندد بحجاب المرأة وقال « ما بال الرجل الذى هو ناقص بدون المرأة يدأب على اهانتها بهضم حقوقها . ثم ما بال الرجل الذى لا يهتم إلا بالمرأة يهن ما به تمامه . وكيف يقول الرجل يجب أن أتمتع بالحرية التى هى أكبر حق من الحقوق الانسانية والتى هى مشاع بينهما والمرأة عنده متاع خلقت للذاته فإذا قضاها جاز له أن تستبدلها بمتاع آخر . (٣/٨ ايلول ١٩٠٨) .

وقد أحدث مقاله بلبلة وانفجاراً فى الأوساط العراقية وقام علماء بغداد ضده . وألف سعيد النقشبندى كتاب (السيف البارق فى عنق المارق : الزهاوى) واتجه العلماء إلى والى بغداد الفريق ناظم باشا يعرضون عليه أمر الزهاوى وطالبوا بفصله من كلية الحقوق فعزل الزهاوى ولم يحاكم وأمر بأن يعتكف فى داره خوفاً من اغتياله. وأخذت الصحف تكتب عنه أقذع الكلمات وقد أيده «معروف الرصافى» وكتب عن حقوق المرأة العراقية ثم غادر الزهاوى بغداد فى هجرة إلى مصر والشام ، فلما ورد القاهرة كتب فى المؤيد مقالا عام ١٩١٠ العدد ٦١٣٨ تحت عنوان « المرأة والدفاع عنها » كان له صداه فى الشعب العراق حيث ضرب منزل الزهاوى بالحجارة وتأخرت النهضة النسوية فى العراق حتى عام ١٩٢١ عند ما حمل الأنجليز لوائها على يد الانجليزية (المس كلى) حيث أسست أول مدرسة للبنات (١٩/١/٢٠) احتفل بها العميد البريطانى .

وكانت أول فتاة عراقية تحصل على شهادة هى (صبيحة الشيخ داود) وقامت (أسماء الزهاوى) شقيقة الشاعر بتشكيل جمعية نهضة السيدات البغداديات عام ١٩٢٤ واشتركت العراق لأول مرة فى مؤتمر نسوى ١٩٢٩ عقد فى لبنان حيث ألقت فيه (أمينة الرجال) كلمة باسم المرأة العراقية . ثم ظهرت شاعرات وكاتبات عراقيات لمعت أسماؤهن : أمثال رباب الكاظمى ونازك الملائكة وأميرة نور الدين ولميعه عباس وعاتكة الخزرجى .

ويرى الزهاوى أن : على المرأة العربية (أكتوبر ١٩٢٤) أن تأخذ من الغربية عادة السفور فتمزق الحجاب الذى أسدله الجهل فسد عليها طريق النور وجعلها بمعزل عن الحياة الاجتماعية إلا فى ظروف خاصة وأن تأخذ عند الضرورة عادة الزواج والطلاق المدنيين ، ومما يذكر أن الزهاوى عندما جاء مصر كانت معه زوجته المحجبة التى كانت لم تخرج معه فى طريق واحد .

وقد اتصلت الحركة النسوية فى العالم العربى فعقد (ابريل ١٩٢٨) مؤتمران نسويان فى بيروت أحدهما أقامته الجمعيات المسيحية فى لبنان وآخر أقامته الجماعات الإسلامية فى بلاد الشام .

وقد دعا المؤتمران إلى توحيد جهود المرأة فيما يتعلق بتربية الولد وتهذيب النشء وإصلاح العادات والنهضة بالاقتصاديات الوطنية وتنشيط المصنوعات الأهلية وتحسين حال الفتاة العاملة وإصلاح السجون .

وقد اشترك فى مؤتمر بيروت ١٩٣٠ عنبره سلام الخالدى وكريمة عامى وإحسان القوصى وجوليا دمشقية ونازك سركيس وأميره أبو عز الدين وابتهاج قدورة ومثلت فيه معظم البلاد العربية :

وقالت عنبره سلام (سورية) إن المرأة السورية مهما تنوعت مشاربها

ليست بالثائرة ولا بالطائشة وهى فى نهضتها لا تطلب الطفرة ولا تدعو إلى الفوضى بل مبدؤها السير إلى الأمام دون تحطيم أو تهديم .

ودعت عزيزة فوزى (مصر) إلى حماية اللغة العربية وقالت : إن بعض الفتيات يعرضن عنها وتراهن يلوين ألسنتهن باللغات الأجنبية ، وقالت : ان فكرة القضاء على لغتنا العربية تدخل إلى النفس هلعا ، وقد وصفت الكاتبة الأمريكية روث فرانسنس (٢٧/٢/٣٨ الأهرام) النهضة النسوية على هذا النحو :

الحركة النسوية فى سوريا أضعف منها فى العراق مع أن عدد المتعلمات السوريات أكثر بكثير من المتعلمات العراقيات . والمرأة السورية تطورت فى العشر سنوات الأخيرة . ولكن تطورها كان مقصوراً على تنويع شكل النقاب لا القضاء عليه . ومن المدهش أن النقاب لا يزال موجوداً فى بيروت ذاتها ونساء بيروت محجبات ونساء رأس بيروت سافرات .

والمرأة الدمشقية محجبة فى أى حى من أحياء دمشق وحلب ، لا توجد فيها حركة نسوية . ونساء حمص يتساهلن بعض التساهل وعندهن قدر من الحرية ونساء فلسطين محجبات على الطريقة التركية القديمة . ولا يوجد فى فلسطين ى حركة ترمى إلى سفور المرأة .

وقد جرت الدعوة إلى إيجاد « اتحاد نسائى شرقى عربى » تكون مهمته توحيد « الأمة العربية » ببث دعوة مبنية على الوطنية والحصافة ، وكان لمأساة فلسطين ١٩٣٦ وما بعدها أثرها فى تجمع المرأة العربية من كل أقطارها فى مؤتمر فى القاهرة للدعوة إلى حق فلسطين وحق العرب ، كما حمل المؤتمر العربى لواء الاحتجاج على حوادث سوريا ولبنان ، ولا بد من أن نذكر هنا أن المرأة العربية فى سائر الوطن العربى قد شاركت فى جميع الثورات والانتفاضات الوطنية وقدمن الضحايا ولم يحل

الحجاب أو غيره دون أداء دورها كاملا ، فقد حملت السلاح ومرضت الجرحى . وعملت في المقاومة الشعبية . وقدمت الشهداء في ثورات مصر وسوريا .

وخلاصة القول أن هذه الفترة — بين الحربين — كانت عصبية جداً حتى لقد وصفت الحركة النسوية بأنها غفلت عن خطر الأمومة في حياة المرأة والأمة ، فقصرت عن توجيه الفتاة الجديدة نحو مكانها الطبيعي في البيت واعدادها لوظيفتها الأولى في الحياة . ولعل مرجع هذا فيما ترى الكثيرات إلى فتنتنا العمياء بمظاهر المدنية الغربية « فإن الغرب رجع من زمن بعيد عن هذا الضلال وراح يكافح في رد المرأة إلى مكانها الطبيعي في البيت وان مشكلة رد المرأة إلى البيت هي مشكلة ما بعد الحرب . »

مراجع البحث

تحرير المرأة : قاسم امين ؛ ١٨٩٧ — القاهره

تحرير المرأة والسفور : محمد فخري :

هدى شعراوي في النهضة : المرائي ١٩٤٨ القاهرة ؛

النسائيات : ملك حفني ناصف

اكليل الغار لرأس المرأة ؛ جرجي نقولا باز ؛ بيروت

تحرير المرأة العراقية : خضر العباسي ؛

الاسلام والمرأة ؛ سعيد الافغاني ١٩٤٥ دمشق ؛

المرأة الحديثة ؛ عبد الله حسين ١٩٢٧ القاهرة ؛

محمد والمرأة ؛ عبد القادر المغربي ١٩٢٨ — دمشق ؛

تحرير المرأة في الإسلام : مجد الدين حفني ناصف ؛ ١٩٢٤ القاهره

السفور والحجاب ؛ نظيره زين الدين بيروت ؛

المرأة والشيوخ ؛ نظيره زين الدين بيروت ؛

المرأة الجديدة : قاسم امين ١٩٠٢ القاهرة ؛ بيروت

المرأة في التمدن الحديث ؛ محمد جميل بيهم ١٩٢٧ بيروت ؛

المرأة في التاريخ والشرائع ؛ محمد جميل بيهم ١٩٢١ —

نهضة المرأة المصرية ؛ عبد الفتاح عباده ١٩١٩ — القاهرة ؛

اختكم فانصفوها ؛ مادلين ارقش ١٩١٤ — بيروت ؛

– ٨ –

الصحافة

كان دور الصحافة فى هذه المرحلة — مابين الحربين — مختلفا عن دورها فى الفترة التى سبقت الحرب . فقد كان الملوك والخديويين والمحتلون — سواء منهم الفرنسيين أو الإنجليز — هم الذين يصدرون الصحف الرسمية التى تمثل آرائهم وتدافع عن اتجاهاتهم ، وكانت الصحف الأخرى التى صدرت بأمرهم وإيعازهم لا تتردد فى أن تنسب نفسها إليهم . وقد تطور هذا الأمر فأصبحت الصحف تصدر ممثلة للاحزاب والهيئات ، فإذا اختفت وراء مبدأ (الحياد) فقد حق لها أن تدافع عن أى نفوذ أو هيئة أو حكومة دون أن تخشى شيئاً . وبعد أن كانت الصحف تدافع عن الوطنية فى جراة وعاطفة تحولت إلى الاعتدال، وبعد أن كانت تهاجم المحتل والدخيل ، أصبحت تناصر الحزب الذى تتبعه وتهاجم خصومه من أهل الوطن ، وتباعد بينها وبين القضية الوطنية . وكان لقيام حكومات جديدة فى الوطن العربى فى ظل الاستقلال الذاتى قد خلق جوا جديدا ، فقد تولت الحكم فى الوطن العربى طائفه معينة أو فئة خاصة — كانت فترة الاحتلال والحماية الأولى فترة اعداد لها — هذه الطائفة تؤمن بالالتقاء مع الاستعمار فى منتصف الطريق ولا تناهضه .

وفى مصر مثلا جاء الوفد فى شعبيته الضخمة بعد الحرب على انقاض الحزب الوطنى . مع الاختلاف الواضح فى الأهداف والوسائل ، فالحزب الوطنى كان عنيفاً فى مقاومة الاحتلال جريئاً فى مهاجمته عاطفيا فى هذا الهجوم ، أما الوفد فقد كان « متفاهما » مع الاحتلال على مذهب حزب الأمة ، وهو لم يلبث أن انقسم إلى فريقين : فريق

أصحاب المصالح الحقيقية والأسر والبيوت والاقطاعيين ، وهؤلاء هم الذين انفصلوا تحت اسم «الأحرار الدستوريين» وبقيت المجموعة الشعبية تحت زعامة سعد زغلول تؤمن بالمفاوضه مع الانجليز وتلتقى بهم فى منتصف الطريق ، وقد دارت المعركة بين الوفد والأحرار طوال هذه الفترة على الحكم ، وتكسرت قوة الوفد الى أحزاب ، ولم يلتق الوفد والأحرار فى ائتلاف إلا مرتين عندما أنشأ الملك حزب الاتحاد ١٩٢٥ ، وعندما ألغى دستور ١٩٢٣ ، وأنشأ حزب الشعب ١٩٣١ .

أخطاء الصحافة

وهكذا عاشت الصحافة فترة مابين الحربين خادمة للأحزاب ، عاملة عندها ، لا تستطيع أن تتحرر فيها ، وبينما كانت صحف الوفد تعتمد على شعبيتها وأقلام كتابها فى عنفها وقسوتها أمثال العقاد وعبد القادر حمزة وحافظ عوض وتوفيق دياب وغيرهم ، اعتمدت صحف الأحرار الدستوريين على صناعة الصحافة وعلى أقلام الكتاب المؤمنين بالحضارة الغربية ، هؤلاء الذين عملوا فى جبهة الاقطاعيين وأصحاب البيوتات وجعلوا من أقلامهم التى تحمل كلمات الحرية والتجديد والثقافة أداة للدفاع عن النظام الإستبدادى وحكم الأقلية .

كما سارت الصحف المحايدة صحف الأحرار الدستوريين فى معركة الغزو الثقافى والتغريب ودعت جميعها إلى محاسنة الإستعمار ، وفتحت الطريق أمام جميع مختلف الدعوات وكانت لسانا حادا على كل من دعا إلى إصلاح أو اعتدال ، فهاجمت الشيخ محمود أبو العيون فى دعوته إلى إلغاء البغاء ، وأطلقت على القوى الوطنية الشعبية كلمة «الرعاع» واصطنعت أسلوب السخرية فى مهاجمة كل باحث أو مصلح لا ينتسب إلى حزبها .

وكان كتاب هذه الصحف يعمدون إلى إثارة الجماهير فى مشاعرهم بترجمة القصص الفرنسية الماجنة ، وكتابة الفصول النقدية اللاذعة فى مهاجمة القيم الإسلامية والعربيه وتحوير معالم التاريخ على النحو الذى يصور العصر الأموى

والمحامى بصورة التحلل . وفى ظلها وحمايتها أعلن كثير من « المجددين » الذين حملوا لواء الأفكار التغريبية آراءهم ودافعوا عنها .

* * *

حدث هذا بينما وقفت الصحف الوفدية موقف الاعتدال فى الرأى والمحافظة على مشاعر الشعب ، وباعدت بينها وبين مغايظة الجماهير أو اثارتها وهو أسلوب لم تلبث صحف الأحرار الدستوريين أن عمدت إلى اصطناعه رغبة فى كسب عطف الجماهير فذهبت فى ذلك إلى أبعد مدى ، وكان دفاع جريدة السياسة عن الاسلام ومهاجمتها لحملات التبشير أقوى من دفاع الصحف الأخرى ، فضلا عن كتابات الدكتور هيكل عن محمد وأبى بكر وعمر والإسلام ، وهكذا كانت الكتابات الأدبية والدينية أسلحة من أسلحة السياسية لكسب الجماهير وترويج الصحف .

أما الصحف المحايدة (الاهرام — المقطم) فقد فتحت صفحاتها لكل دعوة وكل رأى ، وتركت هذه الآراء تصطرع وتتقاتل ، وكان لهذا أثره البعيد فى خلق جو من البلبلة والاضطراب .

وعاشت الصحف المحايدة على إرضاء الإستعمار والحكومات المتوالية بينما عاشت الصحف الحزبية على تأييد أحزابها ومهاجمة خصومها دون تقدير لأى عمل مهما كان نصيبه من النفع أو الضرر ، ولذلك فإن صحف أى حزب كانت تنعم بالهدوء مادامت أحزابها فى الحكم فإذا تخلت عنه واجهت الصعوبات من تحقيقات ومحاكمات ومصادرات .

وكأنما كانت أقلام الصحفيين مستأجرة للاحزاب والصحف ، ولذلك كثر التناقض فى أفكارهم وكان لهم مواقف من بعض الأحداث ومواقف مضاده من مثل هذه الأحداث .

وهيكل وطه حسين وكتاب السياسة الذين كانوا ينادون بحرية الرأى

ويحملون لواء حماية الدستور والحياة النيابية هم الذين أيدوا محمد محمود إبان حكمه الحديدى عام ١٩٢٩ عند ماالغى الدستور واوقف الحياه النيابيةواستطاعوا أن يجدوا من المبررات مايحملونه مادة دفاعهم عن هذاالعمل الذى يتناقض قطاممع أفكار الحرية التى طالما أعلنوها ، وقد أيدوا بالبرهان والمنطق ـ الذى كان سلاحهم دائما ـ تحديد حرية الصحافة ومحاكمتها ومصادرتها ومقاومتها وألغى محمد محمود رخصة مائة صحفية وعطل وانذر عشرات الصحف المعارضة (وكذلك فعل إسماعيل صدقى) . (عام ١٩٣٠) ثم إذا بهم يواجهون المعركة بطريقة مضادة فى عهد صدقى باشا عندما ألغى الدستور وأقام دستوراً جديدا واضطهد الصحف ومن بينها صحف الأحرار الدستوريين ، هنالك عادوا إلى الدعوة إلى الحريه وحماية الدستور متناقضين مع أنفسهم ولما يمر عام واحد على المعركة الأولى .

ويبدو التناقض فى موقف صحف الأحرار الدستوريين فى كتابات هيكل وطه حسين وغيرهم من سعد زغلول الذى كان خصما للاحرار فإذا هو من هو ضعفا وسقوطا وفشلا وتسلطا ، فإذا قام الائتلاف عام ١٩٢٦ بين الوفد والأحرار إذا سعد زغلول ـ فى كتاباتهم ـ مثل رائع للبطولة والكفاية .

ويمكن القول أن الصحافة فى هذه الفترةغلبت الجوانب الشخصية والحزبية على الجوانب الوطنية، وغلبت الخلاف الداخلى والصراع على كراسى الحكم على القضية الوطنية ذاتها .

كما سجلت عنفا لاحد له فى الهجاء والنقد السياسى استعملت فيه عبارات وأساليب غاية فى القسوة والحدةوالاتهام .

وقدوقفت الصحف فى صف أصحاب رءوس الأموال والاقطاعيين ووجهات نظر النفوذ الأجنبى من جميع المسائل التى عرضت لها فى مجال الاجتماع أو الأقتصاد أو الزراعة أو الصناعة .

ورسمت الصحافة لشخصيات لورنس وغردون وبلفور وهرتسل وفيصل وعبدالله ونورى السعيد ومصطفى فهمى سوراً من البطولة . ووصفت الأهرام ثورة سوريا ١٩٢٥ بالعصيان ووصفت الثوار بالعصاه ، كما هاجمت الاهرام ثورة عبد الكريم في المغرب ١٩٢٦ لحساب فرنسا وأنساقت فى تيار الإستعمار الخفى فنشرت هى والمقطم صفحات عن ما سمى حقوق اليهود فى فلسطين واحتفلتا بتكريم موسى بن ميمون فى دار الأوبرا وكانت وجهة نظرها بالنسبة لليهود فى فلسطين قريبة من وجهة نظر الإنجليز واليهود .

واستعملت الصحف المحايدة الأسلوب المرن الذى يحمل أكثر من معنى ، كما حملت لواء الدعوة إلى العامية ، وايد (الاهرام) النفوذ الفرنسى ودافع عنه بينما أيد المقطم النفوذ البريطانى ودافع عنه .

وكانت الصحف المحايدة قوة كبرى لاسبيل إلى مقاومتها ، فبينما كان الحزب إذا تولى الحكم يحطم صحف خصومه ، كانت الصحف المحايدة تلقى المونة والتقدير فتعيش وتقوى ويشتد ساعدها ، بينما تختفى الصحف الوطنية وتغلق أبوابها . وقد داومت الأهرام الاحتفال باعياد فرنسا ووجهت إليها التحية والتقدير : وكان يوم ١٤ يوليو هوصاحب أفتتاحية الاهرام وقالت «مى» فى هذه المناسبة (١٤ يوليو ١٩٣٠) تحية لعيد الحرية ، تحية لفرنسا ، يأمن علمت الإنسان بأن له إسما وأن له حقا ، ولكنك فى نفس الوقت أوحيت إليه بامثولة الألم والجهاد العتيد .

ودافعت الصحف عن أسلوب الهجاء، فقال حافظ عوض عنه (١٩٣١/١/٢٠) لا أعده سبا ، وإنما هو انتقاد ومداعبه ألفها الكتاب فى العهد الأخير — واحتفلت الاهرام بذكرى المائة الأولى لمولد غردون فى ٢٢ / ١ / ١٩٣٣ وعندما اشتدت حملة التبشير وحملت الصحف لواء الهجوم ، قال طه حسين : ساخرا بذلك كله « من المحقق أن الإسلام لن يضعف به (أى التبشير) وأن المسيحية لن تقوى »

ونشرت الصحف المحايدة (الأهرام والمقطم) أراء زعماء الصهيونية عن مستقبل اليهودية ومستقبل فلسطين ، كما نشرت الأهرام أراء ولكوكس فى مهاجمة اللغة العربية ووصفت حادث مقتل السردار بأنه (عصابه اجرام تلق قنبله) .

وقد دارت معركة الصحافة الحزبية فى دائرة مفرغة قوامها الدفاع عن الدستور حتى يصل الحزب إلى الحكم ، واتهام الوزارة القائمه بمختلف الاتهامات حتى تسقط .

وكان للصحافة دور خطير فى معاهدة ١٩٣٦ إذ أطلقت عليها معاهدة الشرف والاستقلال، ومن عجب أن جميع الصحف قد دافعت عنها : صحف الاحزاب والصحف المحايدة ، ذلك لأن جميع زعماء الاحزاب وقد وقعوا عليها .

وسارت صحيفة الأحرار الدستوريين (السياسة) على مذهب (الجريدة) لسان حزب الأمة على أساس مفهوم خاطىء هو «أن الأمة لا تتكون من الأفراد وإنما تتكون من العائلات . والاعيان هم رؤساء الأمة الطبيعيون لأنهم رؤساء العائلات . والسبيل إلى تحقيق مطالب البلاد هو التفاهم مع الإنجليز وقبول ما يعرضونه » .

وظهر أن تناقض الصحف من تناقض رؤساء الاحزاب فسعد زغلول يطلق كلمة (الاستقلال) بدلا من كلمة (الجلاء) وهى كلمة غامضة مبهمة ، ويعلن عندما شكلت لجنة الدستور ولم يشترك فيها حزبه بأنها «لجنة الأشقياء» وأنه كلما قرأ دستور ثروت باشا اعترته الحمى ، فإذا جاء إلى الحكم على أساس هذا الدستور قال: أنه دستور موضوع على أحدث المبادىء الدستورية وفى نفس الوقت يعلن عبدالعزيز فهمى أول واضعى الدستور أنه (ثوب فضفاض) .

ويجرى التلاعب بالالفاظ على هذا النحو ، فيقول سعد بعد فشل المفاوضات : دعونا إلى هنا لننتحر . فرفضنا الانتحار، وتقول الصحف تعليقا على استرداد سعد للاستقالة : سعد استقال من الاستقالة .

وخفقت الصحف بآيات الثناء دائما ومردداً فى ذكرى « محمد على » التى كانت تطلق عليه (الحاج محمد على الكبير) وذكرى إسماعيل ، حدث هذا بينما وقفت الصحف المحايدة من زعماء الوطن الاحرار موقف الخصومة فقالت عن جمال الدين الأفغانى (أبو اليقظة فى العالم الإسلامى) أنه رئيس جمعية سرية من المغررين ، ومنعت الكتابة عن عمر مكرم لأنه من خصوم محمد على ، وهوجم عرابى أعنف هجوم ووصف بالخيانة وحيل دون تصحيح الرأى فيه .

بعد الاستقلال

وكان سعدزغلول أول رئيس حكومة بعدالاستقلال،وزعيم حزب الأغلبية ومعبود الأمةإذا ذاك أول من إبتكر مقاومةالصحف بالمظاهرات التى تضرب بالحجارةفأعلن مهاجمة صحف السياسة والأخبار ، وهاجم خصومه بكل الوسائل والأساليب . وكانت أقلام كتابه تقطر سما . وكان هذا «تقليداً أتبعه كل من جاء بعده ، وسنة عاشت : سنة تأديب الصحف المعارضة قبل محاكمة محرريها » والواقع أن الاحزاب لم تكن لها مبادىء معينة ، تختلف حولها ، ولذلك لم تكن الصحف تسير وفق منهج معين فى النقد أوالمعارضة ؛ فالاحزاب تسعى وراء السلطة والحكم ، ولذلك لم يكن هناك مانعا من أن ينتقل أعضاءها من حزب إلى حزب ، وكذلك الكتاب والصحفيون؛ فقد انتقل طه حسين من صحف الأحرار إلى صحف الاتحاد إلى صحف الأحرار إلى صحف الوفد ، وانتقل توفيق دياب من صحف الأحرار إلى صحف الوفد وانتقل المازنى من صحف الوطنيين الى الأحرار إلى الوفد إلى السعديين وتنقل محمود عزمى بين صحف الأحرار والوفد والصحف المحايدة .

ومن هنا ظهر ذلك التناقض فى مهاجمة حزب ومدحه ، واتهام زعيم وتمجيده وهذا يعطى صورة الصحافة عند كتابها وكأنها حرفة وصناعة ، وليست مذهبا واضح المعالم،

أوعقيدة راسخة ، فالـكاتب يمكن أن يخرج من صحيفة إلى أخرى إذا زيد أجره » وربما كان معنى خروجه تغيير مذهبه السياسى أو آرائه الاساسية .

وقد هاجمت الصحف الوفدية خصمين هما : صحف الأحرار وصحف الحزب الوطنى . أما الأحرار فهم الطبقة ذات النفوذ الاسرى التى انفصلت عن الوفد واعتنقت مذهب حماية مصالح الطبقة جديدة من أعوان الاستعمار البريطانى التى تنافس الطبقة التركية القديمة نصيرة فرنسا وتركيا ، بينما تناصر الطبقة الجديدة بريطانيا .

أما الحزب الوطنى فأنه صاحب الدعوة إلى الجلاء ، وقد لقى هذا الحزب هجوما عنيفا من الوفد واتهم بالاغراق فى الخيال .

ووصفت الصحف الوفدية مصطفى كامل بأنه « شحاذ يلبس الردنجوت » واتهمت محمد فريد بأنه استقراطى ليس من الشعب .

وكان حزب الأحرار متابعة لحزب الأمة على نفس الأسس وكان أعضائه هم أبناء الجيل الثانى لمؤسسه . وكان هيكل هو خليفة لطفى السيد فى قيادة الرأى ورئاسة تحرير الصحفية .

ولم يذكر حزب الأحرار فى برنامجه كلمة الجلاء .

وكان موقف الصحف كموقف الـكتاب ، فقد ناصرت الأهرام جميع الحكومات بلا استثناء ولم تكتب كلمة هجوم واحده ضد محمد محمود أو إسماعيل صدقى أبان حكمهما الاستبدادى الذى قيدت فيه الحريات وحطمت القيم ١٩٢٩ و ١٩٣٠ .

وانتقلت بعض صحف الوفد من تأييد الوفد إلى خصومته ثم عادت إلى الوفد كرة أخرى وتحولت جريدة الشعب من مالك إلى مالك وتحول الـكتاب معها كالعبيد — على حد تعبير محمد زكى عبد القادر .

ولطالما هاجت الصحف واحداً من الزعماء أو رؤساء الحكومات واتهمته بالخيانة ثم عادت فأثنت عليه ، وضفرت له اكاليل الغار ، أمثال توفيق نسيم — الذى اتهم بالخيانة ، ثم وصف بالوطنية وقال عنه سعد زغلول أنه يستحق تقدير الوطن .

(القومية العربية)

ووقفت الصحف المحايدة من القومية العربية موقفا غامضا فكانت تسمى الدول العربية : الجارات الشرقيات . ، وكان الاستعمار البريطانى والنفوذ الفرنسى فى مصروهما المسيطران على الصحف على حرص شديد بأن لا تحمل مصر لواء الدعوة إلى الوحدة العربية أو معانى الروابط العميقة الجذور ، فإذا تحدثت عنها بين آن وآن رسمت مصر بصورة الزعامة والقيادة والتعالى عن الأمة العربية .

ولعبت المصروفات السرية دوراً كبيرا فى حياة الصحافة المصرية ، وكانت فى كثير من العهود سلاحا من أخطر الأسلحة على الصحافه : وقد قيل أن الصحافة كانت تدار بطريقة لولبية ، تعارض أو تبدو أنها تعارض ولكن لا تعنم معارضتها من أن يقبض أصحابها ثمنا (جلال الحمامصى / ك / صحافتنا) .

وقال الدكتور عزمى (رسالة الصحافة — الأهرام ٧/٤/١٩٣٦) أن بعض الصحف لها إتصالات بسفارات وأنظمة تعمل بواسطتها على تأييد وجهات نظرها الخاصة أو تقديمها الجمهور على نحو قد يبعد قليلا أو كثيراً عما تريده السياسات القومية للرأى العام من توجيه » .

وقال فكرى أباظه : أن الصحافة كانت قبل الاستقلال المزيف والبرلمانية المزيفة لا تخدم إلا الكفاح والجهاد . أما اليوم فبالرغم من إنتعاشها وإنتقاضها ويسرها وغناها وإستفحالها تعمل موظفة عند مختلف الأحزاب ، تنقل للرأى العام أوامر الزعماء وأغراض الزعماء وأهواء الزعماء وتقتتل فيما بينها ، فبعد أن كانت آمرة أصبحت مأمورة ، وبعد أن كانت موحية أصبحت تتلقى الوحى ، وبعد أن كانت وثيقة الصلة

بالشعب اتخذتها عصابات الأحزاب أداة مسخرة لشهواتها ومطامعها فدفنت رسالتها العالية الحرة المستقلة فى قبر من قبور العبودية الحزبية ورمس من رموس الموتى ؟

وقال فكرى أباظه : أن الصحفى المصرى عندنا يطمن حسب الظروف ثم يمدح إذا تغيرت الظروف ، يندفع فى كلتا الحالتين . وينسى أن يحفظ إتزانه حفظا لخط الرجعة فى المستقبل .

وقال : حذار أن تقول أن فى مصر جريدة على الحياد بين الأحزاب وأن وجدت جريدة على الحياد فاعلم أنه حياد ضعيف لا قيمة له .

وقال أن أى صحيفة كانت تقول فى الهجوم على صحيفة أخرى: الجريدة الصفراء الفكراء، جريدة الخونة ودعاة التردد والهزيمة ،ومن أى كاتب «الغبى الأحمق المأجور» .

وقال مصطفى الرافعى : لو عرفت الصحف وأهلها لرأيت أن العمل فيها من أشق الأعمال على النفوس الكريمة فهذه ليست صحفا وإنما هى حوانيت تجارة، وأنه لا يقتل النبوغ شىء كالعمل فى الصحافة فان أساس النبوغ العمق والتغلغل فى أسرار الأشياء، أما الصحافة فلها أساس غير هذا ، وحالة الجمهور تجعل للصحافة عندنا مكاناً طبيعياً لرجل السياسة قبل غيره .

وقال زكى مبارك : أن عشرات من الكتاب اشترت الحكومات المختلفة أقلامهم وقبرت مواهبهم وأعزتهم بالمرتب الثابت وكانت إجدى عليهم من شرف العمل لتحرير البلاد .

* * *

ويرجع الباحثون ضعف الصحافة إلى أنها خضعت لسيطرة جهات متعددة منها الإستعمار والقصر والأحزاب والحكومات ، ثم خضعت لسلطان رأس المال والإعلان، وكان هذا فى أيدى عملاء الصهيونية وأن عدداً كبيراً من كتاب الصحف المصرية لم يكونوا من المصريين ولذلك لم تكن عواطفهم وطنية ، وكان أغلب

أصحاب الصحفيين ومحرريها من غير المصريين أعوانا للحاكم والمستعمر ، وقد صور هذا النفوذ الكاتب البريطانى (بولسون نيومان) فى كتابه (بريطانيا العظمى فى مصر)، يضاف إلى هذا ولاء المثقفين للطبقة الحاكمة وللنفوذ الأسرى والإقطاعى الموالى للانجليز.

وقد كان للاستعمار أثره فى الصحافة فهو صانع هذا الأتجاه من النفاق والهزل والسخرية والتخدير وخداع الجماهير والتميع والبلبلة .

وقد أثر النفوذ المادى الصهيونى على الصحافة من جهة الاعلانات إذ كان الذين يتولون أمور الدعاية بالاعلانات والمقالات والأخبار فى الصحافة العربية يهوداً صهيونيون من أعداء العرب (نقولا حداد) .

وترى جريدة السياسة الاسبوعية (١٩٢٧/٣/١٩) إن الصحافة هى التى خلقت التيارات السياسية فى البلاد وعليها تبعة مافى التربية السياسية من مفاسد، وقد صورت جريدة المانشستر جارديان بعض الصحف المعارضة فى مصر (١٩٢٩/٣/٢٣) بقولها: من الغريب فى مصر أن الجريدة التى لا ترعى كرامة الصحافة تباع كالكعك الساخن بسبب مقالات تنشرها لبعض مشاهير الكتاب يستعمل فيها كل ما فى حافظته من عبارات القذف والكلام البلدى البذىء والسباب .

وقالت جريدة فريكفدرتو نستبونج أن معظم الصحف فى ايدى مسيحى لبنان الذين يحاولون تقليد أوربا ويميلون إلى فرنسا على الخصوص .

ولا ينسى فى هذا المجال الصحف التى صدرت لحساب أفراد أو غايات خاصه ووصفت « بأنها وصلت إلى احط دركات المهانة ، وهوت إلى حضيض الوضاعة والخسة . وخرجت على الاداب العامة وعمدت إلى نهش الأعراض والتعرض للشخصيات واثاره الغرائز » ويعزو بعض الباحثين إلى الاستعمار، هذا التطاحن الذى اثير بين الصحف وجعلها منقسمه تجرى وراء الرزق والمورد فلم تستطع التحرر كليه للعمل الوطنى ،وقد أصدرت الحكومات الخاضعة للاستعمار فى العالم العربى فى مختلف البلاد العربية القوانين المقيده للحرية الصحفية .

ولم تطبق هذه القوانين إلا على الصحف الوطنية ، وعلى صحف المعارضة فى إبان حكم خصومها .

ولا شك كان الاستعمار يركز على الصحافة المصرية وأهدافها ويعزلها عن الأمة العربية ويخلق بها اجواء البلبلة التى يستغلها فى العالم العربى كله نظراً لنفوذها فيه ، ولم يكن الصراع بين الصحف المحايدة كالأهرام والمقطم لحساب الوطن العربى بل كان صراعا بن نفوذى بريطانيا وفرنسا .

وإذا كان المقطم قد عنى بالشئون العربية فإنه كان إنما يحمل وجه نظر بريطانيا فيها .

وكانت الصحف المحايدة تؤيد الأفكار الغربية وتذيعها بصرف النظر على قدرة البلاد على التطور .

وقد سفت الصحافه كثيرا ولم تحاول أن ترتفع بالقارىء وكانت فى مجموع ابحاثها تعمد إلى العبارات الانشائية ، وكانت كتاباتها سريعة غير ناضجة وإنها عجزت عن أن تؤدى مهمه الصحافة الحقيقية وهى توخى المصالح العامة . واحترام المسئوليات والبعد عن التهور .

ومن العجب أن الصحف التى كانت تمثل الأقلية وأحزاب الأسر والاقطاع كانت تدافع عن الحرية وكانت تثور لحرية الرأى بينما تؤيد فى نفس الوقت الوزاره التى تعطل الدستور والحياة النيابية . مما يؤكد بأن المعانى والاراء والاقلام لم تكن إلا أدوات فى سبيل غرض معين .

وقد فسر دفاع جريدة السياسة عن على عبد الرازق فى كتابه (الاسلام وأصول الحكم) حينما كتبت جريدة السياسة عشرات المقالات فى الدفاع عن حرية الرأى — إنه كان دفاعا خفيا عن امرين . أولا : نفوذ اسرة على عبد الرازق وهى إحدى دعائم حزب الأحرار : ثانيا : خصومتها للملك فؤاد الذى كان يطمع فى الخلافة وتأييد رأى بريطانيا فى منعه من النجاح فى هذه الدعوة .

وقد ايد هيكل فى السياسة عمل (عدلى) على تحطيم وحدة الأمة بقيادة سعد ، وايد « زيور » الذى جمع البرلمان فى الظهر وفضه فى المساء، وأيد محمد محمود صاحب اليد الحديدية .

وقد دافعت صحف الأحرار والصحف المحايدة ، وبعض كتاب صحف الوفد عن تيار التغريب والارتباط بالغرب، واندفعت وراء قبول الاستيراد فى الفكر وتقبل الثقافه الغربية قبولا كاملا دون حفظ مع التبعية دون الاقتباس ، أما الصحافة الوطنية فكانت وسطا وأكثر اعتدالا وتحفظا، وكانت تدعو إلى المحافظة واتخاذ سبيل الاقتباس والتحفظ ، غير أن صوت الصحف المحايدة كان أقوى ونفوذها كان أكبر .

*

وخلقت الصحف الهازله تياراً عمل على تمويع كل القيم والمقدسات، وادخال عنصر السخرية والتهريج على الثقافة والفكر والأهداف والمثل العليا ، وقد أشار توفيق حبيب إلى أن صحف الكاريكاتير فقال إنها عملت منذ اليوم الأول على نهش الأعراض.

وقد عجزت الصحافة فى هذه الفترة عن حل المشكلات السياسية الاقتصادية والاجتماعية وكانت مقالاتها تمثل وجهات نظر معينة شخصية ، وهى وجهات نظر القصر أو الاستعمار أو الاقطاع أو الأحزاب ، ولم تتحدث الصحف عن حقوق العمال أو الفلاحين أو التعاون إلا على نحو التنفيس عن الطاقة المكبوتة .

واختفت فى هذا العهد المثالية الصحفية التى حمل لواءها أديب اسحق ومصطفى كامل ومحمد فريد وعبد العزيز شاويش وكان أخر من حمل لواءها أمين الرافعى .

كما عجزت الصحف عن قول كلمة الحق ، فى كثير من المواقف ، واضطرت إلى أن تداور ، ومن ذلك أن صحفا رفضت أن تنشر مذكرات محمد فريد لأن بها بيانات فاضحة عن تصرف اسماعيل ، وشاع أن الوكالة البريطانية تخطب ود كل لين العريكة (على حد تعبير محمد لطفى جمعه)

وفى عهود حكومات أحزاب الاقلية: الأحرار الدستوريين والاتحاد والشعب، كانت أموال الصحف تجمع بواسطة العمد والمديرين، وقد أنفق محمد محمود باشا على جريدة السياسة من ماله الخاص ما يقرب من ٥٠ ألفا من الجنيهات.

ولم تكن هناك صحف مصرية تدخل المغرب إلا جريدة الأهرام، ولا تدخل العراق وفلسطين — فى فترة من الفترات — إلا جريدة المقطم.

لاغرابة فى هذا الاضطراب الفكرى والصحفى كله فقد كانت عناصر اليهود والاتراك والسوريين والشراكس واليونان هى التى تسيطر على السياسة والاقتصاد والصحافة.

إيجابية الصحافة

وبعد فماذا كان دور الصحافة الايجابى فى الفكر العربى خلال هذه الفترة (مابين الحربين).

لقد قاومت الصحافة الاستعمار والمستعمرين وأعوانهم، ودافعت عن القيم والمقومات الاسلامية والعربية والمصرية، كما دافعت عن اللغة العربية وحرية التعليم وهاجمت المخدرات والبغاء والتبشير.

وكان ابرز ماتناولته الصحافة فى موضوعات السياسة: الاستقلال والمفاوضات والدستور والسودان، كما تناولت فى مشاكل المجتمع: تحرير المرأة والسفور والحجاب والبغاء والمخدرات والتبشير والتعاون وحقوق العامل والفلاح.

وقد كافحت لاصلاح اللغة العربية وطورتها فتحولت من الركاكة فى التعبير من ناحية والسجع والزخرف من ناحية أخرى إلى أسلوب وسط بسيط تلغرافى، ودافعت عن اللغة العربيه حين هوجمت، ودافعت عن الثقافه العربية حين اصطرعت الثقافتين الفرنسية والانجليزيه.

كما حاربت طغيان الأمراء والملوك والحكام والطغاة، وهاجمت محمد على واسماعيل وقاومت الصحافة المصرية المتمدين البريطانين أمثال : كرومر وفورست وجورج لويد
ووقفت الصحافة المصريه والعربية فى دعوة صف فى الشرق الحريه فناصرت غاندى ضد الانجليز .

وهاجمت كل من وجه إلى الوطن الاتهام ، فردت بعنف على المحامى بابا كوس الذى هاجم مصر فى (١٦ يوليه ١٩٣٣) وقال : الأكربول صاف والنيل كدر .
وحملت لواء الهجوم من الامتيازات الآجنبيه والدفاع إصدار الأحكام باللغة العربية من المحاكم المختلطه والكتابة بالعربية فى الشركات والبنوك . وتحريم الزواج بالاجنبيات وحماية الأسره وتقييد الطلاق . وتناولت أبحاث متعددة عن ابحاث المرأه وحقوقها ومشاكل الريف والصناعة ومهاجمة الاغانى للاجنة كما هاجمت الدعوة إلى نغمة الاقلية والأكثرية :

ونشرت الاهرام لمحمود أبو العيون مقالات (الصحيفه السوداء) التى هاجم فيها الاستعمار البريطانى هجوما عنيفا ، كما هاجم البغاء والتحلل فى مجموعات متعددة من المقالات .

وفتحت الصحف المصرية صفحاتها لكل أبطال الفكر العربى وأحراره : أمثال جمال الدين الافغانى شكيب ارسلان وعبد العزيز الثعالبى .

وكان كل زعماء العالم العربى البرزين فى تلك الفترة صحفيون من ذوى الاقلام الحره : مصطفى كامل محمد فريد وعبد العزيز شاويش والثعالبى وصالح بن يوسف وقائق السمرائى وأميل الغورى وعلال الفاسى وعبد الحميد بن باديس والبشير الابراهيمى
وتطورت الصحافة مرتين : من حيث اللغة ومن حيث المعنى ، وانتقلت من صحافة الرأى إلى صحافة الخبر ، وانتقلت من الجهود الفرديه إلى صحافة الاحزاب وجهود الجماعات ، وكان أبرز عناصر تطورها بعد ثورة ١٩١٩ هو العناية باخبار العالم الخارجى والخبر الداخلى والصوره .

واستطاعت رغم القيود والقوانين والاعنات أن تقاوم التغريب والاستعمار ·
وصدرت صحف سريه فى معظم انحاء العالم العربى تحمل لواء الافكار الحرة التى كانت تحول الرقابة دون صدورها ·
وأثرت الصحافة المصرية فى العالم العربى كله . وكتب بها رجال السياسة فى العالم العربى والاسلامى : ويمكن القول مع الاسف أن معظم محاكمات الصحافه لم تكن من أجل الرأى الحر فى الاغلب وانما كانت من أجل مسائل شخصية اوخلافات خاصة .
وقد كان لمؤامرة فلسطين اثرها البعيد المدى فى توجية الصحافة العربية وتحريرها من القيود المختلفة ، ودفعها إلى مواجهة الاستعمار والصهيونية مواجهة صريحة ·
ولاجدال فى أن الصحافة كانت مرآة الفكر العربى ونافذته إلى المثقفين والقراء . وان جميع معارك الفكر وموضوعات الثقافة ومفاهيمها ومعارك الوحده والتجزئة والشعوبية والتغريب كلها دارت على صفحاتها ·
وبالجملة فقد كانت الصحافة العربية فى هذه الفترة ـ مابين الحربين ـ تمثل الرد على سؤال واحد : هو البحث عن اساس لبناء قاعدة الثقافه والاجماع والفكر والاقتصاد فى الوطن العربى .
وكان للمرأة فى الصحافة العربية دور واضح ، فقد توالت كتاباتها الوطنية وكتاباتها فى شئونها الخاصة ، وقد تصدت كثيرات منهن للمحاكة ورفعن الصوت بالدعوة إلى حقوق المرأة السياسية .
وبعد : فهل يمكن أن يقال أن الصحافة العربية تستطيع أن تكون مرجعاً موثوقاً بأحكامه لكتابة تاريخ الأمة العربية فى هذه الفترة .
هذا ما يجب أن ننظر إليه بكل تحفظ ، وهو يتطلب منا دراسة أهداف كل صحيفة وهويتها أولا ، ويتطلب مراجعة آراء بعضها على البعض الآخر والتزود بكثير من الحذر واليقظة فى قبول آرائها — وأعتقد أن الاعتماد الكامل على صحيفة معينة أو صحف معينة — طال عمرها وامتد — فيه كثير من الخطأ ·

كشاف أعلام

١ — عرب

٢ — غربيون

كشاف موضوعات

موضوعات البحث

٧٢
٩

صفحة

٨ + ٦٤٨

صفحة